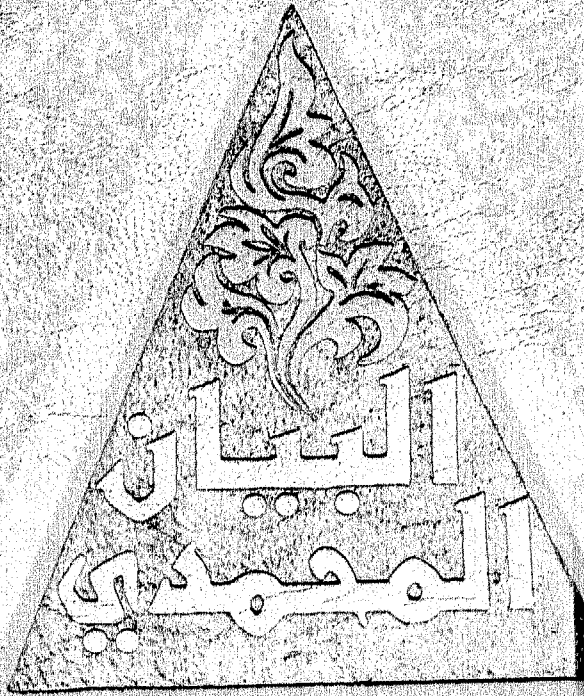
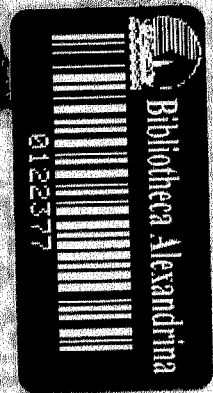


الدكتور مصطفى الشكعة



دار عربية للكتاب



الْبَيْتُ الْمَحْمُودُ

البيانا المحمدي

دكتور وطفى الشكعة

المنشور
لدار المصير رتبة اللبنانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، واهب النعم ، وبارئء النسم ، وخالق السموات والأرضين ، مالك يوم الدين ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد إمام المرسلين وخاتم النبيين ، الذى حباه ربه بالتكريم ، وحيّاه فى القرآن الكريم بالخير العميم ، فى قوله - عز وجل - : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وبعد :

فإن السيرة النبوية حافلة بأسباب الهداية ، مسددة بقوافل من النور ، يجتنى الناس منها عماد الإيمان ، ويثبتون قواعد الإسلام ، فينعمون بسعادة الدنيا ، ويحققون النجاة فى الآخرة .

ومحمد ﷺ كان مدده القرآن الكريم ، الذى أعجز الأولين والآخرين ، وأداته البيان الناصع ، والبلاغة الأسرة ، فى مجتمع عرف بالفصاحة ، وتزيّن بالشعر ، وتجمل بالبيان ، فكان محمد ﷺ سيد ذلك المجتمع أدبا وفضلا قبل المبعث ، وفصاحة وبيانا وإلهاما بعد نزول الوحي والتكليف بأمانة الدعوة وحمل الرسالة .

كان محمد ﷺ أفصح الفصحاء ، وأبين الأبياء ، وكان يعلن ذلك فى قوله الشريف : « أنا أفصح العرب بيّد أنى من قريش ، وريبت فى بنى سعد » ، وكان أبو بكر -رضى الله عنه- يقول له : يا رسول الله ؛ ما رأينا الذى هو أفصح منك . فكان يجيبه بالقول الشريف : « أدبنى ربي فأحسن تأديبى » .

لقد فاض بيان محمد ﷺ على العالمين منذ أكرمه الله بالرسالة ، وظل هذا الفيض النورانى يواكب الحقب والأزمنة ، يستضىء به المسلمون ، وينهل منه المهتدون ، وإذا

كانت السيرة العطرة في جوانبها المتعددة قد لقيت اهتماما من العلماء فرووها، ومن المؤرخين فسجلوها، وتسابقت الأجيال في روايتها، وتلاحقت الجهود في الحفاظ عليها، فإن جانب البيان المحمدي كان ولا يزال في حاجة إلى مزيد من الجهود لإبانتها، وعديد من البحوث لتجليته، هذا مع الاعتراف بفضل السابقين الذين توفروا على جوانب من بيان رسول الله ﷺ فجلّوها، وأطراف من فصاحته فدرسوها ووثقوها.

غير أن الجانب الأكبر من هذه الكنوز النبوية لا يزال محتاجا إلى مزيد من التجلية والجمع والترتيب والتوثيق، وتقديم ذلك كله في دراسة مستقلة من خلال منهج متماسك وعرض متناسق.

ولقد أكرمني الله - تعالى - بأن وفقني للاضطلاع بهذا العبء الجهد الذي بدأته منذ بضعة عشر عاما، كانت همتي خلال تلك الأعوام منصرفة إلى شرف معايشة بيان رسول الله ﷺ أجلس إليه، وأتوفر عليه، أسبح في بركاته، وأغوص في لجاته، وأقتبس من نفحاته، حتى خرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود. أسأل الله - سبحانه - أن يتقبله قربة إليه، خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون هذا العمل وسيلة إلى شفاعة رسول الله ﷺ وذريعة إلى السقيا من حوضه رشقات لا أظمأ بعدها أبدا، وسيلا إلى الاستظلال برأيته يوم البعث الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

لقد جاء هذا الكتاب في عشرة أبواب، تضمّن كل باب عددا من الفصول، يقل عددها ويكثر طبقا للزيادة المقدمة، واستثناسا بالمنهج الذي جعلناه رائدا لهذه الدراسة.

لقد جعلنا عنوان الباب الأول « سمات الرسول وصفاته وشأئله في الجاهلية والإسلام »، وقد جاء الباب في فصول أربعة، تناول الفصل الأول جانبا من سيرته ﷺ قبل المبعث وبعده، فذكرنا رضاعته في بني سعد، واستسقاء جده عبد المطلب به وهو غلام، واحتكام قريش إليه في وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة، وإسهامه في حلف الفضول الذي ذكره ﷺ بعد المبعث في قوله: « لقد شهدت في دار عبد الله

ابن جدعان حلّفا ما أحبّ أن لي به حمر النعم ، لو دعى به في الإسلام لأجبت » كما ذكرنا زواجه من خديجة رضى الله عنها .

وفي نفس الفصل جاء ذكره ﷺ بعد المبعث ابتداء من نزول الوحي ، وموقف كل من خديجة وعمه أبى طالب بجواره ، يشّدان من أزره ، ويساندانه في الدعوة إلى رسالة السماء ، وقد ورد في هذا الجزء من هذا الفصل ذكر صفته ﷺ كما أوضحها هند بن أبى هالة ، وعلى بن أبى طالب ، وأبو هريرة ، وحسان ، وعائشة ، والبراء بن عازب ، وغيرهم ممن عونا بوصف رسول الله ﷺ كما ضم هذا الفصل وصف أبى سفيان بن حرب لرسول الله حين استقدمه قيصر الروم وسأله عن طبيعة رسول الله ودعوته .

وتناول الفصل الثانى « فصاحة رسول الله ﷺ » ونماذج من أقواله في نطاق الإيجاز والتوسط والإطناب ، مع ذكر قوله ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، وربيت في بنى سعد » وقوله : « أوتيت جوامع الكلم » .

واشتمل الفصل الثالث على « أدب الحوار في كلام رسول الله » سواء أكان ذلك مع المهاجرين أم الأنصار ، ونماذج من حوارهم مع الوافدين عليه مثل ضمام بن ثعلبة ، ووائل بن حجر الحضرمى ، والطفيل بن عمرو الدوسى ، هذا فضلا عن حوارهم مع عبد الله بن سلام في المدينة ، ومع سقانة بنت حاتم الطائى وأخيها عدى ، واليهودى زيد بن سعنة الذى اعتنق الإسلام بعد حوار جرى بينه وبين الرسول ﷺ وكان زيد هذا واحدا من أحرار اليهود قبل إسلامه .

وتناول الفصل الرابع جانبا من فصاحة رسول الله ﷺ في نطاق لغات القبائل التى كان يجهلها أهل الحجاز ، وذلك في حوارهم مع الوافدين عليه ، أو العائدين إلى قبائلهم من أمثال طهفة بن زهير النهدى ، وجرير بن عبد الله البجلي ، وخزيمة بن ثابت السلمى ، وقد تبدّت فصاحة الرسول في حوارهم معهم بلغاتهم ، أو في الكتب التى زودهم بها ، وولاهم من خلالها أمر قبائلهم بعد أن أعلنوا إسلامهم .

وفي الباب الثانى تناولنا بالدراسة كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك من قياصرة وأكاسرة وأقيال وملوك ورؤساء قبائل يدعوهم إلى الإسلام ، وقد جاء الباب في ثلاثة فصول ،

تناولنا في الفصل الأول استعراض رسائله مع الملوك والرؤساء من أهل الكتاب، مثل قيصر وقد حمل الكتاب إليه دحية الكلبي، والمقوقس وقد حمل الكتاب إليه حاطب بن أبي بلتعة، والنجاشي وقد حمل الكتاب إليه عمرو بن أمية الضمري، وأوضحنا بشيء من التفصيل موقف كل ملك من هؤلاء الملوك من دعوة الرسول، مثل عناية هرقل بالكتاب، ورقة المقوقس في استقبال حامل الكتاب وحسن رده، كما عرضنا لتحقيق استجابة النجاشي لدعوة رسول الله واعتناقه الإسلام، وتوليننا الرد على المستشرقين وبعض تلامذتهم من بنى جلدتنا الذين حاولوا بوسائل مختلفة نفي استجابة النجاشي إلى دعوة الإسلام، وبالتالي نفي اعتناقه للحنيفية السمحة.

وفي الفصل الثاني تناولنا بالدراسة والتحليل كتب رسول الله ﷺ إلى غير أهل الكتاب من أعاجم وعرب، وقد كان كبير الأعاجم - كسرى - قد أساء استقبال حامل كتاب رسول الله عبد الله بن حذاقة السهمي ومزق الكتاب في غلظة واستكبار، وتعليق رسول الله ﷺ على الخبر، وماتنبأ به من سقوط ملك كسرى سريعاً.

وأما ملوك العرب الذين استجابوا للدعوة فور أن استقبلوا كتب الرسول وحاملها فهم جيفر وعبد ابنا الجلندي مَلِكَا عَمَّان ، والمنذر بن سَاقَى ملك البحرين، وأكثم ابن صيفى الذى صحب قومه إلى المدينة للمثول بين يدي رسول الله، ولكنه مات في الطريق قبل أن يصل ركبه إلى المدينة، وكان قد أعلن إسلامه قبيل وفاته.

بقى اثنان تمردا على دعوة رسول الله ورفضا كتابه إليهما، وهما هودبة بن علي ملك اليمامة الذى طلب أن يكون له شيء من الأمر، فلم يُسَلِّمْ وباد ملكه، ومسيلمة الكذاب، وخبره معروف.

وتناولنا في الفصل الثالث استعراض كتب رسول الله ﷺ التى اصطحبها معها الوفود العائدة إلى أقوامهم، وفي مقدمتهم ذو المشعار الهمداني، وطهفة النهدي، ووائل بن حجر الحضرمي، وقطن بن حارثة العليمي الكلبي، ومالك بن مرارة الحميري، وكانت هذه الكتب - طبقاً لما أسلفنا القول - مشحونة بالغريب من الألفاظ، مليئة بغير المأنوس من الكلمات، جرى ذلك في كلام رسول الله في يسر

وانثيال، وفيها أعطاهم الرسول عهداً بالسيادة على أرضهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة واستمسكوا بتكافل الإسلام.

وكان موضوع الباب الثالث من هذا الكتاب « عهد الرسول ومعاهداته » ومثلما أن الرسول هو الصادق الأمين، وكذلك كانت عهوده متممة بالصدق، موسومة بالأمانة، مقرونة بالوفاء نصاً وروحاً، شكلاً وموضوعاً.

إن هذا الباب طويل نسبياً، ومن ثم فقد ضم ستة فصول، كان الفصل الأول عن العهود في القرآن الكريم وتطبيق رسول الله ﷺ لها، وتناول الفصل الثاني عهد ما قبل الهجرة، وفي مقدمتها عهده ﷺ لتميم الداري حين سأل الداريون الرسول أرضاً فوهبهم إياها. ومن عهد ما قبل الهجرة بيعة العقبة الأولى التي مثلت أولى مراحل دخول الإسلام إلى يثرب، ثم بيعة العقبة الثانية وكانت في السنة التالية في أواسط أيام التشريق، وفيها بايع المسلمون من أهل المدينة رسول الله ﷺ بيعة المناصرة والحفاظ عليه وعلى الدعوة، وهي البيعة البعيدة الأثر في مسرى الدعوة الإسلامية، وقد كان العباس عم رسول الله شريكاً فيها في جانب الرسول على الرغم من أنه لم يكن بعد قد أعلن إسلامه.

وفي الفصل الثالث عرضنا وثيقة المودعة بين المسلمين واليهود في المدينة، وقد أملى الرسول هذه الوثيقة بعد خطوات ثلاث تمثلت في بناء مسجد قباء، ثم بناء مسجده بالمدينة، ثم المواخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم كانت وثيقة المودعة سالفة الذكر التي تكونت من سبع وأربعين مادة، وبعقد هذه الوثيقة نشأت دولة المدينة التي قامت على أساس المواطنة الإسلامية، وتمثل هذه الوثيقة خطوة أولى وأساسية في نظام الدولة الحديثة، ومن أهم موادها أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومنها أن من خرج من المدينة فهو في أمان، ومن قعد فهو في أمان إلا من ظلم وأثم، ومنها المادة الفريدة التي فحواها: « من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ».

وفي شأن هذه المعاهدة نقرر ما قرر غيرنا من المهتمين بدراسة المعاهدات في الماضي

والحاضر أنه لم يمهد لليهود احترام في التاريخ مثلما مهدت لهم هذه الوثيقة ، ولكنهم لا يحفظون عهدا .

والفصل الرابع خصصناه لصلح الحديبية - أو معاهدة الحديبية ، كما يسميها بعض دارسى السيرة - وقد كانت سنة ست من الهجرة ؛ إذ خرج الرسول من المدينة يريد العمرة وفي صحبته ألف وأربعمائة صحابي يريدون تأديتها معه ، وقد حفلت الحديبية بأحداث كثيرة ، منها تلك المفاوضات المتلاحقة التي جرت بين الرسول ومشركى قريش ، ومنها احتجاج عثمان بن عفان حين قام بتمثيل رسول الله في محادثات الحديبية داخل مكة ، ومنها بيعة الرضوان التي كانت مهرجانا إسلاميا للشهادة والفداء ، وفيها بايع المسلمون الرسول على قتال قريش ، وفيها حيّا الله المؤمنين ، فنزل قوله الكريم :

﴿ الْقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

وفيها كان الصلح على أن ينصرف المسلمون عائدين إلى المدينة ، ثم يعودوا في العام القادم ، وأن تضع الحرب أوزارها عشر سنين فضلا عن بقية الشروط التي جاءت في ذلك الفصل .

ثم نزول سورة الفتح التي بشر الله فيها المؤمنين بفتح مكة في قوله - عز وجل - :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ

نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴾

ومن المعجزات الربانية أنه لم يمض على صلح الحديبية عامان حتى فتحت مكة .

وفي الفصل الخامس عرضنا لعهود الرسول ﷺ مع نصارى الشام : مع صاحب أيلة ، ومع أهل مقنا . ثم مع نصارى نجران .

كما تناول الفصل السادس عهوده ﷺ لكل من ثقيف واليمن .

والباب الرابع كان موضوعه « خطب الرسول ﷺ » وإنه ليس بغائب عن الخواطر أن رسول الله ﷺ هو سيد الفصاحة وإمام البيان ، ومن ثم فإن خطبه هي سيدة الخطب

فصاحة وبيانا وحكمة وتبيانا، ومن هنا تظهر أهمية هذا الباب بشكل خاص .

ولقد قسمنا هذا الباب إلى أربعة فصول، عرضنا في الفصل الأول للخطابة قبل الإسلام، وأشهر خطباء العرب آنئذ .

والفصل الثاني خصصناه لخطبه ﷺ في الدعوة إلى الله، والوعظ، والتربية وحسن التوجيه، وحب الله، وحب القرآن، وحب الناس، وأول خطبة خطبها في المدينة، وخطبة أول جمعة في المدينة .

والفصل الثالث تضمن فتح مكة وخطبته ﷺ وساحته يوم الفتح، وعدداً آخر من خطبه يوم الأحزاب، وخروجه المعلن إلى تبوك، ونباذج من سلوك صحابته، وكثرة الأحداث المواكبة لتلك الغزوة المتميزة .

وأما خطبة الوداع فقد أفردنا لها فصلاً مستقلاً هو الفصل الرابع، وذلك لأهميتها بلاغةً وشريعة، فقد تضمنت هذه الخطبة الوصايا الأخيرة لرسول الله ﷺ وبها استكملت الشريعة أحكامها، ففيها القول الفصل في تحريم الربا، وحرمة الدماء، وإعلان المساواة بين الناس، وتشريع الدية في قتل الخطأ شبه العمد، وصلاح الأسرة، والوصية بالنساء ما لهن وما عليهن، وحق الزوج وحق الزوجة، والتوريث، وغير ذلك مما حوته خطبة الوداع من أحكام .

والباب الخامس من هذا الكتاب خصصناه لـ « أدعية الرسول وروحانياته » وقد جعلناه في فصلين اثنين، فأما الفصل الأول فموضوعه « الدعاء والتساييح والابتهالات » ومن الطبيعي أن يكون هذا الفصل مثابة كبرى لروحانيات رسول الله ﷺ فهو كثير التعبد، كثير التسبيح، كثير الدعاء، كثير الصلاة، إنه ﷺ يدعو الله عند الأذان، وقبل الصلاة وبعدها، ويدعو الله في الصباح والمساء والليل، فلكل وقت دعاء، ثم دعاء القنوت، والاستخارة، ودعاء سجود التلاوة .

وتمت أدعية التعبد والتهجد والتساييح والابتهال، وهنا أيضاً سيد الاستغفار:

« اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما

استطعت، أبوء لك بنعمتك، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أعوذ بك من شر ما صنعت» .

وللرسول ﷺ دعاء التهجد المشهور لدى المتقين :

« اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . . . » إلى آخر هذا الدعاء الرباني الوضيء .

ولرسول الله ﷺ دعاؤه الشهير في الطائف بعد تعرضه للأذى الشديد من قبيلة ثقيف إثر مطاردة الصبية له بالحجارة: « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين . . . » .

لقد حفل هذا الفصل بكثير من المدد الروحاني الذي علمنا الرسول إياه حتى نكون - نحن العبيد - على صلة دائمة برب العزة، تزيدنا ذلاً وقرباً إليه، وتزيدنا عزة ومنعة أمام خلقه .

والفصل الثاني من هذا الباب أفردناه للأحاديث القدسية من حيث موضوعاتها والتعريف بها، وكونها نورانية في مجملها، إشراقية في وجهتها، ففيها تنزيه الخالق عن الولد والشريك، وفيها التوحيد والتمجيد، والحمد والخشية، وفيها فضل العبادات وثوابها، وفيها ذكر الله، والتوبة، والشهادة، والجهاد، والصبر، وفيها الحشر والنشور، والجنة والنار، وفيها السماح والمغفرة، وفيها شفاعة محمد ﷺ الذي نسأل الله أن نكون أهلاً لشفاعته .

وكان لبّ اهتمامنا في الباب السادس وصايا النبي ﷺ وهي وصايا ونصائح تحمل كل المسلمين إلى مرافء السعادة وشواطئ الإيمان، وقد جعلنا هذا الباب في ستة فصول، تناول الفصل الأول وصاياهم ﷺ إلى صحابته من قواد ومعلمين، فإن وصاياهم إلى قواد السرايا تشكل مدارس في قيادة الجيوش، وقد أوردنا وصيته لعمرو بن العاص حين أخرجته إلى ذات السلاسل من بلاد قضاة، كما تمثلنا لوصاياهم للصحابه بوصيتين اثنتين، إحداهما لمعاذ، والثانية لأبي الدرداء، تشتركان في عدد من القضايا، وتكمل

إحداهما الأخرى، ومن الوصايا البارزة تلك التي أوصى بها أبا ذر، وهي تضم بين دفتيها ثلاث عشرة وصية، وقد شرحناها بالتفصيل، كما ضم هذا الفصل عدداً آخر من وصايا ﷺ للنساء، وبخاصة وصيته لفاطمة، ووصيته لأم أنس.

واشتمل الفصل الثالث على وصيتين، إحداهما تعد من أنفس الوصايا وأقصرها؛ لأنها وقعت في كلمتين اثنتين، وهي وإن كان الذي تلقاها رجلاً مغموراً إلا أن قيمتها عند جمهرة المسلمين تمثل جوهر بناء للنفس المسلمة، وهي قوله ﷺ: « لا تغضب ». وأما الوصية الثانية فكانت موجهة إلى رجل غير مسلم، انتهت به إلى مدارج الإيمان، فصار صحابياً معروفاً، هو أبو جرّ جابر بن سليمان.

والفصل الرابع جعلناه مختصاً بوصايا ﷺ بطلاب العلم، ولما كان طلب العلم فريضةً على كل مسلم طبقاً لحديثه الشريف فإننا نتوقع إقبال الجحافل من الشباب على الجلوس في حلقات العلم يسمعون من أصحابه، ويتلقونه من رجاله، وفي هذا المجال ردّدنا قول رسول الله ﷺ: « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا: مرحبا بوصية رسول الله ».

وكان موضوع الفصل الخامس هو وصايا ﷺ إلى الخليفة من بعده، وجمهرة الصحابة وسائر المسلمين.

ولما كان للأنصار شأنهم في مسيرة الدعوة ومكانتهم الخاصة عند رسول الله ﷺ فقد كانت وصيته بهم حافلة بذكر أفضالهم، أمرة الصحابة بإكرامهم وتكريمهم، وغض الطرف عما يبدر من بعضهم من هنات، فكثيراً ما كان ﷺ يقول: « الأنصار كرشى وعييتي » ومن ثم كانت وصية النبي بالأنصار هي آخر وصايا.

والباب السابع من كتابنا هذا خصصناه للأمثال النبوية السائرة، وقد كانت الحكمة تسرى في حواشي كلام رسول الله ﷺ حتى إن كلامه - باستثناء القليل منه - يشكل أمثالاً حكيمة سائرة، ومن ثم كان اهتمام جامعي الأمثال كبيراً بأمثال رسول الله ﷺ وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

تناولنا في الفصل الأول دراسة عن الأمثال والذين ألفوا كتباً فيها، وهم كثيرون، ثم

الأمثال النبوية وحدها، وأن أشهر من ألف فيها مكتفياً بها عن غيرها هو ابن خلد
الرامهرمزي.

ثم جعلنا الفصل الثاني مختصاً بموضوعات الأمثال النبوية السائرة، وقد شملت
هذه الأمثال كل شيء في حياة المسلمين من عبادات ومعاملات وحياة اجتماعية وثقافية
وتعليمية وعسكرية، وكل ما هو موصول الأسباب بأمر الدين والدنيا.

وأما الفصل الثالث فقد جعلناه لعرض نماذج قدمناها من ثلاثة كتب كانت أكثر
عناية من غيرها بأمثال رسول الله ﷺ وهي: الأمثال لأبي عبيد، وأمثال النبي لابن
خلاد الرامهرمزي، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري.

والباب الثامن في كتابنا هذا هو « أسلوب القرآن وأسلوب النبي » وقد جعلناه في
أربعة فصول:

الفصل الأول عنوانه « التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله » هكذا فعل المؤمنون
الأولون، وهكذا وقف المشركون أمامه متحيرين بدافع من فطرتهم البلاغية؛ لأن
سماهم القرآن كان يهزمهم هزاً.

ولقد ضربنا لذلك عدداً من الأمثلة، منها: عتبة بن ربيعة حين ناب عن أعيان
قريش في التحدث إلى رسول الله ﷺ كي يشنيه عن الدعوة إلى الله، فأسمعه النبي:
﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ آعْرَضُوا فَقُلْ
أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فقال عتبة لقريش: فكأن الكعبة مالت
حتى خفت أن تمس رأسي من أعجازها.

ومثله أيضاً الوليد بن المغيرة الذي يسمع السورة نفسها فيقول عن القرآن الكريم
ذلك القول الجميل الذي ذاع على ألسنة القرآنيين: إن أعلاه لمورق، وإن أسفله
لمعذق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وليس هذا من كلام البشر.

ومثال ذلك أيضاً البدوي الذي سمع رجلاً يقول: ﴿ فَأَصْدَعَ بِمَا تَوَمَّرُ ﴾ فخر
ساجداً يقول: سجدت لفصاحة هذا الكلام.

والفصل الثاني جعلنا عنوانه « القرآن معجزة محمد ﷺ » وفيه عرضنا لوجوه الإعجاز عند عدد من العلماء المعنيين بموضوع إعجاز القرآن الكريم وبخاصة الخطابي والباقلاني وأبي الحسن الماوردي، ثم عرضنا وجوه الإعجاز عند كل واحد من هؤلاء العلماء بشيء من التفصيل، مع الإشارة إلى وجهة نظر الباقلاني في الفرق بين أسلوب القرآن وكلام الرسول.

وفي الفصل الثالث قدمنا نماذج اختيرت تلقائياً من الكتاب العزيز من سور: فصلت، المؤمنون، الرعد، الكهف، الحج، فاطر، البقرة، آل عمران، النور، الإسراء.

إنها مجرد نُقول مما وقعت العين عليه دون اختيار سابق أو اعتبار متعمد، كما نقلنا نماذج أخرى من كلام الرسول ﷺ سواء من حكمه أو توجيهاته أو خطبه، فإذا هي فوق كلام الشعراء والخطباء والحكماء والأبيناء، إنها في إشراقها فوق كلام البشر ودون كلام الله.

والفصل الرابع خصصناه لعرض تناول القرآني والتناول النبوي لقضايا بعينها عاجلها القرآن، وتحدث فيها رسول الله ﷺ مثل: رحمة الله، الجهاد في سبيل الله، اليتامى والمساكين، مكانة الأنصار ومحبتهم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ألمحنا إلى موضوعات الربا، الظلم، طلب العلم، كنز المال، وغير ذلك. فإذا كلام الله معجز بإطلاق، وإذا بكلام الرسول دون كلام الله وفوق كلام جميع الناس.

والباب التاسع خصصناه لموقف رسول الله ﷺ من الشعر، وجعلنا عنوانه « الرسول والشعر » وهي قضية تبدو لأول وهلة وكأنها شائكة تحتاج إلى حرص في التناول وتردد في إصدار الأحكام، ذلك أن نصوصاً ثلاثة تفرض نفسها على الباحث الذي يعالج تلك القضية: نصاب من القرآن الكريم، ونص من الحديث الشريف، فأما النصاب القرآنيان فهما قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَبًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ (١) وقوله تعالى:

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (١)

وأما الحديث الشريف فهو قوله ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قبيحا خيرا من أن يمتلئ شعرا » .

لقد ذهب قلة من المفسرين إلى أن هذه النصوص تفيد تحريم الشعر، غير أن الأمر ليس كذلك ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ يعني أن الله - سبحانه - لم يمنح محمداً ﷺ ملكة الشعر؛ لأن محمداً أسمى مكانة وأرفع مرتبة من أن يكون شاعرا، وكان ذلك ردا على الذين ظنوا أن محمداً شاعر، وأن القرآن شعر؛ ولذلك كانت بقية الآية ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْاَذِكْرُ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وأما الآيات التي جاءت في سورة الشعراء فإن المقصود بها الشعراء العابثون الذين يقولون الشعر المنحرف الذي ينال من أعراض الناس، وينتقص من مروءاتهم، أما الشعراء المؤمنون الذين يحسنون القول ويعملون من الشعر أداة للدفاع عن الفضيلة ووسيلة لمكارم الأخلاق، فهؤلاء هم الذين عنتهم الآية الكريمة بالاستثناء؛ لأنهم مؤمنون يعملون الصالحات، ويذكرون الله، ومن ثم يكون الحديث الشريف الذي استتبع حفظ الشعر إنما يقصد ذلك الشعر الذي يتخذ وسيلة للإضرار عوضا عن أن يكون أداة نفع وهداية .

ولقد كان شعراء رسول الله فرسان الكلمة، خاضوا معارك الدعوة والدفاع عنها والذود عن حياضها بأقلامهم وأشعارهم، مثلما خاضها غيرهم من الصحابة بسيوفهم ورماحهم، بل إن من بين شعراء رسول الله من خاض المعارك بشعره وسيفه مثل عبد الله ابن رواحة الذي دافع عن الرسول و زاد عن الدعوة بشعره، مثلما اشترك فيها بسيفه قائدا لجيش المسلمين في غزوة مؤتة، وظل ممسكا بسيفه إلى آخر قطرة في دمه، ونال شرف الشهادة في سبيل الله .

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ .

لقد قام الشعر بمهام عظيمة في صحبة رسول الله ﷺ ومن هنا كان هذا الباب أطول من غيره من أبواب هذا الكتاب؛ إذ تضمن تسعة فصول:

فالفصل الأول تعامل مع قضية « الرسول وموقفه من الشعر » وفيه تناولنا حقيقة أن الرسول لم يقل الشعر، ورفضه للشعر القبيح، ولكنه كان يستمع إلى الشعر الجاد ويمتدحه ويطرى صاحبه، وهو ﷺ القائل في أكثر من مناسبة حال استماعه إلى شعر جيد: « إن من البيان لسحرا » وقال لخفاف الثقفي حين أنشده شعرا جميلا: « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة ». وحين سمع بيت سويد بن عامر المصطلقى:

لَا تَأْمَنَنَّ وَإِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ
إِنَّ الْمَنَايَا بِكَفَى كُلِّ إِنْسَانٍ

قال: « لو أدركته لأسلم ».

وكان ﷺ يردد الشعر مع الصحابة يوم أحد لما دميت أصبعه متمثلا قول عبد الله بن رواحة:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِضْبَعُ دَمِيَّتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ

وكان عنوان الفصل الثانى « شعراء الصحابة يمدحون الرسول » والشعراء الصحابة من الكثرة بمكان، وكانوا يتسابقون في مدح رسول الله ﷺ بالقول الجميل والشعر الأخاذ، وفي مقدمتهم حسان بن ثابت، والعباس عم رسول الله ﷺ والعباس بن مرداس السلمى، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومالك بن نمط، وعمرو بن سالم الخزاعى، وأنس بن زنيم، وخفاف بن نضلة الثقفى، وبجير بن زهير بن أبى سلمى.

كان هؤلاء الشعراء وغيرهم يطلبون إليه ﷺ أن يستمع إليهم ينشدون مدائحهم فيه، فكان يستجيب لهم، تكريرا لهم، وتشجيعا لقرائهم.

وكان الفصل الثالث فى « استسقاء النبى ﷺ » لقد كان الشعراء يناشدون الرسول

الاستسقاء بشعرهم ، وقدما أكثر من مثال في ذلك ، منها استسقاء جده عبد المطلب لقومه حين كان الرسول غلاما ، وقد رفعه جده على عاتقه .

وكان الرسول من سماحة النفس وبشاشة الوجه بحيث يطلب من الصحابة أن ينشدوه شعرا قاله عمه أبو طالب - وكان أبو طالب شاعرا مجيدا مقلداً - وقد استسقى به ﷺ وهو طفل .

وخصصنا الفصل الرابع للرسول وخبر قس بن ساعدة ، وكان قس بن ساعدة حكيمًا فصيحًا خطيبًا شاعرا يؤمن بالله وبالبعث والقيامة ، كان الرسول يسأل الصحابة من منهم يروى أبيات قس :

في الذاهيين الأولين من القرون لنا بصائر

وأبياتا أخرى له ، فيسارع بعض الصحابة إلى إنشادها بين يديه ، فيقول ﷺ : «يرحم الله قسا ، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده» .

ومثلما خصصنا قس بن ساعدة بفصل وحده ، فقد خصصنا كعب بن زهير وخبر إسلامه بفصل مستقل به أيضا هو الفصل الخامس . إن كعبا بعد أن كان لسان سوء في حق الدعوة وصاحبها ﷺ يثوب إلى رشده بتوجيه من أخيه بجير ، فيذهب إلى رسول الله ويدخل إليه في مسجده عند صلاة الصبح ويعلن توبته ، ثم ينشده قصيدته الشهيرة «بانث سعاد» فيحسن الرسول الاستماع إليه ، ويخلع عليه بردته ، وحين عرض كعب بالأنصار في بيت من قصيدته بسبب موقف بعضهم منه طلب إليه الرسول أن يمدحهم ، فاستجاب إلى طلب الرسول ﷺ ومدحهم بأبيات رقيقة .

وكان عدد من صحابييات رسول الله شاعرات مجيدات ، ومن ثم أفردنا هن فصلا في هذا الباب هو الفصل السادس ، وجعلنا عنوانه « الصحابييات الشاعرات » اللاتي تأتي في مقدمتهن الخنساء ، وكان الرسول ﷺ يستمع إليها مستحسنا شعرها ، ومنهن صفية عمة رسول الله ، ونعم امرأة الصحابي شماس بن عثمان ، وقد قالت في رثائه أبياتا من أرق ما قيل في الرثاء ، وقتيلة بنت النضر التي أسمعت رسول الله رثاءها في أبيها ، وكان أسر وقتل يوم بدر ، فتأثر رسول الله عند سماعه أبياتها وقال : « لو بلغني هذا قبل

قتله لمننت عليه « وفي سياق الفصل عرضنا للشياء - أخت رسول الله من الرضاع -
وشعرها فيه طفلا، ثم شعرها حين وقعت في السبى يوم حنين وهو لا يعرفها، وما كان
من إكرامه لها، وهند بنت أثاثة التي كانت تناقض شعر هند بنت عتبة في أبياتها في
مقتل حمزة عم رسول الله ﷺ.

ولقد تضمن الفصل السابع « الشعر عام الوفود » حيث كانت القبائل تبعث
بوفودها إلى المدينة ومعهم خطباءؤهم وشعراؤهم يعلنون إسلامهم ويبايعون رسول الله
ﷺ مثل همدان، وجهينة، وبنى عذرة، ومزينة، وبنى كلب، وبنى قشير، وبنى
تميم، لقد صنعت بعض هذه الوفود ما يشبه مهرجانات للشعر، وكان من أشهر هذه
الوفود التي احتفلت بالشعر على نطاق واسع وفد تميم وعلى رأسهم عطارد بن حاجب
ابن زرارة، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وجرت مباريات في الخطابة والشعر
بين خطباء الرسول وشعرائه وخطباء تميم وشعرائها، كان الفوز فيها لشعراء رسول الله
وخطبائه، وكان لحسان القدح المَعْلَى في ذلك، حتى إن الأقرع بن حابس قال: إن هذا
الرجل - يقصد الرسول - لمؤتَى له، لَخَطِيبِهِ أَخْطَبُ من خطيبنا، وَلَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ من
شاعرنا!!

كان عام الوفود علامة من علامات النصر للإسلام والمسلمين، القبائل تتوافد
يتقدمها شيوخها، والشعراء يتسابقون في إعلان إسلامهم، وتقديم البيعة لرسول الله
ﷺ.

وتناولنا في الفصل الثامن شعر الغزوات والسرايا، وهو كنز نفيس وتراث جليل
اشتمل على نماذج من الشعر في غزوة الخندق، وبنى قريظة، ومؤتة، وفتح مكة، وغير
ذلك، وكان أبطال شعراء المسلمين في هذه الغزوات حسان بن ثابت، وعبد الله بن
رواحة، وكعب بن مالك، والعباس بن مرداس، وغيرهم من شعراء الدعوة، وكانت
ثمت معارك شعرية أخذت شكل النقائض بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين، ومن
الأخبار الطريفة أن بعض شعراء المشركين أعلنوا إسلامهم يوم فتح مكة، ونقضوا كل ما
سلف لهم من شعر، واستنكروا كل ما صدر عنهم من قول، وعلى رأسهم عبد الله بن
الزبيرى.

وكان الفصل التاسع والأخير في هذا الباب مخصصا لمراثى شعراء الرسول لشهداء الغزوات . إن القدر من الشعر الذى قيل في هذا الغرض من الكثرة بمكان ، ومن الوفرة بمقدار ، ومن الرقة وجَيِّشَان العاطفة بحيث فرض نفسه على مسيرة الشعر العربى في موكب الدعوة الإسلامية الباكرة .

كانت أكثر المناسبات وفرة في الرثاء غزوة أُحُدٍ إثر استشهاد عدد كبير من الصحابة ، وعلى رأسهم حمزة عم رسول الله الذى استأثر بأكبر قدر من قصائد الرثاء ؛ وذلك لمكانته بين الصحابة ، ولحزن رسول الله عليه حزنا شديدا .

لقد شكّل شعر غزوة أحد معركة شعرية كبرى ، خاضها من الجانب الإسلامى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . ومن جانب المشركين عبد الله ابن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، وهبيرة المخزومى ، وعمرو بن العاص ، بل لقد اشتركت فيها بعض الشاعرات مثل صفية عمة رسول الله وشقيقة حمزة ، ونُعْمُ من جانب المسلمين ، وهند بنت عتبة من جانب المشركين .

كان محور المعانى التى دارت عليها المعركة الشعرية الإيذان بالله ، والعزة بالإسلام ، وحب الاستشهاد فى سبيل الله ، ونعت الجانب الآخر بالشرك والضلال ، وأما محاور معانى الشعر عند المشركين فلم تزد عن طَرْقِ المعانى الجاهلية ، والافتخار بقتل حمزة ورفاقه .

ومثلما نشط شعر الرثاء بعد موقعة أحد ، فإنه قد ازداد نشاطا أيضا بعد غزوة مؤتة حيث استشهد أمراء الجيش الثلاثة الواحد بعد الآخر: زيد بن حارثة ، ثم جعفر بن أبى طالب ، ثم عبد الله بن رواحة ، وقد استأثر جعفر بالنصيب الأوفر من قصائد الرثاء لمكانته الخاصة عند رسول الله ؛ فهو ابن عمه - وأول المهاجرين إلى الحبشة ، وهو واحد من أقرب رجال بيت النبوة شبها برسول الله ، ولشدة حزن الرسول لموته وبكائه عليه حتى انتحب ، وكان الرسول ﷺ يقول له : « أشبهت خَلْقِي وَخُلُقِي » .

ومن عجائب غزوة مؤتة أن عبد الله بن رواحة ثالث أمراء جيشها كان قد رثى نفسه بأكثر من مقطوعة شعرية وهو فى طريقه إلى أتون المعركة .

والباب العاشر والأخير من كتابنا هذا، موضوعه « الأنواع البلاغية في كلام رسول الله ﷺ » .

لقد وجد البلاغيون والنقاد ثروة كبيرة، وزادًا وأفرا من الموضوعات البلاغية في كتاب الله وكلام رسول الله ﷺ .

ولما كان البلاغيون قد حصروا الأنواع البلاغية في أقسام ثلاثة، هي : المعانى، والبيان، والبديع، ثم وضعوا تحت كل قسم ما يتناسب معه من أنواع، فقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

اختص الفصل الأول بعلم المعانى وما يقع في إطاره من أنواع، وإذا كان البلاغيون قد حصروا مسائل علم المعانى في عشرة موضوعات، فإن الذى نتعامل معه منها في مجال الكلام النبوى أربعة فقط، هي : الإيجاز، والإطناب، والإبهام والتفسير، والمساواة .

ولقد تمثلنا للإيجاز بنماذج كثيرة من كلام الله، وكلام الرسول، وهو فى الحقيقة إيجاز وإعجاز، وتناولنا الإطناب من خلال المنهج نفسه فى الكتاب والسنة، ثم عرجنا على الإبهام والتفسير، وهو كثير فى كتاب الله، وفير فى كلام رسول الله، ثم عرضنا للمساواة فى كلام الرسول، وهو بحر واسع ما بين الشاطئين؛ لأن الأصل فى كلام رسول الله هو التوسط والمساواة، فهو سمت الغالب على كلامه ﷺ ولقد أجرينا تطبيقات كثيرة، وعرضنا نماذج متنوعة .

والفصل الثانى من هذا الباب خصصناه « للبيان » وكان أول ما عنيانا به فى هذا الفصل هو موضوع التمثيل والمماثلة، وهو كثير فى كتاب الله، وكلام رسول الله ﷺ وقد جرى التمثيل فى كلام الرسول فى مجالات كثيرة، مثل الاعتصام بالكتاب والسنة، ومكانة الرسالة المحمدية، ومثل مكانة الرسول بالنسبة للأنبياء الآخرين، والقرآن وقراءته، والجلوس الصالح وجلوس السوء، ومماثلات للعبادات من وضوء وصلاة وصوم، وتمثيلات عدة لبناء المجتمع الإسلامى .

وانصرف اهتمامنا كذلك إلى بقية الأنواع البلاغية فى إطار « البيان » وبخاصة التشبيه

والمجاز والاستعارة والكناية، وأوردنا تعريفا شافيا لكل نوع من هذه الأنواع، وأتينا بنماذج منها .

ولقد عمدنا إلى توسيع الحديث عن المجاز؛ لأنه كثير في كلام رسول الله، مثلما هو كذلك في الكتاب العزيز، ذلك أن المجاز هو الأصل الذي تتفرع عنه أصناف البيان، فالاستعارة من المجاز، والتشبيه من المجاز، وكذلك الكناية من المجاز. ولقد جئنا بنماذج كثيرة من المجاز النبوي، وقد كان لكتاب «المجازات النبوية» للشيخ الرضى يد كريمة في تقديم مادة علمية وفيرة لنا في هذا الفصل، أعانت على تقديمه في إطار من الكفاية والوضوح.

والفصل الثالث جعلناه «للبديع» في حديث رسول الله، ولقد قسم البلاغيون البديع إلى أقسام عديدة، غير أن أشهرها وأكثرها استعمالا قسمان، هما: السجع، ثم الجناس، والسجع مستقبح إذا كان متعسفا معاكسا للطبع، مثل سجع الكهان الذي ذمه رسول الله ﷺ أما السجع الذي يوافق الطبع فهو ذلك الذي سرى حميدا في كلام رسول الله ﷺ ولقد حفل الفصل بنماذج كثيرة من سجع رسول الله.

وكان تناولنا للجناس في حديث رسول الله فيه مزيد من الإبانة والإيضاح، فقد قسم البلاغيون الجناس إلى جناس كامل، وجناس غير تام أو ناقص، فأما الجناس التام فلم نعثر في كلام رسول الله إلا على مثال واحد هو قوله ﷺ: «خللوا بين جرير والجرير» يقصد بذلك أن يترك جرير بن عبد الله قابضا زمام الناقة. وأما الجناس غير التام فقد تجاوزت أصنافه خمسة عشر صنفا، ولم تكن أحاديث رسول الله متعاملة معها جميعا، وإنما وردت بعض الأحاديث ذات الجناس المختلف، والمطلق، والمصحف، والمضارع، والمعكوس، ولكنها قليلة ونادرة.

تبقى بعد ذلك المحسنات المعنوية الأخرى التي جاءت في كلام رسول الله ﷺ وهي الطباق، والمقابلة، ثم لزوم ما لا يلزم، وهو قليل سواء في القرآن أو في الحديث، ثم الإحصاء، واللف والنشر، وهما موجودان في كلام الله وكلام الرسول، ولكنها أيضا قليلة إلى حد الندرة، وعلى الرغم من ذلك فلقد عمدنا إلى تقديم ما هو متاح من نماذج هذه الأنواع، ما هو شائع منها وما هو نادر أو قليل.

وفي الختام نسأل الله أن يتقبل هذا الجهد، وأن يجعله مصدر نفع لمحبي كلام رسول الله ، ونبع معرفة لكل من شغلوا بسيرة رسول الله ، وجميع من شاقهم أن يدرسوا بيان محمد ﷺ فهو أفصح الفصحاء وأبين الأبيناء، يحدو كلامه التوجيه الإلهي لشخصه الشريف في قوله: « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ويحدد مقاصده النهج المستقيم الذي تمثل في قوله ﷺ: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ * ولك الحمد ربنا ولك الشكر، عليك توكلنا وإليك أنبنا، وعليك قصد السبيل .

مصطفى محمد الشكعة

مصر الجديدة في ٢٨ من المحرم ١٤١٦ هـ .

٢٦ من يونية (حزيران) ١٩٩٥ م .



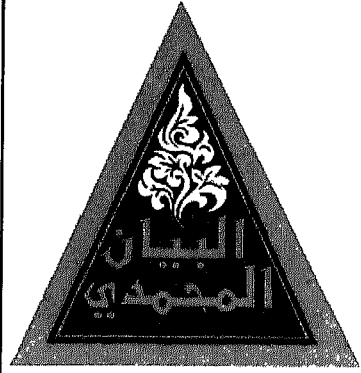
سمات الرسول وصفاته وشمائله في الجاهلية والإسلام

الفصل الأول : قبل المبعث وبعده

الفصل الثاني : فصاحته ﷺ

الفصل الثالث : أدب الحوار في كلام رسول الله

الفصل الرابع : الرسول يتحدث لغات القبائل



الفصل الأول

شخصية محمد : قبل المبعث
وبعد المبعث

سمات الرسول ﷺ وصفاته وشمائله قبل المبعث وبعده

في الجاهلية :

محمد ﷺ سيد البشر وخاتم الرسل ، وهو البشير النذير ، وهو الصادق الأمين ، ورسول رب العالمين ، الشفيح يوم العطش الأكبر ، حيث لا شفاعة لنبي إلا هو ، صاحب العلم الكبير الذى يظل به أمته يوم الحشر العظيم ، أمته شهداء على الناس وهو عليهم شهيد ، اصطفاه الله واجتبه فخصه بالتكريم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(١) وأكرمه بعظمة ورفعته الذكر ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾^(٢) وأثره بين جميع رسله بالرسالة الخاتمة : رسالة الإسلام الذى يجب ما قبله ، فهو بحق خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، ورسول رب العالمين .

كان محمد ﷺ قبل الرسالة فتى قريش الذى إليه يطمئنون ، وبأمانته يعترفون ، وباستقامته يضرّبون الأمثال ، فكان يعرف بينهم بالأمين ، وكان ﷺ ذا مهابة وجلال وجمال وهو فى فجر صباه ، وكان علماً فى قومه ، ما من قرشى لا يعرف محمداً الصبى المستقيم ، والشاب الأمين ، مع تلافيه حضور مجتمعاتهم الصاخبة ، فقد عصمه الله من أوزارها ، وجنبه المشاركة فى عاداتهم الجاحمة ، وأنجاه ربه من مبادؤها ، ومن ثم كانت صفحته قبل الرسالة وضاءة الجنبات ، وسيرته قبل النبوة عاطرة النفحات .

ولعل من المستحب ونحن نتحدث عن محمد ﷺ قبل البعثة أن نذهب بعيداً فى الزمان إلى ديار بنى سعد ، حيث كان محمد الرضيع يلقي الحب والعناية ، والحنان والرعاية ، من مرضعته حليلة ، ومن ابنتها الشيباء أخت محمد فى الرضاع .

(١) سورة القلم ، الآية : ٤

(٢) سورة الشرح ، الآية ٤ .

كان للشيء إخوة آخرون أشقاء ، رُضِعَ ويافعون ، ولكن أحداً منهم لم يلق من الحب منها ما لقي محمد الرضيع الذى بحلوله بينهم حل الخير واتسع الرزق وعمت البركة ، هذا فضلاً عن جمال الطفل محمد ، وطيب ريحه وبهاء طلعتة وفرط رفته .

كان من عادة نساء العرب أن يرقصن أطفالهن الرضع بضرب من الشعر عرف «بشعر الترقيص» . ولشدة تعلق الشيء بحب أخيها الرضيع محمد ، فقد أثرته دون بقية إخوتها الأشقاء بأبيات من إنشائها بالغة الرقة ، داعبته بها غناء ونشيداً .

قالت الشيء (واسمها حذافة ، وقيل : خذامة) ترقص الرضيع محمداً : (١)

يا ربنا أبق أخى محمداً حتى أراه يافعاً وأمرداً
واكبث أعاديه معاً والحسداً وأعطه عزاً يدوم أبداً

هذا أخ لى لم تلده أمى وليس من نسل أبى وعمى
فديته من مخول مُعمٍ فأنمِه اللهم فيما تُنمى

وكان محمد ﷺ يستسقى به وهو طفل إذا ضرب القحط قومه وعز المطر ، ذلك أن جده عبد المطلب - أو شبيبة الحمد - كان إذا عم القحط ، وجفت الأرض ، وأضير الزرع والضرع ، فزع الناس إليه ليستسقوا بدعائه ، فكان إذا نهض إلى ذلك حمل حفيده محمداً الغلام على عاتقه ، ثم بدأ دعاء الاستسقاء .

إن «رُقَيْقَةَ» بنت أبى صيفى القرشية ، وكانت لدة لعبد المطلب تروى خبراً فى هذا الشأن ، وقد استسقى عبد المطلب لقومه ، وحفيده محمد محمول على عاتقه ، فقالت (٢):

« تتابعث على قُرَيْشِ سِنُو جَدِّ ، أَفَحَلَّتِ الْأَرْضُ وَالضَّرْعُ ، وَأَرْقَّتِ الْعَظْمُ ، فَبَيْنَا

(١) سبل الهدى والرشاد ١ / ٤٦٤ .

(٢) منال الطالب ١ / ٢٠٢ أخرجه الخطابى وأبو نعيم والزمخشري ، وهو من حديث المسور بن مخرمة بن نوفل قال مخرمة : حدثتني أمى رقيقة .

أنا راقدة - اللَّهُمَّ - أو مُهَوِّمَةٌ ، ومعنى صِبْوَتِي ، إذا أنا بهاتفٍ صَبِيَّتٍ يَصْرُخُ بصوتٍ صَحْلٍ ، أَقْشَعَرَّ له جلدِي ، يقول : يا معشرَ قريشٍ ، إن هذا النبيُّ المبعوثُ منكم قد أَظْلَنَتْكُمْ أَيَّامُهُ ، وهذا إِبَانٌ نُجُومِهِ ، فَحَيَّ هَلَاً بِالْحَيَا وَالْحِصْبِ ، ألا فانظروا فيكم رجلاً وَسِيْطاً عَظَاماً جُساماً طَوَالاً ، أبيضُ بَضًّا ، أَشَمَّ العَرُزَيْنِ ، أوظفَ الأهدابِ ، سَهْلٌ الحَدَّيْنِ ، له فَخْرٌ يَكْظِمُ عليه ، وَسُنَّةٌ تَهْدِي إليه ، ألا فَلْيَخْلُصْ هو وولدهُ ، وَلْيَدِلِّفْ

المعاني:

رَقِيْقَةٌ: هي بنت أبي صَبِيْنٍ بن هاشم بن عبد مناف . ويُشبهه أن تكون تصغير الرِّقَّة ، وهي كل أرض إلى جنب وإِدْيَنْسِط عليها الماء أَيَّامَ المَدِّ ، ثم يُنْصَبُ ، فتكون مَكْرَمَةٌ للنبات .
واللَّدَّةُ : مصدر وَلَدٌ يَلِدُ لِدَةً ، كالعِدَّةِ والرِّقَّةِ ، مِن وَعَدَ ووَزَنَ . أي : أنها كانت في سِنِّ عبد المطلب بن هاشم ، ومِن أقرانه ، لِاتِّفَاقِ ولادتهما ، وكان عبد المطلبَ عَمَّهُا .

والجَدْبُ : القحطُ .

والأصلُ في سَنُو : سِنَوْنٌ . فحذف النَوْنَ لِإِضافتها إلى الجَدْبِ ، وهو من الجموع الشاذَّةِ .

وأفْحَلَتْ : أي أُنْبِست الأرض فلم تَدْعُ فيها نباتاً ، وَالضَّرِغُ فلم تَدْعُ فيه لَبَنًا .

ويروى : « أَفْحَلَتْ الظَّلْفُ وهو للشَّاءِ كالحافر للفرس ، وتُرِيدُ ذَاتَ الظَّلْفِ ، أي : أن السُّنَيْنَ المُجْدِبَةَ هَزَلَتْ الماشيةَ .

ويزُورِي : « وَأَفْنَتَ العَظَمَ » أي : أذابتَه .

والرُّؤُودُ : النُّومُ المُسْتَحْكَمُ المُتَمَدُّ .

والتَّهْوِيمُ : النُّومُ الخفيفُ ، يقال : هَوَّمَ وَتَهَوَّمَ ، وكانه من الهامة : الرأسِ . أي : حَرَّكَ رأسه من التُّعَاسِ .

والصَّبْوَةُ : الأولادُ الصَّغارُ ، جمع صَبِيٌّ .

والهاتفُ : الصانعُ ، وأكثر ما يُطَلَّقُ على مَنْ لا يُرَى شَخْصُهُ .

والصَّبِيَّتُ : العالِي الصَّوتُ .

والصَّراخُ : عُلُوُّ الصَّوتِ .

والصَّحْلُ : الذي في صوته بُحَّةٌ تُذْهِبُ حِدَّتَهُ ، وهو مُسْتَلَدٌّ في السَّمْعِ .

وأقْشَعَرَ الجِلْدُ : إذا ارتعدَ وقامَ شَعْرُهُ ، كالذي يَعرِضُ له عند مُفاجأة البردِ .

وإِبَانٌ نُجُومِهِ : وقتٌ طُهورِهِ . وإِبَانٌ : فِعْلانٌ من أَبِ الشَّيْءِ : إذا تَمَيَّأَ .

ونجم النَّبْتِ يَنْجُمُ : إذا طَلَعَ وظَهَرَ .

وحَيَّ هَلَاً : كلمةٌ مُركَّبةٌ من كلمتين ، إحداهما حَيٌّ ، ومعناها هَلَمَّ وأقْبِلْ ، والأخرى هَلَاً ، وهي حَثٌّ واستعجالٌ .

والحَيَا - مقصوراً - : المَطَرُ ؛ لِأَنَّ به حياة الأرضِ .

والحِصْبُ : ضدُّ الجَدْبِ ، وهو مِن أثر المطرِ .

والوَسِيْطُ : أَفْضَلُ القومِ ، من الوَسَطِ .

والعَظَامُ : العَظِيمُ القَدْرِ .

والجُسامُ : العَظِيمُ الجِسمِ .

والطَوَالُ ، الطَوِيلُ القامةِ .

والبَضُّ : الرِّقِيْقُ اللَّوْنُ الذي يُؤَثَّرُ فيه كلُّ شَيْءٍ .

إليه من كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ ، أَلَا فَلْيَسْتَسْقُوا مِنَ الْمَاءِ ، وَلْيَمَسُّوا مِنَ الطَّيِّبِ ، وَلْيَسْتَلِمُوا الرُّكْنَ ،
وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ سَبْعاً ، ثُمَّ لِيَرْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ ، أَلَا وَفِيهِم الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِدَائِهِ ،
أَلَا فَلْيَسْتَسْقِ الرَّجُلُ ، وَلْيُؤَمِّنِ الْقَوْمُ ، أَلَا فَغَشْتُمْ إِذَا مَا شِئْتُمْ وَعِشْتُمْ .

قالت : « فأصبحتُ - عَلِمَ اللهُ - مَدْعُورَةٌ ، قد قَفَّ جِلْدِي ، وَوَلَّهَ عَقْلِي ،
فاقتَصَصْتُ رُؤْيَايَ ، وَنَمْتُ فِي شِعَابِ مَكَّةَ ، فَوَالْحُرْمَةِ وَالْحَرَمِ إِنْ بَقِيَ بِهَا أَبْطَحِي إِلَّا
قال : هَذَا شَيْبَةُ الْحَمْدِ ، وَتَنَامَتْ عِنْدَهُ رَجَالَاتُ قُرَيْشٍ ، وَانْقَضَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ

= والعززين : الأنف ، وقيل : أعلاه .

والشَّمَمُ : ارتفاعُ أَرْتَبَةِ الأنفِ ، مع امتداد القَصْبَةِ .

والأهداب : شَعْرُ أَجْفَانِ العَيْنِ .

وَالوَطْطُ : طَوْحُهَا .

وَسَهْلُ الْحَدَّيْنِ : طَوِيلُهَا غَيْرِ نَاتِيهَا .

وَالكَظْمُ : الكَثْمُ وَالإِمْسَاكُ عَلَى الشَّيْءِ . تَرِيدُ أَنَّهُ مِنْ ذَوِي الْفَخْرِ وَالشَّرَفِ ، وَهُوَ يُخْفِي حَسَبَهُ وَلَا يَتَبَجَّحُ بِهِ .

وَالسَّنَةُ : الطَّرِيقَةُ الْوَاضِحَةُ . أَيْ أَنَّ سَجِيَّتَهُ وَسِرَّتَهُ الْجَمِيلَةَ تَهْدِي النَّاسَ إِلَيْهِ وَيَجْمَعُهُمْ عَلَيْهِ .

وقولها : « أَلَا فَلْيَبْطَحْ هُوَ وَوَلَدُهُ » أَي : فَلْيَتَمَيَّزُوا ، وَلْيَتَفَرَّدُوا مِنَ النَّاسِ .

وَالْبَطْنُ : مَا دُونَ الْقَبِيلَةِ وَفَوْقَ الْقَبْضِ مِنَ الْعَشِيرَةِ .

وَالشَّرُّ - بِالشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ - : صَبُّ الْمَاءِ عَلَى الرَّأْسِ وَالْبَدَنِ مَتَفَرِّقاً ، وَمِنْهُ شَرُّ الْغَارَةِ : إِذَا أَخَذْتَهُمْ مِنْ نَوَاحِيهِمْ .

وَاسْتِلاَمُ الرُّكْنِ : لَمَسُهُ بِالْيَدِ وَتَقْبِيلُهُ .

وَالعَتِيقُ : الْقَدِيمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالعَتِيقُ أَيْضاً : الْكَرِيمُ الْخَيَّازُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وَاللَّدَاتُ : جَمْعُ لِدَّةٍ . تَعْنِي أَنَّ مَوْلَدَهُ وَمَوْلَدَ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِ مَوْصُوفٌ بِالطَّهْرِ وَالطَّيِّبِ .

وَالاسْتِسْقَاءُ : طَلَبُ الشَّقِيَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى .

وقولها : « أَلَا فَغَشْتُمْ إِذَا مَا شِئْتُمْ » أَي : مُطِرْتُمْ ، وَهِيَ بَكْسَرُ الْغَيْنِ ، ، وَقَدْ تُضَمُّ .

وَقَفَّ الْجِلْدُ : إِذَا تَقَبَّضَ وَارْتَعَدَ .

وَالرُّكَّةُ : الْحَيْرَةُ وَاللِّدْهُشُ وَذَهَابُ الْعَقْلِ .

وَالشُّعَابُ : الْأَوْدِيَةُ وَالْأَرْقَةُ فِيهِ .

وَالْحُرْمَةُ : حُرْمَةُ الْبَيْتِ . وَالْحَرَمُ : حَرَمُ مَكَّةَ .

وَالْأَبْطَحِيُّ : مَنْسُوبٌ إِلَى أَبْطَحِ مَكَّةَ ، وَهُوَ ظَاهِرُهُمَا ، وَهِيَ سُكَّانُهَا مِنْ قُرَيْشٍ وَأَهْلِهَا .

وَشَيْبَةُ الْحَمْدِ : لَقَّبَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ ، سُمِّيَ بِهِ لِشَيْبَةِ كَانَتْ فِي رَأْسِهِ حِينَ وُلِدَ ، وَاسْمُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ : شَيْبَةُ ، وَقِيلَ : عَامِرٌ ،

وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ ؛ لِأَنَّ هَاشِمًا أَبَاهُ تَزَوَّجَ سَلَمَى بِنْتَ زَيْدِ النَّجْرَانِيَّةِ ، فَوَلَدَتْهُ ، فَلَمَّا تَوَقَّى هَاشِمٌ وَشَبَّ الْغُلَامُ انْتَزَعَهُ

عَمَّهُ الْمَطْلَبُ مِنْ أُمِّهِ ، وَأَرَدَفَهُ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، وَقَدِمَ بِهِ مَكَّةَ فَسَأَلَ النَّاسَ عَنْهُ ، فَقَالَ : هُوَ عَبْدِي ، حَيَاءٌ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : هُوَ

ابْنُ أَخِي ، لِرِثَاثَةِ هَيْبَتِهِ سَاعَتَهُدْ ، فَقَالَ النَّاسُ : أَرَدَفَ الْمَطْلَبُ عَبْدَهُ ، وَلَزِمَهُ هَذَا الْاسْمُ .

رجلٌ ، فسنّوا ، ومَسُوا ، واستلموا واطَّوَّفُوا ، ثم ارتَقُوا أبا قُبَيْسٍ ، وطَفِقَ القومُ يَدْفُونَ حَوْلَهُ ، ما إن يُدْرِكَ سَعِيهِمْ مَهْلَهُ ، حتى قَرَّوا بِذُرْوَةِ الجَبَلِ ، واستكفوا جَنَابِيَهُ .

فقام عبدُ المطلب ، فاعتَصَدَ ابنَ ابنِهِ محمداً ، وفرعه على عاتقه ، وهو يومئذٍ غلامٌ قد أَيْفَعَ أو كَرَبَ ، ثم رفع يديه فقال : « اللهمَّ سادَّ الحِلَّةِ وكاشفَ الكُرْبَةِ ، أنتَ عالمٌ غيرُ مُعَلِّمٍ ، ومَسْتُوْلٌ غيرُ مُبَحِّلٍ ، وهذه عِبْدًاؤُكُ وإماؤُكُ بِعَذْرَاتِ حَرَمِكَ ، يَشْكُونَ إِلَيْكَ سَنَتَهُمْ ، أَذْهَبَتِ الحُفَّ وَالظَّلْفَ ، فاسْمَعَنَّ اللهمَّ وأمطِرَنَّ علينا غَيْثاً مُزْبِئاً مُغْدِقاً » . تقول رقيقة : فوربَّ الكعبةِ ما راموا حتى تفجَّرتِ الساءُ بِهاثِها ، وكظَّ الوادى بِشَجِيحِهِ ، فسمعتُ شِيخانَ فُرَيْشٍ وجَلَّتْها : عبدُ الله بنُ جُدعانَ ، وحَرْبُ بنُ أُمَيَّةَ ، وهشامُ بنُ المغيرةَ ، تقول لعبدِ المطلب : هنيئاً لك أبا البَطْحاءِ » . وفي ذلك تقول رقيقة :

= والدَّفِيفُ : المرُّ السَّريعُ ، وقد دَفَّ يَدْفُ .
والسَّعِيُّ : فوق المشى ، ودونَ العَدْوِ .
والمَهْلُ بالإسكان : التُّزْدَةُ والتَّائِيُّ .
والمَهْلُ ، بالتحريك : التَّقْدُمُ .
واستكفوا به : أخذوا به وصاروا حَوْلَهُ ، من الكِفَّةِ - بالكسر - وهى ما كان مستديراً ، مثل كِفَّةِ الميزانِ .
والجَنابُ والجَنابَةُ : الجانِبُ والناحيةُ .
واعْتَصَدَ الرجلُ بالصَّبِيِّ : إذا أخذ بَعْضِيهِ ورَفَعَهُ .
والعائِقُ : أعلى الكَتِفِ إلى صفحة العُنُقِ .
والجِئْداءُ - بكسر العين والباء وتشديد الدال والمد والقصر - العَيْدُ ، جمع عَيْدٍ .
والعَذْرَاتُ : جمع عَذْرَةٍ ، وهى فِئاء البيتِ .
والسَّنَةُ : الجَذْبُ .
والحُفُّ للبعير : كالحافر للفرس ، وأرادت ذوات الحُفِّ .
والمُزْبِئُ : المَطَرُ الدائمُ المقيمُ ، المغْنى عن الاتِّبادِ لعمومه .
والمُغْدِقُ : الواسعُ الكثيرُ .
وما راموا : أى ما تَرَجَّحوا وما زالوا ، وقد رامَ يَريمُ : إذا فارَقَ ، ولا يكادُ يستعمل إلا فى النفى .
وكظَّ الوادى واكتظَّ : إذا امتلأ .
والتَّجِيحُ : الماءُ المصبوبُ التَّدْفِقُ ، فَعِيلٌ بمعنى مفعول .
وإنها قالوا لعبدِ المطلب : أبو البطحاء - وهى صحراء مكة ونواحيها - لأنَّ أهلها عاشوا به ، وباستسقائه ، كما يُقال للمِطعامِ : أبو الأضيافِ .

بَشِيَّةِ الْحَمْدِ أَسْقَى اللَّهُ بَلَدَنَا
 وَقَدْ فَقَدْنَا الْحَيَا وَاجْلُوذَ الْمَطَرِ
 فَجَادَ بِالمَاءِ جَوْنِيَّ لَهُ سَبَلٌ
 سَحًا فَعَاشَتْ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ
 مَنَا مِنَ اللَّهِ بِالمِيمُونِ طَائِرُهُ
 وَخَيْرَ مَنْ بُشِّرَتْ يَوْمًا بِهِ مُضَرُّ
 مُبَارَكُ الْوَجْهِ يُسْتَسْقَى الْغَيَامُ بِهِ
 مَا فِي الْأَنْامِ لَهُ عِذْلٌ وَلَا خَطَرُ

يورد محمد بن يوسف الشامي الصالحى هذا الخبر الذى يصور جانبا من صفات الرسول ﷺ وهو فى مستهل صباه (١):

ذكر أبو هاشم محمد بن ظَفَرٍ فى «خَيْرِ الْبَشَرِ بِخَيْرِ الْبَشَرِ» : حَجَّ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفَى حَكِيمُ الْعَرَبِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ فى سِنِ الْحُلُمِ ، فَرَأَاهُ أَكْثَمُ ، فَقَالَ لِأَبِي طَالِبٍ : مَا أَسْرَعُ مَا شَبَّ أَخُوكَ ! فَقَالَ : لَيْسَ بِأَخِي وَلَكِنَّهُ ابْنُ أُخَى عَبْدِ اللَّهِ ، فَقَالَ أَكْثَمُ : أَهْوِ ابْنَ الذَّبِيحِينَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَجَعَلَ يَتَوَسَّمُهُ ثُمَّ قَالَ لِأَبِي طَالِبٍ : مَا تَظُنُّونَ بِهِ ؟ قَالَ : نَحْسَنُ بِهِ الظَّنَّ ، وَإِنَّهُ لَوْفَى سَخَى . قَالَ : هَلْ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنَّهُ لَذُو شِدَّةٍ وَلِينٍ ، وَمَجْلِسُ رَكِيْنٍ ، وَفَضْلُ مَتِيْنٍ (تَلَاخِظْ بِبَلَاغَةِ أَبِي طَالِبٍ) . قَالَ : فَهَلْ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالَ : إِنَّا لَتَتِيْمِينَ بِمَشْهَدِهِ ، وَنَتَعَرَفُ الْبَرَكَةَ فِيهَا لِمَسِّهِ بِيَدِهِ . فَقَالَ أَكْثَمُ : أَقُولُ غَيْرَ هَذَا ، إِنَّهُ لِيَضْرِبُ الْعَرَبَ قَامِطَةً - يَعْنَى جَامِعَةً - بِيَدِ حَائِطَةٍ ، وَرِجْلُ لَائِطَةٍ ، ثُمَّ يَنْعَقُ بِهِمْ إِلَى مَرْتِعٍ مَرِيْعٍ ، وَوَرْدٍ سَرِيْعٍ ، فَمَنْ اخْرُورَطَ إِلَيْهِ هِدَاهُ ، وَمَنْ اخْرُورَ عَنْهُ أَرْدَاهُ .
 وَفِي تَعْفُفِهِ ﷺ عَنِ الْمَشَارَكَةِ فِي عَادَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ تَقُولُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ

وَسَقَى وَأَسْقَى بِمَعْنَى ، وَقِيلَ : سَقَيْتَهُ لِشَفِيَّتِهِ ، وَأَسْقَيْتَهُ لِمَاشِيَتِهِ وَأَرْضِيَهُ .

وَاجْلُوذَ الْمَطَرِ : أَيْ ذَهَبَ وَقَلَّ ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْجَلُوذِ فِي السَّيْرِ : إِذَا أَسْرَعَ .

وَالجَوْنِيُّ : مَنْسُوبٌ إِلَى الْجَوْنِ ، وَهُوَ الْأَسْوَدُ أَوِ الْأَبْيَضُ ، يَعْنَى مَطَرًا جَاءَ مِنْ سَحَابٍ أَسْوَدٍ أَوْ أَبْيَضٍ .

وَالسَّبَلُ - بِالتَّحْرِيكِ - الْمُسْبَلُ ، وَقَدْ أَسْبَلَتْ السَّمَاءُ : إِذَا هَمَطَلَتْ .

وَالسَّحُّ : الدَّافِقُ الْمُتَّبَاعُ .

وَالْمِيمُونُ طَائِرُهُ : أَيْ الْمُبَارَكُ الْمُقْبِلُ السَّعِيدُ . وَهُوَ مِنَ التَّيْمُنِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَضِدُّهُ التَّشَاؤْمُ بِالتَّحْرِيكِ الْبَارِحُ . وَتُرِيدُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ .

وَالعِذْلُ : الْمَثَلُ وَالنَّظِيرُ ، وَقَدْ تَكَسَّرَ عَيْنُهُ وَتَفْتَحُ .

وَالخَطَرُ - بِالتَّحْرِيكِ - الْقَدْرُ وَالْمُنْزِلَةُ ، وَهَذَا خَطَرٌ لِهَذَا وَخَطِيرٌ : أَيْ يَثُلُهُ فِي الْقَدْرِ .

(١) سبيل الهدى والرشاد ٢ / ١٨٩ .

عنها - : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله ، فما ذقت شيئاً ذبح على النصب حتى أكرمنى الله برسالته» (١).

وأما مكارم الفعال وجلائل الأعمال وخطير الاجتماعات والمسارة إلى عمل المروءات فكان محمد الشاب يحرص عليها ويسهم فيها ، وإن قصة إعادة بناء الكعبة والاختلاف عن أى القبائل يضع الحجر الأسود فى مكانه من ركن البيت معروفة ، فلما أن اتفقوا على أن يضعه أول قادم ، وكان ذلك القادم هو الشاب محمد بن عبد الله استبشر الأقسام خيراً ، وقرؤا عينا ، فإن إجماعهم على حب محمد وتقديرهم لطهارة نفسه ونقاء ثوبه جعلهم يسندون الأمر إليه ، وكان ما كان من فرشه ثوبه ووضع الحجر الأسود فى وسطه ، ثم طلب من كل قبيل أن يمسك طرفاً من الثوب ، ويرفعوه إلى مستوى مكانه من البيت ، ثم أخذه بيده الكريمة ووضع فى مكانه المعروف منذ أن رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل إلى يومنا هذا وإلى يوم يبعثون .

ويدخل فى إسهامه ﷺ فى كريم الفعال ومشاركته فى الخطير من الاجتماعات شهوده حلف الفضول ، والإشادة بهذا الحلف والتنويه بفضله .

يروى جبير بن مطعم - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أن لى به حُمْرَ النَّعَمِ ، ولو دعى به فى الإسلام لأجبت » (٢).

كان هذا الحلف فيما روى محمد بن يوسف الصالحى (٣) فى ذى القعدة قبل المبعث بعشرين سنة مُنْصَرَفَ قريش من الفِجَار ، ولرسول الله ﷺ يومئذ عشرون سنة . وكان أكرم حَلْفٍ سُمِعَ به وأشرفه فى العرب .

وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وإئيل السهمى ، وكان ذا قَدْرٍ وشرف بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيد الأَحلافَ : عبد الدار

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ، صفحة ١٤٦ .

(٢) السيرة لابن هشام ١ / ١٣٤ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٢٠٨ .

ومخزوما وجمحا وسهما ، فأبوا أن يعينوا الزبيدي على العاصي بن وائل وزبروه ونهروه ،
فلما رأى الزبيدي الشرَّ رقى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديةهم حول
الكعبة فقال بأعلى صوته :

يا آل فهـر لمظلوم بضاعته يبطن مكة نائي الدار والنفير
ومُحرم أشعث لم يقض عُمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إنَّ الحرام لمن تمَّت مكارمه ولا حرام لشوب الفاجر الغدير

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ألهذا مترك ؟ فاجتمعت هاشم وزهرة
وتيم في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاما ، فحالفوا في القعدة في شهر حرام
قياما فتعاقدوا وتعاهدوا ليكوننَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه
ما بلَّ بحر صوفة وما رنسا جزاء وثبير مكانها ، وعلى الناس في المعاش . فسَمَّت
قريش ذلك الحلف حلف الفضول وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر . ثم
مشوا إلى العاصي بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه .

وقيل في سبب تسمية هذا الحلف بحلف الفضول أن كان قد سبق قريشا إلى مثل
هذا الحلف جرهم في الزمن الأول فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم ، أحدهم :
الفضل بن فضالة . والثاني : الفضل بن وداعة . والثالث : الفضل بن الحارث . هذا
قول القتيبي . وقال الزبير : الفضل بن شراة ، والفضل بن قضاة ، فلما أشبه حلف
الأخر فعمل هؤلاء الجرهميين سمي حلف الفضول ، والفضول : جمع فُضِل ، وهي
أسماء أولئك الذين تقدم ذكرهم .

وهناك قول آخر في هذا الشأن رواه الحميدي عن سفيان عن عبد الله بن محمد وعبد
الرحمن بن أبي بكر قالوا : قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان
حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، ولا يعز
ظالم على مظلوم » (١) .

(١) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٢٠٩ عن السهيلي .

إن رواية الحديث على هذا النسق توضح لماذا سمي الحلف بحلف الفضول .

كان محمد ﷺ طفلاً بينما توفي أبوه إبان حمل أمه به ، كفله جده عبد المطلب منذ مولده ثم كفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، ومن ثم لم يكن صاحب مال ، ولكنه كان بقومه عزيز الجنب ، وبسلوكه فتى قريش الذي لا يرجحه شاب آخر ، وقد صور عمه أبو طالب مقام ابن أخيه أجمل تصوير وأبلغه حين تقدم يخطب خديجة لمحمد قائلاً^(١):

« الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى فى قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان فى المال قُلٌّ ، فإنها المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » .

تلك كانت شمائل محمد ﷺ فى صباه وقبل المبعث : سلوكه إرهابى بنبوته ، وخلقه يرشحه لمكانته ، وأدبه يبشر برسالته .

إن أم المؤمنين خديجة الكبرى تصف الرسول ﷺ حين أخبرها بخبر الوحي ، ووصف نزول جبريل عليه وقال لها : « لقد خشيت على نفسى » فقالت - رضى الله عنها - تسرى عنه وتطيب خاطره وتثبت جأشه : « كلاً ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » ثم أتت به بعد ذلك ابن عمها « ورقة بن نوفل » على النحو الذى فصلته كتب السيرة .

بهذه الكلمات الشديدة الإيجاز ، البعيدة الأعماق النبيلة المرامية ، وصفت أم المؤمنين خديجة محمداً أكمل وصف ، وصورته أصدق تصوير فى إيهاً كامل بكل كلمة قالتها ، وكل لفظ نطقت به ، فلقد كانت تلك النعوت بعض أوصاف محمد ﷺ .

(١) صبح الأعشى ١ / ٢١٣ .

بعد المبعث :

إن محمدا الإنسان هو نفسه محمد الرسول المختار ، إن خلائقه وشيئله من جود وشجاعة وتقوى وحياء وأمانة وصدق وعفة وتصون وحب للناس وصلة للرحم ، كل أولئك وأكثر قد تجمعت في محمد الرسول وتحققت زبدتها في شخصه العظيم .

هذا عبد الله بن عباس حبر هذه الأمة يصف رسول الله عن خُبرٍ به فيقول : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن » ثم يمضى ابن عباس قائلا : فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

وعن نسبه ومكانته بين بنى آدم يقول ﷺ :

« إن الله - عز وجل - اختار خلقه ، فاختر منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختر منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختر منهم قريشا ، ثم اختار قريشا فاختر منهم بنى هاشم ، ثم اختار بنى هاشم فاخترني منهم ، فلم أزل خيارا من خيار ، إلا من أحبَّ العربَ فحببني أحبَّهم ، ومن أبغض العربَ فبغضني أبغضهم » (١).

ومن المواقف الجليلة التي وُصِفَ خلالها النبي ﷺ ذلك الموقف الذي وقفه أبوسفيان ابن حرب أمام قيصر لكي يستقصى فيه قيصر بعض خبر النبي ، وكان قد تسلم رسالة من الرسول ﷺ حملها دحية الكلبي ليسلمها إلى عظيم بصرى ، ليقوم هذا الأخير بدفعها إلى قيصر ، وكان قيصر آنذاك قد كتب له النصر في حربه مع الفرس ، فسار من حمص إلى إيلياء (اسم من أسماء بيت المقدس) في رحلة شكر لله على نصره إياه على جند فارس ، فلما أن تسلم قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه : التمسوا لى هاهنا أحداً من قومه ، ولم يكن هذا الواحد غير أبي سفيان صاحب العداوة الشديدة لرسول الله ، فقد كان إذ ذاك على الكفر ، فهو لم يسلم إلا في فتح مكة في قصة معروفة .

(١) الشفا للقاضي عياض ، ص ٤٨١ رواه الطبراني عن ابن عمر .

وها نحن ننقل الخبر كما رواه ابن عباس مستمداً من أبي سفيان نفسه. قال ابن عباس: (١) « أخبرني أبو سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا للتجارة في المدة التي كانت بين النبي ﷺ وبين كفار قريش . قال أبو سفيان : فَوَجَدْنَا رَسُولُ قيصر ببعض الشام ، فانطلق بنا حتى قدمنا إيلياء ، فأدخلنا عليه ، فإذا هو جالس في مجلسه وعليه التاج وحوله عظماء الروم . فقال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قلت : أنا أقربهم إليه نسبا . قال : ما قرابة ما بينك وبينه؟ قلت : هو ابن عمي . قال - أي : أبو سفيان لابن عباس - : وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري ، قال : أدنوه مني ، ثم أمر بأصحابي فجعلهم خلف ظهري عند كتفي ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه : إني سأثله عن هذا الذي يزعم أنه نبي ، فإن كذب فكذبوه .

قال أبو سفيان : والله لولا الحياء يومئذ أن يَأْتُرَ عني أصحابي الكذب لكذبتة عنه ، ثم قال لترجمانه : قل له : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل من آبائه مَنْ مَلَكَ ؟ قلت : لا ، قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : فيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن الآن منه في مدة - يشير إلى المدة التي قاضاهم النبي ﷺ عليها يوم الحديبية وآخرها يوم الفتح - ونحن نخاف منه أن يغدر ، ولم يكن كلمة أُدْخِلَ فيها شيئا أَنْتَقِصُبهُ بها لا أخاف أن تؤثر عني غيرها . قال : فهل قاتلتموه وقاتلكم ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قلت : كانت دولا وسجالا ، يدال علينا المرة ، ويدال عليه الأخرى ، قال : فماذا يأمركم به ؟ قلت : يأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ، قسم المغازي ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

قال : - أي : أبو سفيان - فقال لترجمانه : قل له : إني سألتك عن نسبه فيكم فرزعت أنه ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ فرزعت أن لا . فقلت : لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتهم بقول قد قيل قبله ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فرزعت أن لا ، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك : هل كان من آباءه من مَلِكٍ ؟ فرزعت أن لا ، فقلت : لو كان من آباءه ملك قلت : رجل يطلب ملك آباءه ، وسألتك : أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فرزعت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك : هل يزيدون أم ينقصون ؟ فرزعت أنهم يزيدون . وكذلك الإيمان حتى يتم . وسألتك : هل يرتدُّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فرزعت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، وسألتك : هل يغدر ؟ فرزعت أن لا . وكذلك الرسل لا يغدرون ، وسألتك : هل قاتلتموه وقتلكم ؟ فرزعت أن قد فعل وأن حربكم وحربه يكون دولا ، وكذلك الرسل تبلى وتكون لها العاقبة ، وسألتك : ماذا يأمركم به ؟ فرزعت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . وهذه صفة نبيِّ قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أظن أنه منكم ، وإن يكن ما قُلْتُ حقا ، يوشك أن يملك موضع قدميَّ هاتين ، ولو أرجو أن أخلص إليه لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَهُ - أي : لقاءه - ولو كنت عنده لغسلت قدميه .

قال : ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ وأمر به فقريء ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِمَ تَسَلَّمَ ، وأسَلِمَ يُوْتِكُ الله أجرَك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين (*) »

﴿ قُلْ يَا هَلْ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

(*) الأريسيون هم فلاحو السواد ، مفردة : أريس ، وقيل : هم قوم من المجوس غير أنهم لا يعبدون النار ، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم - عليه السلام - وقيل : إنه نسبة إلى فرقة تعرف بالأريسية في رهط هرقل ، وقيل غير ذلك .

اللَّهِ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿﴾

قال أبو سفيان : « فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عطاء الروم
وكثر لغتهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما أن خرجت مع أصحابي
وخلوت بهم قلت : لقد أمر أمرُ ابن أبي كَبْشَةَ (***) هذا ملك بنى الأصفر يخافه .

قال أبو سفيان : والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي
الإسلام وأنا كاره . »

إن وصف المرء بالشئال - فضلاً عن ذروة الشئال - يكون عادة من أصحابه ، أو
من قوم ليسوا بالأصحاب ولا بالأعداء ، أما أن يجيء الوصف بقمة المحامد وذروة
المكارم من عدو ، يزجى هذه الأوصاف مؤمناً بها وإن كان كارهاً لذكرها ، فهذا هو
الأمر العجيب ، إن أبا سفيان وهو في شدة عدائه لمحمد وذروة كراهيته للإسلام يقرر
في إجاباته لقيصر أن محمداً ذو نسب ، وأنه الصادق غير الكاذب ، وأن أحداً لا يدخل
دينه ثم يخرج منه ، وأنه صادق العهد لا يغير ، وأنه شجاع في الحرب ، وأنه يأمر
بعبادة الله لا يُشركُ به شيء ، وينهى عن عبادة الأصنام ، ويأمر بالصلاة والصدق
والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وأين يحدث ذلك ؟ يحدث عند قيصر وكبار
رجال دولته من حوله ، ولا يجد قيصر حرجاً في أن يمتدح محمداً ، بل يستخرج هذه
الشهادة الجليلة بشئال محمد ﷺ من قلب مشرك لم ينشرح صدره للإسلام إلا في وقت
متأخر .

وما دمننا بسبيل تسجيل أوصاف رسول الله ﷺ فإن من أدقها تناولا وأكثرها شمولاً
وصف هند بن أبي هالة التميمي ابن السيدة خديجة حين سأله ابن أخته الحسن : (١)
قال الحسن بن علي بن أبي طالب - رضی الله عنه - : سألت خالي هند بن أبي هالة

(***) أمر أمره يعني عظم شأنه ، وابن أبي كبشة أراد به النبي ﷺ على سبيل النبل منه ، فقد ورد في الأخبار أن أبا كبشة
رجل من خزاعة خالف قريشا في عبادة الأوثان فعبد الشعري ، فنسبوه إليه للاشتراك معه في مطلق المخالفة في
دينهم .

(١) منال الطالب في شرح طوال الغرائب ، لمجد الدين بن الأثير ١ / ١٦٨ .

التميمي عن حلية النبي ﷺ وكان وصافاً له ، وأنا أشتهى أن يصف لي منها شيئاً لعلّي أتعلّق به .

فقال : « كان رسول الله ﷺ فحماً مُفخماً ، يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع ، وأقصر من المشدّب ، عظيم الهامة ، رجّل الشعر ، إن انفردت عقيصته فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفرّه ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزجّ الحواجب ، سوايغ في غير قرن ، بينهما عرق يدّره الغضب ، أفنى العينين ، له نور يعلّوه ، يحسبه من لم يتأمله أشمّ ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب ، مفلّج الأسنان ، دقيق المسرّبة ، كأنّ عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادناً متماسكاً ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والشرة بشعر يجري كالخطّ ، عارى الثديين والبطن ممّا سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، سبط القصب ، شئن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، مخصان الأخصمين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال قلماً ، يخطو تكفناً ، ويمشى هوناً ، ذريع المشية ، إذا منى كأنها ينحط من صيب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جلّ نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسّلام . »

قلت : صف لي منطقه .

قال : « كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكّ ، لا يتكلّم في غير حاجة ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلّم بجوامع الكلم ، فضلاً لا فضول ولا تقصير ، دميماً ليس بالجافي ولا المهين ، يعظّم النعمة وإن دقت ، ولا يدّم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يدّم ذواقاً ولا يمدّحه ولا تغضبه الدنيا ، ولا ما كان لها ، فإذا تعوطى الحقّ لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلّها ، وإذا تعجّب قلبها ، وإذا تحدّث اتّصل بها ، فيضرب بباطن راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى ، فإذا

غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ ، وَيُقْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ .

قال الحسن : فَكَتَمْتُهَا الْحُسَيْنَ زَمَانًا ، ثُمَّ حَدَّثْتُهُ فَوَجَدْتُهُ سَبَقَنِي إِلَيْهِ ، فَسَأَلَهُ عَمَّا سَأَلْتَهُ ، وَوَجَدْتَهُ قَدْ سَأَلَ أَبَاهُ - يَعْنِي عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - عَنْ مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ وَشَكْلِهِ ، فَلَمْ يَدْعُ مِنْهُ شَيْئًا . فَقَالَ : « كَانَ دُخُولُهُ لِنَفْسِهِ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَاءً دُخُولُهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ : جِزَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجِزَاءَ أَهْلِهِ ، وَجِزَاءَ لِنَفْسِهِ ، ثُمَّ جِزَاءً جُزْءَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَيُرَدُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَامَّةِ بِالْخَاصَّةِ ، وَلَا يَدْخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا . »

وَذَكَرَ دُخُولَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ فَقَالَ : « يَدْخُلُونَ رُؤَادًا ، وَلَا يَفْتَرِقُونَ إِلَّا عَنْ ذَوَاقٍ ، وَيَخْرُجُونَ أَدِلَّةً . »

وَذَكَرَ مَجْلِسَهُ فَقَالَ : « مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ ، لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ ، وَلَا تُؤَبَّنُ فِيهِ الْحُرْمُ ، وَلَا تُتَنَّى فَلَنَاتُهُ ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرُقَ جَلِيسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا ، كَانَ دَائِمَ الْبِشْرِ ، سَهْلَ الْخُلُقِ ، لَيِّنَ الْجَانِبِ ، لَيْسَ بِقَطِّ وَلَا غَلِيظَ ، وَلَا سَخَّابَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا فَحَّاشٍ وَلَا عَيَّابٍ وَلَا مَدَّاحٍ ، وَلَا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ (١) » (*) .

(١) منال الطالب في شرح طوال الغرائب ، لمجد الدين بن الأثير ١ / ١٦١ ، ١٦٢ .

(*) حلية النبی : صفته . المربع : المعتدل القامة . المشدب : الطويل البائن الطول . الهامة : الرأس ، وعظم الرأس دليل على وفور العقل . الشعر الرّجل : الذى ليس شديد الجموعة ولا شديد السبوة بل بينهما . العقبية : الشعر المجموع كهيئة المضمفور . وقيل : هى الخصلة من الشعر إذا عُقِصَتْ . الانفراق : الفصل بين الشيتين ، أى : كان لا يفرق شعره . وفرة : أعفاه من الفرق . شحمة الأذن : طرفها الأسفل . اللون الأزهر : الأبيض المضيء . الزجج : دقة الحاجبين وسبوغهما إلى آخر العين مع تقوس خلقه ، القرن - بفتحيتين - : أن تلتقى طرفاهما ما إلى أعلى الأنف ، وهو غير محمود عند العرب ويستحبون البلج - بفتحيتين - وهو بياض ما بين رأس الحاجبين وخلوه من الشعر . السوايغ : جمع سايغ ، وهو الطويل التام . العرنين : الأنف . القنا : طول الأنف ودقة أرنبته مع ارتفاع فى وسط قصبته . الشمم : ارتفاع رأس الأنف . سهل الخدين : ليس فيها نترة وارتفاع . الضليح الفم : العظيم الواسع . الشنب : رقة الأسنان ودقتها وتحدد أطرافها . الفلج : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات ، الفرق - بفتحيتين - فرجة بين الثنيتين . المسربة - بضم الراء - : ما دق من شعر الصدر سائلا إلى السرة . البادن : الضخم التام اللحم . الكراديس : جمع كردوس ، وهو رأس كل عظم كبير وملتقى كل عظمين ضخمين كاللكيين والمرفقين . اللبّة - بالفتح - : الوهدة التى فى أعلى الصدر فى أسفل الحلق . الششن : الغليظ الأطراف والأصابع . السبط : الممتد فى استواء . الأخص من القدم : الموضع الذى لا يصل إلى الأرض منها عند الوطاء و مسح القدمين : أى ظاهرهما =

كان ذلك وصف هند بن أبي هالة للنبي ﷺ طبقاً لما رواه له الحسن ابن أخته - الزهراء فاطمة - وكان الحسن قد سأل خاله هنداً عن صفة النبي ﷺ وكان هند وصافاً ، وقد رأينا ملحفاً مختصراً ببعض صفات النبي ذكرها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لولده الحسين رضي الله عنه . وها نحن نثبت وصفاً طبقاً لما نعت به علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه (١) :

« لم يكن بالطَّويل المُمَغَط ، ولا القصير المتردِّد ، كان ربَّعةً من القوم ، ولم يكن بالجَعْد اللَّقَطَط ولا السَّبَط ، كان جَعْدًا رَجَلًا ، ولم يكن بالمُطَهَّم ولا المُكَلَّم ، أبيضُ مُشْرِبٌ أَدْعَجُ العينين ، أَهْدَبُ الأشْفار ، جَلِيلُ المُشاش والكَتَد ، أَجْرَدُ ، شَتْنُ الكَفَّين والقدمين ، دَقِيقُ المُسْرَبَةِ ، إذا مشى تَقَلَّعَ ، كأنما يمشى في صِيب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتَمُ النُّبُوَّةِ ، وهو خاتَمُ النَّبِيِّينَ ، أجودُ الناس كَفًّا ، وأرحبُ الناس صَدْرًا ، وأصدقُ الناس لهجَةً ، وأوفى الناس بِدَمَةٍ ، وألينهم عَرِيكَةً ، وأكرمهم عِشْرَةً . مَنْ رآه بِبَدِيهَةٍ هَابَةٍ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ . يقول نَاعِيتهُ : لم أرَ قبلَه ولا بعده مثله . »

= مسح غير متعقد . إذا زال زال قلماً : يعنى قالعا لرجله من الأرض ، وفي حديث آخر : « كأنها ينحط من صيب » والانحدار من الصيب . التكفو : تمايل الماشى إلى قدام كما تتكفا السفينة والغصن إذا هبت الرياح . الهون - بسكون الواو - : المشى في رفق ولين . الدريع : السريع . الملاحظة : أن ينظر الرجل بلحظ عينه - وهو شقها الذي يلي الصُدغ والأذن . يسوق أصحابه : يقدمهم أمامه ويمشى وراءهم . طويل السكت : يعنى طويل السكوت . الأشداق : جمع شديق ، وهو جانب الفم . جوامع الكلم : القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى ، ومنه الحديث : « أوتيت جوامع الكلم » يعنى القرآن . الدمث : السهل اللين الخلق ، وأصله من الدَّمَث وهى الأرض اللينة السهلة . الجافى : المعرض المتباعد عن الناس ، من الجفاء . المهين : - بضم الميم وفتحها - فالضم من الإهانة ، أى : لا يهين أحداً ، والفتح من المهانة ، وهى الحقارة والصغر . الذواق : اسم ما يذاق باللسان ، أى : لا يصف الطعام بطيب ولا بشاعة . إذا تعوطى الحق لم يعرفه أحد : أى إذا نبيل من الحق أو تعرض للقدح فيه تنكر عليهم وخالف عاداته معهم حتى لا يكاد يعرفه أحد منهم . الجزء الذى لله : اشتغاله بعبادته ومناجاته فى ليله ونهار . الجزء المختص بأهله : هو الوقت الذى يصحبهم ويعاشرهم فيه ، الجزء المختص بنفسه : هو الجزء الذى لا يتعبد فيه ولا يعاشر أهله ، فقسمه قسمين بينه وبين الناس .

الرواد : جمع رائد ، وهو الذى يتقدم القوم يكشف لهم حال الماء والمرعى قبل وصولهم إليه . يخرجون أدلة : جمع دليل ، أى : يدلون الناس بما قد علموه منه وعرفوه . لا يفترقون إلا عن ذواق : أى : لا يفترقون إلا عن علم يتعلمونه يقوم لهم مقام الطعام والشراب . لا تؤبن فيه الحرم : أى لا تقذف ولا ترمى بعيب ، والحرم : جمع حرمة ، وهى المرأة وما يلزم الإنسان حفظه وصونه . لا تنثى فلناته : لا يتحدث عن مجلسه بهفوة أو زلة ، يقال : نثوت الحديث فأنا أنثوه نثواً : إذا أذعته . السخَّاب : فتال من السخب وهو الضجة واضطراب الأصوات ، ويروى بالسین والصاد .

(١) المصدر السابق ١ / ١٧٤ .

زاد في رواية أخرى « كان صَحْمَ الرأس ، عظيمَ العينين ، كَثَّ اللَّحْيَةِ ، أَزْهَرَ اللَّوْنَ ، أبيضَ ، مُشْرَباً بياضه حُمْرَةً ، أَسْوَدَ الحَدَقَةَ ، لا قَصِيرٌ ولا طَوِيلٌ ، وهو إلى الطُّولِ أَقْرَبُ ، ليس بالطويل البائن ، ولا الطويل المُتَنَبِّئِ ، ولا القصير الفاحش ، شَعْرُهُ إلى شحمة أُذُنِهِ ، عَرِيضُ الجَبْهَةِ ، مُفَلَّجُ الشَّيْءِ ، أُسَيْلُ الحَدِّدِ ، على شفته السُّفْلَى خَالٌ ، كَأَنَّ عُنُقَهُ إِبْرِيْقُ فِضَّةٍ ، بعيداً ما بين المنكبين ، كأن كَفَّهُ من لينها مسُّ أَرْتَبٍ ، كأنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ ، وإذا جاء مع القوم غَمَرَهُمْ ، وإذا ضَحِكَ تَبَسَّمَ ، ليس بِسَخَابٍ في الأَسْوَاقِ » (*).

هذا ما رُوِيَ في صفته عن علي بن أبي طالب ، على اختلاف طُرُقِهِ ، بإسقاط المتكرر منها في الطُّرُقِ .

إن الذين وصفوا رسول الله ﷺ كثيرون ، وكلهم رأوه رأى العين ، فهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ يصفه وقد سمعه ربيعة بن أبي عبد الرحمن (١):

« كان ربيعة من القوم ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم ، ليس بجعد قطط ولا سبط رجل ، أنزل عليه وهو ابن أربعين ، فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه ، وبالمدينة عشر سنين ، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء » .

قال ربيعة : فرأيت شعراً من شعره فإذا هو أحمر ، فسألت ، فقيل : أحمر من الطيب .

وقد وصف أبو هريرة رسول الله ﷺ أكثر من مرة ، يقول مرة في صفته ﷺ : « كان

(*) الممَّعَطُ - بتشديد الميم الثانية - الشديد الطول ، وأصله منمَّعَطٌ ، فأدغمت النون في الميم . المتردد : الذي تردد بعض خلقه في بعض فاجتمع بدنه وتداخل قصره . القطط - بالفتح - : هو المتناهي الجعودة . السبط - بالفتح - الذي لا جعودة فيه أصلاً . المطهم : المنتفخ الوجه . المكثم : المستدير الوجه ، وقيل : هو القصير الحنك . المشرب : الذي خالط بياضه حمرة . الأدهج : الشديد سواد العين مع سعتها . الأهدب : الطويل شعر الأبقان . المشاش : رهوس العظام كالمنكبين والمرفقين . الكنتد - بفتح الكاف وكسرهما - : ما بين الأكتاف إلى الظهر . العريكة : الحلقة والسحجة .

(١) صحيح البخاري باب صفة النبي ٢ / ١٨١ .

ربعة وهو إلى الطول أقرب ، شديد البياض ، أسود شعر اللحية ، حسن الثغر ، أهدب أشفار العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، مفاض الخدين ، يظأ بقدمه جميعا ليس لها أخص ، يقبل جميعا ، ويدبر جميعا ، لم أر مثله قبل ولا بعد « (١) .

وكان أبو هريرة ربما حدث عن النبي ﷺ فيقول : « حدثنيه أهدب الشفرين أبيض الكشحين ، إذا أقبل أقبل جميعا ، وإذا أدبر أدبر جميعاً ، لم تر عين مثله ولن تراه » (٢) .
وفي الصحيح : « كان النبي ﷺ مربوعا ، وقد رأيت في حلة حمراء ، ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كأن الشمس تجري في جبهته » .
وقد قال حسان بن ثابت في وصفه :

وأحسنُ منك لم ترَ قطُّ عيني
وأجملُ منك لم تلِدِ النساءُ
خُلِقْتَ مُبرَأً مِنْ كُلِّ عيبٍ
كَأَنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تَشَاءُ

وتصف أم المؤمنين عائشة رسول الله ﷺ وهو يتكلم فتقول : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصل ، يحفظه من جلس إليه » (*) .
وعن أدبه ﷺ يقول له أبو بكر مرة : لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك - أى : علّمك - ؟ قال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

وأما عن الشبيه فقد كان كل من الحسن والحسين حفيديه ﷺ يشبهانه ، يقول أبو جحيفة - رضی الله عنه - : رأيت النبي ﷺ وكان الحسن بن علي - عليهما السلام -

(١) الأدب المفرد ، الحديث رقم ١١٥٥ - الأهدب : الذى طالت أهداب عينيه وكثرت أشفاره ، مفاض الخدين ، أى : مستوى الخدين .

(٢) المصدر السابق ، الحديث رقم ٢٥٥ .

(*) السرد : متابعة الكلام على الولاء أو التوالى .

يشبهه ، وعن عقبة بن الحارث قوله : صلى أبو بكر - رضى الله عنه - العصر ، ثم خرج يمشى ، فرأى الحسين يلعب مع الصبيان ، فحمله على عاتقه وقال : بأبى شبيهه بالنبي لا شبيهه بعلى ، وعلى يضحك (١).

إن واصفى رسول الله ﷺ من الصحابة كثيرون ، مثل على بن أبى طالب وعائشة أم المؤمنين ، وأنس بن مالك ، وأبى هريرة ، والبراء بن عازب ، وهند بن أبى هالة ، وأبى جحيفة ، وجابر بن سمرة ، وأم معبد ، وعبدالله بن عباس ، ومعرّض بن معيقب ، وأبى الطفيل ، والعداء بن خالد ، وخريم بن فاتك ، وحكيم بن حزام ، وغيرهم ، ولقد جمع القاضى عياض أهم أوصافه مستعينا بكلام من أسلفنا ذكرهم وقال (٢):

« أزهر اللون ، أدعج ، أنجل ، أشكل ، أهدب الأشفار ، أبلج ، أزج ، أقى ، أفلج ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كَثَّ اللحية تملأ صدره ، سواء البطن والصدر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخّم العظام ، عبل العضدين والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجرد ، دقيق المشربة ، ربعة القد ، ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد - ومع ذلك فلم يكن يباشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ رَجَل الشعر ، إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام (البرد) ، إذا تكلم رثى كالنور يخرج من ثناياه ، أحسن الناس عنقا ، ليس بمطهم ولا مكلثم ، متماسك البدن ضرب اللحم » .

ويذكر القاضى عياض فضل الله على سيدنا محمد ﷺ في خلقه فيشير إلى كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وقوة حواسه وأعضائه ، واعتدال حركاته ، وشرف نسبه ، وعزة قومه ، وكرم أرضه .

هكذا وجدنا كثيرا من الصحابة يصفون رسول الله ، وكلهم صادق في وصفه ، فالكل متفق بعضهم مع بعض في ذكرهم أوصافه ، ولكن الأمر الجليل أن عددا من الصحابة لم يستطيعوا ذكر أوصاف رسول الله ﷺ ليس لقصور في بلاغتهم أو عيب في

(١) البخارى : ج ٢ باب صفة النبي ص ١٨٤ .

(٢) كتاب الشفا ، ص : ٣٨ .

بينهم ، فلقد كانوا بلغاء أبناء ، ولكن لأن رسول الله ﷺ كان من المهابة بحيث لم يجراًوا على إطالة النظر في وجهه الكريم ، فهذا عمرو بن العاص - وهو من هو قربا إلى رسول الله - يقول : « ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطق ؛ لأنى لم أكن أملأ عيني منه » .

ويروى أنس - وكان خادم رسول الله وملازمه - « أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر ، فإنها كانا ينظران إليه وينظر إليهما ، ويتبسمان إليه ويتبسم لهما » (١) .

وأما أخلاقه الأخروية فهي : الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والزهد ، والتواضع ، والعفو ، والفقو ، والجود ، والشجاعة ، والحياء ، والمروءة ، والصمت ، والتؤدة والوقار ، والرحمة ، وحسن الأدب والمعاشرة .

ويذكر القاضي عياض ما اختص الله به سيدنا محمدا ﷺ فيقول (٢) :

اختصه الله بفضيلة النبوة ، والرسالة ، والخلة ، والمحبة ، والاصطفاء ، والإسراء ، والرؤية ، والقرب ، والدنو ، والوحى ، والشفاعة ، والوسيلة ، والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، والبراق ، والمعراج ، والبعث إلى الأحمر والأسود ، والصلاة بالأنبياء ، والشهادة بين الأنبياء والأمم ، وسيادة ولد آدم ، ولواء الحمد ، والبشارة ، والندارة ، والمكانة عند ذى العرش ، والطاعة ، والأمانة ، والهداية ، ورحمة للعالمين ، وإعطاء الرضى والسؤل ، والكوثر ، وسماح القول ، وإتمام النعمة ، والعفو عما تقدم وتأخر ، وشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، وعزة النصر ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحكمة ، والسبع المثاني ، والقرآن العظيم ، وتركبة الأمة ، والدعاء إلى الله ، وصلاة الله - تعالى - والملائكة ، والحكم بين الناس بما أراه

(١) الشفا للقاضي عياض ٢ / ٣٠ .

(٢) الشفا ١ / ٣٨ .

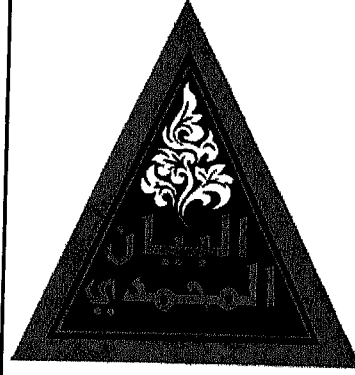
الله، ورفع الإصر والأغلال عنهم ، والقسم باسمه ، وإجابة دعوته ، وتكليم الجمادات والعجم ، وإحياء الموتى ، وإسراع الصُّم ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير القليل ، وانشقاق القمر ، وردّ الشمس ، وقلب الأعيان ، والنصر بالرعب ، والاطلاع على الغيب ، وظلّ الغمام ، وتسييح الحصا ، وإبراء الآلام ، والعصمة من الناس .

إن محمدا ﷺ هو النبي المصطفى ، وهو الرسول المجتبي ، وإن اصطفاه الله له واجتباؤه إياه يتطلبان بدهاء أنبل الفضائل ، وأكرم الشائيل ، وأكمل السات ، وأجل الصفات ، وأرفع المواهب ، وأسمى المناقب ، ومن ثم فقد كرمه الله - تعالى - في كثير من آيات كتابه العزيز بالإطراء الإلهي حيناً ، وبالقسم بشخصه حيناً آخر ، وبالقسم على تكريمه حيناً ثالثاً .

فالله - سبحانه - يقول في مقام إطرائه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَخْفِكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتَذَكَّرُكَ بِعَمَلِكُمْ وَإِيَّاكَ يَهْتَدِي * وَسَيُصْرِكُ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾

ويقول : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ وفي مقام القسم يقول الله - تعالى - : ﴿ يَس * وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ويقول : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَالصُّحْحَىٰ * وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ * وَمَاقَلَىٰ * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾

ولعل من أجل الأوصاف التي وصف بها رسول الله بالسنة البشر هو قول السيدة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - : « كان خلقه القرآن ، يرضى برضاه ويسخط بسخطه » . نصر الله وجه عائشة ، وصلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .



الفصل الثاني

فصاحة محمد ﷺ

فصاحة محمد ﷺ وبلاغته

فصاحة رسول الله ﷺ أمر معترف به عند العرب منذ فجر صباه ، وهو يعلم ذلك في نفسه ، مثلما يعلمه الآخرون ، ولذلك كان ﷺ يقول : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد » وفي رواية : « في بني سعد بن بكر » .

ولم يكن رسول الله ﷺ يقول ذلك على سبيل الفخر والمباهاة ، وإنما كان ذلك منه على سبيل الحقيقة والتقرير ؛ فإن فصاحة لسانه ونقاء بيانه أمران مقرران عند الخاصة فضلا عن الجمهرة ، وقد قال له أصحابه : ما رأينا الذي هو أفصح منك !! فقال ﷺ : « وما يمنعني وقد نزل القرآن بلساني ، لسان عربي مبين » (١) .

إن القاضي عياضا - وهو ينظر في قوله ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد » يقول : فجمع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشري (٢) .

ويصف القاضي عياض فصاحة رسول الله ﷺ فيقول : « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يبجل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانٍ ، وقلة تكلف ، وأتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعُلم السنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله » (٣) .

(١) الشفا للقاضي عياض ١ / ٤٧ .

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٣) السابق ١ / ٤٤ .

وسوف يتبين لنا ذلك بوضوح كامل في الفصل الخاص بكتبه ﷺ للوفود .

وأما مصطفى صادق الرافعي إمام مدرسة الكتابة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري فيسبح في خضم نفحات حديث « أنا أفصح العرب . . . الحديث » ويقول : لو كان فيهم - أي : في العرب - أفصح منه لعارضوه به . ثم يستطرد قائلاً : كان مولده في بني هاشم ، وأحواله في بني زهرة ، ورضاعه في سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد ، ومهاجرته إلى بني عمرو : وهم الأوس والخزرج ، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة ، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة . ويمضى مصطفى صادق الرافعي قائلاً : فكان ﷺ يعلم كل ذلك على حقه - أي لغات العرب على اختلاف مواطنهم واشتراك اللغات وانفرادها بينهم - كأنها تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً ، وأسدهم لفظاً ، وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب (١) .

إن أم المؤمنين عائشة - رضی الله عنها - تصف كلامه وبيانه قائلة : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه » .

وهذه أم معبد صاحبة الحديث الطويل المشهور في وصف رسول الله ﷺ تصف كلامه فتقول : حلو المنطق ، فصل ، لا نَزْر ولا هَذْر ، كأن منطقه خرزات نُظْمَن ، وكان جهير الصوت حسن النعمة ﷺ (٢) .

هكذا كان كلامه ﷺ وهكذا كان أدائه حين ينطق ، وللأداء الأمثل قواعد وأصول ، أرسى أسسها وأحكم بنيانها رسول الله ﷺ فلا تشدق ولا تردد ، ولا استعلاء ولا تفيهق ، فقد ذم هذه الخصال وقبحها ، ونبه المتحدثين إلى تجنبها في قوله ﷺ : « إن

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٣١٥ ، ٣١٨ .

(٢) الشفا ١ / ٤٧ .

أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة ، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون» (١) .
ولقد أكثر أعرابى عنده الكلام ، فقال ﷺ له : « يا أعرابى ، كم دون لسانك من حجاب ؟ » قال : شفتاى وأسنانى . فقال ﷺ : « إن الله يكره الانبعاث فى الكلام فنضّر الله وجه امرىء قصر من لسانه واقتصر على حاجته » (٢) أى : الاندفاع فيه والإكثار .

إن أبا الحسن الماوردى يلتقط هذا الملحظ النبوى البلاغى - أو كأنه فعل ذلك - فيصف فصاحة رسول الله ﷺ بحساباتها واحدة من خصاله فيقول : كان من خصال رسول الله ﷺ أنه أفصح الناس لسانا ، وأوضحهم بيانا ، وأجزهم كلاما ، وأجزهم ألفاظا ، وأصحهم معانى ، لا يظهر فيه هجئة التكلف ، ولا يتخلله فيهقة التعسف ، وكان يقول : « أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون » وكان ﷺ يقول أيضا : « إياك والتشادق » (٣) .

ومن أجلّ أوصاف فصاحة الرسول ﷺ ما سطرته يراع الجاحظ فى هذا المقام إذ يقول بعد أن وصف شيئا من فن فصاحة الرسول : وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ وهو الكلام الذى قلّ عدد حروفه وكثرت معانيه ، وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف ، وكان كما قال الله - تبارك وتعالى - قل يا محمد : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التعقيب ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشيّد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له

(١) رواه الترمذى .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٦٦ .

(٣) المصدر السابق الصفحة نفسها .

قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يَقُمْ له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهزم ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً ، ولا أفصدَ لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ» (١).

ولأول مرة تقرن صفة البلاغة بصفة الفصاحة ، وذلك في بعض ما وصف به أبوالحسن الماوردي كلام رسول الله ﷺ يقول الماوردي ذاكرا بعض سمات البلاغة وصفات الفصاحة الكامنة في منطقة ﷺ: (٢).

«إن كلامه جامع لشروط البلاغة ومعرب عن منهج الفصاحة ، ولو مُزجَ بغيره لتمييز بأسلوبه ، ولظهر فيه آثار التنافر ، فلم يلتبس حقه من باطله ، ولبان صدقه من كذبه هذا ولم يكن متعاطيا للبلاغة ، ولا مخالطا لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء ، وإنما هو من غرائز فطرته ، وبداية جِبِلَّتِهِ ، وما ذاك إلا لغاية تراد ، وحادثة تشاد .»

ويضيف القاضي عياض لونا آخر من فصاحة لسان الرسول ﷺ وبلاغة قوله فضلا عن نصاعة اللفظ وبراعة المنزع هو قوله : (٣)

« وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يُجهل ، سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانى ، وقلة تكلف . أوتى جوامع الكلم ، وخصّ ببدايات

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٧ ، ١٨ .

معانى بعض الألفاظ : التعقيب كالتعير : هو أن يتكلم المرء بأقصى قعر فمه . الفلج - بالفتح والسكون ، وبالتحريك أيضا - : الفوز والظفر . الهمز : العيب في الغيبة . واللمز : العيب في الخاضرة . الحصر : العنى في الكلام .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٦٨ .

(٣) الشفا ١ / ٤٤ .

الحكم . وعُلمَّ ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويجاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ، ككلامه مع ذى المشعار الهمداني - وطهفة النهدي ، وططن بن حازثة العليمي - والأشعث بن قيس ، ووائل بن حُجر الكندي وغيرهم من أقبال حضرموت وملوك اليمن .

ومن نناذج أقواله ﷺ التي إعجازها في إيجازها فبهرت العقول ، وأذهلت الفطن ، طبقا لما ذهب إليه أبو الحسن الماوردي في وصفها - وهو أسمى من أمة أمية ، لم يقرأ كتابا ولا درس علما ، ولا صحب عالما ولا معلما - ما سطره في تعامله معها على هذا النحو الرفيع : (١)

« أتى بما بهر العقول وأذهل الفطن ، من إتقان ما أبان ، وإحكام ما أظهر ، فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل ، وجعل مدار شرعه على أربعة أحاديث ، أوجز بها المراد ، وأحكم بها الاجتهاد ، أحدها قوله : « إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » والثاني قوله : « الحلال بينٌ والحرام بينٌ ، وبين ذلك أمورٌ مشتهيات ، ومن يحم حول الحمى يوشك أن يقع فيه » والثالث قوله : « من حسن المرء تركه ما لا يعنيه » والرابع قوله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

وإذا كان الماوردي قد رأى من بلاغة الرسول ﷺ أن جعل مدار شرعه على أربعة أحاديث ، فإنه قد مضى في ضرب الأمثلة لبلاغة إيجاز الرسول من واقع ذكر عدد من أقواله الشريفة التي جرت مجرى الأمثال ، وهو ما سوف نتناوله بشيء من التوسع والتفصيل في فصول قادمة إن شاء الله .

يقول الماوردي : إن من إيجازه قوله ﷺ : « الناس بزمانهم أشبه » وقوله : « ما هلك أمرؤُ عرف قدره » وقوله : « لو تكاشفتهم ما تدافنتم » وقوله : « السعيد من وعظ بغيره » وقوله : « حبك للشىء يعمى ويصم » وقوله : « العقل ألوف مألوف » وقوله : « أفضل

(١) أعلام النبوة ص ٢٦٣ ، ٢٦٦ .

الصدقة جهد المقلّ» وقوله : « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله : « تزكُ الشرّ صدقة » وقوله : « الخير كثير وقليل فاعله » . وقوله : « نزلت المعونة على قدر المؤونة » .

ويتحدث القاضي عياض عن الكلام المعتاد لرسول الله ﷺ فيقول : (١)

وأما كلامه المعتاد ، وفصاحته المعلومة ، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة ، فقد ألف الناس فيها الدواوين ، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ، ومنها ما لا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة ، كقوله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » وكقوله : « الناس كأسنان المشط » و « المرء مع من أحب » و « لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له » و « الناس معادن » و « ما هلك امرؤ عرف قدره » و « المستشار مؤتمن ، وهو بالخيار ما لم يتكلم » و « رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم » وقوله : « أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين » و « إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطأون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » وقوله : « لعله كان يتكلم بها لا يعنيه ، ويبخل بها لا يعنيه » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها . . . » وقوله : « اتق الله حيث كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » و « خير الأمور أوسطها . . . » وقوله في دعائه : « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلمُّ بها شعني ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكّي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وتردّ بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » .

ويمضى القاضي عياض على رسله ضاربا المثل تلو المثل من بلاغة رسول الله ﷺ في أغراض مختلفة ، ومناسبات متباينة ، شأنه في ذلك شأن من شغفوا برسول الله حبا وبرسالته إيمانا ، وببلاغته تعلقا .

ولقد صدق القاضي في ذكر أن الناس قد ألفوا في فصاحته ﷺ الدواوين ، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ، فإنه قلما لم يهتم عالم من علماء المسلمين - فضلا عن

(١) الشفا / ١ / ٤٦ .

أواسطهم - بسنة رسول الله وحديثه الشريف ، منذ أن ألفوا الكتابة فيها إلى يومنا هذا ، وإلى يوم يبعثون .

وها نحن من الذين ينتظمون هذا الموكب الشريف حباً في رسول الله ، وإجلالا لسنته ، وطمعا في شفاعته ورغبة في بركته - صلى الله عليه وعلى آله إلى يوم الدين .

ليس من شك في أن القاضى عياضا قد تمثل نهج من ساروا قبله في هذا المضمار الشريف ، الذين حفلوا ببلاغة رسول الله ، ومنهم القاضى الماوردى الذى أسلفنا بعض انطباعاته في هذا الشأن ، وها هو يضرب بعض الأمثلة لبلاغة الرسول ﷺ ممثلة في الإيجاز^(١)، منها قوله ﷺ :

« لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرما » وقوله ﷺ : « رحم الله عبدا قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم »

وقوله ﷺ : « ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فخشية الله تعالى في السر والعلانية ، والاقتصاد في الغنى والفقر ، والحكم بالعدل في الرضا والغضب ، أما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

لله در رسول الله !! فما أبين وما أبلغ وما أسمى هذا القول ، إيجازا وإعجازا ، وحكمة وتنويرا !!

ومن آيات إعجازه القولى وإيجازه البيانى في تربية النفس المؤمنة قوله ﷺ : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »

ومن قسم الإيجاز من بين أقواله ﷺ ذلك الحديث الشريف الذى رواه أبو حفص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وجعله النووى استفتاحا للأربعين حديثا التى اختارها من بين أحاديث رسول الله ﷺ : قال عمر - رضى الله عنه - : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله

(١) أعلام النبوة ، ص ٢٦٧ .

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

إن هذا الحديث الشريف ليس مثالا للإعجاز البياني وحسب ، وليس طرازا للإيجاز البلاغى فقط ، مع أن كل عبارة من عباراته قمة إعجاز ومعجزة إيجاز ، ولكنه طراز لأدب التعبير وجلال الصوغ ، إن محمدا الذى أدبه ربه يلتزم الأدب الربانى فى عباراته ، فإذا كانت الهجرة إلى الله ورسوله قال : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى أمر آخر ، مثل دنيا يصيبها ، أى : ربح ومال ومغنم ، أو إلى امرأة يريد هاله ، لم يقل ﷺ : فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، وإنما قال فى مضمار من أدب الإيجاز : فهجرته إلى ما هاجر إليه .

إن هذا اللون من الأحاديث الشريفة يمثل دروسا فى أدب الكلمة ، وعفة اللفظ ، ونقاء العبارة ، ودقة المحتوى ، ورقة التناول ، إن الربيع بن سليمان يقول : سمعت الشافعى يقول : يدخل هذا الحديث - يعنى حديث : إنما الأعمال بالنيات - فى سبعين بابا من الفقه .

ومن صور الإيجاز المبهر فى حديث رسول الله ﷺ ما رواه أبو عمرو - وقيل : أبو عمرة - سفيان بن عبد الله قال : قلت يا رسول الله : قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا غيرك .

قال : « قل آمنت بالله ، ثم استقم » رواه مسلم (١) .

إن هذا الحديث الشريف واحد من النماذج النبوية الكثيرة فى الإيجاز الموصول الأسباب بالإعجاز البيانى وإعجاز المعانى ، فإن قول رسول الله فى حديثه هذا يمثل الإسلام كل الإسلام ؛ ذلك أن الإسلام إيمان بالله ، ومن آمن بالله فقد آمن بملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر من بعث ونشور وحساب فى نطاق الثواب والعقاب وجنة

(١) الأربعمون النووية ، الحديث رقم ٢١ .

ونار، ويدخل في ذلك أصلا الإيمان بمحمد رسولا ، وبالإسلام دينا ، وبالقرآن كتابا منزلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هذا تفسير موجز للجزء من حديث رسول الله : « قل آمنت بالله » ثم يأتي بعد ذلك بقيه الحديث الذى هو لفظ واحد يمثله فعل أمر مسبوق بحرف عطف : « استقم » إنه لفظ جامع شامل مؤداه الالتزام باتباع أوامر الله ، والانتهاء عما نهى عنه ، ولقد سبقنى إلى هذا المعنى جمهرة علماء المسلمين حين قالوا : معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى ، وقالوا أيضا : هى من جوامع الكلم ، وهى نظام الأمور (١) . فإذا تحققت الاستقامة - بعد الإيمان - فى سلوك الفرد والجماعة فى كل ما يتصل بأسباب الحياة كان ذلك محققا لوجود المجتمع الأمثل وهو مجتمع الإسلام ، وضمن المسلمون سعادة الدنيا وعزتها ، وثواب الآخرة وثمرتها .

وعن حارثة بن وهب - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتُلّ جَوَّازٍ مستكبرٍ » .

إن الضعيف المستضعف الذى قصده رسول الله هو الذى يكف أذاه عن المسلمين ، ويخفف جناحه لهم ، ومن ثم يتظاهر بالضعف ويبارس سلوكه مع جمهرة المسلمين ، وأما العتُلّ فهو الغليظ الجافى ، والجَوَّاز : هو الجموع المنوع ، وقيل : الضخم المختال فى مشيته ، وهذه الصفات تتنافى مع سلوك المسلم ، وبالتالي لا يكون صاحبها من أهل الجنة .

وهكذا يكون الرسول ﷺ قد عرّف أهل الجنة وأهل النار فى ألفاظ قليلة محدودة ، يعبر لفظها عن معناه ، ويحمل جرسها مرماه ، ففريق الجنة ضعيف متضعف ، وفريق النار عتُلّ جَوَّازٍ مستكبر .

وهكذا لا تقف فصاحة رسول الله ﷺ عند حد الكلمات المأنوسة ، ولكنها تتعدى

(١) رياض الصالحين ص ٥٣ ط : مصطفى البابى الحلبى .

ذلك إلى كلمات ؛ وإن كانت غير مأنوسة ، فهي دقيقة التعبير لفظا وبنية وجرسا .
ومن ألفاظ رسول الله ﷺ التي تحمل بنيتها معانيها ، ويشتمل جرسها على مدلولها ما رواه جابر- رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » قالوا : يا رسول الله قد علمنا (الثرثارون والمتشدقون) فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » (١).

يَعْلَمُ رسول الله صحابته أن الثثرة - وهي كثرة الكلام بغير هدف أو طائل - ، والتشديق - وهو التطاول على الناس في الكلام - والتفيهق ، وهو التكبر ، من مساوئ الأخلاق التي تباعد بين أصحابها وبين مجلس الرسول ﷺ مثلها في ذلك مثل بعض عظام الذنوب ، ولذلك فإن صحابة رسول الله كانوا أقل الناس كلاما إلا فيما يكون فيه صلاح الناس ، أما تلتفهم في الكلام وتواضعهم في القول ، فكان ذلك جزءا من تكوينهم الذي نَسَّاهم عليه الصادق الأمين .

وفي هذه المناسبة يؤثر عن أمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - قوله : « ما ندمت على كلمة لم أقلها قط » .

هكذا ينبه رسول الله ﷺ إلى أن التعذر والتشديق والتفيهق في الكلام صفات مذمومة ، وسلوك غير محمود ، يتناقضان مع فضيلة حسن الخلق .

ومن ضروب الإيجاز المحمدي في ترغيب المسلمين إلى التزام العبادات وتحببها إليهم ذلك الحديث الموجز في قوله ﷺ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم .
وهكذا نرى بلاغة الإيجاز الشاملة على نورانية الترغيب وغاية التحبيب .

ولا يظن ظان - ونحن في معرض الحديث عن البلاغة النبوية في مضمار الإيجاز - أن تلك المأثرة البيانية موقوفة على الإيجاز دون الإطناب ؛ لأن فصاحته ﷺ متحققة في كل

(١) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ٤ / ٣٧٠ الحديث رقم ٢٠١٨ .

جملة ، مستوفاة في كل كلام ، إيجازا واعتدالا وإطنابا ، فهذا أمر مسلم به ، وسوف نعرض له بإفاضة في باب مستقل ، ولكن لا بأس - ونحن في حديث الإيجاز - أن نضرب مثلا سريعا لبلاغة الإطناب في كلام رسول الله . قال ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » رواه مسلم .

إن رسول الله ﷺ يحض المسلمين أفرادا وجماعات على الدعوة إلى الهدى مرغبا إليهم إلى فعل ذلك في حاشية من القول النبيل الجميل ، ولو أنه اكتفى بالقول - في نطاق الترغيب - بعبارة : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه » ووقف على ذلك دون زيادة لما عدَّ الكلام من ضروب الإطناب ، وكان في هذا القدر من الألفاظ كفاية لتحقيق المراد ، ولكنه ﷺ بما جبل عليه من قمة الفصاحة وذروة البلاغة أكمل العبارة بهذا القول المؤكد لعناه في سلاسة من القول وحكمة من الصوغ : « لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » وهنا يكون الإطناب ، ولكنه إطناب بليغ أكد المعنى المراد بجملة خفيفة على السمع ، سريعة الانسياب إلى القلب ، فورية القبول من النفس ، وبنفس المعيار يمكن تطبيق ذلك على النصف الثاني من الحديث .

نعود في سرعة إلى ما كان يشغلنا من حديث رسول الله ﷺ وهو ظاهر الإيجاز البليغ المعجز الذي لا يجارى . يقول رسول الله ﷺ في مجال تربية المسلمين على التواصل ، وتنشئتهم على الفضائل : « عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع » ومخارف الجنة روضاتها .

هذا كلام لا يسمو فوقه إلا كلام رب العالمين ، فمن ذا الذي يستطيع تصوير هذا المعنى في ثياب من تلك الألفاظ العِدَابِ ، المحملة بقوافل من التبشير بالجنة لمن عاد مريضا إلا محمد ﷺ أى دنيا من البلاغة حوت هذا المعنى ؟ وأى قبيل من الرقة الرقاقة المحببة اشتمل عليه هذا القول ؟ !

وقبل أن تنتهى من هذا الفصل يجمل بنا أن نشير إلى أسلوب رسول الله وهو يتعامل

مع إحدى صديقات أم المؤمنين خديجة الكبرى بعد وفاتها ، أسلوب البساطة المطلقة .
 كان رسول الله ﷺ أوفى الأوفياء ، ومن الوفاء بمكان أن يظل يذكر خديجة بعد وفاتها
 كلما سنحت الفرصة بذلك ؛ يترحم عليها ، ويمجد ذكراها . فهو القائل - والرواية
 لأبي هريرة - : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ،
 ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون » وفي الأدب المفرد من حديث
 أنس : كان النبي ﷺ إذا أتى بالشئ يقول : « اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقة
 لخديجة » .

وعن عائشة - رضی الله عنها وأرضاها - : جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال :
 « كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ » قالت : بخير بأبي أنت وأمي يا
 رسول الله . فلما خرجت قلت : يا رسول الله ، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟!
 فقال : « يا عائشة ، إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان » .

ولكثرة ما كان يذكر الرسول خديجة بالخير ، كانت أم المؤمنين عائشة تغار منها ، أو
 بالأحرى تغار - كزوجة - من كثرة احتفال الرسول ﷺ بزوجه الأولى ، ولا عليها في
 ذلك ؛ فهي من البشر . ومن رواية أبي داود مرفوعا إلى السيدة عائشة - رضی الله عنها -
 قولها : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة - رضی الله عنها - وما
 رأيتها قط ، ولكن كان - أي : الرسول - يكثر ذكراها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها
 أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا
 خديجة ؟! فيقول لي : « إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد » .

ومن آيات تكريم رسول الله ﷺ لخديجة - أو بالأحرى لذكرى خديجة - أنه في فتح
 مكة ضرب خيمته بالحجون حيث كانت ترقد أم المؤمنين خديجة في قبرها ، وارتفع علم
 الرسول ، ومن نفس المكان أشرف على معركة الفتح الأعظم ، ومنه دخل أم القرى
 حيث نصر الله عبده وأعز جنده .

قمة أدب التعبير :

من قمم الأدب في التعبير حوار الرسول ﷺ مع ابنته زينب حين أجارت زوجها أبا
 العاص ، وتلك هي كمال القصة :

أصابته إحدى سرايا رسول الله ﷺ مالا كان عند أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ وكان أبو العاص لا يزال على الشرك ، وهرب أبو العاص ثم جاء في الليل إلى بيت زينب في طلب المال ، واستجار بها ، فلما كبر رسول الله ﷺ في صلاة الصبح ، صرخت زينب من صُفَّة النساء - قائلة - : أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص ، فلما سلم النبي ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : « هل سمعتم ما سمعْتُ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أما والذي نفسى بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أديانهم » .

ثم دخل رسول الله ﷺ إلى زينب فقال : « أكرمى مثواه ، ولا يخلصنَّ إليك ، فإنك لا تحلين له » .

هنا تتجلى عظمة رسول الله ﷺ في معنيين :

الأول هو مطالبته زينب أن تكرم مثوى الرجل الذى كان زوجها لها وصهرا لرسول الله ﷺ ثم أوقف الشرك وعدم المسارعة إلى الإسلام هذا الزواج ، وهذا الطلب بالإكرام هو قمة أدب السلوك .

والثانى هو ذلك التعبير الذى جاوز غاية الأدب وقمة التهذيب فى عبارة غير مسبوقة فى كلام البشر ، وذلك قوله ﷺ : « ولا يخلصنَّ إليك فإنك لا تحلين له » وذلك تنبيه من الرسول الأب إلى زينب الابنة التى لا شك كانت تدرك ذلك وتعرف كيف تحافظ على نفسها ، ولكن الدين يقتضى التنبيه ، فكان ذلك التنبيه الراقى الأدبى الذى لا يחדش حياء ، ولا يجرح أنوثة ، ولا ينال من مروءة .

أما بقية القصة فهى مثال لمروءة الرسول حيال أبى العاص ؛ لأنه يعرف سريرة نفسه وصفاء معدنه ، وجماع خلقه ، قال الرسول ﷺ للأَنْصار : « إن تحسنوا وتردوا عليه المال فهو الذى نحب » ثم يستطرد قائلا : « وإن أبيتم فهو فيء الله أنتم أحق به » فردوه إليه أجمع .

وفى رواية أنه ﷺ قال للأَنْصار : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها - أى : لزينب -

وتردوا عليها ما لها فافعلوا» ذلك أن زينب بنت رسول الله قد بعثت في فداء أبي العاص بهال وبقلادة كانت أمها خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها .
فقال الأنصار : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها المال والبقلادة .

لقد فعل الرسول ﷺ هذا في زينب لأنه رَقَّ لها ، إذ لم يكن عندها من المال ما يكفى للفداء ، فبعثت بالبقلادة التي كانت لأمها وجهزتها بها وقت زواجها ، ولم يكن لأبي العاص مال ، وإنما كانت عنده أموال لقريش وبضائع يتجر بها .

أما ما كان من أبي العاص فإنه ارتحل إلى مكة ، فأدى إلى كل رجل من قريش ماله ، فقالوا : جزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفياً كريماً ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، والله ما منعتني من الإسلام عنده - أى : عند رسول الله في المدينة - إلا مخافة أن تظنوا أنى إنما أردت أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم أسلمت . ثم خرج حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ فرد إليه زوجته زينب بالنيكاح الأول ، وبقي بالمدينة حتى سار مع عليّ إلى اليمن فاستخلفه عليّ على اليمن لما رجع ، ثم كان مع عليّ يوم بويع أبو بكر .

ويتجلى ذلك أيضاً حين سمعت السيدة عائشة رسول الله ﷺ يكثر من ذكر السيدة خديجة ، وهو لا يذكرها إلا بالخير العميم ، ويهش للقاء صديقاتها ويؤثرهن بكثير من الصّلات وفاء لذكراها ، قالت له :

« وهل كانت إلا امرأة عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها ! !؟ »

فغضب الرسول حتى اهتز مَقَدَّم شعره من الغضب ثم قال : « لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذّبني الناس ، وواستنى في ما لها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الولد إذ حرمنى أولاد النساء » .

فقالت عائشة : « فقلت في نفسى : لا أذكرها بسيئة أبداً » .

لم تكن هذه طبيعة السيدة عائشة -رضى الله عنها- ولكنه كان طبع الزوجة فيها التي تغار على زوجها ، ذلك أن السيدة عائشة نفسها تصف أم المؤمنين زينب بنت

جحش- وهي أيضا ضررتها - فتقول : لم أر امرأة في الدين خيرا من زينب وأنتقى عند الله - عز وجل - وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة .

ولم يقف وفاء رسول الله ﷺ عند وفائه لخديجة خاصة ، وللمسلمين عامة ، بل اتسع قلبه الكبير لمكة المكرمة مسقط رأسه الشريف وأرض مولده ، وملعب صباه ، وملتقى وحى الله ، وميدان كفاحه ثلاث عشرة سنة منذ أكرمه ربه بالرسالة وخصه بالوحي . إن كلمات الوفاء التي خص بها زوجه خديجة ببلاغتها وعمقها تعانق كلمات الوفاء التي صدرت عنه ﷺ حين غادر مكة مهاجرا ، فقد قال ﷺ حين خرج من الغار - غار ثور - ونظر إلى مكة بعين دامعة وقسمات وجه حزين : « ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك » .

بهذه الكلمات البليغة الموجزة ، وبهذه الجمل القليلة الحزينة ودع رسول الله ﷺ مكة حبا منه لها ، ووفاء من نفسه الشريفة لأم القرى . تماما مثلما صدرت عن قلبه ولسانه الشريفين كلمات الوفاء الموجزة في حق أم المؤمنين خديجة الكبرى .

ومثلما قال الرسول ﷺ في مجال الوفاء ما قاله من بلاغة الإيجاز ، فإن الأسلوب القولى نفسه يصدر عنه ﷺ في مجال القناعة ، وما أكثر ما قال في القناعة .

عن عبدالله بن محصن الأنصارى -رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصبح منكم آمنا في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنها حيزت له الدنيا بحذافيرها» رواه الترمذى .

والسرب : هو القوم ، وقيل : النفس .

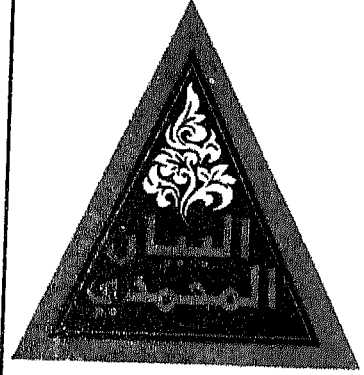
إن حديث بلاغة الإيجاز عند رسول الله ﷺ حبله طويل ، وسياقه ممتع ، وحصاده وفير ، ولكننا نكتفى بهذا القدر محتتمين هذا اللون من حديث الإيجاز في أقوال رسول الله ﷺ بهذا المثال :

روى البخارى -رحمه الله تعالى - في التاريخ ، والحارث بن أبى أسامة ، وابن مندّه ، والطبرانى ، والبزار ، والبيهقى ، برجال ثقات عن عبد الرحمن بن أبى عقيل الثقفى -

رضى الله عنه - قال : انطلقت في وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فأنحنأ بالباب وما في الناس رجل أبغض إلينا من رجل نلج عليه ، فلما خرجنا بعد دخولنا عليه فخرجنا وما في الناس رجل أحب إلينا من رجل دخلنا عليه . قال : فقال قائل منا : يا رسول الله ألا سألت ربك مُكاً كملك سليمان ؟ قال : فصحك رسول الله ﷺ ثم قال : «فلعل لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان - عليه السلام - إن الله - عز وجل - لم يبعث نبياً إلا أعطاه دعوة ، فمنهم من اتخذها دُنيا فأعطيتها ، ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا بها ، وإن الله - عز وجل - أعطانى دعوة فاختبأها عند ربى شفاعة لأمتى يوم القيامة» (١).

وهكذا تكون بلاغة الإيجاز في حديث الشفاعة خاتمة لهذا النوع من فن القول عند رسول الله ﷺ فاللهم اجعلنا ممن يبعثون تحت رايته ، ويرتوون من حوضه ، ويفوزون بشفاعته ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢).

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٥٦ .
(٢) سورة الشعراء ، الأيتان : ٨٨ ، ٨٩ .



الفصل الثالث

أدب الحوار في كلام النبي ﷺ

أدب الحوار في كلام النبي ﷺ

كان رسول الله ﷺ أكثر الناس أدبا في الحوار والسلوك ، وأشدهم حياء ، وأوفرهم مجاملة للآخرين ، كان هذا سلوكه مع الناس جميعا حتى مع مشركى قريش إذا حادتهم في غير شئون الدعوة ، كانت وفرة أدبه ، ورقة مجاملته من الأمور التى يعرفها عامة الناس وخاصتهم على وجه سواء .

كان أنس بن مالك - رضى الله عنه - خادما لرسول الله ﷺ ملازما له نحو عشر سنين في دار الهجرة ، ولأنس أخبار كثيرة رواها عن أدب رسول الله وحلمه وتلفظه مع العام والخاص .

يقول أنس في وصف آداب رسول الله وسمته : « ما شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ قال : ولا تناول أحد يده فيتركها حتى يكون هو الذى يتركها ، وما أخرج ركبتيه بين يدي جليس له قط ، وما قعد إلى رسول الله ﷺ رجل قط فقام حتى يقوم » (١) .

وفي رواية أخرى عن أنس قال : « ما أخرج رسول الله ﷺ ركبتيه قط بين يدي جليس له : ولا قعد أحد إلى رسول الله ﷺ فيقوم حتى يقوم الآخر ، ولا ناول يده النبي ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو يتركها » (٢) .

وعن ابن أبي أوفى يقول : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقبّل اللعن ، ويطيل الصلاة ، ويقصر الخطبة ، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين ،

(١) أخلاق النبي وآدابه ، للحافظ أبى محمد عبدالله بن محمد الأصبهاني المعروف بأبى الشيخ الحديث رقم ٣٩ الدار المصرية اللبنانية .

(٢) المصدر السابق الحديث رقم ٤٠ .

فيقضى له حاجته» (١).

وعن أم المؤمنين عائشة - رضی الله عنها - قالت : « ما ضرب النبي ﷺ امرأة قط ، ولا ضرب خادماً قط ، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله عز وجل ، ولا نيل منه فانتقم من صاحبه ، إلا أن تنتهك محارمه فينتقم » (٢).

كانت تلك بعض صفات رسول الله ، ولونا من ألوان سلوكه ﷺ وكان هذا السلوك يتضح في حوارهِ مع غيره من البشر أفراداً كانوا أم جماعات ، حضراً كانوا أم بدواً ، مشركين كانوا أم مؤمنين ، كتابيين كانوا أم مسلمين ، أنصاراً كانوا أم مهاجرين . وإنا لموردون نماذج من حوار رسول الله مع هؤلاء الذين تمثلناهم ، وحوارهِ ﷺ يأخذ لكل حالة مقتضاها ، ولكل موقف لبوسه ، في نطاق من نصاعة البيان ، وسلاسة القول ، ورقة الحوار ، وسعة الصدر ، وجلال التسامح ، وكظم الغيظ ، ويسر الإقناع ، ضارباً بذلك الأمثال للمسلمين - بل للناس جميعاً - أن يتمثلوا حلمه ، ويحفظوا قوله ، ويلتزموا سبيله ، ويتبعوا سنته ، ويقتفوا أثره .

فمن نماذج الحوار الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين واحد من البدو من مشركي العرب ، ذلك الحوار الذي أجراه ضمام بن ثعلبة مبعوث قبيلة سعد بن بكر الذي يورده ابن هشام على النحو التالي : (٣)

بعث بنو سعد بن بكر « ضمام بن ثعلبة » وافداً إلى رسول الله .

فقدم عليه وأناخ « ضمام » بعيره ، على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه .

وكان « ضمام » رجلاً جليداً ، أشعر ، ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله في أصحابه . فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ .

فقال رسول الله : « أنا ابن عبد المطلب ! » قال : أحمد ؟ قال : « نعم ! » .

(١) أخرجه النسائي ٣ / ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل ج ٤ / ٧٩ والبخاري ٦ / ٣٥٦٠ وأبو داود ٤ / ٤٧٨٥ .

(٣) السيرة ٢ / ٥٧٣ ، ٥٧٤ ط مصطفى البابي الحلبي .

قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تَجِدَنَّ في نفسك .

قال : « لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك » .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : الله بعثك إلينا رسولاً ؟

قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنتشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك . الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ .

قال : « اللهم نعم » .

وفي رواية أنه قال : يا محمد . . أتانا رسولك ، فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك ! .

قال : « صدق » قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله ! » قال : فمن خلق الأرض ؟

قال : « الله ! » قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » .

قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال : الله أرسلك ؟ .

قال : « نعم . . » .

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : « صدق ! » .

قال : فبالذي أرسلك : الله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم ! » .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو ، حتى إذا فرغ قال : فإنني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه . ثم لا أزيد ولا أنقص ، وانصرف إلى بعيره راجعاً .

فقال رسول الله : « إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة » .

فأتى ضمام بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بثست اللات والعزى !! قالوا : مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون . . قال : ويلكم ، إنهما - والله - لا يضران ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . .

قال : « فوالله ما أمسى في الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا مسلماً » .

إن المتتبع لهذا الحوار يظن أنه من جانب واحد ، ذلك أن ضماما كان يسأل في صيغة الاستيضاح ، وكان الرسول يجيب بما يفيد الإيجاب ، ولكن حقيقة الأمر أن حواراً قد جرى قبل ذلك بين ضمام وبعض قومه عن الإسلام حتى إنه استوعب أركانه بشكل شمولي تجلّى في صيغ الأسئلة التي وجهها إلى النبي ﷺ ثم جرى حوار آخر بينه وبين نفسه انتهى به إلى اليقين الذي جعله يؤمن بتلك القيم الربانية فيما لو كان ما بلغه عن الإسلام صحيحاً ، ثم جاء ضمام بعد ذلك إلى رسول الله الذي قرأ في وجهه - أى : وجه ضمام - ملامح الإيمان ، وإذا كانت فراسة المؤمن لا تحيب ، فإنه يكون من باب أولى ألا تحيب فراسة النبي ؛ لذلك كان الرسول في حوار ضمام معه لا يزيد في إجاباته عن : « نعم » « واللهم نعم » وكانت هذه « النعمات » أبلغ إجابة في هذا المقام ، ولذلك فإن ضماماً لم يتردد ، ولم يضيّع وقتاً ، بل سارع إلى الإيمان والنطق بالشهادتين ، وأبدى الامتثال لأركان الإسلام التي أقره عليها رسول الله ﷺ وانصرف على الفور .

وهنا يقول الرسول ﷺ : « إن صدق ذو العقيصتين - يعنى الضفيرتين ، وكان ضمام ذا ضفيرتين - دخل الجنة » وقد كان ضمام عند صدق فراسة رسول الله ﷺ إذ أنه لم يكتف بإعلان إسلامه وحده ، وإنما بات جميع قومه مسلمين ، ويعلق عبدالله بن عباس على هذا الأمر قائلاً : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة (١) .

كان حوار ضمام مع رسول الله ﷺ فيه خشونة ، ولكن حلم رسول الله تذبذب أمامه

(١) يراجع أيضاً كتاب الطبقات الكبرى - وفد سعد بن بكر ٢ / ٢٩٩ .

كل خشونة، وتلين حياله كل شدة، لقد تحمل الرسول ﷺ خشونة رجل لا يعدو أن يكون واحداً من سادة قومه البسطاء .

فإذا ما انتقلنا إلى ذكر حوار لوفد آخر عليه ثياب الملك، وجدنا لونا آخر من كرم رسول الله وتلففه واحتفائه بضيفه والتبشير بمقدمه قبل وصوله لبليال ثلاث .

روى البخارى - رحمه الله - فى التاريخ ، والبزار ، والطبرانى ، والبيهقى عن وائل بن حُجر - رضى الله عنه - قال : بلغنا ظهور رسول الله ﷺ وأنا فى بلد عظيم ورفاهة عظيمة ، فَرَفَضْتُ ذلك - أى : رفضت الرفاهة - وَرَغِبْتُ إلى الله - عزَّ وجلَّ - وإلى رسول الله ﷺ فلما قَدِمْتُ عليه أخبرنى أصحابه أنه بشر بمقدمى عليهم قبل أن أقدم بثلاث ليالٍ . قال الطبرانى : فلما قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ سَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ عَلَيَّ ، وبسط لى رداءه وأجلسنى عليه ، ثم صعد منبره وأقعدنى معه ورفع يديه وحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ واجتمع الناس إليه فقال لهم : « يا أيها الناس ، هذا وائل بن حُجر قد أتاكم من أرض بعيدة ، من حضر موت ، طائعاً غير مُكره ، راغباً فى الله وفى رسوله وفى دين بيته ، بقيَّةُ أبناء الملوك » . فقلت : يا رسول الله ، ما هو إلا أن بلغنا ظهورك ، ونحن فى مُلكٍ عظيم وطاعة ، وأنتك راغباً فى دين الله . فقال : « صدقت » .

وعن وائل بن حُجر قال : جئت رسول الله ﷺ فقال : « هذا وائل بن حُجر جاء حُباً لله ولرسوله » وبسط يده وأجلسه وضمَّه إليه وأصعده المنبر ، وخطب الناس فقال : « ارفقوا به فإنه حديث عهد بالملك » . فقلت : إن أهلى علبونى على الذى لى ، فقال : « أنا أعطيكه وأعطيك ضِعْفَه » . الحديث (١) .

هكذا كان احتفاء الرسول ﷺ بوائل بن حجر الحضرمى الملك ابن الملوك ، يجلسه ويضمه ويصعده على المنبر ، لأنه يعلم أن بقية من رواسب الملك لا تزال تسرى فى دمائه ، ولقد كان وائل بالفعل على ما تصوره رسول الله ، فقد أمر النبى معاوية بن أبى سفيان أن يرافقه وينزله منزلاً بالحررة ، قال معاوية : فانطلقت به وقد أحرقت رجلى

(١) سبل الهدى الرشاد / ٦٦٥ .

الرمضاء ، فقلت : أردفني ، قال : لست من أرداف الملوك ، قلت : فأعطني نعليك أتوقى بهما من الحر ، قال : لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك ، ولكن إن شئت قصرت عليك ناقتي فسرت في ظلها . قال معاوية : فأتيت النبي ﷺ فأنبأته بقوله ، فقال : « إن فيه لعُبيّة من عُبيّة الجاهلية » .

هكذا كان يلتقى رسول الله بالوفاد أو الوفود ، فيتعامل معهم على قدر طبيعتهم ، ويحاوّرهم بما يتسق وأحوالهم .

وفي حال وائل بن حجر لم يكتف النبي ﷺ بتكريمه بحسن التلقى ورقة الحوار وحسن الضيافة وحسب ، بل إنه زوده بكتاب كريم حمله معه إلى قومه كتدعيم لشخصه ، وفي الوقت نفسه يشكل الكتاب تعهدا قبله وائل بشروطه ، جاء فيه : « هذا كتاب من محمد النبي لوائل بن حجر قَيْلٍ حضرموت : إنك أسلمت ، وجعلتُ لك ما في يديك من الأرضين والحصون ، وأن يؤخذ منك من كل عشرة واحد ، ينظر في ذلك ذو عدل ، وجعلتُ لك فيها ألا تُظلم ما قام الدين ، والنبي والمؤمنون عليه أنصار » (١) .

إن نماذج الحوار الذي كان يجري بين رسول الله ﷺ وبين الوافدين عليه من الناس سواء أكانوا قادمين عليه في مكة أو في المدينة لما ينبه العدل الكامن في صدر الإنسان ، فيدفع به إلى ساحة الاقتناع ، ثم بعد ذلك إلى رحاب اليقين . وها نحن نتمثل الآن بحوار لم تسجل ألفاظه ، ومع ذلك فلنر نتيجة .

كان الطفيل بن عمرو الدؤسى - فيما يروى ابن هشام - يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها فمشى إليه رجال من قريش وقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا - يعنى محمدا - قد أعضل بنا - يعنى اشتد أمره - وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

(١) الطبقات الكبرى ٢ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

كان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً ومع ذلك فإنه يقول : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت
ألا أسمع منه شيئاً . ولا أكلمه حتى حشوت في أذنيّ حين غدوت إلى المسجد كُرسُفًا
- يعني قطنًا - خشية أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمع .

ويمضى الطفيل قائلاً : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند
الكعبة ، فقممت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاماً
حسناً ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ
الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذي يأتي
به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته
فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي
كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع
قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعتة قولاً حسناً ، فاعرض عليّ أمرك ،
فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليه القرآن . يقول الطفيل : فلا والله ما
سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ،
وقلت : يا نبي الله ، إنى امرؤ مطاع في قومي ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ،
فادع الله أن تكون لي آية عوناً لي عليهم فيما أدعوهم إليه ، فقال : « اللهم اجعل له
آية » .

قال الطفيل : فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني عليهم وقع نور بين
عيني مثل الصباح ، فقلت : اللهم في غير وجهي ، إنى أخشى أن يظنوا أنها
مُثَلَّةٌ وقعت في وجهي لفراقى دينهم ، فتحول النور فوق في رأس سوطي ، فجعل القوم
يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جثتهم
فأصبحت فيهم . فلما نزلت أتاني أبي - وكان شيخاً كبيراً - فقلت : إليك عنى يا
أبت ، فلست منك ولست منى ، قال : ولم يا بني ؟ قلت : أسلمت وتابعت دين
محمد ﷺ قال : أى بنى ، فديني دينك ، فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم
تعال حتى أعلمك ما علمت ، فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه
الإسلام فأسلم .

ثم أتتني صاحبتى فقلت : إليك عنى ، فلست منك ولست منى ، قالت : لم ؟
بأبى أنت وأمى ، قلت : قد فرق بينى وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ﷺ
قالت : فدينى دينك ، قلت : فاذهبى إلى حمى ذى الشرى فتطهرى منه ، وكان ذو
الشرى صنماً لدوس ، وكان الحمى به وشل من ماء يهبط من جبل ، فذهبت فاغتسلت
ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوت دوسا - يعنى قبيلته - إلى الإسلام فأبأوا على ، ثم جئت رسول الله ﷺ
بمكة ، فقلت له : يا نبي الله ، إنه قد غلبنى على دوس لهوهم فادع الله عليهم ،
فقال : « اللهم اهد دوساً ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » قال : فلم أزل بأرض
دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد
والخندق ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله ﷺ
بخير ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ
بخير ، فأسهم لنا مع المسلمين ، ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى إذا فتح الله عليه
مكة قلت : يا رسول الله ، ابعثنى إلى ذى الكفين - صنم عمر بن حُمّة - حتى أحرقه ،
فخرج طفيل إليه ، وجعل يوقد النار عليه ، ويقول :

ياذا الكفين لست من عبّادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

وهكذا كان حوار الرسول ﷺ مقنعا للعقلاء ، هاديا للنجباء من أمثال الطفيل بن
عمرو الدوسى الذى لم يعلن تفاصيل حوارهِ مع الرسول ، وعلى الرغم من ذلك فقد
سعى لإسلام أبيه ، ثم إسلام صاحبتِهِ ، ثم إسلام دوس فى أكثرها . (١)

نماذج الحوار التى تمثلنا بها فيما سلف من صفحات كان الطرف الثانى فيها صنفاً من
الرجال لم يكونوا قد أسلموا بعد ، ولكن كانوا بسبيلهم إلى الإسلام ، أو أسلم الواحد
منهم ولكنه حديث عهد بالإسلام .

يبقى بعد ذلك أن نتمثل لنماذج من الحوار جرت بين الرسول ﷺ وبين أفراد من

(١) قصة إسلام الطفيل فى سيرة ابن هشام ١ / ٣٨٢ وما بعدها .

المسلمين الذين انتظموا الدعوة ، وانخرطوا في سلكها ، واندمجوا في مضمارها .

إن من أنفس نماذج هذا الطراز من الحوار ، ذلك الذى جرى بين شاب من جبهة شباب المسلمين - وإن لم يكن من خيارهم - وبين رسول الله ﷺ إن الشاب فى غيبة رُشده ، والانصياع لغريزته ، يطلب إلى رسول الله ما لم يطلبه أحد قبله ، فهو يطلب أن يؤذن له بالزنا ، فلما سمعه الناس صاحوا غضابا ، ولكن رسول الله ﷺ معلم البشرية ومبرىء سقامها ، لا يغضب ، وإنما يقرب الشاب إليه ، ويعالج ما يطلبه من الإذن له بالفاحشة بالحوار الهادى الذى يشتمل على الكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والنصح الجميل .

إن مجمل الخبر كما رواه الإمام أحمد عن أبى أمانة بإسناد جيد هو :

أتى شاب النبى ﷺ فقال : يانى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى ﷺ : « قربوه ، اذن » فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أتجبه لأمك ؟ » قال : لا ، جعلنى الله فداك . قال : « كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم . أتجبه لابنتك ؟ » قال : لا ، جعلنى الله فداك . قال : « فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم » وزاد الراوى ابن عوف : حتى ذكر العممة والحالة . وهو يقول فى كل واحدة : لا ، جعلنى الله فداك ، والنبى ﷺ يقول : كذلك الناس لا يحبونه « ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال : « اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه وحصن فرجه » فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا .

وهذا صحابى جليل هو جابر بن عبدالله يجرى رسول الله معه حواراً فى عامة شئونه ، يسأله عن أحواله الخاصة والعامة ، فإن وجد ثمت ما يحتاج فيه جابر العون أعانه ، وكان هذا شأن رسول الله ﷺ مع صحابته ، كان لهم الأب الحانى ، والمربى العظيم ، والراعى الأمين .

... عن الحجاج بن أبى عثمان الصواف ، عن أبى الزبير ، عن جابر - يعنى جابر ابن عبدالله - قال : « غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه ، شهدت تسع عشرة ، وغبت عن اثنتين ، فبينما أنا معه فى بعض غزواته ، إذ أعمى ناضحى - يعنى

بعيرى - تحت الليل فبرك ، وكان رسول الله ﷺ في آخرنا ، في أخريات الناس ، فيزجى الضعيف ، ويردف ، ويدعو لهم ، فانتهى إلى - يعنى وصل إلى - وأنا أقول : يا لهف أمناه ، وما زال لنا ناضح سوء ، فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أنا جابر ، بأبى وأمى يا رسول الله ، قال : « ما شأنك ؟ » قلت : أُعْجِبُ ناضحى ، فقال : « أمعك عصا ؟ » قلت : نعم ، فضربه ، ثم بعته ، ثم أناخه ووطىء على ذراعه وقال : « اركب » فركبت ، فسايرته ، فجعل جملى يسبقه ، فاستغفر لى تلك الليلة خمسا وعشرين مرة فقال لى : « ما ترك عبد الله من الولد ؟ » - يعنى أباه - قلت : سبع نسوة ، قال : « أترك عليك ديننا ؟ » قلت : نعم ، قال : « فإذا قدمت المدينة فقاطعهم ، فإن أبوا فإذا حضر جداد نخلكم - يعنى الذى يقطع زوائده - فأذنى » وقال لى : « هل تزوجت ؟ » قلت : نعم ، قال : « ممن ؟ » قلت : فلانة بنت فلان ، بأيم كانت بالمدينة ، قال : « فهلا فتاة تلاعبها وتلاعبك ؟ » قلت : يا رسول الله كنّ عندى نسوة خُرُق - يعنى أخواته - فكرهت أن آتيهن بامرأة خرقاء ، وقلت : هذه أجمع لأمرى ، قال : « فقد أصبت ورشدت » ، فقال : « بكم اشتريت جملك ؟ » قلت : بخمس أواق من ذهب ، قال : قد أخذناه - يعنى اشتريناه - فلما قدم المدينة أتيت به بالجمال ، فقال : « يا بلال ، أعطه خمس أواق من ذهب يستعين بها فى دين عبد الله ، وزده ثلاثا ، واردد عليه جملة » قال : « هل قاطعت غرماء عبد الله ؟ » قلت : لا يا رسول الله ، قال : « أترك وفاء ؟ » قلت : لا ، قال : « لا عليك ، إذا حضر جداد نخلكم فأذنى » فأذنته ، فجاء ، فدعا لنا ، فاستوفى كل غريم ما كان يطلب ثمرا وفاء ، وبقي لنا ما كنا نجد وأكثر ، فقال رسول الله ﷺ : « ارفعوا ولا تكيلوا » فرفعنا ، فأكلنا منه زمانا « (١) .

بهذه البساطة وهذا اليسر كان حوار رسول الله ﷺ مع صحابته ، يجرى الحوار ليتعرف على أحوالهم ، ويستكشف متاعبهم إن كان ثمت متاعب ، فيأخذ بيد الضعيف ، ويساعد المحتاج ، ويعاون من اضطربت شئونه وتغيرت أحواله ، ويسدى النصيح ويوجه نحو السداد .

ومن نماذج الحوار بين رسول الله وبين أحد أفراد الصحابة ، بل رأس الصحابة ما

(١) أخلاق النبى وآدابه ، الحديث رقم ١٧٠ .

كان بينه وبين أبي بكر حين صلى أبو بكر بالناس ، وكان رسول الله بعيدا عن المسجد ليصلح بين قوم مختلفين فيما بينهم . وذلك خبر الحوار :

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ بلغه أن بنى عمرو بن عوف كان بينهم شر ، فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه فحبس رسول الله ﷺ وحانت الصلاة فجاء بلال إلى أبي بكر - رضى الله عنهما - فقال : يا أبا بكر إن رسول الله ﷺ قد حبس وحانت الصلاة فهل لك أن تؤم الناس ؟ قال : نعم إن شئت ، فأقام بلال الصلاة وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس ، وجاء رسول الله ﷺ يمشى في الصفوف حتى قام في الصف فأخذ الناس في التصفيق ، وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يلتفت في الصلاة ، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فإذا رسول الله ﷺ فأشار إليه رسول الله ﷺ فرفع أبو بكر رضى الله عنه يده فحمد الله ورجع الفهقري وراءه حتى قام في الصف ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى بالناس ، فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق ، إنما التصفيق للنساء ، من نابه شيء في صلاته فليقل سبحان الله ، فإنه لا يسمعه أحد حين يقول سبحان الله إلا التفت ، يا أبا بكر ما منعك أن تصلى بالناس حين أشرت إليك ؟ فقال أبو بكر : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلى بالناس بين يدي رسول الله ﷺ (متفق عليه) .

معنى (حبس) : أمسكوه ليضيفوه» .

إن هذا الحوار القصير الموجز الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين أبي بكر يشف عن جوهر الرسول الكريم الذي يرضى بأن يصلى مأموما بأبي بكر ، وعن مقدار إعظام أبي بكر للرسول في كل المواقف ، وبخاصة في موقف الصلاة ، إذ يقول في أدب لا يتقنه إلا قلة من الصحابة وفي مقدمتهم أبو بكر : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلى بالناس بين يدي رسول الله ﷺ ناهيك عن الدرس القصير في شأن الصلاة ، حيث إذا أراد الرجال أن ينهوا الإمام إلى شيء ما فالذى يجمل بهم هو التسبيح ، وأما النساء فالتصفيق .

إن نماذج الحوار التي أسلفنا التمثل بها كانت بين الرسول ﷺ وبين أفراد بذواتهم ، بعضهم ممن انتوى دخول الإسلام ، وبعضهم حديث عهد بالإسلام ، وبعضهم

ينقصه سلوك راشد فوجد الرشاد في حوار مع رسول الله ، وبعضهم صحابى يروى خبر حوار ، أو حوار مع صحابى اهتم بشأنه الرواة والحفاظ .

على أننا الآن بسبيل عرض نماذج من طراز مختلف في مبنى الحوار وطبيعته وأسلوبه ؛ لأنه جرى بين الرسول ﷺ وبين بعض أهل الكتاب ، فمن نماذج هذا اللون من الحوار، ذلك الذى جرى بين الرسول وبين الخبر زيد بن سعة وكان سببا في إسلامه .

إن راوى هذا الحوار هو عبدالله بن سلام ، ولكن عن طريقين أو سلسلتين إحداهما يبدوها ابن أبى عاصم ، والثانية يبدوها أبو زرعة .

قال عبدالله بن سلام : إن الله - عز وجل - لما أراد هدى زيد بن سعة ، قال زيد : ما من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه ، إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلما ، فكانت أنطلق إليه لأخالطه فأعرف حلمه من جهله ، فخرج يوما من الحجرات - أى : الرسول ﷺ ومعه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فجاء رجل يسير على راحلته كالبدوى ، فقال : يا رسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا ، ودخلوا في الإسلام ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغدا ، وقد أصابتهم سنة - يعنى : قحط - وشدة ، وقحوط من العيش ، وإنى مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعا ، كما دخلوا فيه طمعا ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشىء تعينهم به فعلت . فقال زيد بن سعة : فقلت : أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا فبايعنى ، وأطلقت هميانى وأعطيته ثمانين دينارا ، فدفعتها إلى الرجل وقال : اعجل عليهم بها وأغثهم .

فلما كان قبل المحل - يعنى حلول السداد - بيوم أو يومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالبقيع ، ومعه أبو بكر وعمر ، في نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار ، جذبت برديه جبذة شديدة حتى سقط من عاتقه ، ثم أقبلت بوجهه جهم غليظ فقلت : ألا تقضينى يا محمد ؟ فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب لمطل ، وقد كان لى بمخالطتكم علم . قال زيد : فارتعدت فرائض عمر - رضى الله عنه - كالفلك المستدير . ثم رمى ببصره ، ثم قال : أى عدو الله ، أتقول هذا لرسول

الله؟ وتصنع به ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقنى 'رأسك' ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في تودة وسكون ، ثم تبسم ، ثم قال : «لأنا وهو أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه»^(١) .

ثم يقول الرسول ﷺ - في رواية أبى زرعة - : «أذهب به يا عمر ، فاقض حقه وزده عشرين صاعا من تمر ، مكان ما رعته» قال زيد بن سعة : فذهب بى عمر - رضى الله عنه - ففضانى حتى ، وزادنى عشرين صاعا من تمر ، فقلت : ما هذا؟ قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك . فقلت : أتعرفنى يا عمر؟ قال : لا ، فمن أنت؟ قال : أنا زيد بن سعة ، قال : الخبر؟ قلت : الخبر ، قال : فما دعائك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت؟ وتقول له ما قلت؟ قلت : يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فقد اخترته منه ، فأشهدك يا عمر أنى قد رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، وأشهدك أن شطر مالى - فإنى أكثرها مالا - صدقة على أمة محمد ﷺ فقال عمر : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم ، قلت : أو على بعضهم . قال : فرجع عمر وزيد ابن سعة إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

هكذا لم يستغرق الحوار بين رسول الله وبين زيد أكثر من جمل معدودة ظهر فيها حلم الرسول في ذروته ، ما زاد على أن ابتسم وقت أن هوجم ، ثم الكلمات الطيبة يحسن بها توجيه عمر ، ثم سداد الدين ومعه زيادة بدلا عن الترويع الذى أوقعه عمر في قلب زيد بن سعة .

لقد آمن زيد وصدق بمحمد ﷺ وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة .

ومن أجّل ما يؤثر من حوار ، ذلك الذى جرى بين رسول الله ﷺ وبين سفانة ابنة حاتم الطائى وما خلعه عليها الرسول ﷺ من الرعاية ، وما حباها به من تكريم حين علم أنها ابنة كريم العرب فى الجاهلية حاتم الطائى ، ثم ذلك الحوار النفيس النبيل

(١) إلى هنا تنتهى رواية ابن أبى عاصم ، ثم تبدأ الزيادة التى جاءت برواية أبى زرعة .

الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين عدى بن حاتم شقيق سفانة عند مقدمه إلى رسول الله طائعا بمحض اختياره حين عادت إليه أخته حرة طليقة محروسة بأمر رسول الله بنفر من قومها بعد أن كانت بين السبايا ، ثم صارت في مقدمة الحرائر بين قومها مثلما كانت على أيام أبيها .

ونحن نميل إلى أن نترك عدى بن حاتم يحكى الخبر بلسانه ، ويروى صيغة الحوار الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين سفانة ، ثم بين الرسول وبينه (١).

قال عدى بن حاتم - رضى الله عنه - : بُعث رسول الله ﷺ بالنُّبوة ولا أعلم أحداً من العرب كان أشدَّ كراهية لرسول الله ﷺ حين سَمِعَ به مِنِّي ، أما أنا فَكُنْتُ امرأً شريفاً وكنت نصرانياً ، وكنت أسير في قومي بالمرزبوع ، وكنت في نفسي على دين ، وكنت مَلِكاً في قومي لما كان يُصنَعُ بي ، فلما سَمِعْتُ برسول الله ﷺ كَرِهْتُه أشد ما كرهت شيئاً ، فقلت لغلام كان لي عَرَبِي وكان راعياً لِإِبِلِي : لا أَبَا لك أَعْدِدْ لي من إِبِلِي أَجْمالاً ذُلُلاً (٢) سِماناً فَاحْتَبِسْها قَريباً مِنِّي ، فإذا سَمِعْتَ بِجَيْشٍ لمحمد قد وَطِئَ هذه البلاد فَادْنُني . فَفَعَلَ . ثم إنه أتاني ذات غداة فقال : يا عَدِي ما كُنْتُ صانِعاً إذا غَشِيَتْكَ خَيْلُ محمد فَاصْنَعْهُ الآن ، فإنِّي قد رَأَيْتُ رِيايَ فَسَأَلْتُ عنها فقالوا : هذه جيوش محمد . فقلت : قَرِّبْ لي أَجْمالِي ، فَقَرَّبَها فَاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : أَلْحَقْ بأهل ديني من النصارى بالشام ، فسلكت الجَوْشِيَّةَ (٢).

قال : فلما قدمت الشام أقمت بها ، وتخالفتني خيول رسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيء ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام . قال : فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها ، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه ، وكانت امرأة جزلة . وفي حديث على - رضى الله عنه - : لما أتى بسبايا طيء وقفت جارية جماء حمراء لعساء ، ذلفاء ، عيطاء ، شفاء الأنف ، معتدلة القامة والهامة . قال : فلما رأيتها أعجبت بها ،

(١) السيرة لابن هشام مجلد ٢ / ٥٧٨ وما بعدها ط الحلبى ، وسبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٧٧ وما بعدها .
(٢) ذللا : جمع ذلول - بفتح اللام - وهو اللين . أذننى ، أى : أعلمنى ، الجوشية : موضع بين نجد والشام .

وقلت : لأطلبن إلى رسول الله ﷺ أن يجعلها في فيئى . فلما تكلمت أنسيت جهاها لما سمعت من فصاحتها .

فقلت : يا محمد إن رأيت أن تُخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طيء . فقال النبى ﷺ : « يا جارية هذه صفة المؤمن حقا ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » .

وفى حديث ابن إسحاق : فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد فامن على من الله عليك . قال : « من وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم . قال : « الفار من الله ورسوله ؟ » . قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركنى ، حتى إذا كان من الغد مر بى فقلت له مثل ذلك ، وقال لى مثل ما قال بالأمس . قالت : حتى إذا كان الغد مر بى وقد يئست منه ، فأشار إلى رجل من خلفه أن قومى فكلميه . قالت : فقلت إليه فقلت : يا رسول الله هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامن على من الله عليك . فقال ﷺ : « قد فعلت فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنينى » . فسألت عن الرجل الذى أشار إلى أن أكلمه فقيل : على بن أبى طالب رضى الله عنه . (*) .

وأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاة . قالت : وإنما أريد أن أتى أخى بالشام . قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ . قالت : فكسانى رسول الله ﷺ وحملنى وأعطانى نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

(*) معانى المفردات :

جزلة : عاقلة أو تامة الخلق ، أو ذات كلام جزل ، أى : قوى شديد . جاء - بفتح وتشديد - : التى لا قرن لها . حمراء : يعنى بيضاء . لعساء : يعنى فى شفتها سواد . ذلفاء : من الذلف - بالتحريك - وهو صغر الأنف واستواء الأرنبة ، وقيل : ارتفاع فى طرفه مع صغر أرنبته . عيطاء ، أى : طويلة العنق فى اعتدال ، وللمذكر : أعبط . شفاء الأنف ، أى : مرتفعة قصبه الأنف مع استواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلا .

قال عدى : فوالله إنى لقاعد فى أهلى إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلّ تؤمنا . قال : فقلت : ابنة حاتم ، قال : فإذا همى هى . قال : فلما وقفت على انسلحت تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك (*) . قال : قلت : أى أخية لا تقولى إلا خيراً ، فوالله مالى من عُدْر ، لقد صَنَعْتُ ما ذَكَرْتِ . قال : ثم نزلت فأقامت عندى . فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، فقد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، وإن يكن ملكاً فلن تدل فى عز اليمن وأنت أنت . قال : قلت : والله إن هذا للراى .

وفى حديث الشعبى : قال : فلما بلغنى ما يدعو إليه من الأخلاق الحسنة ، وما قد اجتمع إليه من الناس ، خرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، وعنده امرأة وصبيان أو صبي ، وذكر قريهم من رسول الله ﷺ قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر ، فسلمت عليه فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً فكلمته فى حاجتها ، فقلت فى نفسى : والله ما هذا بملك .

قال : ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفاً فقدمها إلى فقال : « اجلس على هذه » . قال : قلت : يا رسول الله بل أنت فاجلس عليها ، قال : « بل أنت » فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض . فقال : « يا عدى أخبرك أن لا إله إلا الله ، فهل من إله إلا الله ؟ وأخبرك أن الله تعالى أكبر ، فهل من شىء هو أكبر من الله عز وجل ؟ » ثم قال : « يا عدى أسلم تسلم » . فقلت : إنى على دينى . فقال : « أنا أعلم منك بدينك » فقلت : أنت أعلم منى بدينى ؟ قال : « نعم » يقولها ثلاثاً . « أألسركوسيا ؟ » فقلت : بلى . قال :

(*) معانى المفردات :

الرهط : ما دون العشرة من الرجال . الظعينة : هى المرأة المرتحلة ، أو الراحلة التى يرتحل عليها . تؤمنا ، أى : تقصدنا . انسلحت ، أى : أرسلت الكلام . القاطع الظالم ، أى : أنت القاطع ، أنت الظالم .

« أأست ترأس قومك ؟ » قلت : بلى . قال : « أو لم تكن تسير فى قومك بالمربع ؟ » قلت : بلى والله ، وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يبجل . قال : « فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك » . ثم قال : « يا عدى لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين أن رأيت خصاصة من عندنا ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عدددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف » .

وفى رواية قال : « هل رأيت الحيرة ؟ » قلت : لم أرها وقد علمت مكانها . قال : « فإن الظعينة سترحل من الحيرة تطوف بالبيت فى غير جوار ، لا تخاف أحداً إلا الله عز وجل والذئب على غنمها » . قال : فقلت فى نفسى : فأين ذعار طىء الذين سعروا البلاد ؟ قال : « فلعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ؟ ! والله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » . وفى رواية : « لتفتحن عليهم كنوز كسرى بن هرمز » . قلت : كنوز كسرى بن هرمز ؟ قال : « كنوز كسرى بن هرمز » .

وفى رواية : « ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ، ويليقن الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا شق تمرة فبكلمة طيبة » . قال عدى - رضى الله عنه - : فأسلمت ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ قد استبشر (*) .

إن عدى - رضى الله عنه - يشهد وقد طال به الأجل إلى ما بعد المائة والعشرين من العمر أنه قد رأى الظعينة ترحل من الكوفة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله عز وجل .

(*) معانى المفردات :

الركوسية : دين بين النصارى والصابئة . المربع ، أى : ربع الغنيمة ، كان سادات الجاهلية يأخذونه . الخصاصة - بفتح الخاء - أى : الحاجة والفقر . ذعار طىء ، أى : الذين يفزعونهم . سعروا - بفتح السين - يعنى أوقدوا .

ويستطرد عدى - رضى الله عنه - قائلاً : وكنت فيمن كنوز كسرى بن هرمز ،
ولكن طالت بكم حياة سترون ما قاله أبو القاسم عليه السلام .

وهناك نماذج كثيرة لمواقف حوار رسول الله مع صحابته ، وهى - شأنها شأن غيرها
من ألوان حوار عليه السلام - نماذج عديمة النظير من بلاغة القول ، وأمانة القصد ، وفصاحة
التناول ، وأدب الخطاب ، وهو عليه السلام يجاور كل فرد أو فريق بما يلائمه من أهداف
الحديث وبيان المقصد ، ففي النماذج القليلة الثلاثة الماضية كان يجاور كتابيين ؛ لأن
زيد بن سعة كان يهودياً ، وعدى بن حاتم وأخته سفانة كانا نصرانيين مع بعض
الاختلاف مع نصرانية النجرانيين والروم ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان حوار عليه السلام
سفانة يفيض لطفًا وحنانًا وإشفاقًا ، حتى إنه لم يأذن لها بالمسير بعد أن فك أسرها إلا
مع من يأمنه عليها ، وكذلك كان حوار عليه السلام مع عدى - وكان فيه جاهلية - ولكن لين
حديث رسول الله ورقته وبساطته وحكمته وألفته ، كل ذلك جعل عدىً يدخل الإسلام
من أوسع الأبواب على ما مر بنا من حديث قبل قليل .

كذلك كان رسول الله عليه السلام في حوار عليه السلام مع الصحابة وإن اختلفت طبيعة الحوار مع
طبيعة المواقف ، وليس من شك في أن قضايا حوار الرسول عليه السلام مع الصحابة تختلف
عنها عند الآخرين ، بل هى مع المهاجرين قد تختلف عنها مع الأنصار بحكم طبيعة
كل موقف وسمة كل موضوع .

إن من أكثر نماذج حوار رسول الله عليه السلام نبلاً ذلك الحوار الذى كان مع الأنصار إثر
توزيع غنائم حنين ، إن النفوس الواجدة لم تلبث بعد حوار رسول الله معها ومكاشفتها
بعصب القضية ، لم تلبث أن هدأت ورضيت وتبدل غضبها رضى ، وموجدتها صفاء ،
وها هو الحوار بعد مقدمته التى تمثلت فى وصول خبر موقعة بعض الأنصار إلى مسامح
رسول الله ، وإصدار أمره إلى سعد بن عباد بجمعهم فى حظيرة من الحظائر لا يشرك
غيرهم معهم (١) .

روى ابن إسحاق ، والإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، والإمام أحمد ، والشيخان

(١) سبل الهدى والرشاد ٥ / ٥٨٤ وما بعدها .

من طريق أنس بن مالك ، والشيخان عن عبد الله بن يزيد بن عاصم - رضى الله عنهم - أن رسول الله ﷺ أصاب غنائم حنين . وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ، وفي رواية : طفق يعطى رجلا المائة من الإبل ، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير ، فوجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثر فيهم القالة حتى قال قائلهم : يغفر الله - تعالى - لرسول الله ﷺ إن هذا هو العجب ؛ يعطى قريشا - وفي لفظ : الطلقاء والمهاجرين - ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟! إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا؟! وددنا أنا نعلم ممن كان هذا ، فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا ، وإن كان من رأى رسول الله ﷺ استعبتناه .

وفي حديث أبى سعيد : فقال رجل من الأنصار لأصحابه : لقد كنت أحدثكم أن لو استقامت الأمور لقد آثر عليكم . فردوا عليه ردا عنيفا . قال أنس : فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، وقال أبو سعيد : فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم . قال : « فيم ؟ » قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي ، فقال رسول الله ﷺ : « فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة - وفى لفظ : فى هذه القبة - فإذا اجتمعوا فأعلمنى ، فخرج سعد يصرخ فيهم حتى جمعهم فى تلك الحظيرة .

وقال أنس : فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من آدم ولم يدع غيرهم ، فجاء رجال من المهاجرين فأذن لهم فيهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، حتى إذا لم يبق أحد من الأنصار إلا اجتمع له ، أتاه - أى : سعد - فقال : يا رسول الله : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، حيث أمرتنى أن أجمعهم ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « هل منكم أحد من غيركم ؟ » قالوا : لا يا رسول الله إلا ابن أختنا ، قال : « ابن أخت القوم منهم » فقام رسول الله ﷺ خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله - تعالى - وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم - وفى رواية : « متفرقين فألفكم الله ؟ » - قالوا : بلى يا رسول الله ، والله ورسوله أمنُّ وأفضل .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « ألا تحييون يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وماذا نجيبك ؟ المن لله - تعالى - ولرسوله ﷺ قال : « والله لو شئتم لقلتم فصدقتهم وصدقتهم : جئتنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمناك ، ومخذولاً فنصرناك ، ومكذباً فصدقناك » فقالوا : المن لله - تعالى - ولرسوله ، فقال : « وما حديث بلغني عنكم ؟ » فسكنوا ، فقال : « ما حديث بلغني عنكم » ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً ، وأما أناس منا حديثه أسنانهم قالوا : يغفر الله - تعالى - لرسوله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم !! فقال رسول الله ﷺ : « إني لأعطي رجالاً حديثي عهد بكفر لآئلفتهم بذلك » .

وفي رواية : إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (*) من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله - تعالى - لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟ فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار» .

وفي رواية : « لو سلك الناس وإديا وسلكت الأنصار شعباً - أنتم الشعار والناس دنار، الأنصار كرشى وعيبيتى ، ولولا أنها الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار » فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله حظاً وقسماً .

إن رسول الله ﷺ يعرف كم هي طيبة طينة الأنصار ، وكم هي صافية طبيعتهم ، وكم هي مؤمنة نفوسهم ، إنهم الذين آووا ونصروا ، ولكنهم بشر تتأثر عامتهم بما يتأثر به عامة الناس ، إن الرسول يذكرهم بما كانوا فيه من ضلال وما قد صاروا إليه من هداية في جواب قاطع حاسم ، ثم يدلّف إلى قلوبهم وما يجول فيها من خواطر وأفكار ثم يطرح على أسماعهم ما قد جال في خواطرهم قائلاً : « والله لو شئتم لقلتم فصدقتهم

(*) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها الرسول زهرة الدنيا ونعيمها ، والمقصود بها : بقية .

وَصُدِّقْتُمْ : جئنا طريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك ، وخائفا فأمنَّاك ، ومخذولا فنصرناك ، ومكذِّبا فصدقناك »

هنا تقرُّ بلابل القوم الساخطين ، فالرسول - في بلاغته وصراحته وصدقه - قد أمن على ما يجول بخواطيرهم ، ثم يبسط لهم الحكمة مما صنع « إني لأعطي رجالا حديثي عهد بكفر لأتألفهم بذلك » ثم يختم الرسول الكريم حوارَه مع الأنصار على النحو الذي لا يرضيهم في دنياهم وحسب ، وإنما يرضيهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة : « أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير ، وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟ فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار » .

وكانت مدرسة محمد ﷺ تتسم ببلاغة القول وجمال البيان ، وكان الرسول ﷺ يعنى من خلال حوارَه مع صحابته بيتغى تنشئتهم على الفصاحة وحسن البيان . إن مصطفى صادق الرافعي رأس مدرسة البلاغة الإسلامية في العصر الحديث يجيء بهذا الحوار الفريد في مجال البيان المحمدي على هذا النحو : (١)

روى أنه ﷺ بينما هو جالس ذات يوم مع أصحابه إذ نشأت سحابة ، فقالوا : يا رسول الله ، هذه سحابة ، فقال : كيف ترون قواعدها أوميضاً؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكناها !! قال : وكيف ترون رحاها؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : وكيف ترون بواسقها؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استقامتها . قال : وكيف ترون برقها؟ أو ميضاً أم خعياً أم يشق شقا؟ قالوا : بل يشق شقا . قال : فكيف ترون جونها؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . فقال - عليه السلام - : الحيا المطر ، وقواعد السحابة : أسافلها ، ورحاها : وسطها . وبواسقها : أعاليها ، ووميض : اللمع الخفى ، وخعياً - بسكون العين - أى : ضعيفا ، وجون السحابة : أسودها . فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذي هو أفصح منك !! قال : وما يمنعني من ذلك ، فإنما أنزل القرآن بلساني ، لسان عربى مبین .

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٠١ طدار الكتاب العربى / بيروت .

ويعلق الرافعى على تعقيب الصحابة على رسول الله في قولهم : « ما رأينا الذى هو أفصح منك » قائلا : فتأمل قولهم : « ما رأينا الذى هو أفصح منك » فإن تعبيرهم « بالذى » يدل على تمكن هذا الاعتقاد منهم ، وأنهم يجربون عن نظر ومعرفة واستقصاء ، وأنه ليس في جميعهم واحد يقال عنه « الذى » .

وصفحة الحوار مفتوحة دائما بين رسول الله ﷺ وصحابته تتناول مختلف الموضوعات وتغوص إلى أدق الشئون ، حتى تلك التى يبدو أن الحوار فيها محوط بالحرج والحديث حولها يدعو إلى إثارة النفوس ، مثل حديث الفقر والغنى ، أو مثل امتياز الأغنياء على الفقراء . إن شيئا من ذلك يثور في نفوس الصحابة ؛ لأن قدرة الغنى على كسب مزيد من الحسنات حين يبذل من ماله تضعه في مقام أسمى ورتبة أرفع بقدر ما ينفق من مال في سبيل الله ، وما يبذل من صدقات للسائل والمحروم وابن السبيل ، ولكن الصحابة ما إن يثيروا الموضوع في ساحة الحوار مع رسول الله حتى يجدوا الجواب مقنعا ، والرد مرضيا ، والعلاج شافيا ، إقناع ورضى وشفاء ، ليس للنفوس وحسب وإنما للنفوس والقلوب والعقول جميعا .

عن أبى ذر - رضى الله عنه - أن أناسا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال :

« أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكلّ تسبيحة صدقة ، وكلّ تكبيرة صدقة ، وكلّ تحميدة صدقة ، وكلّ تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة » .

قالوا : يا رسول الله آياتى أحدنا شهوته ويكون فيها أجر؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام ، أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » (١) . رواه مسلم هكذا كان الحوار مع الرسول ﷺ علاجا لما كان يجول بخواطر بعض الصحابة من

(١) الأربعون النووية . الحديث رقم ٢٥ .

معانى المفردات : أهل الدثور : يعنى الأثنياء وأهل الوفرة . التهليلة : يعنى أن تقول : لا إله إلا الله .

تصور لفضل يفوز به أغنياء المسلمين دون فقرائهم بسبب الغنى ووفرة المال لدى الأغنياء ، وقلته لدى الفقراء . إن لدى الفقراء ما هو أفضل مما لدى الأغنياء ، لديهم التقرب إلى الله بكثرة التسبيح ، والإهلال بالتكبير ، والتكرار في التحميد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن هذا اللون من ألوان الحوار يمكن أن نطلق عليه الحوار التعليمي ، ولعل هذه التسمية أكثر ما تكون اتفاقاً وانطباقاً على حديث التعريف بالإسلام والإيمان الذي رواه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - :

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله : كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال فأخبرني عن الساعة؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربته وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق ، فلبث ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .» . رواه مسلم .

إن هذا الحوار فرد في بابه ؛ لأنه ليس حواراً بين الرسول والصحابة ولا هو حوار بين الرسول وأحد من البشر . وإنما هو حوار طرفاه خاتم الرسل محمد ﷺ والروح الأمين جبريل - عليه السلام - جبريل يتولى توجيه السؤال ، والرسول ﷺ يجيب في دقة وبلاغة ووضوح وإيجاز . جبريل يسأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم عن

الساعة ، والرسول ﷺ يعرف بكل من الإسلام والإيمان والإحسان تعريفا محددًا ، وأما حين سئل عن الساعة فكانت الإجابة التي لم ترتفع بلاغة فرد إلى أدنى مستوى من بلاغتها ، حتى صارت مثلا يجرى على ألسنة البلغاء أهل المسائل : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » (١).

وكأنها كان القصد من سؤال جبريل للرسول ﷺ عن تعريف كل من الإسلام والإيمان على حدة هو وضع حدّ نهائي فاصل بينهما ؛ حتى يقرّ في قلوب المسلمين من كافة طبقاتهم أن الإيمان مرحلة أرفع من مجرد الإسلام ، مصداقا لقول ربنا - عز وجل -:

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢).

(١) رياض الصالحين . الحديث الأول في باب المراقبة .
(٢) الحجرات ، الآية : ١٤ .



الفصل الرابع

الرسول يتحدث لغات القبائل

الرسول يتحدث لغات القبائل

إن التنوع البلاغى فى أساليب الحوار وفنون القول لا يقف فى كلام رسول الله ﷺ عند حدٍّ من الحدود ، أو يقتصر على غاية من الغايات ، إنه السيل المتدفق ، السيل الذى لا يدمر ولا يجتاح ، وإنما هو السيل الذى يزرع الخير ، ويشيع النماء ، وينبت كل نافع من القيم والمعانى المتعددة الألوان ، المتكاملة الأهداف .

وإذا كانت ألوان الحوار التى قدمنا منها نماذج فى الصفحات السابقة قد جرت بين رسول الله ﷺ وبين أفراد مؤمنين وغير مؤمنين ، وبين جماعات بعضها احتلت سويداء قلب رسول الله سمو مكانة ، وعلو مقام ، كالصحابة من المهاجرين والأنصار، وبين بعض الملائكة المقربين وبين رؤساء وملوك ، وبين دهاء وسوقة وغيرهم ، فإن ثمت نوعاً من الحوار جرى بين رسول الله ﷺ وبين بعض الوافدين عليه فى عام الوفود - عام تسع هجرية - اتسم بما لم يتسم به غيره من سابق ألوان الحوار الذى سبق التمثيل له .

لقد اشتمل ذلك الحوار الذى نحن بصددده على ظاهرة غير مسبوقه ، تلك هى أن رسول الله ﷺ كان يخاطب كل قبيلة بلغتها أو بلهجتها المحلية مهما تعددت القبائل ، ومهما تنوعت اللهجات ، يحاورها ﷺ بأرفع أسلوب عرفته لهجتها ، وكأنه نشأ فيهم وأقام بينهم ، مع أنه لم يسبق له ﷺ أن التقى بهم ، أو زار منازلهم وديارهم ، ومن ثم فالمسألة هنا تتعدى نطاق البلاغة إلى معجزات النبوة ، وإلا فكيف تعلق هذه البلاغة الفائقة فى لهجات ومصطلحات لم تألفها البيئة التى نشأ فيها الرسول ﷺ !؟

يتمثل هذا اللون فى عديد من اللقاءات التى جرت بين رسول الله ﷺ وبين الوفود التى ارتحلت إليه فى المدينة المنورة عام تسع للهجرة ، ومنها ذلك الحوار الذى جرى بين الرسول ﷺ وطهفة بن أبى زهير النهدي ، وهذا خبره :

قال عمران بن حصين وحذيفة بن اليمان ، صاحباً رسول الله ﷺ : لما قدمت وفود

العرب على النبي ﷺ قام طهفة بن أبي زهير النهدي ، فقال : أتيناك يا رسول الله ، من غَوْرَى تِهَامَةَ ، بِأَكْوَارِ الْمَيْسِ ، تَرْتَمَى بِنَا الْعَيْسِ ، نَسْتَحْلِبُ الصَّبِيرَ ، وَنَسْتَحْلِبُ الْخَبِيرَ وَنَسْتَعْضِدُ الْبَرِيرَ ، وَنَسْتَحِيلُ الرَّهَامَ ، وَنَسْتَحِيلُ - أَوْ نَسْتَجِيلُ - الْجُهَامَ ، فِي أَرْضِ غَائِلَةِ النَّطَا ، غَلِيظَةِ الْمُوْطَا ، قَدْ نَشِفَ الْمُدْهَنُ وَيَيْسَ الْجُعَيْنُ ، وَسَقَطَ الْأَمْلُوحُ ، وَمَاتَ الْعُسْلُوحُ ، وَهَلَكَ الْهَدْيُ وَمَاتَ الْوَدْيُ ، بَرْتِنًا يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَثْنِ وَالْعَنْنِ ، وَمَا يَجِدُ الزَّمَنُ ، لَنَا دَعْوَةَ السَّلَامِ وَشَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ ، مَا طَمَا الْبَحْرُ ، وَقَامَ تِعَارُ ، وَلَنَا نَعْمَ هَمَلٌ أَغْفَالٌ مَا تَبُّضُ بِيَالِالِ ، وَوَقِيرٌ كَثِيرٌ الرَّسَلِ قَلِيلُ الرَّسَلِ ، أَصَابَتْهَا سَنَةٌ حَمْرَاءَ مُؤَزِلَةً ، لَيْسَ لَهَا عَلَلٌ وَلَا نَهْلٌ .

فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ، ومذقها وفزقها ، وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر ، وافجز لهم الثممد ، وبارك لهم في المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى الزكاة كان محسنا ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا . لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك ، لا نلظط في الزكاة ، ولا نلحد في الحياة ، ولا نتناقل عن الصلاة . »

وكتب معه كتاباً إلى بنى نهد : « من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد : السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بنى نهد ، في الوظيفة الفريضة ، ولكم العارض والفريش ، وذو العنان الركب ، والفلق الضبيس ، لا يمنع سرحكم ، ولا يعضد طلحكم ، ولا يجبس دركم ، ولا يوكل أكلكم ، ما لم تضمروا الإماق وتأكلوا الرباق ، من أقر بها في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد ، والذمة ، ومن أبى فعليه الربوّة . »

وفي رواية بعد قوله : « ووضائع الملك » : « ما لم يكن عهد ولا موعد » (١).

لقد لفت هذا النهج من القول أصحاب رسول الله وهم قمة فصحاء هذه الأمة

(١) منال الطالب لمجد الدين بن الأثير صفحة ٣٥ وما بعدها . وقد أخرج هذا الحديث أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، وأبو سليمان حمد الخطابي ، وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في الفائق ، والحافظ الأصفهاني ، وهو - كما يقول ابن الأثير - حديث متداول مشهور .

بعده ﷺ فما أن سمعوا محمداً ﷺ يتدفق بلهجات غريبة عنهم حتى قال له علي بن أبي طالب : يا رسول الله ، نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، ونحن بنو أب واحد . فقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وربيت في بني سعد » .

هكذا تتأكد الحقيقة بأن مقدرة رسول الله ﷺ فصاحة قول ، وتصرف لفظ ، وتعدد عبارة ، إنها هي منحة إلهية اختص بها دون سائر البشر ، حتى إن أصحابه حين سألوه بلسان علي بن أبي طالب عن تلك الظاهرة الفريدة كانت إجابته الشريفة : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

- شرح الغريب :

الطهفة : من أسماء الأشجار مثل طلحة ، وهي أعالى الصُّليان ، وهو نبت تسمن عليه الإبل ، والطفهف : الدرة ، واحدها : طهفة بفتح الطاء أو كسرهما .
 الغور : الأرض المنخفضة ، وهو ضد النجد .
 تهامة : اسم لمكة وما حولها من الأغوار .
 الأكوار : جمع الكور - بالضم - وهو رجل البعير ، كالسرج للفرس .
 الميس - بسكون الياء - : شجر صلب أملس تتخذ منه الرحال ، وقيل أيضا : الميس هو الرجل .
 ترعى بنا : تسرع .
 العيس : الإبل البيض التي في بياضها ظلمة خفية ، واحدها عيساء .
 الصَّبِير : سحاب أبيض متراكب ، وهو أقل السحاب مطراً ، واستحلاب الصبير : يعني استدراره .
 تستخلب : من الخلب ، وهو القلع والشَّق .
 الخبير : النبات .
 تستعضد : من العضد - بسكون الضاد - وهو القلع ، وبه سمى العضد وهو المنجل .
 البربر : ثمر الأراك . أراد أنهم يجنونه من شجره ويأكلونه للجدب والقحط .
 نستخيل : من خِلْتُهُ أخاله : إذا ظننته ، وتخيَّلت السحابة : إذا تهبَّأت كأنها تمطر .
 الجهم : الغيم الذي لا ماء فيه .
 الغائلة : المهلكة ، من غاله يغوله ، إذا أهلكه .
 النَّطَاء : البعد ، والنطى : البعيد ، أى : أنها فلاة يُهلك بعدها من سلكها ، ويروى : غائلة المنطا - بفتح الميم - وهو مَقْل منه .
 الموطأ : موضع القدم في المشى .
 المدهن : - بضم الميم - : نقرة واسعة في الجبل أو الصخر يجتمع فيها الماء .
 الجعثن : أصل النبات .
 الأملوج : واحد الأماليج ، وهي ورق كأنه عيدان ، وقيل : هو نوى المقل ، والمقل : هو ثمر الدوم .
 العسلوج : الغصن الناعم الذي يتشعبُ ورقه .
 الهدى : الهدى ، وهو الذى يهدى من الإبل إلى الكعبة للنحر .
 الودى : الفسيل الصغير من النخل ، واحدها : ودية .

ولعل القارئ المستوعب لأعماق الحوار يلاحظ أن رسول الله ﷺ كان يجاور طهفة بلسان قومه الملىء باللفظ المستغلق فهمه والكلم الغريب معناه ، فإذا كان الموضوع مرتبطا بالعقيدة والشريعة عمد رسول الله ﷺ إلى اللفظ المأنوس والمعنى القريب ، ذلك لأن الحوار هنا خرج من إطار الخاص إلى نطاق العام ؛ لأن حديث العقيدة والشريعة ليس قاصرا على طهفة وقومه ، وإنما هو لجميع المسلمين على اختلاف لهجاتهم ولغاتهم ، فكانت اللفظة المحمدية الأسلوبية التي وضعت الكلام في الثوب الأنيق الفصيح ، والإطار المفهوم الواضح : « من أقام الصلاة كان مسلما ، ومن أتى الزكاة كان محسنا ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا » فلما انتهى الرسول ﷺ من ذكر هذه الأركان عاد إلى مخاطبة طهفة بلغة قومه بنى نهد في أغوار تهامة .

وإذا انتقلنا إلى حوار آخر من ألوان الحوار التي كانت تجرى بين رسول الله ﷺ وبين الوفود فإننا سوف نتمثل هذه المرة بحوار الرسول مع وافد من أطراف نجد ، إنه جرير ابن عبد الله البجلي الذي جاء يبائع الرسول في أحد عشر راكبا من قومه وقد رواه عبد الله ابن عباس على النحو التالي: (١).

«كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس ، فقال

= العنن : الاعتراض والاختلاف والباطل واللجاج .

طيا البحر : ارتفع وعلا .

تعار : - بكسر التاء - جبل في بلاد قيس من أعمال المدينة لا يثبت شيئا .

النَّعم : - بفتح النون المشددة - اسم جنس يقع على الإبل والبقر والغنم ، وأكثر ما يستعمل في الإبل .

الهمل : - بفتح الهاء والميم المهملة - التي لا رعاة فيها ، ولا من يصلحها ويهدئها .

الأغفال : جمع غفل - بالضم - وهي النَّعم التي لا سمة عليها . وقيل : الغفل : الذي لا يرجى لا خيره ولا شره ، وقيل :

أراد بها التي لا ألبان لها .

بِض يَبِض : إذا قطر منه اللبن .

البلال : - بالكسر والفتح - النداء ، واليسير من الماء قدر ما يبيل الشيء .

الوقير : الغنم الكثيرة .

الرسل : - بفتح الراء والسين - ما يرسل من الماشية إلى المرعى ، وجمعه : أرسال .

والرسل - بكسر الراء - : اللبن .

السنة الحمراء : الشديدة الجذب ، ويروى (سنية) بالتصغير للتعظيم .

المؤزلة : - بكسر الزاى الخفيفة - الضيقة الشديدة .

(١) منال الطالب ص ٨٢ . والحديث رواه ابن قتيبة في غريب الحديث ١ / ٥٤٢ والزنجشري في الفائق ١ / ٤٣٢ .

يوماً: يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن ، عليه مسحة ملك . فطلع جرير بن عبد الله البجلي في أحد عشر راكباً من قومه ، فعقلوا ركابهم ، ثم دنوا ، فقال جرير: يا معشر قريش ، أين رسول الله ؟ فقال رسول الله : يا جرير ، أسلم تسلم ، إن غلظ القلوب والجفاء والحبوب في أهل الوبر والصوف ، يا جرير ، إنك لن تستحق حقيقة الإسلام ، ولا تستكمل شريعة الإيثار حتى تدع عبادة الأوثان .»

ثم قال : « أين تنزلون يا جرير ؟ » قال : ننزل في أكناف بيشة ، بين سلم وأراك ، وسهل ودكدك ، ومحوض وعناك ، ونخلة وضالة ، وسدرية وآة ، ونجمة وأثلة ، شتاؤنا ربيع ، وربيعةنا مريع ، وماؤنا يميع ، لا يقام ماؤها ، ولا يحسر صابحها ، ولا يعزب سارحها .

فقال النبي ﷺ : « أما إن خير الماء الشسيم ، وخير المال الغنم ، وخير المرعى الأراك والسلم ، إذا أخلف كان لحينا ، وإذا أكل كان لينا ، وإذا سقط كان درينا » .

فقال جرير : يا رسول الله ، أخبرني عن السماء الدنيا ، وعن الأرض السفلى .

قال : « خلق الله السماء الدنيا من الموج المكفوف ، وحففها بالنجوم ، وجعلها رجوماً للشياطين ، وحفظاً من كل شيطان رجيم ، وخلق الأرض السفلى من الزبد الجفأ ، والماء الكباء ، سبحان خالق النور » .

ثم ذكر إسلامه ومبايعته (*) .

لعله من الواضح بمكان أن حوار رسول الله ﷺ مع جرير كان بلهجة بجة غير

(*) المعاني :

الفيج : الطريق والمسلك الواسع . أذواء اليمن : ملوكهم . الحوب - بضم الحاء - : الإثم . أهل الوبر والصوف : أهل الإبل والغنم . الأكناف : التواحي . بيشة : واد كان لبني خفاجة . الدكدك : الرمل المتلبد بالأرض . العناك : الرمل . آة - بوزن عاهة - : شجر معروف . النجم : التبت مما لا يقوم على ساق . المريع : الخصب . يميع : يسيل . الماتح : الذي يستعمل الدلو . الحسور - بضم الحاء والسين - : التعب . لا يعزب سارحها : لا تبعد مواشيتهم في طلب المرعى . العازب : البعيد . الشسيم : البارد . إذا أخلف : إذا أخرج الخلفة وهي الورق يخرج في النبات بعد الورق الأول . اللجين - بتشديد اللام المفتوحة - : ورق تأكله الإبل ، ويسمى الجبط - بفتح ثم كسر - الدردين : حطام المرعى إذا قدم وتفتت . اللين : من اللبن . الرجيم : المرجوم . الزيد الجفاء : ما جفاه الوادي . الماء الكبا - بفتح الكاف - : هو العالى العظيم ، من كبا الفرس يكيو : إذا ربا وانتفخ .

المألوفة على أسماع الحضور من أهل الحجاز من مهاجرين وأنصار . وهذا الحوار وإن يكن حوار مباحة فهو في الوقت نفسه درس من رسول الله ﷺ للسامعين جميعاً من وافدين ومقيمين .

ومن ألوان الحوار العجيبة المباركة ، ذلك الحوار الذى جرى بين رسول الله وبين رجل صدق به قبل الرسالة ، وآمن به قبل أن يوحى إليه ، وهذا هو سبب العجب فى هذا الحوار . هذا الرجل هو خزيمة بن ثابت السلمى ثم البهزى ، وقيل : ابن حكيم بدلاً من ثابت ، وكان قد خرج مع النبى قبل البعثة فى تجارة لخديجة ، والسفر يقتضى طول المصاحبة خاصة إذا استغرق أسابيع عديدة ، إن ما رآه خزيمة من سلوك محمد وشأئله التى لم يتصف بمثلها غيره قد جعلته يعتقد أن محمداً هو النبى المنتظر ، فأمن به قبل أن يبعث ، ووعده قبل أن يفترقا أن يسارع إليه متى سمع بخروجه ، ولكن تشاء المقادير ألا يلتقى خزيمة برسول الله إلا يوم فتح مكة ، أى : بعد المبعث بواحد وعشرين عاماً . وهذه هى جملة الخبر ونص الحوار كما أوردها الشيخ مجد الدين بن الأثير (١).

خرج مع النبى ﷺ فى غير لخديجة بنت خويلد ، إلى الشام ، وكانت بينه وبين خديجة قرابة ، فقال له : يا محمد ، إنى أرى فىك خصالاً ، وأرى عليك من الناس محبة ، وأشهد أنك النبى الذى يخرج من تهامة ، وقد آمنت بك ، فإذا سمعت بخروجك أتيتك . .

فلما انصرفوا رجع خزيمة إلى بلاده ، فأبطأ عن رسول الله ﷺ ، حتى كان يوم فتح مكة ، فوقف على النبى عليه السلام ، فلما رآه قال : «مرحباً بالمهاجر الأول ، ما الذى بَطَأَ بك يا خزيمة ؟ أين ما وعدتني ؟ قال : يا رسول الله ، ما معنى أن أكون من أول مَنْ أتاك ، وأنا مؤمنٌ بك ، غير منكرٍ لبيعتك ، ولا ناكثٍ لعهدك ، وأنا مُقرٌّ بالقرآن ، كافرٌ بالطُغيان ، مؤمن بالرحمن ، بريء من الأوثان ، والله لقد أتيتك وعُدري عَدَدَ أصابعي هذه ، فما تهنّئني عنك أن لا أكونَ أوَّلَ من دان بدينك وأجاب دعوتك ، إلا أنه أصابتنا بعدك سنواتٌ شدادٌ متواليات ، تركت المُخَّ راراً ، والمطى هاراً ، غاضت لها

(١) منال الطالب ، ص ٤٧ .

الدَّرَّةُ ، وَنَقَّصَتْ لَهَا الثَّرَّةَ ، وَعَادَ لَهَا النَّقَادُ مُجَرَّنِيًا ، وَالذِّيخُ مُحْرَجًا ، وَالْفَرِيشُ مُسْحَنِكَا ، وَالْعِضَاءُ مُسْتَحْلِكَا ، أُيِّسَتْ بِأَرْضِ الْوَدَيْسِ ، وَاجْتَا حَتْ جَمِيمَ الْبَيْسِ ، وَأَفْنَتْ أَصُولَ الْوَشِيحِ ، حَتَّى آلَ السُّلَامَى ، وَأَخْلَفَ الْخُرَامَى ، وَأَيَّنَعَتِ الْعَنَمَةُ ، وَسَقَطَتِ الْبَرَمَةُ ، وَبَضَّتِ الْحَلَمَةُ ، وَتَفَطَّرَ اللَّحَاءُ ، وَحَمَلَ الرَّاعِي الْعُجَالََّةَ ، وَاکْتَفَى مِنْ حَمَلِهِ بِالْقَيْلَةِ ، أَنْيْتُكَ مُسْرِعًا غَيْرَ مَبْدُلٍ لِقَوْلِي .

فقال رسول الله ﷺ : «إن الله تبارك وتعالى يعرض على عبده نصيحة ، فإن قبلها سعد ، وإن تركها شقى ، وإن الله عز وجل يبسط يده لمسىء الليل بالنهار ليتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن لمسىء النهار بالليل ليتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن الحق ثقيل كثقله يوم القيامة ، وإن الباطل خفيف كخفته يوم القيامة ، وإن الجنة محظور عليها بالدآليل ، وإن النار محظور عليها بالشهوات . انعم صباحاً ، تربت يداك» (*) .

(*) المعاني :

السلمى : منسوب إلى سليم (بضم ثم فتح) بن منصور من قيس عيلان . البهزى - بفتح الباء وسكون الهاء - : منسوب إلى بهز بن امرئ القيس بن بهثة - بضم ثم سكون - بن سليم .
العرير : الإبل تحمل الميرة والبز وغيرهما من بلد إلى بلد للتجارة .
النكث : نقض العهد . الطغيان : مجاوزة الحد ، وأريد به مخالفة سنن الإسلام وحدوده .
الأوثان : جمع وثن ، وهو كل ما يعبد من دون الله .
والرحمن : اسم خاص لله تعالى ، لا يطلق على غيره ، وهو فعلان ، من الرحمة ، للمبالغة .
والنهنهة : الكف والمنع والزجر عن الشيء ، والأصل فيه : نه ، بثلاث هاءات ، فأبدلوا من الهاء الوسطى نونا للفرق بين فَعَلَّلَ وَفَعَّلَ .
والدين : الطاعة ، يقال : دان له يدين : إذا أطاعه ودخل تحت حكمه ، ودان فلان بدين فلان : إذا أخذ به وتابعه عليه .
والسنوات : جمع صحة لسنة ، ويريد بها الجذب ، ولذلك وصفها بالشدة .
والرار : الرقيق الذائب ؛ لشدة الجذب والهزال ، فإن المخ مع السمن يكون ثخيناً يملأ العظم .
والمطى : جمع مطية ، وهي الناقة التي يركب مطاها ، أى ظهرها ، وقيل : لأنها يمدى بها فى السير ، أى : يمد ، يقال : مطوت بهم فى السير ، أمطو مطوا .
والهار - بتخفيف الراء - : الساقط الضعيف ، من هار يهور هوراً ، فهو هائرٌ وهائرٌ وهارٍ ، بالرفع والجر ، فأما هائر فهو الأصل ، كقائل من قال .
ويروى : « هاراً » بالتشديد ، من هر يهر : إذا كلع فى وجهه وصاح عليه ، كما يهر الكلب ، أى : هر بعضها فى وجه بعض من الجهد وشدة الزمان .

= والغبيض : النقص ، وغاضت العين : إذا غارت .
والدرة : اللبن والمطر .
والثرة : كثرة اللبن . يقال : سحب ثر : كثير الماء ، وناقثة ثرة : واسعة مخرج اللبن من الضرع ، ويقال فيها : الثرة بالكسر .
والنقاد : جمع نقد - بالتحريك - وهي رذال الضأن وصغارها .
والمجرثم : المجتمع المتقبض ، وتجمعها من الجذب ، لأنها لا تجرد مرعى تنتشر فيه .
والنون زائدة . ولم يقل : مجرثم ، لأن لفظ النقاد لفظ الاسم الواحد ، كالجدار والحمار .
وفي رواية « البراع » بدل « النقاد » . والبراع : الضعاف من الغنم وغيرها ، والأصل في البراع : القصب ، ثم سمي به كل ضعيف ، ولذلك قيل للجبان : براع ، كأنه خالي الجوف من قلبه ، خلو باطن القصب .
والذيخ ، بالذال والحاء المعجمتين : ذكر الضبياع ، والأثنى : ذيخة .
والمحرنجم : الكالغ المتقبض من شدة الجذب ، والنون زائدة . أى : عم المحل حتى نال السباع والبهايم .
والفريش : صغار الإبل ، وقيل : صغارها الفرش . والفريش : الناقة التى ولدت حديثاً ، كالتفساء من النساء .
وقيل : الفريش من النبات : ما انبسط على وجه الأرض ، ولم يقم على ساق . وقال الأزهري : هو الموضع الذى يكثر فيه النبات .
والمسحنكك : الشديد السواد ، من الاحتراق . يقال : اسحنكك الليل : إذا أظلم ، والنون زائدة .
والعضاه : شجر الشوك ، وحادتها عضه ، وهي أنواع كثيرة .
والمستحلل : الأسود ، يقال : أسود حالك ، أى : شديد السواد .
والبارض : أول ما يبدو من النبات ، من البهيمى وغيرها ، وهو نبت ينبت فى السهل ، فهى ما دامت صغاراً : بارض ، فإذا طالت تبينت أنواعها .
والوديس والودس : أول نبات الأرض ، وأودست الأرض وتودست : إذا أنبت ما غطى وجهها ، وقيل : هو ما طال منه وكثر .
واجتاحت : أهلكت واستأصلت .
والوشيج : ما التفت من الشجر . أى : أفنت أصول الشجر ، إذ لم يبق فى الأرض ثرى ولا نداوة . وقيل : الوشيج : نبات له أغصان وورق لطاف .
والجميم : نبت يطول حتى يصير مثل جمة الشعر ، وقيل : هو ما طال من البارض ، والعميم أطول منه .
والبييس : اليابس من النبات . يقال : بييس فهو بييس ، مثل سلم فهو سليم .
وآل : بمعنى عاد ورجع ، والأول : الرجوع .
والسلامى : عظام الأصابع ، جمع سلامية ، وهى الأنملة من أنامل الأصابع . أى : عاد المنخ إلى العظم ، يقال : آخر ما يبقى المنخ فى السلامى .
والخزامى : نبت له زهر أزرق طيب الريح ، وهو خيرى البر .
وأخلف النبت : إذا أخرج نباتاً وزهراً ، فصار يخلف نباتاً قبله .
والعنمة : واحدة العنم ، وهو شجر له أغصان دقاق ، وثمر أحمر ناعم ، يشبه به البنان .

كم هو باش سيدنا رسول الله ، وأى قدر من الساحة كان هذا الذى يحمله بين جنبيه الشريفين ، فهذا الحوار الرفيع ، يجرى فى أعز أيام الإسلام مكانة ، يوم فتح مكة ، يوم النصر المبين ، اليوم الفيصل فى مسيرة دعوة الإسلام ، ومع ذلك ما إن رأى رسول الله صاحبه القديم خزيمة حتى قال والبشاشة تملأ عطفه : مرحبا بالمهاجر الأول ، ما الذى بطأ بك يا خزيمة ؟!

إن الناظر فى حوار رسول الله ﷺ يجده صورة وضاعة من شخصيته السامية ، وخلاتقه الرفيعة ، وشيمه الحميدة ، وفصاحته الفريدة ، وبلاغته العميقة ، وأسلوبه الوضاء ، ومحجته البيضاء ، حوارهِ ﷺ آخذ بكل أسباب القول الوسيم الرقيق ، والأسلوب العذب الأنيق ، السهل الممتنع الذى تصافح معانيه الأسع ثم تنسرب فى يسر إلى مجامع القلوب ، وتلامس حكمته العقول ، حتى تلك الجمل التى اقتضت مناسباتها أن تكون بنيتها ألفاظا بدوية ، أو كلمات غريبة لا تلبث النفس أن تقبل عليها ، وتقرب إليها ، سعيا وراء فهم مقاصدها ، واستيعاب معانيها ، فتصيب

= وأينعت الثمرة وينعت : إذا نضجت وأدركت .

والبرمة : واحدة البرم ، وهو ثمر الأراك ، ولاطعم له ، كانوا يضطرون إلى أكله عند الجذب ، فلما جاء الخصب سقط من شجرته واستغنوا عنه .

وبضت : أى سالت وتحلبت ، وكذلك ضبت ، عل القلب .

والحلمة : رأس الثدي والضرع ، وهو أيضا نبات ينبت فى السهل .

والتفطر : التشقق .

واللحاء : قشر الشجر . أى : تشقق فطلعت فروعه وأغصانه لإخراج الثمر .

والعجالة - بالضم - : اللبن الذى يحمله الراعى من المرعى إلى أصحاب الغنم قبل أن تصدر ، وإنما يفعل ذلك إذا

كثر اللبن عليه ، فيحلبها فى المرعى .

ويروى : «العجالة» - بالكسر - وهى ما يحمل الراعى عليه زاده ، كالتيس ، والكبش .

وقيل : هما بالضم والكسر : ما يتعجله الإنسان .

والقبيلة - بالفتح - شرب نصف النهار ، من القائلة : شدة الحر . أى : إن الراعى يكتفى بشربه نصف النهار ، ولا

يعرض لما يحمله ، من كثرة اللبن .

وبسط اليد : كناية عن الكرم والجود ، وفتح باب البر واللطف والرحمة .

ومسء الليل والنهار : من باب إضافة اسم الفاعل إلى الظرف ، أى : المسء فيها . والباء فى الليل والنهار متعلقة

ببسط .

والحظر : المنع ، والمحظور : المنوع ، كأنه جعل عليه حظيرة ، وهو ما يتخذ من الشجر حول الغنم .

والداليل : الدواهي والشدائد ، واحدا : دؤلول .

النفس ثراء من هدى رسول الله ، ونقاء من توجيهاته ، وارتواء من منهجه ، واستقامة من محجته فتنتعش فيها فضيلة التفكير ، ويزيد تنبها إلى نعمة الاقتناع به رسول حق ونبي صدق من لدن عزيز حكيم .

إن متتبع حوار رسول الله ﷺ يجد فيه شفاء لكل نفس ، وضياء لكل قلب ، وراحة لكل عقل ، وبلسما لكل جرح مهما تنوع موضوع الحوار وشخصه . أو تباينت صيغته وأهدافه ، فهو مع الأعرابي مختلف عنه مع الصحابي ، وهو مع الوثني غيره مع الكتابي ، ومع الملك غيره مع عامة البشر ، وهو مع الأنصار قريب إليه مع المهاجرين ، ولكنه في ذلك جميعا يأسر القلب ، ويخلب اللب ، ويأخذ المرء إلى وضاعة الحق ، ويضعه في نور اليقين ، ويفتح له أبواب الخير ، ويغلق دونه منافذ الشر ، ويحله قرير العين في رحاب دوحة الإيمان ، ورحابة جنة الرضوان .



كتب الرسول ﷺ ورسائله

- الفصل الأول : كتب الرسول إلى الملوك من أهل الكتاب .
- الفصل الثاني : كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب من ملوك وغيرهم
- الفصل الثالث : كتب الرسول مع الوفود العائدة .



الفصل الأول

كتبه صلى الله عليه وسلم إلى الملوك من أهل الكتاب

كتبه إلى الملوك من أهل الكتاب

مرت الدعوة الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ بثلاث مراحل متميزة ، كانت المرحلة الأولى منها هي الأشد قسوة ، والأكثر مكابدة ، بسبب عنق قريش في مواجهتهم لرسالة السماء ، وإيقاع الأذى برسول الله وصحابته الأولين على النحو الذي جاء مفصلا في كتب السيرة .

وكانت المرحلة الثانية هي تلك التي بدأت بوصول الرسول ﷺ إلى مهجره في المدينة ومن حوله الصحابة الذين وفدوا إلى دار الهجرة زرافات ووحदानا قبيل تحرك الرسول من مكة أو بعدها ، حيث لقوا من الأنصار كل ترحيب ودعم وإيثار وحماية ، هذا فضلا عن المؤاخاة الكاملة التي أنشأها الرسول بين كل اثنين من المهاجرين والأنصار ، وفي هذه المرحلة الثانية صار للدعوة مركز ودولة في « يثرب » التي صار اسمها بعد هجرة الرسول إليها « المدينة المنورة » .

ومن ثم بدأت الدعوة تدافع عن نفسها ضد أعدائها بالمواجهة العسكرية ، فكانت غزوة بدر الكبرى وما صاحبها من نصر الله للمؤمنين على جموع الشرك ، ثم كانت أحد التي تخلى النصر فيها عن المسلمين لانصرافهم عن الاستمسك بتعليمات القائد الأعظم سيدنا محمد ﷺ والتخلى عن أماكنهم الحصينة ، والإسراع إلى جمع بعض الغنائم ، ومع أن الهزيمة كانت شديدة الإيلاج للنبي وصحبه ، فإنها كانت أيضا درسا نافعا أفاد منه المؤمنون في الغزوات التالية ، وقد استمرت هذه المرحلة إلى أن كان صلح الحديبية سنة ست هجرية ، حيث جرى ما يشبه الاعتراف بدولة المدينة من قبل كفار قريش .

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة ما بعد صلح الحديبية إلى أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقد بسط علم الإسلام ضياءه على الجزيرة العربية بأكملها ، ففي المحرم

من السنة السابعة الهجرية (١) - أى : بُعِثَ صلح الحديبية مباشرة - بدأت أول حركة للدعوة الإسلامية خارج الحدود ، فى شكل حملة دبلوماسية مكثفة ، حيث أرسل الرسول ﷺ ستة نفر من الصحابة يحمل كل منهم كتابا إلى كبار ملوك عالم ذلك الزمان ورؤسائه ، فأرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم ، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس ، وكان كل من قيصر وكسرى هما قطبى الرحي فى السيطرة على دائرة الأقطار المحيطة بالجزيرة العربية ، إذ كان قيصر يحتل بلاد الشام حتى شمالى الحجاز وله فيها نائب من أهل البلاد ، وكان كسرى يحتل الجزء الشمالى الشرقى من الجزيرة العربية ، كذلك أرسل النبى ﷺ حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر من قبل الروم ، وعمرو بن أمية الضميرى إلى النجاشى فى الحبشة ، وشجاع ابن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمّر ملك البلقاء الخاضع لنفوذ قيصر ، وسليط ابن عمرو إلى هوزة بن على الحنفى ملك اليمامة .

هكذا يكون الرسول قد وسع آفاق الدعوة ، فتجاوزت منطقة الحجاز إلى أطراف الجزيرة العربية ، بل تجاوزت الجزيرة كلها إلى امبراطوريتى الروم والفرس اللتين كانتا تتحكمان فى الأقطار الشامية وآسيا الوسطى ومصر والشمال الإفريقى من جانب ، وفارس والعراق وبقية الغرب الآسيوى من جانب آخر ، مما يؤكد أن الدعوة الإسلامية موجهة من رب العالمين إلى الناس جميعاً فى المشرقين والمغربين وليس للعرب وحدهم حسبما يزعم بعض المستشرقين وبعض الأفراد من مقلديهم الذين يحملون أسماء عربية .

وبعد نحو اثنين وعشرين شهرا ، وفى ذى القعدة سنة ثمان على وجه التحديد أرسل الرسول ﷺ ثلاثة نفر من الصحابة يحمل كل واحد منهم كتابا منه ﷺ إلى ثلاثة من ملوك أطراف الجزيرة على هذا النحو : عمرو بن العاص إلى جيفر وعبدالله ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان ، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، والمهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن .

على أن رسائل الرسول وكتبه لم تتوقف بعد ذلك ، فقد كتب ﷺ العديد من الرسائل

(١) فى رواية أن ذلك كان فى ذى الحجة سنة ست .

إلى رؤساء القبائل ووجهاء العرب إما مبادأة ، وإما مع من وفدوا عليه معلنين إسلامهم - إذ كان يزودهم برسائل موجهة إلى أقوامهم لتثبيت ولايتهم عليهم ، ولتبصيرهم بفروض الإسلام وأحكامه في الدين أوفى أمور الحياة العامة على ما سوف نعتمد إلى بيانه وذكر نياذج منه فيما سوف نستقبل من صفحات إن شاء الله .

كتب الرسول إلى الملوك من أهل الكتاب

بعث الرسول ﷺ برسائل إلى أربعة من أهل الكتاب ، والرؤساء هم : هرقل قيصر الروم ، والحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء ، والمقوقس الولى الرومانى على مصر ، والنجاشى ملك الحبشة ، ولأن هؤلاء الملوك جميعا نصارى من أهل الكتاب فإن أسلوب الرسائل الأربع متقارب ، ومعانيها متشابهة .

كتابه إلى قيصر :

كان حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر هو دحية بن خليفة الكلبي ، الصحابى الجليل ، وترجح أكثر الروايات أنه سلم كتاب رسول الله ﷺ وهو يحج بيت المقدس ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام (*) « أسلم تسلم » ، أسلم يؤتك الله أجرک مرتين (*) ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (*) « ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

كان طبيعيا أن تُحدث مثل هذه الدعوة دويا عظيما في بلاط قيصر ، بل إنها أحدثت

(*) دعاية الإسلام : الكلمة الداعية إلى الإسلام . أجرک مرتين يعنى لإيمان أتباعك بسبب إيمانك ، أو لإيمانك بعيسى ثم محمد . الأريسيون : هم الفلاحون والرعاة .

(١) النص في صحيح البخارى ٧ / ١ ، وتاريخ الطبرى ٣ / ٨٧ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ٨١ وعبون الأثر ٢ / ٢٦٠ ، وزاد المعاد ٣ / ١٨ ، وصحيح الأعمشى ٦ / ٣٧٦ ، تاريخ الإسلام للذهبي : قسم المغازى ٤١٩ ، والوثائق السياسية في العهد النبوى ١٠٩ .

ارتباكاً وحيرة مصحوبتين بتفكير عميق من لدن قيصر وبطانته ، خاصة وأنهم خارجون من حرب طاحنة جرت بينهم وبين كسرى ، وكان النصر حليفهم فيها .

قال قيصر لرجاله : التمسوا لنا ها هنا أحداً من قوم هذا الرجل نسألهم عنه ، وهو تصرف السياسة المحنكين والملوك الحكماء ، وكان أبو سفيان بن حرب وبعض صحبه من رجال قريش قدموا تجاراً إلى بلاد الشام إبان الهدنة التي كانت بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش بعد الحديبية ، فأتاهم رسول قيصر يستدعيهم ليمثلوا بين يديه ، لكي يعرف منهم مزيداً من أخبار محمد ﷺ وشخصيته .

إن أبا سفيان يقص على عبدالله بن عباس ماجرى بينه وبين قيصر من حوار حدث في زمن لم يكن أبوسفيان قد أسلم بعد . يقول أبو سفيان (١) : إن هرقل (قيصر) أرسل إليه في ركب من قريش فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وعليه التاج وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان : قلت : أنا أقربهم نسبا . فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كَذَّبْتَنِي فَكَذَّبُوهُ . فقال : فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عليّ كذبا لكذبت عنه ، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آباءه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها (يعني : نحن غائبون عنه منذ مدة من الزمن) قال - يعني أبو سفيان مستمرا في وصف الحوار - : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال هرقل : فهل قاتلتموه؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب

(١) الذهبي : قسم المغازي ص ٤١٨ ، ٤١٩ طبعة دار الكتاب اللبناني .

بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءكم اتبعوه وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيها حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيها حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بها يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف . فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية الكلبي إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه ، فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبي

كبشة (*) إنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر - أى : يتغلب - حتى أدخل الله على الإسلام .

وإذا كانت رسالة النبي ﷺ قد قوبلت بهذا الاهتمام والاحترام من قبل قيصر ، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لعامله على بلاد الشام المنذر بن الحارث الغساني الذى أراد أن يوغر صدر قيصر ، وطلب إليه السير إلى المدينة لمحاربة الرسول ، ولكن حقه لم يجد أذنا صاغية ، إن قيصر قد أرسل ردًا جميلا على كتاب الرسول ﷺ يقول فيه :

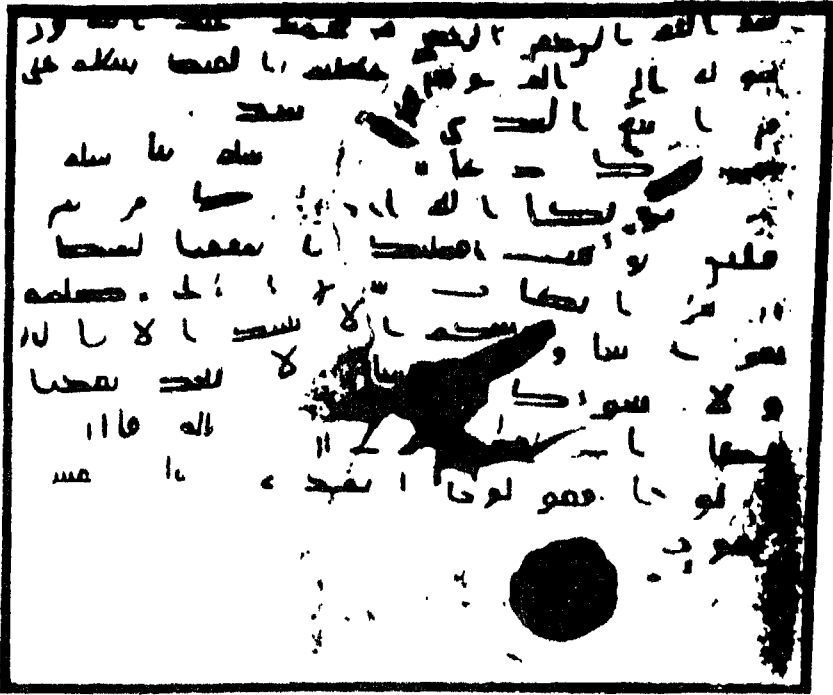
« إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى ، من قيصر ملك الروم . إنه جاءنى كتابك مع رسولك ، وإنى أشهد أنك رسول الله ، نجدك عندنا فى الإنجيل ، بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيرا لهم ، ولوددت أنى عندك وأغسل قدميك » .

إن القارىء لكل من رسالة رسول الله ﷺ ورد قيصر عليه يلحظ التجانس فى فحوى كل رسالة . صحيح أنه لا مجال للمقارنة بين أسلوب الكتاب المحمدى وبنيته البلاغية الإعجازية وبين أسلوب كتاب قيصر فى الرد على كتاب الرسول ، وإنما الذى يدعو إلى التوقف والاعتبار هو محور الكتاب المحمدى الذى كل مداره على السلام . وتشجيع قيصر بالأجر الإلهى المضاعف ، والدعوة إلى عبادة الإله الواحد ، وأن لا يُشرك به شىء من خلال النظم القرآنى المعجز الذى اقتبسه رسول الله فى دعوته قيصر إلى الإسلام .

كان طبيعيا أن يكون الرد على كتاب الرسول إيجابىّ الجواب ، إذ يبدو أن قيصر كان على معرفة جيدة بالعقيدة المسيحية التى لم يكن قد أصابها كثير من التحول بعد ، كما كان على إلمام بآيات الإنجيل المبشرة برسالة محمد ، ولم تكن هذه الآيات قد محيت أو تعرضت للحذف مثلما هو حادث فى الأناجيل المعاصرة ، ومن ثم كانت إجابة قيصر ناجزة ومستجيبة ، وإن لم يكن أمر الاستجابة حادثا من لدن رعاياه الروم .

(*) ابن أبى كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً فى عبادة الأوثان وعبد الشعرى فدعتهم مخالفته لهم أن يطلقوا عليه هذه الكنية ، وقد أراد أبو سفيان بقوله : ابن أبى كبشة ، أى : رسول الله ﷺ .

مخطوطات



بسم الله الرحمن الرحيم
والعصم اليوم بسلام
هو الذي هو كذا ما به الاسلام
كلمه هو اسما وبيكم
والله اعلم بالصواب

كتابه ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني :

كان الحارث بن أبي شمر ملكا على جنوب الشام ، وهي إمارة الغساسنة الذين كانوا ملوكا بالاسم ؛ لأن الحكم الحقيقي والأمر والنهي كان لقيصر الروم الذي كان يعدّ الغساسنة بمثابة حاجز بينه وبين عرب الجزيرة الذين كانوا يغيرون على أطراف دولة الروم بين الحين والحين .

وكان الرسول ﷺ يعرف من أمر الغساسنة أنهم على النصرانية ، وأنهم ذوو قوة ومال ، وقد وفد عليهم كبار شعراء الجاهلية ، مثل : النابغة ، وعلقمة ، وحسان ، وقالوا فيهم شعرا جميلا ، ونالوا الكثير من عطاياهم .

ونحن نرجح أن الرسول ﷺ كان على دراية بخشونة الملك الغساني ، وبكراهيته للإسلام ، وتآلبه قيصر ، وحضه إياه على حرب الرسول كردّ على كتابه إليه ، ومن ثم كان كتاب الرسول إلى الملك الغساني في حسم قاطع ، وتهديد واضح : إما الإسلام وإما زوال الملك ، وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، فإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » (١).

إنه كتاب اقتصر على الحسم والقطع والتهديد المباشر ، حمله في ذى الحجة من السنة السادسة الصحابي شجاع بن وهب من بنى أسد إلى الحارث بن أبي شمر الغساني (٢)، فلما دفعه إليه قرأه ثم رمى به ، وقال : من ينزع منى ملكى ؟ ! وأنا سائر إليه ، وكتب إلى قيصر يخبره بالخبر ، فكتب إليه قيصر : لا تسر إليه ، وأله عنه .

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، لمحمد حميد الدين ، ص ١٢٦ .

(٢) الطبرى . القسم الأول / ٣ / ١٥٥٩ .

كتابه ﷺ إلى المقوقس :

كان المقوقس حاكم مصر من قبل الرومان ، وكان نصرانيا على دين قومه ، ويقرن أكثر المؤرخين اسمه بالإسكندرية ، فيقولون : المقوقس صاحب الإسكندرية ، وقد بعث رسول الله ﷺ بكتاب يدعوه إلى الإسلام هذا نصه : (١)

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»

بعث الرسول بكتابه إلى المقوقس مع الصحابي حاطب بن أبي بلتعة ، فلما دخل عليه قال : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى - يعنى فرعون - فأخذ الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك .
فقال المقوقس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال له حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله ففقد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصراني ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولسنا ننهك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

فقال المقوقس : إنني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده الساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر . . . ثم دعا كاتباً له

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٩٥ ، السيرة الحلبية ٢ / ٣٧١ ، زاد المعاد ٣ / ٧٢ .

يكتب بالعربية ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط : سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك »

ولم يزد المقوقس على هذا ولم يسلم ، والجاريتان هما : مارية وسيرين ، والبغلة هي : دُلْدُل التي بقيت إلى زمن معاوية .

إن كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس لا يكاد يختلف في صيغته ومضمونه عن ذلك الذى بعث به في نفس الوقت إلى قيصر إلا في لفظ « القبط » التى وردت مكان لفظ « الأريسيين » في كتاب قيصر ، فالكتابان متشابهان في عبارة « أسلم تسلم » وفي عبارة « يؤتك الله أجرك مرتين »

والمتأمل في أسلوب الكتابين يجدهما متسمين بالإيجاز البليغ ، وصفاء الكلمة ، وسهولة المعنى ، وارتياح الصيغة ، وامتزاج الترغيب بالترهيب امتزاجا لبقا ، غير منفرد ولا جارح .

لقد عمد الرسول ﷺ إلى العمل بأداب القرآن الكريم في جدال أهل الكتاب في قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ لذلك كان رد كل من قيصر والمقوقس يفيضان أدبا واحتراما وتقديرا لرسول الله ﷺ .

فأما رد قيصر فكان اعترافا صريحا : « إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى » وهو المعنى الدقيق للآية القرآنية الكريمة من سورة الصف : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ .

إن أحدا حتى الآن لم يطعن في نص كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر ، وبالمثل فإن

أحدا لم يشكك في صيغة رد قيصر على كتاب رسول الله ، وهو الرد الذى يقول فيه :
« إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى » .

ومن المقطوع به أن قيصر لم يكن قد قرأ الآية الكريمة من سورة الصف التى ذكرناها ، بل إنه لم يكن يعرف شيئا عن النبي ﷺ ولذلك فقد سأل معاونيه أن يبحثوا له عن أحد يعرف شيئا عن هذا النبي الحديد ، وإذ بهم يعثرون على أبى سفيان ، وكان إذ ذاك في تجارة مع بعض قومه من قریش في بلاد الشام ، فيمثل بين يدي قيصر ويجرى بينهما من الحوار حول شخصية محمد ما قد أسلفنا ذكره قبل صفحات قليلة .

فإذا ما كان الأمر متعلقا برد المقوقس على كتاب الرسول ﷺ فإن الأخبار تذكر حسن استقباله لحاطب بن أبى بلتعة حامل الكتاب وحسن ضيافته إياه في الإسكندرية عدة أيام ، ثم ذلك الأدب الجهم في صياغة الرد الذى لم يحمل رفضا صريحا لنبوة محمد ، وإنما صيغ في لباقة وأدب ، أعرب من خلاله عن ظنه بأن النبي المرتقب يخرج من الشام ، ولكى يكمل المقوقس إخراج الموقف إخراجا حسنا فإنه قد حمل حاطبا بعض الهدايا القيمة التى ذكرناها وهى في جملتها جاريتان صاحبتا مكانة عظيمة في القبط ، هما مارية وأختها سيرين ، وثياب من قباطى مصر وبغلة عرفت في كتب السيرة باسم (دُلْدُل) قيل : إنها أول بغلة رثيت في الإسلام ، وعمار ذكر في أكثر المراجع باسم (يعفور) وفي أقلها باسم (عفير) وخصى اسمه (مايور) أعتقه رسول الله وعسل وقذح من قوارير .

ومن الطريف أن مارية وأختها سيرين قد اعتنقتا الإسلام قبل وصولهما إلى المدينة ، وعند وصولهما إلى المدينة بنى رسول الله ﷺ بهارية ، وأنجبت له ولده إبراهيم فخلقت نسباً ثانيا بين آل إبراهيم - عليه السلام - وبين مصر .

وأما سيرين فقد أهداها رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت صاحبه وشاعره تكريما له ولها ، فأنجبت له عبد الرحمن .

ويجىء الحديث النبوى الشريف فيؤكد إصهار الإسلام إلى مصر في قوله ﷺ : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ؛ فإن لهم فيكم سهرا وذمة » .

وتتحقق نبوءة النبي ﷺ فلا تكاد تمضى سنوات تسع حتى يفتح المسلمون مصر سنة عشرة هجرية .

أما أصل خطاب الرسول إلى المقوقس فقد تم العثور عليه في كنيسة قرب بلدة إخميم في صعيد مصر ، وهو محفوظ بعناية كاملة في متحف توب قابى باستامبول ، وتلك صورة له :

كتاب الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة :

لعل كتابا من كتب الرسول إلى الملوك لم يثر من النقاش والحوار مثلما أثار هذا الكتاب المبارك ، أما لفظ (النجاشى) فهو لقب يطلق على أى ملك يعتلى عرش الحبشة ، مثله فى ذلك مثل (كسرى) عند الفرس ، و (قيصر) عند الروم ، و (فرعون) عند المصريين ، وهكذا .

أما النجاشى الذى نحن بصدد ذكره هنا فاسمه « أَصْحَمَةُ » . وإن كانت بعض المصادر قد ذكرته باسم الأصحم ، إن « أَصْحَمَةُ » لم يكده يتسلم كتاب رسول الله ﷺ الذى حمله إليه الصحابى الجليل عمرو بن أمية الضميرى حتى سارع إلى إعلان إسلامه والإيمان بالله رباً واحدا لا شريك له ، وبمحمد نبيا صادقا ورسولا هاديا . وسجل أَصْحَمَةُ إسلامه فى كتاب حافل بالمودة ، مترع بدفء الإيوان ، بعث به ردا على دعوة الرسول له بالإسلام .

لقد فزع المستشرقون المحدثون من إسلام النجاشى ، فلم يجرأوا على إنكاره ، وإنما مالوا إلى استبعاد أن يسلم بهذه السرعة ، وقد ساقوا هذا الاستبعاد على سبيل الاستنتاج لا على سبيل التقرير ، وأوردوا فى ذلك حججا واهية ، واستنتاجات مريضة . وإذا كان مثل هذه الافتراءات على ثوابت الأحداث الإسلامية غير مستغربة من كثير من هذه الطائفة من الدارسين الغربيين ، فإن الأدهى من ذلك والأمر أن تصدر هذه الترهات من دارسين مسلمين نقلا عن المستشرقين ، وبدون الرجوع إلى المصادر الإسلامية الثبته ، والمراجع العربية الصادقة ، الأمر الذى دفع بكاتب مسلم مجاهد هو اللواء محمود شيت خطاب أن يعطى هذا الأمر عناية خاصة ، فأصدر كتيباً قيماً بعنوان « إسلام النجاشى »

يرد فيه على بحث بعنوان « الرسائل التي بعث بها النبي إلى ملوك الدول المجاورة » نشرته مجلة « الفيصل » العدد ٥٥ في المحرم ١٤٠٢ هـ وفيه تورط كاتبه نقلا عن المستشرقين في إنكار إسلام النجاشي ، وبالتالي إنكار الكتاب الذي أعلن فيه اعتناقه الإسلام ردا على كتاب رسول الله ﷺ إليه .

وأما كتاب رسول الله فهذا نصه : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي أصحابه ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فإنني أحمد الله إليك ، الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلق الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعني ، وتؤمن بالذي جاءني ، فإنني رسول الله ، وإنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى » (*) .

إن هذا النص يتميز بين كتب رسول الله إلى الملوك بأكثر من صفة ، أولها : البداية الكريمة بقوله ﷺ : « أسلم أنت » وفي رواية « سلّم أنت » وثانيها : التحية الدافئة في قول الرسول ﷺ لأصحابه : « أحمد الله إليك » ثم يتبع التحية بذكر عدد من أسماء الله الحسنى ، ثم تبع ذلك الحديث عن عيسى - عليه السلام - والإيمان به ، ووصف حقيقته خلقا وإنشاء وتكويننا بوسيلة إلهية مسبوقة بخلق - سبحانه - آدم عليه السلام .

هذا ، وإن من ميزات هذا الكتاب ظاهرة طوله نسبياً بالقياس إلى كتب النبي التي بعث بها إلى الملوك الآخرين ، ولأن للنجاشي سابقة فضل على المهاجرين الأولين في هجرتهم إلى الحبشة وحسن استقبال لهم ، وتكريم للرسول حين عقد له على أم المؤمنين

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٦٤ وما بعدها . سبل الهدى والرشاد ٢ / ٥٢٤ وما بعدها . زاد المعاد ٣ / ٧١ وما بعدها . إعجاز القرآن للباقلاني . الوثائق السياسية ص ١٠١ - ١٠٣ .

(*) أصحمة : كلمة حبشية تعني بالعربية عطية . البتول لغة : من البتل ، وهو القطع ، ومنه العذراء البتول ؛ لأنها قطعت عن الرجال ، ولأنها انقطعت عن الدنيا لعبادة الله .

أم حبيبة ، وبعث بها معززة مكرمة إليه في المدينة ، فقد رأى النبي ﷺ أن يزيده تكريها بأن عزز الوفد الذي يحمل الكتاب بأن جعل فيه ابن عمه جعفر بن أبي طالب الذي عرف بعد استشهاداه في « مؤتة » بجعفر الطيار .

هذا ، وقد بدأ الرسول كتابه بالسلام وختمه بالسلام ، وهي ظاهرة تمثل احتفاء خاصا ، وتكريها متفردا للنجاشي .

كان الرسول ﷺ يختار حملة كتبه إلى الملوك من الصحابة ذوى الفطنة واللياقة والجرأة والبيان ، وما كان أكثر البلغاء في حضرته ، وأوفر ذوى الفطنة في صحبته .

كان حامل الكتاب هو عمرو بن أمية الضمري طبقا لما أسلفنا القول ، وبعد أن قدم كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي في حضرة رجاله وصحبة جعفر ابن عم رسول الله قال : يا أصحمة : إن على القول عليك الاستماع ، إنك كأنك في الرقة علينا ، وكأنا في الثقة بك منك ، لأننا لم نظن بك خيرا قط إلا لنناه ، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفي ذلك الموقع الحق وإصابة المفصل ، وإلا فأنت في هذا النبي الأُمى كاليهود في عيسى بن مريم ، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمنك على ما أحافهم عليه ، الخير سالف وأجر ينتظر .

وهنا رد النجاشي على عمرو قائلا : أشهد بالله إنه للنبي الذي تنتظره أهل الكتاب ، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وإن العيان ليس بأشقى من الخبر . ثم بعث بكتاب أجاب فيه دعوة رسول الله إلى الإسلام حملة عمرو بن أمية وجعفر بن أبي طالب .

جواب النجاشي على كتاب الرسول ﷺ (*) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة بن الأبحر ، سلام عليك يا نبي الله من

(*) الوثائق السياسية ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

الله ورحمته وبركاته ، لا إله إلا الذى هدانى إلى الإسلام ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لم يزد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد مر بنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك لرسول الله صادقا مصدقا ، وقد تبعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد أرسلت بابنى أريحا بن أصحابمة بن أبحر ، فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن أمرتنى أن أجيء فعلت يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق .

هذه العبارات المترعة بالإيمان الدافقة بالطاعة أعلن النجاشى إسلامه ، وكان ثانياً الملوك الكتابيين الذين أسلموا ، أما أولهم فهو قيصر ، وذلك طبقاً للوثيقة المتمثلة فى رده على كتاب رسول الله .

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، وفى حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، خرج إلى المصلى ، فصاف بهم وكبر أربعاً (البخارى ومسلم)

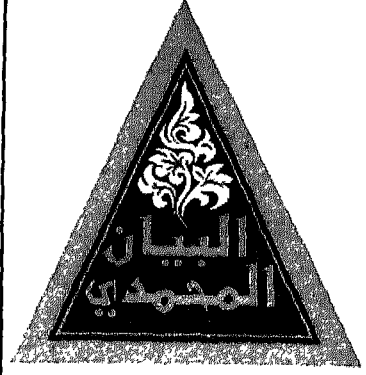
وفى حديث جابر - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ صلى على أصحابمة فكبر أربعاً (١).

ولقد أجمعت مصادر الحديث النبوى على إسلام النجاشى ، وقد استنبط فقهاء المسلمين من إسلام النجاشى وصلاة النبى عليه صلاة الغائب وتكبيره أربع تكبيرات فى الصلاة عليه استنباطات فى صلاة الجنائز اتبعتها المسلمون منذ موت النجاشى حتى اليوم ، وستبقى ما بقى الإسلام وبقى المسلمون (٢).

(١) حديث أبى هريرة وجابر وردا فى كل من : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ١٩٣ وفتح البارى ٣ / ١٦٣ ،

١٦٤ ، والنوى على مسلم ٢ / ٣٣٧ .

(٢) إسلام النجاشى ، ص ١٨ لمحمود شيت خطاب .



الفصل الثاني

كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب

كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب

اقتصر تناولنا في الفصل السابق على كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك الذين يشتركون في صفة كونهم من أهل الكتاب ، فقد كانوا جميعا نصارى ، وهم قيصر الروم ، وملك الغساسنة ، والمقوقس حاكم الإسكندرية ، والنجاشي ملك الحبشة ، ولأن للإسلام موقفاً وديناً من أهل الكتاب ، محدداً بأحكام ثابتة في علاقة الطرف الإسلامي بالطرف النصراني ، فقد اتسمت كتب رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الملوك بطابع متميز من لين الخطاب ، ورقة المدخل ، ودفء القول ، على النحو الذي فصلناه .

ومن ناحية أخرى كان مبعوثو رسول الله وحاملو كتبه في موضع كريم من الحفاوة وحسن الاستقبال من لدن أولئك الملوك ، الذين استجاب اثنان منهم إلى دعوة الرسول وأعلنا إيمانها بالرسالة النبوية ، فدخلا في حظيرة الإسلام ، وهما قيصر الروم ونجاشي الحبشة ، وإن كانا قد رغبا عن نشر الدعوة بين رعاياهما لأسباب وردت في كتب التاريخ وفصلتها كتب السيرة ، وكان أشدها وضوحا تعاضم سلطة الكنيسة ، واستشراء نفوذ رجال الدين في كل من بيزنطة والحبشة .

ونحن هنا في هذا الفصل نعرض لكتب الرسول ﷺ إلى الملوك غير الكتابيين الذين يجيء كسرى ملك الفرس في مقدمتهم ، ويليه بعد ذلك ملوك العرب وأقياهم ، وسوف نلاحظ أن هذه الطائفة من كتب الرسول قد أخذت شكلا مغايرا لذلك الشكل الذي اتسمت به كتبه إلى الملوك من أهل الكتاب ، وأن هذه الكتب قد جرت في إطار مختلف ، وسلكت مضمارا آخر ، بل مضامير متباينة عن تلك التي مرّ ذكرها .

كتاب النبي إلى كسرى :

اختار رسول الله ﷺ من الحديدية الصحابي عبد الله بن حذافة السهمي

ليكون حامل كتابه إلى كسرى أبرويز ملك فارس ، وكان عبد الله بن حذافة ذا دربة في معرفة بلاد فارس ، وكثير التردد على كسرى قبل إسلامه .

انطلق عبد الله بن حذافة السهمي مشرقا إلى المدائن ، حاملا كتاب رسول الله ﷺ محتوما وهذا نصه : (١).

كتابه إلى كسرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة «لينذر من كان حيا» ، ويحق القول على الكافرين « أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس»

يقول عبد الله بن حذافة : انتهيت إلى باب كسرى ، وطلبت الإذن بالدخول عليه حتى وصلت إليه ، فدفعت بكتاب رسول الله ﷺ إليه ، فقرأه عليه ، فأخذه ومزقه .

هنا يتبين الفرق بين سلوك ملك كتابي وشراسة ملك وثني ، فالأولون أحسن كل منهم استقبال الكتاب وحامله ، وهذا ثار وزجر ومزق الكتاب وهمم بقتل حامله ، ثم أخذته العزة بالإثم وعبر عما يجيش في نفسه ونفوس ملوك الأكاسرة من أن كل الناس عبيد لهم ، فقال : يكتب إلى هذا وهو عبيد !!

إنه في الوقت الذي رحب فيه الملوك الكتائيون بكتب رسول الله ﷺ قام كسرى الوثني بتمزيق الكتاب وتلفظ بكلمات وقحة ؛ ذلك لأن الأولين معوّدون على قراءة الكتب السماوية ، ووجدوا في كتاب رسول الله من خلال الآيات التي تضمنتها الكتب كلاما ربانيا يفيض حكمة ، ويتضوع نورا ، ويتغلغل في أعماق النفس إقناعا ، وأما كسرى فهو مشغول ببيوت النار ، ملازم لها ، يعبد النار بلهيبها وتدميرها ، فخشن طبعه ، وساءت نفسه ، وأظلم قلبه ، فكان سوء سلوكه ووقاحة تصرفه منسجمين مع

(١) عيون الأثر ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣ . زاد المعاد ٣/٧١ . إعجاز القرآن للباقلاني ، ص ١٣٤ .

طبيعة معبوده وسوء عقيدته ، إنه فضلا عن ذلك ثمت أمور أو ظواهر ينبغي ألا يغفل شأنها ونحن نعرض لهذه الواقعة .

أهمها هو ما قد سلفت الإشارة إليه من ضرورة اعتبار كسرى مشركا يعبد النار ، وليس كتابيا يؤمن بالله ، ويجيء بعد ذلك استهلال كتاب رسول الله بالإيمان بالله ورسوله وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، ويتلو ذلك إبلاغ كسرى بأن محمدا رسول الله لكل من كان حيا ، مع صيغة الإنذار الشديد لمن كفر « ويحق القول على الكافرين » وتلك نغمة لم يألف سماعها ملوك الأكاسرة ، وأكثرهم رجال غلاظ يحسبون الناس جميعا عبيدا لهم .

هذا ، وقد صك سماع كسرى قول قارىء خطاب رسول الله : « فأسلم تسلم » وما تحمله هذه الجملة من معان أحس كسرى ساعتها أن عرشه يهتز من تحتها ، فهو ليس مأمورا في شخصه وحسب ، وإنما عليه أن يتحمل إثم المجوس ، وهو قول أطار صوابه .

وأما أسلوب الكتاب فهو معجز في إيجازه واحتوائه - على قصره - عددًا من القضايا ، وقبائل من المعانى مع الشدة المهذبة ، والإصرار الذى لا يتزعزع .

والمأثور أن رسول الله ﷺ لما علم بفعلة كسرى وحماقته قال : « مُزَّقَ ملكه » أى : مزق الله ملكه . ولقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ ونبوءته ، إذ لم تمض سنوات عشر على هذا الحادث حتى كان عرش كسرى قد ممزق كل ممزق تحت سنابك خيل المسلمين وفرسانهم فى القادسية وماتلاها من انتصارات على مساحة الامبراطورية الكسروية .

ولاشك فى أن دعوة رسول الله لكسرى قد أفضت مضجعه ، فأخذ يؤلب ولاته على رسول الله ، ومنهم باذان واليه على اليمن الذى كان من أمره ما سجله ابن سيد الناس على هذا النحو : (١)

من حديث أبى هريرة وغيره أن كسرى بينا هو فى بيت كان يخلو فيه ، إذا رجل قد

(١) عيون الأثر فى فنون المغازى والشهائل والسير ٢ / ٢٦٢ - ٢٦٤ .

خرج إليه وفي يده عصا ، فقال ياكسرى : إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا فأسلم تسلم ، واتبعه يبق لك ملكك ، قال كسرى : أئخر هذا عنى آثرا ما ، فدعا حجابيه وبوابيه فتواعدهم وقال : من هذا الذى دخل علىّ؟ قالوا : والله ما دخل عليك أحد ، وما ضيعنا لك بابا ، ومكث حتى كان العام المقبل أتاه فقال له مثل ذلك ، وقال : إلا تسلم أكسر العصا ، قال : لا تفعل أئخر ذلك آثرا ما ، ثم جاء العام المقبل ففعل مثل ذلك ، وضرب بالعصا على رأسه فكسرها ، وخرج من عنده ، ويقال : إن ابنه قتله فى تلك الليلة ، وأعلم الله بذلك رسوله ﷺ لحدثان كونه ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك رسل باذان إليه ، وكان باذان عامل كسرى على اليمن ، فلما بلغه ظهور النبى ﷺ ودعاؤه إلى الله ، كتب إلى باذان أن ابعث إلى هذا الرجل الذى خالف دين قومه فمره فليرجع إلى دين قومه ، فإن أبى فابعث إلى برأسه - ويروى : وإلا فليواعدك يوما تقتتلون فيه - فلما ورد كتابه إلى باذان ، بعث بكتابه مع رجلين من عنده ، فلما قدما على رسول الله ﷺ أنزلها وأمرهما بالمقام فأقاما أياما ، ثم أرسل إليهما رسول الله ﷺ ذات غداة فقال : انطلقا إلى باذان فأعلماه أن ربي - عز وجل - قد قتل كسرى فى هذه الليلة ، فانطلقا حتى قدما على باذان فأخبراه بذلك فقال : إن يكن الأمر كما قال فوالله إن الرجل لنبى ، وسيأتى الخبر بذلك إلى يوم كذا ، فأتاه الخبر بذلك ، فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله ﷺ ويقال : إن الخبر أتاه بمقتل كسرى وهو مريض ، فاجتمعت إليه أساورته فقالوا : من تؤمّر علينا؟ فقال لهم : ملك مقبل وملك مدبر ، فاتبعوا هذا الرجل وادخلوا فى دينه وأسلموا . ومات باذان فبعث رءوسهم إلى رسول الله ﷺ وفدهم يعرفونه بإسلامهم .

كتاب النبى إلى ملك عُمان :

كانت عمان مملكة مستقرة ، وكان يحكمها ملك يدعى جيفر بن الجلندى ويشرك معه أخاه « عبدا » فى إدارة ملكه والنظر فى شئونه ، وكانت مملكة عمان من أكثر ممالك العرب استقرارا وأوفرها خيرات ، وكان طبيعيا أن يكتب رسول الله ﷺ إلى ملكه يدعوه إلى الإسلام مثلما كتب إلى غيره من ملوك ذلك الزمان ، سواء أكانوا عربيا أم أعجميا ، كتابيين أم وثنيين ، وكان رسول الله ﷺ على دراية واسعة من أمر كل ملك يكتب إليه

وحال مملكته ، وكان يعلم أن عمان وإن كان ملكها هو « جيفر » إلا أن مفتاح السياسة وإصدار القرار في يده أخيه الأصغر وشريكه في الحكم « عبد » ومن ثم أملى رسول الله على الصحابي أبي بن كعب كتابه باسم الأخوين جيفر وعبد مقداً اسم (جيفر) لكبر سنّه على اسم (عبد) لأنه الأصغر سناً ، ثم اختار رسول الله ﷺ الصحابي القائد عمرو بن العاص لكي يحمل الكتاب ويقطع به طريقاً طويلاً حتى يصل إلى عاصمة الملكين العربيين الأزديين (جيفر وعبد) ابني الجلندي وهذا نصه : (١).

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنني أدعوكم بدعاية الإسلام ، أسلموا تسليماً ، فإنني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تُقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلي تحلُّ بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما » .

كان عمرو بن العاص محاوراً ذكياً ومفاوضاً حصيفاً ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد توقع أن يجرى حوار بين حامل كتابه وبين الملكين الأزديين ، وهو حوار غير يسير ؛ لأن ملكي عمان يتسنانان ملكاً بعيد الشقة من المدينة المنورة ، الأمر الذي قد يدخل في روعهما استحالة تعرضهما لما يرغهما على الإسلام من كتبية جيش أو شدة حصار ، وهو ما حدث تماماً ، وها هو عمرو بن العاص يروى تفاصيل الحوار وملخص الأحداث التي تمت في رحلته (٢) .

قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ، وكان أحلم الرجلين وأسهلها خلقاً . فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك . فقال : أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك . ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عُبدَ من دونه ،

(١) عيون الأثر ٢/ ٢٦٧ ، زاد المعاد ٣/ ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) زاد المعاد ٣/ ٧٣ ، ٧٤ .

وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال : ياعمرؤ إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة . قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه كان أسلم ، وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبا . فسألنى : أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشى ، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم . قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر ياعمرؤ ماتقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفصح له من الكذب . قلت : ما كذبتُ وما نستحلّه فى ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى . قلت : بلى . قال : بأى شىء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشى يخرج له خرجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألتى درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدعُ عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل : رجلٌ رغب فى دينٍ فاختره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضنُّ بملكى لصنعتُ كما صنع ، قال : انظر ماتقول ياعمرؤ ، قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله - عز وجل - وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر ، وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، قال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضنُّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا ، قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم . قال : إن هذا لخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال حتى انتهت إلى الإبل ، قال : ياعمرؤ وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم . فقال : والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا .

قال : فمكثت ببابه أياما ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعى . فقال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك . فدفعت إليه

الكتاب مختوما ، ففضض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقراه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرنى عن قریش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، قال : دعنى يومى هذا وارجع إلىَّ غدا .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه ، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب ، إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله لاقت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : وأنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلىَّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا النبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوننا على من خالفنى .

ليس من شك فى أن السجّية العربية فى حسن تفهم الخطاب الصادر عن أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ﷺ قد يسرت على الملكين الأزديين بعض أمرهما ، فلم يسرفا فى التآبى وإن كانا قد أعطيا الحوار حقه من الأناة والتفكر ، وإن الأمر المؤكد أن حصافة عمرو بن العاص وطول باعه فى الإقناع ، وعمق ملكته فى الحوار، قد قربت طريق الإيمان إلى الملكين الأزديين الوثنيين ، وكان الفضل قبل ذلك وبعده إلى الصيغة المحمدية فى بلاغة الكتاب ، وفى مقدمتها الشعار المشترك فى جميع كتب رسول الله ﷺ : « أسلم تسلم » فلقد كانت هذه الجملة على إيجازها الشديد تمثل الهيبة المحمدية أمام قارئها ثم تنسرب إلى عقله ولبه فتقنعه ثم تفرعه ، ولكن الشعار هنا يأخذ صيغة الخطاب إلى اثنين بدلا من واحد ، فكانت عبارته « أسلم تسلم » ولقد استجابا للدعوة المحمدية فأسلما وسلميا .

كتاب النبي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين :

الحق في هذا المقام أن الذى صدر عن رسول الله إلى صاحب البحرين ليس كتابا واحدا ، وإنما هما كتابان تخللها جواب من ملك البحرين يطلب التوجيه والنصح فيما عرض له من صعاب ، وإن كان الكتاب الأول قد أدى مهمته فور تسلم الملك إياه .

والبحرين ليست هى الجزر الحالية الواقعة فى الخليج العربى وحدها ، وإنما البحرين آنذاك هو مايعرف فى زماننا هذا بساحل عمان وما يتصل به من جزر مع الامتداد شمالا حتى حدود المملكة العربية السعودية من ناحية جنوبها الشرقى ، وقد أمدت بلاد البحرين تراث الشعر العربى بشاعرين جاهليين مجيدين ، هما : طرفة بن العبد ، والمتلمس ، والأول منهما ابن أخت الثانى .

كان المنذر بن ساوى ملكا للبحرين من قبل الفرس ، وقد اختار النبي ﷺ الصحابى الجليل العلاء بن الحضرمى وبعث معه سنة ٦ هـ كتابا إلى المنذر بن ساوى العبدى ، هذا نصه : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى : سلّم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن من صلّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، له ذمة الله وذمة رسوله ، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية »

فأسلم المنذر ، وكتب إلى رسول الله ﷺ :

« أما بعد يارسول الله : فإنى قد قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث لى فى ذلك أمرك » .

هكذا كان استقبال المنذر لكتاب رسول الله إليه بالاستجابة الناجزة ، فاعتنق الإسلام من فوره ، ولعله كان يعرف شيئا غير قليل عن الإسلام ، وأن العلاء بن

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٨٨ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٦ .

الحضرمي قد قام بقسط من التعريف والترشيد ، ولكن مجتمع مملكة البحرين كان كما هو واضح من كتاب المنذر إلى رسول الله فيه تعقيد في الأجناس وتنوع في العقائد ، مما جعله يكتب إلى النبي ﷺ طالبا النصح والتوجيه ، فكتب ﷺ إليه مانصه : (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنني أذكرك الله - عز وجل - فإنه من ينصح فإنها ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »

لقد ظل المنذر محافظاً على حسن إسلامه ، متمسكاً بعقيدته ، ومات قبل فتنة الردة .

كتاب النبي إلى هود بن علي :

هود بن علي صاحب اليمامة ، وفارس بني حنيفة وشاعرها ، وكان ذا صلة بكسرى ويزوره في المهمات ، كما كان يلقب بصاحب التاج ؛ لخرزات كانت تنظم على رأسه تشبهاً بالملوك ، وهو من أهل « قَرَان » وهم أفصح بني حنيفة ، وقد أرسل النبي ﷺ إليه كتاباً مع سليط بن عمرو العامري ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هود بن علي ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفِّ والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك »
يروى ابن قيم الجوزية بقية الخبر قائلاً : (٢) .

(١) صبح الأعشى ٦/٣٧٦ ، والسيرة الحلبية ٢/٣٧٤ .

(٢) زاد المعاد ٣/٧٤ .

فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ محتوما ، أنزله وحياه واقرأ عليه الكتاب فرد ردا دون رد ، وكتب إلى النبي ﷺ : « ما أحسن ماتدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل إلى بعض الأمر أتبعك » وأجاز سليطا بجائزة ، وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم سليط بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره ، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال : « لو سألتني سبابة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه » .

فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح ، جاءه جبريل - عليه السلام - بأن هودة مات ، فقال النبي ﷺ : « أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى يقتل بعدى » فقال قائل : يا رسول الله من يقتله ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أنت وأصحابك ، فكان كذلك » .

وذكر الواقدي : أن أركون دمشق - عظيم من عظماء النصاري - كان عند هودة ، فسأله عن النبي ﷺ فقال : جاءني كتابه يدعوني إلى الإسلام فلم أجبه ، قال الأركون : لِمَ لَمْ تَجِبْ ؟ قال : ضننت بديني ، وأنا ملك قومي ، وإن تبعته لم أملك . قال : بلى والله إن تبعته ليملكنك ، فإن الخيرة لك في اتباعه ، وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم ، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل : محمد رسول الله .

كان هودة بن علي الحنفي هو أول رئيس أو ملك عربي تمرد على دعوة رسول الله له إلى الإسلام . وكانت نهايته حسبا تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتشاء المقادير أن يخرج من ديار حنيفة بعد هلاك هودة بقليل رجل يدعى النبوة ، واحتل في مسيرة فجر الدعوة مكانا غير كريم ، إنه مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي الذي ادعى النبوة فجأة ، فلقبه النبي بمسيلمة الكذاب .

تذكر الرواية أنه لما فتح النبي مكة جاء وفد من بني حنيفة إلى النبي ومنهم مسيلمة ، إلا أنه تخلف خارج مكة مع الرجال وهو شيخ هرم ، وأعلن الوفد إسلامه والرضا بالإسلام دينا وبمحمد رسولا ، وذكروا للنبي مكان مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لهم . فلما رجعوا إلى ديارهم إذ بمسيلمة يكتب كتابا إلى رسول الله هذا نصه :

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد : فإنني قد

أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون» (١) .

كانت هذه الفتنة غريبة في زمانها ؛ لأنها اشتعلت في الوقت الذي كانت فيه الجزيرة كلها قد أسلمت وجاءت وفودها متتابعة متلاحقة صوب رسول الله في المدينة تعلن إسلامها ومبايعتها .

كتاب النبي إلى مسيلمة :

حمل كتاب مسيلمة إلى رسول الله رجلاً ، فلما قرأه قال لهما : فما تقولان ؟ قال : نقول كما قال . فقال ﷺ : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » ثم كتب إلى مسيلمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » كان ذلك في آخر سنة عشر .

مالبت الأيام في تلك الفترة أن شهدت وفاة رسول الله ﷺ بانتقاله إلى الرفيق الأعلى قبل القضاء على فتنة مسيلمة ، فقام أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ بتكليف خالد بن الوليد بقيادة جيش كبير من الصحابة لتأديب مسيلمة في ديار قومه بني حنيفة ، ودارت عدة معارك بين الجيش المسلم وجيش المرتدين انتهت في معركة « الجبيلة » بمقتل مسيلمة سنة ١٢ هـ .

كانت معركة مشؤومة فقد استشهد من جيش المسلمين فيها ألف ومائتا رجل ، منهم أربعائة وخمسون من صحابة رسول الله .

كتاب النبي إلى أكثم بن صيفي (٢) :

إن جميع من وجّه رسول الله ﷺ إليهم كتبه كانوا ملوكا مثل قيصر وكسرى والنجاشي

(١) السيرة لابن هشام ٤ / ٦٠٠ .

(٢) سرح العيون ، ص : ١٤ .

والمقوقس وجيفر وعبد ابني الجلندي والمنذر بن ساوى العبدى والحارث الغسانى وهوذة ابن على . إن الرسول ﷺ قد كان البادىء بالكتابة إليهم داعيا إياهم إلى الإسلام ، وغنى عن البيان أن الرسول ﷺ كتب خطابه إلى مسيلمة ردا على رسالته الوقحة ، ولم يكن صاحب المبادرة بالكتابة إليه ، وأما أكثم بن صيفى فكان المرء الوحيد الذى بادأه رسول الله بالكتابة إليه رغم أنه لم يكن ملكا ، ولكنه كان فى نظر رسول الله ﷺ أرفع قدرا من ملك ، وأسمى مكانة من رئيس ؛ لأنه كان حكيما العرب قاطبة فى الجاهلية ، وقد عمّر طويلا ولم تتخلّ عنه حكمته خلال عمره الطويل .

ونحن نرجح أن الذى حمل كتاب رسول الله إلى أكثم هو ولده حبيش ، ذلك أنه لما بلغه مبعث النبى ﷺ قال : احملونى إليه ، قالوا : لا والله وأنت سن من أسنان العرب ، قال : فليأته أحدكم فليسأله عن ربه وعمه أمره به .

يقول أبوحاتم السجستاني فى كتابه « المعمرين » : فأتاه - يعنى رسول الله - ولده حبيش بن أكثم فقال : يا محمد ، بم بعثك ربك ؟ قال : « بعثنى بأن أكسر الأصنام » قال : بم أمرك ؟ قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

فانصرف حبيش إلى أبيه فأخبره بكلام رسول الله ﷺ وقرأ عليه الآية الشريفة فجعل يرددنها ويقول : إن هذا لرب كريم يأمر بمحاسن الأخلاق وينهى عن مساوئها ، ثم جمع إليه بنى تميم وقام فيهم خطيبا يدعوهم إلى الإسلام ، فقال مالك بن نويرة : لقد خرف شيخكم ، فلا تتعرضوا للبلاء . فقال أكثم كلمته المشهورة : ويل للشجى من الخلى ، لهفى على أمر لم أدركه ولم يسبقنى ، ثم رحل إلى النبى فمات فى الطريق ، وبعث بإسلامه مع من كان أسلم معه . ويذكر شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى مزيدا من تفاصيل الخبر ، وأن أكثم حين سمع الآية الكريمة من ولده وقام خطيبا ودعا قومه إلى اتباع محمد ﷺ وقال لهم : إن سفيان بن مجاشع سمى ابنه محمدا حباً فى الرجل ، وإن أسقف نجران كان تحدث بخبره وبعثه ، وقال : يا قوم ، أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها ، كونوا فى هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا أذنانا ، وكونوا فيه أولا قبل

أن تكونوا آخرا . فقال مالك بن نويرة : شيخكم خرف ، فقال أكثم : ويل للشجى من الخلى ، والله ما عليك آسى ولكن على العامة . ثم نادى قومه فتبعه منهم مائة رجل ، منهم الأقرع بن حابس ، ورباح بن الربيع ، وصفوان بن أسيد ، حتى إذا كانوا دون المدينة بأربع ليال أيقن أكثم بالموت ، فقال لأصحابه : أقدموا على هذا الرجل فأعلموه أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، وانظروا إن كان معه كتاب بإيضاح ما يقول فآمنوا به واتبعوه وأزروه . فقدم القوم على رسول الله فأسلموا (١).

لذلك لا تكون ثمت غرابة في أن يكون كتاب رسول الله إليه متميزا عن غيره من كتبه التي بعث بها إلى الملوك والرؤساء . ففيه إجابة غير مباشرة لما كان يجرى في فكر أكثم ويجول في خاطره ، وهذا هو نص الكتاب : (٢).

« من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى

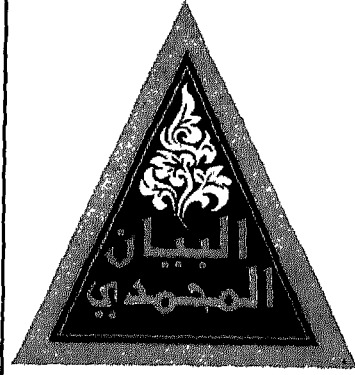
سلام الله ، أحمد الله إليك ، وإن الله أمرنى أن أقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له أقولها وأمر الناس بقولها ، وإخلى خلق الله ، والأمر أمر الله وكله إلى الله خلقهم وأماهم وهو ينشرهم وإليه المصير ، آذنتكم بأذنة المرسلين ، ولتسألن عن النبأ العظيم ، ولتعلمن نبأه بعد حين » .

لقد سعى أكثم بن صيفى على الرغم من شيخوخته الواهنة إلى لقاء رسول الله والتشرف بصحبته والمثول بين يديه ، والمسافة بعيدة بين ديار بنى تميم ومدينة الرسول ، ولكن شيخوخته لم تسعفه في تحمل أعباء الرحلة القاسية والسفر البعيد ، فلبى نداء ربه في الطريق ، ولئن كان قد حرم الصحبة الشريفة مع سعيه إليها ، فإن الله - سبحانه - قد عوضه بمنة كبرى ، فنزلت في شأنه الآية الكريمة من سورة النساء : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ . صدق الله العظيم .

هكذا قال عبدالله بن عباس حين سئل عن هذه الآية الكريمة .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة / ١ / ١١١ ، ١١٢ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، وثيقة ١٤١ / ألف - ب ، ص : ٢٥٥ .



الفصل الثالث

كتب النبي مع الوفود العائدة

كتب النبي مع الوفود العائدة

يعرف عام سبعة للهجرة في علم السيرة النبوية بعام الوفود ، ذلك أن قبائل العرب قد دخلت الإسلام زرافات ووحدا ، وقد تسابقت ملوكهم ورؤساؤهم ونوابهم إلى المدينة المنورة يبايعون رسول الله ﷺ ويشرفون بمجالسته وصحبته والتزود من تعاليم الإسلام على يديه الشريفتين ، وكانت هذه الوفود يتسابق خطبائها وشعراؤها ورؤساؤها في مديح الرسول وتسجيل شمائله ، وكانوا إذا ما قضوا مدة بقائهم بالمدينة ، وعزموا على العودة إلى ديارهم طلبوا أن يزودهم رسول الله ﷺ بكتب إلى أقوامهم لتثبيت مكانتهم إن كانوا ملوكا ، ولحسن توجيه جماعاتهم إذا كانوا أعيانا ، وقد حفلت كتب السيرة بأخبار هذه الوفود في وفرة وإفاضة بحيث شكلت خطبهم وقصائدهم ثروة أدبية إسلامية نفيسة وفريدة .

وقد توج رسول الله ناصية كل وفد بكتاب منه ، كان - ولا يزال - بمثابة تشریف لهذه القبيلة أو تلك ، يرفع من شأنها ويعلى من قدرها .

وإذا كنا في هذا الكتاب لا نستهدف الاستقصاء وإنما نعمل على جذب الانتباه إلى هذه الثروة المباركة من كتب رسول الله ﷺ فقد اخترنا عددا من هذه الكتب التي حملتها الوفود معها ، على سبيل التمثيل وليس على سبيل الانتقاء ، وإذا جاز لامرئ أن ينتقى من كلام الأدباء وخطب الخطباء وقصائد الشعراء ، فإنه لا يجوز له ذلك عندما يعرض لكلام رسول الله خطباً كانت أو كتباً أو عهداً أو غير ذلك . ومن ثم فقد سقنا نماذج من كتب رسول الله مع الأفراد أو الوفود الآتية ذكرها : طهفة بن أبي زهير النهدي ، ذي المشعار الهمداني ، وائل بن حجر الحضرمي ، قطن بن حارثة العُلميّ ، مالك بن مُرارة الرهاوي ، وفد بارق ، وفود خثعم ، أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل .

كتاب الرسول إلى بنى نهد مع طهفة :

طهفة بن زهير النهدي زعيم بنى نهد ، وهم قبيلة من تهامة اليمن ، وقد وفد على رسول الله ﷺ بعد أن أسلم ومعه وفد من قومه النهديين فوقف بين يدي رسول الله وألقى خطبة نيابة عن قومه في لغة وإن تكن سليمة البناء إلا أنها تطرق سمع الغريب عن جنوب تهامة كأنها لغة أخرى ؛ لما تشتمل عليه من ألفاظ غريبة ومسميات غير معروفة ولا مأنوسة . قال طهفة طبقا لما رواه الصحابييان الجليلان عمران بن حصين ، وحذيفة بن البيان :

أتيناك يا رسول الله ، من غَوْرَى تهامة ، بأكوار الميس ، ترمى بنا العيس ، نَسْتَحْلِب الصَّبِير ، وَنَسْتَحْلِب الحَبِير ، وَنَسْتَعْضِد البَرِير ، وَنَسْتَحِيل الرِّهَام ، وَنَسْتَحِيل أو نستجبل الجهام ، في أرض غائلة النِّطَا ، غليظة المَوْطَا ، قد نَشِف المُدْهَنُ وَيَسَس الجُعْثُنُ وسقط الأمْلُوجُ ، ومات العُسْلُوجُ ، وهلك الهُدْيُ ، ومات الوُدْيُ ، برثنا يا رسول الله من الوثن والعنن ، وما يحدث الزمن ، لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام ، ما طَهَا البَحْرُ وقام تعارُ ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ما تَبْصُ بِيَال ، ووَقِيرٌ كثيرُ الرِّسَلِ قليلُ الرِّسَلِ ، أصابتهَا سَنَةٌ حمراءُ مُؤَزَلَةٌ ، ليس لها عَلَلٌ ولا تَهَلُّ (*).

● شرح كلمات طهفة :

الطهفة : من أسماء الأشجار مثل طلحة ، وهى أعلى الصُّلْبَانِ ، وهو نبت تسمن عليه الإبل ، والطفهف : الدرة ، واحدها : طهفة بفتح الطاء أو كسرها .
الغور : الأرض المنخفضة ، وهو ضد النجد .
تهامة : اسم لمكة وما حولها من الأغوار .
الأكوار : جمع الكور - بالضم - وهو رحل البعير - كالسرج للفرس .
الميس : - بسكون الياء - شجر صلب أملس تتخذ منه الرحال . وقيل أيضا : الميس هو الرحل .
ترمى بنا : تسرع .
العيس : الإبل البيض التى فى بياضها ظلمة خفية ، واحدها : عيساء .
الصَّبِير : سحاب أبيض متراكب ، وهو أقل السحاب مطراً ، واستحلاب الصبير يعنى استدراره .
نستحلب : من الحلب ، وهو القطع والشق .
الحبير : النبات .
نستعضد : من العضد - بسكون الضاد - وهو القطع ، وبه سمي العضد وهو المنجل .
البرير : ثمر الأراك . أراد أنهم يجنونه من شجره ويأكلونه للجدب والقحط .
نستحيل : من خِلْتَه أخاله : إذا ظنته ، وتَحَيَّلَت السحابة : إذا تهبأت كأنها تمطر .
الجهام : الغيم الذى لا ماء فيه .

فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ، ومدقها وفزقها ، وابعث راعيها في الدثر بيانع الشمر ، وافجز لهم الثمد ، وبارك لهم في المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلماً ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً . لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك ، لا تُلطط في الزكاة ، ولا تُلحد في الحياة ، ولا نتناقل عن الصلاة ! » .

لقد استمع رسول الله ﷺ إلى خطاب طهفة برحابة صدر وابتسامة ثغر ، ولم يقف

-
- = الغائلة : المهلكة ، من غاله يغوله : إذا أهلكه .
النطاء : البعد ، والنطىء : البعيد ، أى أنها فلاة يهلك بُعْدُها من سلكها ، ويروى : غائلة المنطا - بفتح الميم - وهو مفعول منه .
الموطأ : موضع القدم في المشى .
المدهن : - بضم الميم - نقرة واسعة في الجبل أو الصخر يجتمع فيها الماء .
الجمعن : أصل النبات .
الأملوج : واحد الأمليج ، وهو ورق كأنه عيدان ، وقيل : هو نوى المقل ، والمقل هو ثمر الدوم .
العسلوج : الغض الناعم الذى يتشعب ورقه .
الهدئى : الهدئى ، وهو الذى يهدى من الإبل إلى الكعبة للنحر .
الودئى : الفسيل الصغير من النخل ، واحدها : وديه .
العنن : الاعتراض والاختلاف والباطل واللجاج .
طها البحر : ارتفع وعلا .
تِعَارٌ : - بكسر التاء - جبل في بلاد قيس من أعمال المدينة لا ينبت شيئاً .
النَّعم : - بفتح النون المشددة - اسم جنس يقع على الإبل والبقر والغنم - وأكثر ما يستعمل في الإبل .
الهمل : - بفتح الهاء والميم المهملة - التى لا رعاة فيها ولا من يصلحها ويهدئها .
الأغفال : جمع غفل - بالضم - وهى النعم التى لا سمة عليها . وقيل : الغفل الذى لا يرجى لا خير ولا شره ، وقيل : أراد بها التى لا ألبان لها .
بَضْ يَبْضُ : إذا قطر منه اللبن .
البلال : - بالكسر والفتح - الندوة والبسير من الماء قدر ما يبيل الشئ .
الوقير : الغنم الكثيرة .
الرسل : - بفتح الراء والسين - ما يرسل من الماشية إلى المرعى ، وجمعه : أرسال .
والرسل : - بكسر الراء - اللبن .
السنة الحمراء : الشديدة الجذب ، ويروى سُنَيْةً بالتصغير للتعظيم .
المؤزلة : - بكسر الزاى الخفيفة - الضيقة الشديدة .

الأمر برسول الله عند تزويد طهفة بكتاب إلى قومه النهديين ، ولكنه دعا لطفه وقومه بلسان قبيلة بنى نهد مع استعمال ألفاظهم ونهج أسلوبهم ، وقد قصد رسول الله بذلك أن يجاملهم ، ذلك أن حديث المرء بلغة ضيفه يحسب من قبيل التحية وباب التكريم ، هذا فضلا عن قدرة الرسول ﷺ على أن يتحدث لغات العرب جميعا بأفصح مما يتكلمها أصحابها .

أما وقد دعا رسول الله لنهد على النحو النبيل الذي سلف نصح ، فإنه يزيد القوم تكريما ، ويحمل طهفة كتابا إلى بنى قومه ، فيه نصح لهم وحسن توجيه ، بنفس الأسلوب وعلى نفس النهج ، يقول فيه : (١)

« من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد : السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بنى نهد ، في الوظيفة الفريضة ، ولكم العارض والفريش ، وذو العنان الركوب ، والفلو الضبيس ، لا يمنع سرحكم ، ولا يعضد طلحكم ، ولا يجبس دركم ، ولا يوكل أكلكم ، ما لم تضمروا الإماق وتأكلوا الرباق ، من أقربا في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد ، والذمة ، ومن أبى فعلية الربوة . »

ويبدو أن طهفة كان من أوائل القادمين على رسول الله ﷺ في عام الوفود ؛ لأن على ابن أبي طالب - وكان حاضرا الحوار - أخذه التعجب فقال : يا رسول الله نراك تكلم

(١) مثال الطالب لمجد الدين بن الأثير ١ / ٣٥ وما بعدها ، والعقد الفريد ٢ / ٥٣ وما بعدها . وقد أخرج الحديث أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي ، والزخشي في الفائق ٢ / ٢٢٧ وخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب في طهفة ص ٧٧٤ ، وابن حجر في الإصابة ٣ / ٢٩٧ في طهية .

معاني دعاء رسول الله وكتابه :

المحض : خالص اللبن . والمحضض : ما محض من اللبن وأخذ زبده . والمذق : اللبن المزوج بالماء . الدر : المال الكثير ، وقيل : الخصب والنبات الكثير . الثمد : الماء القليل ، ودائع الشرك : المراد بها العمود والمواثيق التي كانت بينهم وبين من جاورهم من الكفار في المهادة . الوضائع : جمع وضاعة ، وهي ما يلزم الناس في أموالهم من الصدقة . لا نلظط : يعني لا نمنع .

الوظيفة : النصاب في الزكاة . والفريضة : الهرة المسنة ، أي : لا تأخذ في الصدقات هذا الصنف . الفارض : المريضة . الفريش من الإبل : الحديثة العهد بالنتاج . الركوب : الفرس المذل للركوب . الفلو : المهر . الضبيس : الصعب العسر الركوب . السرح : ما سرح من المواشى . يعضد : يقطع . الطلح : الشجر لا ثمر له . الدر : اللبن . الإماق : الغنظ ، وقيل : إضمار الكفر . الرباق : جمع ربق : الحبل يجعل فيه عرى وتشد به البهيمة . تأكلوا الرباق : أي تنقضوا العهد . الربوة : الزيادة

وفود العرب بما لا نفهم أكثره ونحن بنو أب واحد ، فقال النبي : « أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بنى سعد » .

حديث ذى المشعار الهمداني وكتاب رسول الله لقومه :

قدم على رسول الله ﷺ حين رجع من تبوك وفد همدان ، يضم فريقا من رءوسهم ، منهم : ذو المشعار مالك بن نَمَط ، ومالك بن أَيْفَع ، وضمَام بن مالك السَّلْمَانِي وَعَمِيرَة بن مالك الخارفي ، فلقوا رسول الله ﷺ وعليهم مقطعات الحبرات والعمام العدنية - طبقا لرواية ابن هشام - برجال الميس على المَهْرِيَّة والأرْحَبِيَّة ، وذو المشعار ورجل آخر يرتجزان :

همدانُ خيرٌ سُوقةً وأقيالُ ليس لها في العالمين أمثالُ
محلها الهضْبُ ومنها الأبطالُ لها إطاباتٌ بها وآكالُ

ويقول الآخر :

إليك جاوزن سوادَ الريفِ في هَبَوَاتِ الصَّيْفِ والخريفِ
مُخَطَّاتٍ بحبالِ اللَّيْفِ (*)

عند ذلك قام ذو المشعار بين يدي رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله نَصِيَّةٌ من هَمْدَانَ من كل حاضرٍ وباد ، أَتَوَكُّ على قُلُصِ نَوَاجٍ مُتَّصِلَةٌ بحبائلِ الإسلامِ ، لا تأخذهم في الله لَوْمَةٌ لائمٍ من مَخْلَافِ خارفٍ ، وَيَامَ وشاكر ، أهل السَّوَادِ والقُودِ ، أجاابوا دَعْوَةَ الرسولِ ، وفارقوا الآلهات والأَنْصَابِ ، عَهْدُهُمْ لا يُنْقَضُ عن سُنَّةِ ما حل ، ولا سواداً عَنَقْفِيرٍ ما أقام لَعَلَعٌ ، وما جَرَى اليَعْفُورِ بِصَيْلَعٍ .

(*) معاني المفردات :

المقطعات : ثياب غيطة . الحبرات : برود بيانية . الميس : خشب تصنع منه الرحال التي تكون على ظهور الإبل . المهريّة : إبل نجية تنسب إلى قبيلة مهرة اليمنية . الأرْحَبِيَّة : إبل تنسب إلى قبيلة أرحب اليمنية ، وهي بطن من همدان ، وقيل : أرحب فحل تنسب إليه النجائب .
السوقة : من هم دون الملوك من الناس . الأقيال : الملوك ، ومفردها قَيْلٌ - بفتح وسكون - . الإطابات : الأموال الطيبة . الآكال : ما يأخذه الملك من رعيته وظيفه لهم عليه . السواد : معناه هنا القرى الكثيرة ، والشجر والنخل . الريف : الأرض التي تقرب من المياه والأنهار . الهبوات : مفردها هبوة ، وهي الغبار . مخططات : أى أن لها خطاً ، وهي الحبال تشد في رءوس الإبل على أنوفها .

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لمخلاف خارف ، وأهل جناب الهضب ، وحقاف الرمل ، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ، ومن أسلم من قومه ، أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، يأكلون علافها ويرعون عفاها [لنا من دفيهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة ، وهم من الصدقة الثلب والثاب والفصيل والفارض والداجن والكبش الحورى وعليهم فيها الصالح والقارح ، لكم بذلك عهد الله وذمام رسوله ، وشاهدكم المهاجرون والأنصار » (*).

لعلنا نلاحظ هنا مثلما لاحظنا في الكتاب السابق أن الرسول ﷺ قد خاطب القوم بلغتهم التى يفهمونها مع كونها مشحونة بالغريب من الألفاظ ، وغير المأنوس من

معانى مفردات حديث ذى المشعار :

النصية : خيار القوم . القلص : مفردها قلووس ، هى الإبل الفتية ، نواج : مسرعة . المخلاف : المدينة بلغة اليمن . خارف ويام وشاكر : قبائل يمنية . السواد - بفتح السين المشددة - يعنى الإبل . والقود : الخيل . الأنصاب : حجارة كانوا يذبحون لها ، لعلع : اسم جبل . اليعفور : ولد الظبية . صيلع : اسم موضع باليمن .

(*) معانى كتاب النبى ﷺ :

خلاف فى اليمن كالرستاق فى العراق . خارف : قبيلة يمنية . يام : بطن من همدان . شاكر : بطن من كهلان . جناب - بكسر الجيم - اسم موضع . الفراع : جمع فرعة ، وهو ما ارتفع من الأرض . الرهاط : ما اطمأن من الأرض . العزاز : ما صلب من الأرض . العلاف - بكسر العين - جمع علف كجبل ، وهو ما تأكله الدواب من نبات الأرض . العفاء : العاقى ، وهو ما ليس لأحد فيه ملك . الدفاء : نتاج الإبل وما ينتفع به منها ؛ سمي دفتاً لأنه يتخذ من أو بارها ما يستدفأ به . الصرام : النخل ، وأصله : قطع الثمرة . الثلب من ذكور الإبل : الذى هرم وتكسرت أسنانه . الثاب : المسنة من إناثها . الفصيل من أولاد الإبل : الذى فصل عن أمه من الرضاع . الفارض : المسن من الإبل . الداجن : الشاة التى يعلفها الناس فى منازلهم . الكبش الحورى : منسوب إلى الحور ، وهى جلود تتخذ من جلود الضأن ، وقيل : هو ما دبغ من الجلود بغير القرظ . الصالح - بالصاد المهملة والغين المعجمة - وهو من البقر والغنم الذى كمل وانتهى ، ويكون ذلك فى السنة السادسة . ويقال بالسنين بدل الصاد . القارح من الخليل : الذى دخل فى السنة الخامسة ، وجمعه قرح . طلائح : جمع طليحة أى : معيبة ، من طلح البعير - كمنع - طلحاً وطلاحة : أعيا .

الكلمات عند غيرهم ، وقد جرى هذا الغريب في أسلوب رسول الله ﷺ في يسر وانثيال وكأنه واحد منهم ، مع كمال البلاغة وتمام الإحاطة وشمول البيان .

وكان الرسول سخياً معهم ، مغدقاً عليهم حين أعطاهم عهداً بالسيادة على أرضهم ما بقى إسلامهم حسناً ، ولا يحسن إسلامهم إلا بإقام الصلاة التي هي عماد الدين ، وإيتاء الزكاة التي هي الركيزة الأساسية في نظام التكافل الذي انفرد به الإسلام ، فضلاً عن كونها الركن الثاني في العبادات ، والركن الثالث في بنية الإسلام ، ولعل أبا بكر - رضى الله عنه - قد اعتمد في حربه المرتدين على هذا النص من منطلق رسول الله ، هذا وقد جعل رسول الله ﷺ العهد لله ، والذمة له ، والشهادة للمهاجرين والأنصار تكريماً لهم ورفعاً لشأنهم .

هذا الموقف الجليل في حضرة رسول الله ﷺ قد استولى على مجامع ذى المشعار ، فجاشت عاطفته ، وفاضت شاعريته ، فنطق بهذه الأبيات النفيسة (*) :

| | |
|--|--|
| ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدَّجَى | وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَلْدِدِ |
| وَهَنَّ بِنَا خَوْصَ طَلَائِحُ تَغْتَلِي | بِرُّكِبَانِهِا فِي لَحَبٍ مُتَمَدِّدِ |
| عَلَى كُلِّ فِتْلَاءِ الدَّرَاعَيْنِ جَسْرَةَ | تَمْرُ بِنَا مَرَّ الْمُهْجَفِ الْخَفِيدِ |
| حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنَى | صَوَادِرَ بِالرُّكْبَانِ مِنْ هَضْبِ قَرْدِدِ |
| بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ | رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدِ |
| فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا | أَبْرَ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ |
| وَأَعْطَى إِذَا مَا طَلَبَ الْعُرْفِ جَاءَهُ | وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِفِيِّ الْمُهْنَدِ |

(*) معانى ألفاظ الأبيات :

فحمة الدجى : سواد ظلمة الليل . رحرحان : جبل قرب عكاظ . صلدد : موضع باليمن . خوص : جمع خوصاء ، يعنى غائرة العيون . قلائص : جمع قلوص ، وهى الناقة الشابة . تغتلى : من الاغتلاء ، وهو الإسراع فى السير . اللاحب واللاحب : الطريق الواضح . الفتل : تباعد ما بين المرفقين عن جنبى البعير . الجسر : العظم من الإبل ، ومؤنثه : جسة . الهجف : الجافى الثقيل . الخفيدد : السريع من النعام . الراقصات : الإبل ترقص فى سيرها ، وهو ضرب من المشى . صوادر : رواجع . قردد : المكان الغليظ المرتفع . العرف : المعروف . المشرفى : سيوف نسبت إلى مشارف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف . المهند : السيف المصنوع من حديد الهند .

كتب الرسول حين قدم عليه وائل بن حُجْر الحضرمي :

إن وائل بن حجر واحد من أبناء الملوك الذين وفدوا على رسول الله ﷺ في المدينة فأكرمه واحتمى به وأحسن استقباله طبقاً لما أوردناه في الفصل الثالث من الباب الأول ، وكان الرسول ﷺ على الرغم من سجيته السمحة في لقاء الوافدين عليه ، فقد خصَّص وائلاً برعاية جعلته في مقدمة الوافدين مكانة وحسن استقبال ، خصه دون غيره بثلاثة كتب - وليس كتاباً واحداً - حملها معه في عودته إلى موطنه حضرموت ، وخصَّصه بأن بشر الصحابة بمقدمه قبل دخوله على رسول الله ومثوله بين يديه بفترة من الزمان .

إن مجد الدين أبا السعادات بن الأثير يروى خبر مقدم وائل بن حُجْر على رسول الله ﷺ على هذا النحو (١) :

وفد على النبي ﷺ بالمدينة ، وقد كان بشرَّ به أصحابه قبل قدومه ، فقال : « يَا أَيُّكُمْ وائل (*) » بن حُجْر من أرض بعيدة ، من حضرموت ، طائِعاً رَاغِباً في الله عزَّ وجلَّ ، وفي رسوله ، بقيَّةُ أبناء الملوك » فلما دخل عليه رحَّب به وأذناه من نفسه ، ويسط له رداهه ، فأجلسه عليه ، وقال : « اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده » واستعمله على الأقيال من حضرموت ، وكتب معه ثلاثة كتب ، كتابٌ خالصٌ له على قومه ، وكتابٌ له ولأهل بيته ، وكتابٌ له ولقومه :

(١) الفائق للزخشي ١٤/١ ، والإصابة ٣/٦٢٨ والطبقات الكبرى ١/٣٤٩ ومنال الطالب ١/٧٣ .

(*) المعاني :

وائل : اسم فاعل من وَّأَلَ يَوِّلُ وَآلًا : إذا لجأ إلى شيء ، والمؤزَّل : المُلجأ .

وكان وائل قَبِيلاً من أقيال حضرموت ، ومن أبناء ملوكها .

وحُجْرٌ - بضم الحاء - اسمٌ معروف ، تقول العرب عند الأمر تنكره : حُجْرَ له ، أى : دَفَعاً ، وهو استعاذةٌ من الأمر . وأبو أمية ، هكذا يروى بالرفع في حال الجرِّ ؛ لأنه اشتهر بذلك وعُرِفَ به ، فجرى مجرى المثل ، وهذا المهاجر هو صحابيٌّ من بنى المغيرة المخزوميِّ أخو أم سلمة . بعثه رسولُ الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال الحِمْيَرِيِّ ملكِ اليمن ، واستعمله على صناعةٍ وغيرها ، ثم ولَّاه أبو بكر بعده اليمنَ .

والأقيالُ : ملوك اليمن ، دون الملك الأعظم ، يكون كلُّ واحد منهم مَلِكاً على قومه ومخلافه ، وهو جمعُ قَبِيلٍ .

ويُسْتَشْعَى : أى يستعمل على الصَّدَقَاتِ ، من الساعى ، وهو عامل الصدقة الذي يأخذها من أربابها .

ويَتَرَفَّلُ : يَتَسَوَّدُ ويَتَرَأْسُ ، يقال : رَفَلْتَهُ فَرَفَلًا .

ففي الكتاب الأول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبو أمية ، إنَّ واثلاً يُسْتَسَعَى وَيَتَرَفَّلُ عَلَى الْأَقْوَالِ حَيْثُ كَانُوا مِنْ حَضْرَمَوْتِ .

وأما الكتاب الثاني فهو لوائل ولأهل بيته ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبي أمية ، لأبناء مَعْشَرٍ وَأَبْنَاءِ ضَمَمَعَجٍ ، أَقْوَالِ شَبُوءَةٍ ، بِمَا كَانَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ مَلِكٍ وَعُمَرَانٍ ، وَمَزَاهِرٍ وَعُرْمَانٍ ، وَمِلْحٍ وَمَحَجَّرٍ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مَالٍ بِحَضْرَمَوْتِ ، أَعْلَاهَا وَأَسْفَلِهَا ، مِنَ الْجِوَارِ وَالذَّمَّةِ ، اللَّهُ لَهُمْ جَارٌ وَالْمُؤْمِنُونَ أَنْصَارٌ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » (*) .

ومن الواضح بمكان أن هذا الكتاب الثاني يكاد يخلو من الألفاظ غير المأنوسة ، اللهم إلا أسماء الأقسام والقبائل والأمكنة ، وفيما عدا ذلك فالألفاظ مأنوسة ومفهومة .

والكتاب الذي أملاه رسول الله ﷺ موجه إلى وائل وإلى قومه جميعاً من ملوك ومن هم في مقام الملوك وإلى أهل حضرموت بصفة عامة ، وفيه الفرائض والتكاليف والأحكام ، وقد أجرى رسول الله ﷺ أسلوب الكتاب على سجية لغة القوم من أهل حضرموت ، وهي لغة غير معروفة ولا مأنوسة عند أهل الحجاز ، ولم تشر الأخبار من قريب أو بعيد أن النبي ﷺ قد زار حضرموت أو عايش الحضارمة في مكة أو المدينة . وهو مع ذلك يتحدث لغتهم ويستعمل مصطلحاتهم ويجري الخطاب بلغتهم في يسر وانطلاق وكأنه عاش حياته بينهم ؛ فيستبدل النون بالعين ، والميم بالنون ، وغير ذلك مما درج عليه

● معاني : الكتاب الثاني :

مَعْشَرٌ وَضَمَمَعَجٌ : قبيلتان من حمير وأهل حَضْرَمَوْتِ ، وهما من آباء وائل بن حُجْرٍ وقومه .

وَضَمَمَعَجٌ - بالضاد المعجمة والجميم - : هو اسم الناقة الضَّخْمَةُ التَّامَّةُ .

أقوال : لغة في أقيال .

وَشَبُوءَةٌ : اسم الناحية التي كانوا بها من حضرموت .

وَالْعُمَرَانُ : المعمور من الأرض .

وَالْمَزَاهِرُ : الرِّبَاضُ ، جمع مَزْهَرٍ ؛ لأنها تجمع أصنافَ الزَّهْرِ والنبات .

وَالْعُرْمَانُ : المزارع - وقيل : الأكَرَةُ - وهم حرث الأرض ، واحدها : عُرْمٌ ، وقيل : عَرِيمٌ .

وَمَحَجَّرٌ : قرية معروفة بحضرموت ، وقيل : هو مَحَجَّرٌ ، بالنون : موضع معروف بها .

وَالجِوَارِ وَالذَّمَّةُ : الأمان والمهدد ، يقال : أَجْرْتُ فُلَانًا : إذا مَنَعْتَ مِنْ ظُلْمِهِ وَنَصَرْتَهُ ، وأجاره الله من العذاب : أى

أنقذه . والاسم : الجوار .

أهل حضر موت في كلامهم في ذلك الزمان ، وهذا هو نص الكتاب الثالث :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى وائل بن حُجْرٍ ، والأقيال العباهلة ، والأرواح المشاييب ، من أهل حَضْرَمَوْتِ ، بإقام الصلاة المفروضة ، وأداء الزكاة المعلومة ، عند محلِّها ، على التَّيْعَةِ شاةً ، لا مُقَوَّرَةَ الألياط ، ولا ضِنَاك ، والتَّيْمَةَ لصاحبها ، وأنطوا التَّبَجَّةَ ، وفي السُّيُوبِ الحُمْسُ ، لا خِلَاطٌ ولا وِراطٌ ولا شِنَاقٌ ، ولا جَلَبٌ ولا جَنَبٌ ولا شِغَارَ في الإسلام ، ومن أجبا فقد أَرَبَى ، وكلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ ، ومن زنا مِمَّ بِكْرٍ فاصقُموه مائة ، واستَوْفِضُوهُ عاماً ، ومن زنا مِمَّ نَيْبٍ فَضَرَّجُوهُ بالأضاميم ، لا تَوْصِيمٍ في الدِّينِ ، ولا عُمَّةً في فرائض الله ، لكل عشرة من السَّرَايا ما يَحْمِلُ القِرَابُ من التَّمْرِ . ووائلُ بن حُجْرٍ يَتَرَقَّلُ على الأقيال ، أميرٌ أمره رسولُ الله ، فاسمعوا وأطيعوا»(*) .

وجاء في الخبر أن وائلا طلب من رسول الله ﷺ أن يقطعه أرضا فأقطعه إياها ،

● معاني الكتاب الثالث :

والعِبَاهِلَةُ : الذين أَوْرَوا على ملكهم ، لا يُرَالُونَ عنه ولا يُمْتَنَعُونَ منه ، من عَبَهَلَةٌ : إذا أهملهُ ، والأصل عِبَاهِلٌ ، كصياقل ، ويموز أن يكون الأصل عِبَاهِيل .
والأزواغُ : الذين يَرُوعُونَ الناسَ بِخُسْنِ المنظر وجمال الهيئة والشَّارة ، واحداها : راتِعٌ كشاهد وأشهاد .
والمشاييبُ : الزَّهْرُ المُسْتَبِيرُ الوجوه ، الذين كأنها شُبَّتْ ألوانهم : أى أوقِدَتْ ، واحدهم : مَشْبُوبٌ ، يقال : سَبَّ النَّازِ بِشَبِّها : إذا أوقدها ، ورجلٌ مَشْبُوبٌ : إذا كان أبيضَ الوجه ، أسودَ الشَّعر ، حَسَنَ المنظر .
ويحجَّلُ الزكاة - بكسر الحاء - : الوقت الذي تجب فيه باستكمال الحول .
التَّيْعَةُ : الأربعون من الغنم ، وقيل : هى اسمٌ لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الإبل والغنم وغيرها ، كأنها الجملة التى للِسَعَةِ عليها سبيل ، من ناعٍ إليه يَتَّبِعُ : إذا ذهب إليه .
المُقَوَّرَةُ . المُسْتَرَحِيَةُ الجلودُ بهزائها ، وقد أَقَوَّرَ الحِلْدُ يَقَوِّرُ أَقَوْرًا ، من قولهم : دارٌ قَوْرَاءُ ، أى : واسعة ، لأنه يُفَضَّلُ حينئذ عن الجسم ويتسَعُ .
الألياطُ : جمع الأليط ، وهو القَشْرُ اللاصق بالشَّجر والقَصَب ، من لاطَ حُبَّهُ بقلبي .
الضِنَاك : المكتنزة اللحم ، من الضَّنْكَ : الضَّبِيقُ ؛ لأن الاكتنارَ تَضَامٌ وتَضَائِقٌ .
أى : لا يؤخذ منهم الرَّذىء ولا النَّفِيسُ ، إنما يؤخذ الوَسَطُ .
التَّيْمَةُ : الشاةُ الزائدة على التَّيْعَةِ ، حتى تَبْلُغَ الفريضة الأخرى . وقيل : هى الشاةُ المربوطة المعلوفة فى البيت للاحتلاب ، وإيَّهها كانت فهى المحبوسة ، إما عن الصدقة ، وإمَّا عن الرِّفَى .
الإعطاء : الإعطاء ، لغة بياينة . يقال : أَنْطَى يُنْطَى ، كأعطى يُعطى .
والتَّبَجَّةُ : الوَسَطُ ، والأصل : النَّجج . أى : أعطوا المتوسطة بين الخيار والرَّذال .

= والسُّيُوبُ : الرِّكَازُ ، وهو المال المدفون في الجاهلية ، أو المعدن ، جمع سَيْبٍ ، وهو العطاء ، لأنه من فضل الله على من أصابه . وقيل : السُّيُوبُ : عُرُوقٌ من الذهب والفضة ، تسيب في المعدن ، أى : تجرى فيه .
والخُمْسُ : سهمٌ من خمسة أسهم ، وتضم ميمه وتُسكَن .

والخِلاطُ : مصدر خالطه يخالطه مخالطةً وخِلاطاً ، والمراد به أن يخلط الرجل ماله بهال غيره ليمنع حق الله منه ، أو يتبخص الساعى فيما يجب له ، وهو معنى قوله في الحديث الشريف : « لا يُجْمَعُ بين مُتَّفَرِّقٍ ولا يُفَرَّقُ بين مُجْتَمِعِ حَسْبِيَةِ الصَّدَقَةِ » .
أما الجمع بين المتفرق ، وهو الخِلاطُ : فمثل أن يكون ثلاثة نَفَرٍ ، لكل واحد منهم أربعون شاةً ، وقد وجب على كل واحدٍ منهم شاةً ، فإذا أظلمهم الساعى جمعوا لثلاً يكون عليهم فيها إلا شاةً واحدةً .

وأما تفريقُ المجتمع : فإن يكون شريكاً ولكل واحدٍ منها مائة شاةٍ وشاةً ، فيكون عليهما فيها ثلاثٌ شياهُ ، فإذا أظلمهم الساعى فرقا غنمها ، فلم يكن على كل واحدٍ منها إلا شاةً واحدةً ، فنُهِوا عن ذلك .
والوَراطُ : أن يجعل غنمه أو إبله في وَهْدَةٍ من الأرض لتتحفى على المُصَدِّقِ ، مأخوذةٌ من الوَظْطَةِ ، وهى الهُوَّةُ العميقة في الأرض ، يقال : تورَّطت الغنمُ : إذا وقعت في الوَظْطَةِ ، ثم استعير للناس إذا وقعوا في بَلِيَّةٍ يَغْمُرُ المَخْرُجُ منها .
وقيل : الوِراطُ أن يُعَيَّبَ إبله أو غنمه في إبلٍ غيره أو غنمِهِ ، لثلاً يراها المُصَدِّقُ .

والشِّناقُ : المشاركة في الشَّنَقِ ، وهو ما بين الفريضتين من كل ما تجب فيه الزكاة ، كالزيادة على الخمس من الإبل إلى العشر ، والزيادة على العشر إلى الخمس عشرة . أى : لا يُؤخَذُ في الزيادة على الفريضة زكاةً ، إلى أن تبلغ الفريضة الأخرى . وإنما سُمِّيَ شَنَقاً ، لأنه ليس بفريضة تامّةً ، فكأنه مشنوقٌ ، أى : مكفوفٌ عن التمام ، من شَنَقَتِ الناقة بزمامها : إذا كَفَفَتَهَا .

فمعنى قوله : « لا شِناقٌ » أى : لا يَشْنِقُ الرجلُ غنمه أو إبله إلى مال غيره ، ليبطل الصدقة ، وهو قريبٌ من الخِلاط .
تقول العربُ إذا وجب على الرجل شاةً في خمس من الإبل : قد أَشْنَقَ ، أى وجب شَنَقٌ .

والجَلْدُ : يكون في شيتين ، أحدهما في الزكاة ، وهو أن يُقَدِّمَ المُصَدِّقُ على أهل الزكاة ، فينزل موضعاً من أرضهم ، ثم يرسل إلى المياه من يجلبُ إليه الأموال ، ويجمعها عنده ليأخذَ صدقتها ، فنُهِى عن ذلك ، وأمر أن تؤخذَ صدقاتهم على مياهم ، يقال : جلب الشيءَ يَجْلِبُهُ وَيَجْلِبُهُ ، جَلَباً وَجَلَباً .

والثاني : يكون في السِّباقِ ، وهو أن يَتَّبِعَ الرجلُ فرسه فيزجره ، ويَجْلِبُ عليه ، حتا له على الجرى ، فنُهِى عن ذلك .
يقال : جَلَبَ فرسه يَجْلِبُ جَلَباً : إذا صاح به من خَلْفِهِ ، واستحسه ، وأجَلَبَ عليه مثله .

والجَنَبُ : يكون في الزكاة كالجَلَبِ ، وهو أن يأمر المُصَدِّقُ بالأموال أن تُجَنَّبَ إليه ليأخذَ صدقتها ، يقال : جَنَبْتُ الدابةَ جَنَباً : إذا قُدَّتْها إلى جَنَبِكَ . وقيل : هو أن يُجَنَّبَ ربُّ المال بهاله ، أى : يُبْعَدَ عن موضعه ، حتى يحتاج المُصَدِّقُ إلى الإبعاد في طلبه وأتباعه .

والشُّغارُ : نكاحٌ كان في الجاهلية ، كان يقول الرجلُ للرجلِ : شاغِزى ، أى : رَوِّجْنى بنتك أو أختك ، أو من تلى أمرها ، حتى أزوَّجَكَ أختى أو بنتى ، أو من ألى أمرها ، ولا يكون بينهما مهرٌ ، وقيل له : شِغارٌ ، لارتفاع المهر بينهما ، من شَغَرَ الكلبُ : إذا رفع إحدى رجليه لبيول .

وأجبا الرجلُ : إذا باع الزرع قبل أن يبدؤ صلاحه ، وأصله الهمزُ ، من جبا عن الشيء : إذا كفَّ عنه ، لأن البئاعَ مُتَمَتِّعٌ من الانتفاع به إلى أن يُدْرِكَ ، وإنما حُفِّفَتِ الهمزة ليزاوج أُرْبى .

وبعث معه معاوية بن أبي سفيان ليتسلمها ، ويبدو أنه كان بوائيل بقية من استعلاء الملوك ؛ لأن معاوية قال له : أردفني ، أى : أركب خلفك على الدابة التى تحملك ، فقال له وائل : لست من أرداف الملوك ، ورفض أن يردفه ، وقد عاش وائل إلى زمن خلافة معاوية ، فذهب إليه ، فتلقاه معاوية بالبشر وأكرمه . قال وائل : فوددت لو كنت حملته بين يدي .

كتاب الرسول لقبيلة كلب مع قطن بن حارثة العليمي :

كانت قبيلة كلب تسكن دومة الجندل وما حولها ، فقدم وفد بنى عليم - وهم بطن من كلب - ومعهم قطن بن حارثة العليمي وألقى خطبته نيابة عنهم بين يدي

= وقيل : أراد بالإجاء أن يُعَيَّبَ إبله عن المُصَدِّق ، من أجابته : إذا واريته . وأزبى : أى دخل في الرِّبَا ، يقال : أزيى يُزيى إرباء ، وأصل الرِّبَا : الزيادة ، وقد ربا المال يَرُبُو رَبْوًا ، والاسم الرِّبَا ، مقصورٌ .
وقوله : « ومن زنا مم يكر » قلب نون « من » ميبأ ، لوقوع باء « يكر » بعدها ، وهو قلب مُطَرِّدٌ إذا كانت النون ساكنة ، نحو عَنبرٍ ووينبر .
وأما قوله : « ومن زنا مم ثيب » فإن قلب النون ميبأ لغةً يمانيةً ، كما يقبلون لام التعريف ميبأ ، كقوله : « ليس من امرئ » يريد : من البر .

والبكر والثيب يقعان على الرجل والمرأة ، فالبكر : الذى لم يتزوج ، والثيب : الذى تزوج .
والصقع : الضرب على الرأس ، ومنه فرس أضقع ، وهو المبيض أعلى رأسه ، والمرادُ هنا الضرب على الإطلاق .
والاستيفاض ، التفریب والتفتى والطرد ، من وقض وأوقض : إذا عدا وأسرغ ، واستوقضت الإبل . إذا تفرقت في رعيها .
والتضريح : التذبيبة ، من الضرح ، وهو الشق ، وثوبٌ مُضْرَجٌ ، أى : مصبوغٌ بالحُمْرة ، وتضرح : إذا تَلَطَّخَ بالدم .
والأصاميمُ : الحجارة ، واحدها إضمامة ، إفعالة من الضم ، وأراد بذلك الرّجْم الذى هو حدُّ الزانى الثيب .
والتوصيم : الفُتور والتواني ، أى : لا إهمال لإقامة الحدود ، وأصله من الوضم : الضدع . ثم قبل لمن به وجع وتكسر في عظامه : مؤصمٌ ، كما قيل لمن في حسبه غميرةٌ : مؤصومٌ ، ثم شبه الكسلان المتشاكل بالوجع المتكسر ، فقيل : به تَوْصِيمٌ ، والمعنى : لا محابة في دين الله ولا توائى .

والغمّة : من غمّه ، إذا ستره وغطاه ، أى : لا تُستر فرائضه ولا تُخفى ، إنها تُظهِرُ ويُجهر بها .
والسرايا : جمع سرية ، وهى طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة ، تُبعث إلى العدو ، سُميت بذلك لأنهم يكونون خيارَ الجيش ، من السرى : النقيس ، وقيل : لأنهم يُنفذون سرًا . وقيل : هو من السرى : سير الليل ، لأن أكثر ما يُنفذون فيه

والقرباب : شبه جراب يضع فيه المسافر زادَه وسلاحه .

ويروى : « القراف » بالفاء ، جمع قراف ، بالسكون ، وهو وعاءٌ من جلد يُدبغ بالبرقة ، وهى قشر الرمان .
أوجب عليهم أن يروّذوا كل عشرة من السرايا المجتازة بهم ما يسع هذا الوعاء من التمر .

رسول الله ﷺ ، وقد استهلها بأبيات من الشعر في مدح الرسول ﷺ قال فيها :

رأيتك يا خير البرية كلها نبتاً نضاراً فى الأرومة من كعب
أغرّ كأن البدر سنة وجهه إذا ما بدا للناس فى حبل العصب
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجها وريت اليتامى فى السقاية والجذب

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً يحمل فحواه ما تضمنه الكتاب الثالث الذى حمله وائل بن حجر السالف عرضه ، من حيث العبادات المفروضة من صلاة وزكاة وتفصيلات الصدقات التى عليهم تأديتها ، ومثلما أملى الرسول ﷺ كتبه لأهل حضرموت بلغتهم ولهجتهم ، فقد سلك ﷺ النهج نفسه مع قبيلة كلب ونواحي دومة الجندل من حيث اللغة واللهجة والألفاظ ومسمياتها . وهى إن بدت حوشية غير مأنوسة عند غيرهم فهى عندهم تحمل سمت البلاغة وغاية السلاسة . وهذا هو نص كتاب رسول الله لكلب وأحلافها : (١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله ، لعماير كلب وأحلافها ، ومن ظأره الإسلام من غيرهم ، مع قطن بن حارثة العُلَيْمى ، بإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة بحقها ، فى شدة عقدها ووفاء عهدها ، بمحضر من شهود المسلمين : سعد بن عبادة ، وعبدالله بن أنيس ، ودخية بن خليفة الكلبى . عليهم فى الهمولة الراعية البساط الطوار ، فى كل خمسين ناقة ، غير ذات عوار ، والحمولة الماترة لهم لاغية ، وفى الشوى الورى مسنة حامل ، أو حائل ، وفيها سقى الجدول من العين المعين العشر من ثمرها ومما أخرجت أرضها . وفى العدى شطره بقيمة الأمين ، لا تزداد عليهم وظيفة ولا تفرق . شهد الله على ذلك ورسوله . وكتب ثابت بن قيس بن شماس (*).

(١) منال الطالب ١ / ٥٩ ، والعقد الفريد ٢ / ٣٤ ، والإصابة ٣ / ٢٨٣ .

(* معانى الألفاظ :

العماير : جمع عمارة ، وهى الحق العظيم ، أولها : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ .
من ظأره الإسلام : أى عطفه أو عطف عليه ورفق به ، ومنه قيل لمن ترضع غير ولدها : ظئر .
الأحلاف : جمع حليف ، وهو المحالف والمعاهد .
وشدة عقدها : ما تعاقدا عليه من الإيثار والوفاء بالعهود .
الهمولة - بفتح الهاء - : الإبل التى أهملت للرعى وتركت ترعى حيث تشاء .

كتاب النبي مع رسول حمير :

كان ملوك اليمن وأقيالهم كثيرون العدد ، ومن ثم كثرت وفودهم إلى رسول الله ﷺ وكل واحد منهم يمثل المنطقة التي يلي شئونها ، ومنهم من اعتنق الإسلام وظل في دياره ، واكتفى ببعث رجل من رجاله أو بعض رجاله ليخبر رسول الله ﷺ بإسلامه ، وإن بعض ملوك حمير من بني كلال قد بعثوا إلى رسول الله مالك بن مرارة الرهاوي يحمل كتابا منهم إلى رسول الله بإسلامهم ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد

والبساط - يروى بالضم والفتح والكسر - فأما الضم فهو جمع بسط بالكسر ، وهى التى معها أولادها ، وجمعت على فعال .

وأما الكسر ، هو جمع بسط ، بالكسر ، وهى الناقة التى تركت ولدها لا يُمنع منها ، ولا تُعطف على غيره . وبسط : بمعنى مبسوطه .

وأما الفتح فهو الأرض الواسعة ، فيكون المعنى : فى الممؤلة التى ترعى الأرض الواسعة . والظوار : جمع ظئر ، وهى التى ظئرت على غير ولدها من النوق ، أى : عطفت عليه ، وأُستت به لترضيه . وقوله : « وفى كل خمسين ناقة » أى : فى كل خمسين ناقة ناقة . كأنه قال : فى كل خمسين من الإبل الممؤلة الراعية ناقة .

والتعوار : بالفتح - العيب ، وقد يُضم ، أى : لا تؤخذ فى الزكاة ناقة معيبة ، كما لا يؤخذ منهم النفيس الكريم عليهم وإنما يؤخذ منهم الوسيط .

والحمؤلة - بالفتح - ما يحتمل عليه الناس من الدواب ، سواء كانت عليها الأحمال أو لم تكن ، كالركوبة . وأما الحمؤلة - بالضم - فهى الأحمال . والحمول بلاها : الإبل التى عليها الهوادج ، سواء كان فيها نساء أو لم يكن . والماترة : التى تحمل الميرة ، وتُجلب عليها الأقوات وغيرها ، وقد مازتهم يميزهم ، فهو مائر . واللاعية : اللغاة المطرحة متروكة ، لا تُعد عليهم ، ولا يلزمون لها صدقة .

والشوي : جمع شاء . نحو كلب وكليب . وقيل : هو اسم الجمع ، كالمعيز ، فى المعز .

والمورى : السمين ، يقال : ورى اللحم يرى ، فهو وار وورى : إذا اكتنز وسمين .

والمسنة : الكيرة من البقر والشاء ، وهى التى أثنت بطلوع ثنيها ، ولا يُراد بالمسنة الهرمة الكبيرة . والحامل : التى فى بطنها ولدها .

والخائل : التى لم تجبل ، يقال : حالت الناقة وأحالت : إذا حملت عاماً ولم تحمل عاماً ، فهى حائل ومجبل . والجذول : النهز الصغير من الماء ، كالساقية .

والماء المعين : الذى جرت عيونُه . يقال : حفرت حتى عثت ، أى : بلغت العيون ، والماء معين ومعيون : أى مجرى مسأل .

وأراد بالتمر : ما يخرج من غلة الزروع ، لأنها تمرها .

والعذئ - بكسر العين وسكون الذال - : ما لا يُسقى من الزرع ، ويُفتح بهاء المطر . والشطر : النصف .

وقوله : « بقيمة الأمين » أى : لا يُحاف عليهم ، بل تُقوم غلتهم قيمة عذئ ، ويُؤخذ الواجب منها .

والوظيفة : ما يُقدّر للإنسان من الشئ وعلى الملك من خراج وغيره . وقد وظفته توظيفاً .

كلال ، والنعمان قَيْل ذى رَعَيْنَ ومعافر وهدان ، وذلك فى شهر رمضان سنة تسع ،
وقبل مَقدم رسول الله ﷺ من تبوك .

أمر رسول الله ﷺ بالآلا أن ينزله ويكرمه ويضيفه ، وكتب إليهم رسول الله ﷺ (١):
« أما بعد ذلكم : فإنى أحمّد إلكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه قد وقع بنا
رَسُولُكُمْ مَقْفَلَنَا من أرض الروم ، فَبَلَّغَ ما أرسلتم به ، وَخَبَّرَ عَمَّا قَبْلَكُمْ ، وَأَبَأْنَا
بِإِسْلَامِكُمْ وقتلكم المشركين ، فإن الله - تبارك وتعالى - قد هداكم بهداه إن أصلحتم
وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من المَعْنَمِ مُحْسَسَ الله وَمُحْسَسَ
نَبِيِّهِ وَصَفِيَّهِ ، وما كُتِبَ على المؤمنين من الصدقة [من العَقَارِ عَشْرُ ما سقت العَيْنَ
وَسَقَّتِ السماء ، وعلى ما سقى الغرب نصف العَشْرِ . إن فى الإبل الأربعين ابنة لَبُونِ ،
وفى ثلاثين من الإبل ابن لَبُونِ ذَكَرَ ، وفى كل حَمْسٍ من الإبل شاةٌ ، وفى كل عَشْرٍ من
الإبل شاتان ، وفى كل أربعين من البَقَرِ بَقْرَةٌ ، وفى كل ثلاثين من البَقَرِ تَبِيعَ جَدَعٌ أو
جَدَعَةٌ ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وَخَدَّهَا شاةٌ ، وإنها فريضة الله التى فَرَضَ
على المؤمنين فى الصَّدَقَةِ ، فمن زاد خَيْرًا فهو خَيْرٌ له ، ومن أَدَّى ذلك وأشهد على
إسلامه ، وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين : له ما لَهُمْ وعليه ما عليهم ، وله

(١) سبل السلام ٦ / ٤٩١ وما بعدها .

المعاني:

الرَّهَوى : - بفتح الراء - نسبة إلى قبيلة - وبالضم - الرُّها : بَلَدٌ بالجزيرة ، وليس مُراداً هنا .
القَيْلُ : وهو أحد ملوك اليَمَنِ دُونَ الملك الأعظم ، وقيل : ذو رَعَيْنِ ، أى : ملكها : وهى قبيلة من اليَمَنِ تُنسَبُ
إلى ذى رَعَيْنِ ، [وذو رَعَيْنِ مَلِكٌ من ملوك جَمِيرٍ] وَرَعَيْنٌ : حِصْنٌ كان له ، وَرَعَيْنٌ تصغير رَعْنٍ : أنف الجَبَلِ .
مَعَافِرٌ : - بفتح الميم وتخفيف العين المهملة وكسر الفاء وبالراء - : حَى من اليَمَنِ . وقيل : برود من برود اليمن .
الغَرْبُ : - بفتح الغين المعجمة وسكون الراء وبالموحدة - الدُّوُ .
ابنة لَبُونِ : - بلام مفتوحة فموحدة مضمومة فواو فنون - : من الإبل ما أتى عليه ستان ودخل فى الثالثة فصارت أمه
لَبُونًا ، أى : ذات لَبِينِ .
التَّبِيعِ : - بفتح الفوقية وكسر الموحدة فمثنى تحتية فعين مهملة - : ولد البقرة أَوَّلَ سَنَةٍ .
الجَدَعُ : - بالجيم والذال المعجمة المفتوحتين وعين مهملة - : من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة ، ومن البَقَرِ والغنمِ
ما دخل فى السنة الثانية ، وقيل : البَقَرُ فى الثالثة .
سائمة وَخَدَّهَا : راعية وَخَدَّهَا .
ظَاهَرٌ : عَاوَنٌ .
الدُّمَّةُ : الأمان والعَهْدُ .

ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ، وَإِنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ مَا هُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ عَنْهَا ، وَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ عَلَى كُلِّ حَالٍ - ذَكَرَ أَوْ أُنْتَى ، حُرّاً أَوْ عَبْدًا - دِينَارٍ وَافٍ مِنْ قِيَمَةِ الْمَعَاوِرِ أَوْ عِوَضُهُ ثِيَابًا ، فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَمَنْ مَنَعَهُ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ .

وإذا كانت أكثر الرسائل التي مر ذكرها محمولة مع الوفود تفيد التعليم والتوجيه ، فإن هذا الكتاب يمثل عهداً بين المؤمنين بتوجيه من رسول الله ﷺ للنصارى واليهود ، يحفظ لهم حريتهم في البقاء على دينهم ، ولا يردون عنه ، ولهم ذمة الله ورسوله متى أدوا الجزية .

ولعل أسلوب هذا الكتاب أكثر يسراً من سابقه ، وذلك باستثناء تصنيف الماشية تبعاً لأعمارها وصفاتها .

وفود بارق وكتاب رسول الله لهم :

بارق : قبيلة أخرى من قبائل اليمن ، ويفهم من خبر وفودهم على رسول الله ﷺ أنهم لم يكونوا أسلموا بعد ، وإنما تم إسلامهم حال وفودهم على النبي ﷺ إذ دعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا ، فكتب لهم الرسول كتاباً هذا نصه : (١)

هذا كتاب من محمد رسول الله لِبَارِقِ : لَا تُجَدُّ ثِيَابُهُمْ وَلَا تُرْعَى بِلَادُهُمْ فِي مَرْبَعٍ وَلَا مَصِيفٍ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ مِنْ بَارِقٍ ، وَمَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَرَكٍ أَوْ جَدْبٍ فَلَهُ ضِيْفَةٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَإِذَا أُيْنَعَتْ ثِيَابُهُمْ فَلَا بِنَ السَّبِيلِ اللَّقَاطُ يُوسِعُ بَطْنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْتَسِمَ « شَهِدَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَحَدَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ، وَكَتَبَ أَبُو بَنِي كَعْبٍ .

(١) سبل السلام ٦ / ٤٩١ وما بعدها .

المعاني :

مَرْبَعٌ : الموضع الذي يُنزل فيه أيام الربيع ، واسم جبل قرب مكة . وأما مَرْبَعٌ - بكسر الميم - فال بالمدينة في بنى حارثة .

مَصِيفٌ - بميم مفتوحة فصاد مهملة مكسورة فمشناة تحتية ففاء - : مكان يُنزل فيه أيام الصَّيْفِ .

عَرَكٌ : تجريد الأرض من المَرْعَى .

أُيْنَعَتْ : أدركت وتَصَنَّجَتْ .

يَقْتَسِمُ : يَجْتَسِمُ ولم يُبق له أصلاً .

لعلنا نلاحظ هنا أن التعاليم التي حملها وفد بارق معه متضمنة في كتاب رسول الله
مبدأ اجتماعيا تربويا جليلا ، يتمثل في حق الضيف المسلم في أن يكرم ويقدم له
القرى .

كتاب الرسول وخبر الأكيدر بن عبد الملك :

الأكيدر بن عبد الملك الكندي كان ملكا على دومة الجندل ، و لرسول الله ﷺ كتاب
إليه حمله هو وخالد بن الوليد وهما عائدان معا إلى دومة الجندل بعد أن مثل الأكيدر بين
يدى رسول الله ، وقدم إليه هدية عبارة عن جبة من ديباج منسوج فيها الذهب .

ولقد روى خبر وفادة الأكيدر على رسول الله بأكثر من صيغة ، بل لقد اختلف في
إسلام الأكيدر ، فتقول إحدى الروايات : إنه أسلم بين يدي رسول الله ، وعاد إلى
مملكته ، ولكنه ارتد بعد وفاة الرسول فذهب إليه خالد وقتله ، وتقول رواية أخرى : إنه
لم يسلم أصلا وقد أمّنه الرسول على نفسه ما حفظ العهد الذي تضمنه كتاب الرسول
إليه ؛ لأنه كان ذميا نصرانيا ، فتركه الرسول على دينه وملكه وقصره ، ويبدو أن هذا
القصر كان من النفائس المشهورة ؛ لأن حسان بن ثابت قد ضمنه قصيدته اللامية
المشهورة التي قالها قبل الإسلام ، وفيها يقول في مدح الغساسنة : (١).

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُمْ
شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ
فلبثتُ أزماناً طوالاً فيهِمْ
ثم ادكّرتُ كأننى لم أفعلِ
إما تَرى رأسى تغَيَّرَ لونه
شَمَطاً فأصبحَ كالثَغَامِ المحوِّلِ
ولقد يرانى مُوعِدِيَّ كأننى
في قَصْرِ دُومَةَ أو سِوَاءِ الهَيْكَلِ (*)

(١) ديوان حسان ص : ١٨٣ ، ١٨٤ ط دار إحياء التراث العربى - بيروت .

(*) معانى الألفاظ :

شم الأنوف : أصحاب أنفة وعزة . الشمط : بياض يخالط سواد الشعر . الثغام : نبات جبلى يبيض لونه قبل
يبسه . سواء الهيكَل : وسط المعبد في الكنيسة .

والشعر الذى قيل فى دومة الجندل غير قليل ، وقد أورد ياقوت الرومى نماذج منه فى كتابه « معجم البلدان » (١) .

ومهما تكن طبيعة أخبار الأكيدر ، فإن الشىء المحقق أنه مثل بين يدى رسول الله حين جاء به خالد أسيراً أو شبه أسير ، وأنه خاطب رسول الله بصفته الشريفة بقوله : يا رسول الله ، وأن الرسول ﷺ آمنه وأكرمه وقبل هديته ، وأنه ﷺ زوده بكتاب ، هذا نصه : (٢)

« هذا كتاب من محمد رسول الله حين أجاب إلى الإسلام وخَلَعَ الأندادَ والأصنام ، مع خالد بن الوليد سيفِ الله ، فى دَوْمَةِ الجَنْدَلِ وأَكْنافِها : أن لنا الضاحية من الضَّحَلِ والبُورِ والمعامى وأغفال الأرض والحلقة والسلاح ، ولكم الضامنة من النخل ، والمعين من المعمور ، لا تُعدُّ سارِحَتكم ، ولا تُعدُّ فاردتكم ، ولا يُحظَرُ عليكم الثبات ، ولا يؤخذ منكم عُشْرُ البَنات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك الله وميثاقه » .

(١) معجم البلدان ، مادة (دومة الجندل) .

(٢) منال الطالب ص : ٦٤ ، والإصابة ١ / ١٢٥ - ١٢٧ .

المعاني :

والأنداد : جمع نَدٌّ وتَبْدِيدٍ ، وهما مثل الشىء المُضادِّ له فى أمره ، ونادَهُ يُنادُهُ مُنادَةً ونِداداً ، من نَدَّ البعيرُ : إذا نَفَرَ واشتَعَصَى .

والأصنام : جمع صَنَمٍ ، وهو ما كانوا يتخذونه إلهاً من دون الله تعالى ، ممَّا يَصوِّرونه .

وتَحْلُمُها : كناية عن تركها والتبرى منها ، كما يخلع الإنسان قميصه ، كأنه كان قد تَرَدَّى به واشتمل عليه ، فخرج عنه وفارقه .

والضاحية : النَّخْلَةُ الخارجة عن العِبارَةِ ، وهى خلاف الضامنة .

والضَّحَلُ : الماء القليل ، وهو الضَّحْضاح ، ومنه قولهم للصخرة الضخمة التى لا يغمرها الماء لقلته : أَنانُ الضَّحَلِ .

والبُورُ : وهى الأرض الحراب التى لم تزرع .

والمعامى : جمع مَعَمَى ، وهو مَفْعَلٌ من العَمَى . يريد به الأراضى المجهولة التى ليس فيها أثر عِبارَةٍ . كالمجهل والمجاهل .

والأغفال : جمع غُفَلٍ - بالضم - وهى الأراضى التى أُغْفِلَتْ وأُهْمِلَتْ ، فلا أثار بها يدلُّ على عِبارتها ، ومنه الإبلُ الأغفالُ : التى لا سِباتَ عليها .

والحلقة - بسكون اللام - : الدَّرُوعُ .

والسَّلاحُ : اسم عامٌ ، يقع على السِّيفِ والرُّمْحِ والسُّهامِ ، وكلُّ ما يُقاتلُ به .

وإذا كانت الفئة الغالبة من المؤرخين قد رجح - وقطع بعضهم - أن الأکیدر ظل على نصرانيتها ، فإن صيغة الكتاب الذى نحن بصدده تفيد أنه قد اعتنق الإسلام . فضلا عن أن سبب قتله كان ارتداده عن الإسلام .

والكتاب مثل الكتب الأخرى التى كتبها رسول الله ﷺ مع الوفود من حيث المبادئ الملتمزة والألفاظ المأنوسة لدى كل قوم وُجِّهَ الخطاب إليهم .

إن ثمت حقائق ينبغى الالتفات إليها فى مجال استعراض هذه النماذج من كتب رسول الله ﷺ إلى قبائل العرب وما قد صاحبها من شمائل رسول الله ﷺ سلوكا راقيا يليق بأدب الأنبياء ، وفطنة وضاعة تتفق وجلال النبوة ، وبلاغة رفيعة يحيط بها إلمام كامل بلغة جميع القبائل ، الأمر الذى لم يتوفر لعربى غير محمد ، هذا فضلا عن أدب الحوار ، وبشاشة الوجه ، ووضاعة القسيمات ، مع الإكرام والتكريم إلى المدى الذى يجعله ﷺ يبسط ثوبه لكى يجلس عليه ضيفه .

ومن شمائله النبوية فى هذا المقام أنه ﷺ كان يشعر أبناء الملوك من الوافدين عليه بمعاملة خاصة مقصود إليها قصدا ؛ تأليفاً لقلوبهم ، وترطيباً لنفوسهم ، وكسباً لثقتهم حتى لا يظنوا أن الإسلام سلبهم حقا أو أفقدهم مكانة ، مع إشعارهم فى الوقت نفسه بالالتزام بأحكام الإسلام وأدبه ، والتأكيد على أن الناس تحت رايته سواء .

ومحمد ﷺ هو أبلغ البلغاء دون منازع ، ولكن لونا خاصا من بلاغته كان شديد الظهور فى هذه الطائفة من كتبه ، فقد وضع بشكل قاطع امتلاكه لناصرية لغات العرب جميعا ، والكتابة إلى كل قبيلة بلسانها ولهجاتها وألفاظها ومسمياتها ، مما أثار عجب

= والمعِين : الموضع الذى عانَ ماؤه ، أى : جَزَى .

والسَّارِحَةُ : المواشى إذا سَرَحَتْ إلى المرعى وخرجت إليه .

وعَدَلُهَا : صَرَفُهَا عن مَرْعى ثَرِيدِهِ ، يقال : عَدَلُ عن الشئ وإليه : إذا مَالَ عنه وإليه .

والفَارِدَةُ : الشاةُ الْمُتَفَرِّدَةُ الزائدة على الفَرِيضَةِ ، لا تُعَدُّ عليهم وتُحْتَسَبُ فى الزكاة .

والحَطْرُ : المتع . أى : لا تُمْتَعُونَ من الرعى أو من الزراعة حيث شتمت .

والبِئَاتُ : المتاع مما ليس للتجارة .

الصحابة ، حتى إن على بن أبي طالب - وهو أحد قمم البلاغة - حدثه في ذلك قائلا :
يا رسول الله ، نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ونحن أبناء أب واحد .
هذا وإن هذه الكتب على الرغم من كونها تعليمية وتوجيهية إلا أنها تمثل عهدا نافذة
واتفاقيات منفذة ، وتشكل دبلوماسية مبكرة ، مهذبة الصوغ ، رفيعة القيمة ، أرسى
قواعدها في يسر وبهاء أبين الأئناء وسيد الأنبياء .



عهود الرسول ومعهاداته

- الفصل الأول : العهود في القرآن الكريم .
- الفصل الثاني : عهود ما قبل الهجرة .
- الفصل الثالث : عهد المواقعة مع اليهود .
- الفصل الرابع : هدنة الحديبية ومعهاداتها .
- الفصل الخامس : عهود الرسول مع نصارى الشام ونجران .
- الفصل السادس : عهد ثقيف واليمن .



الفصل الأول

■ العهد في القرآن

العهود في القرآن الكريم

حفل القرآن الكريم بكثير من الآيات التي تناولت العهود والوفاء بها ، ذلك أن الوفاء بالعهود من شروط الإيمان ، ومن سمات المؤمنين أن يلتزموا بعهودهم ويدعنوا لشروطها ، والله - سبحانه - يكرم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه بقوله - عز وجل - :

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (١).

وقد شرف الله - سبحانه وتعالى - الذين بايعوا الرسول في الحديبية ، ووعد الصادقين منهم بحسن الجزاء في قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢).

ويعظم الله - سبحانه وتعالى - شأن الموفين بعهدهم ، ويسلكهم في عقد النخبة المتميزة من المتقين الذين جمعتهم الآية الكريمة من قوله - جل وعز - :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي

(١) الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾ .

لقد كرم الله - سبحانه - الموفين بعهدهم في الآية سالفه الذكر ، فجعلهم مع صفوة
المؤمنين بالله وبالملائكة وبكتبته ورسله واليوم الآخر ، ومع المنفقين في وجوه الإنفاق التي
يجبها الله ، وهي الإنفاق على ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل والسائلين
وفي فك الرقاب ، ومع من أقاموا الصلاة فأحسنوا القيام بها ، ومن آتوا الزكاة في
مصارفها الحققة ، ومع الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس .

ويهتم كتاب الله - عز وجل - بالوفاء بالعهد اهتماما شديدا ، وإن التوجيهات
الربانية في شأنه حاسمة قاطعة ملزمة ، لا تختمل أى قدر من التهاون وإن قل ، فيقول
- جل من قائل - : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

إن المتتبع لتسلسل الأحكام في كتاب الله سيقع بصره على الآية السابقة على هذه الآية
في كتاب الله وهي قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي
الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴾ وهي آية التوجيه الإلهي الأسمى لجمهرة المؤمنين ، ثم يتبعها مباشرة
بالأمر بالوفاء بالعهد وعدم نقض الأيمان ، ويقسر القرطبي الوفاء بالعهد في تلك الآية
بأنه لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو موثقة في أمر
موافق للديانة .

ومن العهود ذات القداسة التي احتفل بها الكتاب العزيز أيما احتفال ، تلك التي

(١) البقرة ، الآية : ١٧٧ .

(٢) النحل ، الآية : ٩١ .

قطعها - سبحانه وتعالى - على نفسه بالجنة وجعلها وعد حق عليه - عز وجل - في كتبه المقدسة : التوراة والإنجيل والقرآن لمن ينصرون رسالته ، فيقاتلون في سبيله فيقتلون وَيُقْتَلُونَ وهم الأنصار ، وذلك في قوله - عز وجل - :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١).

لقد نزلت هذه الآية في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة الكبرى التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سنا عقبة بن عمرو ، ذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة ، فقال عبدالله بن رواحة للنبي ﷺ : اشتري لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبي ﷺ : « اشتري لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فإذا فعلنا ذلك ، فما لنا ؟ فقال الرسول ﷺ : « الجنة » . قالوا : ربح البيع ، لا نقييل ولا نستقييل ، فنزلت الآية الكريمة ﴿ إن الله اشترى . . ﴾

يقول الحسن البصرى : والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة .

ويقول الحسن أيضا : مر أعرابى على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال : كلام من هذا ؟ قال النبي : كلام الله ، فقال الأعرابى : بيع - والله - مريح ، لا نقييله ولا نستقييله ، فخرج إلى الغزو واستشهد (٢).

وعهود الله - سبحانه وتعالى - تبلغ في سموها وجوهر الحفاظ عليها ما يجعل المرء المؤمن يزداد إيمانا ، وما يجعل المرء المشرك يعيد النظر في سوء عقيدته ،

(١) التوبة ، الآية : ١١١ .

(٢) القرطبى تفسير الآية السابقة .

ويقترب من الإيمان بالله رويدا رويدا ، إن عهود الله لا تُنقض حتى مع المشركين .

يتجلى سمو العهد الإلهي في قوله - عز وجل - :

﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

لقد نزل الأمر الإلهي بالأحج بعد ذلك العام (التاسع للهجرة وفيه حج أبو بكر ، وقيل : العاشر ، وفيه كانت حجة الوداع) مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن المفسرين من ذهب إلى أن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة ، ومنهم من قال : إنه يوم النحر استئناسا بقول الرسول يوم النحر في الحجة التي حج فيها : « أى يوم هذا ؟ فقالوا : يوم النحر ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر » وقد استثنى الحكم الإلهي المشركين الذين تربطهم بالمسلمين معاهدة وثبتوا عليها ووفوا بها ولم ينقضوها ، استثناهم من منعهم من الحج إلى نهاية مدة معاهدتهم . وهنا تحضرنا الآية الجليلة في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ التوبة : ١١١ .

هكذا يكون مبدأ عقد المعاهدات مشروعا في الإسلام ، باعتبار كونه نوعا من التنسيق لعلاقات المسلمين بغير المسلمين من كتابيين ومشركين .

سمات المعاهدات في الإسلام كما طبقها النبي

المعاهدات والعهود تعقد في الإسلام تحت شروط معينة ، منها : تنفيذ ما اتفق عليه

(١) التوبة ، الآيات : ٣ ، ٤ .

فيها بين الطرفين ما دامت متمشية مع كتاب الله وسنة رسوله ، وذلك تقيدا بقول رسول الله ﷺ : « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل »^(١) وكل ما يتنافى مع هذا الحديث الشريف فإنه يكون باطلا ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله أحق ، وشرط الله أوثق » متفق عليه واللفظ للبخارى .

يقول الدكتور محمد الصادق عفيفي : لقد أخذ بهذا التوجيه النبوي الكريم فقهاء القانون الدولي في العصر الحديث ، فوضعوا نصوصا ثابتة تكون بمثابة القوانين العامة لجميع الدول ، تحتكم إليها إذا حزبها الأمر ، ومن ثم إذا أبرمت إحدى الدول اتفاقية أو معاهدة وخالفت فيها نصا من نصوص القاعدة التشريعية العامة يكون الحكم بطلان الاتفاقية أو المعاهدة .

ثمت شروط أخرى كثيرة لصحة المعاهدات وكمال فعاليتها ، مثل الرضا المتبادل بين طرفي العهد ، وتبعاً لذلك لا ينعقد عقد بالإكراه ، ومثل وضوح الحقوق والواجبات لكل طرف من أطراف العقد حتى لا تؤول المواد عند التطبيق تأويلا يبعث على الخلاف^(٢) .

وتحتل حصانة المبعوثين مكانة جوهرية في الإسلام ، فلا يجوز مساءلتهم أو العدوان عليهم وإن تجاوزوا الحدود التي يجب مراعاتها ، ومثال ذلك ما ارتكبه رسولا مسيلمة الكذاب من حماقة في حضرة رسول الله ﷺ واكتفى بقوله الشريف : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما »^(٣) .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد ضرب هذا المثل الرفيع في تعامله مع حاملي رسالة مسيلمة الكذاب ، فإنه ﷺ قد ضرب مثلاً من نوع آخر في الدقة والأمانة في تنفيذ العهود ، فإنه ﷺ لم يكذب ينتهي من توقيع وثيقة الهدنة مع سهيل بن عمرو ممثل مشركي

(١) السيوطي : الجامع الصغير ٢ / ٧٧ .

(٢) الإسلام والعلاقات الدولية ص : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

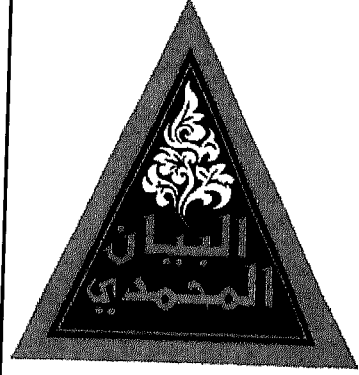
(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٦٠١ .

قريش في الحديدية حتى فوجيء بأبي جندل بن سهيل بن عمرو - وكان قد أنعم الله عليه بالإسلام - وقد انفلت وهو يرسف في الحديد زاحفاً إلى حيث رسول الله ، فلما رأى سهيل ولده أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد ، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت . فجعل سهيل يجذب أبا جندل من تلابيبه ويجرّه ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأجرُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » (١).

ولقد صبر أبو جندل ونزلت الآية الكريمة تكرمه هو ومن معه من المسلمين الصابرين والصابرات في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْلَا كِرَاهَةُ أَنْ تَهْلِكُوا أَنْسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتُ لَرَتَعَلَمُوهُنَّ أَنْ تَطَّوهُنَّ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢).

(١) المصدر السابق ٢ / ٣١٨ .

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الفتح . والمعنى هو : لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهرانى الكفار بمكة جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ، لما كف أيديكم عنهم - أى : عن الكفار - وكان بمكة من ضعفاء المؤمنين تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتان منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة .



الفصل الثاني

عهد ما قبل الهجرة

عهد ما قبل الهجرة

إن عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة ثلاثة ، أولها كان لثميم الدارى ، والثانى والثالث كانا عند العقبة الأولى والعقبة الثانية .

عهد الدارين :

وفد الداريون وعلى رأسهم تميم الدارى على رسول الله مرتين : مرة قبل الهجرة ، ومرة بعد الهجرة ، ومن الجدير بالذكر أن تميم الدارى وقومه من لخم ، وليسوا أقرباء لبنى عبد الدار بن قصى .

فى المرة الأولى سألوا رسول الله ﷺ أرضا ، فدعا بقطعة من آدم وكتب ما نسخته : (١)
« بسم الله الرحمن الرحيم - هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للدارين إذا أعطاه الله الأرض ، وهب لهم بيت عيون ، وحبرون ، والمرطوم ، وبيت إبراهيم ومن فيهم إلى الأبد .

شهد عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة وكتب .
فلما هاجر ﷺ إلى المدينة قدموا عليه وسألوه أن يجدد لهم الكتاب ، فكتب ما نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا كتاب من محمد رسول الله لثميم بن أوس الدارى ، إن له قرية حبرون ، وبيت عيون ، قريتها كلها وسهلها وجبلها ، وماءهما وحرثها ، وأنباطها وبقرها ،

(١) الوثائق السياسية ١٢٩ - ١٣١ .

ولعقبه من بعده ، لا يحاقه فيها أحد ، ولا يلجها عليهم أحد بظلم ، فمن ظلم وأخذ منهم شيئا فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وقرية حبرون : هى مدينة الخليل الحالية ، وقد أسلم تميم سنة ٩ هـ وقيل : سنة ٧ هـ وأقام بالمدينة زمنا ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل ذى النورين عثمان ، فسكن بيت المقدس وهو أول من أسرج السراج بالمسجد .

بيعة العقبة الأولى :

من أخبار السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على قبائل العرب فى الموسم ، وفى الموسم الذى أراد الله فيه إظهار دينه وإعزاز نبيه وبينما كان الرسول عند العقبة لقى رهطا من الخزرج وهم قبيلة من سكان يثرب فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

كان الخزرج بحكم جوارهم اليهود قد سمعوا بمبعث نبي هذا زمانه ، فقال بعضهم لبعض : والله إنه للنبي الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فصدقوا الرسول ﷺ وقبلوا ما عرضه عليهم من الإسلام ، ثم قالوا لرسول الله : إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة شرّ مستطير فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله فلا رجل أعزّ منك (١) .

وكان عدد هذا الرهط من الخزرج ستة ، هم : أسعد بن زرارة المكنى بأبى أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعه ، وكلاهما من بنى النجار ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبدالله ، وقد ورد أنه أول من أسلم من الأنصار قبل العقبة الأولى بعام ، وهو غير جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى الصحابى ابن الصحابى .

(١) السيرة لابن هشام / ١ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

فلما كان العام التالي حضر الموسم اثنا عشر رجلا من الأنصار بعضهم ممن أسلموا في الموسم المنصرم ، وقد لقوا رسول الله بالعقبة - وهي العقبة الأولى - فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وبيعة النساء قد ورد ذكرها في قوله تعالى : ﴿ يَبَايِعُكَ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، وَمَنْ ثُمَّ فَإِنْ مَصْطَلِحَ بَيْعَةَ النِّسَاءِ لَوْفَدَ الْأَنْصَارِ تَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَبَايِعُوهُ عَلَى الْقِتَالِ .

وأما هؤلاء النجوم الاثنا عشر أنصاريًا فهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث بن سواد بن مالك ، وثلاثتهم من بني النجار . ورافع بن مالك بن العجلان ، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة من بني رزيق بن عامر . وعبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن بن يزيد بن ثعلبة من بني عوف بن الخزرج . والعباس بن عبادة بن نضلة من بني سالم ، وعقبة بن عامر من بني سلمة - بكسر اللام - وقطبة بن عامر بن حديدة من بني سواد . وأبو الهيثم بن التيهان واسمه مالك ، من الأوس وعويم بن ساعدة بن عائش بن قيس من بني عمرو بن عوف .

إن الصحابي الجليل الفارس الفاتح عبادة بن الصامت يروي خبر هذه البيعة فيقول : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله - عز وجل - إن شاء عذب ، وإن شاء غفر »

وفي رواية موفق الدين بن قدامة : (٢)

(١) الآية كاملة هي قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ المتحنة ، الآية : ١٢ .
(٢) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

« تبايعونى على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » .

وعند موفق الدين أيضاً فى ترجمة أبى أمامة أسعد بن زرارة نقيب النقباء :

قال الشعبى : قال النبى ﷺ ليلة العقبة : « يا معشر الأنصار : تكلّموا وأجزوا، فإن علينا عيوننا » . قال الشعبى : فخطب أبو أمامة أسعد بن زرارة خطبة ما خطب المرء ولا الشيب مثلها قط . فقال : يا رسول الله ، اشتريت لربك ، واشترت لنفسك ، واشترت لأصحابك . قال ﷺ : « اشتريت لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترت لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ؛ واشترت لأصحابى المواساة من ذات أيديكم » قالوا : هذا لك ؛ فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك .

ولم يكن هناك وثيقة مكتوبة .

فلما انصرف النقباء الاثنا عشر قافلين إلى يثرب بعد ذلك ، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى وأمره أن يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين ، وكان منزله عند أبى أمامة أسعد بن زرارة .

بيعة العقبة الثانية :

فلما كان الموسم التالى رجع مصعب بن عمير إلى مكة . وخرج الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ « العقبة » فى أواسط أيام التشريق .

يقول كعب بن مالك : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها نمنا تلك الليلة مع قومنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نساتنا هما أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم

منيع أسماء بنت عمرو بن عدى ، وانتظرنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا
ومعه عمه العباس بن عبد المطلب (١).

لقد حضر العباس - وكان قريباً إلى قلب رسول الله - لكي يطمئن على ما أقدم عليه
ابن أخيه رسول الله من ربط أسبابه بأسباب الخزرج من أهل يثرب . وقد وجه كلاماً إلى
القوم مقتضاه إما أن يتحملوا التبعة كاملة في الوفاء والمنعة وإلا فليعفوا أنفسهم مما هم
قادمون عليه .

قال الخزرج : قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما
أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام . ثم قال :
« أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال :

« نعم ، والذي بعثك بالحق ! لنمنعك مما نمنع منه أئمتنا . . فبايعنا يا رسول الله ،
فنحن - والله - أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً » .

وقال أبو الهيثم بن التيهان : « يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرجال حباً ، وإننا
قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيب إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع
إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال :

« بل الدّم ، الدم ؛ والهدم ، الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتكم
وأسلم من سلمتكم » .

. . قال رسول الله ﷺ : « أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما
فيهم » فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . .
وتخير كل من الخزرج والأوس نقيباً هم على النحو التالي : أبو أمامة أسعد بن زرارة ،

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١ .

سعد بن الربيع ، عبدالله بن رواحة . رافع بن مالك بن العجلان ، البراء بن معرور ، عبدالله بن عمرو بن حرام ، عبادة بن الصامت ، سعد بن عبادة ، المنذر بن عمرو بن خنيس ، أسيد بن حضير بن سماك ، سعد بن خيثمة ، رفاعة بن عبد المنذر . والجدير بالذكر أن كلا من أسيد ، وسعد ، ورفاعة من الأوس .

فلما اجتمع القوم لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بنى سالم ابن عوف مبلغا القوم بخطورة ما هم مقدمون عليه من عهد ، وثقل التبعة التي ألقوها على كواهلهم :

« يا معشر الخزرج ! هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ » قالوا : « نعم » . قال : « إنكم تباعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ! فإن كنتم ترون أنكم إذا هلكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً ، أسلمتموه ، فمن الآن . فهو - والله - إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وأفون له بما دعوتموه إليه عن نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه . فهو - والله - خير الدنيا والآخرة » . قالوا : « فإننا نأخذة على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله ! إن نحن وفينا ؟ » قال : « الجنة » (١).

قالوا : ابسط يدك يا رسول الله . فبسط يده ، فبايعوه على الشروط التي شرحها العباس بن عبادة بن نضلة .

يقول كعب بن مالك : كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ، ثم بايع بعده القوم

ويؤكد عبادة بن الصامت بيعته قائلا : بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب .

لقد كان الأنصار بعد بيعتهم يتشوقون إلى الحرب في سبيل الله ويستعجلونها ، حتى إن رسول الله ﷺ لما طلب إليهم التفرق إلى رحالهم . قال له العباس بن عبادة بن نضلة - وهو الذي بصر قومه بخطورة تبعات البيعة - : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيفنا ، فقال له رسول الله ﷺ :

(١) المصدر السابق ٤٤٧ .

« لم نؤمر بعد ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

وبيعة العقبة الثانية تكون قد انتهت مرحلة قاسية من مراحل الدعوة ، وبدأت مرحلة جديدة تفتياً المسلمون تحت ظلالها مشاعر العزة ، ومكابدة الحرب ، وثمرات النصر ، وولادة أول حكومة إسلامية في المدينة المنورة تحت قيادة سيد الخلق وخاتم المرسلين .

ولذلك لم يبخل الرسول ﷺ على الأنصار بجميل الثناء وعظيم التكريم حين قال : « الأنصار كرشى وعميتى » ، وحين قال : « لو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار » .



الفصل الثالث

عهد المودعة بين المسلمين واليهود

الموادعة بين المسلمين واليهود

في المدينة

وصل رسول الله ﷺ إلى قباء - وهى الضاحية الجنوبية للمدينة - وأقام بها أياما ، وبنى فيها مسجد قباء الذى يصلى فيه منذ بناء رسول الله كل من يزور المدينة المنورة بعد الصلاة فى مسجد رسول الله ، فقد ورد أن الصلاة فى مسجد قباء تعادل عُمْرَةً ، وهو المسجد الذى شرفه المولى - عز وجل - فوصفه فى كتابه العزيز بأنه « أسس على التقوى » وذلك فى قوله - تعالى - : بعد أن أمر رسوله ألا يصلى فى المسجد الذى أنشئ ضرازا :

﴿ لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأْتَاهُ بِيَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

انصرف الرسول ﷺ من قباء مواصلا سيره إلى المدينة وقد التف حوله الأنصار ، وفى مقدمتهم بنو النجار أحوال جده عبد المطلب الذين كانوا قد سارعوا إلى التشرف بالترحيب به والسلام عليه فى قباء ، وكان كل أنصارى يمسك بزمام « القصواء » ناقة رسول الله ، متوسلا إلى الرسول أن ينزل عنده ، مرغبا إياه فى ذلك بعبارات تفيض حبا وإجلالا ، ولكنه ﷺ كان يقول لهم : « دعوها فإنها مأمورة » وظلت الناقة تسير وقد أرختى عنانها ، ورسول الله على ظهرها ، إلى أن وقفت أمام دار أبى أيوب الأنصار ، فقال الرسول ﷺ : « ها هنا المنزل إن شاء الله » .

(١) التوبة ، الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ .

الرسول يغير اسم يثرب ويسمئها المدينة وطيبة :

كان الاسم الذى يطلق على المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها هو « يثرب » فما أن حل بها الرسول البشير حتى غير اسمها إلى « المدينة » وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ :
« للمدينة عشرة أسماء هى : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، ومسكينة ، وجابرة ، ومجبورة ، ويندد - كجعفر - ويثرب ، والدار » .

وفى صفة دار الهجرة يقول رسول الله ﷺ : « أمرت بقرية تأكل القُرى ، يقولون يثرب ، وهى المدينة ، تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » (١) .

ولقد نهى رسول الله ﷺ عن تسميتها بيثرب فى قوله ﷺ : « من سمى المدينة بيثرب فليستغفر الله ، هى طابة ، هى طابة ، هى طابة » . وهى رواية الإمام أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند جيد عن البراء بن عازب رضى الله عنهما (٢) .

وفى رواية عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « لا تدعوها يثرب فإنها طيبة ، ومن قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات ، هى طيبة ، هى طيبة ، هى طيبة » .

يقول الإمام الصالحى صاحب « سبل الهدى والرشاد » : إن سبب الكراهة فى تسميتها بيثرب إما لكون ذلك مأخوذاً من الثَّرب وهو الفساد ، أو من الثَّريب وهو المؤاخذة بالذنب . وكان ﷺ يجب الاسم الحسن ، ولهذا أسماها طيبة وطابة ، وأما تسميتها فى القرآن يثرب فذلك حكاية عن قول المنافقين (٣) .

هذا وقد أحصى بعض كتَّاب السيرة خمسة وتسعين اسماً للمدينة مثل الزركشى فى : « إعلام الساجد بأحكام المساجد » ، ومجد الدين الفيروزابادى فى « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف » ، والسيد نور الدين السمهودى فى « وفاء الوفا بأخبار دار

(١) صحيح البخارى كتاب (الحج) ٣ / ٥٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ٣ / ٤٢٧ .

(٣) المصدر السابق الصفحة نفسها .

المصطفى « ومحمد يوسف الصالحى الشامى فى « سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد » .

واحتفالاً منا بمدينة رسول الله ﷺ وتعميماً للفائدة فإننا نعرض هنا من هذه الأسماء الخمسة والتسعين .

● **أَثْرِب** . وهى لغة فى يثرب ، وقيل : إن ذلك هو اسم من سكنها أولاً .

● **أَرْضِ اللَّهِ** . لقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا** ﴾ (١) .

● **أَكَاةُ الْقَرْي** . لقول رسول الله ﷺ : « **أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ** » (٢) وقيل : فى معنى « تأكل القرى » ثلاثة أقوال ، هى : أنها مركز الجيوش الإسلامية . أن أكلها وميرتها من القرى المفتوحة . أنها تفرغ القرى بوجوب الهجرة إليها .

● **البَابَة ، والبَابَة** .

لكثرة برها بأهلها خصوصاً ، ولجميع العالم عموماً ؛ لأنها منبع الأسرار وإشراق الأنوار ، وبها العيشة الهنية والبركات النبوية .

● **البَحْرَة ، والبَحِيرَة ، والبَحِيرَة** .

يقولون : هذه بحرتنا ، أى : أرضنا وبلدنا ، والبحيرة مدينة الرسول ﷺ وهو تصغير البحرة ، والعرب تسمى المدن والقرى البحار (٣) .

● **بلد رسول الله** . وذلك لقول رسول الله ﷺ : « **إن الشياطين قد يئس أن تعيد فى بلدى** » (٤) .

● **جَبَار ، الجَابِرَة ، الجَابِرَة ، الجَابِرَة** .

سميت بهذه الأسماء الأربعة لأنها تجبر الكسير ، وتغنى الفقير ، وتجبر على

(١) النساء : من الآية : ٩٧ .

(٢) صحيح مسلم فى باب : المدينة تنفى شرارها .

(٣) إعلام الساجد ص ٢٣٥ ، والنهية لابن الأثير ١ / ٦٢ .

(٤) النهاية ١ / ٢١٧ ونص الحديث هو « **إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم** » .

الإذعان؛ لأنها جبرت البلاد على الإسلام (١).

● الخيرة، الخيرة .

بالتشديد في الأولى والتخفيف في الثانية - بمعنى كثيرة الخير . وفي الحديث :
« والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

● الدار ، دار المختار ، دار الإيمان ، دار الأبرار .

وذلك لقوله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ (٢).

ولأنها دار المصطفى المختار والمهاجرين والأنصار ، ولقوله ﷺ : « المدينة قبة الإسلام ، ودار الإيمان ، وأرض الهجرة ، ومبوء الحلال والحرام » .

● دار السنة ، دار الفتح .

لأن منها انتشرت السنة في الأقطار ، ومنها فتحت مكة وسائر الأمصار .

● ذات الحِزَار .

بكسر الحاء : جمع حرة - بفتح الحاء - وهي الحجارة السود ؛ لكثرتها بها .

● ذات النخل :

ففي الحديث الشريف : « أريت دار هجرتي ذات نخل وحره » .

● الشافية .

للحديث الشريف « تراها شفاء من كل داء » .

● طابة ، طيبة ، طيبة ، طائب .

روى مسلم عن جابر - رضی الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله

تعالى سمي المدينة طابة » وفي رواية : « إن الله أمرني أن أسمى المدينة طابة »

(١) هذا قول السهمودي في وفاء الرفا بأخبار دار المصطفى ١ / ١٠ .

(٢) الحشر ، من الآية : ٩ .

وعن وهب بن منبه : « إن اسمها في كتاب الله - هنا يعني التوراة - طَيِّبَةٌ وطابة » .

● العاصمة .

وذلك لعصمتها المهاجرين من المشركين ؛ ولأنها الدرع الحصينة .

● العذراء .

وذلك لصعوبتها وامتناعها على الأعداء حتى تسلمها مالكتها الحقيقي سيد الأنام ﷺ .

● الغراء .

تأنيث الأغرّ : ذى الغرة والبياض فى مقدم الوجه ، والغرة أيضا : خيار كل شىء ، وغرة الإنسان : وجهه ، والرجل الأغرّ : يعنى الكريم ، واليوم الأغرّ : الشديد الحر ، والغراء : نبت طيب الرائحة ، والغراء : السيدة الكبيرة ؛ فسميت المدينة بذلك لأنها سادت القرى .

● قبة الإسلام .

وذلك لحديث رسول الله ﷺ : « المدينة قبة الإسلام » .

● المؤمنة ، المباركة .

لاتصاف أهلها بالإيمان ، ولقول الرسول ﷺ : « والذى نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة » .

وهى مباركة ؛ لأن الله - تعالى - بارك فيها بدعائه ﷺ وحلوله بها ، ولقوله ﷺ : « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة » (١) .

● المحبّة ، المحبّبة ، المحبوبة .

والأسماء الثلاثة مشتقة من لفظ (الحب) فهى محبة لساكنها العظيم ولسكانها المباركين وهى محبوبة منهم ومحبة إليهم .

(١) صحيح البخارى (كتاب الحج) والحديث رواه أنس .

● المحبورة .

من الخبر - بفتح ثم سكون - وهو السرور .

● المحروسة .

للحديث : « المدينة مشتبكة بالملائكة ، على كل نقب منها ملك يحرسها » .

● المختارة .

لأن الله - تعالى - اختارها للمختار من خلقه في حياته ومماته .

● المرحومة .

لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين ، وبها تنزل الرحمات .

● المقر .

من القرار . وفي دعائه ﷺ لها قوله : « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا » .

● المدينة .

وهي تسمية الرسول ﷺ لها استجابة للتوجيه القرآني الكريم ، ولتكراره في القرآن . والمدينة من : مَدَنَ بالمكان ، أى : أقام به ، أو من : دان إذا أطاع . إذ يطاع السلطان بالمدينة لسكانها ، وهي بيوت كثيرة تجاوز حد القرى ولم تبلغ حد الأمصار ، وقيل : يقال لكل مصر ، وتطلق على أماكن كثيرة ، ومع ذلك فهو عَلِمَ على المدينة النبوية ؛ بحيث إذا أُطلق لا يتبادر الفهم إلى غيرها ، ولا يستعمل فيها إلا المعرفة ، أما النكرة فاسم لكل مدينة ، ونسبوا لكل : (مديني) وللمدينة النبوية (مدني) للفرق .

● مدينة رسول الله :

وذلك لقوله ﷺ في حديث الطبراني : « من أحدث في مدينتي هذه حدثا ، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » (١) فأضافها إليه لسكانها .

(١) أخرجه البخارى في الصحيح ٣ / ٥ .

وجماع القول هو تغيير اسم مهاجر رسول الله ﷺ من « يثرب » إلى « المدينة » التي زيد إليها صفة « المنورة » تكريماً لها لحلول رسول الله ﷺ بها مقبياً في حياته ، واحتوائها لرفاته الطاهر بعد وفاته ، ثم تعددت أسمائها وصفاتها في الأزمنة التالية ، وكل هذه الأسماء تدل على شرف المسمى ، وسمو قدره ، وجلال مكانته .

الرسول يبنى مسجده :

سلف القول أن الأنصار كانوا يمسون زمام ناقة رسول الله ﷺ ويتوسل الواحد منهم إلى الرسول أن ينزل عنده حوزاً للشرف وطلباً للبركة ، ولكنه ﷺ كان يقول لهم : «دعوها - أى : الناقة - فإنها مأمورة » وظل الأمر هكذا إلى أن وقفت أمام دار أبى أيوب الأنصارى ، فقال الرسول : « ها هنا المنزل إن شاء الله » .

كان مبرك الناقة عند المكان الذى صار باباً لمسجده ﷺ فقال وهو آخذ في النزول : ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (١) . وكان المكان مربداً (٢) ليتيمين ، هما : سهل وسهيل ابنا رافع بن أبى عمرو بن عائذ من مالك بن النجار ، وكانا فى حجر أسعد بن زرارة ، فأرسل الرسول إلى بنى النجار بسبب موضع المسجد فقال : « يا بنى النجار : ثامنونى بحائطكم هذا » فقالوا : والله لا نطلب ثمنه إلا من الله . . . وفى رواية أن الرسول ﷺ دعا بالغلامين وساومهما بالمربد الذى يملكانه ليتخذاه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله هبة وابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

وهناك رواية عن النوار بنت مالك - أم زيد بن ثابت كاتب الوحي - أنها رأت أسعد ابن زرارة قبل أن يقدم النبى ﷺ يصلى بالناس الصلوات الخمس ويجمع بهم فى مسجد بناه فى مربد سهل وسهيل ابني رافع بن أبى عمرو بن عائذ ، وفى رواية عن أنس - رضى الله عنه - أن المسجد كان جداراً ليس له سقف وقبلته إلى القدس ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل بالغرقد أن يقطع ، وأمر بتسوية الأرض ، وعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة فى

(١) سورة « المؤمنون » الآية : ٢٩ .

(٢) المربد : هو الموضع الذى يجعل فيه التمر .

بناء المسجد بنفسه ، وطفق ينقل معهم اللبَنَ ترغيباً لهم في العمل ويقول مردداً بيت
عبدالله بن رواحة :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

ويقول الزهري : إن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم
المهاجرين والأنصار ، فقد كان لا يقيم الشعر .

وعن أم سلمة رضی الله عنها أنها قالت : « بنى رسول الله ﷺ مسجده فقرب اللبن
وما يحتاجون إليه ، فقام رسول الله ﷺ فوضع رداءه ، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون
والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

لعن قعدنا والنبيُّ يعملُ ذاك إذنٌ للعمَلِ المضلِّ

وكان الرسول يصرّ على حمل اللبن ولا يرضى أن يتحمل عنه الصحابة بعض المشقة ،
فقد روى أسامة بن زيد عن أبيه - رضی الله عنهما - قال : خرج رسول الله ﷺ ومعه
حجر ، فلقبه أسيد بن حُضَيْر ، فقال : يا رسول الله أعطني ، فقال : « اذهب
فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله مني » .

وفي صفة المسجد يقول خارجة بن زيد بن ثابت : « بنى رسول الله ﷺ مسجده
سبعين في ستين ذراعاً أو يزيد ، لبنةً لبنةً من بقيق الخبْخَبَةِ ، وقيل : الخبْخَبَةُ - موضع
بالمدينة - وجعله جداراً ، وجعل سواريه خشباً شُقَّةً شُقَّةً ، وجعل وسطه رحبة ، وبنى
بيتين لزوجتيه » .

وعن الإمام جعفر الصادق أن النبي ﷺ بنى مسجده مرتين : بناء حين قدِمَ أَقْلٌ من
مائة في مائة ، فلما فتح الله عليه خيبر بناه وزاد عليه مثله في الدور (١) .

إن بناء الرسول ﷺ بهذه السرعة دلالة على أن الرسول قد شرع في بناء المجتمع المسلم
الذي يشكل المسجد ركيزته الأولى ؛ ففيه تلتقى جموع المسلمين للصلاة والعبادة ودراسة
شئونهم والتشاور في حل مشكلاتهم .

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٨٥ وما بعدها ، فصل « في بناء مسجده الأعظم »

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

المؤمنون جميعا إخوة تطبيقا لقول الله - عز وجل - في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

لهذا شرع رسول الله ﷺ أول وصوله إلى المدينة في مؤاخاة المهاجرين والأنصار أخوة صادقة إلى درجة أن يتوارثوا بعد الممات ، وظلت هذه الموارثة قائمة ومقدمة على حقوق القرابة حتى غزوة بدر ونزول آية المواريث .

قال ﷺ : « تأخوا في الله أخوين أخوين » ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : « هذا أخي » .

وكان حمزة بن عبد المطلب - عم رسول الله - وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم « أحد » إن حدث به حادث الموت ، جعفر أبي طالب (الطيار) ومعاذ بن جبل (وكان جعفر غائبا بأرض الحبشة) . أبو بكر وخارجة بن زهير . وعمر ابن الخطاب وَعِثْبَانُ بن مالك . أبو عبيدة بن عبد الله الجراح (واسمه عامر) وسعد بن معاذ . عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع . الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش . عثمان بن عفان وأوس بن ثابت (من بني النجار) . طلحة بن عبيد الله وكعب ابن مالك . سعد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ وَأُبَيِّ بن كعب (من بني النجار) مصعب ابن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد (من بني النجار ، وهو أبو أيوب الأنصاري) . أبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر بن وقش . عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان . وفي رواية : عمار بن ياسر وثابت بن قيس بن الشماس الخزرجي (خطيب رسول الله) . أبو ذر الغفاري (جندب بن جنادة وقيل برير بن جنادة) والمنذر بن عمرو . حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة (من بني عمرو بن عوف) . سلمان الفارسي وأبو الدرداء (عويمر بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج) . بلال مؤذن الرسول وأبو رويحة عبد الله ابن عبد الرحمن الخثعمي . (يروى أن رسول الله ﷺ عقد لأبي رويحة لواء عام الفتح وأمر أن ينادى : من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن) .

(١) الحجرات ، الآية : ١٠ .

بهذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار انتظم سلك الجماعة الإسلامية وتوحدت صفوفهم وانصهرت أرواحهم بعضها في بعض وصاروا يشكلون جدارا صلبا وحصنا حصينا تجاه شركائهم في سكنى المدينة وهم اليهود يقبائلهم الثلاث - بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير - وبقية من لم يسلموا بعد من الأوس والخزرج ، وصارت الجماعة مؤهلة لأن تخوض الغمار وتستأثر بالنصر وتحوز الفخار .

وثيقة المهادنة والموادعة :

سلف القول بأن مجتمع المدينة كان يتكون من المهاجرين والأنصار - وهم الأوس والخزرج - واليهود وبقية من لم يسلموا بعد من الأوس والخزرج ، ولقد ذوب الإسلام ما بين الأوس والخزرج من حقد ، وأزال ما بينهما من ضغائن ، ثم آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار على النحو الموضح في الفقرة السابقة ، ولكى تستقر الأحوال في المدينة كان لا بدّ من خلق جو من الأمن بين جميع سكانها يسطر في وثيقة مكتوبة تلزم جميع الأطراف بنود محددة يستشعرون من خلالها الأمان على أنفسهم ، والحفاظ على عقائدهم وأموالهم ، وأن تحترم بنود هذه الوثيقة دون نقض أو إخلال ، وقد أملى النبي ﷺ بنود الوثيقة وارتضتها الأطراف جميعا . وهذا هو نصها (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، وإنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (أى : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم ، وهم يفقدون عانيهم (العانى : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين

(١) السيرة لابن هشام ١/٥٠١ وعبون الأثر ١/١٩٧ والبداية والنهاية ٣/٢٢٤ والأموال ٢٠٢ وسبل الهدى والرشاد ٣/٥٥٦ ومجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي ، ص : ٤٧ .

المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى . وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا (المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدانهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بيا نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالأً لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن غير بيعة (أى : قتله بلا جناية منه توجب قتله) فإنه قودٌ به إلا أن يرضى ولى المقتول . وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن آمن بها في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدّثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، لا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى

عوف ، وأن ليهود بنى جُشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبني الشَّطِيبَةِ مثل ما ليهود بنى عوف . وأن البر دون الإثم ، وأن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود « يعنى خاصتهم وأهلهم » كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فَنَك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبرّ هذا ، (يعنى على الرضا به) وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادَه فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، (يعنى أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به) ، وأنه لا تُجَار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على دَهِم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأثمهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصنتهم من جانبهم الذى قبَلَهُم ، وأن يهود الأوس ، موالِيهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

يقول الأستاذ الدكتور طه بدوى : إنه بعد بيعة العقبة الثانية وهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة وامتزاجهم بالأنصار وتوحدتهم معهم داخل نطاق إقليم مشترك ، كل ذلك جعل للمسلمين أرضاً يأمنون فيها ، ويسيطرون على بعض مواردها الاقتصادية سيطرة تجعل لدى الأفراد نوعاً من الشعور بالتضامن فى تحقيق الخير المشترك الذى يهيم به سرحلة التأسيس لمجتمع متميز ، ثم يبقى بعد ذلك العنصر الذى يفضى إلى تحويل هذا التجمع من مجرد مجتمع إنسانى إلى مجتمع سياسى تتوفر له السلطة السياسية ، وقد تحقق ذلك بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، وتولى السلطة فيها بعد أن وطد أركان

قطاعات المجتمع المختلفة بالوثيقة التي اصطلح كثير من الباحثين بتسميتها : « دستور المدينة » (١).

وهكذا نشأت دولة المدينة التي قامت على أساس المواطنة الإسلامية ، وهو أساس جديد لم يكن معروفا قبل ذلك ، ووصفت الوثيقة مجتمع المدينة بأنه أمة من دون الناس ، وحلت الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية ، ذلك أن العرب لم يكونوا يجتمعون قبل الإسلام إلا على صلات من القرابة والنسب .

لقد ضمت الوثيقة سبعا وأربعين مادة طبقا لتقسيم الدكتور محمد حميد الدين لها ، وقد رأينا أن نعيد عرض الوثيقة طبقا للتقسيم الذي قدمها الدكتور حميد الدين من خلاله (٢).

بسم الرحمن الرحيم

١ - هذا كتاب من محمد النبي ، رسول الله ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ، وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم .

٢ - أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣ - المهاجرون من قريش على رَبْعَتِهِمْ ، يتعاقلون بينهم ، وهم يفتدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ - وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفتدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ - وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفتدي عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين .

(١) أصول علم السياسة : ٣٧-٤٢ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص : ٥٩ وما بعدها .

معاني المفردات :

- على ربعتهم : أى أمرهم وشأنهم الذى كانوا عليه . وقال السهيل فى شرح السيرة : الحال التى جاء الإسلام وهم عليها .

- التعاقل : إعطاء المعاقل ، وهى الديات . أى : يكونون على ما كانوا عليه من إعطاء الديات وأخذها فى الجاهلية .

- العانى : الأسير .

- ٦- وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٧- وبنو جشم على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٨- وبنو النجار على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٩- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١٠- وبنو النبيت على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١١- وبنو الأوس على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١٢- وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء ، أو عَقْلٍ (*).
- ١٣- وأن لا يُجَالِفَ مؤمنٌ مؤمناً مؤمنٌ دونه .
- ١٤- وأن المؤمنين المتقين ، أيديهم على كل من بغى منهم ، أو ابتغى دَسِيعَةً (*) ظلم ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

(*) المفرح : المتقل بالدين ولا يجد قضاءه ، وقيل : هو الذى لا مال له ، وقيل : هو الذى لا عشيرة له .
العقل : الدية .

(*) الدسع : الدفع والعطية . وفى اللسان : أى طلب دفعا على سبيل الظلم .
الغازية : الجماعة تخرج للغزو .

يعقب بعضهم بعضاً : أى يتناوبون . فإذا خرجت طائفة غازية ثم عادت تكلف أن تعود ثانية حتى تعقبها أخرى غيرها ، يعنى أن يكون الغزو بينهم بالتناوب .
يبىء بعضهم عن بعض : أى يتعادلون ويتكافأون ويتساوون .

- ١٥ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافرأ على مؤمن .
- ١٦ - وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أذانهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض ، دون الناس .
- ١٧ - وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصرة والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .
- ١٨ - وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .
- ١٩ - وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .
- ٢٠ - وأن المؤمنين يُبىء بعضهم عن بعض ، بما نال دماءهم في سبيل الله .
- ٢١ - وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .
- ٢٢ - وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .
- ٢٣ - وأنه من اعتبط (*) مؤمناً قتلاً عن غير بينة ، فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .
- ٢٤ - وأنه لا يحل لمؤمن أقر بها في الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ، أو يؤويه ، وأن من نصره ، أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .
- ٢٥ - وأنكم مها اختلقتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله وإلى محمد .
- ٢٦ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ، ماداموا محاربين .
- ٢٧ - وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

(*) اعتبطه : أى قتله بلا جنابة منه توجب قتله .

القود : القصاص في القتل ، بمعنى أن القاتل يقاد به فيقتل . المحدث : الجانى .
العدل : الفداء . والصرف : التوبة . وقيل : الصرف القيمة ، والعدل : المثل (بكسر ثم سكن)
يوتغ : يهلك .

- ٢٨- وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٢٩- وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٠- وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣١- وأن ليهود بنى جُشَم مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٢- وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٣- وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه ، وأهل بيته .
- ٣٤- وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .
- ٣٥- وأن لبنى الشُّطَيْبِية مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البر دون الإثم (*).
- ٣٦- وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .
- ٣٧- وأن بطانة يهود كأنفسهم .
- ٣٨- وأن لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .
- ٣٩- وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا .
- ٤٠- وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .
- ٤١- وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .
- ٤٢- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(* البرّ دون الإثم : أى أن البر بين أهل الصحيفة يحول بينهم وبين الإثم . يعنى أن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزا عن الإثم .
حجزه فأنحجز : منعه وحال بينه وبين غرضه .
النصر هنا بمعنى المناصرة .

- ٤٣ - وأن يثرب حرام جوفها (*) لأهل هذه الصحيفة .
- ٤٤ - وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .
- ٤٥ - وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .
- ٤٦ - وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساد ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .
- ٤٧ - وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .
- ٤٨ - وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .
- ٤٩ - وإذا دعوا إلى صلح يصلحون ، ويلبسونه (*) فإنهم يصلحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .
- ٥٠ - على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .
- ٥١ - وأن يهود الأوس ، ومواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة (*) . وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .
- ٥٢ - وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وآثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ .
- لقد كانت وثيقة المودعة تلك مترعة بأسباب السباحة الإسلامية ، مليئة بالمبادئ

(*) الجوف : المظمن من الأرض ، والجمع أجواف .

يظن أن المراد بالحرمة هنا حرمة الجوار فلا يجير الجار مستجيراً إلا بإذن مجيره . وذهب آخرون إلى أن معنى هذا النص ألا تجير امرأة إلا بإذن أهلها . والأول أقرب إلى الصواب والله أعلم . ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ « قد أجزنا من أجزت يا أم هانئ » بعد أن شكت إليه أن أخاها « على بن أبي طالب » أراد أن يقتل رجلاً من المشركين أجزته بأمانيها . والحديث متفق عليه .

الحدث : الأمر الحادث المنكر .

(*) يلبسونه من لبسه : إذا خالطه واشترك فيه .

(*) إلى هنا ينتهي النص طبقاً لرواية ابن هشام ، وإن ماتلاً ذلك من زيادة فهي من « عيون الأثر » ١ / ١٩٧ ، ١٩٨ .

الإنسانية ، فمن أبرز موادها أن « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » و « من خرج من المدينة فهو في أمان ومن قعد فهو في أمان إلا من ظلم وأثم » و « المسلمون جميعا ضد من ظلم أو بغى أو اعتدى أو أفسد بين المؤمنين ولو كان ولد أحدهم » و « أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » و « أن بطانة يهود كأنفسهم » و « أنه لا يَأْتُم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم » و « أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » و « أن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثم » .

وكان من أنصع مواد هذه المعاهدة أن التحكيم في شئونها مرده إلى الله وإلى الرسول ﷺ وذلك في الفقرة رقم (٤٢) التي تقرر : « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره » .

يقول الدكتور جعفر عبد السلام : إن المتمعن في نصوص الوثيقة يستخلص منها كيف اهتم الرسول ﷺ ببناء الأمة ، أى : تحديد الروابط السياسية والاجتماعية والقانونية بين فئات السكان ، فالرسول برغم إقامته الدولة على أساس العقيدة ، فإنه لم يغفل فئات السكان الأخرى التي تعيش معه في مكان واحد في الدولة الجديدة ، يؤدون واجبه نحوها في الذود عنها ، وصيانة أمنها الداخلى والخارجى ، والحفاظ على البناء الأساسى الذى وطده الرسول في يثرب (١).

هذا فضلا عن عناصر أساسية في بناء الدولة الحاضرة اشتملت عليها الوثيقة وتنبه إليها صاحب البحث يمكن عرض أهم مبادئها على النحو التالى :

● إن تحديد العلاقات بين الأطراف يضعنا أمام لجنة تأسيسية هى كل بطون المدينة والمهاجرين إليها فضلا عن قائدها ونيبها ، وهذه اللجنة التأسيسية تضع عقدا اجتماعيا ترسى فيه مبادئ دستورية توضح أساس التعامل بين مختلف فئات المجتمع .

● شهدت أرض يثرب عملية بناء ضخمة تمت في العام الأول للهجرة ، فقد كان

(١) وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة ص ٣٥١ من مجلة الشريعة والقانون ، العدد الثانى - تصدرها كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر .

الرسول ﷺ يبحث عن إقليم الدولة ، أو الإقليم الذى يأوى إليه لكى يتمكن من نشر دعوة الإسلام وبناء الأمة الإسلامية ، وقد وجد الرسول ضالته فى المدينة ، لذلك اهتم بأمر هذا الإقليم ، فحدده وجعله حرماً آمناً لمن يأوى إليه ، وإذا ما تتبعنا حياة الرسول فى المدينة نجدته ﷺ قد اهتم بأمر عدة أهمها ثلاثة إنجازات كبيرة :

أولها : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وهى عملية فريدة لم تتكرر فى تاريخ الإنسانية كلها .

وثانيها : وضع هذه الوثيقة .

وثالثها : بناء المسجد الذى هو دائماً فى الإسلام وحدة دينية واجتماعية وسياسية .

● اهتم الرسول بفكرة إقليم الدولة ؛ حيث نصّ فى الوثيقة على أن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، أى : تحريم قتل الأنفس ونهب الأموال ، بل تحريم قطع الشجر وقتل الطير .

وقد أورد المرحوم ظافر القاسمى أنه ورد فى بعض المراجع أن الرسول ﷺ أرسل بعض أصحابه لكى يضعوا أعلاماً على حدود حرم المدينة بين لابتيها شرقاً وغرباً ، وبين جبل ثور فى الشمال وجبل عير فى الجنوب ووادى العقيق (١).

● كان الضمان الاجتماعى يشكل مظلة ظليلة على مجتمع الدولة الإسلامية فى المدينة ، فقد جاء به الإسلام شاملاً وقام نظام الدولة الإسلامية على فرض الزكاة ، وفرض توزيع أموال من بيت المال على المحتاجين ، وهو ما نصت عليه الوثيقة فى وضوح . ذلك أن المسلمين لا يتركون مفرحاً - أى : مثقلاً بالدين - وإنما يعطونه بالمعروف فضلاً عن الفداء من الأسر وتحمل الديات .

هذا وقد ورد بالصحيفة نصوص على حرية العقيدة وعلى التأكيد على المساواة بين عناصر الدولة .

ومجمل القول أن هذه الوثيقة تعدّ سبقاً تاريخياً فى وضع وثائق بناء الدول ، وفى

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى ، ص : ٣٥ .

صياغة مبادئ وأسس تتضمنها الوثائق الدستورية الحديثة منذ أن بدأت الدول تعرف هذا المصطلح في القرن السادس عشر الميلادي حتى الآن .

إن اليهود لم يمهد لهم احترام في التاريخ بمثل ما مهدت لهم هذه الوثيقة المحمدية الشريفة ، فقد كان لهم نصيب في المغنم إذا ما قاتلوا مع المسلمين مما جعل بعض المؤرخين يعلل هذا التسامح العظيم تارة بأن الإسلام كان لا يزال ضعيفا آنذاك ، وتارة أخرى بأن هذا العهد كتب قبل أن تفرض الجزية ، ولكن الأمر ليس كذلك تماما ؛ لأن اليهود هم الذين نقضوا العهد ، وكان الإسلام قد خاض غزوة بدر ، وكان النصر المؤزر الكبير حليف المسلمين .

لم يصبر اليهود على فضيلة الأمانة وحفظ العهد اللذين ألزهم بهما وثيقة العهد ، فعادوهم الحنين إلى طبيعتهم الغادرة ، وسجيتهم المخادعة ، فما أن يئس كفار قريش من الإيقاع بين مسلمي المدينة من مهاجرين وأنصار حتى كتبوا إلى يهود المدينة بعد موقعة بدر مهديين ومرغبين ، وهنا بدأ الغدر يسيطر على نفوس اليهود ، فأجمعت بنو النضير على الغدر ، ورسوموا خطة خسيصة بأن أرسلوا إلى النبي ﷺ قائلين : « اخرج إلينا في ثلاثين رجلا من أصحابك ، ولنخرج في ثلاثين حبرا حتى نلتقى في مكان كذا » وقد عقدوا العزم على قتل الرسول ﷺ ثم ما لبثوا أن قال بعضهم لبعض : كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلا من أصحابه كلهم يجب أن يموت قبله؟! فأرسلوا إليه : كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلا؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فليسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك .

فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه ، وخرج اليهود مشتملين على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى أحد بنى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار ، وأخبرته بعزم بنى النضير على الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعا حتى أدرك النبي ﷺ فسارّه بخبره قبل أن يصل إليهم ، فرجع النبي ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصروهم وقال لهم : «إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » فأبوا أن يعطوا عهدا ، فقاتلهم

يومهم ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالخييل والكتائب ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة .

وهكذا أبت على اليهود طبيعتهم الغادرة إلا أن يخونوا العهد ، وينقضوا الوثيقة ، فكانوا البادئين في أسباب إجلائهم عن مدينة رسول الله ﷺ وتلك سليقتهم على مرّ السنين وكّر الدهور .



الفصل الرابع

هدنة الحديدية
أو
صلح الحديدية

صلح الحديبية

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ينظم شؤون دولة الإسلام ، ويوظف أكتاف الأمن فيها ؛ لأن جماعات اليهود ، وزرافات المنافقين كانت للرسالة وصاحبها بالمرصاد ، لا تلبث أن تشعل فتنة أو تنقض عهدا بين الحين والحين ، وكان الرسول ﷺ لا يغادر المدينة إلا إلى غزوة يدرأ بها خطرا متوقعا أو عدوا متربصا ، فلما كان شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة عقد العزم على زيارة بيت الله الحرام ، وأداء شعائر العمرة .

لم يكن الرسول ﷺ ليغادر المدينة إلا وقد اطمأن إلى أمن أهلها إبان غيابه ، وشعورهم بالاستقرار ، وأنهم بمنجاة من عدو كامن ، أو مهاجم متربص .

لقد قضى رسول الله السنة الخامسة للهجرة كلها وشهورا من السنة السادسة قبل ميعاد مغادرة المدينة إلى مكة وهو لا يكاد ينتهى من غزوة إلا إلى أخرى ، وذلك فضلا عن نصر الله له فى الخندق والقضاء على اليهود من فرق الأحزاب ، وهم بنو قريظة الناقضو العهد المتآمرون على المسلمين .

وخاض رسول الله ﷺ فى السنة الخامسة غزوة ذات الرقاع ، وغزوة دومة الجندل ، وغزوة الخندق أو الأحزاب ، ثم فى إثرها مباشرة غزوة بنى قريظة التى استأصل فيها شأفتهم وقضى على كل أسباب تأمرهم وأجلاهم عن المدينة .

فلما كانت السنة السادسة خاض رسول الله ﷺ غزوة بنى لحيان فى جمادى الأولى ، وأتبعها بغزوة ذى قرد ، ثم غزوة بنى المصطلق أو المريسيع فى شهر شعبان .

بذلك يكون رسول الله ﷺ قد تخلص من شرور أعدائه ، وأمن على نساء المهاجرين والأنصار وذرائعهم إن هو غادر المدينة إلى أداء العمرة ، وبخاصة بعد أن نصره الله على

الأحزاب فمزق شملهم ، وعلى بنى قريظة من يهود المدينة فهزمهم وأجلاهم وأمن شرورهم .

المسير إلى مكة :

خرج رسول الله ﷺ من المدينة بعد أن استعمل عليها نميلة بن عبد الله الليثي يريد زيارة البيت ، وسار ومن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب لا يريد قتالا في ألف وأربعمائة - على أصح الروايات - فلما كان بذي الحليفة (١) قلد الهدى وأشعره (٢) وأحرم بالعمرة هو وأصحابه ؛ ليأمن الناس من حربه ، وليعلمهم أنه خرج لزيارة البيت الحرام ، حتى إذا كان بعسفان أرسل بشر بن سفيان الكعبي يستكشف له الطريق ، فعاد الرجل من مهمته يخبر رسول الله بأن قريشا سمعت بمسيره ، فخرجت بنسائها وصبيانها ونزلوا بذي طوى - ضاحية لمكة - يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبدا ، وخرج خالد بن الوليد بخيله ورجاله إلى موضع يقال له كراع الغميم بين مكة والمدينة ، فقال رسول الله ﷺ معلقاً على حشود قريش : « يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » - كناية عن الموت - .

ثم قال ﷺ : « مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا ؟ » فقال رجل من أسلم ، أنا يارسول الله : فسلك بهم طريقا وعرا كثير الحجارة بين شعاب ، فلما أفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، أمر رسول الله ﷺ أن يسلك الناس طريقا يؤدي إلى ثنية المرار مهبط الحديدية ، فسلكوا ذلك الطريق ، فلما رأّت خيل قريش غبار مسيرة الرسول وصحابته رجعوا قافلين إلى قريش ، واستمر رسول الله حتى إذا سلك في

(١) هي مايعرف حاليا بآبار عتّى ، وهي ميقات أهل المدينة .

(٢) قلدها : يعنى وضع في أعناقها شيئا كقطعة من الجلد ليُعلم أنها هدى .

وأشعرها : يعنى ضرب صفحة السنم اليمنى بحديدة فلطخها بالدم إشعارا بأنها هدى . وكانت هذه عادة العرب فيها يهدون إلى البيت الحرام من الذبائح .

ثنية المرار برکت ناقته ، فقال الناس : خلأت الناقة - یعنی برکت - فقال الرسول ﷺ :
«ماخلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل بمكة » ثم أردف ﷺ قائلاً :
« لا تدعوني قريش اليوم إلى حُطّة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » وهكذا
كان محمد ﷺ إنسانا عاطفا حفيّا على ذوى رحمه وإن كانوا يريدون قتله .

ثم قال الرسول للناس : « انزلوا » قيل له : يارسول الله ما بالوادى ماء تنزل عليه ،
فأخرج ﷺ سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه من قيل : هو ناجية بن جندب
ابن عمير بن يعمر بن أسلم سائق بدن رسول الله ، وقيل : بل هو البراء بن عازب -
فنزل به في قلب من تلك القلب فغرز في جوفه ، فجاش بالرّواء وتدفق بالماء الغزير .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ في منزله الذى اختاره للركب ، أتاه بُدَيْل بن ورقاء
الخزاعى في جمع من قومه ، فكلّموا رسول الله وسألوه عن مقدمه ، فأخبرهم أنه لم يأت
لحرب يخوضها ، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظمها لحرمة ، فرجعوا إلى قريش ، وهنا تجرى
بين الفريقين ما يسمى بلغة العصر : محادثات ، ثم تتبعها مفاوضات .

لقد استغرقت هذه المحادثات أربع جولات ثم كانت المرحلة الخامسة هي
المفاوضات التى انتهت بعقد الهدنة أو الصلح الذى عرف في تاريخ السيرة النبوية
بصلح الحديبية .

جولات المحادثات :

كانت الجولة الأولى متمثلة في بديل بن ورقاء الخزاعى ورجاله - الذين مر ذكرهم -
الذين رجعوا لقريش فقالوا : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمدا لم
يأت لقتال ، إنما جاء زائرا هذا البيت ، فلم تحسن قريش الاستماع إلى كلام الخزاعى
ورهبه ، وخاطبوه في خشونة قائلين : وإن جاء ولا يريد قتالا !! فوالله لا يدخلها
علينا عنوة أبدا ، ولا نتحدث بذلك عنا العرب .

والأمر الجدير بالذكر هنا أن خزاعة كانت عيبة نصح رسول الله ، أى : خاصته
وأصحاب سرّه : مسلمها ومشرکها ، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة .

وكانت الجولة الثانية من المحادثات أو الحوار حين بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ

ابن حفص بن عامر بن لؤى ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : هذا رجل غادر ، فلما انتهى إلى رسول الله وكلمه ، قال له الرسول نحواً مما قال لبدليل وأصحابه ، فرجع إلى قريش فأخبرهم بها قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكانت جولة فاشلة .

وكانت الجولة الثالثة حين بعث قريش إلى رسول الله ﷺ الحليس بن علقمة بن زبّان - وكان يومئذ سيد الأحابيش (١) - وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون - أى : بتعبدون ويعظمون أمر الإله - فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه - فلما رأى الهدى يسيل عليه من جانب الوادى في قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله - أى : الموضع الذى ينحرف فيه - رجع إلى قريش دون أن يصل إلى رسول الله إعظاماً لما رأى ، فقال لهم ذلك ، فقالوا له : اجلس فإنها أنت أعرابى لا علم لك .

هنا غضب الحليس وقال : يامعشر قريش : والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أَيَصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذى نفس الحليس بيده لَتَحْلُنَّ بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له وقد استشعروا غضبه : مه ، كفت عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به . فكانت جولة محادثات ليست بين الرسول والحليس ، وإنما بين الحليس وقريش ، وكانت أقرب إلى النجاح على كل حال ؛ لأنها مهدت للجولة الرابعة التى كانت حاسمة .

بدأت الجولة الرابعة حين بعث قريش إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى ، ولكنه قبل أن يتجه إلى رسول الله رأى أن يستوثق لنفسه من قريش التى تقرّع كل من يعود إليها من عند رسول الله ، قال عروة موجهها كلامه إلى قريش : يامعشر قريش ، إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد - يعنى الواحد منكم مثل والدى - وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم - يعنى عاوانتكم - بنفسى . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين

(١) الأحابيش : من انضموا إلى قريش وليسوا منها ، وخبثى : جبل بأسفل مكة ، يقال : به سعى أحابيش قريش .

يديه ، ثم قال : يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله ألا تدخلها - يعنى مكة - عليهم عنوة أبدا ، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا (١) .

هنا غضب أبو بكر - وكان قاعدا خلف رسول الله - فقال على غير سليقته لعروة : امصص بظر اللات ، أنحن نكشف عنه ؟! قال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال هذا ابن أبي قحافة . قال مشيرا إلى أبي بكر : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها . ولكن هذه بتلك . ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله في الحديد ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك - ما أفظك وأغلظك !! فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أى عُذْر : وهل غسلتُ سوءتكَ إلا بالأمس ؟ (٢) فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا .

فقام عروة من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه من تعظيم : لا يتوضأ إلا ابتدروا ووضوءه ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، فرجع إلى قريش فقال : يامعشر قريش ، إنى قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشى في ملكه ، وإنى والله مارأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، قروا رأيكم .

إن قريشا كانت شديدة العناد إلى المدى الذى يجعلها أقرب إلى التجمد الأحمق ، فلم تستجب لسفارة عروة وقد وصفته بالأمانة في قولهم : ماأنت عندنا بمتهم .

(١) أوشاب الناس : يعنى أخلاط الناس . بيضة الرجل : أهله وقبيلته وموطنه . تفضها : يعنى تكسرها . العوذ : جمع عائد ، وهى من الإبل الحديثة النتاج . والمطافيل : التى معها أولادها ، يريد أن قريشا خرجت ومعها نساؤها وأطفالها .

(٢) أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف ، فتهايج الحيان مع ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فتحمل عروة دية المقتولين ثلاث عشرة دية .

حينئذ تجرى أحداث خطيرة تنتهى بيعة الرضوان قبل أن يقر قرار قريش على الهدنة .

رسول الله ﷺ لسعة صدره ووفرة سباحته يرسل خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش بمكة محمولا على بعير لرسول الله ﷺ اسمه الثعلب ؛ ليلخ أشرافهم عن رسول الله ما جاء له ، ولكنهم يعقرون جمل رسول الله ويهمون بقتل خراش ، فتتصدى لهم الأحابيش ويحفظون على خراش حياته ويخلون سبيله .

إن قريشا لا تكتفى بحماقتها تلك ، وإنما تبعث أربعين رجلا - وقيل : خمسين - وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، ولكن حرس رسول الله يأخذونهم أخذا ، ويحضرونهم أمام رسول الله ﷺ فيعفو عنهم ، ويخلي سبيلهم برغم سوء فعلتهم وحماقتهم ، فقد كانوا رموا في عسكر رسول الله بالحجارة والنبل .

ثم يمضى رسول الله ﷺ في مسعاه الحميد ، ويفكر في إرسال أحد كبار صحابته سفيرا لدى قريش حتى ينجز ما لم توفق إليه رسل قريش . دعا رسول الله عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة مبلغا أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر : يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعى - يعنى يحمينى - وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى ، إنه عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم بأن رسول الله لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا للبيت معظما لحرمة .

ويتوجه عثمان إلى مكة ويلتقى بأبى سفيان وعظماء قريش - وكان أبان بن سعيد بن العاص قد لقيه حال دخوله مكة فأجاره - ويبلغهم رسالة رسول الله ، فلما فرغ من إبلاغها قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فيقول لهم - وقد ربي فى مدرسة محمد ﷺ : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها ، ولم تسمح له بالعودة ، فارتكبت بذلك جرما كبيرا ، وهنا يمكن المقارنة بين سماحة رسول الله ﷺ مع الأربعين أو الخمسين قرشيا الذى رموا معسكره بالحجارة والنبل حين أمر

بتخلية سبيلهم ، وعفا عنهم ، وقد كانوا مخربين مسلحين ولم يكونوا رسلا ، وبين فعلة قريش في حجزهم عثمان الذى كان سفيرا لرسول الله . لقد كان الموقف متمسا بالغرابة والاستنكار لسوء ما فعلت قريش بحجز عثمان ، والحيلولة دون رجوعه إلى معسكر رسول الله ﷺ .

بيعة الرضوان :

لم يلبث الموقف أن تأزم حين أبلغ رسول الله أن عثمان قد قتلته قريش ، مما أدى إلى تحول كامل في كل الخطوات التى كان يمكن اتخاذها في نطاق السلم ومزيد من المفاوضات ، فيصدر رسول الله أمرا بالقتال في قوله ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم » .

يروى الصحابى سلمة بن الأكوع قائلا : بينما نحن جالسون قائلون - أى : مسترخون وقت الظهيرة - إذ نادى منادى رسول الله - وكان عمر بن الخطاب - : أيها الناس ، البيعة البيعة ، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . وأقبل الناس يبايعون متزاحمين ثم لبسوا السلاح وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها وشدّت سكيناً في وسطها .

يقول عبد الله بن أبى بكر : كان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفرّ .

والحق أن الرواية الراجحة في هذا الموقف أن الصحابة المرافقين لرسول الله ﷺ بعديدهم الألف والأربعمائة قد بايعوا رسول الله على عدم الفرار ، فإما الفتح وإما الشهادة ، ولم يتخلف منه أحد إلا الجُدُّ بنُ قيس ، وكان من المنافقين ، إن سلمة بن الأكوع يصفه حال تخلفه قائلا : لكأنى أنظر إليه لاصقا يابط ناقته يستتر بها من الناس .

لقد بايع كل الصحابة رسول الله إلا عثمان الذى كان الرسول ﷺ يرجح أنه محتجز وليس مقتولا . فعزّ عليه ﷺ ألا يكون مبايعا من المبايعين ، وهو يعلم قدر هذه البيعة وثوابها ، فبايع عنه بأن وضع يده الشريفة اليمنى على يده الشريفة اليسرى وقال :

«اللهم إن هذه بيعة عثمان فإنه في حاجتك وحاجة رسولك ، فأنا أبايع عنه » .

كانت البيعة تحت سَمْرَةَ ، وهى واحدة شجر السَّمْر وهو الطلح وسميت بيعة الرضوان ؛ لقول الله - سبحانه وتعالى - فى شأنها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (١) .

وسميت أيضا بيعة الله لقوله - تعالى - فى شأنها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢) .

وفى أجر المبايعين قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » (٣) .

كانت بيعة الرضوان بمثابة مهرجان للصمود وللفداء . تقول الرواية : إن أول من بايع رسول الله ﷺ هو سنان بن أبى سنان الأسدى ، قال لرسول الله : أبايعك على ما فى نفسك ، فقال ﷺ : وما فى نفسى ؟ قال : أضرب بسيفى بين يديك حتى يظهر لك الله أو أقتل . فصار الناس يقولون لرسول الله ﷺ : نبايعك على ما بايعك عليه أبو سنان . ومن الصحابة من بايع أكثر من مرة ، فقد بايع الصحابى سلمة بن الأكوع ثلاث مرات : مرة مع أول المبايعين ، ومرة مع أواسطهم ، ومرة مع أواخرهم ، ومن الذين بايعوا أكثر من مرة عبد الله بن عمر ؛ فقد بايع مرتين .

عجيب وعظيم أمر هؤلاء الصحابة الألف والأربعمئة الذين بايعوا محمداً ﷺ تحت الشجرة على الثبات والنصر أو الشهادة ، وهم يعلمون حق العلم أنهم سيواجهون قريشا وحلفاءها وأعوانها بكل ما تملك قريش من فرسان وعتاد وأموال وأحلاف . وأين ؟ إنه فى عقر دارها ، إنها بكل المقاييس المادية مغامرة غير محسوبة العواقب ، ولكن مقاييس رجال محمد لم تكن كذلك وإنما كانت مستمدة من إيمانهم بعقيدتهم وأنهم فى سبيل الله يقاتلون ، وقد ألفوا أن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه ناصرهم

(١) الفتح ، الآية : ١٨ .

(٢) الفتح ، الآية : ١٠ .

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٢٠ .

على قلة عددهم ، ألم ينصرهم في بدر على قلة عددهم !! لقد صدق سنان بن أبي سنان الأسدى حين قال لرسول الله ﷺ : أبايعك على ما في نفسك ، فقال له الرسول : « وما في نفسي ؟ » قال : أضرب بسيفي بين بديك حتى يظهر لك الله أو أقتل . وكذلك صدق الناس حين قالوا لرسول الله : نبايعك على ما بايعك عليه سنان .

الجولة الأخيرة من المفاوضات وعقد الصلح :

ليس ثمت شك في أن قريشا قد علمت ببيعة المسلمين لرسول الله على القتال حتى النصر أو الشهادة ، ولقد خبرت قريش بأس المسلمين وبسالتهم قبل أربع سنوات في بدر ، ثم قبل عام واحد لمست صبرهم واستماتتهم أمام الخندق ، ولاشك أيضا في أن أخبار المسلمين في المدينة وهزيمتهم لبني قريظة المعتصمين بقلاعهم المترسين خلف حصونهم كانت ماثلة أمامهم .

كذلك كانت لاتزال تصك آذانهم الكلمات التي ألقاها بديل بن ورقاء الخزاعي في مسامعهم ، والنصائح التي وجهها إليهم الخليل بن علقمة سيد الأحابيش ، والصورة التي نقلها إليهم سفيرهم عروة بن مسعود الثقفي عن شخصية الرسول ﷺ وتعظيم رجاله له ، وأدبهم في حضرته ، وتعلقهم به وتمسكهم بدينه ، وأنهم لا يسلمونه أبدا . ونصائح عروة لهم في قوله : إنه - أي : رسول الله - عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإنني لكم ناصح مع أنني أخاف ألا تُنصروا عليه .

قال جماعة من عقلاء قريش : إن الخير في أن نصلح محمدا على أن ينصرف عنا عامه هذا ولا يخلص إلى البيت حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أنا قد صددناه ، ويرجع قابلا - أي : العام القادم - فيقيم ثلاثا وينحر هديته وينصرف ، ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا ، فأجمعوا على الصلح والموادة ، اقترحوا وفدا من ثلاثة على رأسهم خطيب قريش سهيل بن عمرو ، وأما الاثنان الآخران فهما حويطب بن عبد العزى العامري ومكزز بن حفص بن الأخيف ، وقالوا لسهيل : اذهب إلى محمد فصالحه ، وليكن في صلحك ألا يدخل مكة عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة .

شروط الصلح :

ذهب سهيل إلى رسول الله ﷺ فلما رآه الرسول قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا ، وفي رواية أن الرسول قال لصحبه : سهل أمركم . جلس رسول الله ﷺ متريعا ، وكان واقفا على رأسه كل من عباد بن بشر وسلمة بن أسلم بن حريش وهما مقتنعان بالحديد ، فبرك سهيل على ركبتيه - وكان حريا به أن يفعل ذلك ، لأنه كان أسيرا في غزوة بدر ، وافتدته قريش ، فكلم رسول الله فأطال الكلام وارتفعت الأصوات وانخفضت ، فقال عباد بن بشر لسهيل : اخفض من صوتك عند رسول الله ، وأجرى سهيل حوارا مع رسول الله والصحابة جلوس ، واتفقا على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم بعضا ، وأن يرجع رسول الله ﷺ عامه هذا ، فإذا كان العام المقبل قدمها فخلوا بينه وبين مكة ، ليقيم فيها ثلاثا ، ولا يدخلها إلا بسلاح الراكب والسيوف في القرب لا يدخلها بغيره ، وأنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه - وإن كان على دين محمد - رده إلى وليه ، وأنه من أتى قريشا ممن اتبع محمدا لم يردوه عليه ، وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال (١) . وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل . هنا توثبت خزاعة وقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتوثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

امتعض المسلمون وقد سمعوا الحوار وما قد حوى الصلح من شروط ، وكان أكثرهم معارضة لشروط الاتفاقية عمر بن الخطاب إلى المدى الذي جعله يكلم رسول الله ﷺ مفصحا له عما في نفسه من عدم الرضا ، وهي زلة ندم عليها عمر كثيرا فيما بعد ، ولكن سماحة رسول الله ﷺ وحده على أصحابه كانت من السماحة والسعة بحيث تستوعب مثل هذه المواقف ، ويغفر لمقترفيها ؛ لأنه رسول موحى إليه ، وهم بشر غير معصومين .

كان ذلك على مسمع من سهيل ، فأصرَّ سهيل على شروطه ، فلما آن وقت الكتابة

(١) يريد أن تكف عنا وتكف عنك ، والإسلال : السرقة . والإغلال : الخيانة والغدر .

وثب عمر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أَلست نبي الله حقا ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : عَلَاكم نَعطى الدَّيْنَةَ في ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إني عبد الله ورسوله ، ولست أعصيه ، ولن يضيعني وهو ناصرى » قال عمر : أو ليس كنت تحدثنا أننا سوف نأتى البيت فنطوف حقا ؟ قال : بلى ، فأخبرتكَ أنك تأتيه العام ؟ قال : لا ، قال : « فإنك آتية ومُطَوَّفٌ به » .

ثم ذهب عمر إلى أبى بكر وسأله فيما جرى بينه وبين رسول الله ﷺ فقال أبو بكر وهو أقرب إلى الغيظ : أيها الرجل ، إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه - يعنى الزم أمره - حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

يقول عمر : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، فيقول أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان وأتتهم رأيك . قال عمر : فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان حياء ، فما أصابنى شيء قط مثل ذلك اليوم ، وعملت بذلك أعمالا لتكفر عنى ما مضى من التوقف فى امثال الأمر ابتداء .

فلما شرع فى الكتابة قال سهيل : هات اكتب بيننا وبينك كتابا ، فدعا رسول الله ﷺ عليًا فقال له : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدرى ما هو ؟ ولكن اكتب : باسمك اللهم كما كنت تكتب . اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، فقال المسلمون : والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال النبى ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، اكتب : محمد بن عبد الله . فقال رسول الله ﷺ لعلى : اكتب ، فقال على : ما أنا بالذى أمحاه - وفى رواية : أمحاك - فجعل على يتلأ ، وأبى أن يكتب إلا « محمد رسول الله » فقال رسول الله ﷺ : اكتب فإن لك مثلها وأنت مضطهد - يعنى مضطر - فأخذ أسيد بن الحضير وسعد بن عبادة بيد على

ومنعه أن يكتب إلا « محمد رسول الله » وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، فارتفعت الأصوات ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخفضهم ويومئ بيده إليهم : اسكتوا . ثم قال : أرنيه - يعنى أرنى مكانها - فأراه إياه ، فمحا رسول الله بيده وقال ، اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال رسول الله لسهيل : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف ، فقال سهيل : لا والله لا نَحَدُّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً ، ولكن لك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : على أنه لا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه - وإن كان على دينك - إلا سددهت إينا . فقال المسلمون : سبحان الله !! أكتب هذا ؟ كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ ! فقال رسول الله ﷺ : « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم إينا سيجعل الله له فرجا ومخرجا » .

وكانت الفقرة التي تلزم المسلمين بإعادة من يأتى إليهم من قريش بغير إذن أوليائهم قد فرضت نفسها على الموقف قبل أن يحف المداد ، ولما يوقع الطرفان الوثيقة بعد ، فقد كان لسهيل بن عمرو الذى يشكل الطرف الثانى فى المعاهدة ابن مؤمن ، وكان أبوه قد حبسه ووضع فى القيد عقابا له على إسلامه هو أبو جندل ، فبينما كان الطرفان يهيان كتابة وثيقة الصلح إذ بالجميع يفاجأون بوجود « أبى جندل » بينهم فى الحديبية يرسف فى قيوده ملقيا بنفسه بين أظهر المسلمين الذى خفوا إليه يرحبون به ويهنتونه ، فلما رآه أبوه سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك ، وأمسك بتلابيبه ثم قال : يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال سهيل : إذن والله لا أصالحك على شىء أبدا « قال : فأجزه لى . قال : ما أنا بمجيزه لك . فقال أبو جندل : أى معاشر المسلمين ، أأرذُّ إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ - وكان قد عذب عذابا شديدا - فرفع رسول الله ﷺ صوته وقال : « يا أبا جندل : اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا مع القوم صلحا وأعطينا على ذلك عهدا ، وإنا لا نغدر » .

وبانتهاء تحرير بنود الصلح شهد عليه رجال من المسلمين ورجال من المشركين : أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعلى بن أبى

طالب، وعبد الله بن سهيل بن عمرو (أخو أبي جندل) ومحمود بن مسلمة، ومكرو ابن حفص .

لقد حرص رسول الله ﷺ على تنفيذ المعاهدة بكل موادها حتى قبل أن يتم التوقيع عليها طبقا لما جرى في قضية أبي جندل بن سهيل بن عمرو .

أبو بصير وأبو جندل :

وثمت موقف آخر حدث بعد عودة الرسول من الحديبية إلى المدينة ممثلا في ثقيفى مسلم آخر هو أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفى حليف بنى زهرة ، أفلت من قومه سائرا على قدميه ساعيا إلى المدينة ، فكتب أزهر بن عبد عوف الزهرى إلى رسول الله ﷺ كتابا بعث به مع خنيس بن جابر العامرى يذكر عهد الصلح وردّ أبى بصير إلى مكة ، فقدم العامرى إلى المدينة بصحبة دليل له يقال له (كوثر) بعد أبى بصير بثلاثة أيام ، فأمر رسول الله ﷺ أبى بصير أن يرجع معها ، فقال : يا رسول الله : تردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ ! فقال ﷺ : « يا أبى بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا » فقال : يا رسول الله تردنى إلى المشركين ؟ ! قال : « انطلق يا أبى بصير فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا » .

فسار أبو بصير معها والمسلمون يسرون معه ويطيّبون خاطره ويشجعونه ، ولما أن وصلوا إلى ذى الحليفة وكان الوقت ظهرا صلى أبو بصير صلاة المسافر ، واشترك مع حارسه فى تناول بعض الطعام ، وبجيلة ذكية استطاع أبو بصير أن يأخذ السيف ، فقتل العامرى ، وهمّ بقتل الرجل الآخر ، ولكنه أفلت منه وخرج هاربا يعدو إلى المدينة وأبو بصير فى أثره ، فلما انتهى إلى رسول الله قال له : ويحك مالك ؟ قال : قتل والله صاحبكم صاحبى وأفلتّ منه ولم أكد ، وإنى لمقتول ، واستغاث برسول الله فأمنه ، وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامرى ودخل متوشحا سيفه فقال : يا رسول الله قد وفّت ذمتك وأدى الله عنك ، وقد أسلمتنى بيد العدو ، وقد امتنعت بدينى من أن أقتن ، فقال رسول الله ﷺ : « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال » .

ثم خرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قد قدموا معه مسلمين من مكة حتى قدموا سيف البحر .

فلما بلغ سهيلاً قتل أبي بصير العامريّ اشتد وقال : ما صالحنا محمداً على هذا ، وجرت في ذلك مناقشات حول دية القتل ومن يتحملها ، ومن الطريف أن أبا سفيان ابن حرب كان من رآه أن الرسول ﷺ غير مسئول عن دم القتل .

وما يزيد القصة إمتاعاً أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو انفلت فخرج هو وسبعون راكباً ممن أسلموا فلحقوا بأبي بصير ، ولأن أبا جندل قرشي فقد سلم له أبو بصير الأمر ، فكان أبو جندل يؤمهم في الصلاة ، واجتمع إلى أبي جندل ناس من بني غفار وأسلم وجهينة لا تمر بهم غير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها وضيقوا على قريش فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، وتطور الأمر إلى جانب من الطرافة ، فأخذ أبو جندل يقول في ذلك شعراً منه : (*) .

| | |
|--|--|
| أَبْلُغْ قَرِيشاً عَنِ أَبِي جَنْدَلٍ | أَنَا بَذَى الْمَرْوَةَ فِي السَّاحِلِ |
| فِي مَعْشَرٍ تَخْفِقُ رَأْيَاتُهُمْ | بِالْبَيْضِ فِيهَا وَالْقَنَا الذَّابِلِ |
| يَأْبُونَ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ رُقَّةٌ | مِنْ بَعْدِ إِسْلَامِهِمُ الْوَاصِلِ |
| أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مَخْرَجًا | الْحَقُّ لَا يُغْلَبُ بِالْبَاطِلِ |
| فَيَسْلَمُ الْمَرْءُ بِإِسْلَامِهِ | وَيُقْتَلُ الْمَرْءُ وَلَمْ يَأْتَلِ |

ولما استشرى فزع قريش من أبي جندل وأبي بصير أرسلت قريش أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وأبي جندل ومن معهم ، وقالوا - وهنا تقع المفارقة العظيمة - : من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه ، وقال - أي : أبو سفيان - فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره . فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير وأبي جندل يأمرهما أن يقدموا عليه ،

(*) المعاني : ذو المروة : موضع في أرض جهينة مما يلي سيف البحر بين مكة والمدينة .
القنا : جمع قناة ، وهي الرمح ، الذابل : صفة للقنا ، أي : أنها رماح رفاق .
لم يأتل : يعني لم يحلف .

ويأمر من معها ممن اتبعها من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد مَرَّ بهم من قريش وعيرانها ، فقدم كتاب رسول الله على أبي بصير وهو يموت ، فجعل يقرؤه ومات وهو في يديه ، فدفنه أبو جندل وجعل عند قبره مسجدا . وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم ، وأمنت بعد ذلك عَيْرَاتُ قريش .

لنعد مرة أخرى إلى أعقاب رجوع رسول الله إلى المدينة بعد توقيع الهدنة ، فقد كان في الركب بعض ضعاف الإيمان بجدوى المعاهدة ، وكان ذلك قد شكل قضية عند واحد من مقدمي الصحابي وهو عمر طبقا لما أوضحناه قبل صفحة أو صفحتين ، يروى البيهقي عن عروة أنه لما قفل رسول الله راجعا قال رجل من أصحابه ﷺ : ما هذا بفتح ، لقد صُدِّدْنَا عن البيت وصُدِّدْ هَدِينَا ، وردَّ رسول الله رجلين من المؤمنين كانا قد خرجا إليه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتح ، وقد رضى المشركون أن يدفَعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألوكم القضية - يعنى القضاء في العام القادم - ويرغبون إليكم في الأمان ، ولقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله تعالى عليهم ، وردكم بسالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتح » ويمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تنبيه عقول المسلمين وقلوبهم الذين لم يستوعبوا حكمة الهدنة ، وأنها كانت نصرا ومقدمة لانتصارات كبيرة : « أنسيتم يوم الأحزاب ؟ » ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴾ (*) - فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، فهو أعظم الفتح ، والله يأنبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبالأمر منا .

' إلى هنا يكون المسلمون جميعا قد آمنوا بمنطق رسول الله ﷺ من أن الحديبية كانت أعظم فتح ، فقد أقنعهم رسول الله بالحجة الدامغة ، وذكرهم بمواقف ثابتة ومواقف سالفة ، ولكن مشيئة الله تأبى إلا أن تختم هذا الموقف بالوحي منزلا مصدقا للمصدق المصدوق خير الأنبياء وخاتم المرسلين .

(*) الأحزاب ، الآية : ١٠ .

يروى عمر بن الخطاب - وكان الصوت الأعلى في مجادلة رسول الله حول الحديبية - فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ ، فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب نَزَرَتْ - أي : ألححت - رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ، فحركت بعيري أمام الناس ، وخشيت أن ينزل في القرآن ، فإنا نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي ، فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء ، فقال النبي ﷺ : « لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَبَقِيَةُ السُّورَةِ إِلَى آخِرِهَا ، إِذِ يَقُولُ - عز وجل - : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝

ويزيد الموقف جلاء حول نزول سورة الفتح مارواه الصحابي الجليل مجمع بن جارية ابن عامر الأنصاري - رضى الله عنه - قال : شهدنا الحديبية مع رسول الله ، فلما انصرفنا عنها إلى « كُرَاعِ الْعَمِيمِ » - اسم موضع - إذا الناس يوجفون الأباعر - يعنى يسرعون السير - فقال الناس بعضهم لبعض : مال الناس ؟ ! قالوا : أوحى لرسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند « كُرَاعِ الْعَمِيمِ » فاجتمع الناس إليه فقرأ عليهم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ فقال رجل من أصحاب

النبي ﷺ: «أُوهُوَ فَتَحَ؟ فَقَالَ: «إِى وَالذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهُ فَتَحَ» .

لقد صدق رسول الله وايم الله ، فهو فتح عظيم ، وصدق الله - عز وجل - في تصديقه رسوله وتأيدته بوصف الفتح : بالفتح المبين ، وآيات ذلك وعلاماته كثيرة ، أولها أنه ﷺ ما كاد يعود إلى المدينة ويزيل وعشاء السفر حتى نادى بعالمية الرسالة ، وكاتب الملوك والأقيال ، وأرسل سفراءه يحملون كتبه إلى كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشى وبقية ملوك العرب وأمرائهم على النحو الذى أوضحناه فى الفصل الخاص برسائله ﷺ .

إنه لم يكد يمر العام ويحل شهر ذى القعدة من العام السابع حتى اتخذ رسول الله وصحبه العدة للمسير إلى عمرة القضاء - وتسمى عام القضية - فلما حلق رأسه قال لصحبه : « هذا الذى وعدتكم به » .

ولم يمرّ على صلح الحديبية عامان - وكانت مدة الهدنة عشرة أعوام - حتى نقضتها قريش فكان الفتح الأعظم ، وكانت عدة جيوش رسول الله ﷺ أضعاف عدد من رافقوه فى سفرة الحديبية ، واستسلمت قريش كلها ، وأعلنوا إسلامهم وعلى رأسهم أبو سفيان زعيم قريش وسهيل بن عمرو كبير المفاوضين ومنكر صيغة « بسم الله الرحمن الرحيم » و« محمد رسول الله » وموقع وثيقة الهدنة .

وفى ذلك اليوم - يوم الفتح - أخذ رسول الله ﷺ المفتاح وقال : ادعوا لى عمر بن الخطاب ، فقال : « هذا الذى قلت لكم » .

ولما كان الرسول ﷺ فى حجة الوداع أراد أن ينبه إلى أن هذا النصر كانت بدايته صلح الحديبية ، فوقف بعرفة وقال : « أى عمر ، هذا الذى قلت لكم إني رسول الله ، والله ما كان فتح فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية »^(١) .

(١) مراجع صلح الحديبية : السيرة لابن هشام ، السيرة لابن كثير ، تاريخ الإسلام للذهبي (قسم المغازى) ، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للصالحى ، السيرة الحلبية ، طبقات ابن سعد ، تاريخ الطبرى ، تفسير الطبرى ، السيرة النبوية للطبرى ، عيون الأثر ، البداية والنهاية . ، الكامل لابن الأثير ، الروض الأنف ، صحيح البخارى ، الوثائق السياسية للعهد النبوى لحميد الله .



الفصل الخامس

عهوده صلى الله عليه وسلم
مع نصارى الشام ونجران

(١)

عهد الرسول ليوحنا بن رؤبة

صاحب أيلة

تعد بلدة أيلة آخر الحجاز وأول الشام ، والبعض يعتبرها من الشام ، فقد اختلف الجغرافيون العرب كثيرا في تبعية البلدان للأقطار ، فهم يعتبرون واحة تيماء من الشام ، وهي تبعد عن تبوك جنوبا بنحو مائتى كيلومتر بمقاييس زماننا .

لقد كانت غزوة الرسول ﷺ في تبوك غزوة شامية ، ولقد منحه الله النصر والفوز فيها ، وانسحبت جيوش الروم شمالا .

يقول ابن هشام : إنه لما انتهى رسول الله إلى تبوك أتاه صاحب أيلة - وكانت غزوة تبوك سنة ٩ هـ - على ما هو معروف - فصالحه وأعطاه الجزية ، فكتب له رسول الله ﷺ هذا العهد : (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يُمْنَعُوا ماءً بِرِدُونُهُ ، ولا طريقا يريدونه من بحر أو بر » .

وفي هذا العهد قد يسر رسول الله على يوحنه صاحب أيلة وأهل أيلة ، ويبدو أنه كان من رجال الدين المسيحي ، ولرسول الله ﷺ معاملة متميزة مع رجال الدين النصارى ، حدث هذا مع صاحب أيلة ذلك الذى نتحدث عنه ، وحدث ذلك أيضا

(١) السيرة النبوية ٥٢٦/٢ وزاد المعاد ٧/٣ والوثائق السياسية ، ص : ١١٧ ، ١١٨ .

مع أهل (مقنا) الذين هم موضوع حديثنا بعد قليل ، وحدث أيضا مع نصارى نجران في مشهدهم وفي غيابهم .

لقد كان الرسول ﷺ كريما - كالعهد به - في تعامله مع أهل أيلة وصاحبها من خلال هذا العهد ، فلم يكتف بإعطاء العهد على ما في البر وحسب ، بل شمل العهد سفنهم في البحر ، وشمل من كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، لقد تعهد رسول الله ﷺ بأمانهم في طرق البر وطرق البحر ، وحذرهم بوضوح من نقضهم عهده .

(٢)

معاهدته ﷺ مع أهل مقنا

مقنا - بفتح الميم وسكون القاف - : بلدة على خليج العقبة بجوار أيلة ، ولقد أعطاها رسول الله ﷺ عهدا فيه مزيد من التفصيل بالقياس إلى ذلك الذي أعطاه لأهل أيلة ، ذلك أن أهل مقنا فيما يبدو قد صدرت عنهم بعض المشاحنات مما يفهم من نص عهد رسول الله لهم .

لقد كتب هذا العهد في نفس الوقت الذي كتب فيه عهد أهل أيلة ، وكان ذلك سنة ٩ هـ وقد أملاه رسول الله ﷺ على علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهذا هو نص العهد :

« من محمد رسول الله إلى بني جَنْبَة وإلى أهل مقنا .

أما بعد : فقد نزل على آيتكم راجعين إلى قريبتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم ، وإن لكم ذمة الله وذمة رسوله ، لاظلم عليكم ولا عدى ، وإن رسول الله جار لكم مما منع منه نفسه .

فإن لرسول الله بَرَكَمَ وكل رقيق فيكم والكراع والحلقة (*) ، إلا ما عفا عنه رسول الله

(*) الحلقة : المشاية .

أو رسول رسول الله ، وإن عليكم بعد ذلك ربيع ما أخرجت نخلكم ، وريع ماصادت عروككم (*) ، وريع ما اغتزل نساؤكم ، وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة ، فإن سمعتم وأطعتم ، فإن على رسول الله أن يكرم كريمتكم ويعفو عن سيئكم .

أما بعد: فيل المؤمن والمسلمين : من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له ، ومن أطلعهم بشر فهو شر له .

وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم ، أو من أهل رسول الله ، والسلام » (١) .

لقد تميزت هذه المعاهدة بعدة عناصر جعلت أهل مقنا متميزين على غيرهم ممن حظوا بعهود من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل قوله الشريف : « وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم » ومثل حص المسلم على الإحسان إليهم ، والتحذير من الإساءة إليهم ، وذلك في قوله ﷺ : « من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له ، ومن أطلعهم بشر فهو شر له »

وقد زادهم الرسول ﷺ تكريماً في أن جعل أميرهم منهم أو من أهل رسول الله ، وذلك في آخر مواد المعاهدة : « وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله »

(٣)

معاهدته ﷺ مع نصارى نجران

إذا كانت كل من المعاهدتين السابقتين قد تضمنت الكثير من سماحة رسول الله ﷺ وكرمه وتيسيره على كل من أطراف المعاهدتين ، فإن معاهدته ﷺ مع نصارى نجران قد أترعت كرماً وملئت سماحة وفاضت فضلاً ، فقد منحهم ﷺ من الفضل والإكرام ما قد يعجزون هم أنفسهم عن أن يقدموه لأنفسهم ، لقد منحهم السماحة والتسامح ووهبهم الكرم والتكريم ، وخلع عليهم العفو والمعروف ، ولعل قوله ﷺ

(*) العروك : صياد السمك

(١) الوثائق السياسية ، ص : ١٢٠ ، وإمتاع الأسع للمقرزى ٤٣٩/١ ، ومغازى الواقدى ٣ / ١٦٠ .

الذى جمع بين البلاغة والساحة المتضمنتين في المعاهدة هو أوضح بيان لموادها . وهذا هو نص المعاهدة (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدُ النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران : إذا كان عليهم حُكْمُهُ في كل ثمرة ، وفي كل صَفراءَ وبيضاءَ ورفيق ، فأفضلَ ذلك عليهم ، وتَرَكَ ذلك كله لهم ، على ألفي حُلَّةٍ من حُلَلِ الأواقي : في كل رَجَبِ ألف حُلَّةٍ ، وفي كل صَفَرِ ألف حُلَّةٍ ، كل حُلَّةٍ أوقية من الفضة . فما زادت على الحِراج ، أو نَقَصَتْ عن الأواقي فبالحساب . وما قَضَوْا من دروع ، أو خيل ، أو ركاب ، أو عروض أُخِذَ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنَّةٌ رُسُليَ ومنعتهم ، ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تُجْبَسُ رُسُليَ فوق شهر .

وعليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، إذا كان كيد باليمن ومَعْرَةٌ . وما هَلَكَ مما أعاروا رُسُليَ من دروع ، أو خيلٍ ، أو ركابٍ ، أو عروضٍ ، فهو ضمير على رُسُليَ ، حتى يؤدَّوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها ، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم ، وأنفسهم ، وملئتهم ، وغائبهم ، وشاهدتهم وعشيرتهم ، وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . لا يُغَيَّرُ أُسْقُفٌ من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم رُبِّيَّةٌ ، ولا دُمٌ جاهلية . ولا يُحَثَّرُونَ (*) ، ولا يُعَشَّرُونَ ، ولا يَطَأُ أرضهم جيشٌ ، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين .

ومن أكل رباً من ذى قُبَلٍ فذمتى منه بريئة . ولا يؤخَذُ رجلٌ منهم بظلمٍ آخر .

(١) الوثائق السياسية ، ص : ١٧٥ ، ١٧٦ ، الوثائق السياسية اليمنية لمحمد بن علي الأكرع ، ص : ٩٤-٩٦ ، إمتاع الأسباع للمقرئى / ١ / ٥٠٢ ، السير للشيباني ، باب ماجاء عن النبي وأصحابه في أهل نجران وتغلب ، وزاد المعاد . ٤٧/٣ .

(*) لا يحشرون : يعنى لا يكلفون بالجهاد . ولا يُعشرون ، أى : لا يدفعون الزكاة .

وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله ، حتى يأتي الله بأمره ، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم ، غير مثقلين بظلم .

شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بنى النضر ، والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة .

وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر .

لقد أعطى رسول الله ﷺ هذه العهود لنصارى نجران برغم أنهم لم يستجيبوا لعروض الرسول ولم يقبلوا الملائنة التي استعد لها الرسول فخرج إليهم بسبطيه الحسن والحسين وهما طفلان ومن ورائه فلذة كبده الزهراء البتول فاطمة ، فصاروا بعد ذلك من رعايا الدولة الإسلامية التي يحكمها سيد البشر ، وتحت حمايته .

إن هذه السماحة التي عامل بها الرسول نصارى نجران ، لم يقابلها تسامح ولو لمرة واحدة من نصارى أوروبا منذ أن نما لها ظفر أو نبت لها ناب ، وإن ما فعله نصارى أوروبا بالمسلمين في الحروب الصليبية أو في الأندلس أو في الزمن المعاصر لنا في فلسطين أو في البلقان في ضرب أهل البوسنة والهرسك لما تتقرز له نفس كل من يمتلك قدرا ضئيلا من الإنسانية .

وإن واحدا من أعلام المسلمين المعاصرين يستعرض من المعاهدة بعض فقراتها مثل هذا البند الذي يقرر « أن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي ، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم . وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وبيعهم . وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغيروا حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغيروا أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانته ، ولا ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .

وليس عليهم ربية ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا ييطأ أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقاً فينبهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا فدمتي منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتي الله بأمره مانصحو وأصلحو فيما عليهم غير مثقلين بظلم .

يقول الشيخ محمد الغزالي وقد قرأ هذه الفقرة القصيرة من المعاهدة وقد أترعت
سماحة، وفاضت رحمة، وتدفت إحسانا: « ونحن نسأل على وجه التحدى: هل
عاملت الطوائف المسيحية بعضها بعضاً بهذه السماحة الرائعة؟ أم كان ذلك مسلماً
أضواءً به الإسلام وحده ظلمات القرون الأولى؟ »

ويعمى الشيخ الجليل فى وصف موقف هذه القبائل النصرانية من الإسلام بعد وفاة
الرسول ﷺ قائلاً:

ثم نسأل مرة أخرى: هل احترام أهل الكتاب ماعليهم من واجب، وهل أنصفوا
الدين الذى رعى ذمامهم؟ .

لقد دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو يبسط تعاليمه على حساب الوثنية
المتقلصة، فإذا بعض القبائل فى الجنوب ثور ضده تحسب أن رجلاً من قريش ملك
العرب بادعاء النبوة، فليس يعجزها أن تقدم من مفاليكها من يزعم النبوة كذلك؟!
لعله يملك مثل ما ملك محمد بن عبد الله .

ومن المؤسف أن النصارى فى جنوب الجزيرة ساعدوا فى إشعال هذه الثورات، وأن
نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسى فسار إليهم - وهو أحد المتنبئين - ثم رحل عنهم إلى
اليمن، فملكها حتى قتلته امرأته هناك وأراحت الأرض منه .

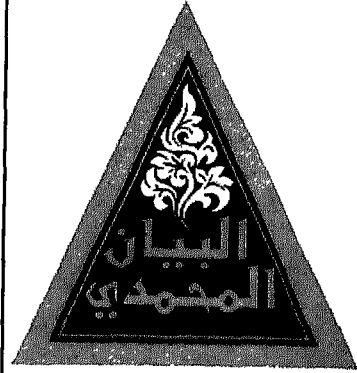
أكانت هذه الفتن معاونة لنصارى الشمال فى حربهم ضد الإسلام، أم كانت شغباً
يمليه الكره المجرى فحسب؟ .

وما فعله نصارى نجران فى تأييد الأسود العنسى . فعل مثله نصارى تغلب فى تأييد
مسيلمة الكذاب حين ادعى - هو الآخر - أنه نبي .

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول فى الإسلام، وأن يؤثروا
البقاء على ما اقتنعوا به من ديانتهم الموروثة، لكننا لم نفهم بته أن يكذب رجل
بصحف الوحي العالى وأن يؤمن - مثلاً - بالبعكوكة .

ذلك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيلمة .
أما إذا كان الأمر لا يعدو الإعانة على حرب الإسلام بأى سلاح ومع أى حليف ،
فهذه مسألة أخرى يختار فى علاجها أطباء القلوب (١) .

(١) فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالي ص : ٤٤٢ ، ٤٤٣ .



الفصل السادس

عهودُه ﷺ
لثقيف - لعمر وبن حزم حين
بعثه إلى اليمن

(١)

عهد رسول الله ﷺ لثقيف

لثقيف موقف غير كريم من رسول الله حين خرج من مكة إلى الطائف مستنجرا بهم ، فكانوا بثس المجير ، وناله ﷺ منهم أذى كبير ، وأمروا صغارهم أن يقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان على ما هو معروف تفصيلا في كتب السيرة .

ثم ازدهرت الدعوة الإسلامية ، وكتب الله النصر لرسوله ، وما فتىء الناس يدخلون في دين الله أفواجا باستثناء بعض القبائل التي كان لا مفرّ من غزوها حتى تستسلم ومنها ثقيف .

و حين غزا رسول الله ﷺ ثقيفاً لم يجعل لأذاهم له إبان لجوئه إليهم موضعاً ، ولا حاول أن يكون منتقماً منهم أو مضيفاً حساباً قديماً معهم ، فلم تكن هذه الثارات من شمائل محمد الذي لم يكن يرجح سعادته شيء بقدر هداية فرد واحد فضلاً عن هداية جماعة .

لقد غزا النبي ﷺ ثقيفاً ، فلما أن سمع صخر بن العيلة الأحمسي بخيل رسول الله ، همّ بالاستعداد لمعاونة جيش رسول الله ، فركب في خيل يمدّ بها جيش النبي ﷺ ولكنه وجد النبي قد انصرف ولم يكمل الفتح ، فعاهد صخر الله ألا يفارق قصره حتى تنزل ثقيف على حكم رسول الله ﷺ فلما نزلوا على حكم رسول الله ، كتب صخر إلى النبي ﷺ مانصه :

« أما بعد فإن ثقيفا قد نزلت على حكمك يارسول الله ، وأنا مقبل إليك وهم في خيل » .

وما أن وصلوا حتى أمر رسول الله ﷺ بالصلاة جامعة ، وجرت مفاوضات انتهت بإسلامهم وعلى كتاب هذا العهد لهم (١) :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم .

(٢) هذا كتاب من محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لثقيف :

(٣) كَتَبَ : إنَّ لهم ذِمَّةَ الله الذي لا إله إلا هو ، وذِمَّةَ محمد بن عبد الله النبي ، على ما كَتَبَ لهم في هذه الصحيفة :

(٤) إنَّ واديهم حرام محرَّم لله كله ، عضاهه وصَيْده وظلم فيه وسرق فيه أو إساءة .

(٥) وثقيف أحقَّ الناس بوجِّ . ولا يُعبَر « طائفهم » ولا يدخُلُه عليهم أحد من المسلمين يَغلبهم عليه . وما شاءوا أحدثوا في « طائفهم » من بنيان أو سواه بواديهم .

(٦) ولا يحشرون ولا يُعشرون ولا يُستكزهون بهال ولا نفس .

(٧) وهم أُمَّة من المسلمين ، يتولَّجون من المسلمين حيث ماشاءوا ، وأين ما تولَّجوا ولجوا .

(٨) وما كان لهم من أسير فهو لهم ، هم أحقَّ الناس به حتى يفعلوا به ما شاءوا .

(٩) وما كان لهم من دين في رهن فبلغ أجلُّه فإنه لياط (*) مُبرأ من الله وما كان من دين في رهن وراء عكاظ فإنه يقضى إلى عكاظ برأسه .

(١٠) وما كان لثقيف من دين في صُحفهم اليوم الذي أسلموا عليه في الناس فإنه لهم .

(١١) وما كان لثقيف من ودِعة في الناس أو مال أو نفس غَنِمها مودعها أو أضاعها ، ألا فإنها مؤدَّاة .

(١) الوثائق السياسية ص : ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(*) اللياط : الربا .

- (١٢) وما كان لثقيف من نفس غائبة أو مال فإن له من الأمن ما لشاهدهم . وما كان لهم من مال بليّة فإن له من الأمن ما لهم بوجّ .
- (١٣) وما كان لثقيف من حليف أو تاجر فإن له مثل قضية أمر ثقيف .
- (١٤) وإن طعن طاعن على ثقيف أو ظلمهم ظالم ، فإنه لا يطاع فيهم في مال ولا نفس ، وإن الرسول ينصرهم على من ظلمهم والمؤمنون .
- (١٥) ومن كرهوا أن يلج عليهم من الناس فإنه لا يلج عليهم .
- (١٦) وإن السوق والبيع بأفنية البيوت .
- (١٧) وإنه لا يؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض ؛ على بنى مالك أميرهم ، وعلى الأحلاف أميرهم .
- (١٨) وما سقت ثقيف من أعناب قريش فإن شطرها لمن سقاها .
- (١٩) وما كان لهم من دين في رهن لم يُلط فإن وجد أهله قضاءً قضوا . وإن لم يجدوا قضاءً فإنه إلى جمادى الأولى من عام قابل . فمن بلغ أجله فلم يقضه فإنه قد لاطه .
- (٢٠) وما كان لهم في الناس من دين فليس عليهم إلا رأسه .
- (٢١) وما كان لهم من أسير باعه ربه فإن له بيعه . وما لم يبع فإن فيه ست قلائص ، : نصفان حقاق وبنات كبون كرام سمان .
- (٢٢) ومن كان له بيع اشتراه فإن له بيعه .
- إن عهد الرسول لثقيف أقل ما يوصف به أنه يفيض أمنا ، ويموج كرما ، ونحن لا نستطيع أن نفضل بندا من المعاهدة على بند آخر ، وإنما تبقى قمة تكريمهم في قوله ﷺ : « وإنه لا يؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض ، على بنى مالك أميرهم ، وعلى الأحلاف أميرهم » .

(٢)

عهد الرسول لعمر بن حزم

حين بعثه إلى اليمن

لقيت اليمن من عناية رسول الله وكرمه أكثر مما لقيه بلد آخر من بلدان الجزيرة ، فقد آثرهم بالعديد من خيرة صحابته رضي الله عنهم بعث إليهم على بن أبي طالب ، وبعث إليهم معاذ بن جبل ، وبعث إليهم خالد بن الوليد ، كل يؤدى للإسلام بين ظهرائهم رسالة رفيعة وتوجيهات جليلة .

حتى أهل الكتاب من أهل اليمن لم يتوان رسول الله عن استقبالهم في المدينة ، والأمر بإعداد المأوى المريح ، والإقامة الكريمة ، ثم الجدل بالحسنى ، وأمرهم أن يعودوا محافظين على دينهم في سماحة وتكريم .

وأما بنو الحارث بن كعب الذين يخصهم هذا العهد الشريف فهم من أهل نجران وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر سنة عشر ، وقيل : في جمادى الأولى ، فأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا ، فإن استجابوا قبل إسلامهم ، وإن لم يفعلوا قاتلهم . وكانوا أولى عزم وبسالة في القتال ، غير أنهم ما كادوا يسمعون رجال خالد يدعوهم إلى الإسلام حتى أجابوا ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، وكتب خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله التوجيه ، فأجابه رسول الله بأن طلب إليه العودة إلى المدينة ، وأن يستصحب معه وفدهم ، فأقبل خالد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب ، منهم قيس ابن الحصين ذو الغصة ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن المحجل ، وعبد الله بن قراد الزيادى ، وشداد بن عبد الله الفناني ، وعمر بن عبد الله الضبابي .

وحين شرفوا بلقاء الرسول صلى الله عليه وسلم أجرى معهم حوارا سماته الجدة وشيء من الخشونة ؛

لأنهم - فيما يبدو - كانوا قد تأخروا عن الدخول في دين الله وقاوموا الدعوة أول عهدهم بها .

يقول ابن هشام : (١) .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم ، قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل : يارسول الله ، هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب ؛ فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه ، وقالوا : نشهد أنك رسولُ الله ، وأنه لا إله إلا الله ؛ قال رسول الله ﷺ : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا؟ فسكتوا ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الثانية ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الرابعة ، فقال يزيد بن عبد المَدان : نعم ، يارسول الله ، نحن الذين إذا زُجروا استقدموا ، قَالهَا أَرْبَع مَرَارٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لو أن خالداً لم يكتب إلى أنكم أسلمتم ولم تُقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم ؛ فقال يزيد بن عبد المَدان : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا ، قال : فمن حمدتُم ؟ قالوا : حمدنا الله - عز وجل - الذى هدانا بك يارسول الله ؛ قال : صدقتم . ثم قال رسول الله ﷺ : بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحدا ؛ قال : بلى ، قد كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم ؛ قالوا : كنا نغلب مَنْ قاتلنا يا رسول الله إنا كنا نجتمع ولا نفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ؛ قال : صدقتم وأمر رسول الله ﷺ على بنى الحارث بن كعب قيس بن الحُصَيْن .

فرجع وفدُ بنى الحارث إلى قومهم في بقية من شوال ، أو في صدر ذى القعدة ، فلم يمكنوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر ، حتى تُوفى رسول الله ﷺ ورحم وبارك ، ورضى وأنعم .

لقد نصَّب رسول الله على بنى الحارث بن كعب واحدا منهم مثلما فعل الصنيع نفسه مع ثقيف ، وتلك قمة الكياسة ولب السياسة ، ثم أرسل معهم الصحابى

(١) السيرة ٥٩٤/٢ وما بعدها .

الجليل عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم معالم الإسلام وسنة رسول الله ،
ويأخذ صدقاتهم ، وزوده بهذا العهد :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هذا بيان من الله ورسوله ، يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، عهد من محمد النبي
رسول الله لعمرو بن حزم ، حين بعثه إلى اليمن ، أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن
الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله ، وأن يبشر
الناس بالخير ، ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم فيه ، وينهى الناس ،
فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر ، ويخبر الناس بالذي لهم ، والذي عليهم ،
ويلين للناس في الحق ، ويشدد عليهم في الظلم ، فإن الله كره الظلم ، ونهى عنه ،
فقال : « أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » ، ويبشر الناس بالجنة وبعملها ، ويُنذِر الناس
النار وعملها ، ويستألف الناس حتى يفقهوا في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج
وسنته وفريضته ، وما أمر الله به ، والحج الأكبر : الحج الأكبر ، والحج الأصغر : هو
العُمرة ؛ وينهى الناس أن يصلي أحدًا في ثوب واحد صغير ، إلا أن يكون ثوبا يثنى
طرفيه على عاتقيه ؛ وينهى الناس أن يحتبى أحد في ثوب واحد يُفضى بفرجه إلى
السماء ، وينهى أن يعقص أحد شعر رأسه في قفاه ، وينهى إذا كان بين الناس هَيْج
عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له ،
فمن لم يدع إلى الله ، ودعا إلى القبائل والعشائر فَلْيُقَظَّفُوا بالسيف ، حتى تكون
دعواهم إلى الله وحده لا شريك له ، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى
المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحون براءوسهم كما أمرهم الله ، وأمر بالصلاة
لوقتها ، وإتمام الركوع والسجود والخشوع ، ويُغَلَّس بالصبح ، ويهجر بالهاجرة حين
تميل الشمس ، وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة ، والمغرب حين يقبل الليل ،
لا يؤخر حتى تبدو النجوم في السماء ، والعشاء أول الليل ؛ وأمر بالسعى إلى الجمعة إذا
نودى بها والغسل عند الرواح إليها ؛ وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله ؛ وما كتبت على

المؤمنين من الصدقة من العَقَارِ عَشْرُ ما سَقَّت العَيْن وسَقَّت السماء ، وعلى ماسقَى الغرب(*) نصف العُشْر ؛ وفي كَلِّ عَشْر من الإبل شاتان ، وفي كل عشرين أربع شياه ، وفي كل أربعين من البقر بقرة ، وفي كَلِّ ثلاثين من البقر تبيع ، جَدَعٌ أو جَدَعَةٌ ، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة ، فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ؛ وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصا من نفسه ، ودان بدين الإسلام ، فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يُرَدُّ عنها ، وعلى كَلِّ حالم : ذكر أو أنثى ، حُرٌّ أو عبد ، دينارٌ وافرٌ أو عَوْضُهُ ثيابا .

فمن أدَّى ذلك ، فإن له ذمَّة الله وذمَّة رسوله ، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا ، صلوات الله على محمد ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

وهذا العهد الذى أخذه ﷺ لعمر بن حزم من دقة الصوغ والاشتمال على توجيهات رسول الله ﷺ ما يجعله أهلا لأن يصدر عن أفصح الفصحاء الذى لا ينطق عن الهوى ، فما أجمل وما أجل أن يصدر العهد بالقول الكريم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ثم ترى بعد ذلك التوجيهات النبوية فيضا يغمر النفوس بالإيمان ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ويتضمن العهد توجيهات بدبعة التسلسل ، استهلالها أن يبشر بالخير ويأمر به ، ثم تعليم القرآن الكريم الذى هو مفتاح التوحيد ، وأن يلين فى الحق ، ويشدد إذا ظلموا ، ويبشر بالجنة وينذر بالنار ، وأن يتألف قلوب الناس حتى يقبلوا عليه فيحسنوا الأخذ منه ، ثم يبصرهم بأمور دينهم من صلاة وحج وقيام ، وأن يعلمهم الطهارة والوضوء والصلاة ومواقيتها ، وألا ينسوا الجمعة وصلاتها والتطهر قبل الذهاب إليها ، ثم يفصل لهم الزكاة والصدقات تفصيلا لا يحتاج بعده إلى شرح أو بيان .

(*) الغرب : الدلو العظيم .

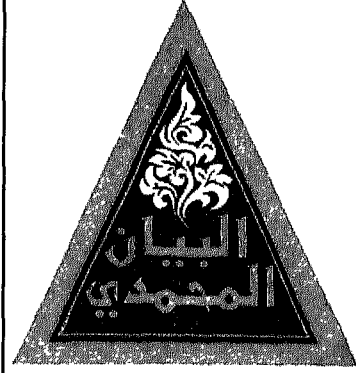
لقد كان هذا العهد من أواخر العهود التي صدرت عن رسول الله ﷺ إن لم يكن آخرها ، وفيه يبدو تمام الدين وكماله ، فقبل ذلك بعشرة شهور كان قد نزل قول الله عز وجل :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾



خطب الرسول ﷺ

- الفصل الأول : الخطابة قبل الإسلام .
- الفصل الثاني : خطب الدعوة إلى الله .
- الفصل الثالث : في فتح مكة وبعض الغزوات .
- الفصل الرابع : حجة الوداع وخطبة الوداع .



الفصل الأول

الخطابة قبل الإسلام

الخطابة العربية قبل الإسلام

كانت الخطابة عند العرب قبل الإسلام متألفة مستتمة أسباب البلاغة كاملة عناصر الفصاحة ، وكان للخطيب مكانة ربما رجحت مكانة الشاعر ، ذلك أن الخطيب يرتجل خطبته على السليقة وهو مستعد دائما لارتقاء المنابر ونثر درر الكلام وفيض الفكر، بينما يحتاج الشاعر إلى تحبير وإعداد .

وكانت الخطابة متنوعة الأسباب متعددة الأغراض ، وكانت أكثر موضوعاتها هي موضوعات الشعر نفسه ، مثل المدح والذم للأشياء والقضايا ، والمفاخرة ، والمنافرة ، والمجادلة والنصح ، وإشعال الحروب ، واستثارة الهمم ، ودفع العزائم والتحكيم في الخصومات واحتمال الديات ، ورعاية الجار ، كما كانت للخطابة موضوعات أخرى كالوفود على الملوك والأمراء المجاورين ، والسفارات ، مثل وفود قس بن ساعدة على قيصر . ووفود قيس بن رفاعة على النعمان بن المنذر في الحيرة ، وعلى الحارث بن أبي شمر في جلق ، ووفود أبي سفيان على كسرى ، ثم وفوده على قيصر وما جرى بينهما من حوار حول رسالة محمد ﷺ الذي انتهى بأن تنبأ قيصر بانتصار رسالة الإسلام طبقا لما أشرنا إليه في موضع سابق من هذا الكتاب ، وقد كانت هناك أيضا خطب يلقيها الخطباء في مناسبات الزواج .

ومن مشاهير خطباء العرب في الجاهلية قس بن ساعدة الإدياي الذي يصفه الجاحظ بأنه من الشعراء الخطباء الأبيناء ، كما وصفه بأنه خطيب العرب قاطبة (١) ، وكعب بن لؤى الذي أرخ العرب بموته إلى أن جاء عام الفيل فأرخوا به ، وقيس بن سنان خطيب داحس والغبراء ، وخويلد بن عمر الغطفاني خطيب يوم الفجار ، وأبو طالب عم رسول الله ﷺ .

(١) البيان والتبيين / ١ / ٥٢ .

فأما قس بن ساعدة فلقد شرفه رسول الله ﷺ بذكره والثناء عليه فقال : « رأيتَه بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » .

وهو القائل : « آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبرّ وأثام ، لباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ؟ أم حبسوا فناموا ؟ » .

وهو القائل : « يا معشر إباد ، أين تمود وعاد ؟ أين الآباء والأجداد ؟ أين المعروف الذى لم يشكر ؟ والظلم الذى لم ينكر ؟ أقسم قسّ قسما بالله إن الله دينا هو أرضى من دينكم هذا » (١) .

ومن مشاهير الخطباء الجاهليين الذين أدركهم الإسلام فآمنوا سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وهو الذى تولى أمر الصلح بالحديبية ، وكان عمر بن الخطاب قد طلب أن ينزع ثنبيه السفليين حتى يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيبا بعد ذلك على رسول الله ، ولكنه أسلم وكان من المؤلفّة قلوبهم .

ومن مآثر رسول الله ﷺ فى شأن سهيل أن عمر بن الخطاب حين استأذن رسول الله ﷺ فى أن ينزع ثنبيه أجابه الرسول : دعها فلعلها تسرك يوما ، فلما مات النبى ﷺ قام سهيل بن عمرو فقال : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » (٢) .

ومنهم عمرو بن الأهمتم أحد وفد تميم على رسول الله فى عام الوفود ، وهو الذى أعجب رسول الله ﷺ بنصاعة بيانه حين سأله عن الزبرقان بن بدر ، وهما ممن نادوا الرسول الكريم من وراء الحجرات ، وخبر ذلك قصة لطيفة يسمح المجال هنا بذكرها ، فقد سأل الرسول ﷺ عمرو بن الأهمتم عن الزبرقان بن بدر - وكانا ماثلين فى حضرة

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٨ ، وقد نسب آخرون هذا القول لأبى بكر .

الرسول- فقال عمرو : « مانع لحوزته ، مطاع في أدنيه » فقال الزبرقان غاضبا : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي » فقال عمرو : « أما إن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر المروءة - يعنى قليلها - لثيم الخال ، حديث الغنى ، فلما رأى - يعنى عمرو - أنه خالف قوله الآخر قولة الأول ورأى الإنكار في عيني رسول الله ، قال : يا رسول الله : رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة . فقال رسول الله ﷺ : « إن من البيان السحرا » .

إن الجاحظ ينسب إلى كل من إياد - قبيلة قس بن ساعدة - وتميم - قبيلة - عمرو بن الأهم - أن لهما في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس ، ولأنه ﷺ علق على كلام عمرو بن الأهم بقوله الشريف : « إن من البيان لسحرا » وفي مكان آخر من كتابه يقول الجاحظ : فهاتان الخصلتان خصت بهما إياد وتميم دون جميع القبائل (١) .

لقد كان النبوغ في الخطابة مصدرا من مصادر شرف القبائل يتغنى به شعراؤها في مفاخرهم ، مثل قول قيس بن عاصم المنقري يذكر محاسن قومه في الخطابة ، وبنو منقر بطن من تميم (٢) .

| | |
|----------------------------------|------------------------|
| دَسَسْ يَفْنَدُهُ وَلَا أَفْنُنُ | إني امرؤ لا يعترى خلقي |
| الأصلُ يَنْبِت حوله الغُصْنُ | من منقر في بيت مكرمة |
| بيض الوجوه مصاععُ لُسُنُ | خطباء حين يقوم قائلهم |
| وهم لحفظ جوارهم فُطُنُ | لا يفطنون لعيب جارهم |

وكان حسان بن ثابت يفخر بالبلاغة في الخطابة بخاله مسلمة بن مخلد الصامت ، وبجده المنذر بن حرام ، في قوله : (٣)

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٢) عيون الأخبار ١ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٣) الديوان : القصيدة رقم ٥ .

إن خالى خطيب جابية الجو لان عند النعمان حين يقوم
وأبى فى سميحة القائل الفا صل يوم التفت عليه الخصوم (*)

وإذا كانت خطبة قس بن ساعدة قد عُدَّت أشهر خطب الجاهلية ، فإن المبرد يعد خطبة أبى طالب عم رسول الله ﷺ يوم عقد قران رسول الله على أم المؤمنين خديجة من أقصر خطب الجاهلية (١) ، وسبب ذلك أن العرب كانوا يطيلون حين يخطبون فى مناسبات الزواج . يقول الخريمى الشاعر الأديب البلاغى الناقد : والسنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب (٢) .

وإن خطب النكاح تعد من أصعب الخطب ، ومن ثم لم يكن يتقنها إلا الخطباء . البلغاء ذوو الحدق والفصاحة ، وكان عمر بن الخطاب - على فصاحته وتذوقه لجميل الكلام - يقول : ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح (٣) مما يعنى أن خطبة النكاح تشق على الخطيب ، ويصعب إنشاؤها على البلغاء ، وبرغم ذلك الذى ذكر عن صعوبة هذا النوع من الخطب نجد أن أبى طالب قد أنشأ خطبته فى مناسبة شريفة فى غير ما سرف فى القول أو مبالغة فى الكلام ، ودبجها فى ثوب من أناقة التعبير وسداد الحكمة ، ونصاعة البيان .

ولعل من الخير أن نختم تناولنا المقتضب للخطابة فى الجاهلية بهذه الخطبة البليغة الهاشمية القرشية ، وفيها يقول أبو طالب :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما
وبينا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ؛ ثم إن محمد بن عبد الله - ابن أخى - من لا
يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن

(*) النعمان : هو النعمان بن الحارث الغسانى . سميحة : بئر بالمدينة احتكم عندها الأوس والخزرج إلى المنذر بن حرام .

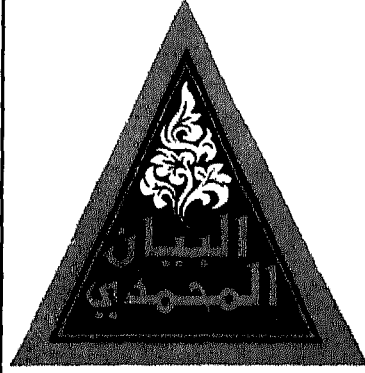
(١) الكامل ٤ / ٤ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ١ / ١١٨ .

كان في المال قَلٌّ ، فإنما المال ظل زائل ، وعاريّة مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتكم من الصداق فعلىّ .

إن البلاغة العفوية واضحة المعالم في الخطبة من أولها إلى آخرها ، وإن محمدا الشاب الذي لم يكن قد تجاوز نصف عقد العشرينيات من عمره المبارك قد صورته عمه أدق صورة وأصدقها في سجع عفوى في كلمات « الفضل » و « العقل » و « النبل » فضلا عن أن صفات الفضل فيه جاءت مقرونة بالبر ، والعقل مقرونا بالكرم ، والنبل مقرونا بالوجد ، ومن ثم فهو يرجح جميع فتیان قريش وسائر شبابها ، لقد عدد أبو طالب كل هذه المحامد في سطور معدودة ، ولكنها على قصرها فاقت مثيلاتها من خطب النكاح الطوال .



الفصل الثاني

خطب الدعوة إلى الله

خطابة رسول الله في الدعوة إلى الله

رسول الله ﷺ هو أبلغ العرب وأفصح قريش ، تتثال المعانى الرفيعة من فمه الكريم انثيال السيل ، لا يدانيه في ذلك قائل ، ولا يباريه خطيب وهو هكذا في كل حالاته ، سواء أقال كلاما مرسلا أم اعتلى منبرا للخطابة ، أم حاور محدثيه ، أم أملى مستكثيه .

وبلاغة رسول ﷺ جاءت وراثته واكتسابا ، وراثته من بلاغة بنى هاشم في قريش ، واكتسابا من بنى سعد الذين استرضع في باديتهم ، وما زاد فضله في البيان أنه علم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، ولذلك كان ﷺ يقول : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت في بنى سعد » وقد سأله يوما أبو بكر عن سر فصاحته بقوله : ما رأينا الذى هو أفصح منك . فأجاب ﷺ قائلا : « وما يمنعنى وقد نزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبین » .

يقول ابن قتيبة في صفة خطب رسول الله ﷺ : تتبععت خطب رسول الله ﷺ فوجدت أوائل أكثرها « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

ويمضى ابن قتيبة في صفة خطب رسول الله ﷺ قائلا : ووجدت في بعضها : «أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العيد فإن مفتاحها التكبير ، وتكبير الإمام قبل أن ينزل عن المنبر أربع عشرة تكبيرة» (١) .

(١) عيون الأخبار ٢ / ٢٣١ .

وأما صفته ﷺ حين يخطب فكان طبقاً لرواية جابر بن عبد الله : « إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه نذير جيش يقول : صباحكم ومساءكم ، ثم يقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويفرق بين أصبعيه السبابة والوسطى» (١).

وكان ﷺ ينفر من الكلام الذى يتسم بالتصنع ، ولا يرتاح إلى السجع الذى يجافى الطبع . ويؤذى السمع ، وقد ضاق ذرعاً - على الرغم من حلمه الواسع - برجل قال كلاماً يستغرب فيه دية حكم بها رسول الله لأمراة ضربتها ضرتهما وكانت حاملاً فأسقطت جنينها ، وكان الرجل - واسمه العلاء بن مسروح - وكان أخاً للمرأة الضاربة . قال ابن مسروح للرسول ﷺ : يا رسول الله : كيف ندى - أى : ندفع دية - من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهّل ، فمثل هذا يطلّ ؟! فقال - عليه السلام - : «أسجعا كسجع الجاهلية ؟» وفى رواية : «أسجعا كسجع الكهان ؟»

من البداهة بمكان أن قوله ﷺ لا يفيد باستكراه السجع ؛ لأن السجع ضرب من القول الجميل يزين الكلام ، ويريح الأسماع ، وكلامه ﷺ فيه سجع كثير جميل ، مثل قوله : «أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس ينام . تدخلوا الجنة بسلام» وإنما قصد الرسول بسجع الجاهلية أو سجع الكهان ذلك الكلام المتنافر الثقيل على الذوق والسمع وإن اتشح بقوالب السجع والتزم فواصله .

كانت موضوعات خطب رسول الله ﷺ هى كل ما يتعلق بالإسلام نفسه ، وأولها الدعوة إلى الله ، ثم التربية والتنبيه ، والوعظ وغرس التقوى فى نفوس العباد ، والتذكير بمضى الأجل وبزوال الدنيا وحتمية الموت وانتظار الآخرة ، وذكر الفرائض والعبادات والمحافظة عليها ، وحب الله ، وحب القرآن ، وحب الناس بعضهم بعضاً ، وخطبه فى الأيام العظام مثل دخوله المدينة ، وفتح تبوك ، وفتح مكة ، وعند المشاعر ، وخطبة الوداع التى ضمنها وأكد فيها على الحلال والحرام ، وإصدار الأحكام .

(١) أمثال الحديث للرامهرمزي ص : ١٩ .

الدعوة إلى الله :

لقد أثر عن رسول الله ﷺ كثير من الخطب في هذا المقام اتسمت بالقصر ، واختصت بالعمق والتركيز ، وتميزت بالتدرج في مضامينها .

كانت أولى هذه الخطب يوم أن نزل عليه قوله تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (١).

فقال : « يا معشر قريش : اشترؤا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد المطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمه رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » البخاري . ٤٠٨ / ٨ ، ومسلم ١ / ١٣٢ .

ولأن هذه الخطبة هي أولى خطبه ﷺ فقد عمد فيها إلى الخطاب المباشر موجها إياه إلى عشيرته الأقربين من قريش ، بادئا بالأعم ومنتھيا بالأخص ، وبالبعيد من العشيرة ، وينتهي بالقرب ، إنه ﷺ يبدأ بقريش على عمومها ، ثم بعمه العباس ، وعمته صفية ، وينتهي بالتول فاطمة صغرى بناته ، وأقربهن إلى قلبه ، وأشبههن به خلقا وخلقا ، يحذرهم جميعا بأبلغ عبارة ، وبأعمق ما يحذر به المرء امرأ آخر أثيرا لديه ، مرددا ذلك التحذير البليغ « لا أغني عنك من الله شيئا » إنها دعوة الإيمان بالله التي تنجي من عذاب الآخرة وعقابها ، وتحض على صلاح الدنيا وعمرانها .

وتستمر استجابته ﷺ للأمر الإلهي ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فيوسع دائرة النداء من إنذار أقرب الأقربين إلى الأقربين من بطون قريش ، وإذا كان النداء في الخطبة السابقة قد بدأ بالأقرب وهم قريش ، ثم بالأشد قربا وهما العم والعممة ، ثم بالأصق به ﷺ وهي فاطمة ، فإن النداء هذه المرة يبدأ بالأقرب من العشيرة ، ثم

(١) الشعراء ، الآية : ٢١٤ .

بالقريب البعيد، ثم بالقرب الأكثر بعدا ، وهم على الترتيب بنو عبد المطلب ثم بنو فهر ، ثم بنو كعب ، لقد صعد النبي ﷺ هذه المرة جبل الصفا ثم نادى :

« يا صباحاه : فاجتمع الناس عليه ، فقال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى كعب ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم . أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » البداية والنهاية ٣ / ٣٨ .

إنه لما كانت قريش تثق في صدقه ﷺ وأمانته حتى إنها لقبته بالأمين ، فقد جعل الرسول مدخله في توجيه الإنذار إليهم من هذا الباب المأمون ، إذ قد امتحن إيمانهم بصدقه ، فلما أجابوا بنعم ، قال على الفور : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . ولأول مرة يذكر التحذير مقرونا بالعذاب ، وكان قبل ذلك في الخطبة السابقة مجرد تحذير لأهله الأقربين بأنه لا يغنى عنهم من الله شيئا .

ثم كانت بعد ذلك الخطبة الثالثة ، خطبة المواجهة الصريحة ، والمكاشفة الواضحة ، والدعوة الفاصلة .

لقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبتُ الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم .

والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة .

والله لَتَمُوتُنَّ كما تنامون ، ولَتُبَعَثُنَّ كما تستيقظون ، ولَتُحَاسَبُنَّ بما تعملون ، ولَتُجْزَوْنَ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا .
وإنها الجنةُ أبداً ، أو لنازٌ أبداً » .

إن الشأن في هذه الخطبة يختلف عنه في سابقتها ، لقد بدأ ﷺ في الأولى موجها الإنذار بادئا بالأعم ومنتهيا بأخص الأخص وهي ابنته فاطمة البتول التي وضعها في موقف أبوة حانية بأنها بضعة منه « فاطمة بضعة مني » محذرا إياها بأنه - برغم

كرامته على الله - لا يغنى عنها منه شيئاً ، وينسحب هذا التحذير تلقائياً على الآخرين .
وفي الخطبة الثانية كان خطابه ﷺ موجهاً إلى الأخص ثم الأعم ، مع إنذار شديد
الاعتصاب ، ولكنه مخيف لأنه تحذير بشديد العذاب .

أما هذه الخطبة فإنها تتميز بالمحتوى الزاخر ، والإيجاز البليغ ، والإعجاز المبهر ،
لقد انطلقت الخطبة من فمه الشريف حاملة أربعة عناصر ، يتلو الواحد منها الآخر ،
بفصحة كلها عن جوهر الرسالة السماوية التي أنيط بمحمد ﷺ أمانة إبلاغها للعشيرة
الأقربين في إطار من الإنذار الذي أهّل محمداً ﷺ للتبليغ به بالصيغة التي يراها مجدية
مثمرة .

كان العنصر الأول هو ذلك المدخل المتسم بالنقاء الذي يحمل سمات الحب
والتحجب إلى قومه ، واجتذاب مزيد من ثقتهم بما يقول ، وما أنفس ما يقول . « والله لو
كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم » .

ثم كان العنصر الثاني وهو التالي من حيث المنطق والعفوية متمثلاً في الإبلاغ
الصريح بالرسالة « والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس
كافة » .

ثم أطلق الرسول ﷺ العنصر الثالث بما يشبه الصدمة المنبهة من الغفلة ، المفيقة من
الضلال بحديث الموت المحتم ، والبعث ثم الحساب ، والثواب والعقاب .

ثم كان العنصر الرابع وهو الحاسم القاطع بأن المصير هو الخلود في الجنة
للمستجيبين ، والخلود في النار للمنكرين .

بعد هذه الخطبة بدأ الرسول ﷺ طريق الكفاح في سبيل الدعوة ، مواجهها من
الإنكار والاضطهاد ما تعجز عن تحمله كواهل ذوى العزم من الرجال ، فلم يستسلم
ولم تفتر له عزيمة ، ولم تَلُنْ له قناة حتى كان نصر الله .

الوعظ والتربية والتوجيه :

كان رسول الله ﷺ معلم هذه الأمة الإسلامية ، والآخذ بيدها إلى مسالك الهدى

والنور ، وواضعها على المحجة البيضاء ، الأمر بإذن من الله باتباع المعروف والنهي عن المنكر ، المبين لشريعة الله ، الشارح لكتاب الله ، المظهر للأحكام ، الموضح للعبادات، الفاصل في المشكلات ، وحلال المعضلات ، القدوة للناس من شيوخ وشباب وذكور وإناث ، فكانت مدرسة محمد من صنع يده . وجماعة الإيثار من غرس يديه .

لقد كان ذلك كله حصاد أقواله المرسله ، وخطبه الأسرة ، وأفعاله المقررة ، ولقد حملت خطبه ﷺ قدرا كبيرا من هذه الأغراض ، وكان للوعظ والتوجيه والتربية القسط الأكبر والنصيب الأوفى ، فمن هذا الطراز هذه الخطبة الشاملة التي يذكر فيها رسول الله سائر الناس بالموت وحقيقته وخلفاته ، والانشغال بعيب المرء عن عيوب الناس ، وبال دعوة إلى الكسب الحلال ، ومجالسة أهل العلم ، ومخالطة الفقراء والمساكين ، وإنفاق الفضل من المال ، وإمساك الفضل من القول ، والتزام السنة ، واجتناب البدعة .

لقد طرق رسول الله ﷺ هذه الموضوعات في خطبة شهيرة ، تتسابق معانيها إلى القلوب فتفتحهما في رضى ويسر ، وتتراكض أحكامها لتصافح الأسجاع بأرق أسلوب ، وأدق معنى ، وأصدق قول . وأنصح بيان . قال ﷺ : (١)

« أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيخ من الأموات سَفَرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ونأكل من ترائهم ، كأنا مخلصون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمينا كل جائحة .

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريره ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعتة الشئنة ، ولم تستهوه البدعة » (*).

(١) صبح الأعمى ١ / ٢١٣ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٢ ، وأعلام النبوة ١٦٧ .

(* الجائحة : الهلاك . طوبى : مؤنت أطيّب ، ومن معانيها : الحسنى والخير ، وشجرة في الجنة ، والجنة .

وفي الغرض السابق ، والحض على التعامل مع الحياة كأنسب ما يكون التعامل التنبيه إلى أن الأيام تطوى ، والأعمار تبنى ، مما يدفع بالرجل الحصيف أن يكثر من الأعمال الباقيات الصالحات ، وينأى بنفسه عن الشهوات ، فالعمر سريع المضي ، والموت وشيك القدوم ، فمن أقواله ﷺ في هذا المقام ما قاله في إحدى خطبه (١).

« ألا إن الأيام تطوى ، والأعمار تبنى ، والأبدان في الثرى تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكمان تراكم البريد ، يقربان كل بعيد ، ويخلفان كل جديد ، وفي ذلك - عباد الله - ما ألهى عن الشهوات ، ورغب في الباقيات الصالحات » .

ولما كانت الحياة والموت هما محور عناية رسول الله ﷺ في التوجيه والتنبيه والتحذير؛ لأن الدنيا دار الفناء ، والحياة فيها محدودة ، والآخرة هي دار البقاء ، والحياة فيها مخلدة ، ولما كان زاد الآخرة محمولا من الدنيا قبل الموت ، وحصاده في الدار الآخرة ، وفيها يكون الأجر والثواب على الإحسان ، والمساءلة والعقاب على الإساءة والكفران ، فإن الرسول ﷺ إشفاقا منه على المسلمين ، وخشية منه عليهم من عذاب أليم قد طرق هذا الموضوع مرات عديدة ، وها نحن نستعرض خطبة أخرى له ﷺ بدأها فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (٢):

« أيها الناس : إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار » (*) .

وفي التحذير من الدنيا يخطب ﷺ خطبة أخرى طويلة ، يقول عنها الصحابي أبو سعيد الخدري - رضى الله عنه - : إنه ﷺ بدأها بعد العصر ، وظل على منبره ماضيا في

(١) أعلام النبوة ص : ١٦٧ وأدب الدنيا والدين ، ص ١٤٩ .

(٢) عيون الأخبار ، كتاب العلم والبيان ٢ / ٢٣١ وأدب الدنيا والدين ص : ١٥٣ والبيان والتبيين ١ / ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(*) المعالم : مفردا معلم ، وهو الأثر يستدل به على الطريق .

والمراد : حدود الشريعة المطهرة . استعته : أعطاه العتي ، وطلب إليه العتي ، وهى الرضا والصفح .

وعظ الصحابة وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم حتى أوشكت الشمس على المغرب ،
وفي هذه الخطبة يحذّر الرسول الناس من الاعتزاز بالدنيا ؛ لأن الله استخلفهم فيها ،
ويحذّره من كيد النساء ، ويحضهم على قول الحق إذا علمه الفرد غير آبه بالناس أو
خيفة منهم .

وتعد هذه الخطبة التي لم يصل منها إلينا إلا بضعة سطور من أطول خطب النبي ،
بل لعلها أطولها جميعا ، ثم يليها في الطول خطبة الوداع ؛ ذلك لأن خطبه ﷺ اتسمت
بالقصر ، بل إنه قد ذكر بين شأئله ﷺ أنه كان يقصر الخطب ، بل كان يأمر بقصرها
، وهو ما يتضح من أحجام خطبه ﷺ التي نعرضها في هذا الباب ، فإن عمار ابن ياسر
قد تكلم يوما - يعنى خطب - فأوجز ، فقليل له : لو زدتنا ؟ فقال : أمرنا رسول الله ﷺ
بإطالة الصلاة وقصر الخطب (١) .

روى الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري خبر هذه الخطبة فيقول :

خطب رسول الله ﷺ بعد العصر ، فقال : (٢)

« أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ؛ أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَنَظَرْتُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ :
فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ .

أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا خَافَةَ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ » .

قال : ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ؛
فقال :

« إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى ، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى » .

خطبه في حب الله وحب القرآن وحب الناس بعضهم بعضا :

لرسول الله ﷺ العديد من الأحاديث في حب المؤمنين بعضهم بعضا ، وفي أحاديث
المحبة عند رسول الله ﷺ ترغيب وترهيب ، وإغراء وتخويف ، ترغيب في حب الناس

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٠٣ .

(٢) عن إعجاز القرآن للباقلاني ، ص : ١٣٤ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٤ .

وإغراء به ، وترهيب لمن عزف من محبة المؤمنين وتخويف من ذلك ، فمن ذلك قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ويقول ﷺ : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »
هكذا يربط رسول الله ﷺ المحبة بالإيمان ، فلا إيمان بغير الحب .

ويقول أيضا : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » .

وشبيه بالحديث السابق قوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

وعن حب الله وحب الرسول يروى أنس - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار »

هذه المعاني في الحب مثلما جاءت مروية في أحاديث الصادق المصدوق ﷺ فقد جاءت أيضا في خطبه ، والحب في هذه الخطبة هو حب الله الذى أحسن كل شيء خلقه ، وحب كتاب الله الذى هو أحسن الحديث ، وحب من أحب الله ، ومن المسلم به أن أول من يحبهم الله هو رسوله وحبيبه ومصطفاه ﷺ ثم سائر المؤمنين . يقول النبي ﷺ : (١)

« إن الحمد لله ، أحمدده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ؛

(١) الباقلانى ص : ١٣ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٣ .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينته الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه .

أحبوا من أحب الله ، وأحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقسو عليه قلوبكم . اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا .

اتقوا الله حق تقاته ، وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله . «

إن المرء ليحسّ وهو يستمع إلى خطب رسول الله ﷺ سائرهما - وإلى هذه الخطبة على وجه الخصوص - بسهولة الأسلوب ويسره وطهره ونقاؤه ، ووضاعته وبهائه ، وجماله وعدووته ، وفيضه وتدقيقه ، وانسرابه إلى مواقع القبول من قلوب المؤمنين انسرابا جميلا ؛ ذلك لأنها خطبة توجه المؤمنين إلى حب الله ، وحب كتابه ، وحب رسوله ، وحب المؤمنين بعضهم بعضا .

أول خطبة جمعة في المدينة :

المدينة المنورة كانت تسمى قبل هجرة الرسول إليها يثرب ، وكان أهلها أسبق أهل الحجاز إلى الإسلام ، وقد بايعوا رسول الله ﷺ بيعتين قبل أن يهاجر إليهم ، فلما أن أُذِن له ﷺ بالهجرة ، وكان من أمر أخبارها ما هو معروف ، كان أول منزله في « قباء » وهي ضاحية المدينة جنوبا ، تريت رسول الله فيها بعض الوقت عند بنى عمرو بن عوف وإبنتى مسجدها . وكان الرسول ﷺ يشهد البناء ويستمع إلى عبدالله بن رواحة وهو ينشد مرتجزا : أفلح من يعمر المساجدا .

فيقول رسول الله : المساجدا .

فقال عبدالله : ويقرأ القرآن قائما وقاعدا .

فيقول رسول الله : وقاعدا .

فقال عبدالله : ولا يبيت الليل عنه راقدا .

فيقول رسول الله : راقدا .

وهو تقليد يحمل تحية للشاعر أو المنشد أن يردد المستمع اللفظ الأخير من البيت الذى يمثل القافية ، ولا يزال هذا التقليد الجميل معمولا به حتى الآن فى حلقات الشعر فى إمارات ساحل عمان . إنه تقليد نبوى كريم لتحية الشعراء الجادين .

ولما أن عزم رسول الله ﷺ على دخول المدينة أرسل إلى أخواله من بنى النجار - وهم أخوال جده عبد المطلب - فجاءوا متقلدين السيوف ، وقالوا لرسول الله وأصحابه : « اركبوا آمنين مطاعين » وكان يوم جمعة ، فركب الرسول ﷺ ناقته « القصواء » والناس من حوله ، وكان استقبال الناس له عند ثنية الوداع ترحيبا بالطبول والأنشيد ، وقد روت السيدة عائشة أن الأنصار استقبلوا رسول الله ﷺ يومئذ منشدين مرددين : (١)

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

كان رءوس الأوس والخزرج كل يطلب من رسول الله ﷺ النزول بديارهم بعبارات رفيعة المعانى ، ملؤها الترحيب والثناء ، والحب والإجلال ، فكان ﷺ يقول : « إني أمرت بقرية تأكل القرى ، فخلوها - أى : ناقته - فإنها مأمورة » .

إنه بقدر ما كان أعيان المدينة وشيوخها سعداء بمقدم سيد الخلق ورسول رب العالمين إلى بلدهم ، كان عبدالله بن أبي بن سلول أشقى الناس وأتعسهم ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يكرمه وينزل عنده ضيفا عليه ، ولكن ابن سلول يحرم نفسه هذا الشرف ؛ لأن نفسه مريضة ، وقلبه ملء بالحقد على رسول الله ﷺ الذى بدد مقدمه المدينة أحلام ابن سلول بالملك على الخزرج ، وأما عبدالله بن سلام - رضى الله عنه - فقد قال - طبقا لرواية يحيى بن الحسن العلوى - : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه - أى : أسرعوا - فجئت لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٨٦ .

كذاب» فكان أول شيء سمعته يتكلم به أن قال : « يا أيها الناس أفسحوا السلام ،
وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام »
ومثلما أثر عن رسول الله ﷺ ثلاث خطب يوم أوحى إليه بأن « أنذر عشيرتك
الأقربين » فقد أثر عنه ﷺ ثلاث خطب يوم الجمعة الذي وصل فيه إلى المدينة المنورة .
لقد كانت خطبه ﷺ تتسم بالقصر ، ولكن المعانى التى تحتويها والمواعظ التى
تتضمن عليها تنوع بشروحاتها ومضامينها الأسفار العديدة .

كانت خطبة الجمعة فى هذا اليوم هى الأطول والأكثر امتلاءً بالوصايا ، والأوفر
احتواءً للمواعظ ، والجمع بين دلائل الإنذار والترهيب وبين جلائل البشارات
والترغيب .

لقد روى ابن جرير الطبرى عن سعد بن عبد الرحمن الجمحى أن رسول الله ﷺ
خطب فى أول جمعة صلواها بالمدينة فى بنى سالم بن عوف فقال : (١)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُهُ وَأَسْتَهْدِيهِ ، وَأُومِنُ بِهِ وَلَا أَكْفُرُهُ ، وَأَعَادِي
مَنْ يَكْفُرُهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ، وَالنُّورِ وَالْمَوْعِظَةِ ، عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَقَلَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ ، وَضَلَالَةٍ
مِنَ النَّاسِ ، وَانْقِطَاعِ مِنَ الزَّمَانِ ، وَدُنُوٍّ مِنَ السَّاعَةِ ، وَقُرْبٍ مِنَ الْأَجْلِ ، مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ ، وَمَنْ يَعْصِيهَا فَقَدْ غَوَىٰ وَفَرَطَ وَضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا . أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ
اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مَّا أُوصِيَ بِهِ الْمُسْلِمُ الْمُسْلِمَ أَنْ يَحْضُرَهُ عَلَى الْآخِرَةِ ، وَأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرًا ، وَإِنْ تَقَوَّى اللَّهُ
لِمَنْ عَمِلَ بِهِ عَلَى وَجَلٍ وَخَافَةٍ مِنْ رَبِّهِ عَوْنٌ صِدْقٍ عَلَىٰ مَا تَبْعُونَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ، وَمَنْ
يُضِلِحِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ أَمْرِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ لَا يَتَوَىٰ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ
يَكُنْ لَهُ ذِكْرًا فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ وَدُخْرًا فِيهَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، حِينَ يَفْتَقِرُ الْمَرْءُ إِلَىٰ مَا قَدَّمَ . وَمَا كَانَ

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٢٥ وتفسير القرطبي ١٨ / ٩٨ ، ٩٩ وسبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

مما سَوَى ذلك يُوَدُّ لو أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِمُؤْمِنِيكُمْ ﴾

بِالْعِبَادِ ﴿ هُوَ الَّذِي صَدَقَ قَوْلُهُ ، وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ ، لَا خُلْفَ لَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وَأَجَلِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهُ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ، وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا . وَإِنْ تَقَوَّى اللَّهُ تَقَوَّى مَقْتَهُ وَتَوَقَّى عَقُوبَتَهُ وَتَوَقَّى سَخَطَهُ وَإِنْ تَقَوَّى اللَّهَ تَبَيَّنَّ وَجُوهُ الْمُتَرْضَى الرَّبِّ ، وَتَرَفَّعَ الدَّرَجَةُ ، فَخُذُوا بِحَظِّكُمْ ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ ، فَقَدْ عَلَّمَكُمْ كِتَابَهُ ، وَنَهَجَ لَكُمْ سَبِيلَهُ ، لِيَعْلَمَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ . فَأَحْسِنُوا كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَسَاءَ كَمُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِهِ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَتِهِ ﴾ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَاعْمَلُوا مَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يُصْلِحْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقْضِي عَلَى النَّاسِ وَلَا يَقْضُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ . اللَّهُ أَكْبَرُ . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ» .

وإنه مما يؤكد أن هذه الخطبة هي أول خطبة صلى بها النبي الجمعة ، ما ذكره ابن عباس في شأنها طبقا لرواية ابن كثير (١) .

لقد كان مجتمع المؤمنين في المدينة مشوقا إلى سماع كلام رسول الله قبل أن يؤمهم في صلاة أول جمعة يوم حل بديارهم ، ومن ثم فقد خطب أكثر من مرة في نفس اليوم ، وكانت خطبته الثالثة هي خطبة الجمعة ، وأما سابقتها فقد قيلتا في مقام التوجيه والتعليم قبل الاتجاه لأداء فريضة الجمعة التي يصليها الرسول لأول مرة ، فلم يرد ما يفيد أنه ﷺ قد صلاها قبل الهجرة .

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٢٤ ونثر الدر للآبي ١ / ٢٦٠ .

ليس من شك في أن هذه الخطبة ذات لون خاص ، وهى فى محتواها ومضامينها وعناصرها تتفق مع جلال مناسبتها ؛ لأنها أول خطبة جمعة ألقاها الرسول ، ولأن مكان إلقائها دار الهجرة يوم وصوله ﷺ إليها ، ولأن مستمعيها هم تلاميذ المدرسة المحمدية الذين قام بإعدادهم خير إعداد مصعب بن عمير مبعوث رسول الله إلى المدينة لتعليم من آمنوا القرآن الكريم بعد بيعة العقبة الثانية ، ثم بقية من أسلموا من أهل المدينة ، وكانوا يمثلون بيوتنا بأكملها .

لقد اشتملت الخطبة على ما عرف بأركان خطبة الجمعة ، من حمد الله والثناء عليه ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، مع إبانة لفضل الرسالة وزمانها .

ولقد توالى وصايا الرسول فى هذه الخطبة بتقوى الله وطاعته فى صيغ شتى تزفها البلاغة المحمدية : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا ، ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما يوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله » وينال حديث التقوى عناية كبيرة ؛ لأن تقوى الله فيها عماد الأمر كله .

ومثلما طال الحديث عن التقوى فكذلك نال الإحسان ، والجهد فى سبيل الله ، والإكثار من ذكره تعالى ، والعمل لما بعد الموت قدرا كبيرا من عناية الرسول ﷺ فى تلك الخطبة .

ولقد تفردت هذه الخطبة أيضا بالإكثار من الاستشهاد بآيات كتاب الله حتى بلغ عدد الاستشهاد فيها بالقرآن الكريم خمس مرات .

إن كثيرا من خطب رسول الله ﷺ وأحاديثه فيها استشهاد بالقرآن الكريم ، ولكن هذه الخطبة قد تميزت - بسبب مناسبتها - بكثرة المواضع التى جرى فيها الاستشهاد بكتاب الله .

ومجمل القول فى هذه الخطبة أنها كانت نبراسا للمهاجرين وللأنصار على حد سواء اهدوا فيها بنوره ، واستضاءوا بضياته ، مثلما اهدت به أجيال المسلمين بعد ذلك وإلى أبد الأبدىين بمشيئة الله .

ثمت خطبة أخرى خطبها رسول الله ﷺ في اليوم نفسه ، ولكن في غير صلاة الجمعة وهذه الخطبة شديدة القصر لا تتجاوز ستة سطور في موضوع التقوى ، وقد تضمنت القول الشريف المحفوظ في قلوب المؤمنين : « فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف » .

إنه طبقا لسليقته ﷺ يقدم الإنذار ثم يردفه بالترغيب والبشرى ، فمثلا أنه نذير ، فهو أيضا البشير الذى يدعو إلى تقوى الله ، ومع دعوته هذه يذكر بعظيم ثواب الله ، ويكرر أن الله سبحانه غافر الذنب ، قابل التوب ، وسعت رحمته كل شىء .

ثم خطب ﷺ وقد استقر به المقام خطبة ثالثة بدأها بالصيغة الشريفة المأثورة وهى حمد الله والتعوذ به من « شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينته الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

لقد استهدفت هذه الخطبة مزيدا من التوجيه النبوى الشريف ، فقد تغيات فى جماع مبانيها ومشمتمل معانيها كتاب الله حفظا وانشغالا به وإقبالا عليه ذكرا وتلاوة ، كما اشتملت بعد ذلك على مجموعة من المواعظ المحمدية تبدأ بالترغيب فى حب الله وطاعته ، وتنتهى فى دعوة المؤمنين إلى التحاب ورعاية العهود .

أول خطبة جمعة :

على أن الأمر الجدير بالاهتمام هو أن الخطبة الأولى سالفه الذكر وإن كانت أول خطبة

جمعة لرسول الله ﷺ في المدينة المنورة ، فإنها ليست أول خطبة جمعة اعتلى فيها المنبر؛ لأن الصحابي طلحة بن عبيدالله يخبر أنه سمع رسول الله ﷺ على منبره يقول :

« ألا أيها الناس : تَوَبُّوا إِلَى رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَبَادِرُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا ؛ وَصَلُّوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ ، وَكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ - تُرْزَقُوا وَتُؤَجَّرُوا وَتُنَصَّرُوا .

واعلموا أن الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامى هذا ، في عامى هذا ، في شهرى هذا ؛ إلى يوم القيامة : حياتى ومن بعد موتى - فمن تركها وله إمام - فلا يجمع الله له شمله ، ولا يبارك له في أمره ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا صدقة له ، ألا ولا بر له .

ألا ولا يؤم أعرابى مهاجراً ، ألا ولا يؤم فاجرٌ مؤمناً ، إلا أن يقهره سلطانٌ يخاف سيفه أو سوطه » .

وبذلك - فيما لو صحت الرواية - تكون هذه الخطبة هى أول خطبة جمعة خطبها رسول الله ﷺ على منبره طبقاً لرواية طلحة (١) ذلك أن رسول الله يخبر صحابته أن الله سبحانه افترض عليهم الجمعة - مثلما فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج - ولكن في يومه هذا الذى يخطبهم فيه ، وأنها ستظل فريضة عليهم إلى يوم القيامة ، ومن تركها فهو محروم من بركة الله . ولا يتقبل منه حج ولا صوم ولا صدقة ولا بر .

ولأن الخطبة بكرٌ في موضوعها فقد اشتملت على حكم حاسم في شأن طبيعتها وكونها خطبة جمعة فرضها الله عليهم ولم تكن فرضت قبل ذلك ، هذا فضلاً عن أن النبى ﷺ يحض الصحابة فيها وجمهرة المسلمين على توثيق صلتهم بالله - عز وجل - بكثرة ذكركم له - جل وعلا - وبكثرة الصدقات في السر والعلن ، وبينه ﷺ المسلمين إلى أمور تتعلق بصلاة الجماعة ، منها : ألا يؤم أعرابى مهاجراً ، وألا يؤم رجل فاجر رجلاً مؤمناً إلا في حالات القهر .

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص : ١٢٩ .

ومن خطبه ﷺ في العيد قوله ﷺ: (١)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : آمَنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ، ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿ .
﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿ .

هَذَا يَوْمٌ أَكْرَمَكُمْ اللَّهُ بِهِ وَخَصَّكُمْ ، وَجَعَلَهُ لَكُمْ عِيدًا ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ كَمَا هَدَاكُمْ لِمَا
ضَلَّ عَنْهُ غَيْرُكُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ؛ غَيْرَ أَنَّ بَيْنَهُمَا شُبُهًا مِنَ الْأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثِيرٌ
مِنَ النَّاسِ ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظَ عَرْضَهُ وَدِينَهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهَا كَانَ
كَالرَّاعِي إِلَى جَنْبِ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، فَعَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ سُخْطِهِ ،
غَفَرَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ » .

لقد تجلّى البيان المحمدي أجمل ما يكون إشراقاً في اختياره ﷺ عناصر الخطب بحيث
تكون منسجمة مع يوم العيد ، الذي هو نعمة من الله - سبحانه - حين هدى المؤمنين
إلى الرسالة الإلهية التي يشكل العيد واحداً من نفحاتها ، وهنا اهتم رسول الله ﷺ
بالحديث عن الحلال والحرام وما بينهما من شبهات ينبغي على المسلم تركها ؛ لكي
يسلم عرضه ويبرأ دينه .

(١) نثر الدر ١ / ٢٦١ .



الفصل الثالث

خطبه
صلى الله
وسلم

في فتح مكة وبعض الغزوات

خطب الرسول في فتح مكة وبعض الغزوات

خطبة رسول الله يوم فتح مكة .

كان فتح رسول الله ﷺ مكة هو النصر الأعظم الذى بشر الله به محمدا في أكثر من آية ، بل أكثر من سورة : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴾ نزلت بعد الحديبية .

هكذا بشر الله بالفتح ، وهكذا صوره القرآن الكريم غفرانا ونعمة ، وهداية ونصراً .

وفي الفتح أيضا نزلت سورة النصر ، وتسمى أيضا سورة التوديع ؛ لأنها آخر منازل من القرآن بالمدينة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ وبنزولها أيقن رسول الله بنهاية أجله ، وأنها بمثابة نعى نفسه إليه .

كانت سورة الفتح تثبيتا له ﷺ ولأصحابه في الحديبية حين قبل شروط قريش التى رأى فيها بعض الصحابة إجحافا بالمسلمين ، وكانت سورة النصر تخليدا لانتصار دين الله ، وعودة البيت الحرام إلى أيدي المسلمين حتى أبد الأبدين .

ومن الحقائق الكبرى أن صلح الحديبية الذى كان من شأنه ما ذكرنا هو نفسه السبب في فتح مكة ، وعودة الكعبة إلى الله ورسوله والمؤمنين ، بعد أن كانت قد دنست

بالأصنام منصوبة فيها ، وأوذيت بالأوثان منتشرة حولها ، وقد قيل : إن عدد أصنامها تجاوز الثلاثمائة حطمها رسول الله ﷺ يوم الفتح .

كان من شروط صلح الحديبية الذى عقد بين رسول الله ﷺ وقريش : أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل معه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ومؤمنها وكافرها . ولكن بنو بكر - حليفة قريش - نقضت العهد واعتدت على بنى كعب من خزاعة بمساعدة قريش بالمال والسلاح ، وساقوهم إلى الحرم وقتلواهم فيه ، فكان ذلك نقضا صريحا للعقد الذى أبرم بينهم وبين رسول الله ﷺ فخرج عمرو بن سالم الخزاعى ومعه بعض قومه واتجهوا إلى المدينة يطلبون العون والإغاثة من رسول الله ، ووقف عمرو أمام رسول الله وهو جالس في المسجد ، وأنشده هذه الأبيات :

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| يارب إني ناشد محمدا | حلف أبينا وأبيه الأتلدا |
| قد كنتم وُلداً وكنا والدا | نُمت أسلمنا فلم ننزع يدا |
| فانصر هداك الله نصرا أعتدا | وادع عباد الله يأتوا مددا |
| فيهم رسول الله قد تجردا | إن سيم خسفا وجهه تربدا |
| في فيلق كالبحر يجرى مزبدا | إن قريشا أخلفوك الموعدا |
| ونقضوا ميثاقك المؤكدا | وجعلوا لى في كداء رصدا |
| وزعموا أن لست أدعو أحدا | وهم أذلّ وأقلّ عددا |
| هم يبتونا « بالوتير » هُجدا | وقتلونا ركعا وسُجدا |

فانصر هداك الله نصرا أيّدا

فلما انتهى عمرو من إنشاده قال رسول الله ﷺ :

« نُصِرْتُ يا عمرو بن سالم » . وفي رواية أن رسول الله قال : « لا نُصِرْتُ إن لم أنصُرْ »

بنى كعب مما أَنْصُرُ منه نفسى . فأنشأت سحابة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذه السحابة تستهّل بنصر بنى كعب ، أبصروا أبا سفيان فإنه قادم عليكم يلتمس تجديد العهد والزيادة فى المدة . »

وكان خبر استغاثة عمرو بن سالم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تأكد لأبى سفيان ، فأسرع فى القدوم إلى المدينة ، ودخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال لها : ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ ! فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، فقال لها : والله لقد أصابك يابئنةٌ بعدى شر .

إن المرء المؤمن إذا ما خيّر بين حرمة العقيدة وحرمة البنوة ، لم يقصر فى اختيار العقيدة وترجيحها على صلة البنوة وحرمتها ، وهو ما فعلته أم المؤمنين أم حبيبة عليها السلام .

لم يبأس أبو سفيان زعيم قريش الذى كان - إلى عهد قريب - يصول ويجول فى النّيل من المسلمين وتهديدهم والتضييق عليهم فى أرضه ، فذهب يلتمس تفادى الحرب بمد مفعول الهدنة فترة زمنية أخرى فلم يفلح ، لقد طرق باب رسول الله ، ثم أتى أبابكر ، ثم عمر ، ولكن دون جدوى ، فأتى عليا وعنده فاطمة وابنها الحسن ، وكان لا يزال صغيرا ، فعجى بينه وبينهم هذا الحوار العجيب :

قال أبو سفيان : يا علىّ ، إنك أمّسّ القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لى إلى رسول الله . فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة قائلا : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت : والله ما بلغ بُنيّ ذلك ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ قال : يا أبا حسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى فقال : والله ما أعلم شيئا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ، قال أبو

سفيان : أو ترى ذلك مغنيا عنى ؟ قال : لا ، والله ما أظنه ، ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس ، إنى قد أجزت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق إلى مكة راجعا غير موفق في مهمته (١) .

أمر رسول الله ﷺ بالجهاز والاستعداد للزحف إلى مكة لفتحها ، وأعلم الناس بذلك وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتهم في بلادهم »

غير أنه من الضرورة بمكان أن نقرر أن رسول الله لم يتخذ قرار الحرب والاستعداد للغزو إلا بعد أن رفضت قريش الانصياع لشروطه التي كان بعث بها إليهم مع ضمرة ابن سعد الضمري ، خيرهم فيها بين إحدى ثلاث : أن يذوا قتلى خزاعة ، أو أن يبرأوا من حلف نفاثة ، أو ينبذ إليهم على سواء ، فلما أبوا جدد رسول الله ﷺ في الجهاز للحرب ، حتى إن أبا بكر نفسه وهو صديق رسول الله قد فوجيء بذلك حين دخل على ابنته عائشة ورأى شيئا من جهاز رسول الله ، فقال لها : أين يريد رسول الله ﷺ ؟ فقالت عائشة : تجهز فإن رسول الله ﷺ غاز قومك ، فدخل رسول الله فمكث ساعة يتحدث مع أبي بكر ثم قال : هل تجهزت يا أبا بكر ؟ قال : لماذا يارسول الله ؟ قال : لغزو قريش ، فإنهم قد غدروا ونقضوا العهد ، وإننا غازون إن شاء الله . وأذن في الناس بالغزو .

هنا يبدو ضروريا أن نشير إلى الخطأ الذي ارتكبه صحابى جليل هو حاطب بن أبى بلتعة الذى كتب رسالة إلى قريش يخبرهم فيها بالغزو ، حملتها امرأة فجعلتها في رأسها ، ثم فتلت عليها ضفاتها ، فأنبأ الوحي رسول الله ﷺ بذلك ، فبعث الرسول ثلاثة من الصحابة خلفها ، هم : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ - موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة - فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها . فلحقوا بالمرأة وأخذوا منها الرسالة وأحضرها للرسول ﷺ فإذا بها : من حاطب بن أبى بلتعة إلى بعض مشركى مكة يخبرهم بغزو الرسول لهم ، فجيء بحاطب وساءله الرسول عن فعلته فأبدى بعض

(١) تاريخ الإسلام - مجلد المغازى ، للحافظ شمس الدين الذهبى ص : ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

العذر، فقال عمر : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال له الرسول : «إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (١) .

جيش الرسول في الطريق إلى مكة :

وتقدمت جيوش الإسلام تحت راية رسول الله ﷺ في طريقها إلى مكة ، وعلى رأس كل جيش واحد من الصحابة أبطال الحرب : خالد بن الوليد ، الزبير بن العوام ، وسعد بن معاذ ، وضربت الخيام والفساطيط بالأراك على مقربة من مكة ، وخرج أبو سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يستكشفون الخبر ، وظنوا أن الجيش لبنى كعب جاءت لتتأر لقتلاها ، فلما دخل أبو سفيان وصاحبه المعسكر في جنح الليل أمسك بهم الحرس ، وأيقن أبو سفيان بالقتل بعد أن فطن إلى أنه أسير بأيدي المسلمين ، فنادى بأعلى صوته يطلب الغوث من العباس عم رسول الله ، وكانا صديقين في الجاهلية ، فأتاه العباس ودفع عنه القتل وخلصه من أيديهم ، وقال له : إنك مقتول إن لم تسلم وتشهد أن محمدا رسول الله ، فكان يعزم على ترديد الشهادة ولكن لسانه لا ينطق بها ، وبات ليلته مع العباس ، وأما حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فدخلا على رسول الله ﷺ فأسلما ، وجعل يستخبرهما عن أهل مكة .

وفي الصباح قال أبو سفيان : يا عباس ؛ كَلِّم الرسول في قومك ، هل عنده من عفو عنهم ؟ فانطلق العباس به حتى أدخله على النبي فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان ، فقال أبو سفيان : يا محمد ، قد استنصرتُ بإلهي ، واستنصرتُ بإهلك ، فوالله ما لقيتُك من مرة إلا ظهرت عليّ ، فلو كان إلهي محقا وإهلك باطلا ظهرتُ عليك ، فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

ثم أمر الرسول بأبي سفيان فاستبقى حيث كان ومعه العباس ، ثم بعث رسول الله ﷺ الخيل بعضها على إثر بعض ، وقسمها شطرين ، فبعث الزبير في خيل عظيمة ،

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

فلما مروا بأبى سفيان قال للعباس : من هذا ؟ قال : الزبير ، وبعده مرّ خالد بالجيش من أسلم وغفار وقضاعة ، فقال أبو سفيان : هل هذا رسول الله يا عباس ؟ قال : لا ، ولكن هذا خالد بن الوليد ، وبعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحرمة ، ثم دخل رسول الله ﷺ في كتيبة الإيخان من المهاجرين والأنصار .

فلما رأى أبو سفيان وجوها كثيرة لا يعرفها قال : يارسول الله اخترت هذه الوجوه على قومك ؟ قال : أنت فعلت ذلك وقومك ، إن هؤلاء صدقوني إذ كذبتموني ، ونصروني إذ أخرجتموني ، ومع النبي يومئذ الأقرع بن حابس ، وعباس بن مرداس السلمى ، وعيينة بن بدر ، فلما أبصرهم حول النبي ﷺ قال : من هؤلاء يا عباس ؟ قال : هذه كتيبة النبي ﷺ ومع هذه الموت الأحمر ، هؤلاء المهاجرون والأنصار . قال : امض يا عباس فلم أر كالיום جنودا قط ولا جماعة ، وسار الزبير بالناس حتى إذا وقف بالحجون ، واندفع خالد حتى دخل من أسفل مكة ، فلقيته بنو بكر فقاتلهم فهزمهم حتى دخلوا الدور ، وتقهقرت طائفة منهم على الجبل على الخندمة - جبل بمكة - وأتبعهم المسلمون بالسيوف .

ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أخريات الناس ، ونادى مناد : من أغلق داره وكف يده فإنه آمن ، وكان النبي ﷺ نازلا بذى طوى ، فقال : كيف قال حسان ؟ فقال رجل من أصحابه : قال :

عَدِمْتُ بَنِيَّ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تثير النقع من كَفَيْ كدَاءِ

فأمرهم الرسول أن أدخلوا الخيل من حيث قال حسان ، فأدخلت من ذى طوى من أسفل مكة ، واستحرّ القتل بينى بكر ، فأحلّ الله له مكة ساعة من نهار ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « ما أحلت الحرمة لأحد قبلى ولا بعدى ، ولا أحلت لى إلا ساعة من نهار » (١) .

(١) تاريخ الإسلام للدهبي قسم المغازى ، ص : ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

إن مشاهد فتح مكة كثيرة وجلييلة ، أليس هو الفتح الأعظم الذى بشر به المولى سبحانه محمداً فى ساعة ظنَّ أنها استسلام وما كانت استسلاماً ، ولكن كانت مقدمة لليوم العظيم الذى كرم الله فيه رسوله أعظم تكريم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿ .

خطبة فتح مكة :

كان دخول رسول الله ﷺ الكعبة فى رمضان سنة ثمان فطاف سبعا على راحلته ، ثم وقف قائماً على باب الكعبة ، وألقى خطبة اليوم الخالد : يوم الفتح فقال : (١)
« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحَدَهُ .

ألا كلُّ مائِرةٍ أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدميَّ هاتينِ ؛ إلا سداثةَ البيتِ ، وسقايةَ الحاجِّ .
ألا وقتيلُ الخطيِّ شبه العمد بالسوط والعصا - فيه الدية مُغلَّظةً ، منها أربعون خلفةً ، فى بطونها أولادها .

يا معشرَ قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية وتَعْظُمَهَا بِالْآبَاءِ ؛ النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ ؛ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يامعشر قريش - أو يا أهل مكة - : « ما تَرَوْنَ أُنَى فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيراً ؛ أخُ كريمةً ، وابنُ أخِ كريمة . ثم قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء » (*).

(١) إعجاز القرآن للباقلاوى ، ص : ١٣٢ .

(*) المائة : الخصلة المحمودة تتوارث ويتحدث الناس عنها .

الخلفة - بفتح ثم كسر - : الحامل من النوق .

إنها خطبة كمال التوحيد ونهايه الشرك ، أعلن ذلك رسول الله من على باب الكعبة التى خلصت لدين الله ، وتحررت من الأصنام التى حطمها رسول الله ساعة دخوله ، وفى خطبة الفتح إعلان بأن الله صدق وعده بنصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، مع معان أخرى صدرت عن رسول الله فى هذا الموقف العظيم مثل تثبيت سدانة البيت وسقايه الحاج ، وتشريع حكم الدية فى قتل الخطأ شبه العمد ، وإعلان المساواة الكاملة بين الناس جميعا حيث لا يكون التفاضل بينهم إلا بتقوى الله ، ثم أخيرا العفو العام .

وقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه استجاب للعباس حين طلب إليه تكريم أبى سفيان لمقامه بين قومه بقوله الشريف : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن »

وقد كانت الفعال فى فتح مكة لا تقل إفصاحا عن الأقوال فقد عمّ كرمه ﷺ كل أهل مكة ، باستثناء أشخاص بأعينهم يقل عددهم عن أصابع اليد الواحدة ، وفاضت سماحته بحيث شملت جميع الناس وبينهم من كان قد ذهب فى إيقاع الأذى به مذهبا لا حدود له ، وأوغل فى تعذيبه إيغالا يصعب معه التسامح ، ولكنها أخلاق محمد وشائله التى تسمو على الخلائق ، وتتضاءل أمامها كل شمائل أهل الأرض ، وفى كلمات ثلاث يبدل خوفهم أمنا ، ويحوّل إسارهم إلى حرية : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

خطب الرسول في الغزوات

خطبة يوم الأحزاب :

كان يوم الأحزاب من أشد أيام الكروب التي تعرض لها المسلمون في عصر النبوة ، فقد اتحدت قبائل المشركين وحاصرت المدينة المنورة بجيوشهم الكثيفة المتربصة شرا ، ولم تكن المحنة متمثلة في جيوش المشركين وحدهم ، وإنما كان العدو اليهودي الذي يساكن المسلمين مدينتهم ، يصنع كيداً ، ويث سمومه ، وينسج تأمره ، وقد ألهم المسلمون أن يحفروا الخندق ليفصل بينهم وبين العدو ريثما يهيء الله النصر للمؤمنين الذين بلغت قلوب بعضهم الحناجر ، هنا يقف رسول الله لكى يزرع الصبر في نفوس المؤمنين ، ويجدد الإيمان في قلوبهم ، فيمزج الحماس بالدعاء إلى الله بالنصر ، والضراعة إلى المولى بتمزيق صفوف العدو وتشيت شملهم .

يقول ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ كَحِزْبِ الشَّيَاطِينِ يُحَدِّثُونَهُمْ فَيَكْذِبُونَهُمْ ، وَيَمْنُونَهُمْ فَيَغْرُبُونَهُمْ ، وَيَعْدُونَهُمْ فَيُخْلِفُونَهُمْ ، وَاللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ فَكَذَّبْتُمْ ، وَلَا مَنَيْتُكُمْ فَغَرَرْتُمْ ، وَلَا وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ . اللَّهُمَّ اضْرِبْ وجوههم ، وَأَكِلْ سِلَاحَهُمْ ، وَلَا تَبَارِكْ لَهُمْ فِي مَقَامِهِمْ . اللَّهُمَّ مَرِّقْهُمْ فِي الْأَرْضِ تَمْزِيقَ الرِّيحِ الْجَرَادِ . وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَئِنْ أَمْسَيْتُمْ قَلِيلاً لَتَكْثُرَنَّ ، وَلَئِنْ كُنْتُمْ أَذِلَّةً لَتَعَزَّنَّ ، وَلَئِنْ كُنْتُمْ وُضْعَاءً لَتَشْرُقَنَّ حَتَّى تَكُونُوا نَجْوَاءً يُقْتَلُونَ بِوَأْحِدِكُمْ ، يُقَالُ : قَالَ فُلَانٌ وَقَالَ فُلَانٌ » (١) .

لقد استجاب الله دعاء رسوله الكريم ؛ فلم يبارك للمشركين في مقامهم ، ومزقهم

(١) نثر الدر / ١ / ٢٦٣ .

في الأرض تمزيق الرياح الجراد ، وأما صحابة رسول الله - الجنود الذين وهبوا أرواحهم ودماءهم لله - فلقد كثروا بعد قلة ، وعزّوا بعد ذلة ، وشرفوا بعد ضعة ، تلك كانت دعوات حبيب الله إلى الله ، فكانت إجابة المولى - عز وجل - سريعة ناجزة .

في الطريق إلى تبوك :

إن غزوة تبوك من الغزوات المميزة لرسول الله ﷺ لأمر عدة ، منها : أنها أول مواجهة للمسلمين مع الروم ، ومنها أن المسافة التي قطعها الرسول وجيشه هي أطول مسافة قطعها رسول الله ﷺ في أية غزوة غزاها ، فالمسافة بين المدينة وتبوك تصل إلى حوالي سبعمائة كيلومتر بمقاييس زماننا على طريق ممهد ، ومنها أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قطعها وجيشه في أشد فصول السنة حرارة ، ومنها أنها جرت في زمن العسرة ، ولذلك كان جيشها يسمى جيش العسرة .

قيل لعمر بن الخطاب - وهو أمير المؤمنين - : حدثنا عن شأن العسرة ؟ فقال : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فتنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى أن كان الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل مابقى على كبده ، فقال أبو بكر : يارسول الله : إن الله قد عودك في الدعاء خيرا ، فادع الله لنا قال : أتحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قالت السماء فأطلت ثم سكبت ، فملأوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (١) .

ولقد تميّزت غزوة تبوك عن غيرها أيضا بأن رسول الله ﷺ قلما كان يخرج إلى غزوة إلا أظهر أنه يريد غيرها ، وأما غزوة تبوك فقد أعلن أنه يريدنا ، وأنه يريد الروم ، وذلك في قوله ﷺ : « أيها الناس ، إنى أريد الروم » .

إن أحداثا كثيرة - والأمر كذلك - جرت في هذه الغزوة ، وارتبطت بها منذ أعلن رسول الله ﷺ التعبئة لها ، فقد جرت زمن العسرة حسبنا أسلفنا القول ، وكان تمويلها وميرتها بيدوان أمرا عسيرا ، ولكن ما إن أمر ﷺ بالصدقة والنفقة حتى تسابق الصحابة

(١) الذهبي ٥٢٦ رواية نافع بن جبير عن ابن عباس .

إلى التبرع ، كل على قدر سعته ، وكان عثمان - رضى الله عنه ، شأنه في ذلك شأنه في مواقف البذل - الأسرع إلى الإسهام قائلا : يارسول الله ، على ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

يقول الصحابي عبد الرحمن بن خباب : أنا شهدت رسول الله ﷺ وهو يقول على المنبر : « ما على عثمان ما عمل بعد اليوم » وتصديق يومئذ عبد الرحمن بن عوف بياثي أوقية ، فقال له النبي ﷺ : « هل تركت لأهلك شيئا ؟ قال : نعم ، أكثر مما أنفقت وأطيب . قال : كم ؟ قال : ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير » .

وتصدق عمر بمائة أوقية ، وتصدق عاصم الأنصاري بتسعين وسقاً من التمر .

وبقدر ما كان المنافقون يثبطون همم المسلمين في الخروج مع رسول الله ، بقدر ما كان المسلمون يتسابقون إلى الصحبة ، فإذا لم يجدوا ما يحملون عليه انخرطوا في البكاء لحرمانهم من صحبة رسول الله في رحلة الجهاد لله ، وهم : أبو ليل عبد الرحمن بن كعب ، وعبد الله بن المغفل ، وعُلبَةُ بن زيد ، وأربعة آخرون ، وقد سُموا بالبكائين .

فأما أبو ليل عبد الرحمن بن كعب ، وعبد الله بن المغفل فقد لقيهما أنصاري من الباذلين في سبيل الله - هو يامين بن عمرو - وهما بيكيان ، فقال : ما بيكيكما ؟ فقالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا - أى : يعطينا ما نركبه في الطريق إلى تبوك - فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج ، فأعطاهما ناضحا - أى بعيرا - فارتحلاه ، وزودهما شيئا من لبن .

وأما علبة بن زيد فبات ليلته يصلى ثم بكى واتجه إلى الله داعيا : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى بها في مال أو جسد أو عرض . ثم أصبح مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « أين المتصدق هذه الليلة ؟ » فلم يرقم أحد ، ثم قال : « أين المتصدق ؟ فليقم » . فقام إليه علبة فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « أبشر فوالذى نفس محمد بيده لقد كُتِبَتْ في الزكاة المُتَقَبَّلَةُ » .

هذه نماذج من نوعية متميزة من الرجال هم صحابة رسول الله ، سيكون لأن صحبتهم إياه في الجهاد تفوتهم ، فيعوضهم الله خيرا بإتمام الصحبة أو بقبول أعمالهم .

أبو ذرّ وأبو خيثمة :

غير أن نموذجين آخرين على جانب من التفاني في حب الله ورسوله يجمل ذكر خبرهما في هذا السياق ، هما أبوذر الغفاري ، وأبو خيثمة زهير بن معاوية بن خديج .

يروى ابن إسحاق مسلسلا الرواية إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لما سار إلى تبوك ، كان بعض الناس يتخلف في الطريق ، فيقول الصحابة : يارسول الله تخلف فلان ، فيقول : « دعوه ، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » حتى قيل : يارسول الله : تخلف أبوذرّ وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . وأما أبوذرّ نفسه فكان يحث بعيره على المسير حتى يلحق برسول الله ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيا . ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازلهم - في تلك الرحلة الطويلة - ونظر ناظر من المسلمين فقال : يارسول الله : إن هذا الرجل يمشى على الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : كن أباذرّ - على سبيل الدعوة والتمنى - فلما تأمله القوم قالوا : هو والله أبوذر ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أباذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » هكذا لحق أبوذر بكتيبة رسول الله في الطريق إلى تبوك .

أما نبوءة رسول الله ﷺ في موت أبي ذر وحده وبعثه وحده فيقص خبرها ابن جرير الطبري رواية عن سلسلة رأسها محمد بن كعب القرظي قال : لما نفى عثمان أباذر ، نزل أبوذر الربذة (*) أصابه بها قدره ، ولم يكن معه أحد إلا امرأته وغلّامه ، فأوصاهما أن غسّلتني وكفّنتاني ثم ضعّانني على قارعة الطريق ، فأول ركب يمرّ بكم فقولوا : هذا أبوذر صاحب رسول الله ، فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق ، فأقبل عبد الله بن مسعود ورهط من أهل العراق عماراً - أي في

(*) الربذة : قرية على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة .

طريقهم لأداء العمرة - فلم يرعهم إلا بجنائز على الطريق قد كادت الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ، فأعينونا على دفنه ، فبدأ عبد الله ابن مسعود يبكي ويقول : صدق رسول الله ، تمشى وحدك وتموت وحدك ، وتبعث وحدك . ثم نزل هو وأصحابه فواروه . ثم حدثهم ابن مسعود حديثه وما قال له رسول الله في مسيره إلى تبوك (١) .

وأما أبو خيثمة فقد عاد إلى أهله بعد مسير رسول الله أياما في يوم حار فوجد امرأتين له قد رشت كل منهما عريشها ، وَبَرَدَتْ له فيه ماء ، وهيات له فيه طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش فقال : رسول الله في الضح - الشمس - والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في مال مقيم ؟! ما هذا بالنصف ، ثم قال : لا ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألقى برسول الله ﷺ ، فهيتما لي زاداً ، ففعلتا ، ثم قدم ناضحه - بعيره - فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله حتى أدركه حين نزل بتبوك ، وقد كان قد أدرك أبا خيثمة في الطريق عمير بن وهب الجمحي يطلب اللحاق برسول الله ، فترافقا ، حتى إذا دَنَوَا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير : إن لي ذنبا ، فلا عليك أن تتخلف عني حتى آتى رسول الله ﷺ ففعل ، حتى إذا دنا من رسول الله قال الناس : يارسول الله هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا خيثمة » فقالوا : يارسول الله : هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال رسول الله : « أولى لك يا أبا خيثمة » ثم أخبر رسول الله بالخبر ، فقال له رسول الله خيرا ودعا له بالخير .

وما دمننا بسبيل ذكر نماذج من صحابة رسول الله في غزوة تبوك ، فقد بات من الخير أن نذكر خبر الثلاثة المخلفين الذين تخلفوا عن الصحبة إلى تبوك بدون نفاق ولا شك ، وإنما هو خطأ وقعوا فيه ، وهم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد رأى رسول الله أن يؤاخذهم على طريقة تشعرهم بعظم جريرتهم ، فلم يقبل لهم عذرا وقال : لا يكلمنَّ أحدٌ أحدًا من هؤلاء الثلاثة ، فاعتزل المسلمون كلامهم حتى

(١) تاريخ الرسل والملوك ، القسم الأول / ٤ / ١٧٠٠ .

ضاقت بهم السبيل ، ولجأوا إلى الله تائبين ، فتقبل الله توبتهم ، وأنزل فيهم قوله - عز وجل - : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (*)

تحرك جيش رسول الله ﷺ من المدينة في يوم خميس من شهر رجب سنة تسع هجرية في ثلاثين ألفا من المجاهدين ، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، وخلف علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، فما كان من علي إلا أن أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني تستثقلني وتخفف مني ، قال ﷺ : « كذبوا ، ولكن خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » فرجع إلى المدينة .

لما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع ، وضرب المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول عسكره على حده في نحو ثلاثين ألفا أو تزيد قليلا ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه ابن سلول فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب (١) .

غَدَّ جيش العسرة المسير إلى تبوك في تلك الظروف المناخية والطبيعية والإنسانية التي ألمنا بطرف منها ، ولما وصل إلى تبوك ميدان المعركة كان الروم قد جمعوا شتاتهم وانصرفوا ، فكان النصر في تبوك بغير سفك قطرة دم ، ولم يمكث بها الرسول أكثر من بضع عشرة ليلة ، وفي رواية جابر : عشرين ليلة ، وعاد إلى المدينة فدخلها في رمضان ، فتكون الغزوة - والأمر كذلك - قد استغرقت نحو شهرين : شهر شعبان كله ، والبقية كانت من رجب ورمضان .

(*) التوبة ، الآية : ١١٧ .

(١) الذهبى ، قسم المغازى ص : ٥٢٤ .

نص خطبة الرسول :

وهذا نصّ الخطبة كما ذكرها البيهقي والحاكم من حديث عقبة بن عامر ، وكما سجلها ابن قيم الجوزية :

« خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فاسترقد رسول الله ﷺ ليلة لما كان منها على ليلة ، فلم يستيقظ فيها حتى كانت الشمس قيد رمح ، قال : ألم أقل لك يابلال اكلاً لنا الفجر ؟ فقال : يارسول الله ذهب بى النوم الذى ذهب بك ، فانقل رسول الله ﷺ من ذلك المنزل غير بعيد ، ثم صلى ، ثم ذهب بقية يومه وليلته فأصبح بتبوك ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير المثل ملّة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دُبراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هُجراً . ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ، وخير ما وفر في القلوب اليقين ، والارتباب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حر جهنم ، والسُّكر كَيٌّْ من النار ، والشُّعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، وشر المأكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة ذمه ، ومن يتألى على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يتبع السمع يسمع

الله به ، ومن يتصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله ، ثم استغفر ثلاثا «
(١).

إن الخطبة تمثل لونا آخر من بلاغة رسول الله ﷺ إن كثرة الأحداث المتعلقة بالغزوة والمرتبطة بها ، ما كان إيجابيا منها وما كان سلبييا اقتضت أن يقف رسول الله من الصحابة المرافقين المجاهدين موقف المعلم الذى يرسل الإرشادات والأحكام تترى وتتواكب وتتلاحق مثلما تترى جموع السحاب وتتلاحق قطرات الغيث ، فقد أترعت الخطبة بصيغ أفعال التفضيل ، وتزاحمت بالتشبيهات ، وامتألت بالحكم وازدانت بالجمل التى صارت أمثالا سائرة بليغة .

هذا ولم تخل غزوة تبوك من مغام ، ففيها وفد يُحَنِّ بن رُوْبَة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح (*) فأعطوه الجزية ، وبذلك تكون حدود الدولة الإسلامية فى الشمال على عهد الرسول أرض سورية الجنوبية .

(١) زاد المعاد ٩/٣ .

(*) جرباء : من أعمال البلقاء من أرض الشام . وأذرح : من أعمال الشراة فى أطراف الشام ، وبين أذرح والجرباء ميل واحد .



الفصل الرابع

حجة الوداع وخطبة الوداع

حجة الوداع وخطبة الوداع

في رحاب حجة الوداع :

إن خطبة الوداع مقترنة بحجة الوداع ، وهي المرة الوحيدة التي أدى فيها رسول الله ﷺ فريضة الحج ، ومن المعروف أن الفريضة الوحيدة الواجبة الأداء مرة واحدة في حياة المسلم المستطيع هي فريضة الحج ، ومن هنا كان لحجة الوداع وخطبتها شأن كبير في الإسلام بعامة ، وفي فقه العبادات بخاصة ، فأما من ناحية العموم فيأتي ذلك من منطلق الأحكام التي احتوتها خطبة رسول الله ﷺ يوم عرفة ، وأما من ناحية فقه العبادات فلأنها تشمل كل شعائر فريضة الحج طبقا لما أداه الرسول ﷺ أو أقره ووافق عليه .

بدأت رحلته ﷺ لأداء فريضة الحج في الخامس والعشرين من ذي القعدة في السنة العاشرة للهجرة ، وقد حرص على مصاحبته فيها جماهير غفيرة من المسلمين يصعب استقصاء عددهم ، وإن كان هناك من قدر عددهم بمائة وأربعة وعشرين ألفا . (١)

وقد يكون من الخير أن نروي خبر حجة الوداع من بدء القيام بها إلى نهايتها طبقا لما رواه الإمام جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر ؛ فهي الوثيقة التي تثبت الكليات وكثيرا من الجزئيات (٢) .

وقد أطلق على هذه الحجة المباركة تارة حجة الوداع ، وتارة أخرى حجة الإسلام ،

(١) المغازي للذهبي ، ص : ٥٩١ .

(٢) وردت رواية عن الإمام جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حج ثلاث حجج قبل أن يهاجر .

ورواية أخرى عن وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن مجاهد أنه حج حجتين وهو بمكة قبل الهجرة .

ورواية ثالثة أنها واحدة بمكة وهذه الحجج - فيما نرجح لو صح خبرها - تختلف في شعائرها عن حجة الإسلام .

وتارة الثالثة حجة البلاغ ، ويروى عن عبد الله بن عباس أنه كان يكره أن يقال حجة الوداع ، ويقول : حجة الإسلام (١) لأنها الفريضة التي تؤدي مرة واحدة .

ولقد اهتم مؤرخو السيرة بالتسميات التي أطلقت على هذه الحجة ، وعلّة كل تسمية ، فمن أطلق عليها حجة الوداع ذكر أن سبب تسميتها بذلك أن الرسول ﷺ قد ودع الناس فيها وقال : « لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا » وعلم ﷺ أنه لا يتفق له بعد هذا وقفة أخرى خاصة أنه قد نزلت في أيام التشريق سورة النصر ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

ومن سماها حجة البلاغ استند إلى قوله ﷺ بعد كل فقرة من الخطبة يوم عرفة جملة : « هل بلغت ؟ » ولأنه بلغ الناس فيها الشرع في الحج قولاً وفعلاً

ومن سماها حجة الإسلام قال ذلك لأنها التي حج فيها بأهل الإسلام ليس فيها مشرك ، ولأنه لم يحج من المدينة بعد فرض الحج غيرها .

وثمّت فريق أطلق عليها حجة التمام والكمال ؛ لأن الله تعالى أنزل في عصر يوم عرفة والرسول ممتط صهوة ناقته قوله - تعالى - : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٢)

ومهما كانت التسمية فإن تسميتها حجة الوداع هو القول الأشهر (٣) .

وأما بخصوص نزول آية الإكمال السالف ذكرها فإن الروايات تجمع على نزولها بعد عصر يوم الجمعة والنبي واقف بعرفات على ناقته العضباء - وفي رواية القصواء - فحين نزولها كاد عضد الناقة أن يدق من شدة ثقلها فبركت .

(١) حجة الوداع للكاتب هلوى ص : ١٤٠ .

(٢) المائدة الآية : ٣ .

(٣) حجة الوداع للكاتب هلوى ، ص : ١٤١ .

ويروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر - رضى الله تعالى عنه - فقال له النبي ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ قال : بكائي أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص ، قال : صدقت ، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض والأحكام ، وعاش النبي بعد نزولها واحدا وثمانين يوماً . (١)

وقد يكون من الخير - وقد أوردنا بعض أخبار حجة الوداع من الكتاب الذي يحمل اسمها - أن نروى خبرها طبقاً لما رواه الإمام جعفر الصادق عن أبيه الإمام محمد الباقر عن جابر رضى الله عنه (٢) .

أذن رسول الله ﷺ في الناس بالحج ، فاجتمع في المدينة بشرٌ كثير . فخرج رسول الله ﷺ لخميس بقين من ذى القعدة ، أو لأربع ، فلما كان بذي الحليفة ولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر الصديق ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ فقال : اغتسلي واستغفري بثوبٍ . وصلى رسول الله ﷺ في المسجد ، وركب ناقته القِصواء حتى استوتت به على التيِّداء ، فنظرتُ إلى مدِّ بصرى ، بين يدي رسول الله ﷺ من ركب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك . فأهَّل رسول الله ﷺ بالتوحيد ، وأهَّل الناس بهذا الذي يُهَلُّون به ، فلم يزد عليهم شيئاً منه . ولزم رسول الله ﷺ تليته . ولسنا ننوي إلا الحج ، لسننا نعرف العمرة ، حتى أتينا البيت معه استلم الرُّكنَ فرمَل ثلاثاً ومشى أربعاً ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، فجعل المقام بينه وبين البيت .

قال جعفر : فكان أبى يقول - لا أعلمه ذكره إلا عن رسول الله ﷺ : كان يقرأ في الركعتين ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون : ١] . ثم رجع إلى البيت فاستلم الركن ثم خرج من

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ، قسم المغازى ص : ٥٨٣ وما بعدها .

الباب إلى الصِّفَا ، حتى إذا دنا من الصفا قرأ ﴿ إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرَّةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، أبدأ بها بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فَرَقِيْ عليه حتى إذا رأى البيت فكَبَّرَ وهلل وقال : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ثم دعا بين ذلك فقال مثل ذلك ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصَبَتْ قدماه رمل في بطن الوادي ، حتى إذا صَعِدَ مشى حتى أتى المروة ، فعَلَا عليها وفعل كما فعل على الصفا . فلما كان آخر الطواف على المروة قال : إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة . فمن كان منكم ليس معه هدى فليُحْلِلْ وليُجْعَلْها عمرة . فحلَّ الناس كلهم وقصروا ، إلا النبي ﷺ ومن كان معه الهدى .

فقام سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشَم فقال : يا رسول الله أَلْعَامِنَا هذا أم للأبد ؟ قال فَشَبَّكَ أصابعه وقال : دخلت العمرة مع الحج هكذا ؛ مرَّتَيْن ، لا ؛ بَلْ لأبَد الأبد .

وقدم عليّ - رضى الله عنه - من اليمن يئدين إلى النبي ﷺ فوجد فاطمة ممن حلَّ ولَبِست ثياباً صَبِيغاً واكْتَحَلتْ ، فأنكر عليها . فقالت : أبى أمرنى بهذا . فكان عليّ يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله ﷺ مُحْرَسًا بِالَّذِي صَنَعْتُهُ ، مُسْتَفْتِيًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال : صَدَقْتُ ، صَدَقْتُ . ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ قال : قلت : اللهم إني أَهْلٌ بما أَهَلَّ به رسولك . قال : فإن معى الهدى فلا تَحْلِلْ . قال : فكان الهدى الذى جاء معه ، والهدى الذى أتى به النبي ﷺ من المدينة مائة .

ثم حلَّ الناس وقصروا ، إلا رسول الله ﷺ ومن معه هدى .

فلما كان يوم التَّروِيَةِ وجَّهوا إلى منى ، أَهَلُّوا بالحج ، وركب رسول الله ﷺ فصلى بمنى الظهر والعصرَ والمغربَ والعشاءَ والصبحَ . ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقَبَّةٍ من شَعَرٍ فُضِرَتْ له بِنَمْرَةٍ ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشكَّ قريش إلا أنه واقفٌ عند المَشْعَرِ الحرام ، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، فأجازه رسول الله ﷺ حتى أتى عَرَفَةَ فوجد القبة قد ضُرِبَتْ له بِنَمْرَةٍ فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمس أمر

بالقصواء فَرِحَتْ له ، فركب حتى أتى بطن الوادى ، فخطب الناس وكان ذلك قبل الظهر فقال : (*)

« إن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي ، ودماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ؛ كان مُسْتَرَضِعاً في بني سعدٍ فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ؛ ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله . واتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . وهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به ؛ كتاب الله تعالى . وأنتم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أن قد بلغت وأديت ونصحت . فقال ؛ بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويكبها إلى الناس : « اللهم اشهد » ؛ ثلاث مرّات . ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصلّ بينهما شيئاً . ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته إلى الصّخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حين غاب القرص وأردف أسامة بن زيد خلفه فدفع وقد شقق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مؤرك رحله ، ويقول بيده : « أيها الناس ، السكينة السكينة » ، كلما أتى جبلاً من الجبال أرتحى لها قليلاً حتى تصعد . حتى أتى المزدلفة ، فصلّ بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ، ولم يصلّ بينهما شيئاً . ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة . ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فرقى عليه فحمد الله وكبره وهلله فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، ثم دفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلاً حسن الشعر وسيماً . فلما دفع رسول الله ﷺ مرّ الطعن يجيرين ، فطفق الفضل ينظر إليهنّ ، فوضع رسول الله

(*) هذا جزء من الخطبة اقتطفه المؤلف ، وليس الخطبة كلها .

ﷺ يده على وجه الفضل ، فصرف الفضل وجهه من الشَّقِّ الآخر فحول رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل . حتى إذا أتى مُحَسَّرًا (*) حرك قليلاً ، ثم سَلَكَ الطريق الوُسْطَى التي تخرجك على الجَمْرَةِ الكبرى ، حتى أتى الجَمْرَةَ التي عند المسجد فرمى سَبْعَ حَصِيَّاتٍ ، يكَبِّرُ مع كل حصاة مثل حصى الحَدَفِ ، رَمَى من بطن الوادى . ثم انصرف إلى المُنْحَرِ ، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً ، وأعطى عليّاً -رضى الله عنه - فنحر ما غَبَرَ وأشْرَكَه في هَدْيِهِ . ثم أمر من كل بدنةٍ ببَضْعَةٍ فُجِّعَتْ في قَدْرِ وطَبِخَتْ فأَكَلَا من لحمها وشربا من مَرَقِهَا .

ثم أفاض رسول الله ﷺ إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بنى عبد المطلب يَسْتَقُونَ من بئر زمزم ، فقال : انزِعُوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن تغلبكم الناس على سقائتكم لنزعتُ معكم . فناولوه دَلْوًا فشرب منه .

أخرجه مسلم (*) ، دون قوله : يُحْيِي ويميت .

خطبة الوداع :

احتفلت الروايات وكتب السيرة والتاريخ الإسلامى بخطبة الوداع وما صاحبها من أخبار مرتبطة بها ، نذكر منها : السيرة لابن هشام ، وصحيح البخارى ، والسيرة النبوية للطبري ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، وتاريخ الرسل والملوك للطبري ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، والمغازي للواقدي ، وقسم المغازي من تاريخ الإسلام للذهبي ، وغير ذلك من كتب التاريخ والأخبار .

وقد لاحظنا أن رواية الخطبة لكل من الجاحظ في البيان والتبيين وأحمد بن عبد ربه في العقد الفريد متطابقتان مما يدل على أن مصدرهما واحد ، أو أن الثاني أخذ عن الأول ، وكذلك لاحظنا أن رواية كل من ابن هشام في كتابه السيرة النبوية ، والطبري في كتابه الذي يحمل العنوان نفسه متطابقتان ، مما يدل أيضا على أن مصدرهما واحد أو أن

(*) محسر : واد قرب المزدلفة بين عرفات ومنى .

(*) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ .

اللاحق فيها وهو الطبري ٣١٠ هـ قد أخذ عن السابق وهو ابن هشام ٢١٣ هـ ولقد اعتمدنا النص الذي جاء به كل من ابن هشام والطبري : لأن الأول راويه تخصص في كتابة سيرة رسول الله ﷺ ولأن الثاني إمام راوية مفسر مؤرخ فقيه .

ولأن العالمين الجليلين سالفى الذكر لم يسجلا صيغة التحميد التي استهل بها رسول الله ﷺ خطبته بل اكتفيا بذكر جملة « فحمد الله وأثنى عليه » فقد أثبتنا نص التحميد والثناء من رواية الجاحظ وابن عبد ربه .

قال ﷺ :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير »

وبقية الخطبة كما أثبتها ابن هشام والطبري هي ما يأتى : أيها الناس : اسمعوا قولى ؛ فإنى لأدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ؛ أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحُرمة يومكم هذا ، وكحُرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألکم عن أعمالکم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث ، فقتلته هذيل فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان قد يتيس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ، أيها الناس : « إنما النسىء زيادة فى الكفر ، يضلُّ به الذين كفروا ، يُجلُّونهُ عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ؛ فيحلُّوا ما حرم الله » وإن الزمان قد استدار

كهينته يوم خلق الله السموات والأرض « وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حُرُم » ، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان . أأهل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقا ، وهنَّ عليكم حقا ، لكم عليهنَّ أن لا يوطئنَ فُرُشَكُمْ أحدا تكرهونه ، وعليهنَّ أن لا يأتينَ بفاحشة مبيّنة ، فإن فعلنَ فإنَّ الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهنَّ رزقهنَّ وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ؛ فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهنَّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمرا بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمنَّ أن كلَّ مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمنَّ أنفسكم ؛ اللهم هل بلغت ؟ (*).

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن الناس قالوا : اللهم نعم ؛ فقال رسول الله ﷺ : اللهم أشهد .

وللخطبة بقية أوردها ابن هشام عن ابن إسحاق (١) :

قال ابن إسحاق : حدثنى ليث بن أبى سُلَيْم عن شَهْر بن حوشب الأشعرى ، عن عمرو بن خارجة قال : بعثنى عَتَّاب بن أسيد إلى رسول الله ﷺ فى حاجة ، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة ، فبلغته ، ثم وقفت تحت ناقة رسول الله ﷺ وإن لُغامها ليقع على رأسى ، فسمعتة وهو يقول : « أيها الناس ، إن الله قد أدى إلى كلِّ ذى حق حقه ،

(*) ورجب مضر : إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان ، وتسميه رجباً ، فيبئن - عليه الصلاة والسلام - أنه رجب مضر لارجب ربيعة ، وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

غير مبرح : غير شديد .

عوان : جمع عانية ، وهى الأسيرة .

(١) السيرة ٢ / ٦٠٥ .

وإنه لا تجوز وصية لوارث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً» (*) .

والموقف في عرفة متسع وفسيح ولذلك كان هناك من يردد بصوت مرتفع ما يقوله رسول الله ﷺ

عن عباد بن عبد الله بن الزبير ، قال : كان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله وهو على عرفة : ربعة بن أمية بن خلف ، قال : يقول له رسول الله : قل أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أى شهر هذا ! فيقولون : الشهر الحرام ، فيقول : قل لهم : إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا . ثم قال : قل : إن رسول الله يقول : أيها الناس ؛ فهل تدرون أى بلد هذا ؟ قال : فيصرخُ به ، فيقولون : البلد الحرام ، قال : فيقول : قل : إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة بلدكم هذا . ثم قال : قل : أيها الناس ، هل تدرون أى يوم هذا ؟ فقال لهم ، فقالوا : يوم الحج الأكبر . فقال : قل : إن الله حرّم عليكم أموالكم ودماءكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا (١) .

وكان الرسول ﷺ يشرح للمسلمين المواقف ويبين لهم المناسك فحين وقف بعرفة ، قال : هذا الموقف - للجبل الذى هو عليه - وكل عرفة موقف . وقال حين وقف على قرح صبيحة المزدلفة : هذا الموقف ، وكل المزدلفة موقف ، ثم لما نحر بالمنحر قال : هذا المنحر ، وكل منى منحر ؛ ففضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم مناسكهم ، وعلمهم ما افترض عليهم فى حجّهم فى المواقف ، ورمى الجمار والطواف بالبيت ، وما أُحِلَّ لهم وما حرّم عليهم ، فكانت حجة الوداع وحجة البلاغ ؛ وذلك أن رسول الله لم يحجّ بعدها (٢) .

(*) اللغام : الرغبة التى تخرج على فم البعير .

معنى الصرف والعدل : أصل العدل : أن يقتل الرجل بالرجل ، والصرف : أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية .

(١) السيرة النبوية لابن جرير الطبرى ، ص : ٣٥٩

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

بين يَدَي خُطْبَةِ الْوَدَاعِ :

كان رسول الله ﷺ يشعر أن خطبته هذه لن تتكرر مرة أخرى في هذا الموقع الذى هو عرفة ، ولم يلبث حسنه النبوى أن تحقق ؛ ففي عصر ذلك اليوم نزل عليه قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فكان نزولها بمثابة الإخبار الإلهى بنهاية الرسالة ، وبالتالي نهاية أجله ﷺ ومن ثم فقد استهل الرسول خطبته بعد أن حمد الله وأثنى عليه بقوله : « أيها الناس : اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » وكان الرسول قد قال فى مستهل اتجاهه لأداء الفريضة : « اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة » .

لقد كان استهلال الخطبة على هذا النحو من الإشارة إلى الشك فى تكرارها مرة أخرى بمثابة استجابة للآية الكريمة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

كان لنزول هذه الآية صداه عند صحابة رسول الله الذين شعروا بجلال الموقف المترتب على نزولها ، وقد تعدى صداها المحيط الإسلامى فيما بعد إلى دوائر أهل الكتاب ، وذلك حين جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ، آية فى كتابكم تقه أونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : أى آية ؟ قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) ، فقال : إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه ، والمكان الذى نزلت فيه ، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات فى يوم جمعة (٢) .

ولم يقف الأمر بجلال هذه الآية من كتاب الله عند اليهودى الذى أجرى حواراه مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بل تعداه إلى يهودى آخر كان عند ابن عباس وهو يقرأ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية فقال اليهودى : لو أنزلت علينا - هذه الآية -

(١) سورة المائدة من ، الآية : ٣

(٢) صحيح البخارى (كتاب الإيمان) باب زيادة الإيمان ونقصانه ١ / ١٨

لاتخذنا يوماً عيداً ، فقال ابن عباس : فإنها نزلت في يوم عيد ، يوم الجمعة ، يوم عرفة^(١) .

لقد اشتملت الخطبة على كثير من القضايا التي تهّم المسلمين في كل زمان ومكان ، بل تهّم الناس جميعاً ، فقد كان الرسول يوجه نداءه إلى الناس لعلمه ﷺ أن ما يتناوله من قضايا إنما ينصرف إلى الناس - كل الناس - وليس إلى أولئك الذين وقفوا معه وحدهم بعرفة في ذلك الموسم ، وكان أول ما نبّه إليه حرمة الدماء ، وحرمة المال ، فدماء المسلمين محرم سفكها ، وأموال المسلمين حرام استباحتها ، ولقد اهتم الإسلام بحياة الناس ، مثلما أحاط الملكية والأموال بسياج من القداسة جعل مصادرتها أو سرقتها أو ما يسمى تأميمها أمراً بالغ الحرمة ، وجريمة تستحق أشد العقاب . ثم يردف الرسول ﷺ القول بطلب أداء الأمانة : « فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » وهذا التوجيه النبوي مستمد من التوجيه القرآني في قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فالأمانة فضلاً عن كونها قيمة إسلامية - بل دينية - كبرى ، فهي أيضاً قيمة إنسانية عظيمة ، فإن مادة « أمن » فيها سعادة الناس ، واستقرار البشر ، وإن أهل مكة في مجال حبهم الكبير لمحمد ﷺ قبل المبعث لم يجدوا من كمال الوصف الذي يصفونه به أفضل ولا أعظم من صفة الأمانة فلقبوه بالأمين .

ولما كان الربا شائعاً في المجتمع المكي بخاصة ، وفي المجتمع العربي بعامة ، بحيث كان اقتصاد العرب مرتبطاً به مشدوداً إليه ، فقد حرّمه الله في آيات محكمات من كتابه العزيز في سورتين هما البقرة وآل عمران ، يقول - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن

(١) تاريخ الإسلام - مجلد المغازي : ص : ٥٨ .

رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحُو اللَّهُ الرَّيْبَ وَيُرِي الصِّدْقَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١﴾ .

ويقول تعالى في نفس السورة مشددا النهى عن بقايا التعامل بالربا ، مؤذنا العصاة بحرب منه : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢)

إن الأمر الإلهى بالانتهاء عن التعامل بالربا من أشد أوامره - جل وعلا - حسماً وجلاء ، فقد آذن المتعاملين به بحرب منه ومن رسوله ، وفي ذلك نفى لصفة الإيثار عنهم ، ومن ثم وجب حرهم مثلما تجب محاربة الكفار سواء بسواء .

ويتكرر نفس المنهج الإلهى فى تحريم الربا وإنذار آكليه بعذاب النار التى أعدها الله للكافرين فى قوله - عز من قائل - : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٣)

الرسول ﷺ يحسم قضية الربا ويؤكد تحريمه استجابة للأوامر الربانية فى آيات الربا فيقول :

« وإن كل ربا موضوع - أى : لاغ ومهدر - ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا » .

وقد قسم الفقهاء الربا إلى نوعين : ربا الفضل ، وربا النسئة ، فأما ربا الفضل

(١) البقرة ، الآيات : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) البقرة ، الآيات : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) آل عمران ، الآيات : ١٣٠ ، ١٣١ .

فيكون في البيع والشراء ، وأما ربا النسيئة فيكون في الديون ، وكلا النوعين من الربا قد حرمه الله تحريماً قاطعاً واضحاً لا لبس فيه لا إبهام ، ومن ثم لا اجتهاد في شأنه ؛ لأنه لا اجتهاد مع نص ، والأمر هنا ليس مقروناً بنص واحد ، وإنما محسوم بنصوص عدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وكان العباس عم رسول الله ﷺ - شأنه في ذلك شأن كثير من أغنياء قريش - يتعامل بالربا ، فأدان رسول الله تعالى تعامل عمه بالربا . وهو صاحب المقام الأسمى لدى رسول الله ، وهو حاضن للدعوة قبل أن يعلن إسلامه ، والحاضر بيعة العقبة الأولى مع رسول الله لكي يطمئن على مقدرة الأنصار في حماية ابن أخيه ورسالته ، وبذلك تكون آفة التعامل بالربا قد أدينت وحرمت إلى أبد الأبد .

ويتناول الرسول ﷺ موضوع الدماء فيقول : « وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية » . ومثلما بدأ الرسول بتحريم ربا عمه العباس فإنه اختار دم عامر بن زبيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، لقد أهملت أكثر الروايات اسم القتيل ، ولكن الجاحظ وابن عبدبره قد حددا شخصية القتيل ، فذكرا أنه عامر^(١) وذكر الكاندهلوي أن اسمه إياس^(٢) ولأن جريمة القتل قد ارتكبت في الجاهلية فقد أسقطها الإسلام ، فلا يجازى مقترفها ولا يقتص منه ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله ، ومن المعلوم أن إهدار دماء الجاهلية سابق على حجة الوداع ، ولكن الرسول ﷺ كرر ذلك في خطبة الوداع شأن تكراره تحريم الربا ليقطع أي مظنة إمكان الأخذ بدماء الجاهلية ، ضاربا المثل في ذلك بدم واحد من أبناء أعمامه .

ويروى كل من الجاحظ وابن عبد ربه هذه الفقرة من خطبة الوداع ، ولم ترد عند الرواة الآخرين : « وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود ،

(١) البيان والتبيين ٢ / ٣١ .

(٢) حجة الوداع ، حاشية ص : ٩٧ .

وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية»^(١).

بعد أن أهدر رسول الله ﷺ ربا الجاهلية ودماها ، أهدر آثارها واستثنى من ذلك سداثة البيت ، وكانت لبني عبد الدار فأقرها فيهم ، ولا تزال كذلك حتى اليوم ، وسداثة البيت هي خدمة الكعبة ، كما استثنى ﷺ أيضا سقاية الحجيج ، وكانت لقريش فأقرها لهم .

وفي هذه الفقرة أصدر رسول الله ﷺ شكل القصاص في قتل العمد وقتل شبه العمد ، فجعل قصاص العمد قتل القاتل بالقتيل ، وهو القَوْدُ ، وحدد دية القتل شبه العمد بمائة بعير لا غير ، ومن زاد عليها فقد خالف قواعد الإسلام واستمسك بعادات الجاهلية .

وفي غواية الشيطان المسلمين في أرض الحجاز وصرفهم عن عبادة الله يقول ﷺ : «أما بعد : أيها الناس ، فإن الشيطان قد يتس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يُطْعَ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم » .

المعنى المقصود بعبادة الشيطان هو طاعته في الانصراف عن عبادة الله ، والعودة إلى عبادة الأصنام ، وهذا المعنى مأخوذ من قوله - عز وجل - في سياق حديث سيدنا إبراهيم لأبيه : «يَتَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا»^(٢) ومن ثم كانت عبادة الأصنام ، قد صارت مستحيلة في أرض الحرمين ، ولن تعود إليها أبدا ، مصداقا لقوله ﷺ : « إن الشيطان قد يتس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا » ولقد كان هذا القول انسجاما مع قول الله - عز وجل - : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾^(٣).

(١) البيان والتبيين ٢ / ٣١ والعقد الفريد ٤ / ٥٧ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٤٤ .

(٣) التوبة ، الآية : ٢٨ .

ولأن العرب كانت تتحايل على شهور السنة بالنسبة - وهو التأخير - وذلك بتأخير أحد الأشهر الحرم عن ميعاده ، أو يُحْلَوْنَ شهرا حراما ويحرمون شهرا من غير الأشهر الحرم ، وهى عادة جاهلية قديمة ، فقد حكم الرسول على هؤلاء المزيفين للأشهر - عن طريق النسبة - بالكفر ؛ لأنهم يحلون عامما ويحرمونه عامما . وفى ذلك يقول ﷺ : «أيها الناس : إن النسبة زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلون عامما ويحرمونه عامما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله » .

والمعروف أن الأشهر الحرم أربعة ، هى : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، فكانوا فى بعض السنين يحلون المحرم - مع أن اسم الشهر يؤكد تحريمه - ويحرمون صفر الذى يتلوه ؛ ولذلك كانوا يسمون المحرم وصفر بالصَّفَرَيْنِ ، وكان تحريمهم لهذا الشهر وإحلالهم لذلك بقصد مواطأة عدة الأشهر الحرم ، وهى أربعة .

وتمضى خطبة الوداع فى التعامل مع الزمان الذى يتحتم التزامه والابتعاد عن العبث به ، فقد حدد الخالق سبحانه الشهور وعددها منذ بدء الخليقة ، وفرض فيها أربعة محرمة ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ﴾ .

هكذا حدد القرآن الكريم عدد الشهور الحرم بأربعة ، ثم جاءت السنة الشريفة فتحدت من خلالها أسماء هذه الشهور ، وهى طبقا لما جاء فى خطبة الوداع : ثلاثة متوالية - ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم - ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . ولقد حدد الرسول رجب بنسبته إلى مضر التى كانت تلتزم به بين جمادى الثانية وشعبان ، وذلك حتى لا يختلط مع رجب ربيعة ؛ لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجا . فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

يقول الرسول ﷺ فى سياق الزمان : « وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

يقول أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي المتوفى ٣٨٨ هـ في شرح هذه الفقرة من خطبة رسول الله : « كان أهل الجاهلية يخالفون بين أشهر السنة بالنسبة الذي كانوا يعتادونه ويقطعون به نسقها ، فيقدمون ويؤخرون كتأخيرهم المحرم إلى صفر ، وقد ذكر الله - سبحانه - ذلك في كتابه فقال : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْكِرُونَهُ عَامًا ﴾ ﴿١﴾ إنما كانوا يفعلون ذلك لأسباب تعرض لهم ، وذحول - أحقاد - ودماء تقع بينهم ، فربما استعجلوا الحرب ، فاستحلوا الشهر المحرم ، ثم حرموا من أجله شهر صفر بدلا منه ، وإذا استحلوا رجبا حرموا من أجله شعبان ، وعلى هذا القياس في سائر الشهور ، فيتحول حسابهم في شهور السنة ، و يتبدل إذا أتى على ذلك عدة من السنين حتى يتصرم ذلك الحساب ويستدير ويعود الأمر إلى أصل الحساب فيستقبل أول السنة من لدن المحرم ، فانفق عام حج النبي ﷺ استدارة الزمان وعوده إلى أصل ما أنشئ عليه حساب أشهر السنة أولا ، فوقع الحج في شهر ذى الحجة » .

ويمضى أبو سليمان الخطابي قائلا : « وقد ذهب قوم من العلماء إلى أن النبي ﷺ إنما تأتى بالحج وأخره مع الإمكان إلى السنة التي حج فيها للذي كان وقع من النسب فيها حتى وافوا السنة التي حج فيها استدارة الزمان وعود الأمر في ذلك إلى أصل الحساب ، فحج فيها حجة الوداع » (١) .

وهناك تعليل آخر قال به بعض الدارسين المحدثين حول قول الرسول : « وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » على هذا النحو :

كانت خطبة الوداع يوم الجمعة ٩ من ذى الحجة سنة ١٠ هـ ، أى : قبل عشرين يوما من غرة المحرم سنة ١١ هـ ، وهو اليوم الذى وافق بداية العام العبرى ، وهو تقويم قمرى الشهر شمسى السنة يؤرخ به العبرانيون لبدء الخليقة التى يحددون لبدايتها سنة ٣٧٦١ ق . م . فهناك من الباحثين من يربط بين الحديثين : خطبة الوداع

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخارى ٣ / ١٧٨١ ط مركز إحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى .

وموافقتها زمنا لبداية العام العبرى ، ويرى أن هذا التاريخ يمثل استدارة الزمان كيوم خلق الله السموات والأرض ، وهو ما عبر عنه الرسول ﷺ في قوله : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » .

وأما الاثنا عشر شهرا فهي الشهور العربية وليس غيرها . وهى التى أقرها الإسلام وعناها القرآن ، وإن كان ما ذكر منها فى القرآن الكريم هو شهر رمضان وحده دون غيره ؛ لأنه الشهر الذى تقترن به الفريضة الثالثة وهى الصوم .

ولأن المجتمع البشرى بعامة والمجتمع الإسلامى بخاصة محوره الأسرة الصالحة ، ولا يتم صلاح الأسرة إلا بصلاح الزوجة وامثالها للوصف الربانى الذى جعلها سكنا لزوجها مقترنا بما يربط بينهما من مودة ورحمة . فقد قرر ﷺ فى خطبة الوداع حقوق كل من الزوجة والزوج موصولة الأسباب بواجباتهم :

« أما بعد : أيها الناس ؛ فإن لكم على نساءكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله » .

لقد بدأ رسول الله ﷺ بذكر حق الزوج ، ثم ثنى بذكر حق الزوجة ؛ لأن الرجال قوامون على النساء ؛ ولأن الله - سبحانه - بدأ خلق الإنسان بالرجل ثم المرأة - آدم ثم حواء - ويحمل رسول الله حق الأزواج على الزوجات بقوله : « ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه » . وقد ذهب الشراح فى ذلك مذاهب شتى ، حتى إن بعضهم فسّر عبارة « ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه » بالزنا ، وهو تفسير خاطئ ، لما ينبى على الزنا من حدّ وهو هنا الرجم ، وأما المعنى المقصود فهو ألا يأذن لأحد يكرهه الزوج فى دخول البيت والجلوس مطمئنا مرتاحا ، على فرش موطأ ، أيا كانت شخصية هذا الأحد ، رجلا كان أو امرأة ، قريبا أو غريبا ، وقد كانت عادة العرب فى جاهليتهم أن يجالس الرجال النساء فى غير ما إحساس برية أو شعور بالعيب .

وعلى الزوجة أيضا ألا تأتي بفاحشة مبينة ، والمعنى الذى يتبادر إلى الذهن هنا هو تفسير الفاحشة بالزنا ؛ لأن من معانى الفاحشة الزنا ، ولكن هذا التفسير مستبعد أيضا للسبب الذى ذكرنا فى « ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه » .

وعلى كل حال فقد ذهب المفسرون فى تعريف الفاحشة المبينة مذاهب شتى ، فقال بعضهم : إنها الزنا ، وقال آخرون : إنها سائر المعاصى بما فى ذلك الزنا ، وهناك فريق فسر الفاحشة المبينة فى ضوء ما تناولها به الرسول ﷺ فى خطبة الوداع وقرر أن المقصود بالفاحشة هنا هو بغض الزوج والنشوز ، أو هو الأذى وبذاءة اللسان على الأهل ، وسوء العشرة .

تلك هى حقوق الزوج ، فإذا لم تقم بها الزوجة « فإن الله قد أذن لكم - معشر الأزواج - أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح » لأن الزوجة التى تأتى من الأفعال ما قد سلف ذكره تكون قد أدخلت بروح الوثام ، وهدمت ركن المودة ، وسلبت الزوج حق السكينة ، وهى قضايا تعرفها الزوجة ، ومن ثم تكون مستحقة للتأديب الذى أذن الله تعالى به من هجر فى المضاجع ، وضرب غير مبرح ، وتلك حقوق مقررة للزوج ، ليس حيال كل زوجة - فالزوجة الصالحة خليقة بالتكريم ، جديرة بالاحترام - ولكن حيال الزوجة المستحقة للتأديب مثلما يؤدب الناشئ من الصبية والفتيات .

فأما الزوجة المبرأة من هذه النقائص فلها جميع الحقوق التى نص عليها الشرع ، والتى تمثل لها الرسول بثلاث كلمات جامعات هى « رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

وقد تضمنت هذه الفقرة من خطبة الوداع من التوصية بالنساء ما لم يتضمنه قانون سماوى سابق ، ولا تشريع دنيوى لاحق من الإبانة والوضوح وجليل السبب وكريم التعليل : « واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان - أى كالأسرى - لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله » .

وتشبيه الزوجات بالعوان ليس فيه ما يضير مشاعرهن ؛ لأن الزوجة أكثر تصرفاتها

مقيدة بموافقة الزوج ، الزوج المتصف بالعدالة وحسن المعاملة ، فقد روى عن الرسول ﷺ قوله : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » (١).

وتمضى كلمات رسول الله في خطبته تلك مسربة بالنور ، وضاعة السنا طاهرة الصوغ ، نقية اللفظ ، ربانية الأحكام في قوله : « إنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله » .

ذلك أن الله - سبحانه - قد استأمن الأزواج على نساءهم ، وهذا أمر واضح في وصية رسول الله بهن ، وأى أمانة أحرى بالعناية من أمانة الله؟! وأما كلمات الله التي بها صارت الزوجات حلالا لأزواجهن فهي كلمة التوحيد ، وهي أسمى كلمة في الكون ، فهي جسم الإيثار ومفتاح الجنة .

ويعمى موكب كلمات النور المضيئة من فم رسول الله : « فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإنني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه » .

« أيها الناس : اسمعوا كلامي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت » .

إن الرسول - وقد غمره الإلهام بتوقف الرحلة ونهاية الطريق - ينبه جماعة المسلمين إلى أن هداهم وإيمانهم سيظلمان النور الذي يهديهم ، والنبراس الذي يبين حياتهم ما كانوا معتصمين بكتاب الله وسنة رسوله ، فإن تخلوا عن أحدهما أو كليهما غمر الضلال حياتهم ، وغلب الذل على أمرهم ، وتحولوا من سادة الدنيا إلى سقط المتاع .

ثم يؤكد الرسول ﷺ على سامعيه في الموقف أن يجمعوا بين سماع القول والعمل به ، وفحوى ذلك أن المسلم أخو المسلم ، وقد أكدت الرسالة منذ بزوغ نورها على هذا المفهوم قرآنيًا في قوله - جل وعز - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وسنيًا في قوله ﷺ :

(١) رواه ابن ماجه في باب النكاح ، وكذلك الدرهمي .

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» وهذه الأخوة لكى تَوْتَى ثمارها « لا يجل لأمريء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه » هى إذن أخوة مبرأة من كل إثم أو اعتداء أو انحراف ، وإن الانصراف عن هذه الالتزامات يُعَدُّ بمثابة إيقاع الظلم بالجماعة الإسلامية ، ولقد صدق رسول الله ﷺ قولا وفعلا وتوقعا وتنبؤا ، فما أن تساهل المسلمون فى أخوتهم حتى ضاعت أرضهم ، واغتصبت أوطانهم وأعراضهم ، وتمزقت كياناتهم ، واستذلت جموعهم ، فضاعت الأندلس ، واغتصبت فلسطين ، وتقاتل الأفغان بعد انتصار ، وأحرقت البوسنة والهرسك ، واغتصبت فيها أعراض المسلمين الحرائر ، واستذلت قلة من الهندوس ملايين المسلمين فى كشمير ، وطورد المسلمون فى أوطان يشكلون الأغلبية بين سكانها ، بل طورد المسلمون فى ديارهم بأيدي حكام منهم .

إن المسلمين تخلوا عن أخوتهم التى ألزمهم القرآن والسنة بالاستمسك بها ، فتخلى عنهم المجد ، واختفت عنهم العزة ، وتفرقت شملهم بعد اجتماع ، وتبدد جمعهم بعد التثام .

لقد بلغهم رسول الله فى قوله الشريف بين الفقرة والأخرى مشهدا الله على التبليغ : اللهم هل بلغت ، فقال الناس : اللهم نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم فاشهد » . وفى رواية الجاحظ وابن عبد ربه للخطبة أوردا فيها قضية الميراث والوصية فى المال وحدودها وأحكاما أخرى ، وذلك فى قوله الشريف : « أيها الناس ، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

كانت خطبة الوداع أو خطبة البلاغ تأدية للشهادة وتبليغا للأمانة ، وطرحا للوصايا الأخيرة ، أخذ فيها الرسول على المسلمين العهد والميثاق ، ومحا فيها آثار الجاهلية وطمسها ، ووضعها تحت قدميه ، ووضع المسلمين على المحجة البيضاء .

خطبة الفراق :

كانت خطبة رسول الله ﷺ يوم عرفة خطبة الوداع ؛ فيها - كما رأينا - شرع أحكاماً نهائية في موضوعات متصلة الأسباب بالعقيدة وبالنصح والإرشاد والتوجيه وإبطال عادات جاهلية كانت بعض ظلالها تطل على الساحة الإسلامية ، وغير ذلك من الأحكام التي سلف ذكرها . وبذلك كانت هذه الحجة - الوحيدة - بمثابة وداع في إصدار الأحكام وتشريع المبادئ التي قضى الله - سبحانه وتعالى - بإكمالها وتكفل بأكملها ، فنزلت الآية الكريمة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

ويبقى بعد ذلك محمد الإنسان الذي يغادر الدنيا بعد أن أدى أسمى رسالة ، ويستقبل الآخرة ليلقى وجه ربه آمناً مطمئناً ، وقد سعى المرض إلى أوصاله وآلم جسمه الشريف ، فأراد أن يبرىء ذمته - وهي بريئة مطهرة - من كل دين ، ويسدّ دينه إن كان ثمت ما هو مستحق عليه من مالٍ أو قودٍ (قصاص) .

عن الفضل بن عباس قال : جاءني رسول الله ﷺ فخرجت إليه فوجدته موعوكا قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدي يا فضل ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ثم قال : ناد في الناس ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا مني خفوق بين أظهركم (خفق النجم يخفق خفوقا : غاب ، وخفق الطائر : طار) فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فلست قد منه (من القود : وهو القصاص) ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليست قد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ولا يَحْتَسِ الشَّحْنَاءَ من قبلي ؛ فإنها ليست من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ مني حقا إن كان له ، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس . وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عنى حتى أقوم فيكم مرارا »

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالاته الأولى .

فادعى رجل عليه بثلاثة دراهم ، فأعطاه عوضها ، ثم قال :

« أيها الناس : من كان عنده شيء فليؤده ، ولا يقل فُضُوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » .

ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال : « إن عبداً خيّر الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده » فبكى أبو بكر وقال : فدينك بأنفسنا وآبائنا .

إن محمداً ﷺ يعلم أنه لم يأكل حقاً ، ولم يشتم عرضاً ، ولم يظلم صاحب قضية ، ولكنه يضرب المثل الطيب للناس - كل الناس - حين تقرب الآخرة ، وتدق ساعة الفراق ، أن يتركوا صفحاتهم بيضاء ، فيردوا إلى كل صاحب حق حقه ، ولكل صاحب دين دينه ، ولكل صاحب قودٍ قصاصه ، حتى يلقي الله طيب النفس ، أهلاً للرضى ، خليقاً بالمغفرة ، ولا يخشى في ذلك خجلاً ، أو يخاف فضيحة ؛ فخجل الآخرة لا ينفع ، وفضيحة الدنيا لا تساوى شيئاً إزاء فضيحة الآخرة .

كانت هذه المبادئ مؤذنة بالفراق ، معبدة الطريق إلى جنة الرضوان ، وهو ما عبّر عنه رسول الله ﷺ قائلاً في شفافية من اللفظ ، وروحانية من العبارة : « إن عبداً خيّر الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » . ففهم الصحابة أن ساعة الفراق قد حانت ، وأن رحلة رسول الله إلى الآخرة قد دنت ، فأجهشوا بالبكاء . وقال صاحبه وصديقه أبو بكر باكية : « فدينك بأنفسنا وآبائنا يا خير خلق الله » .



أدعية رسول الله ﷺ وروحانياته

الفصل الأول : الدعاء والتسبيح والابتهال .

الفصل الثاني : الأحاديث القدسية .



الفصل الأول

الدعاء والتسبيح والابتهاال

الدعاء والتسبيح والابتهاال

الله - سبحانه - هو خالق الكون ، بديع السموات والأرض ، المنعم اللطيف الخبير ، الرزاق الرحمن الرحيم ، يعيش الخلق جميعا تحت رحمته ، لا تغفل عنايته عنهم طرفة عين ، ومن ثم كان دعاؤه غفرانا ، وتسبيحه رضوانا ، والابتهاال إليه عرفانا .

العباد يدعون ويسبحون ويبتهلون ويسألون ، وهو - سبحانه - أرحم مدعو ، وأكرم مسئول ، وبقدر ما يكون الدعاء صادرا من قلب مؤمن ونفس مطمئنة ، بقدر ما تكون الاستجابة ، فهو - عز وجل - المشجع على الدعاء في قوله - تعالى - : ﴿ اَدْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وهو - سبحانه - غافر الذنب ، قابل التوب ، ، وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله - تعالى - فيغفر لهم » (١) .

ودعاء الله عنوان العبودية الخالصة والإيمان الكامل ، وقد كان رسول الله ﷺ أقرب الناس عبودية ، وأكملهم إيمانا وأدناهم إلى ربه ، وأحبهم إليه ، وأعزهم مكانة لديه ، ثم هو ﷺ أفصح الفصحاء وأبين الأبياء وسيد الأنبياء ، فكان دعاؤه أبلغ الدعاء ، واستغفاره أنقى الاستغفار ، وتسبيحه أسمى التسبيح ، وابتهاالاته أعمق الابتهاالات .

إن كنوز الدعاء التى أثرت عنه ﷺ من الشفافية بحيث لا يطاؤها دعاء ، ومن الصفاء بحيث لا يدانيها نقاء ، ومن القبول بحيث تقرب من يحفظها ويرويها ويرددها إلى الحضرة الربانية ، لينال الرضى ويحظى بالغفران .

لقد دعا رسول الله ربه فعلمنا أدب الدعاء ، واستغفر فدلنا على نهج الاستغفار ،

(١) صحيح مسلم ، كتاب التوبة .

واستعاذ بالله فرسم لنا صيغ التعوذ بالذات العلية تنزهت ذاته وتقدست أسماؤه .

والرسول ﷺ يختار لكل موقف ما يناسبه من دعاء ، ولكل مناسبة ما يليق لها من ابتهاج . في الليل والنهار ، وفي الصباح والإساءة ، وعند النوم والاستيقاظ ، وساعة الخروج من البيت والعودة إليه ، وقبل الصلاة وأثناءها وفي أعقابها ، وعند السجود وساعة التشهد ، وحتى إذا استيقظ المسلم من نومه وسط الليل ، وهكذا يعيش المرء كل طرفة عين قريبا من ربه . ذاكرا لذاته ، مسبحا بحمده ، مرددا لصفاته ، مقبلا عليه ، مبتهلا إليه .

مطلق الدعاء :

إن الرسول يدعو الله بعلمه الغيب وقدرته على الخلق وفي دعائه - كما يقول ابن تيمية - أدب الطلب من الخالق الأعظم ، وهو دعاء دعا به عمار في الصلاة . يقول ﷺ :

« اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، من غير ضراء مُمْضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » (١) .

وعن ابن مسعود يقول : كان دعاء رسول الله ﷺ :

« اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمه من كل برّ ، والفوز بالجنة والنجاة من النار » (٢) .

الرسول ﷺ في الحديث الأول يدعو الله دعوات تليق بكمال الله ، وتناسب سليقة خير خلق الله ، فيسأله الجنة بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم ، وإذا كان هذا

(١) الحاكم في المستدرک : کتاب الدعاء ١ / ٥٢٥ .

(٢) کتاب النبوات ، ص : ٦٧ رواه النسائي

الدعاء تميز بشيء من التفصيل فإن الدعاء في الحديث الثاني يتميز بالإيجاز الذي يشتمل على مدلولات المعاني التي جاءت مفصلة في سابقه ، وكل من الحديثين الشريفين آية من آيات الإعجاز النبوي في البلاغة والتبيين .

ومن أحاديث الدعاء التي تشتمل على صلاح الدين والدنيا والآخرة قوله ﷺ :

« اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ » .

ومع أن الرسول ﷺ معصوم من الخطأ والخطايا ، وأنه رسول الله وحبيبه ، فإنه كان دائم الدعاء بالمغفرة ؛ لأن الدعاء في حد ذاته يُقرب إلى الله ، ولكي يعلم الأمة الإسلامية كيف يكون الدعاء بالمغفرة .

« عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي ، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدِمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » متفق عليه .

إن الله - سبحانه - يحب من العبد أن يبتهل إليه ساعة الدعاء ، فيذكر إيبانه به ، وتوكله عليه ، والإذعان لأحكامه ، وهو ما كان يفعله رسول الله ﷺ بين يدي الدعاء .

« عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلْتُكَ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ وَبِكَ حَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَأَغْفِرْ لِي مَا قَدِمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ . رَأَى بَعْضُ الرَّوَاةِ : وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » متفق عليه

ومن دعاء الرسول ﷺ الذي يتسم بالشمول مع فرط الأدب في الطلب ، وكمال

العبودية في السؤال ، ما رواه عبدالله بن عباس - رضى الله عنهما - قال : بعثنى أبى العباس إلى رسول الله ﷺ فبُتُّ عنده ، فسمعته يدعو :

« اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلتمُّ بها شعبي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وترزقي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها الفتن عني ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ونزُل الشهداء ، وعيش السعداء والنصر على الأعداء (*) .

ومعنى الفوز عند القضاء يعنى يوم الحساب .

الرسول يعلم آل بيته وأصحابه الدعاء :

كان عطف رسول الله ﷺ يفيض على كل الذين حوله سواء أكانوا من أهل بيته الشريف أم من صحابته ، أم من السائلين من عامة المسلمين ، وكان عطفه ﷺ عليهم يشمل كل ألوان الخير ، حتى الدعاء كان يعلمهم إياه ، حينما يعلمهم تطوعا منه وفضلا ، وحينما آخر يعلمهم بالأجوبة على أسئلتهم حين يسألونه .

فمن آل البيت كانت أم المؤمنين عائشة ، والحسن السبط وعبدالله بن عباس ، ومن الصحابة كان أبو بكر ، وجابر بن عبدالله ، وجابر بن حميد ، والطفيل بن عمرو الدوسي ، وغيرهم من هؤلاء وأولئك .

قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة عليك بجمل الدعاء وجوامعه . قالت : يا رسول الله ، وما جمل الدعاء وجوامعه ؟ قال : « قولى : اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأسألك مما سألك به محمد ، وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد ، وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رشدا » الحديث ٦٣٩ من الأدب المفرد للبخارى .

(*) هذا الحديث روته بعض المصادر وفي متنه بعض الزيادات ، ولكننا اعتمدنا هذه الرواية لأنها رواية حافظ المغرب القاضى عياض طبقا لما أثبتها في كتابه « الشفا » ص : ٤٦ .

ومن آل البيت الذين علمهم رسول الله ﷺ الدعاء ، سبطه الحسن ، لقد سأله الحسن عن كلمات يقولها في صلاة الوتر ، فعلمه الدعاء الشريف الذى عرف بعد ذلك بالقنوت :

عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - قال : علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » عن كتاب الأذكار للإمام النورى .
وفي هذا المقام يقول عبدالله بن عباس :

كان الرسول يعلمنا هذا الدعاء كما يعلمنا السورة من القرآن : « أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من فتنة القبر » الحديث ٦٩٤ من الأدب المفرد للبخارى .

ويسأل الصديق أبو بكر رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته مثلما سأله الحسن السبط على هذا النحو :

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعوه به في صلاتى . قال : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَأَغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » متفق عليه (وفي رواية) « وفي بيتى » وروى « ظلما كثيرا » وروى « كبيرا » - بالثاء المثلثة وبالباء الموحدة - فينبغى أن يجمع بينهما فيقال : كثيرا كبيرا .

والصحابى شَكل بن حميد - رضى الله عنه - يسأل الرسول أن يعلمه دعاء ، فيكون من شأنه ، ما كان من شأن أبى بكر :

عن شَكل بن حميد رضى الله عنه قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : عَلِّمْنِي دُعَاءَ قَالَ : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي وَمِنْ

شَرِّ مَنِّي » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . رياض الصالحين ص ٤٧٩
ومن الأدعية التي كان رسول الله ﷺ يعلمها للصحابة ، يقول الصحابي جابر بن
عبدالله : إن الرسول كان يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن :

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنها قال : كان رسول ﷺ يعلمنا الاستخارة في
الأمور كلها كالسورة من القرآن . يقول : « إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير
الفريضة ثم ليقول : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من
فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم
إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال فى عاجل
أمرى وآجله - فاقدِّره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لى
فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال : عاجل أمرى وآجله - فاصرفه عنى ، واقدر لى
الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، قال : ويسمى حاجته . »

يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة : قل يا أيها الكافرون . وفى الثانية : قل هو الله
أحد . عن كتاب الأذكار للإمام النووى ص : ١١٠ .

وجاء النبى ﷺ رجلاً من عامة المسلمين يسأله دعاء يسأل به ربه طبقاً لرواية مسلم
على هذا النحو :

فى رواية عن طارق أنه سمع النبى ﷺ وأتاه رجل فقال : يا رسول الله كيف أقول
حين أسأل ربى ؟ قال : « قل اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى فإن هؤلاء تجمع
لك دنياك وآخرتك » رياض الصالحين ص : ٤٧٦ . وكأنما خشى رسول الله ﷺ أن
يَسْتَقِيلَ السائل حجماً الدعاء مع أنه يجمع المغفرة والرحمة والعافية والرزق ، وهو جُل ما
يطلبه سائل من خالقه ، فأراد - لطفاً منه وإيناساً - أن يطمئن السائل ، فقال له : « إن
هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » وهى صبيغة فى قمة الإيجاز فى الدعاء .

ويروى الصحابي الجليل جابر بن عبدالله هذا الحديث المعلم على النحو التالى :

عن جابر بن عبدالله أن النبى ﷺ رقى المنبر ، فلما رقى الدرجة الأولى قال : « آمين »
ثم رقى الثانية فقال : « آمين » ثم رقى الثالثة فقال : « آمين » . فقال : يا رسول الله ،

إننا سمعناك تقول آمين ثلاث مرات . قال : « لما رقيت الدرجة الأولى جاءني جبريل ﷺ فقال : شَقِيَّ عَبْدُ أَدْرِكَ رَمَضَانَ فَاَنْسَلِخْ مِنْهُ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، فَقُلْتَ : آمِينَ . ثُمَّ قَالَ : شَقِيَّ عَبْدُ أَدْرِكَ وَالِدِيهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ ، فَقُلْتَ : آمِينَ . ثُمَّ قَالَ : شَقِيَّ عَبْدٌ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ وَلَمْ يَصَلِّ عَلَيْكَ . فَقُلْتَ آمِينَ » . الحديث ٦٤٤ الأدب المفرد للبخارى .

ومن لطائف رسول الله ﷺ في تعليم الصحابة أدب الدعاء هذا الخبر :

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن دَوْسًا قد عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ عَلَيْهَا ، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه ، فظن الناس أنه يدعو عليهم ، فقال : «اللهم اهدِ دَوْسًا وَاثَّتْ بِهِمْ » الحديث ٦١١ الأدب المفرد للبخارى .

لقد أراد الطفيل شيئاً ، واتفقت إرادة الناس مع إرادة الطفيل ، لقد أرادوا جميعاً شيئاً بقبيلة دوس ، ولكن سائل الرسول أبت عليه ذلك ، فدعا لهم عوضاً عن أن يدعو عليهم ، فتقبل الله دعوته .

دعاء الرسول في الصلاة :

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وهي الفريضة الأولى من فرائض التكليف ، فهي سابقة على الزكاة والصوم والحج ، وهي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين .

والصلاة لغة : هي الدعاء ، والصلاة تستفتح بفاتحة الكتاب ، وهي حمد وتسبيح وإبتهال ودعاء ، كما أنها تحتتم كذلك بالدعاء ، من أجل ذلك فإن رسول الله ﷺ قد خصها بأكبر قدر من أحاديث الدعاء إذا ما قورن بأحجام الدعاء التي خصصها ﷺ للفرائض الأخرى .

لقد رويت صيغ الدعاء عن رسول الله ﷺ في كل جزئية من جزئيات الصلاة حتى

عند سماع الأذان ، إن لكل صلاة دعاءها ، وللركوع دعاء . وللقيام منه دعاء ، وللسجود دعاء ، وللسجود التلاوة دعاء ، وللتشهد الأخير دعاء ، ولدبر كل صلاة دعاء ، وللانصراف من الصلاة دعاء ، وللقنوت دعاء .

إن أحاديث دعاء الصلاة - وقد بنى صياغتها رسول الله ﷺ ببلاغته وبيانه وشفافيته وقربه من الله ، وخشيته منه ، ومحبته له ، وابتهاله إليه ، وتمجيده لذاته ، وتقديسه لصفاته - تشكل ضرباً فريداً من صيغ التمجيد والتمجيد ، يتقرب العبد بها إلى الله حال صلاته ، بل إنه بها يزداد قرباً ؛ لأن المرء أصلاً قريب من الله في الصلاة ، مصداقاً لقول الرسول ﷺ : « أكثر ما يكون المؤمن قرباً من ربه في الصلاة » وفي رواية : « أقرب ما يكون العبد إلى ربه في الصلاة » إنه دعاء يجلو صدأ القلب ، ويذيب هموم النفس ، ويعمق الإيمان ، ويجدد شباب الروح المؤمنة .

وفىما يلي طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ تتضمن الدعاء الذى يُدعى به في الصلوات .

عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال : « اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، ورزقاً طيباً » ابن ماجه : كتاب (إقامة الصلاة) باب ما يقال بعد التسليم ١ / ٢٩٨ رقم ٩٢٥ .

ولما كان « القنوت » موصول الأسباب بصلاة الصبح وصلاة الوتر ، فقد وردت هذه الصيغة عن رسول الله ﷺ وهى دعاء وابتهاال نعيد ذكرها :

عن الحسن بن على - رضى الله عنه - : عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوَتْرِ : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَإِنَّهُ لَا يَنْدَلُ مِنْ وَالِيَّتِ ، تَبَارَكَتْ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ » زاد النسائى والبيهقى - فى روايتهما - « وَلَا يَعْزُّ مِنْ عَادِيَّتِ » .

وإذا انصرف المسلم من صلاة المغرب ومن صلاة الصبح ، وردَّ هذا الحديث سبع مرات أجزير من النار ، وهذا هو الحديث :

عن مسلم بن الحارث الصحابي - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه أسر إليه فقال : « إذا انصرفت من صلاة المغرب فقل : اللهم أجرني من النار سبع مرات ، فإنك إذا قلت ذلك ثم مُتَّ من ليلتك كُتِبَ لك جِوَارٌ منها ، وإذا صليت الصبح فقل كذلك ، فإنك إذا مُتَّ من يومك كُتِبَ لك جِوَارٌ منها » أخرجه أبو داود .

وللسجود في الصلاة أكثر من دعاء أُرث عن رسول الله ﷺ يقول - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - :

« اللهم إنى أعوذ برضاك من سَخَطِكَ ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

ويقول أيضا : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » الحديثان في صحيح مسلم (كتاب الصلاة) ما يقال في الركوع والسجود .

ومن الأدعية التى يحرص قارئ القرآن الكريم على الدعاء بها في سجود التلاوة الدعاء السابق وهو :

« اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » .

ويستحب أن يقول معه : « اللهم اجعلها لى عندك ذخرا ، وأَعْظِمْ لى بها أجراً ، وضع عنى بها وزراً ، وتقبلها منى كما تقبلتها من داود عليه السلام » .

سنن الترمذى : ما جاء فى كثرة الركوع وفضله .

وبعد أن ينتهى رسول الله ﷺ من قراءة التشهد وقبل أن يسلم للخروج من الصلاة كان يتلو هذا الدعاء بالمغفرة من كل ذنب ومن أى ذنب :

عن على - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لى ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ ، وما أَسْرَفْتُ ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » رواه مسلم

وبعد التشهد الأخير كان الرسول ﷺ يدعو الله متعوذاً من عذاب جهنم وعذاب القبر ، ومن فتن المحيا والممات والمسيح الدجال . كان ﷺ يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال »

صحيح البخارى : « كتاب الجنائز » باب التعوذ من عذاب القبر . وصحيح مسلم (كتاب المساجد) باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١ / ٤١٢ رقم ١٢٨ .

ولرسول الله ﷺ عدد من أحاديث الدعاء كان يقونها بعد الصلوات ، فبعد صلاة الصبح وقبل أن يصدر عن المصلّي كان يهليل ويكبر بدعاء جيد يردده تكتب له به عشر حسنات ، وتمحى عنه عشر سيئات وترفع له عشر درجات .

عن أبى ذر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من قال في دبر صلاة الصبح وهو ثابنٍ رجله قبل أن يتكلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير عشر مرات ، كتب له عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وكان يومه ذلك في حرز من كل مكروه ، وحُرِس من الشيطان ، ولم ينبغ لذنب أن يدركه في ذلك اليوم إلا الشرك بالله تعالى » أخرجه الترمذى

وعن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلاة بهؤلاء الكلمات :

« اللهم إني أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أُرذِل إلى أُرذل العُمُر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر »

وعن أنس : كان النبى ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : « اللهم اجعل خير عمري آخره ، وخير عملى خواتمه ، واجعل خير أيامى يوم ألقاك » ابن السنى رقم ١٢٠ .

وقد مرّ بنا قبل قليل أن أبا بكر الصديق طلب من رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء

يدعوه في صلاته ، وهو : عن أبى بكر الصديق أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعوه به في صلاتى ، قال : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » البخارى والبيهقى .

دعاء التَعَوُّذ :

من كمال الإيمان أن يلجأ العبد إلى ربه يسأله الرضى والعون ، ويستعيذ به من كافة الشرور الصادرة عن انحراف بعض الخلق ، وأن يسأله السلامة فيما سوف يعرض له بعد أن يودع هذه الحياة ، ويبدأ الحياة الآخرة فى دار الحق واليقين .

وإذا ما تعوذنا بالله مما قد يلّم بنا من شرور فنحن إنما نستجيب لتوجيهات الخالق - جل وعلا - فيما ورد فى الكتاب العزيز من صيغ التعوذ ، ثم نثرى عقيدتنا بها أثر عن رسول الله ﷺ فى هذا المجال .

إن المؤمن كلما أحسّ بمكروه فى طريقه لأن يلّم به ، أو أمر يخيفه سارع إلى التعوذ بخالقه ، قائلا : أعوذ بالله ، أو أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهى الصيغة التى يستفتح بها قارئ القرآن التلاوة ، بل إن آخر سورتين فى القرآن الكريم يطلق عليهما المعوذتان ، وهما سورة الفلق وسورة الناس .

وكان رسول الله ﷺ كثير التعوذ بالله - سبحانه وتعالى - وكان أكثر ما يتعوذ بالله منه فتنة النار وعذابها ، وفتنة القبر وعذابه ، وشر الغنى ، وشر الفقر ، والبلاء والشقاء ، والهلم ، والحزن ، والعجز ، والبخل ، والدّين ، والجوع ، والخيانة ، والأمراض والأسقام ، وغير ذلك مما يضر الإنسان فى حياته الدنيا ، أو يؤذيه فى حياته الآخرة .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » رواه مسلم (رياض الصالحين ص : ٤٦١) .

وكان رسول الله ﷺ يتعوذ عند النوم بهذه الدعوات :

« اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامة من شرّ ما أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم ، اللهم لا يهزم جندك ولا يُخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد ، سبحانك وبحمدك » سنن أبي داود ، باب ما يقول عند النوم : ٥ / ٣٠٠ رقم ٥٠٥٠ .

وعن عائشة - رضی الله عنها - أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر الغنى والفقر » رواه أبو داود والترمذی وقال : حديث حسن صحيح .

وكان النبي ﷺ يتعوذ من الإصابة بالأمراض والأسقام ، وكان يسمى بعضها في تعوذه بأسمائها ، مثل البرص والجنون والجدام ، مثلما كان يتعوذ من الجوع ويصفه بأنه بس الضجيع ، ويتعوذ من الخيانة ويصفها بأنها بثت البطانة .

ففي تعوذه ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجدام وسىء الأسقام » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(وعن) أبي هريرة - رضی الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بثت البطانة » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

وكثيرا ما كان رسول الله ﷺ يمزج بين التعوذ والدعاء ، كان يتعوذ بالله من العجز والكسل والبخل والهّم وعذاب القبر ، ثم يتبع ذلك متجها إلى ربه بدعاء يجتهد هذه الآفات التي يتعوذ منها ، مثل ما ورد في حديث زيد بن أرقم :

عن زيد بن أرقم : كان رسول الله ﷺ يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهّم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن دعوة لا تستجاب . »

صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأهل النار النساء ٤ / ٢٠٩٧ رقم ٩٦ .

وقد ورد تعوذه ﷺ من الجبن والبخل والعجز والهرم وفتنة الدنيا وفتنة القبر في عدد من الأحاديث ، ذلك لأنها معائب ومصائب يُخشى وقوعها ، فكان ﷺ يتعوذ منها في دبر الصلوات ، حيث تكون أبواب السماء مفتوحة لولوج الدعوات .

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات :
« اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من فتنة القبر » رواه البخارى (رياض الصالحين ص : ٤٦٠) .

ويروى البخارى مرة أخرى هذا الحديث ومواد التعوذ فيه بتقديم وتأخير ، وكان الرسول ﷺ يتعوذ من الشيء الواحد بأكثر من صيغة .

كان رسول الله ﷺ يتعوذ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من البخل » الحديث ٦١٥ في الجزء الثانى من الأدب المفرد . والكسل هو : التغافل عما لا ينبغي التغافل عنه .

ويستعيذ رسول الله ﷺ فيما يرويه أنس من هذه الهموم - فهي أصعب هموم الإنسان السوى وأشدّها - مع بعض الزيادات .

في الصحيحين عن أنس ؛ كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » وفي رواية : وضلع الدّين - أى : شدته وثقله - وغلبة الرجال .

صحيح البخارى (كتاب الدعوات) باب التعوذ ٨ / ٩٧ ، ٩٨ .

صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب التعوذ من العجز ٤ / ٢٠٧٩ رقم ٥٠ .

ومن صيغ التعوذ بالله من المصائب التى يتعوذ المرء منها ما رواه أبو هريرة :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « تعوذوا بالله من جهد البلاء ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ ، وسوء القضاء ، وشئانة الأعداء »

البخارى : (كتاب القدر ، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء ٨ / ١٥٧) .

ومسلم : (كتاب الذكر) باب في التعوذ من سوء القضاء ٤ / ٢٠٨٠ رقم ٥٣ .

هذه نماذج من أحاديث الدعاء بالتعوذ بالله من مصائب تصيب المسلم ، أو نكبات يخشى وقوعها ، أثرت عن الصادق الشفيح ، نسأل الله أن ينفعنا ببركتها .

أدعية رسول الله ﷺ في الصباح والمساء والليل :

الرسول ﷺ مرتبط الأسباب بخالقه - جل وعلا - في جميع الأوقات ، في كل آونة من صباح ، وكل لحظة من ليل ، بل كل طرفة عين من ليل أو نهار . وهو سيد من يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؛ ولذلك كان ﷺ كثير الدعاء في كل الأوقات بصيغ من القول مختلفة الأشكال متعددة المعانى .

كانت أدعية رسول الله في مختلف الأوقات والأزمنة تصدر عنه تمجيداً مباشراً لرب العالمين ، وأحيانا أخرى كانت تصدر عنه في صورة توجيهات نبوية شريفة للمسلمين ، كأن يقول : من قال حين يصبح كذا وكذا فثوابه كذا وكيت ، أو من قال حين يمسي كذا وكذا ، وهو في ذلك يحض كل مسلم على أن يستحضر ذكر الله في قلبه ووجدانه كل لحظة من ليل أو ومضة من نهار ، لأن الله - سبحانه - إذا كان ذكره مستقرا في ضمير المرء فإنه يعيش معصوما من الزلل ، مبراً عن اقتراف الموبقات .

وكثيرا ما كان الرسول ﷺ يسبح الله ويذكره بكلام الله جلَّت قدرته :

عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة : (باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) ثلاث مرات لم يضره شيء » وفي رواية أبي داود : لم تصبه فجأة بلاء . رواه مسلم في صحيحه .

وتمت دعاء نبوى شريف آخر لحمته وسداه كلام الله ، وهو مثل سابقه دعاء
للصباح والمساء :

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال
حين يصبح ﴿ فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ نُمَسُّوكَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ * أدرك ما فاته في يومه
ذلك ، ومن قالهن حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته . » أخرجه أبو داود .

ومثلهما كان ﷺ يذكر الله ويدعوه بكلامه - عز وجل - فإنه كان يذكره ويدعوه
ويسبحه ويمجده بكلامه الفصيح وبيانه المضيء ، من خلال صيغ التوحيد الخالص ،
والعبودية الصادقة ، والشفافية المحمدية ، وكانت هذه التسيحات تصدر في صيغ
توجيه طيب أو أوامر حانية ؛ لأن هدفها صلاح العبد ومباركته وسلامته .

عن عبد الله بن أبي أوفى - رضى الله عنهما - قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال
: أصبحنا وأصبح الملك لله - عز وجل - الحمد لله ، والكبرياء والعظمة لله ، والخلق
والأمر ، والليل والنهار وما سكن فيهما الله تعالى ، اللهم اجعل أول هذا النهار صلاحا ،
وأوسطه نجاحا ، وآخره فلاحا يا أرحم الراحمين » أخرجه أبو داود .

وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أصبح أحدكم فليقل :
أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين ، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم : فتحه ونصره
ونوره وبركته وهداه ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده ، ثم إذا أمسى فليقل مثل
ذلك » . سنن أبي داود ٥ / ٣٢٢ رقم ٥٠٩٠ .

ويورد البخارى في الأدب المفرد صيغة أخرى من أدعية رسول الله في الصباح
والإساء لا يخرج فيها ﷺ عن غاية واحدة : هى التمجيد والحمد والشكران ، مثال
قوله :

كان النبى ﷺ إذا أصبح قال : أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد كله لله ، لا

شريك له ، لا إله إلا الله ، وإليه النشور . وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك الله ، الحمد لله لا شريك له ، لا إله إلا الله وإليه المصير » الحديث ٦٠٤ من الجزء الثاني .

ومثلها كان ﷺ يسبح المولى العظيم ويوحده ويشكره ويمجده إذا أصبح أو إذا أمسى ، فإنه كان أيضا يدعو - عز وجل - بأجل ما يدعو به العبد ربه ، وبأشمل ما يطلب السائل وهو موقن بالإجابة .

يقول ابن عمر : لم يكن رسول الله ﷺ يدعُ هؤلاء الكلمات إذا أصبح وإذا أمسى : «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدي ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك من أن أغتال من تحتى » الحديث ١٢٠٠ من الجزء الثانى من الأدب المفرد .

- معنى (أغتال من تحت) يعنى : أدهى بالخسف من حيث لا أشعر .

وفى كثير من أدعية رسول الله ﷺ الصباحية والمسائية كان يتعوذ من شرور الليل والنهار ، ومن كثير من المخاوف التى يخشى المرء عاقبتها .

عن عبدالله مسعود - رضى الله عنه - قال : كان النبى ﷺ إذا أمسى قال : «أمسينا وأمسى الملك الله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ربِّ أسألك خير ما فى هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شرِّ ما فى هذه الليلة ، وشرِّ ما بعدها ربِّ أعوذ بك من الكسل ، والهزم وسوء الكبر ، أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر » وإذا أصبح قال ذلك أيضا : أصبحنا وأصبح الملك لله . . « أخرجه مسلم فى صحيحه .

وعندما كان يخرج الرسول ﷺ كان حينما يردد صيغة توكله على الله ، ثم يتبعها بالتعوذ بالله مما يقلق أو يخيف ، مثال ذلك ما روته أم المؤمنين أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية حذيفة المخزومية - رضى الله عنها - أن النبى ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله اللهم إنى أعوذ بك أن أضلَّ أو أضلَّ أو أزلَّ أو أزلَّ أو أظلمَ أو أظلمَ أو أجهلَ أو أجهلَ علىَّ » . حديث صحيح رواه أبو داود والترمذى

والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ومرات أخرى كان يكتفى بصيغتي التوكل والحوقة ، مثال ذلك ما رواه أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال - يعنى إذا خرج من بيته - : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى والنسائي وغيرهم ، وقال الترمذى : حديث حسن ، زاد أبو داود : فيقول - يعنى الشيطان لشيطان آخر - : كيف لك برجل قد هُدى وكُفَى ووُقِيَ؟!

أدعية الرسول ﷺ عند النوم :

كان قلب الرسول ﷺ دائم الخشوع ، موصول الخضوع لخالقه في صباحه ومساءه وعند نومه ، ويجب لأتباعه المؤمنين برسالته أن يكون الواحد منهم مرتبط القلب بذكر الله ، وتلك طبيعة في تكوين النفس المسلمة ، فهى دائمة الذكر كاملة الخضوع ، كثيرة التفكير فى الله ، حامدة فضله ، شاكرة نعمته ، معظمة قدرته ، ومن ثم ظلت هذه النفس منقادة لخالقتها ، مقتدية برسوله الأعظم عبادة وحمدا ، وخشوعا وذكرا ، ودعاء وابتهاالا .

لقد أثر عن رسول الله ﷺ عدد كبير من أحاديث الدعاء عند النوم ، وتدور جميعها حول المعانى السامية ، والمواقف الخاشعة ، والأمانى الإيانية التى مرّ ذكرها .

فى الصحيحين عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمتُ نفسى إليك ، وفوضتُ أمرى إليك ، وأجأتُ ظهرى إليك ، أمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ ونبيك الذى أرسلتَ . فإن مِتَّ على الفطرة ، واجعلها آخر ما تقول » .

ويردُ الحديث برواية أخرى قليلة الاختلاف مع الرواية السابقة لنفس الصحابى الجليل : البراء بن عازب ، خالية من الأمر بالتوضوء قبل أن يذهب المسلم إلى مضجعه :

عن البراء بن عازب :

كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال : « اللهم إني وجهت وجهي إليك ، وأسلمت نفسي إليك ، وأجأت ظهري إليك ، رهبةً ورغبةً إليك ، لا منجاً ولا ملجأً منك إلا إليك ، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت ، ونبيت الذي أرسلت » .
قال « فمن قاهن في ليلة ثم مات ، مات على الفطرة » الأدب المفرد الحديث ١٢١١ .
معنى (مات على الفطرة) أى : على هيئة متهيئة لقبول الإسلام ، مع خلو نيته عما يحثه على الكفر .

وقد روى مسلم في صحيحه الحديثين التاليين ، وكل منهما صيغة محمدية رفيعة القدر ، سامية الدرجة في تمجيد الخالق الأعظم قبل النوم ، والتقرب منه والابتهاال إليه ، وإن كان الحديث الثانى قد اشتمل على دعاءين في قضاء الدين والغوث من الفقر :

« اللهم ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم وربّ كلّ شيء ، فالقّ الحبّ والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها » مسلم .

وقوله ﷺ :

« اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » مسلم .

وفى حديث رواه عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - أن لرسول الله صيغة أخرى فى الدعاء عند النوم أمر رجلا من المسلمين أن يتلوها قبل نومه :

عن ابن عمر - رضى الله عنه - أمر رجل إذا أخذ مضجعه أن يقول بحديث رسول الله ﷺ : « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفأها ، لك مماتها ومحياها ، إن أحييتها فاحفظها ، وإن أمتها فاغفر لها ، اللهم إني أسألك العافية » صحيح مسلم (كتاب الذكر) باب ما يقول عند النوم ٤ / ٢٠٨٣ رقم ٦٠ .

ويهتم الرسول ﷺ بسلامة المؤمن قبل أن يأوى إلى فراشه ، وفي هذا الصدد كان الرسول ينصح من يأوى إلى فراشه بالقيام ببعض الحركات التي تضمن سلامته : من نفخ للفراش ، وفحص لمكان نومه ، وما إلى ذلك مما يبعث الشعور بالأمان قبل المنام ، وفي ذلك يروى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليحلّ داخله إزاره ، فلينفض بها فراشه فإنه لا يدري ما خلف في فراشه ، وليضطجع على شقه الأيمن وليقل : باسمك وضعت جنبى - وفي رواية : باسمك اللهم - فإن احتبسّت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين » وفي رواية : عبادك الصالحين . الحديث ١٢١٠ من الأدب المفرد ج ٢ .

ومن أحاديث الدعاء التي رويت عن رسول الله ﷺ وأوصى بتلاوتها عند كل صباح ومساء بغية المحافظة على النفس والأهل والمال ما رُوِيَ من أن رجلا جاء إلى أبي الدرداء - رضى الله عنه - فقال : يا أبا الدرداء ، قد احترق بيتك . قال : ما احترق ، لم يكن الله - عز وجل - ليفعل ذلك ، بكلمات سمعتهن من رسول الله ﷺ وقد قلتهن اليوم ، ثم قال : انهضوا بنا ، فانتهاوا إلى داره وقد احترق ما حولها ولم يصبها شيء ، وهذه هي كلمات رسول الله ﷺ : « من قال حين يصبح وحين يمسي : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أعلم أنّ الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما . اللهم إني أعوذ بك من شرّ نفسى ومن شرّ كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم » لم يصبه في نفسه ولا أهله ولا ماله شيء يكرهه» رواه ابن السنى عن أبي الدرداء في عمل اليوم والليلة .

ومما يدخل في هذا النهج من أدعية رسول الله ﷺ ما كان يقوله عند الشروع في السفر، فقد كان ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر ، كبر ثلاثا ثم قال : «سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم إنا نسألك فى سفرنا البرّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بُعدَهُ . اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب فى المال والأهل »

فإذا رجع ﷺ قالها وزاد : « آيئون تائبون ، ولربنا حامدون » رواه مسلم عن عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - .

لنعد مرة أخرى إلى أدعية رسول الله ﷺ التي كان يدعو الله بها في الصّباح والمساء وعند الاستيقاظ وساعة الذهاب إلى الفراش .

روى حذيفة بن اليمان وأبوذر الغفاري - رضى الله عنهما - قال :

كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : باسمك اللهم أحيا وأموت . وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور « رياض الصالحين ص : ٤٦٧ .

وعن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من النوم قال :

« لا إله إلا أنت سبحانك اللهم ، أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علما ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

ويشجع الرسول ﷺ المؤمنين على الحمد والتسبيح خاصة إذا انتبه المرء من نومه ، فيروى أبو هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل ينتبه من نومه فيقول : الحمد لله الذي خلق النوم واليقظة ، الحمد لله الذي بعثنى سالما سويا ، أشهد أن الله يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير ، إلا قال الله تعالى : صدق عبدي » .

ابن السنّى فى عمل اليوم والليلة : باب ما يقول إذا استيقظ من منامه ١ / ٥ رقم ٩ .
فهل هناك شيء أعظم من أن يسبح المرء خالقه ويمجده فيؤمن الله - سبحانه - على تحميده قائلا : صدق عبدي ؟!

إن الرسول ﷺ يأخذ بأيدي المؤمنين فيوجههم إلى الذكر الذي يقربهم من رب العزة ، فيعيشون فى نور الإيمان ، ويقضون تحت مغفرة الرحمن .

أدعية التعبد والتهجّد والتسبيح والابتهال :

المؤمنون من الخلق يعرفون قدر الخالق - سبحانه - ويعترفون بنعمه وآلائه عليهم ،

والنبيون أكثر معرفة بالخالق الأعظم ، وأقرب صلة به - عز وجل - وأعظم اعترافا بنعمه عليهم وعلى الخلق ، وأوفر عرفانا بآلائه - سبحانه وتعالى - ولذلك فهم جميعا - النبيون والمؤمنون - يتجهون بقلوبهم إلى الذات العلية حامدين شاكرين متعبدين ، متهجدين مسبحين مبتهلين ما استطاعوا ، وما وسعتهم القدرة ليلا أو نهارا .

ومحمد ﷺ هو سيد الخلق جميعا ، وإمام النبيين ، ورسول رب العالمين ، اجتباه ربه بالفضل ، وسمو القدر ، واصطفاه برفعة الذكر ، وخصه بالرسالة الخاتمة ، فكان لذلك خاتم النبيين وإمام المرسلين ، فمحمد ﷺ بهذه الصفات وتلك الميزات هو أقرب الخلق إلى رب العالمين . وأعلمهم بفضله . وأخلقهم بشكره ، وأشدهم عرفانا بإنعامه ، وهو ﷺ أفصح الناس لسانا ، وأبلغهم بيانا ، وأوضحهم تبيانا ، ومن ثم فاضت صيغ التعبد والتهجذ من قلبه العظيم شعاع نور على قلوب المؤمنين ، وتدفت أحاديث الإبتهاال والتسبيح من بيانه العظيم قبس هداية يعم جمهرة المسلمين .

إن الرسول ﷺ يعلمنا - قاصدا - سبل الفناء في العبودية لله بصيغ القول المبارك ، والتوجيه المنير كيف نناجى مولانا بأدب القول ، وذلة الإبتهاال ، وكيف نخاطب خالقنا بخشوع التعبد وشفافية التهجد .

يعلمنا الرسول ﷺ فضل الطهر والتحميد والتسبيح في حديث أبي مالك الأشعري :

عن أبي مالك الأشعري - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » . صحيح مسلم (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء

وبأرق لسان وأنصح بيان يعلمنا رسول الله ﷺ فضل التسبيح والتحميد ، ويحببها إلى قلوب المؤمنين ؛ لتربو حسناتهم وتثقل عند الحساب موازينهم :

عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

صحيح البخارى (كتاب الدعوات) باب فضل التسبيح ٨ / ١٠٧ .

ويرسّخ رسول الله ﷺ أعماق الإيمان في القلوب ، ويثبت جذور الإسلام في النفوس ، ويؤكد الشهادة بنبوته في الأفئدة بتشجيع المسلمين على ترديد حديث ثوبان ما وسعهم التردد :

عن ثوبان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يمسي : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ، كان حقاً على الله تعالى أن يرضيه » أخرجه النسائي والترمذي
وفي رواية أبي داود وغيره : « وبمحمد رسولا » .

ولقد روى هذا الحديث كشط من حديث أطول عند سماع الأذان ، رواه سعد بن أبي وقاص ، أن النبي ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً ، وبمحمد رسولا ، وبالإسلام ديناً ، غفر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه مسلم .

والرسول ﷺ يعمد - لطفاً منه وأدباً وحسن توجيه - المرة بعد المرة إلى تكريم أمهات المؤمنين بجعلهن مصدراً للتبليغ ، ووسيلة للهداية ، لا في أحكام الشرع وحده ، ولكن في أدب التعبد ، ومنهاج التسبيح ، بالدعاء الموجز في عدد كلماته ، الوفير في جنى ثمراته .

عن جويرية أم المؤمنين - رضى الله عنها - أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فيه ، فقال : « ما زلت اليوم على الحالة التي فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، فقال النبي ﷺ : لقد قلتُ بعدك أربع كلمات - ثلاث مرات - لو وُزنتُ بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »

صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) : باب التسبيح أول النهار وعند النوم .

وفي ساحة الرضا والمغفرة يردد رسول الله ﷺ صيغ التوحيد والعبودية والتمجيد والاعتراف بالذنب ، وطلب الغفران ، التي يستعصي عمق صياغتها ، ونصاعة

كلماتها ، وصدق بيانها ، على أيّ من البشر إلا على محمد ﷺ وجلال ما صدر عنه ﷺ من صدق القول وشريف الدعاء ، يسميه سيد الاستغفار :

قال رسول الله ﷺ : « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أبوء لك بنعمتك ، وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أعوذ بك من شر ما صنعت » إذا قال حين يمسي فمات دخل الجنة - أو كان من أهل الجنة - وإذا قال حين يصبح فمات من يومه . . . مثله » الحديث ٦١٧ من الأدب المفرد ، ج ٢ .

ويورد البخارى « سيد الاستغفار » في صحيحه مروياً عن الصحابى شداد بن أوس - رضى الله عنه - باختلاف بسيط هو تقديم جملة « أعوذ بك من شر ما صنعت » وجعلها تالية لجملة « وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت » . صحيح البخارى (كتاب الدعوات) باب أفضل الاستغفار .

ومعنى (أبوء) فى موضعها من الحديث هو : أعترف وأقر . وأصل البوء : اللزوم ، وبوأه الله منزلاً ، أى : أسكنه .

وإن واحداً من أجّل الأدعية وأنقى الابتهالات التى صاغتها بلاغة أفصح الفصحاء ﷺ قد صدرت عنه إلى الحسن السبط ، حين طلب إليه أن يعلمه كلمات يقولها فى الوتر ، فكان أن سكب الرسول ﷺ فى سمعه دعاء الهداية ، وما دامت هذه هى الصفة التى أسبغها رسول الله على هذا الدعاء ، فمعنى ذلك أنه لا يصدر إلا عن القانتين ، ولا يكون المسلم قانتاً حتى يكون داعياً حامداً ومبتهاً ممجّداً ، ولقد سبق ورود دعاء الهداية هذا والدعاء الذى يليه فى مناسبة سابقة .

عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - قال : علّمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر : « اللهم اهدنى فىمن هدّيت ، وعافنى فىمن عافيت ، وتولّنى فىمن تولّيت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذلّ من واليت ، ولا يعزّ من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

أبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وابن ماجه .

ويستحب أن يقول عقيب هذا الدعاء : اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم .

ومن صبيغ الابتهاال الفريدة ، وصور التذلل المنيبة ، وأساليب التمجيد المجيدة ، ما كان يقوله رسول الله ﷺ في سجود القرآن ، وهو ما يعرف بسجود التلاوة :

عن عائشة - رضى الله عنها - قال : كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن : «سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ، وشقّ سمعه وبصره بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين» .

ولرسول الله ﷺ الدعاء الذى رواه عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - وهو ما عرف بدعاء التهجد ، إنه يناجى الخالق الأعظم بأدب كلام يناجى به العبد ربه ، وبأصدق استغفار يطلبه المستغفر من سيده ، وبأخلص ابتهاال يصدر عن مؤمن يبتهل به إلى الخالق الأعظم ، لقد جمع رسول الله ﷺ صيغة تهجده تلك كل أعماق العبودية والاستغفار ، وكل أبعاد المناجاة والابتهاال ، في سياق من فيوض الإيمان بكل ماتتطلبه عناصر الإيمان في جملة وتفصيله :

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ كان إذا قام من الليل يتهجد قال : « اللهم لك الحمد ، أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت» وفى رواية « ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه البخارى ومسلم ، كما جاء فى الأدب المفرد ج ٢ الحديث ٦٩٧

معنى (بك خاصمت) يعنى : بيا أعطيتنى من البرهان .

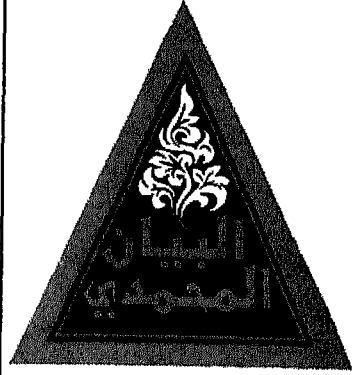
معنى (إليك حاكمت) يعنى : جعلتك الحاكم ، وفوضت الحكم إليك .

ولقد تعرض النبيون والرسول للكيد والأذى والعذاب في سبيل تبليغ كلمات الله ورسالاته ، من لدن إبراهيم أبى الأنبياء حتى محمد سيد الخلق وخاتم الرسل .
وتعرض رسول الله ﷺ للكثير من صنوف الأذى الذى كان يلقاه من قومه ، وقد اشتد الأذى والجحود عليه ﷺ في سلسلة من الحلقات المتلاحقة ، وبلغ ذلك ذروته بعد عام الحزن الذى فقد فيه ناصريه الكبارين : عمه أبا طالب وزوجه الجليلة أم المؤمنين خديجة الكبرى .

هنا قرر رسول الله ﷺ أن يرتحل إلى الطائف ينشد العون والتصديق به من بنى ثقيف ، وتوجه إلى ثلاثة نفر إخوة ، هم : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عمير ، وكلمهم في عقيدة التوحيد ، فقابلوا الدعوة إلى الله بالسخرية والصد ، وزادوا على ذلك بأن أغروا به ﷺ سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويطاردونهم ، حتى لجأ إلى الحائط ، ثم عمد إلى ظل شجرة عنب وقد تجمعت المتاعب في جسمه الشريف وضافت به الدنيا إلا من رحمة ربه الكريم ، فكانت مناجاته لخالقه هى أكبر مخرج له من الهم الذى حل به ، وأعظم سلوى من الأذى الذى وقع عليه ، فاتجه بكل نبضة في قلبه الشريف إلى ربه العظيم شاكيا مناجيا متذللا مبتهلا طالبا الرضى والعون في بكاء أو ما يشبه البكاء ، بأبلغ صيغة دعاء صدرت عن بشر في مثل هذا الموقف :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ ! إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

ما أن ينتهى الرسول الحبيب من دعائه وابتهاله حتى يرقّ لحاله عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وكانا يتابعان من بعيد ما وقع على رسول الله ﷺ من أذى ، فأرسلا إليه غلاما لها اسم (عداس) يحمل قطفاً من العنب وضعه في طبق وحمله إلى رسول الله ، وبعد حوار قصير جرى بينهما أمن عداس بنبوة محمد ، فكانت بمثابة ترضية سريعة من الخالق نزلت على قلبه بردا وسلاما .



الفصل الثاني

الأحاديث القدسيّة

الأحاديث القدسية

التعريف بها :

الأحاديث القدسية فى حقيقة جوهرها توجيهات إلهية ، وأحكام صمدانية ، وبُشْرِيَّاتٌ ربانية ، وإنعامات رحمانية ، وإنذارات سماوية ، وفيوضات قدسية موحى بها من لدن الخالق - سبحانه وتعالى - إلى نبيه وخير خلقه محمد ﷺ بمعانيها وليس بألفاظها ، عبر عنها سيدنا رسول الله ﷺ ببيانه المفرد بين ألوان بيان البشر ، وبلاغته السامية التى لم يبلغ شأوها ناطق بالعربية قبله ولن يبلغها أحد بعده ؛ ولذلك فإن مقام أحاديث رسول الله ﷺ من حيث إعجازها البيانى ورفيها البنينى يحىء فى الترتيب بعد كلام المولى - سبحانه وتعالى .

ولقد وصف أخونا وصديقنا الدكتور عز الدين إبراهيم أسلوب الحديث القدسى بأنه علوى الطابع ، روحى الصبغة ، عميق الإثارة (١).

ومثلما شغلنا الأحاديث القدسية من حيث تعريفها ومضامينها وغاياتها ، فقد شغلت كثيرين غيرنا من شيوخنا رجال السلف الصالح وخدام حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحفاطه .

إن الشريف على بن محمد الجرجانى يعرف الحديث القدسى بقوله : « الحديث القدسى هو من حيث المعنى من عند الله تعالى ، ومن حيث اللفظ من رسول الله ﷺ فهو ما أخبر الله تعالى به نبيه بإلهام أو بالمنام ، فأخبر - عليه السلام - عن ذلك بعبارة نفسه ، فالقرآن مفضل عليه ؛ لأن لفظه منزل أيضا » (٢).

(١) مقدمة « الأربعون القدسية » ص : ٣٤

(٢) التعريفات ص : ٤٥ ط تونس ١٩٧١

ويتفق رجال الحديث على أن الحديث القدسي هو الذى الذى يكون لفظه من عند رسول الله ﷺ وأما المعنى فمن عند الله - تبارك وتعالى - يقول الملا على بن محمد القارى الحنفى : إنه ما « يرويه صدر الرواة ، وبدر الثقات - عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات - عن الله - تبارك وتعالى - تارة بواسطة جبريل - عليه السلام - وتارة بالوحي والإلهام وال المنام ، مفوضاً إليه التعبير بأى عبارة شاء من أنواع الكلام » ثم يستطرد الملا القارى فى مزيد من الإبانة قائلا : « وهى تغاير القرآن الحميد ، والفرقان المجيد ، بأن نزوله لا يكون إلا بواسطة الروح الأمين ، ويكون مقيدا باللفظ المنزل من اللوح المحفوظ على وجه التعيين ، ثم يكون نقله متواترا قطعيا فى كل طبقة وعصر وحين » (١).

إن نسبة هذه الأحاديث إلى القدس إنما هى لإضافة معناها إلى الله وحده ، ومن ثم سمي هذا النوع من الحديث بالقدسي ، والإلهي ، والرباني .

وعلى الرغم من أن الأحاديث القدسية منزلة من الخالق - جل وعلا - بواسطة جبريل أو الوحي أو الإلهام أو المنام من حيث معانيها وليس ألفاظها ، فإن بينها وبين القرآن فروقا كثيرة ، منها : أنه لا تصح الصلاة بها ، ومنها عدم حرمة لمسها وقراءتها للجانب والحائض والنفساء ، ومنها عدم تعلق الإعجاز بها ، ومنها عدم كفر جاحدها .

ولرواية الحديث القدسي صيغتان : الأولى هى : « قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يرويه عن ربه » . والثانية هى : « قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم »

موضوعات الأحاديث القدسية :

للأحاديث القدسية خصوصيتها من حيث كونها موحى بها من رب العزة - سبحانه وتعالى - وهى فى ذلك تتباين عن الأحاديث النبوية الأخرى التى هى ترجمة لرسالة السماء بعد القرآن الكريم ، فإن الأحاديث النبوية غير القدسية على الرغم من كونها غير موحى بها إلا أنها منبعثة من لدن الرسول البشر الإنسان الذى أعده الله لحمل رسالته وتبليغها

(١) الأحاديث القدسية الأربعينية ، ص : ٢

في نطاق العصمة التي خصه بها دون سائر البشر ، واختاره واصطفاه ، ثم أدبه الأدب الرباني الذي أهله به لأن يكون رسولا ومعلما وهاديا وبشيرا ونذيرا ، ومن ثم وصفه المولى في محكم كتابه بقوله - جل جلاله - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ثم عبّر الصادق المصدوق عن هذه المنة الربانية العظمى بقوله ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، فالرسول ﷺ معصوم في كل لفظ تلفظ به ، رباني في كل منطق نطق به ، فما أسمى ماتلفظ به ، وما أرفع ما نطق به ، فكل ذلك جرى من منطلق كونه رسولا إلى الناس كافة ، اختاره الله لهذه الرسالة وأعدّه لتبليغها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ذلك توضيح رأينا إثباته على الرغم من كونه مفهوما بداهة عند المشتغلين بعلم حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

وحتى يستطيع المرء التعرف على الأحاديث القدسية حق المعرفة فإن عليه أن يستقصى مصادرها في كتب الحديث ، وأن يغمس نفسه في بركتها ، وأن يغمز ذاته في فيوضها ، متفرغا لذلك كل التفرغ ، فإن فعل ذلك محتسبا لله خاشعا لمولاه مسترشدا بنور رسول الله مستعينا بتوجيه علماء الحديث ورجاله ، إنه إن فعل ذلك ، فإن آفاقا من النور تتسع أمام بصيرته ، ثم لا تلبث أن تحتويه جسدا وروحا وعقلا وقلبا وبصرا وسمعا ، حينئذ يستطيع أن يترجم عن بعض موضوعات الأحاديث القدسية لكي يقدمها للقارئ المنتفع ، والطالب المستزيد .

ولعل موضوعات الأحاديث القدسية التي أمكن تسجيلها تشمل القضايا التالية :

- التوحيد وتنزيه الخالق عن الولد والشريك .
- التوحيد والتكبير والحمد والتمجيد والخشية والمغفرة .
- فظاعة الشرك ، وتقبيح الرياء ، والعمل لغير الله في نطاق البطولة والعلم والجود .
- فضل العبادات وثوابها كالصلاة والصيام والإنفاق .

- فضل ذكر الله وصيغ التسييح .
- التوبة ، ومضاعفة الحسنات ، وغفران السيئات ، ورحمة الله الواسعة ، وما أعد - سبحانه - للصالحين ما لم يشرك به .
- الجهاد والشهادة في سبيل الله .
- الصبر على المكروه من فقد للأبناء والأقربين ، والمرضى والعسر والاضطهاد .
- الظلم وتحريمه ، والرياء والسمعة .
- الأخوة والتحاب في الله ومكارم الأخلاق .
- أحاديث الشفاعة : شفاعته محمد ﷺ وورود الحوض .
- الحشر والنشور والموقف والحساب والصراف .
- وصف الجنة والنار ، وأهلها ، وما حفتا به .

تلك هي أكثر موضوعات الأحاديث القدسية ، وهي - كما هو واضح من أغراضها - ذات خصوصية متميزة ؛ لأن المولى - سبحانه - جعلها معبرا بين كتابه الكريم وبين حديث رسوله الصادق الأمين ، خاطب بها عباده ، وأجرى معانيها على لسان سيد الخلق الذي لا ينطق عن الهوى ، وخصوصيات هذه الأحاديث القدسية أنها على الأغلب مستهدفة صلة العبد بربه في نطاق أساسيات الإسلام وأهدافه الكبرى التي ذروتها التوحيد وتنزيهه - تعالى - عن أن يكون له ولد أو شريك ، مع التأكيد على حتمية البعث والنشور ، ثم تتوأكب موضوعات الأحاديث القدسية على النحو الذي أوردناه في السطور الماضية .

وها نحن نورد نماذج من هذه الأحاديث على سبيل التمثيل لا الحصر ، وارتباطها بالموضوعات سالفه الذكر .

الوحدانية والبعث :

عن الأعرج عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «قال الله تعالى : كذّبنى ابن آدم

ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقولهُ : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقولهُ : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد» (١) .

يقول شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى : تنزيه الخالق عن أن يولد أو يلد ؛ لأن الولد والوالد لا يكونان إلا من جسمين ، وهما من الأغيار ، والأغيار نقص يتنزه الله - تعالى - عنه ، وهذا الشرح للحديث يعد من أبلغ الشروح وضوحاً وإقناعاً .

والصمد : هو المصمود إليه ، أى : المقصود من كل الخلق ، وقيل : الصمد : الحى القيوم الذى لا زوال له ، وقيل : الصمد : نور يتلأأ .

التوحيد والتكبير والحمد والغفران :

التوحيد هنا هو توحيد العباد لخالقهم وتهليلهم ، والحمد فى نطاق العبادة الحقّة ، فهو - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ والعباد من صفاته الخطأ ، ولكن رحمته - سبحانه - تتسع للمغفرة والصفح إذا كان الاستغفار من طبيعة العبد ، بل إن رحمته - سبحانه - تغمر جليس المستغفرين إذا كان من الخطائين .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال :

« إن لله - تبارك وتعالى - ملائكة سيارة فُضُلاً ، يبتغون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذُكُرٌ قعدوا معهم ، وحفَّ بعضهم بعضاً بأجنتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا انصرفوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، قال - أى : الرسول ﷺ : فيسألهم الله - عز وجل ، وهو أعلم بهم - : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك فى الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك ، قال : وما يسألونى ؟ قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا أى

(١) الحديث رقم ١٩ : مجموعة الأحاديث القدسية ، قام بتحقيقها جماعة من العلماء ، نشرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتي ؟ قالوا : ويستجيرونك ، قال : وممّ يستجيرونني ؟ قالوا : من نارك يارب ، قال : هل رأوا نارى ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف لو رأوا نارى ؟ قالوا : ويستغفرونك ، قال : يقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأجرتهم مما استجاروا ، قال - أى : الرسول - : يقولون : ربّ فيهم فلان ، عبدٌ خطّاء ، وإنما مرّ فجلس معهم ، قال : فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .
رواه البخارى ومسلم والترمذى

عمل الخير لغير الله ابتغاء المراءاة :

إن من أشد ما يكرهه الله - سبحانه وتعالى - من العبد اقتراف المعاصى ، والمعاصى متعددة الأشكال متنوعة الألوان ، وتأتى فى مقدمة هذه المعاصى وعلى رأسها ، عمل الخير ولكن ليس لوجه الله ، وإنما للتفاخر والمراءاة ، كأن يخوض العبد معارك الحرب ليس ابتغاء رفع راية الإسلام ، ولكن لكى يقال إنه شجاع جسور ، أو أن يتعلم العلم لا لينفع به الناس ، وإنما لكى يقال عنه إنه عالم ، أو أن ينفق المال ليس امتثالاً لفضيلة الإنفاق فى سبيل الله ، ولكن لكى يقال عنه جواد . هذه صفات يمقتها الله - سبحانه - من عبده أشد المقت ؛ ولذلك فإن الحديث القدسى يحذّر من التورط فيها أشد التحذير ، وينذر المنغمس فى أدرانها بأشد العقاب .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قالتُ فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فى القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم لكى يقال : عالم ، وقرأت القرآن لكى يقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار . ورجل وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما

تركْتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار»(١).

في فضل فريضة الصلاة والصيام :

الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين ، هكذا عُلِّمْنَا صغاراً مكانة الصلاة وفضلها ، وهكذا أيضاً يعلم أبناء المسلمين صغاراً فضل الصلاة ومكانتها ، والتركيز على فضل الصلاة من القضايا الظاهرة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ، ولقد وهبها الله مكانة خاصة أيضاً في الأحاديث القدسية ؛ لأن الصلاة هي إظهار لعبودية المخلوق تجاه خالقه من حمد وتسبيح وتوحيد ودعاء وخضوع وسجود خمس مرات مفروضة غير التطوع قبل الفروض وبعدها في صلاة السنن ، فضلاً عن تطوع الضحى والتهجد وقيام رمضان ، وصلاة الكسوف والخسوف والاستسقاء والجنائز وغيرها ، ومن هنا كان فضل الصلاة ومكانتها وترتيبها المتقدم بين العبادات المفروضة ؛ ولذلك فإن بعض الأئمة قد أفتى بكفر تارك الصلاة ، مجرد الترك وليس الإنكار ، فمنكر الصلاة كافر كفراً صريحاً ؛ لأنه أنكر ركناً من أركان العقيدة ، ويتبدى خطر فريضة الصلاة في وفرة ثوابها ، وفي كونها أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ، فإن كان من المحافظين عليها المواظبين على أدائها أفلح ونجا .

ومثلما منحت الإرادة الإلهية الصلاة من عناية ، فإن فريضة الصيام قد لقيت بدورها قدراً من العناية الربانية في الأحاديث القدسية ، ذلك أن كلا من الصلاة والصيام تمثلان صلة مباشرة بين العبد وربّه ، وربما كان للصيام خصوصية متميزة ؛ لأنه في حالة الصلاة قد يصل المرء مرآة للتظاهر بالتقوى ، وأما في أداء فريضة الصيام فليس ثمت مكان للمرآة ، فالصيام هو الصيام ، وهو امتناع - دون رقيب - عن المطعم والمشرب والشهوة والمأثم ، امتثالاً لأمر الله واحتساباً للمغفرة والثواب .

(١) الحديث السادس : مجموعة « الأربعمون القدسية » جمعها الدكتور عز الدين إبراهيم ، والأستاذ دينيس ديفز ، والحديث رقم ٢٩٥ من مجموعة الأحاديث القدسية للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه في (الجهاد) باب من قاتل للرياء والسمة استحق النار .

عن فريضة الصلاة يُرَوَى هذان الحديثان القدسيان كمثل لفضلها ومكانتها وتقدمها على سائر العبادات ، هذا فضلا عن أحاديث أخرى كثيرة أوردتها كتب السنن .

عن أبي هريرة -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صَلَحَتْ فقد أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب - عز وجل - : انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك » (١).

وعن عقبة بن عامر -رضى الله عنه- قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يعجب ربك من راعى غنم في رأس شظية الجبل يُؤذَنُ بالصلاة ويصلى ، فيقول الله - عز وجل - : انظروا إلى عبدي هذا ، يؤذَنُ ويقيم الصلاة ، يخاف منى ، قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة » (٢).

ومن الأحاديث القدسية في فضل الصوم وثوابه العظيم يروى هذا الحديث :

عن أبي هريرة -رضى الله عنه- عن النبي ﷺ قال :

« يقول الله - عز وجل - : الصوم لى ، وأنا أجزي به ، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلى ، والصوم جنة ، وللصائم فرحتان : فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه ، وخالوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » (٣).

حب الله لعباده ورحمته بهم ، وغفرانه لهم ما لم يشركوا به :

من أساء الله الحسنى : الغفار ، ومن أساءه الحسنى أيضا : الرحمن الرحيم ،

(١) أخرجه النسائي في باب (المحاسبة على الصلاة) ورواه أبو داود ، وابن ماجه ، وأحمد ، ورواه الترمذى الحديث رقم ٤١٣ ج ٢ / ٢٧١ تحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) رواه النسائي بسنده . وشظية الجبل : هى الصخرة العظيمة ، أو فلقه منه .

(٣) رواه البخارى ومسلم ومالك والترمذى والنسائي وابن ماجه .

وهي أسماء تفرّد المولى - سبحانه - بها ، فلا تطلق إلا على ذاته العلية ، وهي في اللغة تعدُّ من صيغ المبالغة ، ومن ثم كانت مغفرته لعباده ورحمته بهم غير محدودة بحدود ، أو مشروطة بشروط ، إلا أن يشرك به ، فإذا ما برىء العبد من الشرك بالله كان موقعه تحت مظلة رحمة الرحمن الرحيم ، ومغفرة الغفار ، إذا ندم العبد على آثامه وتاب إلى الله توبة صادقة مما اقترفه من ذنوب ، أو اجترح من سيئات ، قال الله ذلك في قرآنه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾ وقال أيضا : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ

شَيْءٍ ۗ ﴾ والسنة النبوية الشريفة مترعة بأحاديث الرحمة والمغفرة ، وهاهي الأحاديث القدسية تبشر المذنبين من المؤمنين الذين لم يشركوا بربهم أحدا بالعفو والمغفرة في أوسع آفاقها ما لم يشركوا بربهم أحدا .

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك . ولا أبالي إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني - وفي رواية أتيتني - لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» (١) .

وفي ستر الله عباده في الدنيا وغفرانه سيئاتهم يوم الحساب - ماعدا الكفار - يروى ابن عمر هذا الحديث على النحو التالي :

بيننا ابن عمر يطوف إذ عرض له رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن - أو قال : يا ابن عمر - هل سمعت النبي ﷺ في النجوى ؟ فقال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يُدْنِي المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، تعرف ذنب كذا ؟ يقول :

(١) الأربعون النووية ، رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

معانى الألفاظ : عنان السماء - بفتح العين - : هو السحاب ، واحدها : عنانة ، وقيل العنان : ما عن لك . قراب الأرض - بضم القاف ويصح كسرهما - معناها : ما يقارب ملئها .

أعرف، يقول : رب أعرف - مرتين - فيقول : سترتها في الدنيا وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الآخرون - أى : الكفار - فينادى على رءوس الأشهاد : ﴿ هَتُّوْلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَيَّ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ولا تقف مشيئة الرحمن عند مغفرة الذنوب وحدها ، ولكن كرمه الواسع يشمل عباده المحسنين ، فيجزى الحسنة بعشر أمثالها ، ولا يجزى السيئة إلا بمثلها ، ويزيد فضله - سبحانه - فمن همَّ بحسنة ولم يفعلها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه ، وهو - سبحانه - بعد ذلك كله يبسط رحمته على عباده فيغفر لهم ولو جاءوا بقرب الأَرْضِ خطيئة ما لم يشركوا به شيئا :

عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «يقول الله - تبارك وتعالى - : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة سيئة مثلها أو أغفر ، ومن تقرب منى شبرا تقرب إليه ذراعا ، ومن تقرب منى ذراعا تقرب منه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن لقينى بقرب الأَرْضِ خطيئة ثم لا يشرك بى شيئا لقينته بمثلها مغفرة » (٢) .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله - عز وجل ، وقوله الحق - : إذا همَّ عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإذا همَّ بسيئة فلا تكتبوها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، فإن تركها - وربها قال : ولم يعمل بها - فاكتبوها له حسنة ، ثم قرأ - أى : رسول الله - ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (٣) .

(١) الحديث رقم ٣٥٣ من الأحاديث القدسية ، طباعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . أخرجه البخارى في كتاب التفسير من سورة هود ، وأخرجه مسلم في التوبة ، وأخرجه النسائى في التفسير والرقائق ، وأخرجه ابن ماجه في السنة .

(٢) الحديث رقم ٤٤ من « الأحاديث القدسية » إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وانظر أيضا الحديث رقم ٧٢ .

(٣) الحديث ٤٣ المصدر السابق . ويقول الترمذى : حديث حسن صحيح .

فضل الشهادة والجهاد في سبيل الله :

إن مرتبة الشهادة في سبيل الله رفيعة الدرجة ، سامية المكانة ، فمقام الشهداء يأتي بعد النبيين والصدّيقين ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وذلك مصداق للكتاب

العزير في قول الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ * فَرِحِينَ
بِمَاءِ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ . وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ *
﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ثم تحيى الأحاديث القدسية فتزيد فضل الشهادة تفصيلا ، ومقام الجهاد في سبيل
الله تفضيلا ، وهى - بحمد الله وفضله - كثيرة ، نسوق منها الحديث التالى على سبيل
التمثيل :

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل
من أهل الجنة فيقول الله عز وجل : [يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى
ربّ ، خير منزل . فيقول : سل وتمنّ ، فيقول : أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى
سبيلك عشر مرات] ؛ لما يرى من فضل الشهادة » (٢) .

تحريم الظلم :

الظلم جريمة من أبشع الجرائم ؛ لأنها عمل شرير مدمر : مدمر للدول والشعوب
والأفراد والنفوس ، وقد أذان القرآن الكريم الظلم والظالمين ، وما حل الظلم فى دولة

(١) آل عمران ، الآيات ١٦٩ - ١٧١ .

(٢) الحديث ١٨٨ من مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

إلا خربها ، وما وقع على إنسان إلا كان أجره على الله ، ولم يعرف التاريخ ظلماً واحداً أفلح مسعاه أو نال ما تمناه ، بل العكس هو الصحيح ، وجميع الظالمين من حكام وأفراد كانت نهاياتهم بشعة ، وذكرهم دنسة ، وقد صدق رسول الله ﷺ حين أدان الظلم بأبلغ وصف نطق به بشر حين قال : « الظلم ظلمات » .

إن الله سبحانه - في الحديث القدسي - يخاطب عباده محذراً إياهم من الظلم ، فيبين ضعفهم وقلة حيلتهم ، ويحيطهم علماً بعظمة ملكه وجلال شأنه ، وهو - سبحانه - بكمال ذاته وتنزيه صفاته قد حرم الظلم على نفسه كما حرمه على عباده ، فكيف بهم يظلم بعضهم بعضاً ، وهم الضعفاء المحتاجون إليه ، وقد هداهم من ضلال ، وأطعمهم من جوع ، وكساهم من عرى ، وغفر لهم خطايا الليل وذنوب النهار؟! .

عن سعيد بن عبد العزيز ، عن ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر جُنْدُب بن جُنَادَةَ - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ فيما يروى عن الله - تبارك وتعالى - أنه قال :

« يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَلَمُوا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفِي قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا رَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنِّي عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا

لَكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ .

قال سعيد بن عبد العزيز : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه .

وروى عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث (١) .

الأخوة بين المؤمنين والتحاب في الله :

الإسلام دين السلام والحب ، والمؤمنون تجمعهم الأخوة في الله ، وقد قال الله في محكم كتابه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ولذلك فلا شحناء بين الإخوة في الإيمان ، ولا خصومة بينهم ، وقد بشر المولى - سبحانه وتعالى - المتحابين بالجنة جزاء ، وبالغفران ثوبا ، ولا تفتح أبواب الجنة لمتشاحنين حتى يصطلحا .

عن قتبية بن سعيد ، عن مالك بن أنس فيما قرىء عليه ، عن سهل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا ، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا ، أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا ، أَنْظِرُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا » (٢) .

عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : المتحابون في جلالى لهم منابر (*) من نور ، يغطهم النبيون والشهداء » (٣) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب تحريم الظلم ، والحديث رقم ٢٦٦ من مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) أخرجه مسلم في باب النهى عن الشحناء .

(٣) أخرجه الترمذى في باب (الحب في الله) وانظر الحديث ٢٦٤ مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(*) لهم منابر من نور ، أى : يكون ذلك يوم القيامة في الحشر والخلق في غاية الكرب والازدحام والحرج الشديد ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَجْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ ﴾ .

يغطهم النبيون والشهداء ، يعنى : يتمنون مثل ما حصل لهم ، وهذه المزية لا تقتضى أفضليتهم على النبيين والشهداء ؛ فإن لهم مزايا ومنازل لا تتحقق لغيرهم .

هذا ، ولما كانت أخوة المؤمنين ظاهرة تفرد بها الإسلام وحدد لها معالم نبيلة من التحاب والتعاطف والتواصل والمودة والتعاون والصفاء ، إلى غير ذلك من العناصر الإنسانية الرفيعة ، فقد ورد في تأكيد هذه العناصر العديد من الأحاديث القدسية التي تمثلنا ببعضها ، والأحاديث النبوية التي سوف نورد أمثلة منها في غير هذا الفصل - إن شاء الله - ولقد ركزت الأحاديث الشريفة من نبوية وقدسية على هذه القيم ، ونعنى بها قيم المحبة والمودة في نطاق الأخوة ، وفي الوقت نفسه استنكرت البغض والشحناء والتقاطع بين المؤمنين ، وقبحت مسالكها حتى يكون المجتمع الإسلامى متساندا كالجسد الواحد ، وحتى يتحقق فيه وصف الخالق الأعظم لهذه الأمة في قوله عز وجل: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

أهل الجنة :

الجنة هي وعد الله للمؤمنين به ربًا واحدا لا شريك له ، وهي جزاؤه للمتقين الذين يعملون الصالحات ويمثلون لأوامره ، والذين ينأون بأنفسهم عن فعل الخطايا واقتراف الآثام وعمل الخبائث ، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وإذا كانت الجنة في حد ذاتها هي النعيم الأكبر الذى ينتظره المؤمنون ، فإن كرم الله غير المتناهى وفضله الذى لا تحده حدود يعم أهل الجنة فيزيدهم نعيما ، ويغمرهم فيزيدهم أمنا على أمنهم وسعادة على سعادتهم بخطابه - جل وعلا - لهم ، وإفاضته عليهم من رضوانه ، والأحاديث القدسية عديدة في هذا الموقف الجليل :

حدثنا معاذ بن أسد عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، يقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ، قالوا : يارب وأى شيء أفضل من ذلك ؟

فيقول : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسْخِطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (١).

وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرأوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (٢) » ويقول الله - سبحانه وتعالى - في محكم كتابه : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ والذين أحسنوا مصيرهم إلى الجنة ، وهى نعم الجزاء ونعم المستقر ، وهى المراد فى قوله - تعالى - : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ ﴿ فما هى الزيادة ؟ إن ذلك هو ما يفصح عنه الحديث القدسى الذى رواه صهيب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - :
فى الصحيح عن صهيب عن النبى ﷺ (٣) .

« يقول الله : يا أهل الجنة ، إن لكم عندى موعداً أريد أن أنجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم تنضروا وجوهنا وتثقل موازيننا وتدخلنا الجنة وتجربنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعظاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة » .
الزيادة هى الواردة فى قوله - تعالى - : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب الرقاق) باب صفة الجنة والنار ، وفى (كتاب التوحيد) باب كلام الرب مع أهل الجنة وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب (الجنة ونعيمها وأهلها)

(٢) الحديث رقم ٥٢ من مجموعة « الأحاديث القدسية » إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٣) النبوات ، ص ٦٧ .



الوصايا

- الفصل الأول : وصايا الرسول للصحابة القواد والموجهين .
- الفصل الثاني : بعض وصايا الرسول للنساء .
- الفصل الثالث : وصيتان لرجلين مغمورين .
- الفصل الرابع : الرسول يوصي بطلاب العلم .
- الفصل الخامس : وصية الرسول بالأنصار .
- الفصل السادس : وصية الرسول للخليفة وللمسلمين ، وموقفهم من حكامهم .



الفصل الأول

وصايا الرسول للصحابة
من قواد وموجهين

وصايا رسول الله ﷺ

تمهيد :

الوصايا : ضرب من القول يتسم بالبلاغة في الصوغ والنصاعة في التعبير ، يتضمن نصائح غالية وتوجيهات سديدة تصدر عادة عن حكيم صاحب تجربة ، أو عاقل صاحب بصيرة ، ولقد حفلت كتب تراثنا بالكثير من الوصايا الحكيمة والتجارب النفيسة التي صدرت عن حكماء العرب ومفكرى المسلمين .

فإذا كانت هذه الوصايا صادرة عن سيد الخلق وخاتم الأنبياء وأفصح الفصحاء وأحكم الحكماء فإنها بغير شك تحتل الموقع الأسمى والمقام الأرفع بين جميع الوصايا التي صدرت عن البشر .

وإذا كانت وصايا البشر استهدفت الحكمة الدنيوية ، فإن وصايا محمد ﷺ قد تميزت عن قريناتها بأنها تستهدف سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وذلك من خلال منهج الرسول الخاتم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ؛ مصداقا لقوله ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ومن ثم فإنه يؤدب البشر أفرادا وجماعات من خلال وصاياه الحكيمة التى عزّ مثلها ، واستعصى نظيرها .

إن وصايا رسول الله ﷺ تكون حينما استجابة لطلب صحابى أو واحد من جمهرة المسلمين طلب إليه أن يوجهه بوصية شريفة ، وحينما آخر تصدر لواحدة من أهل بيته أو لصحابية جلييلة ، وأحيانا تصدر لتنظيم مجتمع المسلمين ، مثل وصيته بالجار أو بطلاب العلم ، وأحيانا لتزكية قوم رآهم جديرين بالتحية والتكريم . وأحيانا أخرى تصدر وصاياه ﷺ للتنظيم السياسى ، أو لرشاد نظام الحكم ، وغير ذلك من الأغراض التى يراها ﷺ ضرورية لوضع المسلمين فى النهج القويم وعلى المحجة البيضاء .

هذا ، وإن وصاياه ﷺ لجند لمسلمين وهم خارجون للغزاة تمثل دستور الحرب في الإسلام ؛ لأن الحرب في الإسلام تأخذ شكل العلاج لحالات المرض ، ومن ثم فهي ليست غدراً ولا غشاً ؛ لأنها خالية من الغدر ، بريئة من الغلول ، لا قتل فيها لصبي أو شيخ أو امرأة ، ولا حرق فيها لشجر أو نخل أو حصاد .

وصاياہ للصحابہ من قواد وموجهين

لقد أكرم الرسول ﷺ عددا غير قليل من صحابته الميامين بوصايا أصلحت من شأنهم ، وصارت نهجا التزمه المسلمون فيما بعد ، يستمدون منها أحكام دينهم ، ويسترشدون بهداها في سيرة دنياهم وآخرتهم .

إن معاذًا يقصّ وصية الرسول ﷺ له فيقول :

أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات ، قال :

« لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت. وحرقت ، ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك . ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدا ؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمرا فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حل سخط الله - عز وجل - وإياك والفرار من الزحف ، وإن هلك الناس فاثبت ، وإذا أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عليهم عصاك ، وأخفهم في الله » مسند أحمد ٥ / ٢٣٨ .

لقد أوصى رسول الله ﷺ معاذًا وصية غالية اشتملت في واقع الأمر على عشر وصايا ، أطلق معاذ لفظ كلمة على كل وصية .

فالوصية الأولى : ألا يشرك بالله شيئا ولو عذب بالقتل أو الحرق ، والوصية الثانية : ألا يعق والديه مهما كانت الأسباب والملابسات إلا أن يأمره بالإشراك بالله ، وقد قام الشطر الأول من الوصية بتنبهه إلى ذلك ، والوصية الثالثة : المواظبة على أداء الصلوات المفروضة ؛ لأن عدم المواظبة عليها مما يباعد بين العبد وربّه ، ولقد أوصى الرسول بالمواظبة على الصلاة لأنها الفريضة الأولى ، ولأنها عماد الدين ، ولأن تاركها عامدا متعمدا جزاؤه جهنم .

والوصية الرابعة نهي من معاقره أم الكبائر ، وقد أطلق عليها رسول الله ﷺ هذه التسمية الدقيقة : رأس كل فاحشة ، وتتواكب وصايا رسول الله ﷺ وتوجيهاته بين أمر يتبعه ، ونهى عما ينتهى عنه : نهي عن اقتراف المعاصي ، ونهي عن الفرار ساعة القتال في جيش المسلمين والثبات في مكانه إذا كثر الموت في الميدان ، وعدم الارتحال من بلدة هو فيها إذا انتشر الوباء ، ثم بعد ذلك ثلاث وصايا تتعلق بالأسرة والعيال ، وهي : الإنفاق عليهم ، وإشعارهم بالأمان ، وتنبههم إلى مخافة الله ، مصداقا لقوله - تعالى - : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ واهتداء بقوله ﷺ : « رأس الحكمة مخافة الله » .

وقربت من وصية رسول الله ﷺ لمعاذ وصيته لأبي الدرداء ، وهو بدوره صحابي جليل ، وإذا كانت وصية الرسول لمعاذ اشتملت على عشر كلمات - أى : عشر مواظب - فإن وصيته ﷺ لأبي الدرداء اشتملت على تسع . قال أبو الدرداء - رضى الله عنه - : أوصانى رسول الله ﷺ بتسع :

« لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت ، ولا تترك الصلاة المكتوبة متعمدا ، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشر بن الخمر فإنها مفتاح كل شر ، وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من ديارك فاخرج لهما ، ولا تنازعن ولاية الأمر ، وإن رأيت أنك أنت ، ولا نفر من الزحف وإن هلك ، وأنفق من طولك على أهلك ، ولا ترفع عصاك على أهلك ، وأخفهم في الله عز وجل » الأدب المفرد .

والوصيتان تكمل إحداها الأخرى ، فهما تنظمان أمور الدين والدنيا ، وإن كانت وصيته ﷺ لأبي الدرداء تميزت عن سابقتها بحكم يتصل بصلة المسلمين بمن يلي أمرهم ، فأوصى أبا الدرداء وجمهرة المسلمين تبعا لذلك بالانصراف عن منازعة ولي الأمر حفاظا على وحدة كلمة الأمة واستقرار أمورها ، كما أن الرسول ﷺ في نهيه أبا الدرداء من شرب الخمر أعطاها هنا وصفا جديدا فساها « مفتاح كل شر » وكان سهاها هناك « رأس كل فاحشة » وكل من التسميتين تمثل أثر الخمر في تخريب المجتمع أبلغ تمثيل .

إن رسول الله ﷺ وقد كشفت عنه الحجب يعلم أن فتنا كثيرة سوف تحمل بالمسلمين ، وقد سمعه على - كرم الله وجهه - ينبيء بذلك فسأله عن المخرج منها ، فأجابته ﷺ بأن

المخرج هو كتاب الله ، والاستمسك بأحكامه على النحو الذى قرره الرسول ﷺ وتلك رواية الوصية طبقا لرواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - :

عن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ . قلت : فَمَا الْمَخْرُجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : كِتَابُ اللَّهِ ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ، وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، هُوَ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَرِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ ، وَلَا تَلْتَسِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ ، وَلَا يَشِيعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلَا يَخْلُقُ عَن رِدِّ ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ ، هُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ الْجَنِّ حِينَ سَمِعْتُهُ حَتَّى قَالُوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١) .

كان رسول الله ﷺ يؤكد في كل مناسبة على الاستمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، وقد صنع ذلك في خطبة حجة الوداع في قوله ﷺ : « تركت فيكم ما إن استمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتي » .

وصايا النبي للغزاة :

كان الرسول ﷺ كلما وجه سرية أو جيشا إلى غزوة من الغزوات زود الغزاة بوصاياهم التى هى فى حقيقة أمرها توجيهات تعد بمثابة قواعد لأحكام الحرب فى الإسلام ، وكانت هذه الوصايا تصدر منه ﷺ حينما لجمهرة الغزاة ، وحينما آخر لقائد الجيش أو رأس السرية ، فمن النوع الأول الموجه إلى جمهرة المقاتلين قوله ﷺ :

« اغزُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تَعْتَدُوا وَلَا تَمِيلُوا ، وَلَا تَجَبُّنُوا وَلَا تَعْلُوا ، وَإِذَا أَنْتَ لَقَيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَدْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ ، مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ : ادْعُهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ ؛ فَإِنْ فَعَلُوا كَانَ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَيْهِمْ مَا

(١) نثر الدر للابن القيم / ١ / ٢٥٨ من مسند الرضا .

عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أَبَوْا فَلِإِيَّائِنَا يُعْطَوْنَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ عَلَيْهِمْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ ، وَلَا تُنْزِلُوهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ أَتُصِيبُونَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا ، وَلَكِنْ أَنْزَلُوهُمْ فِي حُكْمِكُمْ ، وَلَا تَعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفَرُوا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ» (١).

إنها وصايا جديدة على دستور الحروب ، إذ الحروب في الماضي بل والحاضر قتل للأفئس بغير تمييز . وحرقت للأخضر واليابس ، وتدمير للمنشآت بها فيها بيوت الله ، هذا فضلا عن الغدر واستباحة الحرمات ، وأما دستور الحرب في الإسلام فإن بعضها هو ما جرى على لسانه الشريف في تلك الوصية الشريفة ، وإن بعضا آخر من وصاياها ﷺ في دستور الحروب يتمثل في بقية وصاياها في هذا السبيل .

فمن وصاياها ﷺ إلى قواد السرايا ما كتبه لعبد الله بن جحش ، وكان قد أخرجه في ثمانية من المهاجرين : « من محمد رسول الله ، عليكم بتقوى الله ، سيروا على بركة الله حتى تأتوا نخيلة ، فعليكم إقامة يومين ، فإن لقيتم كيدا فاضربوا ، وإن غنمتم فوفروا ، وإن قتلتم فأنحنوا ، وإن أعطيتهم عهدا فأوفوا ، ولا تقبلوا عهد المشركين » (٢).

وتضم هذه الوصية على إيجازها الشديد سبعة أحكام من دستور الحرب في الإسلام ، هي على ترتيب صدورها من صاحب الرسالة : تقوى الله ، وإقامة يومين للاستطلاع ، والصبر ، وتوفير الغنيمة ، والقتال باستبسال إذا لم يكن من القتال بد ، والوفاء بالعهد ، ورفض عهد المشركين .

ومن وصاياها ﷺ لأمرأ الجيوش ما زود به عمرو بن العاص حين أخرجه إلى ذات السلاسل من بلاد قضاة في ثلاثمائة رجل من أهل الشرف من المهاجرين والأنصار ،
قائلا :

(١) سنن الدارمي ٣٢٢ ومسند الإمام زيد ١٤٩ .

(٢) البداية والنهاية ٣ / ٥٠ .

« يا عمرو ، إني قد بعثت معك المهاجرين قبلك ، واستعملتكَ على من هو خير منك . إذا أذن مؤذنتك للصلاة فاسبقهم ، فإذا جهرت بالقراءة فازفع صوتك وأسمعهم تكبيرك ، ولا تقصر في الصلاة فتضيق أجرهم ، ولا تطول فتملهم ، واسمر بهم فإنه أذكى لحراستهم ، ولا تحذنهم عن ملوك الأعاجم فيتعلموا الغدر ، ورغبهم في الوفاء فإن ذلك الملك أخذ بغير الله ، وعمل فيه بمعصية الله فدمره الله تدميراً » .

ثم أمده بأبي عبيدة ، ومعهُ أبو بكر وعمر وغيرهما ، بائتين وقال له - أي لأبي عبيدة - :

« لا تستأخرن عن الله فتسبق إليه ، قل ما تفعل ، واعمل ما تأمر ولا تشقق الكلام تشقيق الكهان ، ولا تبحث عن المعصية ، ولا تسأل عن القالة . وتعمد ما لم تكن البيئة ، وإذا وجب الحد فلا تقصر عنه ، وإذا قدمت على صاحبك فإن عصاك فأطعه » .

كانت هذه الغزوة في السنة الثامنة للهجرة لدعوة قضاة وبنى عذرة للإسلام ، وقد اشتملت الوصية الشريفة على وصيتين لا وصية واحدة ، الأولى لعمر بن العاص ، والثانية لأبي عبيدة بن الجراح الذي جعله رسول الله أميراً على جيش المدد الذي ضم الصحابيين الجليلين أبا بكر وعمر ، فأما الوصية الأولى فهي نصح لعمر بن في فن قيادة الجند المسلمين ، فضلاً عن توجيه خاص منصرف إلى شخص عمرو .

والوصية الثانية كانت للصحابي القائد أبي عبيدة ، وهي الأخرى توجيهات فائقة في فن قيادة الرجال ، والرسول ﷺ يعلم قدر الرجلين ، ولكن أبا عبيدة مقدم عنده على عمرو ، ولكنه ﷺ توقع أن عمرو بن العاص ربما تمسك بقيادة الجيش - وهو ما حدث بالفعل - وقد ذكره الطبري تفصيلاً (*) ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ ختم وصيته لأبي عبيدة بقوله الشريف : « وإذا قدمت على صاحبك ، فإن عصاك فأطعه » .

(*) تاريخ الرسل والملوك ، قسم أول ٣ / ١٦٠٤ طليدن .

إن أبا بكر الصديق هو الصحابي الأول ، وهو في أكثر الصحابة علماً بأحاديث رسول الله ﷺ ووصاياه بشكل عام ، وفي الحروب وتوجيهات أمراء الجيوش بشكل خاص ، ومن ثم فإنه قد جمع هذه الوصايا النبوية في فن قيادة الجيوش وآداب الحرب وصاغها في رسالته التي بعث بها إلى القائد يزيد أبي سفيان ، وهو ما سوف نفضله في كتابنا عن مدرسة رسول الله في الفصاحة بعون الله .

وصيته لأبي ذر :

ومن الصحابة الذين حظوا بقدر كبير من وصايا رسول الله ﷺ وتوجيهاته واستقبلوا الكثير من أوامره ونواهيه الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ، فقد كان صادق الحب لرسول الله ، شديد الاتصال به ، كثير الجلوس إليه ، وربما نال أبو ذر من وصايا الرسول ﷺ أكثر مما نال غيره من الصحابة ، لقد كان في أبي ذر شيء من الاندفاع ، ولذلك وصفه رسول الله ﷺ بالضعف حين طلب أن يكون والياً . وإن في وصايا النبي ﷺ لأبي ذر تفصيلاً أكثر مما في وصاياه لغيره ، وبخاصة ما كان يتصل بالناس ومقدار صلاته بهم ، وهذه واحدة من وصايا الرسول ﷺ لأبي ذر :

« أوصيك بتقوى الله ، فإنه زينة الأمر كله ، وعليك بتلاوة القرآن ، واذكر الله فإنه ذكرٌ لك في السماء ونور لك في الأرض ، وعليك بطول الصمت إلا من خير ، فإنه مطردةٌ للشيطان عنك ، وعون لك على أمر دينك ، وإياك وكثرة الضحك فإنه يميئ القلب ، ويذهب بنور الوجه ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي ، وأحبّ المساكين وجالسهم وانظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ؛ فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عليك ، وصل قرابتك وإن قطعوك ، وقل الحق وإن كان مرّاً ، ولا تخف في الله لومة لائم ، وليحجزك عن الناس ما تعلم في نفسك ، ولا تجرّ عليهم فيما تأتي ، وكفى بالمرء جبناً أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرف من الناس ما لا يعرف من نفسه ، ويستحى لهم مما هو فيه ، ويؤذى . يا أبا ذر لا عقل كالتيدير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق » (١).

(١) كنز العمال ١٥ / ٩٠٩ .

إنها ثلاث عشرة وصية :

الأولى : تقوى الله ، نعم إنها الأساس يعد الإيمان ، طوبى للمتقين . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ والمتقون هم ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وهم ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهم الذين بوأهم الله مقاعد صدق عنده : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ ﴿ .

الثانية : تلاوة القرآن ، وتلاوته ربيع القلوب ، والمرء موصول الأسباب بخالقه ما قرأ القرآن ، والرسول ﷺ يقول : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرأون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه أبو داود في سننه : غن أبي هريرة .

الثالثة : ذكر الله ، إن ذكره - جل وعلا - هو التهليل والتكبير والتسبيح والحمد والثناء ، وهو استحضار للخشية والتقوى ، واستشعار للعبودية والحب ، وترديد للخضوع والشكران .

الرابعة : الصمت ، إن عقبة بن عامر يسأل رسول الله ﷺ عن النجاة قائلاً : ما النجاة ؟ فيجيبه ﷺ : « أمسك عليك لسانك » ومنه قوله ﷺ لمعاذ : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟ ! » رواه الترمذى في الإيمان وصححه . ومن الأقوال الحكيمة في الصمت قول الإمام على - كرم الله وجهه - : ما ندمت على كلمة لم أقلها قط .

الخامسة : التحذير من كثرة الضحك ، والنهى الذى قصده الرسول ﷺ هو كثرة الضحك ، وليس مجرد الضحك ؛ لأن الضحك نفسه مطلوب ولكن متى دعا الموقف إلى ذلك ، وكان ﷺ هاشا باشا باسم القسمات يضحك أحياناً ، أما كثرة الضحك فإنها مردولة ؛ لأنها تميم القلب ، أى : تصيبه بالغفلة عن ذكر الله .

السادسة : الجهاد رهبانية أمتى ، هكذا وصف رسول الله الجهاد ، وهو أبلغ ما

يوصف به الجهاد في سبيل الله ، إن الجهاد حسب تعبير آخر لسيد المرسلين هو : ذروة سنام « الأمر » . في حديث معاذ يقول له رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » أخرجه الترمذى ، وصححه .

وبقية الحديث يقول فيه رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله » ؟ قال معاذ : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه ثم قال : « كف عليك هذا » قال معاذ : يا نبي الله أو نحن مؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » أخرجه الترمذى ، وصححه .

السابعة : حب المساكين ومجالستهم ، تلك هي الوصية السابعة لأبى ذرّ ، والمساكين : هم ضعاف الناس غير ذوى الجاه أو القوة ، ومن منطلق الأخوة الإسلامية وترابط المجتمع الإسلامى تكون مجالسة المساكين والتعجب إليهم وإشعارهم بأنهم جزء من كيان الأمة أمراً واجبا ، وقد ورد في بعض الروايات ما أثر عن الرسول من قوله : « اللهم أحيى مسكينا وأميتى مسكينا واحشرنى في زمرة المساكين » .

أخرجه عبد بن حميد في مسنده ، وابن ماجه في سننه عن أبى سعيد الخدرى .

الثامنة : انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ، ويقرن الرسول ﷺ هذه الوصية بالتوضيح والإبانة والتعليل فيقول لأبى ذرّ - رضى الله عنه - : « فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عليك » لأن المرء إذا نظر إلى من هو أعلى منه غنى أو جاهاً أو صحة أو وسامة ربما صغر شأنه أمام نفسه ، ومن ثم يخشى عليه إذا لم يكن واقفاً على أرض صلبة من الإيثار أن يشعر بضآلته أمام الآخرين ، ولكنه إذا نظر إلى من هو تحته - يعنى من هو أقل مالا أو جاهاً أو صحة أو وسامة أو غير ذلك من المواهب والصفات - فإنه يحس بنعمة الله عليه ، ويستشعر الرضى في نفسه ، ويحمد الله على ما هو فيه من حال .

التاسعة : صلة ذوى القربى ، وهذه الوصية تكليف قرآنى صريح ، وكان أول من أمره الله بصلة ذوى القربى هو رسول الله نفسه في قوله - عز وجل - :

﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ النساء ، الآية : ٣٦ .

لقد جاء ترتيب صلة الرحم في الآية الكريمة في الرتبة الثالثة بعد عبادة الله وعدم الشرك به ، وبعد الأمر ببرّ الوالدين ، فكان الأمر الثالث بعد هاتين هو صلة ذوى القربى أو الإحسان إليهم طبقاً للتعبير القرآنى . ولم يقف الأمر بصلة ذوى القربى في هذه الآية وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم ، وإنما تعددت التوجيهات في هذا الشأن في حديث رسول الله ﷺ في شخصه الكريم ، فمن الأحاديث الواردة في هذا الشأن ، والمأنوسة لدى المشتغلين بحديث رسول الله قوله ﷺ : « أوصانى الله بذى القربى وأن أبدأ بالعباس » .

إن صلة ذوى القربى وصية إلهية في الحديث الشريف ، والوصية الإلهية هى بمثابة التكليف الذى لا فكاك من الالتزام به ، أما لماذا أوصى الله - سبحانه - نبيه أن يبدأ بالعباس فهذا أمر يطول الحديث فيه ، ولكن مجمله أن العباس كان شديد الحب والاهتمام برسول الله ورسالة ربه إليه ، خاصة بعد وفاة عمه أبى طالب ، وتذهب روايات كثيرة إلى أن العباس كان مؤمناً بالرسالة في وقت مبكر ، وإنما كان يخفى إيمانه لكى يدافع عن ابن أخيه في محافل المشركين من قريش وينقل إليه ما يفيد الدعوة وما يفسد كيدهم .

فإذا ما عدنا إلى وصية رسول الله ﷺ لأبى ذر وجدناه ﷺ يؤكد على ضرورة صلة ذوى الرحم حتى وإن قطعوه ، وهذا التوجيه النبوى الكريم يقضى على عنصر القطيعة بين ذوى الأرحام الذين هم عرضة لكثير من الخلافات التى تقع بينهم لأسباب دنيوية ، ومن ثم فلو أن كل مسلم عمل بهذه الوصية الشريفة لما كانت هناك شبهة قطيعة في مجتمعات ذوى الأرحام .

العاشرة : قول الحق وإن كان مرّاً ، إن قول الحق هو صدق الحديث ، والصدق

بينى المجتمعات الصالحة ، والكذب يهدمها ، وكان الرسول ﷺ يُعرفُ قبل الرسالة بالصادق الأمين ، وهى منة من الله بها عليه حتى قبل أن يخصه بالرسالة الخاتمة .

وقول الحق ليس سهلا دائما ، فكثيرا ما يكون صعبا أمام سلطان جائر ، أو باطش ظالم ، بل تشتد مرارته إذا كان فيه ما يؤدى بالمساس بذوى القربى من أب أو أخ أو ابن أو عم أو ما شاكل ذلك ، ولكن المجتمع الصالح - ومجتمع المسلمين أكثرها صلاحا - لا يقوم إلا على الصدق ، ومن ذلك فإن الرسول ﷺ يقول فى الحديث الشريف الذى رواه عنه عبادة بن الصامت : « اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة » وجعل أول المبادئ الست التى تدخل الجنة الصدق فى الحديث ، وأما تمام الحديث الشريف فهو : « اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم »^(١) أما عكس ذلك من كذب فى الحديث ، ونقض للعهد ، وخيانة للأمانة فهى صفات المنافقين ، وقد نبه إليها الرسول ﷺ فى قوله الشريف : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »^(٢) وقول الحق الذى هو صدق الحديث يهدى إلى الجنة طبقا لما روى عنه ﷺ من حديث ابن مسعود قال : « الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة »^(٣) .

ويؤكد الرسول ﷺ على ضرورة قول الصدق وإن ظن أنه مؤد إلى الهلاك ، فما هلك صاحب قول صادق أبدا . يقول الصادق المصدوق ﷺ : « تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه ، فإن فيه النجاة »^(٤) وقد ترجم المسلمون على ممر العصور هذا الحديث الشريف فى حكمة تجرى على ألسنة الخاصة والعامة فى قولهم : (الصدق منجاة) .

الحادية عشرة : لا تخف فى الله لومة لائم ، والمعنى المراد من هذه الوصية هو ألا يخشى أبو ذر - رضى الله عنه - وسائر المسلمين لوما فيها يتصل بأوامر الله وحدوده ،

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ، وابن حبان ، والحاكم فى المستدرک ، والبيهقى فى شعب الإيمان : عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) رواه أبو داود فى سننه : عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت : عن منصور بن المعتمر مرسلا .

ويتمثل ذلك أكثر ما يتمثل في تطبيق الأحكام على الجميع دون استثناء : على الشريف والوضيع ، وعلى القوى والضعيف ، وعلى الغنى والفقير ، وقد اتخذ الصديق أبو بكر هذه الوصية شعارا لحكمه حين اعتلى المنبر ساعة بوبع بخلافة رسول الله ، فقال : ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوى حتى أخذ الحق منه .

الثانية عشرة : وليحجزك عن الناس ما تعلم في نفسك ، والمراد أن يعنى المرء أولا بما في نفسه من عيوب ومآخذ ، ولا يلوم الآخرين على عيوب أخذها عليهم ، وهى كامنة فيه ، ومن ثم كانت بقية الوصية : ولا تَجُرُّ عليهم فيما تأتى ، ولا شك أن التفات الأفراد إلى عيوبهم سوف يصرفهم عن متابعة ما في الآخرين من عيوب ، لأن المرء لو صدق إيمانه لن يرضى عن نفسه المنحرفة قبل أن يردها إلى الطريق السوى ، فإذا عمل كل مسلم بهذه الوصية النبوية الشريفة سارع إلى إصلاح شأنه ، وتهذيب نفسه ، وتبعا لذلك يكون المجتمع الإسلامى كله خاليا من العيوب .

الثالثة عشرة : تلافى خصال الجبن ، إن الرسول ﷺ ينبّه إلى خصال مقبته ينبغى للمرء الصالح أن ينزه نفسه منها ؛ لأنها إذا توفرت فيه جعلته جبانا ، والجبن - كما هو معروف عنه - من أخصّ الصفات .

يحدد رسول الله ﷺ هذه الصفات فى ثلاث ، يقول الصادق الأمين : « وكفى بالمرء جبنا أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرف من الناس ما لا يعرف من نفسه ، ويستحى لهم مما هو فيه ، ويؤذى » . وهى صفات يمسك بعضها بخناق بعض على خستها ، إذا اجتمعت فى امرئ صنفته فى قائمة الجبناء ، أولها أن يتابع عيوب الآخرين فى الوقت الذى هى كامنة فيه متمكنة منه ، وأولى به أن ينزه نفسه عنها ، وثانيها أن يظهر الاستحياء لهم من عيوبهم ولا يستحى هو نفسه من نفسه لتجمع هذه العيوب فيه ، وثالثها الأذى ، والمراد هو أن يوقع الأذى بالآخرين بسبب ما رآه من عيوبهم فى حالة أن الأجدر به أن يكف عن ذلك ، وأن يعالج شؤنه ويصلح عيوبه . وكما أسلفنا القول ، لو أن كل مسلم فعل ذلك لصلح حال الناس جميعا .

ويختتم الرسول ﷺ وصيته - بل وصاياه - لأبي ذر بهذه الكلمات المضيئة : « يا أبا ذر، لا عقل كالتيدير ، ولا ورع كالكف ، ولا حُسنٌ كحسن الخلق » . والمعنى هنا من الوضوح بمكان ، فالتدبير : هو وضع الأمور في نصابها ، ولا يصدر ذلك إلا عن عقل راسخ رزين ، والكف : هو الإقلاع عن عمل النقائص ، وممارسة المعائب ، واقتراف السيئات في حق الله وحق عباده .

إن أبا ذر صاحب أكبر عدد من وصايا رسول الله ﷺ بين الصحابة ، وإذا كانت الوصية التي عرضنا لها بشيء من الإيابة قد شملت أمور الدنيا وشئون الآخرة ، فإننا نعرض لوصية أخرى وجهها الرسول ﷺ اقتصر على شئون العبادة .

قال أبو ذر - رضى الله عنه - : « أوصانى حَبِيٌّ بثلاث لا أدعهن إن شاء الله أبدا ، أوصانى بصلاة الضحى ، وبالوتر قبل النوم ، وبصيام ثلاثة أيام كل شهر » . وهى من قبيل العبادات التطوعية ولكن ثواب كل منها يضيف إلى ميزان حسنات مؤديها ما يرجح كفته يوم ينصب الميزان إن شاء الله .

وصايا الرسول لأبي هريرة :

أبو هريرة هو صاحب رسول الله ﷺ وراوى أكبر عدد من الأحاديث الصحيحة ، وكان شديد القرب من رسول الله ﷺ في سنواته الأخيرة ، ولذلك فإننا نتوقع أن يفوز أبو هريرة بعدد نفيس من وصايا صاحب الشريعة ﷺ .

قال أبو هريرة : « أوصانى خليلي بثلاث ، قال هشيم - الحافظ الثقة - : فلا أدعهن حتى أموت : بالوتر قبل النوم وصيام ثلاثة أيام كل شهر ، والغسل يوم الجمعة » مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٢٩ .

وفى رواية أخرى ذكر أبو هريرة أن رسول الله ﷺ أوصاه قائلا ؛ « أوصيك يا أبا هريرة بخصال أربع ، لا تدعهن أبدا ما بقيت : عليك بالغسل يوم الجمعة ، والبكور إليها ، ولا تَلَعْ ، ولا تَلَهُ ، وأوصيك بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ؛ فإنه صيام الدهر ، وأوصيك بالوتر قبل النوم ، وأوصيك بركعتي الفجر ، لا تدعهما وإن صليت الليل كله ؛ فإن فيهما الرغائب » كنز العمال ١٢ / ٨٥٧ .

والملاحظ أن ثمت نصيحتين مشتركتين بين نصائح الرسول ﷺ لكل من أبي ذر وأبي هريرة ، وهما الوتر قبل النوم ، وصيام ثلاثة أيام كل شهر ، ومعنى ذلك أن ثواب صلاة الوتر وثواب صيام الأيام الثلاثة من كل شهر مقدمان على غيرهما من نوافل الصلاة ونوافل الصوم . ذلك أن صلاة الوتر عند بعض الأئمة هي دون الفرض وفوق السنة ، ومن ثم اعتبرها الإمام أبو حنيفة - رضى الله عنه - واجبا ، أما ركعتا الفجر اللتان أوصى بهما الرسول الصحابي أبا هريرة فإنهما على ثوابها الكبير يدخلان في باب السنن المؤكدة التي كان الرسول يحرص على أدائها ، ومن ثم كان تأكيد الرسول على أبي هريرة بأدائها وألا يدعهما وإن صلى الليل كله فإن فيها الرغائب ، ففي حديث لأبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا ركعتي الفجر ولو طار دكم الخيل » وهما ركعتان تصليان قبل الفجر على ما هو معروف للمحافظين على أداء الصلاة ، ولقد تكرر ذكر رسول الله لفضلها والتوصية بأدائها في حديث لعبدالله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ، دلني على عمل ينفعني الله به ، قال : « عليك بركعتي الفجر فإن فيها فضيلة » .

وأما الأيام الثلاثة التي أوصى رسول الله ﷺ كلا من أبي ذر وأبي هريرة بصومها ففي تحديد توقيتها بين أيام الشهر خلاف ، ففي رأى أنها الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر ، وقيل : هي اليوم الأول والحادي عشر والواحد والعشرون ، وهو رأى الإمام مالك ، وقيل : بل يجوز أن تكون أية ثلاثة أيام من أيام الشهر تيسيرا على الناس في العبادة التطوعية .

وإذا كان ثمت خلاف في توقيت هذه الأيام الثلاثة التي أوصى رسول الله ﷺ بصيامها كل شهر ، فإن هناك أيضا أياما محددة بمواقعها من الشهر سن رسول الله ﷺ صيامها ، وهي ست من شوال ، والاثنين والخميس ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، فأما الأيام الستة من شوال فقد ورد في شأنها قوله ﷺ : « من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال كان كمن صام الدهر »^(١) ويجوز صيامها متصلة متتابعة أو منفصلة متفرقة ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والإمام مسلم في صحيحه ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذى ، وابن ماجه .

ولكن الإمام مالكا - رضى الله عنه - كان يكره صيامها متصلة حتى لا تصبح بمرور الزمن جزءا من رمضان وتلحق به .

وعن سنة صوم يومى الاثنين والخميس ففي هذين اليومين تعرض أعمال العباد على الله ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أحب أن تعرض أعمالى وأنا صائم » (١).

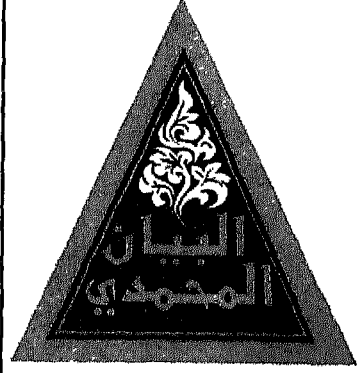
وأما صوم عرفة فهو سنة عن رسول الله إلا للذين يكونون فى الموقف يؤدون فريضة الحج ، وقد روى عن الرسول ﷺ قوله : « صوم يوم عرفة أحسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده » (٢).

وعن صوم يوم العاشر من المحرم (عاشوراء) فقد كان اليهود يصومونه ، فسألهم الرسول ﷺ عن ذلك فقالوا : لأن الله نجى موسى من فرعون فصامه موسى شكرا لله ، فقال ﷺ : « نحن أحق بموسى منكم » (٣) فصامه وأمر الناس بصيامه .

(١) رواه أصحاب السنن : عن أسامة بن زيد .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذى : عن أبي قتادة .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائي : عن ابن عباس رضى الله عنهما .



الفصل الثاني

بعض وصايا الرسول للنساء

وصايا الرسول للنساء

مثلما حظى كثير من الصحابة بوصايا رسول الله ﷺ فإن عددا من الصحابيات قد حظين كذلك بوصاياه الشريفة ، ومن المعروف أن الصحابيات كن يسألن الرسول ﷺ في شؤون دينهن ، وأنهن كن يبايعنه مثلما يبايعه الصحابة من الرجال ، وكان الرسول ﷺ يعرف للنساء الفضليات أقدارهن ، وقد كرمهن الله في كتابه العزيز ، وكذلك كرمهن الرسول في أحاديثه الشريفة ، لقد كان الرسول زوجا مثاليا ، وكان يقول : « خياركم خياركم لنسائهم » (١) . وكان يقول أيضا : « الدنيا كلها متاع . وخير متاعها المرأة الصالحة » (٢) .

وفي نطاق الأبوة كان الرسول الأب الحانى والوالد المشفق على أولاده ، وإن موقفه من حادثة ابنته زينب حين أجارت زوجها أبا العاصى بن الربيع في المدينة قبل أن يسلم معروفة مشهورة ، وقد ألمحنا إليها في فصل سابق .

والأمر المبهر في أبوته ﷺ قد تجلى بشكل أوضح مع ابنته فاطمة الزهراء ، ولعل مرد ذلك يرجع إلى أنها صغرى بناته ، وأنها ظلت لصيقة به حتى بعد زواجها ، وأنها أم السبطين الجليلين : الحسن والحسن سيدى شباب أهل الجنة ، وأنها أشبه الناس بالرسول ﷺ وكان ﷺ لشدة تعلقه بها يقول : « فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها ويريبنى ما رابها » (٣) .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه : عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم ، وأحمد ، والنسائى : عن ابن عمرو رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه (مناقب فاطمة) : « فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبى » عن المسور بن مخرمة رضى الله عنه .

وصية الرسول لفاطمة :

إن أبلغ ما عبر به أب عن حبه لابنته هو ما عبر به رسول الله ﷺ عن حبه لفاطمة في الحديث السابق ذكره : « فاطمة بضعة مني . . الحديث » وقد بشرها بأنها واحدة من أربع هن أفضل نساء أهل الجنة في قوله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية » (١).

لم يكن غريبا والأمر كذلك أن تصدر عنه ﷺ وصية لفاطمة وبمبادرة منه ؛ لأن أكثر الوصايا التي صدرت عنه ﷺ كانت مطلبا تقدم به أصحابها ، ولذلك كان استهلال صيغة وصيته لفاطمة مختلفا عن غيره في قوله ﷺ لها : « ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به » ثم يمضى ﷺ معلنا وصيته للزهراء قائلا : « أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين » (٢).

إن رسول الله ﷺ يختار لها أن تناجي الخالق - جل ذكره - سائلة إياه بائنين من أحب أسمائه الحسنى إليه هما : الحي ، القيوم . فالحي : هو دائم الحياة وواهب الحياة ، والقيوم : هو القيم على خلقه من سموات وأرضين وبشر وحيوان وجماد ، لا يغفل عن القيام بأمرها طرفة عين ، ويتبدى جلال هذين الاسمين الجليلين من أسمائه الحسنى في إيراد - جل جلاله - إياهما في كتابه العزيز مقترنين أحدهما بالآخر في أكثر من آية وأكثر من سورة ، جاء ذكرهما في مقام حتمية خضوع العبد خضوعا مطلقا لذاته - عز وجل - في قوله - تعالى - : ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ كما جاء ذكرهما على نفس السمات في آية الكرسي ذات الشأن الأسمى في كتابه العزيز : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرک : عن ابن عباس - رضی الله عنهما - بلفظ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فـ »
(٢) رواه النسائي في سننه ، والحاكم في مستدرکه : عن أنس رضی الله عنه .

إن دعاء هذه صيغته يتوجه به العبد إلى خالقه مستجاب إن شاء الله ، خاصة إذا كان صادرا من فاطمة الطاهرة الزهراء البتول العابدة ابنة محمد ﷺ وإحدى فضليات أربع نساء في الدنيا والآخرة .

وصية الرسول لأم أنس :

قالت أم أنس : يا رسول الله أوصني ، فقال ﷺ : « اهجرى المعاصي ؛ فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله ؛ فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره » (١) .

لعلنا نلاحظ هنا أن أم أنس هي التي طلبت من رسول الله أن يوصيها ، بينما في حالة الزهراء البتول كانت المبادرة من رسول الله ؛ لأنه آنذاك الرسول الوالد ، وهو هنا ﷺ الرسول المبلغ ، ووصية رسول الله لأم أنس جاءت في صيغتين : نهى عن منكر : « اهجرى المعاصي » وأمر بمعروف : « أكثرى من ذكر الله » ولكن المعاني المتجمعة في الصيغتين تؤدي إلى صلاح الدنيا والآخرة .

« اهجرى المعاصي فإنها أفضل الجهاد » والمعاصي تصدر عن النفس الأمانة بالسوء وهجر المعاصي مجاهدة للنفس ، ومجاهدة النفس هي الجهاد الأكبر ، تصديقا لقول رسول الله حين عاد من إحدى المعارك فقال : « عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

وأما الصيغة الثانية فلا يستطيع امرؤ مهما أوتى من مراتب البلاغة وموهبة البيان أن يعللها بأبلغ مما عللها رسول الله : « وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره » .

بقي أن ننوه إلى أن الرسول ﷺ لم يوص فاطمة بهجر المعاصي ، مع العلم بأن وصية الرسول لأم أنس لا تعنى أنها تقترب المعاصي ، فالوصايا مثلما أنها موجهة إلى شخص بذاته فهي كذلك موجهة إلى جماعة المسلمين في كل زمان ، ولكن الرسول - وقد أديها بأدبه ورباها تحت بصره - يعلم أنها تتوقى المعاصي . إنه ﷺ يقول : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » والذي أدبه الله مؤهل لأن يؤدب ابنته أدبا مستمدا من تأديب الله له .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : عن أم أنس ، ولفظه : « اهجرى المعاصي ؛ فإنها أفضل الهجرة ، وحافظي على الفرائض ؛ فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين بشيء أحب إليه من ذكره » .



الفصل الثالث

وصيتان لواحد من العامة
ولآخر لم يكن أسلم

وصيتان لواحد من العامة ، ولآخر لم يكن أسلم

ليس كل من حظوا بوصايا النبي ﷺ من الرجال المعروفين أو الصحابة المرموقين ، ذلك أن باب الرسول ﷺ كان مفتوحا لكل قادم ، وكان صدره من الرحابة والاتساع بحيث يستمع لكل سائل ، ويجيب كل طالب ، فكان يفد عليه الرجل من الطريق غير معروف الاسم أو الهوية ويطلب إليه أن يوصيه وينصرف بعد ذلك ظافرا ببيغيته ، مثلما جاء مجهول الاسم مغمور الهوية ، أو ينصرف وقد عرف اسمه فصار من الصحابة الذين يروون حديث رسول الله ، وربما لم يكن مسلما حين وفد سائلا فصار مسلما حين انصرف راضيا .

وصية العامي :

من وصايا الفريق الأول ، الذى يفد الرجل منهم على رسول الله وينصرف وهو على حالته غير معروف ، ما رواه أبو هريرة .

قال أبو هريرة - رضى الله عنه - : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أوصنى - وفي رواية - علمنى شيئا ولا تكثر على لعلى أعيه ، قال : « لا تغضب »
وفي رواية الترمذى قال : يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ولا تكثر على ، قال : « لا تغضب » (١) .

الرسول ﷺ لم يسأل هذا المائل بين يديه عن اسمه أو عمله ، ولكنه يطلب نصيحة تصلح شأنه ، أو وصية يعمل بها فتقيه المعاصى وتفتح أمامه أبواب الرضوان ، ولما كان

(١) أخرجه البخارى ، وأحمد ، والترمذى : عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه أيضا أحمد والحاكم : عن جارية بن قدامة رضى الله عنه .

الرجل قد حدد إطار الوصية التي طلبها بأن تكون موجزة حتى يعيها ، فإن الرسول ﷺ أجابه إلى سؤاله على الصورة التي وردت في الحديث : « لا تغضب » .

نعم الوصية هي ، إنها وصية جالبة للخير ، مفضية إلى رضا الله ؛ لأن الغضب غول العقل ، وما أتى امرؤ فعلا وهو غضبان إلا جانبه التوفيق ، وما أصدر غاضب حكما إلا جانبه الصواب ، لأن الغضب مصحوب بالانغلاق ، وكيف يأتي تصرف صائب من عقل منغلق ؟ ! .

إن امتلاك المرء لنفسه وقت الغضب هو القوة الحقيقية ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) . والله سبحانه يقول في محكم كتابه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آل عمران : ١٣٤

فإذا التزم السائل بوصية رسول الله ﷺ لفظا وروحا وتجنب الغضب لاجتناب ما ينتج عن الغضب من سيئات وأخطاء ، ولوجد طريقه ممهدا إلى الجنة بإذن الله .

وصيته للثاني :

ومن وصايا رسول الله ﷺ للفريق الثاني ، وصيته لأبي جرى جابر بن سليم الذي وقف يرصد تعامل رسول الله ﷺ مع الناس دون أن يعرفه فاستولت شمائل الرسول على مجامع مشاعره ، فتقدم إلى رسول الله يسأله ويستوصيه ، فكان من شأنه أنه دخل على الرسول كافرا وانصرف مسلما ، وإنه حل في حضرة رسول الله مغمورا وخرج صحابيا جليلا يروى أحاديث النبي ويرعى سنته .

وها هي أخبار هذه الوصية وملاساتها طبقا لما رواها متلقيها أبو جرى :

عن أبي جرى جابر بن سليم - رضى الله عنه - قال : رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه ، لا يقول شيئا إلا صدروا عنه . قلت : من هذا ؟ قالوا : رسول الله - صلى الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والشيخان : عن أبي هريرة رضى الله عنه .

عليه وسلم - قلت : عليك السلام يا رسول الله ، قال : « لا تقل : عليك السلام ؛ عليك السلام تحية الميت ، قل : السلام عليك » قال : قلت : أنت رسول الله ؟ قال : « أنا رسول الله الذى إذا أصابك ضرر فدعوته كشف عنك ، وإذا أصابك عام سنة فدعوته أنبت لها لك ، وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك » قال : قلت : اعهد إليّ - وفي المسند : قلت أوصنى - قال : « لا تسبب أحدا » فما سببت بعده حرا ولا عبدا ولا بعيرا ولا شاة منذ أوصانى رسول الله ﷺ قال : « ولا تحقرن شيئا من المعروف ولو منبسطة وجهك إلى أخيك وأنت تكلمه ، وأفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، وارفع إزارك إلى نصف الساق ، فإن أبيت فى الكعيبين ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة ، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما فىك ، فلا تعيره بما تعلم فيه ، فإنها وبال ذلك عليه » (١) .

لقد انبهر أبو جرى بشخصية رسول الله ، وقد وقف أمامه وهو لا يعرف أنه رسول الله ، ولم يكن مسلما ، ولكن الرسول ﷺ ، وهو الذى حباه ربه بفصل الخطاب ، بدأ يصحح لأبى جرى أسلوب حوار ، ثم بدأ يشرح له نعم الله عليه « الله الذى إذا أصابك ضرر فدعوته كشف عنك ، وإذا أصابك عام سنة فدعوته أنبت لها لك ، وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك » ما إن يسمع أبو جرى هذا النهج القويم من الكلم صادرا من رسول الله مغمورا بالصدق مكللا بالهبة حتى ينشرح صدره للإسلام فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويسارع إلى طلب الوصية من رسول الله قائلا : أوصنى ، وفى رواية اعهد إليّ ، والمعنى واحد فى كلتا الصيغتين . فتكون أولى بنود وصية رسول الله له : « لا تسبب أحدا » ثم تتدفق بقية بنود الوصية على سمع أبى جرى بما يصلح أمره فى دخيلة نفسه وفى علاقته بالناس ، ومن ثم إلى رضاء ربه .

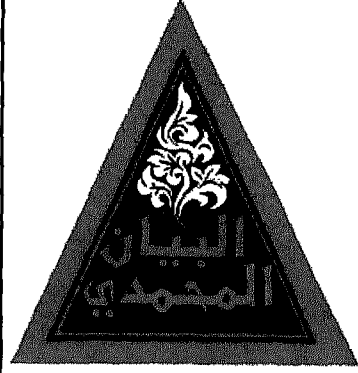
لقد كان أبو جرى نعم المهتدى المتقبل لوصية رسول الله ، العامل بتوجيهاتها مع أن طبيعة حوار الرسول معه توحى بأنه بدوى قادم من الصحراء ، ولكن الطمأنينة إذا

(١) الإمام أحمد فى مسنده ٤ / ٦٥ ، والترغيب والترهيب ٣ / ٤٦٨ .

حلت في نفس ، والإيمان إذا استقر في قلب لم يفرقا بين نفس بدوى أو قلب حضرى .
يقول أبو جرى بعد أن أوصاه النبي « لا تسبن أحدا » : فما سببت بعده حرا ولا عبدا ،
ولا بعيرا ولا شاة منذ أو صانى رسول الله ﷺ .

كان الرسول ﷺ يحرص في وصاياه إلى المؤمنين على أن يربيهم على نسق من الأدب
الرفيع ، كان بعض وصيته لأبى جرى « لا تسبن أحدا » وكانت أيضا وصيته لجرموز
الجهنى حين قال : يارسول الله أوصنى ، قال : « أوصيك ألا تكون لعانا » .

إنه خلق محمد وإنه أدب النبوة الذى سجله القرآن الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّكَ
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وسجله الرسول فى قوله الشريف : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »



الفصل الرابع

الرسول يوصى بطلاب العلم

وصاياہ ﷺ بطلاب العلم

الرسول يوصى بطلاب العلم :

إن أحاديث الرسول ﷺ في طلب العلم كثيرة ، منها قوله : ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) .

ومنها حديث أبي هريرة الذي أوله : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » وهو يشتمل على فقرة خاصة بالعلم وطلابه في قوله ﷺ : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » (٢) .

ومن أقوال رسول الله ﷺ في إشاعة العلم ما رواه أبو هريرة - قوله ﷺ : « أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم » (٣) .

هكذا كان اهتمام رسول الله ﷺ بالعلم واحتفاله به والحث على طلبه ، ذلك أن كل خطوة إلى الأمام في طلب العلم تقرب صاحبها من الله ، وقد قال - عز وجل - في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطر : ٢٨

لذلك لم يكن غريبا أن يكون طلاب العلم موضع اهتمام الرسول ﷺ وأن يكونوا أهلا لأن يوصى بهم خيرا وأن يحض على الترحيب بهم وبذل العلم لهم .

(١) - أخرجه ابن عدى في الكامل ، والبيهقي في شعب الإيمان : عن أنس - رضى الله عنه .

والطبراني في المعجم الصغير ، والخطيب في تاريخ بغداد : عن الحسين بن علي - رضى الله عنهما .

والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب : عن أبي سعيد - رضى الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه : عن أبي هريرة - رضى الله عنه .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه ١ / ٨٩ رقم ٢٤٣ .

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال :
« سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحباً مرحباً بوصية
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقنؤهم » (١) يعني علموهم .

هكذا أوصى رسول الله ﷺ صحابته وسائر علماء الأمة أن يهتموا بطلاب العلم
بالترحيب بهم ، وبذل العلم الذي يطلبون .

وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وتشاء المقادير أن يكون أبو سعيد الخدري -
راوية حديث طلاب العلم - أحد علماء الأمة الذين يجلسون لبذل العلم لطالبه ،
فكان إذا جاءه الطلاب بادرهم بالتحية ملتزماً بكلمة الترحيب التي خص بها رسول الله
طلاب العلم قائلاً : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ .

يقول هارون العبدى : كنا - يعنى هو ورفاقه من طلاب العلم - إذا جئنا أبا سعيد
الخدري قال :

مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ قال لنا : « إن الناس لكم تبع ، وإنهم
سيأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين ، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيراً » (٢) .

(١) ابن ماجه في سننه ١ / ٩٠ ، ٩١ رقم ٢٤٧ .
(٢) رواه ابن ماجه في سننه (المقدمة) ١ / ٩١ ، ٩٢ رقم ٢٤٩ .



الفصل الخامس

وصية الرسول بالأنصار

وصية الرسول بالأنصار

كانت وصيته ﷺ بالأنصار هي ختام ارتقائه منبره ﷺ وبعد ذلك لم يَرَقْ منبره الشريف ، ثم لحق بعدها بأيام بالرفيق الأعلى ، ومن ثم فقد أراد رسول الله أن تكون خاتمة مواقفه على المنبر تكريم الأنصار ، والتنبيه إلى فضلهم ، والتذكير بأقدارهم في وصيته بهم .

قال أنس بن مالك خادم رسول الله والملازم له : مرّ أبو بكر والعباس - رضى الله عنهما - بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون ، فقال : ما يبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ منّا ، فدخل - أي أبو بكر - على النبي ﷺ فأخبره بذلك . قال : فخرج ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد . قال : فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال : « أوصيكم بالأنصار ؛ فإنهم كَرِشِي وَعَيْبَتِي ، وقد قضوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم » (١) .

إن الرسول ﷺ يعرف قدر الأنصار ، وحبهم له ، وتعلقهم به ، ومساندتهم لرسالته ، وفتح قلوبهم وديارهم له ولصحابته المهاجرين ، وخوضهم غمار الحرب في سبيل دعوة الإسلام والذود عن حياضها ، وبذل الدماء والأموال في سبيل الله ، ومن ثم كانوا جديرين بحدب رسول الله ؛ لأنهم أحباؤه ونصراؤه ، ومحمد ﷺ يمثل قمة الخلق الكريم ، فلقد خصه الله - سبحانه - من بين سائر خلقه بالتأديب فقال ﷺ في ذلك : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » (٢) وإن الله - سبحانه - يثبت ذلك في محكم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : عن أنس رضي الله عنه - في فضائل الأنصار ٤ / ٢١٠ .

(٢) رواه ابن السمعاني في (أدب الإملاء) : عن ابن مسعود رضي الله عنه .

كتابه فيكرم رسوله وسيد خلقه بقوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) ولذلك فإن شئائل محمد هي قمة الشئائل ، وفئائله هي رأس الفئائل ، وإن من قمم الشئائل فضيلة الوفاء ، وعلى هذا الأساس نهض الرسول ﷺ من علته ، وتغلب على مرضه حين أبلغ أن جماعة من الأنصار يبكون لمرضه وخشيتهم من فراقه ، سار إلى المنبر معتليا مراقبه للمرة الأخيرة في حياته الشريفة ليوصى بالأنصار بخير ما يوصى به وفق لأوفياء ، فسجل ﷺ مكانتهم منه فقال : إنهم كرشى وعييتى ، والكرش هو مستقر الطعام الذى يتحول إلى غذاء يقوى به الجسم ، وتتكامل الأعضاء ، فهم - والأمر كذلك - غذاء الدعوة ومددها منذ بيعة العقبة إلى أن كتب الله لدينه النصر والغلبة ، وأما العيبة فهي الخزانة التى يحتفظ المرء فيها بمتاعه ونفائسه .

ولقد كان مقام الأنصار من رسول الله كمكانة العيبة من الإنسان ، وهل هناك أنفوس من الرسالة نفسها ؟ وهل هناك أنفوس من إكرام صحابة رسول الله من المهاجرين الذين فتح الأنصار لهم بيوتهم وتنازلوا لهم عن أموالهم وآثروهم على أنفسهم !؟

لقد نال الأنصار شرف تكريم المولى لهم فى كتابه العزيز فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

الحشر : ١٩

لم يكن الله - سبحانه - ليكرم قوما بذكرهم فى كتابه الكريم ، وقرآنه العظيم ، إلا إذا كانوا أهلا لذلك .

لقد كان الأنصار فى مقدمة المحبين للرسول والرسالة ، وكانوا على رأس الباذلين للدفاع عقيدة السماء ، وفى قمة الطاعة والطوعية لتوجيهات رسول الله حتى حين ظنوا أن حيفاً وقع عليهم من لدنه ﷺ حين قسم غنائم حنين التى كانت من الكثرة بحيث كان ينال الشخص الواحد المائة من الإبل . لقد أعطى الرسول بطون قريش من

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .

بنى أمية وبنى مخزوم وبنى عبد الدار وبنى عدى وبنى عامر وبنى سهم وبنى جمع وغيرهم من قبائل سليم وغطفان ولم يعط الأنصار ، فَوَجَدُوا في أنفسهم وكثرت القالة بينهم ، حتى إن أحدهم قال : لقد لقي رسول الله ﷺ قومه ، أى : مال إلى جانبهم وتجاهلنا ، وتمضى الحادثة في طريقها قدما حين يدخل سعد بن عبادة سيد الأنصار على رسول الله ويقول : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحى من الأنصار منها شىء ، فيقول رسول الله ﷺ - طبقاً لرواية ابن هشام في السيرة - : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ يعنى مارأيك أنت في ذلك ؟ فيقول سعد : يا رسول الله ما أنا إلا من قومى ، قال رسول الله : « فاجمع لى قومك في هذه الحظيرة » فلما اجتمعوا قال سعد : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يامعشر الأنصار ، ما مقالة بلغتنى عنكم ؟ وجددة وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى ، الله ورسوله آمن وأفضل ، ثم قال : « ألا تحبوننى يامعشر الأنصار ؟ » قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصَدَّقْتُمْ : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ؟ ! أوجدتكم يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (*) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رجالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار »

فحين انتهى رسول الله ﷺ من قوله بكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحطاً .

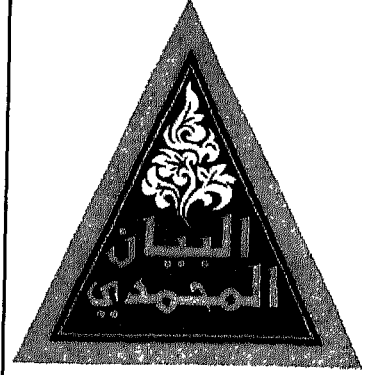
إن رسول الله ﷺ يرى بنور الله ، وينفذ إلى أعماق القلوب فيستبطن أسرارها ،

(*) اللعاعة : النبتة الخضراء .

ويغوص إلى دخائل النفوس فيستقرىء خباياها ، وإن الأنصار حين استمعوا إليه أحسّوا بأنه ﷺ يقرأ هذه المعانى التى ترجرت في قلوبهم على غير ثبات ، فقد منعهم إيمانهم بالله ورسوله أن يسلّموا بها ، ولكن الرسول ﷺ كاشفهم بما يحوك في صدورهم ، فتذكروا أنّ ذلك أنه لم يكن يجمل بهم أن يعترضوا على صنيع صدر عن رسول الله ، ثم مالبت الرسول بعطفه عليهم وحبّه لهم أن أوضح لهم ماغضض أمره عليهم من أنه فعل ما فعل لتوسعة دائرة الإسلام في نطاق قوم أراد أن يؤلف قلوبهم ، أما الأنصار فإنهم من عمق الإيمان وثبات اليقين وغنى النفس وفضل القناعة بحيث لم يكونوا ليطمعوا في عطايا زائلة وفيء سوف يكون بين أيديهم منه الكثير .

ثم استطرد الرسول العظيم فأرضاهم الرضى الذى لم يكونوا يحملون به ، فلم يكن لديهم من صور التعبير عن هذا الرضى إلا البكاء بدموع اخضلت منها لحاهم ، وهو أنه لولا الهجرة لكان واحدا منهم ، يسلك شعبهم لو سلك الناس غيره ، ويدعو لهم ولأبنائهم ولأحفادهم .

من أجل ذلك خلع الرسول ﷺ على الأنصار الشرف الرفيع بأنهم كرشه وعييته ، وأنهم قضوا الذى عليهم ، ولم يأخذوا بعدد حقوقهم وينالوا حسن جزائهم ، ومن ثم كان جوهر وصية رسول الله بهم أن يُقبَل من محسنهم وأن يُتَجَاوَزَ عن مسيئهم ، وهو امتياز منحه رسول الله إياهم دون سواهم .



الفصل السادس

وصية الرسول إلى الخليفة من بعده
ووصيته صلى الله عليه وسلم المسلمين حيال حكاهم

وصية الرسول إلى الخليفة من بعده ووصيته للمسلمين حيال حكامهم

كان الرسول ﷺ مطمئنا على جماعة المسلمين ما دام يعيش بينهم ، ولكنه يعى قول الله - جل وعزّ - : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (١) ومن ثمّ قرر أن يترك وصية معلنة لمن يخلفه في ولاية أمر المسلمين من بعده . والخليفة هنا : هو كل من يلى أمر الأمة الإسلامية منذ أن ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، على أن نخرجنا هذا لا يمنع أن يكون المقصود هو الخليفة من بعده مباشرة .

عن أبي أمامة - رضى الله عنه - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال :

« أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وأوصيه بجماعة المسلمين ، أن يعظم كبيرهم ، ويرحم صغيرهم ، ويوقر عالمهم ، وألا يضربهم فيذهبهم ، ولا يوحشهم فيكفرهم ، وألا يغلق بابه دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم » (٢) .

إن وصية الرسول ﷺ للخليفة من بعده تضم العناصر السبعة الأساسية التي ينبغي أن يلتزم بها الحاكم مجتمعة ، وألا يتخلّ بواحد منها ، فالخليفة أو الرئيس الذي لا يلتزم بتقوى الله يكون صدى حكمه مختلاً ، بل تكون إمارته فاسدة . وإن حاكما - خليفة كان أو ملكا أو رئيسا - لا يعظم الكبير ولا يرحم الصغير ولا يوقر العلماء يكون حاكما فاسدا ، وإن حاكما يضرب جماعة المسلمين ويوقع الرعب في قلوبهم ويغلق بابه دونهم يكون مدمّرا لدولته ، فالوحشة هي المجافاة ، وإغلاق أبواب الحاكم في وجه الناس إهدار لمصالحهم ؛ فيكفرون به خليفة وراعيا ، وتتسع دائرة القطيعة والكراهية بينهم

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٣٨

(٢) البيهقي في السنن الكبرى : عن أبي أمامة (من جامع الأحاديث للسيوطي رقم ٨٨١٨)

وبينه ، فتضعف مكانته كخليفة ، وتضطرب أمورهم كراعا ، ويسود الظلم ، ويُفْتَقَدُ الأمان والأمان .

ولو أن حكام المسلمين التزموا بوصية رسول الله لهم طبقا لما ورد فيها لكان حال المسلمين اليوم غير ما هو عليه الآن من ذل وفقر وجهل وهوان .

ثمت وصية من الوصايا الأخيرة التي صدرت عن رسول الله ﷺ إنها وصية مودع ، بل وصايا مرتحل ، فمثلا أوصى الرسول ﷺ الخليفة من بعده ، فإنه هنا يوصى جماعة المسلمين بالخليفة وإن كان عبدا حبشيا ، ولكنه صدر كلاً من الوصيتين بالتزام العمود الفقري للإيمان ، وهو تقوى الله .

عن أبي نجیح العرباض بن سارية - رضی الله عنه - قال : صلى لنا رسول الله ﷺ الفجر ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، قلنا - أو قالوا - : يارسول الله كأن هذه موعظة مودع فأوصنا ، قال :

« أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم ير بعدى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة » (١).

وصيته للمسلمين بحكامهم :

أما وقد جرى ذكر وصيتي الرسول ﷺ لكل من الخليفة والرعية ، فإنه يكون من المناسب أن نورد حكم طاعة الإمام وعصيانه ، ويتضح ذلك كل الوضوح في حديث عوف بن مالك الأشجعي وهو :

عن عوف بن مالك الأشجعي - رضی الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ،

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٢٦ من رواية أبي داود والترمذی .

وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قال : قلنا يارسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : « لا ما أقاموا الصلاة فيكم ، إلا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله تعالى ولا ينزعنَّ يداً من طاعة » (١).

إنه حكم قاطع الوضوح حول ما يدور هذه الأيام عن موقف بعض جماعات المسلمين من بعض حكام المسلمين .

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : عن عوف بن مالك . (جامع الأحاديث رقم ١١٦٩٣) .



الأمثال النبوية السائرة

الفصل الأول : الأمثال ومن صنف فيها من العلماء

الفصل الثاني : من موضوعات الأمثال النبوية

الفصل الثالث : نماذج من الأمثال النبوية السائرة



الفصل الأول

الأمثال ومن صنف
فيها من العلماء

الأمثال ومن صنف فيها

الأمثال : ضرب من فنون القول البليغ ، عرف العرب الأقدمون به مثلما عرفوا بالشعر والخطابة ، وقد توفر عدد غير قليل من العلماء على جمع الأمثال ، ووضع كل منهم حصيلة ما جمع بين دفتي كتاب ، وإن أهم ما بين أيدي الدارسين من كتب الأمثال كتاب : « الأمثال » لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ .

ولكن جهد أبي عبيد لا يغض من فضل علماء آخرين رواداً أساتذة توفروا على جمع « الأمثال » والتأليف فيها مثل المفضل الضبي المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وأبي فيد مؤرج السدوسي المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، وأبي عكرمة الضبي المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ، والمفضل ابن سلمة المتوفى ٢٩١ هـ ، وقد أطلق على كتابه « الفاخر » وأبي بكر بن دريد في كتابه « المجتنى » ، وحمزة بن حسن الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥١ هـ وقد أطلق على كتابه « الدررة الفاخرة في الأمثال السائرة » وأبي الحسن بن خلاد الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ وأطلق على كتابه « أمثال النبي » وأبي هلال العسكري المتوفى ٣٩٥ هـ وقد أطلق على كتابه « جمهرة الأمثال » وعلى بن الفضل الطالقاني المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وأبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ويحمل كل من الكتابين عنوان « الأمثال » وأبي الحسن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وعنوان كتابه « الأمثال والحكم » وأبي الحسن على بن أحمد الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ وعنوان كتابه « الوسيط في الأمثال » ، و أحمد بن محمد الميداني النيسابوري المتوفى سنة ٥١٨ هـ وكتابه يعد أشهر كتب الأمثال قاطبة وعنوانه « مجمع الأمثال » .

هذا وقد اهتم كثير من المؤلفين في فنون الأدب بالأمثال فأفردوا لها فصولا خاصة مجمعة حيناً ومفرقة حيناً آخر ، وأشهر من عنى بهذا النهج أحمد بن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد » حيث أفرد باباً كبيراً من العقد وأطلق عليه « كتاب الجوهر » في الأمثال

وكذلك فعل أبو الحسن الماوردي في كتابه « أدب الدنيا والدين » فقد ألحق بكل باب من أبواب كتابه مجموعة من الأمثال التي تتسق مع موضوع الباب ، هذا فضلا عن كتابه « الأمثال والحكم » . هذه الكتب التي ذكرنا كلها مطبوعة ومحققة تحقيقا جيدا ، ولا يزال عدد آخر من كتب الأمثال لعلماء أجلاء مثل الأصمعي وابن الأنباري والبيهقي مخطوطة لم تطبع بعد .

وإن أكثر من ألف في الأمثال أشاد بفضلها في تعليم الأدب ، ونبه إلى مكانتها بين فنونه ، فأبو عبيد يقول عنها في مقدمة كتابه : « هي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض أحلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، ثم ذكر شيئا من منهجه في تأليفها (١) .

وحين يعرض أحمد بن عبد ربه للأمثال يكتب عنها فصلا ممتعا يقول فيه : « ونحن قائلون - بعون الله وتوفيقه - في الأمثال التي هي وصى الكلام وجوهر اللفظ وحكى المعاني ، والتي تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها في كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ، ولا عم عمومها ، حتى قيل : أسيرٌ من مثل ، قال الشاعر :

ما أنت إلا مثلٌ سائرٌ يعرفه الجاهلُ والخابرُ (٢)

وعن الأمثال يقول أبو الحسن الماوردي (٣) : « لها من الكلام موقع الأسماح والتأثير في القلوب ، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها ، ولا يؤثر تأثيرها ؛ لأن المعاني بها لائحة ، والشواهد بها واضحة ، والنفوس بها وامقة ، والقلوب بها واثقة ، والعقول لها موافقة » ويمضي الماوردي قائلا : « فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز ، وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه ؛ لأنها في العقول معقولة ، وفي القلوب مقبولة » .

(١) الأمثال ، ص : ٣٤

(٢) العقد الفريد ٣ / ٦٣

(٣) أدب الدنيا والدين ، ص : ٢٧٥

الأمثال النبوية السائرة والتأليف فيها :

أما وتلك هي قيمة الأمثال بلاغة صنع ، وإيجاز قول ، ونصاعة بيان ، وسهولة مأخذ ، ونسبو مكانة بين ضروب القول ، فقد بات من البداهة بمكان أن يكون لسيد الفصحاء ، وأبلغ البلغاء محمد ﷺ السهم الأوفر في مراتبها ، والقدر المعلى في نصاعتها ، ومن ثم فإن كل الذين ألفوا في الأمثال طرزوا كتبهم وشرفوا تصانيفهم بقافلة من الأمثال النبوية الشريفة .

إن أبا عبيد يذكر ذلك صراحة في خطبة كتابه فيقول : « وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب وحثنا عليه ، ما روينا من الأحاديث المأثورة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قد ضربها وتمثل بها هو ومن بعده من السلف ، وقد ذكرنا ذلك ليكون حجة لمذهبنا » (١) .

وعلى نفس المنوال ينسج أحمد بن عبد ربه فيقول : « وقد ضرب الله - عز وجل - الأمثال في كتابه ، وضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كلامه » (٢) ثم يتمثل بعد ذلك بالكثير من الأمثال التي قالها رسول الله ﷺ .

هكذا تكون أمثال الحديث النبوي هي السبب المباشر الذي دعا أبا عبيد إلى تأليف كتابه « الأمثال » مثلما أنها سبب كذلك وإن يكن غير مباشر لأن يخصص لها أحمد بن عبد ربه قسما غير صغير في كتابه الكبير « العقد الفريد »

ولكن المتوفرين على حديث رسول الله رواية وحفظا سرعان ما أدركوا أن أمثال الحديث الشريف - جديرة بأن تستقل بكتب خاصة بها وحدها دون غيرها من أمثال العرب .

وإن أول كتاب صادفناه في التأليف المستقل بالأحاديث النبوية التي تجرى مجرى الأمثال السائرة هو « الأمثال السائرة عن النبي ﷺ وعن غيره » للحسين بن محمد الحراني

(١) الأمثال ، ص : ٣٤ .

(٢) العقد الفريد ٦٣ / ٣ .

المتوفى سنة ٣١٨ هـ وشهرته أبو عروبة ، كان محدثا حافظا مؤرخا مفتيا لخران ، والكتاب قد ضاع ولم يبق منه غير ورقة واحدة كتبت سنة ٨٠٧ هـ^(١) وذكر له صاحب تذكرة الحفاظ كتابا بعنوان « الأمثال والأوائل » .

ويدل عنوان الكتاب على أن أمثالا أخرى لغير رسول الله ﷺ قد ضمتها صفحاته ، ويذكر ابن خير الأشبيلي أن المادة الخاصة بأمثال النبي ﷺ قد رويت مسلسلة الإسناد عن عبد الله بن عمرو بن العاص الذي قال : حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثل (٢) .

ويلى كتاب « الأمثال السائرة » من حيث الترتيب الزمنى كتاب « أمثال الحديث » للقاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الشهرير بالرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

وكان ابن خلاد يجمع بين علوم السنة وبين الأدب من شعر رقيق ونثر أنيق ، فهو يؤلف فى الأدب كتبا مثل « ربيع المتيم فى أخبار العشاق » أو كتاب « الفلك فى مختار الأخبار والأشعار » أو كتاب « مباسطة الوزراء » نراه يؤلف كتاب « المحدث الفاصل بين الراوى والواعى » فى علوم الحديث ، وكتاب « أمثال النبى الله صلى الله عليه وسلم » وكتاب « التنزيل فى علم القرآن » و « كتاب الريحانتين الحسن والحسين »^(٣) .
ومن طريف شعره قوله :

قل لابن خلاد إذا جئته مستندا فى المسجد الجامع

هذا زمان ليس يحظى به « حدثنا الأعمش عن نافع »

وقد عاش ابن خلاد فى زمان الحكام الوزراء العلماء الأدباء الذين منهم أبو الفضل ابن العميد ، وأبو محمد المهلبى ، والأمير عضد الدولة بن بويه ، وكانوا يحترمونه ،

(١) معجم ما ألف عن رسول الله ، لصلاح الدين المنجد .

(٢) فهرسة ابن خير الأشبيلي ١ / ٢١٣ .

(٣) يراجع معجم الأدباء ٤ / ١٤٠ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٩٠٥ .

ويبدأونه بالمكاتبات ، ويلقونه بالتكريم ، ويفسحون له في مجالسهم ، ويحسون الاستماع إليه ، وكان علماء زمانه يطلقون عليه « محدث العجم » .

ويعاصر ابن خلاد ، الحافظ المحدث عبد الله بن محمد بن جعفر الأنصاري أبو محمد المتوفى سنة ٣٦٩ هـ صاحب كتاب (السنة) وكتاب (طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها) ، وكتاب (عظمة الله ومخلوقاته) وكتاب (التاريخ على السنين) (١) ثم الكتاب الذى نعى به هنا وهو كتاب (الأمثال) أو (أمثال الرسول) (٢) .

ويعيش فى نفس العصر الذى عاش فيه ابن خلاد وعبد الله بن محمد بن جعفر ، عالم آخر شهير هو أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى المتوفى سنة ٣٨٢ هـ وهذا يعنى أنه قد عاصر ابن خلاد وإن لم يلتقيا ، وهو غير الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر للشيعه الاثنا عشرية ، فأبو أحمد الحسن العسكرى منسوب إلى بلدته التى ولد فيها ومات بها وهى « عسكر مُكْرَم » وهى مدينة بالأهواز ، وأما الحسن العسكرى الإمام فينسب إلى « العسكر » وهى نفسها مدينة « سرّ من رأى » التى بناها المعتصم العباسى لعسكره بعيدا عن بغداد؛ حتى يتقى الناس شرورهم ، وكان يطلق عليها « العسكر » مثلما كانت تسمى « سرّ من رأى » ثم عرفت بعد ذلك وحتى عصرنا بـ « سامرّا » .

والأبى أحمد العسكرى - الذى هو موضوع حديثنا - مؤلفات كثيرة ونفيسة مثل : (صناعة الشعر) و (التصحيح) و (الزواج والمواظ) و (راحة الأرواح) و (الحكم والأمثال المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ويضيف ابن خير إلى عنوان الكتاب عبارة « وشرح ألفاظه التى لم يسبق إليها »

والعجيب أن كثيرا ممن ترجموا لأبى أحمد العسكرى - بل جلهم - حينما ذكروا مؤلفاته ذكروا بينها « كتاب الحكم والأمثال » مجردا من نسبة محتواه من حكم وأمثال إلى رسول الله ﷺ وإن المؤلف الوحيد الذى ذكر عنوان الكتاب كاملا ومنضبطا - حسب علمنا -

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٣ / ٩٤٥ .

(٢) الأمثال العربية القديمة لرودلف زفايم ص : ٣٧ ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب .

هو ابن خير الأشبيلي في فهرسته (١) ونقل عنه الدكتور صلاح المنجد (٢).

لقد خلف أبو أحمد العسكري عددا كبيرا من الكتب لم يصل منها إلينا مطبوعا غير كتابين هما « المصون » في الأدب ، و « التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم » وكان العسكري من أعيان العلماء الحفاظ الأدباء الشعراء المؤلفين ، وكان الصاحب ابن عباد يحترمه ويكبره ، وقد جرت بينهما مكاتبة فريدة اتسمت بالظرف والأدب ، والأمر الجدير بالذكر أن عالمنا الكبير هو خال أبي هلال العسكري وأستاذه ، بل إنهما يشتركان في الاسم والصفة وإن اختلفا في الكنية .

لا تكاد تضى عقود قليلة من السنين حتى يظهر في الأفق الإسلامى عالمان جليلان مرموقان هما أبو الحسن الماوردى (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ) في بغداد ، وأبو عبد الله القضاعى (المتوفى سنة ٤٥٤ هـ) في الفسطاط .

كان الماوردى فقيها كبيرا ، وكان يلقب بأقضى القضاة ، ولقد أثرى المكتبة الإسلامية بتأليفه الكثيرة الجليلة التى منها (الآداب السلطانية) و (أدب الدنيا والدين) و (تفسير القرآن الكريم) و (الحاوى) فى الفقه الشافعى نيف وعشرون جزءا ، و (أعلام النبوة) و (قانون الوزارة) و (سياسة الملك) و (تسهيل النظر) و (الأمثال والحكم) و (أمثال القرآن) وغيرها .

والذى يعيننا فى هذا المقام من مؤلفات الماوردى كتابه الأخيران : (الأمثال والحكم) و (أمثال القرآن) .

إن كتاب الماوردى الموسوم بـ « الأمثال والحكم » لا يبدو من عنوانه أنه إسهام فى التأليف فى الأمثال النبوية ، ذلك أن منهج الكتاب اقتضى من المؤلف أن يخصه بهذا العنوان الذى يفسره قوله فى مقدسته :

« أما بعد : فإن أول ما تأدب به المهمل الغافل ، واتعظ بن الفطن العاقل : كتاب

(١) الفهرسة ١ / ٢٤٥ .

(٢) معجم ما ألف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ص ٢٩٥ .

الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، قد جمع الله فيه جوامع الحكم والأمثال ، وجعله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، فحق عباد الله أن يكونوا بكتابه مستمسكين ، وبأدبه آخذين ، وبحكمه وأمثاله معتبرين .

ويستطرد الماوردى فى مقدمة كتابه « الأمثال والحكم » قائلاً : حكى الأصمعى أن أعرابياً وصى ابنه عند موته فقال : يا بنى وصيتى إياك مع وصية الله منجية ، وإن الرضا بها القناعة ، وعود الخير أحمد ، وإنى أسترعى لك بعد وفاتى الذى أحسن إليك فى حياتى ، فأولى الأمور بعد كتاب الله سنة رسول الله ﷺ فقد قال - عليه السلام - : « أوتيت جوامع الكلم واختصرت إلى الحكمة اختصاراً » ثم بعد السنة أمثال الحكماء وأقوال الشعراء ، فقد قال رسول الله ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » و « إن من البيان لسحراً » .

يقول الماوردى : وقد جمعت فى كتابى هذا من سنة رسول الله ﷺ أحاديث وجيزة الألفاظ واضحة المعانى (يقصد أمثال الحديث النبوى) ومن أمثال الحكماء وأقوال الشعراء ما كان عذب البديهة سائر الذكر .

لقد ضمّن الماوردى كتابه « الأمثال والحكم » ثلاثمائة حديث تحمل كلها أدب الرسول ﷺ وتعاليمه ، ويجرى جُلُّها مجرى الأمثال الحكيمة السائرة ، هذا فضلاً عن ثلاثمائة حكمة لبلغاء العرب ، وثلاثمائة بيت شعر تجرى مجرى الأمثال ، وبذلك يمكن أن يحسب هذا الكتاب واحداً من الكتب القلائل التى عنيت بالأمثال النبوية التى جرت على ألسنة المسلمين فى مجال التمثيل بالحكمة السائرة البليغة الخفيفة على السمع ، السريعة إلى القلب ، الطليقة على اللسان .

وإذا كان أبو الحسن الماوردى يمثل ثقلاً معتبراً فى العلوم الإسلامية فى بغداد ، فقد كان أبو عبد الله القضاعى يمثل بدوره ثقلاً شبه متوازن فى الفسطاط عاصمة مصر العلمية ، فقد كان فقيهاً مفسراً مؤرخاً إخبارياً قاضياً ، وهو مؤلف عدد غير قليل من الكتب النفيسة الشهيرة التى يجيء فى مقدمتها كتاب « الشهاب فى الآداب والأمثال

والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « وكان القضاعي يعرف « بالشهاب » مثلما يعرف الماوردي بالأدب السلطانية ، فكان يقال : القضاعي الفقيه الشافعي صاحب الشهاب ، وقد نال كتاب الشهاب حظوة وشهرة عند علماء المسلمين في المشرق والمغرب والأندلس ، وكان علماء الأندلس يفتنون إلى الفسطاط ليسمعوا أبا عبد الله القضاعي يقرأ عليهم كتابه « الشهاب » في منزله بمصر ، ومنهم من حدد موقع المنزل فقال : وأنا أسمع في داره بسوق بربر بفسطاط مصر سنة ٤٥٠ هـ (١) .

لم يكن كتاب الشهاب - على شهرته - هو المؤلف النفيس الوحيد للقضاعي ، ذلك أن للرجل إسهامات جلية في خدمة العلوم الإسلامية ، فمن كتبه المطبوعة بين أيدينا بالإضافة إلى « الشهاب » ، كتاب « دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار » و « دستور معالم الحكم » من كلام الإمام علي بن أبي طالب ، و « ألف ومائتا كلمة من حديث رسول الله » .

ومن كتبه المخطوطة « مسند الشهاب » وهو شقيق لكتاب « الشهاب في الأدب والأمثال والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله » غير أن « مسند الشهاب » موضوعه أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد نال بدوره شهرة واسعة ، وأقرأه مؤلفه عددا من المحدثين والرواة في مشرق الدولة الإسلامية ومغربها (٢) . وله أيضا من الكتب المخطوطة : « درة الواعظين وذخرة العابدين » و « عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف » و « الإنباء عن الأنبياء » و « نزهة الألباء في التاريخ » و « مناقب الشافعي ، ومعجم شيوخه » و « تاريخ مصر من مبدأ الخلق إلى زمانه » و « تواريخ الخلفاء » و « خطط مصر » .

ومن طريف ما قيل في تمجيد كتاب الشهاب قول فارس بن الحسين الهذلي (٣) .

إن الشهابَ كتابٌ يُستَضَاءُ به في العلم والحلم والأدب والحكم

(١) فهرسة ابن خير / ١ / ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق / ١ / ٢٢٣ .

(٣) الوافي بالوفيات / ٣ / ١١٩ .

سقى القضاء غيثاً كلما لمعت هدى المصابيح في الأوراق والكلم

ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا في هذه العجالة أن نذكر العالم الجليل الحسن بن الفضل صاحب كتاب « الأمثال الكامنة في القرآن والسنة » وذلك طبقاً للعنوان الذي نقله محقق كتاب « الوسيط في الأمثال » للواحدى ، لأننا سوف نعود مرة أخرى لهذا الكتاب عند التعريف بكتب « أمثال القرآن » لأنه سيرد بعد ذلك ككتاب أمثال للقرآن وحده دون السنة .

وفي العصر الحديث صنف يوسف بن إسماعيل النبهاني كتاباً بعنوانه « الأحاديث الأربعين في أمثال أفصح العالمين » .

والنبهاني من مواليد قرى حيفا بفلسطين سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٩ م تعلم في الأزهر الشريف ، وعمل محرراً في جريدة (الجوائب) في الآستانة ، ثم قاضياً في بيروت ، ثم مجاوراً للروضة الشريفة في المدينة المنورة ، وتوفي ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م وهو في مقدمة من توفروا على سنة رسول الله تأليفاً ، ومن توفروا على مدحه ﷺ شعراً وله في ذلك دواوين عديدة وقصائد نفيسة .

أما وقد ذكرنا أشهر كتب الأمثال النبوية السائرة . فإن إشارة سريعة « لأمثال القرآن الكريم » جديرة بالعناية ، خليقة بالاعتبار .

لقد سلفت الإشارة إلى ما أُلّف في أمثال القرآن والحديث مجتمعين ، مثل كتاب « الأمثال الكامنة في القرآن والسنة » للحسن بن الفضل ، غير أن ذكر الكتب التي خصصت لأمثال القرآن غير المختلطة بأغراض أخرى يبدو أمراً ضرورياً في مثل هذا المقام .

لعل أقدم كتاب أُلّف في أمثال القرآن هو كتاب الصوفي الشهير أبى القاسم الجنيد ابن محمد الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هـ الملقب بالقواريري الخزاز ، لأن أباه كان يصنع القوارير ، وأما هو فكان يعمل الخزّ شأن أكثر علماء المسلمين الذين كانوا يأكلون من عمل أيديهم .

ولا يستغربن امرؤ أن يؤلف الجنيد كتابا في أمثال القرآن ، وقد اشتهر بالإيغال في التصوف ، وحتى تبطل هذه الغرابة فمن الحقائق التاريخية أن معتدلي المتصوفة كانوا من أكثر العلماء استمساكا بالقرآن الكريم والسنة النبوية والفقهاء ، وقد كان الجنيد فقيها وتلمذ في شبابه على أبي ثور ، وكان يفتى في حضرة أستاذه في حلقاته ، والحديث في ذلك طويل ، وباختصار شديد كان الجنيد يقول : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به . والجنيد هو ابن أخت السرى السقطي ، وللجنيد من الكتب غير أمثال القرآن « المقصد إلى الله تعالى » « معانى الهمم في الفتاوى الصوفية » و « السرفى أنفاس الصوفية » (١).

وبلى الجنيد زمنيا في التأليف في أمثال القرآن إبراهيم بن محمد بن عرفة ، المشهور بلقب « نفظويه » المولود في واسط سنة ٢٤٤ هـ والمتوفى ببغداد سنة ٣٢٣ هـ ، ونفظويه عربى المحتد أزدى المنتمى ، وهو من أحفاد المهلب بن أبي صفرة ، وكان - على الرغم من علمه الوفير في اللغة وعلوم القرآن والتاريخ والعقائد - قذر الملبس ؛ بحيث تبدو ملابسه وكأنها اتسخت بالنفط فلقب بنفظويه على قياس غير دقيق بلفظ سيبويه ؛ لأنه كان في النحو من مدرسة سيبويه ، ولقد أحصى له كل من ابن النديم وياقوت الرومى عددا من المؤلفات في موضوعات نفيسة مثل كتاب (أمثال القرآن) وكتاب (الأمثال) وكتاب (غريب القرآن) وكتاب (الوزراء) وكتاب (الملح) وكتاب (المصادر) وكتاب (القوافي) وغير ذلك (٢).

وتمت متصوف آخر ألف كتابا في « أمثال القرآن » هو محمد بن الحسين بن موسى السلمى الأزدى النيسابورى ، والمكنى بأبى عبد الرحمن المتوفى بنيسابور سنة ٤١٢ هـ وكانت ولادته سنة ٣٢٥ هـ (٣) فهو أزدى مثل سابقه « نفظويه » وصوفى مثل الجنيد ، وقد تجاوزت مؤلفات أبى عبد الرحمن المائة عدداً ، والمشهور المطبوع منها كتاب (طبقات

(١) الفهرست لابن النديم ١ / ١٨٥ ، تاريخ بغداد ٧ / ٢٤١-٢٤٩ .

(٢) معجم الأدباء ١ / ٣٠٧-٣١٥ .

(٣) حاجى خليفة ١ / ١٥٠ .

الصوفية) و (رسالة الملامتية) و (آداب الصحة) و (عيوب النفس ومداواتها) .
و(الأربعين في الحديث) .

ومن العلماء الذين صنّفوا في أمثال القرآن أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى ، وهو غير أبى عبد الله القضاعى المصرى الذى سلف ذكره فى مصنفى كتب أمثال الحديث النبوى ، فأبو محمد أسبق زمنًا من أبى عبد الله .

يقول ابن خير الأشبيلي : إن أبا محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى قد ألف « كتاب الأمثال الكامنة فى القرآن » ويوثق هذا الخبر قائلا : حدثنى به الشيخ أبو الحسن عباد بن سرحان المعافرى سماعا عليه ، قال : قرأت على الشيخ الزاهد أبى بكر محمد بن طرخان ، قال : أنبأنا الشيخ أبو الحسن على بن غنائم بن عمر المالكى ، قال : حدثنا أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى لفظا (١) .

ومن الذين ألفوا أيضا فى « أمثال القرآن » الحسن بن الفضل الذى مر ذكره عند استعراض الكتب التى صنفت فى أمثال الحديث ، ذلك أن الكتاب الذى ذكر آنذاك يحمل عنوان « الأمثال الكامنة فى القرآن والسنة » غير أن ابن خير يذكره بنفس العنوان ولكن مجردا من كلمة السنة ، يعنى أن عنوان الكتاب كما ذكره ابن خير هو كتاب « الأمثال الكامنة فى القرآن » استخراج الحسن بن الفضل (٢) .

وتدل رواية ابن خير فى توثيق الكتاب على أن الحسن بن الفضل عاش - على أكثر تقدير - فى القرن الرابع الهجرى .

المصنفون فى أمثال القرآن :

ومن المصنفين لكتب أمثال القرآن أيضا أبو الحسن الماوردى العالم الجليل السابق ذكره فى أمثال الحديث ، فلم يفته أن يعنى بأمثال القرآن الكريم عنايته بأمثال الحديث بكتابه « الأمثال والحكم » فألف كتابه « أمثال القرآن » وقد سلف القول أن الماوردى توفى فى منتصف القرن الخامس ، وعلى وجه التحديد سنة ٤٥٠ هـ ، ولقد وقع بعض

(١) فهرسة ابن خير ١ / ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٩٣ .

الخلط عند بعض المؤلفين - وبخاصة المستشرقين - بين كتابي « الأمثال والحكم » و« أمثال القرآن » وظنوهما - خطأ - كتابا واحدا ، بينما هما كتابان منفصلان .

ويبدو لنا أن التأليف في أمثال القرآن والحديث قد بدأ في وقت متزامن نوعا ما ، وقد يكون التأليف في أمثال القرآن بدأ قبل التأليف في أمثال الحديث بعمود قليلة من السنين إذا ما صح أن أول كتاب في أمثال القرآن قد ألفه الجنيد ، وأن أول كتاب في أمثال الحديث قد ألفه الحسين بن محمد الحراني ؛ ذلك لأن الجنيد توفي ٢٩٧ هـ والحراني توفي سنة ٣١٨ هـ .

والمرجح أن أمثال القرآن قد شغلت دارسي العلوم القرآنية بشكل مكثف ، وهو ما يلمسه كل من غمس نفسه بشرف العمل في الدراسات القرآنية ، من ذلك أن أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم سمع أباه يقول للحسن بن الفضل الذي تكرر ذكره فيما سلف من سطور : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد في كتاب الله : خير الأمور أوساطها؟ قال : نعم ، في أربعة مواضع (١) ، قوله تعالى : ﴿لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُواُنْ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ .

ثم عاد مضارب بن إبراهيم يسأل الحسن بن الفضل : هل تجد في كتاب الله : من جهل شيئا عاداه؟ قال : نعم ، في موضعين ، قوله تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيحُونَهَا هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ قال مضارب إبراهيم : فهل تجد في كتاب الله : ليس الخبر كالعيان؟ قال : نعم ، في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَال بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّيَطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾

(١) فهرسة ابن خبير ص ١٩٤ والإتقان ٢ / ١٣٢ .

يقول الماوردي في هذا السياق كلاما ينبه الغافل ويسر العاقل فيما يتصل بأمثال القرآن ، فمن ذلك قوله : من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والناس في غفلة عنه .
 وإن الذين اهتموا بالتأليف في الآداب لم يفتهم أن يضمّنوا مؤلفاتهم نماذج مما ورد في كتب الأمثال السائرة الواردة في آيات الكتاب العزيز ، من ذلك على سبيل المثال ما صنعه جعفر بن محمد شمس الخلافة المتوفى بمصر سنة ٦٢٢ هـ في كتابه « الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة » فقد عقد بابا في ألفاظ أو جمل من القرآن الكريم جارية. مجرى المثل منها : (١)

- * ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .
- * ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ .
- * ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ .
- * ﴿ أَلَمْ نَحْصِصْ الْحَقَّ ﴾ .
- * ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴾ .
- * ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .
- * ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ .
- * ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ .
- * ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .
- * ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ .
- * ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ .
- * ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ .

(١) الإتيان ٢ / ١٣٣ .

* هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ *
 * كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِتْنَةٌ كَثِيرَةً *
 * تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى *
 * وَلَا يَنْبُئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ *
 * كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ *
 * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ *
 * وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ *
 * لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا *
 * لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ *
 * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ *
 * ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ *
 * لِيَمِثِلْ هَذَا فَلَيَعْمَلِ الْعَمَلُونَ *
 * وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ *
 * فَاعْتَبِرْ وَارْتَأْتُوا إِلَى الْآبَصِرِ *



الفصل الثاني

من موضوعات الأمثال النبوية

من موضوعات الأمثال النبوية السائرة

موضوعات الأمثال النبوية السائرة :

شملت الأمثال النبوية كل شئون المسلمين في نطاق حكمة التجربة السديدة ، ومكارم الأخلاق . وبنية المجتمع ، وشئون الفرد والجماعة ، من علم وعمل ، ومروءة وكرم وحرص ، وحرب وسلام ، وصداقة وعداوة ، ومحبة وكراهية ، وعبادة وعصيان ، وشجاعة وجبن ، وبلاغة وعي ، والكلام والصمت ، والصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، ومشورة واستبداد ، وزواج وطلاق ، وغير ذلك من أمور الناس ، وقضايا الدنيا وشئون الآخرة .

ولا يقف الأمر في القضية أو الموضوع عند حديث واحد ، وإنما كانت القضية الواحدة تعالج من لدن رسول الله ﷺ بعدد من الأحاديث التي تجرى مجرى الأمثال السائرة .

أمثال في العلم والعلماء :

فإذا ما ذكرنا موضوعا كالعلم والعلماء على سبيل المثال ، فإننا نقع على عدد غير قليل من الأمثال النبوية في هذا المجال ، مثل قوله ﷺ :

- « فضل العلم خير من فضل العبادة »
- « قيدوا العلم بالكتاب »
- « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم »
- « من غدا في طلب العلم صلت عليه الملائكة »
- « طلب العلم فريضة على كل مسلم »

- « العالم والمتعلم شريكان في الخير »
- « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً »
- « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه »
- « العلماء ورثة الأنبياء »
- « خير أمتي علماءها ، وخير علمائها فقهاؤها » وفي رواية : « خيار أمتي »
- « للأنبياء على العلماء فضل درجتين ، وللعلماء على الشهداء فضل درجة »
- « لكل شيء فترة ، فمن كانت فترته على العلم فقد نجا »
- « كونوا علماء صالحين ، فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء ، واسمعوا علماء يدلکم على الهدى ويردکم عن الردى »
- « من وقر عالماً فقد وقر ربه »
- « العلم خزائن ومفتاحها السؤال »
- « حسن السؤال نصف العلم »
- « قليل العلم خير من كثير العبادة »
- « لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا »
- « أجر المعلم كأجر الصائم القائم »
- « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع »
- « من تعلم علماً لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار »
- « من كتم علماً يحسنه أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »
- « واضع العلم في غير موضعه كمثل الخنازير اللؤلؤ »
- « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يُتدى بها في ظلمات البر والبحر »

تلك أكثر من عشرين حديثاً من الأمثال قالها رسول الله ﷺ في موضوع واحد هو العلم والعلماء ، ولاشك في أن ثمت أحاديث أخرى رويت في هذا المقام وربما جرى بعضها أيضاً مجرى الأمثال ، وهى في جملتها نبراس لكل بليغ ، وقبس من نور لكل حكيم ، ونعم الزاد والمعين لكل طالب علم .

أمثال في المشورة :

وإذا استعرضنا أحاديث رسول الله ﷺ التى تناولت الشورى والمشورة وجدناها متممة لمبدأ الشورى الذى جاء في آيتين من آيات القرآن الكريم ، وقد صاغتها بلاغة رسول الله ﷺ بحيث تسرى إلى قلب كل مسلم قبل أن تجرى على لسانه مثلاً سائراً يقول رسول الله ﷺ :

● « ما خاب من استخار ولا ندم من استشار »

● « لن يهلك امرؤ بعد مشورة »

● « المستشار مؤتمن »

● « المستشار مُعان »

● « المستشار بالخيار ، إن شاء قال ، وإن شاء أمسك »

● « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم »

● « المشاورة حصن من الندامة ، وأمن من الملامة »

أمثال في المرأة والنساء :

النساء نصف المجتمع ، ومن صنائع الإسلام الاهتمام بالمرأة وإعطاؤها ما تستحق من مكانة وتكريم ؛ لأنها الأم والأخت والابنة والزوجة والعمة والخالة ، وهى عمدة كل بيت ، ومربية كل جيل ، ومن ثم فقد احتلت مساحة كبيرة فى السنة النبوية توجيهاً وتكريماً وتشريعاً وتوصيفاً وغير ذلك مما يتعلق بشؤونها ، ولقد جرى الكثير من أقوال رسول الله فيها مجرى المثل السائر ، وتلك نماذج من هذه الأمثال :

- « فاطمة سيدة نساء العالمين ، ماخلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم »
- « خير نساء ركب الإبل صوالح قريش ، أحناء على ولد في صغره ، وأرعاه على بعل في ذات يده ».
- « إذا تزوجت المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز » (تساعد زوجها وتعفه وتعينه)
- « تنكح المرأة لما لها ولحسبها وجمالها ولديتها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »
- « تزوجوا الزرق فإن فيهن يمنا »
- « تزوجوا الشواب فإنهن أَعَزُّ أخلاقا »
- (من الغرّة يعنى أبعد عن الشر والمكر)
- « الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن ، وإذنها صماتها » (يعنى سكوتها)
- « خير النساء الولود الودود »
- « أحسن النساء بركة ، أحسنهن وجها ، وأرخصهن مهرا »
- « إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء »
- « خياركم خيركم لأهله »
- « لا تغالوا بالنساء فإنهن سقيا الله »
- « أنا وسفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة »
- (يعنى : سوداء الخدين : لأنها تركت الزينة وقامت على تربية أولادها بعد وفاة زوجها)
- « ليس للنساء سروات الطريق » (سروات الطريق : أعاليها والبارز فيها)
- « رفقا بالقوارير » (قاله الرسول لأنجشة وهو يسوق الإبل بسرعة وعليها النساء) وسيأتى تفصيلا

● « إن الجنة لا يدخلها عجوز »

(يعنى : تعود العجوز شابة متى استحقت دخول الجنة)

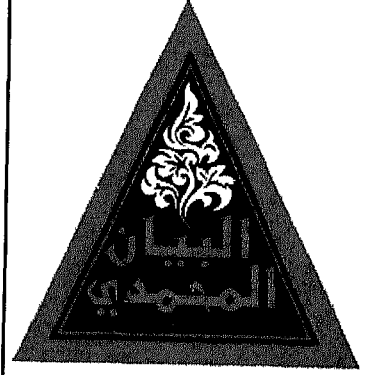
● « دخلت امرأة النار في هرة »

● « مالكم ولابن سمية ، يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار » (سمية أول شهيدة في

الإسلام ، وابنها هو عمار بن ياسر)

● « ارحموا عزيزاً ذلّ ، وارحموا غنياً افتقر » .

(قاله الرسول حين توسلت إليه سفانة ابنة حاتم الطائي أن يطلق إسارها)



الفصل الثالث

نماذج من الأمثال النبوية السائرة
اخترناها من بعض كتب الأمثال

نماذج من كتب أمثال الحديث

لقد اخترنا نماذج من ثلاثة كتب هي الأمثال لأبي عبيد ، وأمثال النبي للرامهرمزي ومن « جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري .

(١)

نماذج من أمثال الحديث من كتاب الأمثال لأبي عبيد :

● من صدق الله نجحاً .

وفي حديث آخر مرفوع « وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم » (١) .

● ومنها قوله ﷺ حين ذكر الغلو في العبادة :

« إنَّ المُنْبِتَّ لا أرضاً قَطَعَ ولا ظَهراً أَبْقَى » يقول : إن هذا إذا كلَّف نفسه فوق طاقتها من العبادة بقى حسيراً ، كالذئب أفرط في إغذاذ السَّيْرِ حتى عَطِبَتْ راحلته ، ولم يَقْضِ سَفْرَهُ (٢) .

● « إِيَّاكُمْ وخَضْرَاءِ الدَّمَنِ » قيل : وما خضراءُ الدَّمَنِ ؟ قال : « المرأةُ الحسناءُ في مَنبَتِ السُّوءِ » (٣) .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان (حديث ٢٦١٦) وأحمد في مسنده ٥ / ٢٣١ ، ٢٣٧ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٣ / ١٩٩ وصدده « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك ، فإن المنبت . . . » والمنبت : الذي أتعب دابته حتى عطبت فبقى منقطعاً به . قاله ﷺ لرجل اجتهد في العبادة حتى هجمت عيناه ، أي : غارتا .

(٣) جمع الجوامع للسيوطي ١ / ٣٦٣ ، والدمن : جمع دمنة ، وهي الموضع الذي تجتمع فيه الغنم ، فتتلبد أبواها وأبعارها ، وقد ضربه النبي ﷺ مثلاً لحبث المنبت ، كما ضرب جودة النبات مثلاً لحسن المرأة .

ومنها قوله ﷺ حين ذكر كثرة الرِّبَا في آخر الزمان :

« مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابُهُ مِنْ غُبَارِهِ » فقد عُلِمَ أنه ليس ثَمَّ غُبَارٌ ، إنما هذا مَثَلٌ لما ينال الناس منه (١).

● « الْحَرْبُ خُدْعَةٌ » .

قال علي : قال أبو محمد سَلَمَةَ : من قال : « الحرب خُدْعَةٌ » فمعناه أنه من خُدِعَ فيها خُدْعَةٌ فزَلَّتْ قدمه وَعَطِبَ فليس له إقالة ، ومن قال : « خُدْعَةٌ » أى : إنها تُخَدَعُ أهلُها ، ومن قال : الحرب خُدْعَةٌ [بضم الخاء وتسكين الدال] فهي تُخَدَعُ ، فإذا خُدِعَ أحدُ الفريقين صاحبه فكأنما خُدِعَتْ هي . قال أبو عبد الله الزُّبَيْرُ بن بَكَّارٍ القاضى : هي عندنا « خُدْعَةٌ » قال الزبير : حَدَّثَنِي سفيان بن عُيَيْنَةَ عن عمرو بن دينار قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله ﷺ : « الحربُ خُدْعَةٌ » قال علي : فقلت للزبير : أتراها مُحْكِيَّةٌ ؟ فقال : نَعَمْ (٢).

وقال في فرس ركبه :

● « وَجَدْتُهُ بِحَرًّا » (٣).

● « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » (٤).

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات (حديث ٢٢٧٨) .

(٢) أخرجه البخارى في (كتاب الجهاد) باب « الحرب خدعة » (فتح البارى ٦ / ١١٨) وأحمد في مسنده ١ / ٨١ .

(٣) أخرجه البخارى في (كتاب الجهاد) باب « الشجاعة في الحرب والجبن » (فتح البارى ٦ / ٢٧) وأحمد في مسنده ٣ / ١٤٧ ، ٦٣ .

(٤) (كتاب الطب) « إن من البيان لسحرا » (فتح البارى ١٠ / ١٩٤ ، ١٩٥) أحمد في مسنده ١ / ٢٦٩ ،

٢٧٣ وأصله أن رسول الله ﷺ سأل عمرو بن الأَهمم عن الزبير بن بدر فقال :

هو مانع لحوزته ، مطاع في أدنيه ، فقال الزبيرقان : أما إنه قد علم أكثر مما قال . ولكن حسدنى شرفى ، فقال عمرو : أما إذ قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لثيم الخال ، حديث الغنى ، فلما أن رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال : يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ما علمت ، ورضيت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحرا » .

● « مَنْ حَفَنَّا أَوْ رَفَنَّا فَلْيَقْتَصِدْ » (١) . يقول : مَنْ مَدَحْنَا فَلَا يَغْلُوَنَّ فِي ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لِيَتَكَلَّمْ بِالْحَقِّ مِنْهُ . قال أبو عبيد : ومنه حديث مرفوع « أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : أنت أفضل قرئش قولاً ، وأعظمها طَوْلاً ، فقال النبي - عليه السلام - : يا أيُّها الناس ، قُولُوا بقولكم ، ولا يَسْتَجْرِبَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ » .

● أَقْبِلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثْرَاتِهِمْ (٢) .

● الْعِدَّةُ عَطِيَّةٌ (٣) .

● قال ﷺ لأصحابه : « أى شيء خير للنساء ؟ » فلم يَدْرُوا ما يقولون ، فرجع عليٌّ رضى الله عنه إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فأخبرها بمقالة النبي عليه السلام ، فقالت فاطمة رضى الله عنها : « أَنْ لَا يَرَاهُنَّ الرِّجَالُ وَلَا يَرَيْنَهُمْ » فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي » (٤) .

● حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعِمِّي وَيُصِمُّ » .

وهذا المثل يُروى عن أبي الدرداء . ومنه حديث ابن عباس « ما ذَكَرَ اللهُ الْهَوَى فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ إِلَّا دَمَّهُ » وقول الشَّعْبِيِّ : إِنَّمَا سُمِّيَ هَوَى لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ . وقال بعض الحكماء : إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَلَمْ تَدْرُ أَيُّهُمَا أَدْنَى إِلَى الصَّوَابِ وَالسَّدَادِ فَانظُرْ أَتَقَلَّهْمَا عَلَيْكَ فَاتَّبِعْهُ ، وَدَعِ الَّذِي تَهْوَى ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّ الْهَوَى هُوَ الَّذِي زَيَّنَهُ فِي قَلْبِكَ ، وَحَسَّنَهُ عِنْدَكَ (٥) .

● « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ » (٦) .

(١) معنى « حفنا أو رفنا » تعطف علينا وأعطانا ، فلان يحف بفلان : إذا طاف به وألطفه ، فهو به حَفٍ وَحَفِيٌّ ، ويقال : رففت الرجل أرفه ، إذا أسديت إليه يداً ، ومن أمثالهم : « هو يحف له ويرف » أى : يقوم له ويقعده ، وينصح ويشفق .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الحدود) حديث ٤٣٧٥ ، وأحمد في مسنده ٦ / ١٨١ ، ورواه الميداني ٢ / ١٢٣ .

(٣) وهو من حديث شريف طويل ، أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١١ / ٩٥ ، وأخرجه كذلك أبو نعيم في الحلية ٨ / ٢٥٩ .

(٤) أخرجه البزار مختصراً ، انظر مجمع الزوائد ٩ / ٢٠٢ .

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب (حديث ٥١٣٠) .

(٦) أخرجه البخاري في (كتاب الاستقراض) باب « مطل الغني ظلم » (فتح الباري ٥ / ٤٥٩) .

- « الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ ، وَالرَّفِيقَ قَبْلَ الطَّرِيقِ » (١) .
 - « اضْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ يَقِي مَصَارِعَ الشُّوءِ » (٢) . وفي حديث آخر: « أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمُ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ » وفي حديث ثالث: « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ » .
 - « إِنَّمَا الْمَرْءُ بِخَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ يُجَالِ » (٣) .
 - « انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » (٤) .
- وهذا الحَرْفُ يُرَوَى فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ « قِيلَ » يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا يَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ يَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ : يَكْفِهِ عَنِ الظُّلْمِ .
- « الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قِيلَ : لِمَنْ؟ قَالَ : لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » (٥) .
 - « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » (٦) . وَيُرَوَى عَنْ لِقْمَانَ الْحَكِيمِ أَنَّهُ سُئِلَ : أَيُّ عَمَلِكَ أَوْثَقُ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ : تَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي .
 - « النَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » (٧) . ومثله : « اتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا » . وكذلك قوله : « النَّدْمُ تَوْبَةٌ » .

(٢)

نماذج من كتب أمثال النبي للرامهرمزي (ابن خلاد)

عن عبد الله بن قيس :

-
- (١) الحديث ذكره الهيثمي في مجمع (٨ / ١٦٤) والسيوطي في الجامع الكبير (١ / ٤٠٢) .
 - (٢) الحديث في جمع الجوامع ١ / ٣٣٤ ، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج .
 - (٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب (حديث ٤٨٣٣) باللفظ : « الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يجال » وأحمد في مسنده ٣٠٣ ، ٣٣٤ .
 - (٤) أخرجه البخاري في (كتاب المظالم) باب « أعن أخاك ظالما أو مظلوما » (فتح الباري ٦ / ٢٣) وأحمد في مسنده ٣ / ٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٢٤ .
 - (٥) الحديث أخرجه البخاري في (كتاب الإيمان) باب « قول النبي : الدين النصيحة » (فتح الباري ١ / ١١٣) .
 - (٦) أخرجه الترمذي في (كتاب الزهد) حديث ٢٣١٧ وابن ماجه في (كتاب الفتن) ١٢ ، وأحمد في مسنده ١ / ٢٠١ .
 - (٧) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد (حديث ٤٢٥٠) .

● قال رسول الله ﷺ: « إن الجنة تحت ظلال السيوف » (١).

المعنى أن حامل سيفه في سبيل الله مطيعا لله به يصل إلى الجنة .

● عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله هي الجنة » (٢).

يعنى : من خاف النار جد في العمل ، ومن جد في العمل وصل إلى الجنة ، فجعل خائف النار بمنزلة المسافر الذى يخاف فوت المنزل فيرحل مدلجا ، والإدلاج : هو السير من أول الليل ، وجعلت غالية لشرفها ، ولأنها لا تنال بالهوينى والتقصير ، وإنما تنال بمجاهدة النفس ومغالبة الهوى وترك الشهوات .

« إن هذه الكناية من أوجز الكنايات وأدلتها على معنى لا يتعلق بشيء من لفظه » .

خضراء الدمن :

عن أبي سعيد الخدرى ، عن النبي ﷺ قال : « إياكم وخضراء الدمن . قيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء » (٣).

المعنى « أن الريح تجمع الدمن وهى البعر فى المكان من الأرض ثم يجرى المطر فينبت فى ذلك المكان نباتا ناعما غضا فيروق الإبل فتأكله فتمرض . والمعنى : لا تنكحوا المرأة لجهاها وهى خبيثة الأصل .

● عن مرداس الأسلمى : قال رسول الله ﷺ : « يذهب الصالحون أسلافا الأول فالأول ، حتى لا يبقى إلا حثالة التمر والشعير ، لا يبالي الله بهم » .
الحثالة من كل شيء : رذالته .

● عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إذا تقارب الزمان انتقى الموت خيار أمتى كما ينتقى أحدكم خيار الرطب من الطبق » .

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک ، ولفظه : « الجنة تحت ظلال السيوف » جامع الأحاديث ، رقم ١١١٢٣ .

(٢) الترمذى ، والحاكم (جامع الأحاديث رقم ٢٠٥٩١) .

(٣) الدار قطنى فى الأفراد ، والديلمى ، والبراهمزمى فى الأمثال (جامع الأحاديث رقم ٩٤٨٤) .

في السماء ، يُهْتَدَى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أَوْشَكَ أَنْ يَضِلَّ
الهُدَى .

● عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أن لقمان قال لابنه : « يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِمَجَالِسَةِ
الْعُلَمَاءِ ، وَاسْتِمَاعِ الْحِكْمَاءِ ، فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يُخَيِّى الْقُلُوبَ بِنُورِ الْحِكْمَةِ كَمَا يُخَيِّى
الْأَرْضَ بِوَابِلِ الْمَطَرِ » .

حديث السفينة موجود في ص ١٠٣ . (كتاب أمثال الحديث) .

● عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعِطَّارِ إِنْ لَمْ يُصِيبْكَ
مِنْ عِطْرِهِ أَصَابَتْ مِنْ رِيحِهِ ، وَمَثَلُ الْجَلِيسِ الشُّؤْمِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْكَبِيرِ إِنْ لَمْ يُصِيبْكَ مِنْ
شَرَّارِهِ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ » .

● قال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله ﷺ وذكر الجنة فقال : « أَلَا مُشَمَّرٌ لَهَا ؟
هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ رِيحَانَةٌ تَهْتَرُ ، وَنُورٌ يَتَلَأَلُ ، وَنَهْرٌ يَطْرُدُ ، وَزَوْجَةٌ لَا تَمُوتُ ، فِي حُبُورٍ
وَنَعِيمٍ وَمُقَامٍ أَبَدًا » .

أبو سعيد قال : سمعت أبا هريرة - رضى الله عنه - يقول : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ
الصَّرَاطُ بَيْنَ أَظْهَرِ جَهَنَّمَ ، دَحْضُ مِرْزَةٍ ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِ يَقُولُونَ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ،
وَالنَّاسُ عَلَيْهِ كَالْبَرْقِ ، وَكَطَرْفَةِ الْعَيْنِ ، وَكَأَجْوَادِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ وَشَدًّا عَلَى الْأَقْدَامِ ،
فَنَاجٍ مَسَلِّمْ ، وَمَخْدُوشٌ مَرْسَلٌ ، وَمَطْرُوحٌ فِيهَا ، وَلَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جِزْءٌ
مَقْسُومٌ » .

● جاء الحسن والحسين - عليهما السلام - يستبقان إلى رسول الله ﷺ فضمهما إليه
وقال : « الْوَلَدُ مَجْبُونَةٌ مَبْخَلَةٌ » .

المعنى أن حب الولد يمنع من بذل المال للإبقاء عليهم ، وعن لقاء العدو إشفاقا
من الضيعة لهم .

قال الرسول ﷺ يوم بدر : « أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ مَكَّةُ أَفْلاذَ كَبِدِهَا » .

يريد : أشرافها وأعز أبنائها ، وهذا القول من أبلغ الاستعارات وأعمقها معنى ، وأدقها تصويرا ، فهو كلام سيد البلغاء الأئمة .

● عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْثَرُوا مِنْ قَوْلِ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، فَإِنَّهُمْ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ، وَهُمْ يَحْتَضِرُونَ الْخَطَايَا كَمَا تَحْتَضِرُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا ، وَهُمْ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » .
وجعل ابن خلاد هذا الحديث في باب التشبيه .

● « الْغَنَمُ بَرَكَةٌ ، وَالْإِبِلُ عِزٌّ لِأَهْلِهَا ، وَالخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

نهى رسول الله ﷺ عن جزأ ذناب الخيل وأعرافها ونواصيها . وقال : « أَمَا أَعْرَافُهَا فَإِنَّهَا أَدْفَاؤُهَا ، وَأَمَا أَدْنَابُهَا فَإِنَّهَا مَدَائِبُهَا ، وَأَمَا نَوَاصِيهَا فَإِنَّ الْخَيْرَ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا » .

(٣)

نماذج من الأمثال النبوية السائرة

مختارة من « جمهرة الأمثال »

لأبي هلال العسكري :

● « إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرَمُوهُ » .

● الْحَسْبُ الْمَالُ ، وَالكَرْمُ التَّقْوَى » .

● « إِذَا تَزَوَّجْتَ الْمَرْأَةَ لِدِينِهَا وَجَمَالِهَا كَانَ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عَوَازٍ » أى : إذا تزوجها ليستعف بها أعانه الله وكان فيها سداد من عوز المال وعفة السلوك .

● « الْأَرْوَاحُ جَنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » أخذ المعنى أبو نواس فقال :

إِنَّ الْقُلُوبَ لِأَجْنَادٍ مُجَنَّدَةٍ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بِالْأَهْوَاءِ تَأْتَلَفُ

فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا فَهُوَ مَعْتَرِفٌ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا فَهُوَ مُخْتَلَفٌ

● « استعيذوا بالله من الرُّغْبِ »

والرغب : هو كثرة الأكل ، وكانت العرب تمدح بقلة الأكل ، وفي ذلك يقول
أعشى باهلة :

تَكْفِيهِ حُرَّةٌ فَلَيْدٌ إِنْ أَلَمَّ بِهَا مِنْ الشُّوَاءِ وَيُرْوَى شُرْبُهُ الْعَمْرُ
والعَمْرُ : هو القدح الصغير .

وفي هذا الموضوع يقول الرسول أيضا : « إن الرغب من الشؤم » .

● « استعينوا على كل صناعة بأهلها » .

وفي ذلك يقول الشاعر :

يا بارى القوس برياً لست تُحْكِمُهُ

لا تظلم القوس أعط القوس بارياً

● « أَفْرَحَ رَوْعَكَ » .

أى : زال ما كنت تخاف منه ، والروع : الفزع .

والمثل جزء من حديث قاله الرسول ﷺ لعروة بن مضرّس ، فقد قال عروة : انتهيت
إلى النبي ﷺ وهو بجمع قبل أن يصل الغداة ، فقلت يا نبي الله : قد طويت الجبلين ،
ولقيت شدة ، فقال ﷺ : « أَفْرَحَ رَوْعَكَ » ، من أدرك إفاضتنا هذه فقد أدرك « يعنى
الحج . وأصل المثل من الناحية اللغوية : خروج الفرح من البيضة ، وانكشاف الغم
عنه . وأما قول الرسول ﷺ لعروة بن مضرّس فمعناه : زال ما كنت ترتاع له وتخاف ،
وهو فوات الحج .

● « أَلَا إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفَقٍ ، فَإِنَّ الْمُنْبِتَّ لَا أَرْضاً قَطَعَ وَلَا ظَهراً
أَبْقَى » وفي رواية « إن هذا الدين . . . »

والحديث يشكّل مثلين بليغين ، فصدره يشكّل مثلاً مستقلاً وعجزه يشكّل مثلاً
آخر مشهوراً .

والرسول ﷺ ينهى في هذا الحديث عن الإفراط ؛ لأن الإفراط مذموم في كل شيء ،
فمن أفرط في المدح نُسب إلى الملق ، ومن أفرط في الشجاعة كان متهوراً ، ومن أفرط في
البذل كان سفيهاً ، ومن أفرط في القصد كان بخيلاً ، وهكذا . .

والإيغال : شدة السير ، وهو في الحديث بمعنى الوغول ، وهو الدخول . ومثل
هذا الحديث قوله ﷺ : « مَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ غَلِبَهُ » .

● « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ » .

والحديث الشريف هنا يشكل مثلاً لمن يسرف في الكلام شأن من يسرف في السير ،
ومن يسرف في شعائر الدين في القول الشريف : « أَلَا إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ . .
الحديث » .

والمثل هنا جزء من الحديث الشريف : « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ
سَقَطُهُ كَثُرَ كَذِبُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ كَذِبُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ ، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ » .
● « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » .

كان هذا القول الشريف تعليقاً من الرسول ﷺ على فصاحة عمرو بن الأهتم حين
تجاوز مع الزبرقان في حضرة النبي ﷺ .

فقد قال رسول الله لعمر بن الأهتم : أخبرنا عن الزبرقان . فقال : إنه مطاع في
أذنيه (وفي رواية : أذانيه . وفي رواية : أذنيته) شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .
فقال الزبرقان : يا رسول الله ، إنه ليعلم مني أكثر من ذلك ، ولكن حسدني .

فقال عمرو : والله يا رسول الله إنه لَزَمِرُ المروءة (*) ضَيْقُ العَطَنِ ، حديث الغنى ،
أحق الوالد ، لثيم الخال ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، رضيت
فقلت بأحسن ما علمت ، وسخطت فقلت بأسوأ ما علمت . فقال النبي ﷺ : « إِنَّ
من البيان لسحرا » .

(*) زمر المروءة يعني قليلها . . والعطن : مناخ الإبل حول الماء ، وهو كناية عن البخل .

ولقد ذهب بعض الشراح إلى أن قول الرسول ﷺ يعتبر ذما للبيان ؛ لأنه شبهه بالسحر ، لأن السحر تمويه ، والصواب أنه مدحه لأنه عجب منه كما يعجب من السحر ، وإن البليغ يبلغ بيانه ما يبلغ الساحر ببراعة حيلته ولطافة تصرفه ، وما كان للرسول أن يذم البيان وهو أبين الأبيناء في البشرية ، هذا ، وإن الحديث قد روى بصورة تمجد البيان والشعر في قوله ﷺ : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكماً(*) » وإن من العلم جهلاً (**).

● « إنما الناس كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ ، وإنما يتفاضلون بالعافية » ومعنى العافية : الرحمة ، ولا فضل لأحد على أحد في أحكام الدين .

● « البلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطق » .

وللرسول حديث آخر : « البلاءُ مُوَكَّلٌ بالقَوْل » .

● « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ، والمستغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وهو مقيمٌ عليه كالمستهزىء بربه » .

● « الْحَرْبُ خُدْعَةٌ » بضم الخاء أو فتحها في (خدعة) .

وقد قال بعض الحكماء : نفاذ الرأي في الحرب أنفع من الطعن والضرب .

● « حَوْلَهَا نَدْنِدُنُ » .

قال أعرابي لرسول الله ﷺ : « لا أعرف ما دندنتك ودندنة معاذ ؟ أنا أريد الجنة »

فقال له الرسول : « حولها ندندن » يعني إياها نطلب بهذه الدندنة .

● « زُرُّ غِبًّا تَرُدُّ حُبًّا » .

وقد أخذ المعنى بعض الشعراء فقال :

(*) الحكم والحكمة بمعنى واحد .

(**) يعني : تكلف العالم القول فيما يبغله .

وقد قال النبي وكان برًّا

إِذَا زُرْتِ الْحَسِيبَ فَزُرْهُ غَيْبًا

والغيبُ : أن تزور يوما وتَدَعِ الزيارة يوما . وغِبُّ الشئ ومَعَبْتُهُ : عاقبته ، وغِيبُ المطر : أول أوقات انقطاعه . ويقول أبو عبيد : المراد الإبطاء في الزيارة ولم يرد يوما ويوما ، ومن ثم تكون الزيارة على غير مواظبة . (المثل رقم ١٣٠٦) .

● « العبدُ حُرٌّ إِذَا قَنَعَ ، والحُرُّ عبدٌ إِذَا طَمِعَ » .

● « لَا حَلِيمَ إِلَّا ذُو أَنَاةٍ ، وَلَا عَلِيمَ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ ، وَلَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ » .

● « لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ » .

يعنى أن الرجل إذا قتل رجلا خطأ لم يؤخذ بالدية ولا ابنه ولا بنو أعمامه .

● « لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا » . من قولهم : أَعَدَرَ الرجل : إذا كثرت ذنوبه ،

وقيل : حتى يُعْذِرُوا من يعذبهم ، أى : يقيموا له عذرا .

● « لَيْتَ الْوَاجِدِ ظُلْمٌ » .

الليّ والليان : المطل . من لواه يلويه ليًّا وليانًا . الواجد : الغنى ، والوجدُ :

الغنى .

● « مَا وَقَى الرَّجُلُ بِهِ عِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ »

وبقية الحديث : « وما أنفق المؤمن نفقةً فعلى الله خَلْفُهَا ، إلا ما كان من نَفَقَةٍ فِي

بُنْيَانٍ أَوْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى » .

قيل لابن المنكدر : ما معنى (وقى الرجل به عرضه) ؟ قال : أنه يعطى الشاعر ذا

اللسان .

● « نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ » .

يعنى النقصان بعد الزيادة أو الانتقاض بعد الاستواء . الحور - بسكون الواو - : من

حار الشيء : إذا نَقَصَ ، وإذا رجع . والكوؤُ - بسكون الواو أيضا - : من كار
العمامة : إذا سواها على رأسه فمارت .

أما الحُور - بضم الحاء - : فهو المهلاك .

● « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » .

أى : يحبنا أهله ونحبهم ، وهم الأنصار ، والجبل : هو جبل أحد ؛ لأنه أكبر
معلم في المدينة قبل هجرته ﷺ إليها .

● « هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبْرِ » .

وجه الرسول هذه التحية لقيس بن عاصم .

● « اِسْتَدَىْ أَرْمَةٌ تَنْفَرِجِي » .

والأزمة : الضيق والشدة . وفي ذلك يقول الشاعر :

لا تياسَنَّ من انفراجٍ شديدةٍ

قد تنجلي الغمراتُ وهي شدائدُ

● « اعقلها وتوكل » .

يضرب للأخذ بالثقة والاحتياط في الأمور ، قال رجل للرسول ﷺ : ألا أرسل ناقتي
وأتوكل ؟ قال : « لا ، بل اعقلها وتوكل » وهو في الأمثال لأبى عبيد - المثل رقم ٦٤٤ .

● « كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا » .

هذا مثل قديم ، تمثل به رسول الله ﷺ فقد أُخِرَ أبو سفيان في الإذن له بالدخول إلى
رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كدت تأذن لحجارة الجُلُهمَتَيْنِ قبلي ، فقال رسول
الله ﷺ : « إنك وذلك يا أبا سفيان كما قال القائل : كل الصيد في جوف الفرا » .

وأما قصة المثل وأصله أن قوما خرجوا للصيد ، فصاد أحدهم ظيبا ، وآخر أرنباً ،
وآخر فرأ وهو الحمار الوحشى فقال لأصحابه : « كل الصيد في جوف الفرا » أى : جميع

ما صدقتموه يسير في جنب ما صدته . فتمثل رسول الله به ترضية لأبي سفيان الذي كان تصور أنه أهمل شأنه في الدخول على الرسول فتأخر الإذن له بالمثل . وكلمة (الْجُلُهمَتَيْنِ) لم تسمع قبل ذلك ، واللفظ المألوف هو (جَلْهُهُ الوادى) يعنى وسطه .

● « لا يُلْسَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ » .

قاله الرسول لرجل اسمه أبو عزة - وكان شاعرا مجيدا ومُملقاً ذا عيال - أسر يوم بدر كافرا ، فقال : يا رسول الله إني ذو عيال وحاجة فامنن عليّ ، فقال له الرسول : على ألا تعين عليّ - يعنى بشعره - فعاهده ، فأطلقه ، ومدح الرسول بشعر جميل قائلا :

أَلَا أْبْلَغَا عَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا فَإِنَّكَ حَقُّ وَالْمَلِيكَ حَمِيدًا
وَأَنْتَ امْرُؤٌ تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ شَهِيدًا
وَأَنْتَ امْرُؤٌ بُوئْتَ فِينَا مَبَاءَةً لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصَعُودًا
وَأَنْتَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمْ حَارَبْ شَقِيًّا وَمَنْ سَأَلْتَهُ لَسَعِيدًا
وَلَكِنْ إِذَا ذُكِرْتُ بِدِرًّا وَأَهْلَهَا تَأَوَّبَ مِنِّي حَسْرَةً وَتَعُودًا

فلما كان يوم أحد دعاه صفوان بن أمية بن خلف إلى الخروج على المسلمين فتمنع أول الأمر ، ثم لم يلبث أن استجاب لدعوة زعيم الكفار وسار في بني كنانة فحرضهم قائلا :

أَيَا بَنِي عَبْدِ مَنْفِ الرَّزَامِ أَنْتُمْ حِمَاةٌ وَأَبُوكُمْ حَامٌ
لَا تَعِدُونِي نَصْرَكُمْ بَعْدَ الْعَامِ لَا تُسْلِمُونِي لَا يَجِلُّ إِسْلَامٌ

فأسر يوم أحد فقال : يا رسول الله منّ عليّ ، فقال النبي ﷺ : « لا يُلْسَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ ، لَا تَمْسُحُ عَارِضِيكَ بِمَكَّةَ وَتَقُولُ : خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ » .

● « لا ينتطح فيها عنزان » .

كانت عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد تحرض على المسلمين وتؤذيهم وتقول الشعر ، فجعل عمير بن عدى عليه نذرا لله لئن عاد رسول الله من « بدر » سالما

ليقتلنها ، فعدا في جوف الليل فقتلها ثم لحق بالنبى فصلى معه الصبح ، وكان النبى ﷺ يتفحص أصحابه إذا قام يدخل منزله . فقال لعمير : أقتلت عصماء ؟ قال : نعم . ثم قال : يا نبى الله هل على في قتلها شىء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا ينتطح فيها عنزان » فأول ما سمعت هذه العبارة سمعت من رسول الله .

● « مَنْ نُوقِشَ فِي الْحِسَابِ عُذِّبَ »

النقش : الاستقصاء ، ومعنى الحديث : من استقصى عليه في الحساب عذب .



أسلوب القرآن وأسلوب النبي

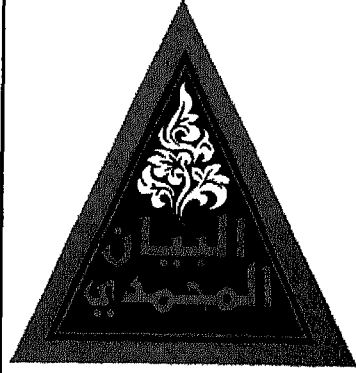
الفصل الأول : التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله .

الفصل الثاني : القرآن معجزة محمد ﷺ .

الفصل الثالث : نماذج تلقائية من آيات الكتاب العزيز وأخرى من

حديث رسول الله .

الفصل الرابع : تناول القرآني والتناول النبوي في قضية بذاتها .



الفصل الأول

التسليم الفطرى
بأن القرآن كلام الله

التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله

تمهيد :

كل ذى فطرة سليمة وفكر مستقيم وسليقة سوية وخبرة بالأساليب البلاغية وضروب الفصاحة والبيان لا يستطيع إلا أن يسلم بأن القرآن ليس من كلام محمد ﷺ لأنه أبلغ من كلام البشر ، ومحمد ﷺ مع كونه نبيا رسولا فهو من البشر ، ومن ثم فإنه لا يتأتى له أن يأتى بهذا الكلام . ومادام محمد لن يستطيع أن يأتى بهذا الكلام فإن مقتضى ذلك عند ذوى البصيرة النيرة ، والرأى الصائب والحكم المحايد أن يكون هذا الكلام - القرآن الكريم - منزلا على محمد من عند رب محمد : الله خالق كل شىء .

إن الله - سبحانه وتعالى - وقد أنزل القرآن على محمد ، واقتضى علمه - عز وجل - أن المكابرين من قريش - أول من سمعوا القرآن لأتهم عشيرة الرسول الأقربون - سوف ينكرون أنه كلام الله الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد نزل من الآيات ما يؤيد أنه كلامه - عز وجل - وذلك بضروب متعددة من التحدى : أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله . يقول - عز وجل - :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١)

ويقول - عز وجل - :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ ۖ وَسَاهٍ قُلُوبَهُ ۖ فَاصْبِرْ لَهُ ۖ وَصَابِقْ إِلَىٰ رَبِّكَ ۚ إِنَّ يَقُولُوا لَوْلَا

(١) الإسراء . الآية : ٨٨ .

أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *
 أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَبَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ
 اللَّهِ وَأَنَّ لِلَّهِ الْإِلَهَ الْأَوْفُفَهُلَّ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾

ويقول - عز وجل - تأكيداً على تنزيه القرآن الكريم من شبهة الباطل ، وأنه تنزيل
 من لدنه - عز وجل - :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ
 بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢﴾ .

وفي ثبات مصداقية القرآن وعظمة قدره وجليل خطره يقول الله - عز وجل - :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ السَّمَوَاتُ بَل لَللَّهِ
 الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴿٣﴾ .

الله - سبحانه - يعلم المكابرين والمستكبرين والضالين والمضلين والمشركين
 والمنكرين ، وحتى لا يكون لهم حجة على الله فقد أنزل الآيات التي لا عذر لهم بعد
 سماعها في أن القرآن كلامه ، وأن الفرقان كتابه .

التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله :

لقد كان عتاة قريش وصناديدها يضيّقون ذرعا بدعوة رسول الله إياهم إلى ترك
 الشرك ، وعبادة الله الواحد الأحد ، وتمنوا لو استطاعوا أن يقنعوا محمدا بالعدول عن
 دعوة الإسلام وتركه إياهم يعبدون الأوثان ، وبذلوا في ذلك مختلف الجهود والوعود ،
 ولكن ما أن ينفرد رسول الله بواحد منهم ويتلو عليه آية من القرآن الكريم حتى ترتعد
 فرائصه لسماعه ، أو تطيب نفسه ارتياحا إليه .

(١) هود ، الآيات : ١٢ - ١٤ .

(٢) فصلت ، الآيات : ٤١ ، ٤٢ .

(٣) الرعد ، الآية : ٣١ .

عتبة بن ربيعة ساعة سماعه القرآن :

من الذين ارتعدت فرائصهم لسماع القرآن وسلموا بأنه ليس من كلام محمد ، عتبة ابن ربيعة حينما ناب عن أعيان قريش في التحدث إلى رسول الله في شأن العودة عن دعوته إلى الله ، وتفصيل ذلك : أن قريشاً اجتمعوا في الحطيم ، فخطبهم عتبة بن ربيعة ، فقال : إن هذا ابن عبد المطلب قد نغص علينا عيشنا ، وفرق جماعتنا وبدد شملنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، وكان في القوم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام ، وشيبة بن ربيعة ، والنضر بن الحرث ، ومنبه ونيبه ابنا الحجاج ، وأمية وأبي ابنا خلف . في جماعة من صنديد قريش ، فقال له : قل ما شئت فإننا نطيعك ، قال : سأقوم فأكلمه ، فإن هو رجع عن كلامه وعمّا يدعو إليه وإلا رأينا فيه رأينا ، فقالوا له : شأنك يا أبا عبد شمس .

فقام فتقدم إلى النبي ﷺ وهو جالس وحده فقال : أنعم صباحاً^(١) يا محمد .

قال : يا أبا عبد شمس إن الله قد أبدلنا بهذا السلام تحية أهل الجنة .

قال : يا ابن أخي ، إنى جئتك من عند صنديد^(٢) قريش ، لأعرض عليك أمورهم ، إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها ، ولنا فيها الفسحة ، ثم قال : يا ابن عبد المطلب إنك دعوت العرب إلى أمر ما يعرفونه ، فأقبل منى ما أقوله لك ، قال : قل ، قال : إن كان ما تدعو إليه تطلب به ملكاً فإننا نملكك علينا من غير تعب ونتوجك ، فأرجع عن ذلك ، فسكت ، ثم قال له : وإن كان ما تدعو إليه أمراً تريد به امرأة حسناء فنحن نزوجك .

فقال : لا قوة إلا بالله . ثم قال له : وإن كان ما تتكلم به تريد مالاً أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل في قريش ، فإن ذلك أهون علينا من تشتت كلمتنا وتفريق جماعتنا ، وإن كان ما تدعو إليه جنوناً داويناك كما تداوى قيس بنى ثعلبة مجنونهم .

(١) أنعم صباحاً : تحية كانت كثيرة الاستعمال في الجاهلية .

(٢) صنديد : جمع صنديد وهو السيد الشجاع .

فسكت النبي ﷺ فقال : يا محمد ما تقول ؟ وبم أرجع إلى قريش ؟
 فقال النبي ﷺ : ﴿ حَمَّ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ
 آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
 لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١)، حتى بلغ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ
 صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٢).

قال عتبة : فلما تكلم بهذا الكلام فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسى من
 إعجازها . وقام فرعاً يجير رداءه . فرجع إلى قريش وهو ينتفض انتفاض العصفور ،
 وقام النبي ﷺ يصلى ، فقالت قريش : لقد ذهب من عندنا شيطاناً ، ورجعت فرعاً
 مرعوباً ، فما وراءك ؟!

قال : ويحكم دعونى ، إنه كلمنى بكلام لا أدرى منه شيئاً ، ولقد رعدت على
 الرعدة حتى خفت على نفسى ، وقلت : الصاعقة (*) قد أخذتنى ، فقدموا عنى
 ذلك (٣).

الوليد بن المغيرة يقول إن القرآن ليس كلام بشر :

ومن فصحاء قريش الذين كابروا ورفضوا الإيذان بالرسالة المحمدية واتخذوا منها
 ومن الرسول مواقف عدائية متشددة الوليد بن المغيرة المخزومى ، وكان سيد عشيرته ،
 وأفصح قومه ، وأخطبهم ، جاء الوليد إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو على كفره .
 فقال : اقرأوا على شيئاً من القرآن ، فقرأوا عليه . فقال : ليس هذا من كلام البشر ،
 وليس بشعر ، فمضى إليه أبو لهب قال : أفسدت قريشاً بهذا القول فارجع عنه ، فقال
 أقول : إنه سحر (٤).

(١) سورة فصلت ، الآيات : ١ : ٤ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ١٣ .

(*) الصاعقة : صوت الرعد الشديد الذى يصعق منه الإنسان ، أى يغشى عليه ، وهى اسم العذاب .

(٣) الخبر فى أعلام النبوة للباوردى ص ١٠٥-١٠٧ .

(٤) أعلام النبوة ، ص ٨٠ .

لقد أوشك الوليد أن يسلم ؛ لأنه سلم بأن القرآن ليس من كلام البشر ، كما أنه ليس بسحر ، فلم يبق أمامه إلا أن يعلن إسلامه لولا أن أبا لهب هدهه وحمل عليه ، فعاد عن قوله ورجع فيه .

ولقد رويت هذه القصة بشكل أكثر تفصيلا ، فقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الرسول ﷺ وقال له : اتل عليّ يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول ﷺ إلى ذلك طمعا في الانقياد ، فقرأ ﴿ حَمْدٌ * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا لَوْ إِنَّا فِيْ أَكْثَرَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيءَآذَانِنَا وَقُرْءَانِنَا بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا مَا عَمِلْتُمْ إِنَّا عَمِلُونَا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * * قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رُءُوسًا مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿

ومضى رسول الله ﷺ في التلاوة حتى وصل إلى قوله - عز وجل - .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ
* فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ
لَا يَسْتَمُونَ ﴾ (١).

وما أن انتهى رسول الله ﷺ من التلاوة حتى قال الوليد بن المغيرة وكان من أفصح
العرب : إن أعلاه لمورق وإنه أسفله لمعذق ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة (٢)
وليس هذا من كلام البشر .

هذان مثالان لائنين من عتاة قريش ومشركيها هما عتبة بن ربيعة - وقد لقي مصرعه
في غزوة بدر - والوليد بن المغيرة يسلمان بأن القرآن ليس من كلام محمد ، وأنه أعظم من
أن يكون كلامه ، إنها لم يؤمنا بالقرآن كتاباً من عند الله استعلاء واستكباراً وتعنتاً
وتعصباً .

الطفيل بن عمرو الدوسي يستمع إلى القرآن فيؤمن على الفور :

وأما من جاء إلى رسول الله بغير قصد سبق ، أو نية سلفت فإنه لا يكاد يسمع بعض
الآيات المنزلة حتى يوقن بأن ما سمعه هو كلام الله وليس بكلام بشر ، ومن ثم يسارع
إلى الإسلام وإعلان الشهادتين ، إن هذا هو ما حدث مع الطفيل بن عمرو الدوسي
الذي يحدث بنفسه أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها ، فمشى إليه رجال من قريش ،
وكان الطفيل رجلاً شريفاً . . . شاعراً لبيباً ، فقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا
وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعْضَل بنا وفرَّق جماعتنا وشتت أمرنا . وإنما قوله
كالسحر يفرِّق بين المرء وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى
عليك وعلى قومك ما دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع منه .

(١) سورة فصلت حتى الآية ٣٨ .

(٢) كتاب (الطراز) للإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمنى ٣ / ٢١٨ .

قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه وحتى حشوت
فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرُشفاً فرقاً من أن يبلغنى شىء من قوله .

فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة ، فممت قريباً منه ،
فأبى الله تعالى إلا أن يُسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت فى نفسى :
إنى لرجل لبيب شاعرٌ ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى من أن أسمع من
هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلتُ وإن كان قبيحاً تركت ؟
فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فتبعته فقلت : إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ،
وإنى شاعر فاسمع ما أقول .

فقال النبى ﷺ : هات . فأنشدته . فقال رسول الله ﷺ : وأنا أقول فاسمع ثم قرأ :
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾
إلى آخرها ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ إلى آخرها ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾
إلى آخرها ، وعرض على الإسلام ، ووالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعذل
منه فأسلمتُ وقلت : يا نبى الله إنى امرؤ مُطاع فى قومى ، وإنى راجع إليهم فداعيهم
إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم ، فقال : اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومى فى ليلة مطيرة ظلماء حتى إذا كنت بثنية تُطلعنى على الحاضر وقع
نور بين عيني مثل المصباح . فقلت : اللهم فى غير وجهى إنى أخشى أن يظنوا أنها
مُثلة وقعت فى وجهى ، فتحول فوق فى رأس سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط
عليهم من الثنية حتى جثتهم ، فلما نزلت أتانى أبى فقلت : إليك عنى يا أبت فلست
منى ولست منك . فقال : لم يا بنى ؟ فقلت : قد أسلمتُ وتابعت دين محمد . قال :
أى بنى فدينى دينك (١) فقلت : فاغتسل وطهر ثيابك ، ففعل ثم جاء ، فعرضتُ
عليه الإسلام فأسلم . ثم أتتى صاحبتى فقلت : إليك عنى فلست منك ولست
منى . قالت : ولم بأبى أنت وأمى ؟ قلت : فرق بينى وبينك الإسلام وتابعت دين
محمد ، قالت : فدينى دينك . فقلت : اذهبى فتطهرى ففعلت ، فعرضتُ عليها

(١) يعنى : إنى أعتنق الدين الذى ارتضيته لنفسك .

الإسلام فأسلمت ، ولم تُسلم أُمى . ثم دعوت « دَوْسًا » فأبْطأوا عليَّ ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت : يا نبي الله إنه قد غلبني على دَوْس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : «اللهم اهدِ دَوْسًا وائت بهم . ارجع إلى قومك وارْفُقْ بهم» .

فرجعتُ فلم أزل بأرض قومي أدعوهم حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ومضى «بَدْر» و «أَحُدُّ» و «الْخَنْدَق» فقدمتُ على رسول الله ﷺ بمن أسلم ورسول الله ﷺ بخير ، حتى نزلتُ المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من «دَوْس» ، ثم لحقنا رسول الله ﷺ بخير فأشهم لنا مع المسلمين .
وقال الطُّفَيْلُ لما أسلمَ :

| | |
|--------------------------------------|--|
| ألا بَلَّغَ لَدَيْكَ بَنِي لَوْئِي | عَلَى الشَّنَّانِ وَالغَضَبِ المُرْدِي |
| بأنَّ اللهَ رَبَّ النَّاسِ فَكِرْدُ | تَعَالَى جَدُّهُ عَن كُلِّ نِدِّ |
| وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ رَسولٍ | دَلِيلُ هُدًى وَمَوْضِحُ كُلِّ رُشْدٍ |
| رَأَيْتُ لَهُ دَلَائِلَ أَنبَأْتَنِي | بأنَّ سَبِيلَهُ يَهْدِي لِقَصْدِ (١) |

أعرابي يسجد عند سماعه جملة قرآنية :

إن حادثًا آخر جليل الشأن قد حدث عندما سمع أعرابي جملة من القرآن الكريم عن طريق المصادفة بدون أن يعلم أنها كلام الله ، فقد حكى أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (٢) فخرَّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام (٣).

إن فطرة هذا الأعرابي السليمة جعلته يتقبل هذا الكلام بالإجلال ، فقد وقر في

(١) سبيل الهدى والرشاد ٢ / ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٩٤ وتمامها ﴿ فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ .

(٣) أعلام النبوة ص : ٧٩ .

خاطره حين سماعه أنه ليس بقول بشر ، ولا بد أن يكون كلاما ذا شأن خطير ومصدر جليل ، فلم يملك نفسه وأطلقها على سجيتها ، فكان أن سارع إلى السجود احتفالا بتفرد هذا الكلام بالفصاحة والجلال .

والمسألة عندنا تتجاوز الفطرة البلاغية العربية إلى الفطنة الإنسانية والنظرة الحيادية ، فقد سمعت الأستاذ ألان جونس Prof : Alan gones الأستاذ بجامعة أكسفورد الإنجليزية قبل سنوات يقول لى : « إننى صرت على يقين بعد أن عرضت القرآن الكريم على الكمبيوتر أنه ليس من كلام محمد » ، وحين سمعت منه ذلك قلت فى نفسى : لقد قطع الرجل - وهو قس مسيحي - نصف الطريق ، وأمل أن يقطع نصفه الآخر .

والأمر ليس منتهيا عند الأستاذ جونس وحده ، ذلك أنه مسبوق فى هذا الشأن بالأستاذ المستشرق المرموق « آربرى » Arburry الذى كان يعتقد ويعلن أن القرآن ليس من كلام محمد ، وقيل : إنه كان يُسرُّ الإسلام عقيدة يؤمن بها .



الفصل الثاني

القرآن معجزة محمد ﷺ

القرآن معجزة محمد ﷺ

إن معجزة محمد الكبرى هي القرآن الذي أنزله الله عليه ، بمعنى أنه كلام الله وليس كلام محمد ، إنه معجزته الأولى ، يقول الإمام أبو الحسن الماوردي فيما تضمنه القرآن من أنواع إعجازه :

القرآن أول معجز دعا به محمد ﷺ إلى نبوته ، فصدع فيه برسالته ، وخص بإعجازه من جميع رسله ، وإن كان كلاماً ملفوظاً وقولاً محفوظاً لثلاثة أسباب ، صار بها من أخص إعجازه وأظهر آياته :

أحدها : أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره ، والشائع المنتشر في ناس دهره ؛ لأن موسى - عليه السلام - حين بعث في عصر السحرة خص من فلق البحر يبساً ، وقلب العصا حية ما بهر كل ساحر ، وأذل كل كافر ، وبعث عيسى - عليه السلام - في عصر الطب ، فخص من إبراء الزمنى^(١) وإحياء الموتى بما أدهش كل طيب ، وأذهل كل لبيب .

ولما بعث محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء ، وأذعن له البلغاء ، وتبلد فيه الشعراء ؛ ليكون العجز عنه أقهر ، والتقصير فيه أظهر . فصارت معجزاتهم - وإن اختلفت - متشاكلة المعانى ، متفقة العلل .

والثاني : أن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم ، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم ، وكان في بنى إسرائيل من قوم موسى وعيسى بلادة وغباوة ؛ لأنه لم ينقل عنهم ما يُدَوَّنُ

(١) الزمنى - على وزن المرضى - : هم أصحاب العاهات .

من كلام مستحسن ، أو استفاد من معنى مبتكر . وقالوا لئيبهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، فظنوا أن الإعجاز بها يصلون إليه ببداية حواسهم .

والعرب أصحُّ الناس أفهاماً ، وأحدُّهم أذهاناً ؛ قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ، ومن المعاني أغربها ، ومن الآداب أحسنها ، فحُصِّوا من معجز القرآن بما تجول فيه أفهامهم ، وتصل إليه أذهانهم ، فيدركوه بالفطنة دون البديهة ، وبالروية دون البادرة ؛ لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ، ويوافق فهمها .

والثالث: أن معجز القرآن أبقى على الأعصار ، وأنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره ، ويندرس بانقراض عصره ، وما دام إعجازه فهو أحج وبالاختصاص أحق (١) .

وجوه الإعجاز كما يراها الماوردي :

إن أبا الحسن الماوردي يذكر عشرين وجهاً لوجوه إعجاز القرآن الكريم ، حيث يستحيل أن يجيء هذا الإعجاز بوجوه العشرين على لسان مخلوق ، ولو كان هذا المخلوق هو محمداً أحب خلق الله إلى الله .

إن الوجوه العشرين التي أثبتها الماوردي لإعجاز القرآن تبدأ بعنصر الفصاحة والبيان ، وتنتهي بها أسماء المعتزلة « الصرفة » ونحن نتفق مع الإمام الكبير في الوجوه التسعة عشر ، ولا نوافق على الصرفة ؛ لأن الكلام المنزل من لدن الخالق الأعظم يستحيل على المخلوقين أن يأتوا بمثله مطلقاً .

فأما الوجه الأول وهو الفصاحة : فإن ذلك معتبر بثلاثة شروط ، هي على الترتيب : بلاغة ألفاظه ، واستيفاء معانيه ، وحسن نظمه .

والوجه الثاني : من إعجازه هو إيجازه واستيفاء معانيه في قليل الكلام ، كقوله -
تعالى :- ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ

(١) أعلام النبوة : ٧٦ ، ٧٧ .

وَأَسْوَتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدَ اللَّقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .

والوجه الثالث هو علوه عن منظوم الكلام ومشوره ، فإن نظم أسلوبه . ووصف اعتداله يخرج عن منظوم الكلام ومشوره ، ولا يدخل في شعر ولا رجز ، ولا سجعة ولا خطبة ، حتى تجاوز محصور أقسامه ، وبابن سائر أنواعه ، بأسلوب لا يشاكل ، ونظم لا يماثل ، فصار وإن كان من حروف الكلام خارجا عن أقسام الكلام ، فقد قال أنيس الغفارى - وهو أخو أبى ذر الغفارى ، وكان من الموصوفين بالتقدم في البلاغة والفصاحة - : عرضت القرآن على السجع والشعر ، والنظم والنثر ، فلم يوافق شيئا من طرق كلام العرب ، وقد سبقت الإشارة إلى قول الوليد بن المغيرة المخزومي حين قرىء عليه شيء من القرآن : ليس هذا من كلام البشر ، وليس بشعر .

والوجه الرابع في إعجاز القرآن هو كثرة معانيه التي لا يجمعها كلام البشر ، ومثال ذلك : ما يجمعه قليل الكلام من كثير المعاني كقوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ إِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَاكْلِيهِ فِي اللَّيْلِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا نَرَاذُوهُ وَإِنَّا بِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) فجمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين .

والوجه الخامس من إعجاز القرآن ما جمعه من علوم لا يحيط بها بشر ، ولا تجتمع في مخلوق ، فلم يكن إلا من عند الله المحيط بكل شيء علما ، حتى علمه من لم يكن به عالما .

إن الإمام الماوردى قال هذا الكلام منذ عشرة قرون ، ولقد أثبت العلم الحديث وتقدم المخترعات في عصرنا مزيدا من معجزات القرآن الكريم في مجال العلوم الكونية والفلكية والطبية والفيزيائية .

والوجه السادس من إعجازه : تضمنه الحجج والبراهين على التوحيد ، والرجعة ،

(١) سورة هود ، الآية : ٤٤ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٧ .

وعلى الدهرية والثنوية حتى قطع بحججه كل محتج ، وخصم بجدله كل خصم ألد .
والوجه السابع تضمنه أخبار الماضين من القرون الخالية وقصص الأمم السالفة ،
وتحدى به أهل الكتاب من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر ، وحديث ذى
القرنين ، فكان على ما ذكره أنبياءهم وتضمنته كتبهم .

والوجه الثامن من إعجازه : ما تضمنه من علم الغيب بأخبار تكون فكانت ، كقوله
للإهود : ﴿ قَلَّ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا
قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ (٢) فقطع بأنهم
لا يفعلون فلم يفعلوا ، أو قوله تعالى : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدُّبُرَ ﴾ (٣) وكان
ذلك حقا في يوم بدر ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ
إِلَى مَعَادٍ ﴾ (٤) فأعاده الله تعالى إلى مكة عام الفتح ، وغير ذلك آيات كثيرة .

إن الإمام أبا الحسن الماوردي وهو يذكر وجوه الإعجاز طبعا لترتيبه إياها يجعل الوجه
التاسع من وجوه الإعجاز في إخبار القرآن الكريم بضمائر القلوب .

والوجه العاشر : هو أن جزل القرآن لا يتوعر ولا يُستزذل ، أى : لا يتوعر جزله ولا
يستزذل سهله ، ويكونان إذا اجتمعا مطبوعين غير متنافرين ، ولا نجد ذلك في غيره
من كلام البشر .

والوجه الحادى عشر : اختصاص تلاوته ببواعث ليست لغيره ، وهى خمسة
بواعث ، أحدها : هشاشة مخرجه ، والثانى : بهجة رونقه ، والثالث : سلاسة نظمه ،
والرابع : حسن قبوله ، والخامس : أن قارئه لا يكَلِّ وسامعه لا يمل .

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٤

(٣) سورة القمر ، الآية ٤٥ .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٨٥ .

والوجه الثاني عشر : أن القرآن منزل بألفاظه ومعانيه ، لا كسائر الكتب الدينية ، فإن التوراة ألقى الله - تعالى - معانيها إلى موسى - عليه السلام - فذكرها بلفظه وعبر عنها بكلامه ، وأما الإنجيل فهو ما أخبر به عيسى - عليه السلام - عن ربه وعن نفسه ، فجمعه تلامذته بألفاظهم وجعلوه كتابا متلوًا ، وأما الزبور فأدعية وتحميد وتساييح تنسب إلى داود عن لفظه .

ولئن كانت معاني هذه الكتب مضافة إلى الله تعالى فليست بصيغة لفظه ، أما القرآن فنزل جامعا لألفاظه ومعانيه وترتيبه ، فصار مبيناً لجميع كتبه ، وما هذا إلا بمعونة إلهية حفظ الله تعالى بها إعجازه ، وأمد بها رسوله ، كما قال - تعالى - :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

والوجه الثالث عشر من وجوه إعجازه : اقتران معانيه المتغايرة ، واقتران نظائرها في السور المختلفة فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد ، ومن ترغيب إلى تهريب ومن ماض إلى مستقبل ، ومن قصص إلى مثل ، ومن حكم إلى جدل ، فلا ينبو ولا يتنافر .

والوجه الرابع عشر من إعجازه أن اختلاف آياته في الطول والقصر لا يخرج عن أسلوبه ، ولا يزول عن اعتداله ، فصار ذلك من إعجازه .

ويمضى الإمام الماوردي فيرى في الوجه الخامس عشر أن مكثرت تلاوته لا يزداد بالقراءة فصاحة . ولعل الماوردي لم يوفق في إبانة ما ذهب إلى تصوره في هذا الوجه الذي اعتبره واحدا من وجوه الإعجاز .

والوجه السادس عشر من إعجاز القرآن : تيسيره على جميع الألسنة ، حتى حفظه الأعجمى الأبكم ، ودار به لسان القبطى الألكن ، ولا يحفظ غيره من الكتب كحفظه ، ولا تجرى به ألسنة الأعجام كجريها به ، وما ذلك إلا بخصائص إلهية فضله بها على سائر كتبه .

وإن هذا الوجه شديد الوضوح في زماننا ، فقد شاهدنا الصبية الأتراك الذين لا

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

يعرفون الحرف العربى - بعد أن صادر مصطفى كمال الحرف العربى - يحفظون القرآن كاملا ، وكذلك الحال عند الأطفال واليا فعي ن الهنود والباكستاني ن والإندونيسي ن والماليزي ن والصومالي ن وغيرهم من أبناء البلدان المسلمة غير العربية .

والوجه السابع عشر من إعجازه : هو أن القرآن أعلى مراتب الكلام ، ذلك أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة مراتب : منشور يدخل فى قدرة الخلق ، وشعر هو أعلى منه يقدر عليه فريق ويعجز عنه فريق ، وقرآن هو أعلى من جميعها ، وأفضل من سائرهما ، تجاوز رتبة النوعين ، فخرج عن قدرة الفريقين .

وأخر وجوه الإعجاز - وهى من وجهة نظرنا أكثر مما ذكره الماوردى - هو عجز الأمم عن معارضته ، وقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم تخرجهم أنفة التحدى ، وصبروا على نغص العجز مع شدة حميتهم وقوة أنفتهم ، وقد سفه أحلامهم ، وسبب أصنامهم ، ولو وجدوا إلى المعارضة سبيلا لعارضوه ، ولما عدلوا عنه إلى بذل نفوسهم فى قتاله ، وسفك دمائهم فى محاربتة .

على أنه من قبيل الضحك والسخرية أن بعض العرب الضالين أحسنوا الظن بأنفسهم - وأساءوا الظن بالناس - فسولت لهم أنفسهم أن يعارضوا القرآن ، فجاءت معارضتهم مسخاً مضحكا يدعو إلى السخرية والاستخفاف . من ذلك ما حكاه ابن قتيبة عن مسيلمة الكذاب أنه قال فى معارضة القرآن الكريم : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشراب تمنعين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون (*) .

فلما سمع هذا أبو بكر - رضى الله عنه - قال : إن هذا الكلام لم يخرج من إله .

وحكى عنه أيضا أنه قال : ألم تر كيف فعل ربك بالحلبى ، أخرج من بطنها نسمة تسعى ، من بين شراسيف (١) وحشى .

(*) لمزيد من هذا السخف يراجع الباقلانى . ص : ١٥٦ - ١٥٨ .
(١) الشراسيف : جمع شرسوف ، وهو طرف الضلع المشرف على البطن .

وحكى عن آخر قوله : الفيل ما الفيل ، له ذنب وثيل (١) ، ومشفر (٢) طويل ، فإن ذلك من خلق ربنا لقليل .

وحكى الحكم عن عكرمة أن النضر بن الحارث - وكان من فصحاء قريش - عارض القرآن فقال : والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، فاللاقيات لقيماً .

وقال آخر : قد أفلح مَنْ هَيَّنَمَ (٣) في صلاته ، وأطعم المسكين من مِخْلَاتِهِ ، وأخرج الواجب من زكاته .

وقال آخر في معارضة سورة النجم : والنجم إذا سما ، والبحر إذا طما ، ما زاع منذركم وما طغى ، وما كذب بها وغوى ، فيما نطق به وروى . فأنزل الله تعالاً ، في ذلك : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾^٤ إنه لا يختلف اثنان - ولو كانا غير مسلمين - في أن هذه المعارضات إنما هي ضرب من هذر القول ونمط من سخيف الكلام ، ومن ثم فإن أحداً لم يحفل بها ، وإذا ذكرت فإنها تذكر على سبيل السخرية والمفاكهة ، وليس على سبيل الجد ونافع القول .

الباقلاني وإعجاز القرآن والفرق بينه وبين كلام الرسول :

إن المتحدث عن الباقلاني ومذهبه في إعجاز القرآن يجدر به أن يشير إلى منهج سابق عليه بفترة زمنية قصيرة هو منهج أبي سليمان الخطابي البستي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (توفى الباقلاني سنة ٤٠٣ هـ) ذلك أن الخطابي في كتابه (إعجاز القرآن) سلك مسالك تختلف من مسالك سابقه أبي الحسن الرماني المعتزلي المتوفى ٣٨٤ هـ وعن نهج لاحقه أبي الحسن الماوردي ؛ لأن كلا من الرماني والماوردي ذهب إلى أن «الصرفة» واحدة من أسباب إعجاز القرآن ، على الرغم من أن الرماني معتزلي ، والماوردي شافعي من أهل السنة .

(١) وثيل : ليف .

(٢) مشفر : شفة .

(٣) هيئم : تلا بصوت منخفض .

لقد أنكر الخطابي « الصرفة » مستشهدا بقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) وهو في ذلك متفق مع معاصره الباقلاني في إنكار الصرفة واستبعادها . ويمكن ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم عند الخطابي في عجالة سريعة ندلف بعدها إلى الباقلاني .

إعجاز القرآن عند الخطابي :

ذكر الخطابي أن دقيق النظر ، وشاهد العبر ؛ قد دلاه على ما يبين به القرآن سائر الكلام ؛ وأن العلة في ذلك : « أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية . فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز المطلق الرسل . وهذه أقسام الكلام الفاضل . فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعدوبة . وهما على الانفراد في نوعتهما كالمضادين ؛ لأن العدوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام يعالجان نوعاً من الوعورة . فكان اجتماع الأمرين في نظمه - مع نُبوِّ كل واحد منهما عن الآخر - فضيلة خصَّ بها القرآن » .

ثم قال : « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله ؛ لأمر :

منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية ، وبأوضاعها التى هى ظروف المعانى ، والحوامل لها . ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها ، إلى أن

(١) الإسراء ، الآية : ٨٨ .

يأتوا بكلام مثله . وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى قائم به ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ؛ ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلوؤماً وتشاكلاً من نظمه . وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ؛ فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه ، فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ، الذى أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً .

فتفهّم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعانى : من توحيد له - عزت قدرته - وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته : من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها . واضعاً كل شىء منها موضع الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه ؛ مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ؛ منبئاً عن الكوائن المستقبلية فى الأعصار الباقية من الزمان ؛ جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباءً عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشنتاتها حتى تنتظم وتنسق - أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم : فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله .

وأنى لهم ذلك وأمر معاناة المعانى التى تحملها الألفاظ ، شديد بالغ الشدة ؛ لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام ، وبنات الأفكار .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر ؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى ، وبه يتصل أخذ الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ؛ فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان .

ثم ذكر أقوال المعاندين للقرآن ، لما عجزوا عن معارضته ؛ وقال : « إن عمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة . ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة والحمد والشكر . . والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك ؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تميز بها عن صاحبيتها في بعض معانيها ، وإن كانا قد يشتركان في بعضها » . ثم مضى يبين الفروق بين معانى الكلمات التي ذكرها ، وأتبعها بطائفة الاعتراضات التي وجهت إلى القرآن ، أو التي يمكن أن توجه إليه ؛ كتأليف معظم كلامه من ألفاظ مبتدلة في مخاطبات العرب ، مستعملة في محاوراتهم ؛ وقلة حظه من الغريب المشكل ، بالإضافة إلى واضحته الكثير ؛ وقلة عدد الفِقر والغُرر من ألفاظه ، بالقياس إلى مبادئه ومراسيله . والقول بأن كثيراً من العبارات الواقعة في القرآن ، لم تقع في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، وأنه قد عرض فيه سوء التأليف من نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به ، وإدخاله بين الكلامين ما ليس من جنسها ، مع ما فيه من الحذف والاختصار ، ومضاعفة التكرار ؛ وغير ذلك مما يشكل معه الكلام ، ويستغلق معناه ، ويخرج به عن الفصاحة العالية والبلاغة السامية .

ثم كَرَّرَ على تلك الاعتراضات فنقضها ، وفصّل القول في تأويل الآيات الكثيرة التي أوردها . وبين أسرار بلاغتها تبيناً ترتاح إليه القلوب ، وتطمئن له العقول . ثم قال : « وفي إعجاز القرآن وجه آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم . وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه . تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ،

وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود وتزعج له القلوب . يحول بين النفس وبين مضممراتها وعقائدها الراسخة فيها . فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها ، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالته ويدخلوا في دينه ؛ وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً .

عود إلى الباقلانى :

فإذا ما عاد الحديث بنا إلى الباقلانى ووجوه إعجاز القرآن التى أدارها ، فإن المؤلف يعتمد البلاغة والفصاحة وإتقانها والتخصص فيها الوسيلة الناجعة للتوصل إلى الإيمان بإعجاز القرآن ، فيقول :

إنه لا يتيها لمن كان لسانه غير العربية ، من العجم والترك وغيرهم ، أن يعرفوا إعجاز القرآن إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، فإذا عرفوا هذا - بأن علموا أنهم قد نُحِدُوا إلى أن يأتوا بمثله ، وقرعوا على ترك الإتيان بمثله ، ولم يأتوا به - تبينوا أنهم عاجزون عنه . وإذا عجز أهل ذلك اللسان ، فهم عنه أعجز .

وكذلك نقول : إن من كان من أهل اللسان العربى - إلا أنه ليس يبلغ فى الفصاحة الحد الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ، ووجوه تصرف اللغة ، وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره - فهو كالأعجمى : فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن ، إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسى الذى بدأنا بذكره ، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء .

فأما من كان تناهى فى معرفة اللسان العربى ، ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذى ينتهى إليه وسع المتكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج عن الوسع ، ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه إعجاز القرآن ، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر ، وكما يميز بين الشعر الجيد والردىء ، والفصيح والبديع ، والنادر والبارع والغريب .

وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم ، فيعرف الصَّيرْفِيُّ من النقد ما يخفى على غيره ، ويعرف البزَّازُ من قيمة الثوب وجودته وردائه ما يخفى على غيره ، وإن كان يَبْقَى مع معرفة هذا الشأن أمرٌ آخر وربما اختلفوا فيه :

لأنَّ من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين ، والقول الرِّصين .

ومنهم من يختار الكلام الذى يَرُوق ماؤُهُ ، وتَرُوع بهجته ورؤاؤه ، ويسلس مأخذه ، ويسلم وجهه ومنفذه ، ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى (١).

وعلى رسله يمضى الباقلانى مكملا نظريته فى أن نظم القرآن هو الوجه الأكثر وضوحا فى الإعجاز فيقول :

فأما شأؤُ نظم القرآن ، فليس له مثال يُحتذى عليه ولا إمام يُقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً ، كما يتفق للشاعر البيت النادر ، والكلمة الشارِدة ، والمعنى الفذِّ الغريب ، والشىء القليل العجيب ، وكما يلحق من كلامه بالوحشيات ، ويضاف من قوله إلى الأُوَيدِ ، لأن ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع ، فإننا يتفق للشاعر فى لمع من شعره ، وللكاتب فى قليل من رسائله ، وللخطيب فى يسير من خطبه . ولو كان كل شعره نادراً ، ومثلاً سائراً ، ومعنى بديعاً ، ولفظاً رشيقاً ، وكلُّ كلامه مملوءاً من رُوْنَقه ومائه ، ومحلىً بهجته وحسن رؤائه ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين ، والمتردد بين الطرفين ، ولا البارد المستقلُّ ، والغثُّ المستنكر ، لم يَبين الإعجازُ فى الكلام ، ولم يظهر التفاوت العجيب بين النظام والنظام .

وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل ، ومُبهمٌ قد يحتاج فى بعضه إلى تفسير .

ولكن قد يمكن أن يقال فى البديع الذى حكيناه وأضفناه إليهم : إن ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنسٌ من أجناس البلاغة ، وإنه لا ينفك القرآن عن فنٍّ من فنون بلاغاتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحتهم ، وإذا أوردَ هذا المورد ، ووُضِعَ هذا الموضع كان جديراً .

(١) إعجاز القرآن ، ص : ١١٣ ، ١١٤ .

وإنما لم نطلق القول إطلاقاً ؛ لأننا لا نجعل الإعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصة ، ووفقاً عليها ، ومضافاً إليها ، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة ، آخذة بحظها في الحسن والبهجة ، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المُستَبَشع ، والتعمل المُستَشَنع (١).

إن الباقلانى يتوسع في ضرب الأمثلة من القرآن الكريم ، مثل بديع نظمه وعجيب تأليفه وتناهيه في البلاغة ، وكون كلام العرب غير مشتمل على فصاحة القرآن وغرابته ولطيف معانيه ، وعدم التفاوت والتباين في عجيب نظم القرآن وبديع تأليفه ، وكون نظم القرآن خارجاً عن عادة كلام الثقليين ، واشتمال القرآن على جميع أنواع الخطاب عند العرب مع تجاوزه حدود المعتاد بينهم ، وتضمن القرآن ما يمتنع على البشر من المعانى في أصل وضع الأحكام والقواعد ، والاحتجاج في العقائد ، والرد على المعاند ، وسهولة سبل القرآن ، وخروجه عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وتبعده عن التصنع والتكلف ، وقربه إلى الفهم .

وقد عمد الباقلانى إلى ضرب الأمثلة من الكتاب العزيز ، ومن كلام العرب شعراً ونثراً لشرح وجوه إعجاز القرآن ، عرض الباقلانى كل ذلك في إطالة وتفصيل ، مع الرد على المعارضين ومناقشتهم في توسع وعمق .

يخلص الباقلانى بعد ذلك إلى القول مخاطباً قارئ كلامه : (٢)

وإنما أطلت عليك ، ووضعت جميعه بين يديك ، لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله . وغامضه وجليله . وقريبه وبعيده ، ومُعْجَجه ومستقيمته ، فكيف يخفى عليهم الجنس الذى هو بين الناس مُتداول . وهو قريب مُتناول ، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم . ويبعد عما هو في عرفهم . ويفوت مواقع قُدْرهم ؟ .

وإذا اشتبه ذلك فإنما يشتبه على ناقص في الصنعة ، أو قاصر عن معرفة طرق

(١) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٢) إعجاز القرآن ص : ١٢٤ .

الكلام الذى يتصرفون فيه ويُديرونه بينهم ولا يتجاوزونه ؛ فلكلامهم سُبلٌ مضبوطة ، وطرقٌ معروفةٌ محصورة .

وهذا كما يشتهه على من يدعى الشعر - من أهل زماننا - والعلم بهذا الشأن ، فيدعى أنه أشعر من البُخترى . ويتوهم أنه أدق مسلکًا من أبى نُؤاس ، وأحسن طريقًا من مُسلم ! وأنت تعلم أنهما متباعدان . وتحقق أنهما لا يجتمعان ولعل أحدهما إنما يلحظ غبار صاحبه ، ويطالع ضياءَ نجمه ، ويراعى خُفوق جناحه وهو راكدٌ في موضعه ، ولا يَضُرُّ البحتريُّ ظنُّه ، ولا يُلحِقُه بشأوه وهمُّه .

فإن اشتبه على متأدب أو مُتَشاعر أو ناشئ أو مُرمد ، فصاححة القرآن ، وموقع بلاغته ، وعجيب براعته ، فما عليك منه ؛ إنما يخبر عن نقصه ، ويدل على عجزه ، ويُبين عن جهله ، ويُصرح بسخافة فهمه . وركاكة عقله .

وإنما قدمنا ما قدمناه في هذا الفصل ، لتعرف أن ما ادَّعينا من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه ، أمر لا يجوز غيره ، ولا يحتمل سواه ، ولا يشتهه على ذى بصيرة . ولا يَحِيلُ عند أخى معرفة ، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية ، وبين المخضرمين ، وبين المحدثين ، ويميز بين من يجرى على شاكلة طبعه وغريزة نفسه ، أو بين من يشتغل بالتكلف والتصنع ، وبين من يصير التكلّف له كالمطبوع . وبين من كان مطبوعه كالمتمعمل المصنوع .

هيئات هيئات !! هذا أمر - وإن دَقَّ - فله قوم يقتلونهم علما ، وأهل يحيطون به فهما ، ويعرفونه إليك إن شئت ، ويصورونه لديك إن أردت ، ويجلونه على خواطرك إن أحببت . ويعرفونه لفطنتك إن حاولت ، وقد قال القائل :

للحرب والضرب أقوامٌ لها خلقوا وللدواوين كتابٌ وحسابٌ

ولكل عمل رجال ، ولكل صنعة ناس ، وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ، ولكن قد قل من يميز في هذا الفن بخاصة . وذهب من يُحصّل في هذا الشأن ، إلا قليلاً !

فإن كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات ،
والتحقق بمجاري البلاغات ، فإنما يكفيك التأمل ، ويغنيك التصور .

وإن كنت في الصنعة مُرمداً ، وفي المعرفة بها متوسطاً ، فلا بد لك من التقليد ، ولا
غنى بك عن التسليم ، إن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها ، والشاى فيها
كالباى منها .

فإن أراد أن يقرب عليه أمراً ، ونفسح له طريقاً ، وفتح له باباً - ليعرف به إعجاز
القرآن - فإنما نضع بين يديه الأمثلة ، ونعرض عليه الأساليب ، ونصور له صور كل قبيل
من النظم والنثر . ونحضره من كل فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمله ، ويراعيه حق
رعايته فيستدل استدلال العالم ، ويستدرك استدراك الناقد ، ويقع له الفرق بين الكلام
الصادر عن الربوبية ، الطالع عن الإلهية ، الجامع بين الحكم والحكم ، والإخبار عن
الغيوب والغائبات ؛ والمتضمن لمصالح الدنيا والدين ، والمستوعب لجليّة اليقين ؛
والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالألفاظ الشريفة ؛ على تفننها
وتصريفها . ونعميد إلى شىء من الشعر المجمع عليه ، فنبين وجه النقص فيه ، ونذل
على انحطاط رتبته ، ووقوع أبواب الخلل فيه ، حتى إذا تأمل ذلك ، وتأمل ما نذكره
من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته ، وعجيب براعته انكشف له واتضح ، وثبت ما
وصفناه لديه ووضح ، وليعرف حدود « البلاغة » ، ومواقع البيان « والبراعة » . ووجه
التقدم في « الفصاحة » .

وبعد أن يعرض الباقلانى تعريف البلاغة عند عدد من الشعوب ذات الماضى
الحضارى مثل الفرس واليونان والرومان والهنود من نقل عن الجاحظ في البيان والتبيين -
ينتهى إلى هذا القول الذى أوجز فيه الفرق بين نظم القرآن وكلام الرسول : (١)

« والذى يصور عندك ما ضمناً تصويره ، ويحصل لديك معرفته إذا كنت في صنعة
الأدب متوسطاً ، وفي علم العربية متبيهاً أن تنظر أولاً في نظم القرآن ، ثم في شىء من
كلام النبى ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين ، والفرق بين الكلامين .

(١) المصدر السابق ص : ١٢٧ ، ١٢٨ .

فإن تبين لك الفصل ، ووقعت على جليّة الأمر وحقيقة الفرق ، فقد أدركت الغرض ، وصادفت المقصد .

وإن لم تفهم الفرق ، ولم تقع على الفصل فلا بد لك من التقليد ، وعلمت أنك من جملة العامة ، وأن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان .

ثم يعرض الباقلاني بعد ذلك على القارئ سبع خطب للرسول ﷺ في مناسبات مختلفة ، وكتابين له ﷺ أولهما إلى كسرى ، وثانيهما إلى النجاشي ، كما يعرض نسخة لعهد الصلح مع قريش عام الحديبية كمنادج للفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب النبي .

الفرق بين أسلوب القرآن وكلام النبي :

ويختتم الباقلاني حكمه بعد ذلك في الفرق بين أسلوب القرآن الكريم وكلام النبي ﷺ قائلا : « ولا أطول عليك ، وأقتصر على ما ألقىته إليك ، فإن كان لك في الصنعة حظ ، أو كان لك في هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب في الأدب بسهم ، أو في العربية بقسط ، وإن قل ذلك السهم ، أو نقص ذلك النصيب ، فما أحسب أنه يشبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما سلف ذكره من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله ؛ وما عساك تسمعه من كلامه ؛ ويتساقط إليك من ألفاظه ؛ وأقدر أنك ترى بين الكلامين بؤنا بعيدا ، وأمدا مديدا ، وميذانا واسعا ، ومكانا شاسعا .

* * *

فإن قلت : لعله أن يكون تعمّل للقرآن ، وتصنع لنظمه ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبئه فتبّت في نفسك ، وارجع إلى عقلك ، واجمع لبك ، وتيقن أن الخطب يحتشد لها في المواقف العظام ، والمحافل الكبار ، والمواسم الضخام ؛ ولا يتجوّز فيها ، ولا يستهان بها . والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه (١) ، ويسمر لها عن جدّ واجتهاد ؛ فكيف يقع بها الإخلال ؟ وكيف تعرض للتفريط ؟ فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهي ؛ وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي .

(١) يقال : جمع فلان لفلان جراميزه : إذا استعد له وعزم على قصده ، وجراميز الرجل : جسده وأعضاؤه .

فإذا أردت زيادة في التبيين وتقدماً في التعرف ، وإشرافاً على الجليّة ، وفوزاً بمحكّم القضية ، فتأمل - هداك الله - خطب الصحابة والبلغاء ، لتعلم أنّ نسجها ونسج خطب النبي ﷺ واحد ، وسببها سبب غير مختلف ؛ وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين ، وبين شعر الشعارين ، وذلك أمر له مقدارٌ معروفٌ ، وحدٌ - ينتهى إليه - مضبوطٌ .

فإذا عرفت أنّ جميع كلام الآدمي منهاجٌ ، وجملته طريق ، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت ، نظرت إلى نظم القرآن أخرى ، وتأملته مرة ثانية ، تراعى بُعد موقعه ، وعالي محله وموضعه ؛ وحكمت بواجب من اليقين ، وتلجج (١) الصّدر بأصل الدين» (٢) .

(١) تَلَجَجَتْ نَفْسِي بِالشَّيْءِ ثَلَجًا : اشتفت به واطمأنت إليه ، وتلجج قلبه : تيقن .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ، ص : ١٣٦ ، ١٣٧ .



الفصل الثالث

نماذج تلقائية من آيات الكتاب العزيز
وأخرى من حديث رسول الله

نماذج من آيات الكتاب العزيز وأخرى من حديث رسول الله

يقول الخطابي في كتابه « إعجاز القرآن » بعد أن ذكر وجوها عدة للإعجاز : « وفي إعجاز القرآن وجه آخر ، وذلك صنيعة بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ، وتغشاها من الخوف والفرق ، ما تقشعرّ منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم عدوّ للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالته ويدخلوا في دينه » .

ويقول الباقلاني من جملة كلام أسلفنا ذكره مخاطباً من يرقب إعجاز القرآن مانصه : « والذي يصور عندك ما ضمناً تصويره ، ويحصل لديك معرفته - إذا كنت في صنعة الأدب متوسطا وفي علم العربية متبيناً - أن تنظر أولا في نظم القرآن ، ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين ، والفرق بين الكلامين » .

إن فحوى كلام كل من الإمامين الجليلين : الخطابي والباقلاني أن معرفة الفرق بين كلام الله وكلام النبي يكمن في تباين أسلوبهما ، وتفاضل نظمهما ، وكل من التباين والتفاضل تدركه الفطرة السليمة ، والفتنة القويمة ، والعلم بأساليب العربية ، وهذا المنهج المعيارى هو ما نميل إليه ونأخذ به ، ولذلك فقد وقع بصرنا على عدد من آيات الكتاب العزيز بشكل عشوائي من غير انتقاء وبدون اختيار ، والشئ ذاته جرى على

حديث رسول الله ﷺ وبعض أقواله بدون انتقاء أو اختيار ، فنرصد الآيات والأقوال النبوية ، وسوف تكون النفس - أى نفس عاقلة محايدة - مرتاحة إلى أن كلام الله فوق كلام البشر جميعا ، وأن كلام النبي ﷺ على فصاحته وجماله وجلاله - هو دون كلام الله وفوق كلام البشر .

الآيات القرآنية :

قال - عز وجل - : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَرَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .
وقال - عز وجل - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٢) .

وقال - عز وجل - : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَمْتَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ ﴾ * قُلْ مَنْ

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٩ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات : ١٢ - ١٤ .

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلُوبٌ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفَعَا
وَلَا ضَرًّا قُلِ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ
جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ
الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا
رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ
أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * * أَفَنْ يَعْلَمُ أَمَّا
أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أُولَئِكَ الْآلِيبُ * الَّذِينَ يُؤْفُونَ
بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقِضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ
أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ
عُقْبَى الدَّارِ ﴿١﴾

وقال - عز وجل - : ﴿ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ

(١) سورة الرعد ، الآيات من : ١٢ - ٢٤ .

نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ
 مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
 أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا * (١)

وقال - عز وجل - : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
 لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا
 دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ
 فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *
 الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
 بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ
 كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ
 مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
 نَكِيرٌ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
 عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُهَا مَبْطُلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ
 لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ
 تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ
 وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ

(١) الكهف ، الآيات : ٤٧ - ٤٩ .

أَمَلَيْتُمْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ * قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا
 أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
 كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١﴾ .
 وقال - عز وجل - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
 أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ *
 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
 مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً
 لَّنْ تَبُورَ * لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ
 شَكُورٌ * وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا
 مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ
 يُآذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا
 دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٢﴾ .
 وقال - عز وجل - : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) سورة الحج ، الآيات : ٣٩ - ٥١ .

(٢) فاطر ، الآيات ٢٧ - ٣٥ .

وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

وقال - عز وجل - : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

لآيَاتٍ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ

فَمَا نَارُ رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ *

رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

* فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثِيَ

بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي

وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا لَا أَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخُلُهُمْ جَهَنَّمَ بَلْ أَجْتِدُ بَعْضَ

مِنْ تَحْتِهَا أَالْتَهَرُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٢﴾

وقال - عز وجل - : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ كَوْكَبٍ فِيهَا

مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ

زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ

(١) البقرة، الآية : ١٦٤ .

(٢) آل عمران ، الآيات : ١٩٠ - ١٩٥ .

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
 * فِي يُسُوتِ أذنَ اللَّهِ أَن تُرْفَعَ وَيَذْكَرُ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ
 وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَحْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
 الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ
 مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يُزِقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١﴾ .
 وقال - عز وجل - : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۗ
 إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ۗ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ
 أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي
 مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ
 الْبَاطِلُ ۗ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ رَهُوقًا * وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ أَن مَآهُوَ شِفَاءٌ ۗ وَرَحْمَةٌ
 لِّلْمُؤْمِنِينَ ۗ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا * وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ
 وَنَسَىٰ جَنَانَهُ ۗ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَّأُ ۗ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ۗ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ
 بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٢﴾ .

هذه آيات من القرآن الكريم تنسرب من مسالك السمع إلى مغالق القلوب فتفتحها
 وتقول للنفس السوية : إننى كلام الله المعجز الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا
 من خلفه .

الرسول يصف كلام الله :

إن الرسول ﷺ يصف كلام الله فيقول : « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل

(١) سورة النور ، الآيات : ٣٥ - ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات ٧٨ - ٨٤ .

الله على خلقه « (١) .

وإن كلام الله هو المخرج من كل فتنة ، عن علي - رضی الله عنه - قال : قيل :
يا رسول الله إن أمتك ستفتن من بعدك ، فسأل أو سئل : ما المخرج من ذلك ؟ فقال
« بكتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من
حكيم حميد ، من ابتغى العلم فى غيره أضلّه الله ، ومن ولى هذا من جبار فحكم بغيره
قصمه الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المين ، والصرط المستقيم ، فيه خبر من
قبلكم ، وتبيان من بعدكم ، وهو فصل ليس بالهزل ، وهو الذى لما سمعته الجنّ قالوا
﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ (٢) . لا يَخْلُقُ عَلَى طَوْلِ
الرَّدِّ ، ولا تنقضى عبره ، ولا تفنى عجائبه « (٣) .

نماذج من كلام رسول الله :

إن كلام رسول الله ﷺ لا يشاكل فى إيجازه ، ولا يحاكي فى فصاحته ، ولا يماثل فى
إطنابه ، ولا يبارى فى بلاغته ، وكل كلام يجرى على لسانه الشريف يبرز بلاغة البلغاء ،
ويقصر دونه فصاحة الأبياء .

فمن كلامه الذى لا يشاكل فى إيجازه قوله ﷺ : « الناس بزمامهم أشبهه » وقوله : « مَا
هَلَكَ امْرَأٌ عَرَفَ قَدْرَهُ » وقوله : « لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَا فَنْتُمْ » وقوله : « السعيد من وَعِظَ
بغيره » . وقوله : « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ » وقوله : « العقل ألوف مألوف »
وقوله : « العِدَّةُ عطية » وقوله : « اللهم إني أعودُ بك من طَمَعٍ يهدى إلى طَبَعٍ » وقوله :
« أفضل الصدقة جهدُ المقلِّ » وقوله : « اليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى » وقوله : « تَرَكُ
الشَّرَّ صَدَقَةٌ » وقوله : « الخَيْرُ كثيرٌ وقليلٌ فَأَعْلَهُ » وقوله : « الناسُ كمعادن الذهب »
وقوله : « نَزَلَتِ المعونةُ على قَدْرِ المؤونة » وقوله : « إذا أراد اللهُ بِعَبْدٍ خيراً جعل له واعظاً

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب ، والدارمى فى سننه ٢ / ٤٤١ دمشق . وابن حجر فى فتح البارى ٩ /

(٢) سورة الجن ، من الآيتين : ١ ، ٢ .

(٣) الباقلانى ، ص : ١٨٥ عن القاضى ابن قتيبة فى عيون الأخبار ٢ / ٣١٣ .

من نَفْسِهِ « وقوله : « أَدُّ الأمانةَ إلى من ائتمنك ولا تحنَّ منْ خانك » وقوله : « المؤمنُ غرٌّ^(١) كريم ، والفاجرُ حَبٌّ^(٢) لثيم » وقوله : « الدنيا سجنُ المؤمنِ وبلاؤه وَجَنَّةُ الكافرِ ورخاؤه » .

إن هذه الأقوال الشريفة لسموِّ فصاحتها ووفرة حلاوتها جرت مجرى الأمثال السائرة ورددها العلماء ، وحفظها الحكماء ، وتخلق بها الكبراء .

كلام الرسول الذي لا يشاكل فصاحة :

ومن كلامه الذي لا يشاكل في فصاحته قوله ﷺ : « إياكم والمشاورة فإنها تميت الغرة وتحيي الفرة » وقوله : « لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنياً والصدقة مغرماً » وقوله : « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم » وقوله : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع » وقوله : « هل يطمع أحدكم إلا غنىً مطغياً أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مُفسداً أو هرماً مفنداً^(٣) أو الدجال فهو شرٌّ غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أذهى وأمر » وقوله : « ثلاثٌ منجيات وثلاثٌ مهلكات ، فأما المنجياتُ فخشيةُ الله تعالى في السرِّ والعلانية ، والاقتصادُ في الغنى والفقر ، والحكمُ بالعدل في الرضا والغضب ، وأما المهلكات فشحُّ مطاع ، وهوى متَّبِعٌ ، وإعجابُ المرء بنفسه » وقوله : « وتقبلوا لي بست أتقبل لكم بالجنة ، قالوا : وما هي يارسول الله ؟ قال : إذا حدَّثَ أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعدَ فلا يُخلف ، وإذا ائتمنَ فلا يخن ، غَضُّوا أبصاركم ، واحفظوا فرُوجكم ، وكفُّوا أيديكم » وقوله في بعض خطبه : « ألا إن الأيام تُطوى ، والأعمارُ تَفنى ، والأبدانُ في الثرى تَبلى ، وإن الليل والنهارَ يتراكضان تراكُض البريد ، يُقَرَّبان كلَّ بعيد ، ويُخَلِّقان كلَّ جديد ، وفي ذلك - عباد الله - ما ألهى عن الشهوات ، ورغَّب في الباقيات الصالحات » .

وقوله في بعض خطبه وقد خاف من أصحابه فترة :

(١) الغر : الحسن الطوية فيه براءة .

(٢) حَبٌّ : الخداع .

(٣) مفنداً : مخرفاً مفقداً للعقل .

« أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا كتب ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ ، وكأنَّ الذي يُشَبِّعُ من الأموات سفرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَانَهُمْ ، ونَأْكُلُ تُرَائِهِمْ كأنَّا نخلدون بعدهم ، قد نسينا كلَّ واعظة ، وأمناً كلَّ جائحة (١) ، طُوبَى (٢) لمن شغلته آخرته عن دنياه ، طُوبَى لمن شغله عيُّه عن عيوب الناس . »

وقوله لأصحابه : « خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . »

يقول أبو الحسن الماوردي : إن كلامه ﷺ جامع لشروط البلاغة ، ومعرب عن نهج الفصاحة ، ولو مُرِّج بغيره لتبين بأسلوبه ، ولظهر فيه - أى في المزج - آثارُ التنافر ، فلم يلتبس حقُّه من باطله ، وكَبَانَ صِدْقُهُ من كذبه .

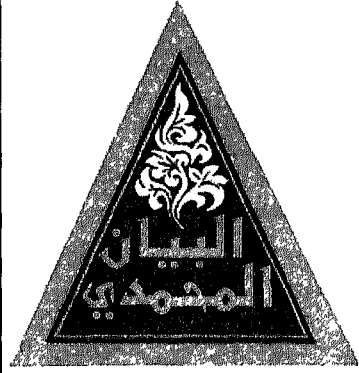
ويمضى الماوردي قائلًا : هذا ، ولم يكن - أى : الرسول ﷺ متعاطياً للبلاغة ، ولا مخالطاً لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء ، وإنما هو من غرائز فِطْرَتِهِ ، وبداية جِئَلَتِهِ ، وما ذاك إلا لغاية تُرَادُ ، وحادثة تُشَاد . فإن قيل : إذا كان كلامه مخالفاً لكلام غيره في البلاغة والفصاحة حتى لم يكن فيه مساجلا ، أيكون له معجزا ، ولا يكون مع عدم التحدى معجزا (٣) .

وقصارى القول في هذا الفصل أن الفرق كبير ، والبون شاسع بين كلام الله - عز وجل - وبين كلام رسوله ﷺ مثلما أن الفرق كبير والتميز شديد الوضوح بين كلام رسول الله ﷺ وبين كلام غيره من فصحاء البشر ، ونعنى بهم هنا فصحاء العرب وبلغاءهم سواء أكان ذلك في عصره ﷺ أو قبله أو بعده .

(١) جائحة : يعنى مهلكة .

(٢) الطوبى : تعنى الغبطة والسعادة والخير .

(٣) أعلام النبوة ص : ٢٦٨ .



الفصل الرابع

التناول القرآني
والتناول النبوي لقضية بذاتها

التناول القرآنى والتناول النبوى لقضية بذاتها

إن كلاً من الكتاب العزيز والسنة الشريفة يشكلان المصدر الإلهى للتشريع الإسلامى ، ذلك أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ؛ ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل : السنة مبينة للكتاب ، يدخل فى هذا المعنى أن كثيرا من الأحكام تأتى فى الكتاب العزيز مجملة ثم تضطلع السنة النبوية بتفصيلها ، كما هو الأمر فى الصلاة ، فالقرآن الكريم يشتمل على الأمر بإقامة الصلاة ، ولكن السنة النبوية الشريفة تضطلع بتفصيلاتها من نية وتكبيرات وقراءة وركوع وسجود وتشهد وغير ذلك ، والرسول ﷺ يقول : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وكذلك الشأن فى بقية التكاليف والأحكام .

وهكذا يكون النص القرآنى والحديث النبوى كثيرا ما يشتركان فى تناول الموضوع الواحد ، وهنا يبدو الفرق واضحا بين الأسلوب القرآنى الإلهى المعجز ، والأسلوب النبوى البشرى الذى هو فوق أساليب البشر ودون أسلوب العزيز الحميد .

ولمزيد من البيان والإيضاح بين أسلوب القرآن وأسلوب النبى سوف نعرض لبعض الموضوعات التى تناوها القرآن الكريم تكليفا أو توجيها أو تقريرا ، وتناولها كذلك الحديث النبوى الشريف ، وقد سبق القول أن السنة مبينة للكتاب ومكملة لأحكامه .

رحمة الله :

الله - سبحانه - هو أرحم الراحمين ، وهو - جلت قدرته - يضمن كتابه العزيز تأكيده لرحمته فى العديد من السور والكثير من الآيات .

قال - تعالى - : ﴿ قُلْ يَعْبادِى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن

رَحْمَةً أَللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ .

إنها تجليات إلهية سامية ، تدخل إلى النفس السكينة ، وتغمر القلوب بالطمأنينة ، وتبعد عنها أسباب اليأس ودوافع القنوط ، مما يهون مواجهة الموت ويحبب لقاء الله ؛ والأسلوب الرباني في الآية يفرض التسليم بالكمال ،- والتفرد بالجلال ، لهذا الكلام الذى تحدى الإنس والجن جميعا أن يأتوا بسورة من مثله .

مثال آخر من آيات الرحمة استهلكت على لسان سيدنا موسى ، وانتهت بتفضل إلهى بالرحمة الواسعة للمؤمنين المتقين .

يقول الرحمن الرحيم - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا لِفِتْنَتِكَ تُوْضَلُ بِهَا مِنْ تَشَاءُ وَتَهْدَى مِنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ .

لننظر بعد ذلك التناول المحمدي لرحمة الله ، وكيف أن الرسول ﷺ أكدها للناس وحببها إليهم وثبتها في قلوبهم ، ولكن بأسلوبه البشرى السامى فى نطاق البشرية ، الرفيع فى نطاق الإنسانية .

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قُدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتُرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا : لَا وَاللَّهِ ، فَقَالَ : اللَّهُ

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) الأعراف : ١٥٥ ، ١٥٦ .

أرحم بعباده من هذه بولدها» (١).

ثمت أحاديث نبوية شريفة تناول فيها رسول الله ﷺ برحمة الله ، بشرى للمؤمنين ، وتهيئتا لقلوبهم ، وإدخالاً لمزيد من الإيمان في قلوبهم برحمة الله الذى وسعت رحمته كل شىء ، بنفس الأسلوب المحمدى الإنسانى الرفيع الذى يفوق فصاحة الفصحاء ، ويرجح بيان الأبياء ، ويدفع بلاغة الإنس والجن ، ولكنه يبقى دون كلام الله باليون الشاسع الذى يتوضح عند الاستقراء ، ويثبت عند الاقتضاء .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » ، وفى رواية : «سبقت غضبى» (٢). متفق عليه

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه » (٣). وللحديث روايات أخرى .

وعن سلمان الفارسى قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » (٤). رواه مسلم
وعن أبى موسى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (٥). رواه مسلم

الجهاد فى سبيل الله :

العقيدة الإسلامية قامت بالدعوة إلى الله على بصيرة ، قام بها رسول الله - صلى الله

(١) متفق عليه ، أورده النووى فى رياض الصالحين ، باب الرجاء .

(٢) هذه الأحاديث رواها الحافظ النووى مخرجاً إياها فى رياض الصالحين ، صفحات : ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٧ ، ١٩١ طباعة عبد الرحمن محمد .

عليه وسلم - والرعييل الأول من صحابته من المهاجرين والأنصار ، وأما تثبيت الدعوة ودعم بنائها ، وتوطيد أركانها ، وتوسيع مداها ، والإبقاء على كيانها ، والحفاظ على المؤمنين بها حتى تستمر عبادة الله في الأرض ، فكان ذلك جميعا بأداء فريضة الجهاد في سبيل الله .

لذلك تعددت آيات الجهاد في الكتاب العزيز ، وتباينت أساليبها ترغيبا وترهيبا، ووعداً ووعيدا، وتتابع آيات تفضيل المجاهدين على القاعدين في احتفال قرآني جليل .

يقول الله تعالى في الجهاد في سبيله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَحْرِقٍ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ الْإِيمِ * تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ عَلَيْهِ

(١) سورة الصف ، الآيات : ١٠ - ١٣ .

(٢) النساء ، الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ .

حَقَّافِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ
 اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِيكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾ .
 وقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
 شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

هذه بعض آيات الجهاد في سبيل الله من كلام الله - سبحانه وتعالى - في الأسلوب
 الرباني ، وكذلك احتفل رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ، وقد كان
 هو ﷺ القائد الذي يقود المعارك ضد المشركين ، يتقدم الجيش ، وينظم الصفوف ،
 ويدعو إلى الثبات أمام العدو ، فلم يعرف هو وصحبه التقهقر أو الفرار ؛ لأن
 التكليف الإلهي يدعو إلى ذلك ، ويمده بأنواع شتى من المدد الرباني ، الذي يكون في
 أشكال مختلفة مثلما حدث في بدر وكما جرى في الخندق .

« إن الأحاديث في فضل الجهاد أكثر من أن تحصر فمن ذلك (عن) أبي هريرة -
 رضى الله عنه - قال : سئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « إِيْمَانٌ بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ . قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : حَجٌّ
 مَبْرُورٌ » متفق عليه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه - قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : « الصَّلَاةُ عَلَى وَفْتِهَا » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » . قُلْتُ :
 ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » متفق عليه .

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

وعن أبي ذر - رضی الله عنه - قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ » متفق عليه .

وعن سهل بن سعد رضی الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَمَوْضِعٌ سَوِطٍ أَحَدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَرَوْحَةٌ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ الْعَدُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » متفق عليه .

وعن سلمان رضی الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ فِيهِ أُجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنْ الْفِتَنِ » رواه مسلم .

وعن فضالة بن عبيد رضی الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُّ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيُؤْمَنُ فَتَنَةَ الْقَبْرِ » رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي هريرة - رضی الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصَدِيقًا بِرِسْلِي ، فَهُوَ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ أُزَجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِمٍ ، لَوْ أَنَّهُ لَكُنُ دَمٌ ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْرُزُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْرُزُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْرُزُ فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْرُزُ فَأُقْتَلَ » رواه مسلم وروى البخاري بعضه .

وعن أنس - رضی الله عنه - أن النبي قال : « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَحِبُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدَ ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ » وفي رواية « لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ » متفق عليه .

إن أحاديث الرسول ﷺ في الجهاد كثيرة ، وهي متنوعة الأساليب من وعد ووعد ،

وترغيب وترهيب ، والترغيب فيها هو الأكثر والأوفر ، لفضل الجهاد عند الله ، وفضل المجاهد على سائر المؤمنين .

وإن أحاديث الجهاد على سمو غاياتها ، وبلاغة كلامها ، وبعيد مقاصدها وتميزها على كلام البشر هي دون كلام الله ، فالفرق بينهما شاسع ، والبون بعيد .

اليتامى والمساكين :

لليتامى والمساكين سهم وافر من العناية في القرآن الكريم ، وإنه باستعراض آيات اليتامى والمساكين نجد أن المولى - سبحانه وتعالى - قد أوحى إلى رسوله بالآيات الخاصة بهم في مقام التكليف والتشريع ، ثم في مقام التحذير والتشدد .

ففى مقام التكليف والتشريع تأكيداً لحق اليتيم والمساكين فى الغنائم ، يقول الله -

ويذكر الله - سبحانه وتعالى - رسوله بميثاق بنى إسرائيل فى عبادة الله الواحد الأحد والإحسان بالوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين ، فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (١).

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ ﴾ (٢).

وفى تقرير الحفاظ على مال اليتيم يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ

(١) الأنفال ، الآية : ٤١ .

(٢) البقرة ، الآية : ٨٣ .

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١﴾ .

تلك كانت آيات التقرير الإلهي لحق اليتامى والمساكين في مغنم جيوش المسلمين ، وفي الميثاق الذي أخذه المولى - سبحانه - على بنى إسرائيل ، وفي التأكيد على الحفاظ على مال اليتيم حتى يبلغ أشده .

وفي تقرير القرآن الكريم للعصاة وتوبيخه لهم يجعل حيثيات توبيخهم في الإساءة إلى اليتيم وتجويع المسكين ، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ * كَلَّا بَلْ لَأَنْكُرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (٢) .

كان ذلك طرفاً من الإعجاز الرباني في السبك القرآني حول تمكين حق اليتيم في حسن المعاملة والحفاظ على ماله ، وثبیت حق المسكين في أن يطعم ويكرم ولا يجوع ولا يهان .

وإذا كانت السنة مبينة للكتاب كما سبقت الإشارة في صدر هذا الفصل ، فإن رسول الله ﷺ يسير في مضمار كتاب الله ، ويقتفى معانيه في الموضوع نفسه ، ولكن بأسلوب متغاير وتناول متفاوت ، إنه تغاير ما بين كلام الله وكلام البشر، وتفاوت ما بين أسلوب القرآن وأسلوب محمد ﷺ .

غير أن النبي ﷺ وقد استوعب التشريعات الإلهية في القرآن الكريم لحقوق اليتامى

(١) الأنعام : ١٥٢ .

(٢) سورة الفجر ، الآيات من ١٥ - ٢٠ .

والمساكين فقد عمد ﷺ إلى أن تكون أحاديثه في هذا الشأن بهدف الترغيب والتشجيع ،
فوضح لأُمَّته مكانة كافل اليتيم وثواب مطعم المسكين .

قال ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وقال بأصبعه السبابة والوسطى .
وفي رواية : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين » وأشار بأصبعيه السبابة
والوسطى . (١) حديث حسن صحيح

وكافل اليتيم هو القيم بأمره ومصالحه ، وقد يكون جداً أو عمّاً أو أخاً أو غير
ذلك .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كافل
اليتيم له أو لغيره أنا وهو في الجنة كهاتين » وأشار الراوى وهو مالك بن أنس بالسبابة
والوسطى (٢) .

وعن نفس الموقف يروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « خيرُ بيتٍ في المسلمين
بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » (٣) .

وعن المرأة الأيم التي ترملت لكى تربي ولدها قال عوف بن مالك : قال رسول الله
ﷺ : « أنا وامرأة سفعاء الخدين ، امرأة آمت من زوجها ، فصبرت على ولدها كهاتين
في الجنة » (٤) .

وفي شأن من يعول يتيماً يروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « الساعى على الأرملة
والمساكين كالمجاهد في سبيل الله الذى لا يفتر ، وكالصائم الذى لا يفطر » (٥) .

(١) الحديث ٦٠٠٥ من شرح النووي لمسلم .

(٢) رياض الصالحين ، باب ملاطفة اليتيم والبنات . قوله - صلى الله عليه وسلم - : « اليتيم له أو لغيره » معناه : قريبه
أو الأجنبي عنه .

(٣) ابن ماجه (كتاب الأدب) باب حق اليتيم ، رقم ٣٦٧٩ .

(٤) أبو داود (كتاب الأدب) باب في فضل من عال يتيماً .

(٥) البخارى (كتاب النفقات) باب في فضل النفقة على الأهل . ومسلم كتاب الزهد .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من عال جاريتين (١) حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين » وضم أصابعه .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : جاءنى مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتها ابتها ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها ، فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بهما الجنة ، أو أعتقها بهما من النار !!

هذه نماذج للفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب النبى فى موضوع اليتيم والمسكين ، ولعلنا نلاحظ قدسية أسلوب القرآن الكريم الذى هو كلام الله ، وشفافية كلام الرسول المتسم بأعلى درجات الفصاحة البشرية .

مكانة الأنصار ومحبتهم بين كلام الله وكلام الرسول :

جاء فى فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن سيئهم والنهى عن بغضهم :
قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ آوَأَوْ نَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (٢) وقال الله - عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) وقال تقدس اسمه : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا يَكْفِيرِينَ ﴾ (٤) .

(١) جاريتين : يعنى بنتين .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٧٤ .

(٣) سورة الحشر ، آية : ٩ .

(٤) سورة الأنعام ، آية ٨٩ .

وعن عَيَّلَان بن جرير قال : قلت لأنس : أَرَأَيْتَ اسم الأنصار كنتم تُسَمُّونَ به أم سَمَّاكم الله ؟ قال : بل سَمَّانا الله عَزَّ وَجَلَّ «^(١)» ، رواه البخارى والنسائى .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - يرفعه : « إن الله أَمَدَّنِي بأشد الناس أَلْسُنًا وَأَذْرَعًا ، با بَنِي قَيْلَةَ : الأوس والخزرج » رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن أبى واقد الليثى قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فَاتَاه آت فَالْتَقَمَ أُذُنَهُ فَتَعَيَّرَ وَجْهَهُ وَسَارَ الدَّمُ فى أساريره ، ثم قال : « هذا رسول عامر بن الطفيل يَتَهَدَّدُنِي فكفانيه الله بالبيتين من وَلَدِ إِسْمَاعِيلِ با بَنِي قَيْلَةَ » ، يعنى الأنصار ، رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : رأى رسول الله ﷺ النساء والصبيان مُقْبِلِينَ من عُرْسِ فقام النبى ﷺ مُثْمِلًا ^(٢) ، فقال : « اللهم أنتم من أَحَبِّ الناسِ إِلَيَّ » ، [قالها ثلاث مرات] . رواه البخارى ^(٣) .

وعنه أيضا قال : جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صَبِيٌّ لها فَكَلَّمَهَا [رسول الله ﷺ] فقال : « والذى نفسى بيده إنكم أَحَبُّ الناسِ إِلَيَّ » ، مَرَّتَيْنِ ، رواه الشيخان والنسائى .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه يرفعه قال : قال النبى ﷺ : « الأنصار لا يُجِبُّهُمُ إلا مؤمن ولا يَبْغُضُهُمُ إلا مُنَافِقٌ فمن أَحَبَّهُمُ أَحَبَّهُ اللهُ ومن أَبْغَضَهُمُ أَبْغَضَهُ اللهُ » ^(٤) ، رواه الستة خلا أبو داود .

وعن أنس - رضى الله عنه - يرفعه : « آية الإيمان حُبُّ الأنصار وآية النفاق بُغْضُ الأنصار » رواه الشيخان والنسائى .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه باب مناقب الأنصار ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) فى النووى على مسلم ج ١٦ ص ٦٧٠ : « ممثلا » بضم الميم الأولى وإسكان الثانية وبفتح التاء المثلثة وكسرها ، كذا روى بالوجهين وهما مشهوران . جمهور الرواة بالفتح وفى البخارى بالكسر ، ومعناه : قائما منتصباً ، وعند بعضهم مقبلا . وللبخارى فى كتاب النكاح : « ممتناً » بقاء مثناة فوق ونون . من المنة ، أى : متفضلا عليهم .

(٣) صحيح البخارى ج ٥ ص ١١١ .

(٤) صحيح البخارى ج ٥ ص ١١٠ .

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ مرَّ ببعض سكك المدينة فإذا بجوار
يَضْرِبْنَ بِدُفَيْنٍ وَيَتَعَنِّينَ وَيَقْلُنَ :

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَا حَبَدًا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فقال رسول الله ﷺ: « اللهم تعلم أنى لأحبكُن » ، حديث صحيح رواه ابن
ماجه .

وعن سعد بن عبادة يرفعه : « إن هذا الحى من الأنصار محنة : حُبُّهم إيمان
وَبُغْضُهم نفاق » رواه الإمام أحمد .

وعن أبى سعيد الخدرى يرفعه : « حُبُّ الأنصار إيمان وَبُغْضُهم نفاق » ، رواه الإمام
أحمد .

وعنه : « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » ، رواه الإمام أحمد .

وعنه أيضاً يرفعه : « مَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّ الْأَنْصَارَ ، وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ الْأَنْصَارَ
لَا يُحِبُّهُمْ مَنَافِقٌ وَلَا يَبْغِضُهُمْ مُؤْمِنٌ ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ
النَّاسُ دِثَارٌ وَالْأَنْصَارُ شَعَارٌ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتْ
شِعْبَ الْأَنْصَارِ » رواه الإمام أحمد (١) .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٣) .

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٠٤ .

(٣) آل عمران ، الآية : ١١٠ .

وقال جل من قائل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (١).

تلك كانت كلمات الله - سبحانه وتعالى - في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
ولكل آية كلمات تستهّل بها ، فاستهلال الآية الأولى أمر من الله - سبحانه - أن يكون
بين المسلمين أمة يدعون إلى الخير .

واستهلال الآية الثانية تقرير من الله الخالق الأعظم أن أمة الإسلام هي خير أمة
أخرجت للناس ، والاستهلال في الآية الثالثة ، تقرير من الله - سبحانه - أن المؤمنين
والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

ذلك هو جلال الإيجاز وقمة الإعجاز بأقصر الكلمات في أعظم الموضوعات .

وفي هدى القرآن وتوجيهه يبيء التقرير المحمدي لأوامر الله - سبحانه -
وللتوجهات الربانية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو شعار جليل من
شعارات الإسلام .

عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ
رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ
الْإِيمَانِ » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي
أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا
تُخْلَفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ
فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، لَيْسَ
وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ » رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي

(١) التوبة ، الآية : ٧١ .

الطَّرِيقَاتِ « فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدُّ ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » قَالُوا وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصْرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » متفق عليه .

وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ : وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

إنه من الوضوح بمكان أن الرسول ﷺ قد استلهم من الآيات القرآنية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آداباً لكي يربى المسلمين عليها ، مثل حق الطريق الذي هو غض البصر ، وكف الأذى ، وزد السلام ، ومثل الإنذار بعقاب الله فيما لو تخلى المسلمون عن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما من شعارات الإسلام ولزوميات توجيهاته .

وبعد : فإن الأمثلة كثيرة في الفرق بين كلام الله وكلام النبي مثلما هو الحال في آيات الربا وأحاديث الرسول ، ومثل موضوع الظلم ، ومثل طلب العلم ، ومثل كنز المال ، وغير ذلك .

وإن التفرقة بين كلام الله وكلام الرسول ﷺ سجية في خاطر المؤمن العالم لاتساع الفرق بين النمط الإلهي في التعبير والإحساس بالعجز الفوري عن مجاراته ، والإحساس في الوقت نفسه عند قراءة كلام النبي ﷺ أو سماعه بسيمات البشرية تلازمه ، وعبق النبوة يفوح منه ، ولكنه على بشريته معجز إذا قورن بغيره من كلام البشر ، وقد أقر صحابته ﷺ أنه أفصح الناس جميعاً ، وقد تمثل ذلك في قول أبي بكر له : يا رسول الله ، ما رأينا الذي هو أفصح منك .

إن خير ما نختم به هذا الباب هو ما ختمنا به الفصل الأول من أن معرفة الفرق بين

أسلوب القرآن وغيره من أساليب البشر أمر يسلم به الدارسون المتخصصون من العرب ومن غير العرب مثل المستشرق (ألان جونز) الذي شغله هذا الموضوع فترة طويلة من الزمان استعان خلالها بالحاسوب (الكمبيوتر) وانتهى - طبقا لما ذكر لي - إلى أن القرآن ليس من كلام محمد ﷺ كما يسلم به العرب الفصحاء تسليم السليقة ، وهنا نعيد الخبر الذي حكاه أبو عبيدة بن معمر من أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فخرّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .



الرسول والشعر

- الفصل الأول : الرسول وموقفه من الشعر .
- الفصل الثاني : شعراء الصحابة يمدحون الرسول .
- الفصل الثالث : استسقاء الرسول .
- الفصل الرابع : الرسول وخبر قس بن ساعدة .
- الفصل الخامس : كعب بن زهير يعلن إسلامه وتوبته ويمدح الرسول .
- الفصل السادس : الصحابييات الشاعرات .
- الفصل السابع : الشعر في عام الوفود .
- الفصل الثامن : شعر الغزوات والسرايا .
- الفصل التاسع : المراثي في شهداء الغزوات .



الفصل الأول

الرسول وموقفه من الشعر

- * الرسول يسمع الشعر الجميل ويرفض القبيح
- * الرسول يمتدح الشعر الجاد .
- * الرسول يردد الشعر مع الصحابة ولا يقرضه.

الرسول وموقفه من الشعر

موقف الرسول من الشعر :-

تباينت مفاهيم كثير من رجال السيرة واختلفت شروح العلماء حول قضية الرسول ﷺ والشعر ، فالله - سبحانه وتعالى - يقول في محكم كتابه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ (١) والمفهوم من الآية الكريمة هو أن الله - سبحانه وتعالى - لم يهبه له أسباب قول الشعر ولم يهبه ملكة الشعر ؛ لأن الشعر - كما هو معروف - ملكة يهبها الله للإنسان ، تماما مثل الصورة الجميلة ، ومثل الصوت الجميل ، إذ مهما يبذل أطباء التجميل مع الوجه القبيح فإنه يستحيل عليهم أن يجعلوا صورة إنسان دميم مماثلة لصورة إنسان خلقه الله جميلا ، والمقياس نفسه يطبق على الصوت القبيح الذى يستحيل أن يتحول إلى صوت جميل مادام الخالق الأعظم لم يهبه ملكة الصوت الجميل ، فالله - سبحانه - ينفى عن الرسول صفة كونه شاعرا .

والقضية الثانية فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : أنه لا يجمل به أن يكون شاعرا ؛ فالشعر فى كثير من حالاته يعد صفة تنال من كمال صفات صاحبه ، وهو ما عبر عنه الإمام الشافعى - رضى الله عنه - بعد ما يناهز قرنين من البعثة النبوية حين قال :

ولولا الشُّعْرُ بالعلماء يُزْرَى

لكنُّتُ اليومَ أشعرَ من لبيدٍ

ومن ثم فإنه لا ينبغى لسيد الخلق الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه أن يكون شاعرا .

(١) سورة يس ، الآية : ٦٩ .

تثار بعد ذلك شبهة ثلب الشعراء

في قوله - تعالى - : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ

يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿ (١) فالملقصد بالشعراء الذين ورد ذكرهم في الآية هم شعراء الكفار والذين يتبعونهم هم أهل الغي لا أهل الهدى ، وهؤلاء الأتباع هم رواة ذلك الشعر بما فيه من سفه القول وخوض في الأعراض وهجاء للشرفاء ، فهم - أى الشعراء - هائمون في قول الضلال ، جائرون على الحق ، متنكبون طريق الرشاد وقصد السبيل .

ثم يجيء بعد ذلك الاستثناء الإلهي في قوله - عز وجل - : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ هذا الاستثناء قصد به شعراء رسول الله ﷺ كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله ابن رواحة وكل من كان بالصفة التي وصفه الله بها .

جاء في تفسير الطبري أن رجلاً قال لزيد بن حارثة : يا أبا أسامة ، أرايت قول الله - جل ثناؤه - : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ

يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿ فقال زيد : إنما هذا لشعراء المشركين وليس شعراء المؤمنين ، ألا ترى أنه يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فقال الرجل : فرجت عنى يا أبا أسامة فرج الله عنك (٢) .

ويذكر الطبري كذلك رواية عن سالم البراد مولى تميم الدارى قال : لما نزلت ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ * جاء حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون . فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا شعراء ، فتلا النبي ﷺ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٢) الطبري الجزء ١٩ في تفسيره الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ من سورة الشعراء .

وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٤﴾

خلاصة الرأى هنا أن الشعر ليس فنا قبيحا ، وإنما الانحراف به عن جادة الإيمان والخلق الحسن ، وتوظيفه للأمور القبيحة ولما لا يجمل من القول هو الغواية بعينها ، وهو السوء بعينه ، وأما الشعر الذى يجاهد به قائله فى سبيل الله ، أو ذلك الذى يجمل الحكمة والرأى الجميل ، ويشر بمكارم الأخلاق فهو قول يعجب الله ويعجب رسوله وكل ذى رأى سديد .

وأما ما أورده البخارى من قوله ﷺ : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » (١) فإن المقصود بهذا الشعر هو الشعر الما جن المنحرف الطاعن فى أعراض الناس ، والمشجع على الفاحشة ، يؤيد ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - عن النبى ﷺ قال : « إن أعظم الناس جرماً إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها ورجل تنقى عن أبيه » (٢).

ويزيد رسول الله ﷺ صورة الشعر وضوحاً ، فتقول عائشة - رضى الله عنها - : سئل رسول الله ﷺ عن الشعر فقال : « هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح » (٣).

ويروى البخارى الحديث بطريقة أخرى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « الشعر بمنزلة الكلام . حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام » (٤).

الرسول يمتدح الشعر الجاد :

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أوضح رأيه فى الشعر من حيث كونه كلاماً فيه الحسن وفيه القبيح ، والحسن منه مقبول ممتدح ، والقبيح منه مردول مستقبح ، فإنه ﷺ يمتدح الشعر الجيد والكلام البليغ بما يطريه ويشرفه . عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فتكلم بكلام بين ، فقال النبى ﷺ : « إن من البيان لسحراً ،

(١) الأدب المفرد جـ ٢ الحديث رقم ٨٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، الحديث رقم ٨٧٤ .

(٣) الحديث أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد (كتاب الأدب) باب الشعر ٨ / ١٢٢ .

(٤) الأدب المفرد جـ ٢ الحديث رقم ٨٦٥ .

وإن من الشعر لحكمة» (١) ثم يخص رسول الله ﷺ الشعر بهذا الوصف في قوله رواية عن أبي بن كعب : « إن من الشعر لحكمة» (٢).

وكان إعجاب الرسول ﷺ بالبيان الناصع والشعر الجيد يتكرر حيثما قيل في حضرته كلام بليغ ، أو أنشد في ساحته شعر جيد ، لقد روى البيهقي في دلائل النبوة عن ذابل ابن الطفيل بن عمرو الدوسي - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قعد في مسجده منصرفه من الأباطح ، فقدم عليه خفاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفي فأنشد رسول الله ﷺ . . .

| | |
|---|--|
| كَمْ قَدْ تَحَطَّمْتُ الْقَلُوصُ بِي الدُّجَى | فِي مَهْمِهِ قَفَرٍ مِّنَ الْفَلَوَاتِ |
| فَلْ مِنَ التَّوْرِيْسِ لَيْسَ بِقَاعِهِ | نَبَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْأَزْمَاتِ |
| إِنِّي أَنَانِي فِي الْمَنَامِ مُسَاعِدٌ | مِنْ جِنِّ وَجَرَّةٍ كَانَ لِي وَمَوَاتِ |
| يَدْعُو إِلَيْكَ لِيَالِيًا وَلِيَالِيًا | ثُمَّ أَحْزَالَ وَقَالَ لَسْتُ بِآتِ |
| فَرَكِبْتُ نَاجِيَةً أَضْرَّ بِنِيهَا | جَمْرٌ نَجَّبَ بِهِ عَلَى الْأَكْمَاتِ |
| حَتَّى وَرَدْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ جَاهِدًا . | كَيْمَا أَرَاكَ مُفْرَجِ الْكُرْبَاتِ |

قال : فاستحسنه رسول الله ﷺ وقال : « إن من البيان كالسَّجَرِ وَإِنَّ مِنَ الشُّعْرِ كَالْحِكْمِ» (٣).

(١) المصدر السابق ، الحديث رقم ٨٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، الحديث رقم ٨٥٨ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٠٠ .

المعاني :

الْقَلُوصُ : من النوق الشَّابَّةِ وهى بمنزلة الجارية من النساء .

الدُّجَى : - بديل مهملة مضمومة فجيم - من دَجَا اللَّيْلُ : إِذَا تَمَّتْ ظُلْمَتُهُ ، والدِّيَاجِي : اللَّيَالِي الْمُظْلِمَةُ ، والدُّجْنَةُ : الظُّلْمَةُ .

المَهْمَةُ - بميمين مفتوحتين بينهما هاء ساكنة - : الْمَقَاذِرُ وَالْبُرْيَةُ .

الْفَلَوَاتُ : جمع فلاة : وهى أرض لا ماء فيها .

الفِيلُ - بفاء مكسورة فلام - : القوم المُنْهَزَمُونَ ، من الفِيلِ : الكَسْرُ ، وهو مصدر سُمِّيَ به يقع على الواحد والاثنين والثلاثة .

وكان الرسول ﷺ في بعض الأحيان يستنشد أحد مجالسيه - خاصة إذا كان شاعرا - أن يسمعه شيئا من جيد الشعر ، فيرضى بذلك ويطرب ، إن عمرو بن الشريد يروى عن الشريد قال : استنشدني رسول الله ﷺ شعر أمية بن أبي الصلت ، فأنشدته ، فأخذ النبي ﷺ يقول : « هيه ، هيه » حتى أنشدته مائة قافية ، فقال : « إن كاد يسلم » (١).

لقد كان أمية أبي الصلت يرفض عبادة الأصنام ويؤمن بالله ، ويتنسب إلى فئة الخنفاء من الشعراء ، ولكنه أبي أن يسلم لأنه شهد البعثة النبوية .

وقريب من ذلك ما رواه مسلم الخزاعي ثم المصطلقى قال : شهدت رسول الله وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلقى :

| | |
|--|---|
| لا تَأْمَنَنَّ وَإِن أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ | إِنَّ الْمَنَايَا بِكَفَى كُلِّ إِنْسَانٍ |
| وَاسْلِكْ طَرِيقَكَ تَمْشِي غَيْرَ مَخْتَشِعٍ | حَتَّى تَبِينَ مَا يَمْنَى لَكَ الْمَانِي |
| فَكُلْ ذِي صَاحِبٍ يَوْمًا يَفَارِقُهُ | وَكُلْ زَادٌ وَإِنْ أَبْقَيْتَهُ فَاَنْ |
| وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ | بِكُلِّ ذَلِكَ يَأْتِيكَ الْجَدِيدَانِ |

من التَّوْرِيْسِ : من وَرَّسَ الثَّوْبَ بِالْوَرْسِ : صبَّغَهُ به .

بِقَاعِهِ ، الْقَاعُ : الْمُسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ .

الْإِسْتِنَاتُ : من اسْتَنَتُوا ، أَيْ : أَجْدَبُوا .

الْأَزْمَاتُ : جمع أَرْزَمَةٍ ، وَهِيَ الشِّدَّةُ .

وَجَرَّةٌ - بَوَاوُ مَفْتُوحَةٌ فَجِيمٌ سَاكِنَةٌ فَرَاءٌ مَفْتُوحَةٌ فَنَاءٌ تَأْنِيثٌ - : وَهِيَ فَلَاءٌ بَيْنَ قِرَانٍ وَذَاتِ عِرْقٍ .

الْمَوَاتِي : الْمَوَافِقُ الْمَطَاوِعُ .

أَحْرَازٌ - بِهَمْزَةٍ وَصَلٌ مَكْسُورَةٌ فَحَاءٌ مَهْمَلَةٌ سَاكِنَةٌ فَهَمْزَةٌ مَفْتُوحَةٌ فَلَامٌ مُشَدَّدَةٌ - : انْفَرَدَ ، وَالْأَحْرَازِلَالُ : الْإِنْفِرَادُ .

النَّاجِيَّةُ : النَّاقَةُ السَّرِيعَةُ الَّتِي تَنْجُو بِصَاحِبِهَا .

أَضْرَبَ بِبَيْتِهَا ، الَّتِي بَفَتْحِ النُّونِ وَتَشْدِيدِ الْمِثَالَةِ التَّحْتِيَّةِ : الشَّحْمُ ، وَبِكَسْرِ النُّونِ : السَّمْنُ .

الْحَمَزُ - بِجِيمٍ فَجِيمٍ مَفْتُوحَتَيْنِ فَرَايَ - : ضَرَبَ مِنَ السَّيْرِ سَرِيعٍ فَوْقَ الْعَتَقِ .

تَجَبَّ - بِمِثَالَةِ فَوْقِيَّةٍ فَجِيمٍ مَوْحِدَةٍ - : تَقَطَّعَ .

الْأَكْمَاتُ : جمع أَكْمَةٍ ، وَهِيَ الرَّابِيَّةُ .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الشعر) الحديث رقم (١) ، والأدب المفرد ٢ / ٨٦٩ ، والشاغل النبوية ص :

١٢٨ .

فقال رسول الله ﷺ : « لو أدركته لأسلم » وفي رواية أخرى « لو أدرك هذا الإسلام لأسلم » فبكى مسلم ، فقال له ابنه . يا أبه ، ما يبكيك من مشرك مات في الجاهلية ؟ فقال : يا بني لا تفعل ، فما رأيت مشركة تلففت من مشرك خيرا من سويد (١) .

ويروى أحمد بن عبد ربه أن النبي ﷺ سمع عائشة وهي تنشد شعر زهير بن خباب :

ارفع ضعيفك لا يجزُ بك ضعفه يوما فتدركه عواقبُ ما جنى
يجزيك أو يثنى عليك فإن مَنْ أثنى عليك بما فعلت كمن جزى
فقال النبي ﷺ : « صدق يا عائشة ، لا يشكر الله من لا يشكر الناس » (٢) .

ويروى أبو حاتم عن الأصمعي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أنشدك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فأنشده :

تركت القيان وعزف القيان وأدمنت تصليته وابتهاالا
وكرت المشقر فى حومة وشنى على المشركين القتالا
فيارب لا أغبنن صفقتى فقد بعث مالى وأهلى بدالا
فقال النبي ﷺ : « ربح البيع ، ربح البيع » .

وقدم النابغة الجعدي على رسول الله ﷺ فأنشده شعره الذى يقول فيه :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لَنرجو فوق ذلك مَظَهْرًا

فقال له النبي ﷺ : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » فقال : إلى الجنة يا رسول الله بك . فقال النبي ﷺ : « إلى الجنة إن شاء الله » فلما انتهى إلى قوله :

ولا خيرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكنْ له بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

(١) المجازات النبوية ١ / ٢٦٨ . ومعنى : ما معنى لك المانى : معنى ما يقدر لك القادر . القرن : الحبل . الجديان :

هما الليل والنهار .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٧٥ .

ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكنْ له حليمٌ إذا ما أوردَ الأمرُ أصدرًا
قال النبي ﷺ : « لا يفضض الله فاك » فعاش مائةً وثلاثين سنة لم تنغص له ثنية .
أى : لم تتحرك . وفي رواية أخرى : فكان إذا سقطت له سنٌ نبت مكانها أخرى .
على أن الثابت أن الرسول ﷺ على ذروة فصاحته لم يقل شعرا ، فقد نفى الله عنه
تلك الصفة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ طبقا لما أوضحنا في مستهل هذا الفصل .
وإذا أنشد بيتا مشهورا من الشعر أنشده بألفاظه ومعانيه على غير وزنه العروضي ،
اللهم إلا مرة واحدة أنشد فيها صدر بيت لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ثم سكت عن إكمال البيت على ما فيه من توحيد الله سبحانه ، وتمجيد لذاته العلية ،
والإخبار بأن نعيم الدنيا إلى زوال ، ولن يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام ، وهو :

وكل نعيم لا محالة زائل

ولطرفة بن العبد بيت مشهور موسوم بالبلاغة ، مطرز بالمعنى الحكيم ، وهو قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فأنشده الرسول ﷺ على غير الوزن الشعري ، على هذا النحو :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك من لم تزود بالأخبار

وللعباس بن مرداس بيت مشهور هو :

أتجعل نهبي نهب العبيد — سد بين عيئة والأقرع ؟

فأنشده الرسول ﷺ :

أجعل نهبي نهب العبيد — — مد بين الأقرع وعيينة

فقال الناس - محاولين رواية المصراع كما أنشأه الشاعر - : بين عيينة والأقرع ، فأعادها الرسول ﷺ « بين الأقرع وعيينة » ليكسر الوزن ويخرج البيت من دائرة الشعر ، لأنه قد صرف نفسه بأمر إلهي عن قول الشعر ، ثم رأى ﷺ حرجا حتى في روايته .
وإذا كان بعض العلماء - كما قد أسلفنا - يرون أنه لا يجمل بهم قول الشعر ، فإن الأنبياء أولى بذلك وأحق ، ولا يزال بيت الإمام الشافعي يرن في أسمع الزمان :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى

لكنت اليوم أشعر من لبيد

وكان لبيد واحدا من ألمع الشعراء في الجاهلية ، وأوفرهم بلاغة ، وأملكهم لئاصية الحكمة ، فلما جاء الإسلام ، وبزغ نور الرسالة السماوية ، سارع إلى الدخول في دعوة الحق ، وأقلع عن الشعر إقلاعا كاملا ، وقد ورد في بعض الخبر أنه لم يقل في إسلامه غير ذلك البيت الذي تمثل به الرسول ﷺ مجردا من وزنه على النحو الذي سلف ذكره ، والبيت في حالتيه - أعنى في حالة الوزن أو حالة نثره - تمجيد لله - سبحانه وتعالى - وتذكير للخلق بأن البقاء له وحده وما عداه فزائل بائد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

الحقيقة أن الشعر - كما قال الإمام الشافعي - لا يجمل بالعلماء قوله ، أو بالأحرى الأخذ بأسبابه ، والارتباط به ، والعيش في جيشانه ؛ لأن طبيعة الشعر إذا تفرغ المرء له صرفه عن التفرغ للعلم ، وذلك على الرغم من أن في الشعر حكمة وجمالا .

وقد كان لرسول الله ﷺ شعراء ينافحون عنه ويذودون عن الدعوة ، ويبشرون بالرسالة حسبها سوف نسوق من القول ، ولكن أحدا من هؤلاء الذين تفرغوا لقول الشعر في خدمة الدعوة لم يعرف بين الصحابة بعلم متميز أو بفقه كثير ، ولا عليه في

ذلك ، فقد كان في تفرغه للذود عن حمى الرسالة ، والرد على أعدائها ، وقمع حجة الخصوم ، والدفاع عن الرسول ﷺ ما يجعل منه صحابيا عاما ، ومجاهدا باسلا .

إن الأمر المهم أن الرسول ﷺ لم يقل الشعر ، ولم يكن خصما له ، وليس بمستبعد أنه كان يحفظ بعضه ، ولكنه لا يردده ، فإذا ما رده فإنه يجرده من وزنه ، ومن المعروف أنه ﷺ قد روى الخطبة المشهورة البليغة لقس بن ساعدة الإيادي ، فلما وصل إلى الجزء المنظوم شعرا منها التفت إلى الصحابة وقال : أيكم يروى شعره ؟ فأشده الأبيات .

هكذا كان رسول الله ﷺ يتفادى رواية الشعر أو ترديده إلا في حالات قليلة ، وفي مواقف بعينها ، فقد روى أنه تمثل أو أنشأ رجزا ، وفي تلك المرات المعدودة لم يكن التمثل يجري بأكثر من بيت واحد ، وقد ذهبت بعض التعليقات في هذه الحال إلى أن الرجز أقرب إلى النثر منه إلى الشعر ، وإن تميز بشيء فهو كونه ضرباً من الوزن ، ثم أخذ الشعراء في إنشائه بعد ذلك وأجروه مجرى القصيد (١) .

لقد تمثل الرسول ﷺ ببيت رجز لأمية بن أبي الصلت ، وهو قوله :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأى عبد لك لا ألما

كما أنه ﷺ - على رواية البراء بن عازب - شوهد على بغلة بيضاء يوم حنين وعمه العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذين بلجام بغلته وهو يقول : (٢)

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وينبغي هنا ألا يذهب الظن إلى أن النبي ﷺ كان يقصد إلى الشعر قصدا ، ولا إلى الفخر زهواً ، فهذان أمران يبرأ الرسول ﷺ منهما ، وإنما أراد أن يقرر حقيقتين خالصتين تثبتتا لموقف المسلمين ، وتدعنيا لمعنوياتهم في معركة تعد من أكثر المعامع التي خاضها الرسول شراسة وحرارة ، إنه النبي الصادق في بعثته ، الأمين في رسالته ، ثم هو بعد

(١) راجع إعجاز القرآن للرافعي : الفصل الخاص بالبلاغة النبوية ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٨٢ والشائتل المحمدية للترمذي ، ص ١٢٦ ، والبغلة التي كان يركبها الرسول هي دلدل ، وكانت بيضاء أهداها المقوقس له ، وقد ماتت في زمن معاوية .

ذلك كريم النسب جليل المنتمى ، وإذا كان المقصد الشعري غير وارد في هذا البيت ، فإنه يفوق السحر بيانا ، ويتجاوز الشعر بيانا .

ومن هذا الطراز من فن القول ما كان الرسول ﷺ يقول يوم بناء مسجده بالمدينة ، فقد كان ينقل اللَّبَن مع من يبنون المسجد ، ويقول مشجعاً لهم مجسماً لهم الثواب الذى ينتظرهم من رب العالمين :

هذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خَيْرِ هذا أْبْرُ - ربنا - وأَطهر

والحِمَال - بكسر الحاء - هو التمر ، والتمر هنا هو تمر الجنة ، وليس تمر خيبر المشهورة بالجيد منه ، وإذا كان ثمت وزن في البيت فإن ذلك لا يعنى أن الرسول ﷺ يقصد إلى قول الشعر ، وإنما هو قول مرسل أشبه ما يكون بالشعر .

وثمت قول آخر للرسول ﷺ جرى على لسانه يوم الخندق حين رأى المهاجرين والأنصار يحفرون في غداة باردة ، وبهم من النَّصَبِ والجوع ما بهم :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وفي رواية أخرى للبخارى عن أنس رضى الله عنه - الروايتان كلاهما للبخارى - كانت الأنصار يوم الخندق تقول : (١)

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما حيننا أبدا

فأجابهم الرسول قائلًا :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة

لقد تصور بعض رجال السيرة أن هذا الذى قاله رسول الله ﷺ شعر، مثل ابن

(١) الرواية الأولى ٣ / ٢٢ . والرواية الثانية ٢ / ١١١ وينظر كذلك صحيح مسلم (كتاب المساجد وموضع الصلاة) باب ابتناء مسجد النبى ٢ / ٦٥ .

شهاب الزهري في قوله : ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل بيت شعر غير هذا (١).

والحقيقة أن هذا الذي قاله الرسول ليس بشعر إلا إذا حدث تغيير في الرواية الأولى باستبدال لفظ (لَاهَمَّ) - يعنى اللهم - بلفظ (اللهم) ، ومع ذلك فإن قول الشعر في أى حالة لم يكن مقصدا من مقاصد الرسول . ولا بن عبد ربه رأى سديد في هذا الضرب من القول ، إذ يقرر أن هذا الكلام هو من المنشور الذى يوافق المنظوم وإن لم يتعمد به قائله المنظوم ، ومثل هذا من كلام الناس كثير مما يأخذه الوزن ولا يراد به الشعر ، ولا يسمى قول النبي ﷺ - وإن كان موزونا - شعرا ، لأنه لا يراد به الشعر . ومثله في آى الكتاب كثير ، فمن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴾ ومثله : ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنْ صُرُكُم عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ومنه ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ (٢).

الرسول يردد الشعر مع الصحابة ولا يقرضه :

كان صحابة رسول الله ﷺ موسومين بالبلاغة والفصاحة وتذوق حلو الكلام ، وقد لا يعرف كثير من الناس أن عددا من الصحابة كانوا شعراء ، ولسنا نقصد حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو كعب بن مالك ، فهؤلاء من الشهرة بمكان ، وكانوا ببلاغتهم واستبسالهم في الذود عن الرسول والدفاع عن العقيدة ما جعلهم في مقدمة شعراء الدعوة ، ولكننا نقصد آخرين من الصحابة الشعراء من أمثال أبى بكر ، وعليّ ، والعباس عم رسول الله ، وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم رسول الله ، وطالب بن أبى طالب أخى عليّ ، وهو أيضا ابن عم رسول الله ، وعبدالله بن

(١) مجلد المغازى من تاريخ الإسلام للذهبي ص : ١٩ ويراجع صحيح البخارى (كتاب الفضائل) باب هجرة النبى إلى المدينة .

(٢) العقد الفريد (كتاب الزمردة) ج ٥ ص : ٢٨٣ .

الحارث السهمي ، وأبى زيد الأنصاري ، وعمرو بن العاص ، وخبيب بن عدى ،
وأبى الحكم بن سعيد بن يربوع ، وناجية بن جندب حامل لواء رسول الله في الحديبية ،
وأبى أنيس موهب بن رياح ، وعامر بن الأكوع ، والعباس بن مرداس وغيرهم كثيرين
مما لا يتسع المقام هنا لذكرهم .

بل قد كان من بين الصحابييات عدد كبير من الشاعرات ، تأتي في مقدمتهن
بطبيعة الحال تماضر بنت الشريد المعروفة بالخنساء ، ومنهن صفية بنت عبد المطلب
عمة رسول الله ﷺ وقتيلة بنت النضر ، وهند بنت أثاثة ، ونعم بنت سعيد امرأة
الصحابي شماس بن عثمان ، وغيرهن .

كان الشعراء يرتجزون وهم في صحبة الرسول ﷺ في المهمات الكبيرة كبناء المسجد ،
أو حفر الخندق ، أو الارتحال في سفر أو غزوة ، كما كانوا يرددون الجيد من الشعر على
سمعه الشريف ، فيطرب لذلك حيناً ويردد معهم حيناً آخر ، بل أحياناً كان يردد بيت
شعر في مناسبة طارئة ، مثال ذلك ترديده ﷺ هذا البيت :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إصْبَعٌ دَمِيَّتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ

عن جندب بن سفيان البجلي أن حجراً أصاب إصبع رسول الله فدميت ، وكان
ذلك في معركة أحد ، وقيل : بل قبل الهجرة - والرأى الأول أصوب - فأنشد الرسول هذا
البيت . والبيت من أرجوزة لعبد الله بن رواحة من جملة أبيات ردها في غزوة مؤتة ،
وهي الغزوة التي استشهد فيها سنة ٨ هـ :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إصْبَعٌ دَمِيَّتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ
يَا نَفْسُ إِلَّا تَقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيَّتِ
وَمَا تَمْنِيَتْ فَقَدْ أُعْطِيَتْ إِنْ تَفْعَلِيْ بِفَعْلِهَا هُدِيَّتِ

وَإِنْ تَأْخُرْتِ فَقَدْ شَقِيَّتِ (١)

(١) الشماائل المحمدية للترمذى بشرح البيهقوري ، ص ١٢٥ وتاريخ الإسلام للذهبي ، قسم المغازي ص : ٤٠٥ .

ولقد سلف القول أن أم المؤمنين عائشة - رضی الله عنها - قد سئلت : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ، ويتمثل بقوله :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقول الشريف الرضى : إنه جاء في السيرة النبوية أن المسلمين كانوا يرتجزون عند حفر الخندق بجعيل بن سراقه الضمري ويقولون : (١)

سَمَاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرًا وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرًا

فكان النبي ﷺ يقول معهم : « عمرا » و « ظهرا » أى : يردد قافية المصراع من البيت ، وهى سنة متبعة حتى اليوم فى مجالس الشعر فى دول الخليج .

كان جعيل بن سراقه يعمل مع الصحابة فى الخندق ويقول مثل قولهم ويضحك إليهم ، فإن اسم « جعيل » من الأسماء القبيحة ؛ لأنه تصغير جُعَلٍ ، وهو نوع من الخنافس ، وكان الرسول ﷺ يفضل الأسماء الجميلة على الأسماء القبيحة ، فغير اسم « جعيل » إلى « عمرو » فجعل الصحابة يداعبون جعيلًا بصنيع رسول الله ﷺ به .

وإذا كان الرسول ﷺ قد ردد القافية مع الصحابة وهم يرتجزون ويداعبون جعيل بن سراقه ، فإنه ﷺ كان يرتجز يوم الخندق بشعر عبدالله بن رواحة .

عن البراء - رضی الله عنه - قال : « رأيت النبي ﷺ يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره ، وفى رواية : حتى وارى التراب بياض بطنه ، وهو يرتجز برجز عبدالله بن رواحة :

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدَيْنَا ولا تصدَّقْنَا ولا صلَّيْنَا
فَأَنْزِلْنا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَبَثِّ الأقدامَ إِنْ لاقَيْنَا
إِنَّ الأعداءَ قد بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرادُوا فِتْنَةً أَيْنَا

(١) المجازات النبوية ، ص : ٦٤ .

يرفع بها صوته « (١) .

ويورد الذهبي خبرا ينسب فيه الأبيات لعامر بن الأكوع ، وراوى الخبر هو سلمة بن الأكوع حيث يقول : (٢)

خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر ، فسرنا ليلا ، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ يعنى كلماتك أو أراجيزك ، وكان عامر رجلا شاعرا ، فنزل يحدو بالقوم ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتضينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينه علينا إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : « من هذا السائق ؟ » قالوا : عامر ، قال : « يرحمه الله » . قال رجل من القوم : وجبت يا رسول الله ، لولا أمتعتنا به ، فأتينا خيبر فحاصرناهم قال : فلما تصافت القوم كان سيف عامر فيه قصر ، فتناول به ساق يهودى ليضربه ، فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركة عامر فمات منه ، فلما قفلوا قال سلمة وهو آخذ بيدي : لما رأنى رسول الله ﷺ ساكتا قال : مالك ؟ قلت : فداك أبى وأمى ، زعموا أن عامرا حبط عمله ، قال : « من قاله ؟ » قلت : فلان وفلان وأسيّد بن حُضَيْرٍ ، فقال : « كذب من قاله ، وله أجران - وجمع بين إصبعيه - إنه جاهد ، قلّ عربى مشى بها مثله » .

والغريب فى الأمر أن الذهبي نفسه يورد الخبر على النحو الذى تمثلنا به قبل قليل منسوباً إلى عبدالله بن رواحة ، وكلّ من عبدالله بن رواحة وعامر بن الأكوع شاعر (٣) ،

(١) صحيح البخارى ٥ / ١٤٠ باب غزوة الخندق . وصحيح مسلم ٣ / ١٤٣٧ رقم ١٢٣ غير أنه ذكر الخبر فى غزوة خيبر ، والصواب هو غزوة الخندق . والأبيات فى ديوان عبدالله بن رواحة ص : ١٠٦ .
(٢) تاريخ الإسلام قسم المغازى ، ص : ٣٣٧ ومرة أخرى ص : ٣٤١ ، ٣٤٢ . وزاد المعاد ٢ / ١٤٨ .
(٣) تاريخ الإسلام ، ص : ٢٤٥ .

وهو خلطٌ ما كان ينبغي أن يتورط فيه مؤرخ كبير مثل الذهبي ، على أن ثمت تعليلا يمكن أن يكون مقبولا ، هو أن عامرا الأكوغ كان معجبا بأبيات عبدالله بن رواحة التي ارتجز الرسول بها في غزوة الخندق - وهي سابقة على غزوة خيبر - فجعل إعجابه بها دافعا له إلى أن يتغنى بها بين يدي الرسول حاديا في الليل في الطريق إلى خيبر.

هذا استطراد اقتضته الضرورة ، إذ ليس مرادنا تحقيق نسبة الشعر إلى قائله وإن كنا قد فعلنا ، ولكن مرادنا هو أن الرسول ﷺ قد ارتجز بقطعة من شعر عبدالله بن رواحة ، وإن الأبيات بها فيها من مناجاة للخالق واعتراف بأفضاله ونعمه ، ودعاء بتثبيت الأقدام عند ملاقات العدو ، جديرة بأن ينالها شرف ترديد رسول الله لها .

وإن شعر عبدالله بن رواحة ذو قبول عند رسول الله ﷺ لأنه شعر لله وفي سبيل الله ، وفيه سمو المعنى ، وفحولة الصوغ ، ورجولة الأداء .

يورد ابن قيم الجوزية شعرا آخر أنشده عبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله وهو يطوف بالبيت في عمرة القضاء ، على هذا النحو: (١).

خرج رسول الله ﷺ معتمرا في ذي القعدة سنة سبع - بعد أن رجع من فتح خيبر - وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن المسجد الحرام قبل عام ، حتى إذا بلغ يأجج - موضع على ثمانية أميال من مكة - وضع الأداة كلها - الحجف والمجان والنبل والرماح - ودخلوا بسلاح الراكب : السيوف ، فلما قدم رسول الله - أي مكة - أمر أصحابه فقال :

« اكشفوا عن المناكب ، واسعوا في الطواف » ليرى المشركون جلدتهم وقوتهم ، وكان يكأيدهم بكل ما استطاع ، فوقف أهل مكة : الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت ، وعبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحا بالسيف :

خَلُّوا بَيْنِي الْكُفَّارَ عَنْ سَبِيلِهِ قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
فِي صَحْفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٨ .

إِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ فِي قَبُولِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

ويكمل الترمذى الخبر رواية عن أنس أن عمر بن الخطاب قال للشاعر :

يا ابن رواحة : بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟؟ فقال ﷺ :
«خَلَّ عَنْهُ يَا عَمْرُ ، فَلَهَى فِيهِمْ أَسْرَعُ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ» (١).

وكان كفار مكة قد خلوا الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ إلى البيت ، وخرجوا من مكة يومئذ إلى رءوس الجبال .

كان عبدالله بن رواحة شديد الحب لرسول الله شأنه في ذلك شأن بقية الصحابة ، ولكنه كان هو وحسان ينفردان بالشعر الذي كان يؤدي عمل كتيبة كاملة في الجهاد في سبيل الله ، ثم إن عبدالله بن رواحة كان يتميز عن حسان بفروسيته وإقدامه على خوض المعارك ، وقد جعله رسول الله ﷺ أميراً على جيش غزوة مؤتة فيما لو استشهد من أمرهما رسول الله قبله . لقد عاد الرسول ﷺ من عمرة القضاء في ذى الحجة سنة سبع ، فلما كان جمادى سنة ثمان بعث بجيش إلى مؤتة - في الأردن حالياً - وأمر على الناس زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب - أى : استشهد أو جرح - فجعفر - أى : جعفر ابن عمه أبى طالب - فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة ، فإن أصيب فليترض المسلمون رجلاً » فلما تهبأوا للخروج بكى ابن رواحة ، فقبل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباة إليها ، ولكنى سمعت الله يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ ^ع إِيَّاهُ ^ع فَلَسْتَ أَدْرَى كَيْفَ لِي بِالصِّدْرِ بَعْدَ الْوُرُودِ . فقال المودعون : صحبكم الله وردكم إلينا صالحين ودفع عنكم . فأنشد ابن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً وضربةً ذاتَ فرغٍ تقذف الزبدًا

أو طعنةً من يدي حرَّانَ مجهزةً بحرية تُنفذُ الأحشاء والكبدا

(١) الشئائل المحمدية ص : ١٢٧ . ومعنى نضربكم على تأويله - وفي رواية تنزيله - أى : نضربكم إن نقضتم العهد ومنعتم النبي من دخول مكة . ومعنى يزيل الهام عن مقيله : أى يزيل الرأس عن محله .

حتى يقولوا إذا مروا على جدّتى يا أرشد الله من غازٍ وقد رشداً

ثم وقف بين يدي رسول الله وقال مودعا :

فنبئت الله ما آتاك من حسنٍ تئيبت موسى ونصراً كالذى نصروا

إننى تفرستُ فيك الخيرَ نافلةً والله يعلمُ أنى ثابتٌ بصيرُ

أنت الرسولُ فمن يُحرمُ نوافلهُ والوجهُ منه فقد أزرى به القدرُ

ثم خرج القوم حتى وصلوا إلى (معان) فبلغهم أن هرقل قد نزل قريبا منهم في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة ، وكان قوام جيش المسلمين ثلاثة آلاف . فقالوا : نبعث إلى رسول الله ﷺ نخبره ، فشجع الناس عبدالله بن رواحة قائلا : يا قوم والله إن التى تكروهون للتى خرجتم لها تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة وإنما تقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فإن يظهرنا الله به فربما فعل ، وإن تكن الأخرى فهى الشهادة ، وليست بشر المنزلتين . فقال الناس : والله لقد صدق فانشمر الناس وهم ثلاثة آلاف حتى لقوا جموع الروم بقرية يقال لها (مشارف) ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة .

يقول أبو هريرة - وكان فى الكتيبة - : شهدت مؤتة فلما رأينا المشركين ، رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والذهب ، فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أقرم : مالك يا أبا هريرة !! كأنك ترى جموعا كثيرة !! قلت : نعم ، قال : لم تشهد معنا بدرًا ، إنا لم ننصر بالكثرة .

ودارت رحى الحرب واستشهد زيد ، فحمل جعفر الراية وقاد المعركة فاستشهد ، ثم تقدم عبدالله بن رواحة فأخذ الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، وجعل يتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلنَّه لتنزِلنَّ أو لتُكْرَهِنَّه

إن أجلبَ الناسُ وشدُّوا الرنَّه مالى أراكِ تكْرهينَ الجنَّه

قد طال ما كُنْتُ مُطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نَظْفَةٌ فِي سَنَّةٍ (*)

ثم أنشد أيضا مخاطبا نفسه مشجعا إياها :

يا نَفْسُ إِلَّا تُعْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ
وَمَا تَمَنَيْتِ لَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ (*)

ثم أخذ سيفه فقاتل فاستشهد .

قال عبدالله بن عمر - وكان في الكتيبة - : ففتشناه - أى : ابن رواحة - فوجدنا فيها
أقبل من جسده بضعا وسبعين بين طعنة ورمية ، وقيل بضعا وتسعين (١) .

والذى نذهب إليه في نهاية هذا الفصل أن الرسول ﷺ لم يكن يقول القصيد - وهو
أحد فروع الشعر السبعة - أو يردده ، وإنما كان قليلا ما ينشد الرجز ويردده ، فقد ورد
في الصحيحين عن البراء بن عازب أن رجلا قال له : أفرتم يوم حنين عن رسول الله
ﷺ ؟ فقال البراء : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، لقد رأيته وهو على بغلته البيضاء وإن
أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها ، والنبي ﷺ يقول :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (٢) .

وفي الصحيحين أيضا عن البراء أنه قال : « رأيت النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم
الأحزاب وقد دارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا

(*) أجلب القوم : يعنى صاحوا ، من الجلبة . الرنة : من مادة الرنين ، وهو صوت ترجيع كالبكاء ، النظفة : الماء
القليل الصافي . الشنة : السقاء البالى . إن تفعلى فعلها : يعنى فعل صاحبيه زيد وجعفر استبسلا واستشهادا .

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٧٩ والذهبي ٤٠٢ - ٤٠٥ .

(٢) صحيح البخارى (كتاب الجهاد) باب من رأى العدو فنادى بأعلى صوته ٤ / ٨١ و (كتاب المغازى) باب غزوة ذى
قرد ٥ / ١٦٥ . وصحيح مسلم (كتاب الجهاد) باب غزوة ذى قرد ٣ / ١٤٣٢ رقم ١٣١ .

إِنَّ الْأَلَىٰ قَدْ بَعَّوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أُمَّيْنَا (١)

وهي أرجوزة أوردناها فيما سلف من صفحات .

وروى أنس - رضى الله عنه - قال : جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق وينقلون التراب على متونهم أى : على ظهورهم - ويقولون :

نحن الذين بآيعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْإِسْلَامِ مَا بَقِينَا أَبَدًا

وفى رواية : عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا .

والنبي ﷺ يحببهم :

اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ

فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ (٢) .

الرسول يستنشد الشعراء الصحابة :

مثلمآ كان الرسول ﷺ يردد الشعر مع الصحابة - رضوان الله عليهم - فى المناسبات التى تستدعى أن يجاملهم أو ينشطهم فى العمل أو يستحثهم على الجهاد أو غير ذلك من الأغراض ، فإنه ﷺ كثيرا ما كان يستنشد شعراء الصحابة متى ما دعت المناسبة إلى ذلك .

يقول مؤيدا هذا الموقف عبد الله بن مسعود الذى يروى أنه قد بلغ النبى أن قوما نالوا أبا بكر بألسنتهم ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، ليس أحد منكم آمنٌ علىّ فى ذات يده ونفسه من أبى بكر ، كلكم قال لى : كذبت ، وقال لى أبو بكر : صدقت ، فلو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر » ثم التفت إلى حسان فقال : « هات ما قلت فىّ وفى أبى بكر » فقال حسان : قلت يا رسول الله :

(١) صحيح البخارى (كتاب المغازى) باب غزوة الخندق ٥ / ١٤٠ . وصحيح مسلم (كتاب الجهاد) باب غزوة خيبر ٣ / ١٤٣٧ رقم ١٢٣ .

(٢) صحيح البخارى (كتاب المغازى) باب غزوة الخندق ٥ / ١٣٨ .

إذا تذكّرتَ شجواً من أخي ثقةٍ

فاذكُرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلاً

الثاني الثاني المحمودَ شيمته

وأولَ الناسِ طُراً صدقَ الرُّسلاً

والثاني اثنين في الغارِ المنيفِ وقد

طافَ العدوُّ به إذ صعدَ الجبالاً

وكان حبّ رسولِ الله قد علموا

من البريةِ لم يعدلُ به رجلاً

خيرُ البريةِ أتقاها وأزفها

بعَدَ النبيّ ، وأوفاهَا بما حملاً

فقال ﷺ : « صدقت يا حسان ، دعوا لي صاحبي » قالها ثلاثاً (١).

ومن ذلك أيضاً ما بلغ رسول الله ﷺ من أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب هجا رسول الله ﷺ وشجعتة على ذلك قريش وهي قبيلة رسول الله ، والذي هجا رسول الله هو ابن عمه الحارث . فكيف السبيل إلى الثأر ؟! يقصّ الشعبي الخبر فيقول :

أتى حسان بن ثابت النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : إن أبا سفيان بن الحارث هجاك ، وأسعده على ذلك نوفل بن الحارث وكفار قريش ، أفتأذن لي أن أهجوهم يا رسول الله ؟ فقال النبي ﷺ : فكيف تصنع بي ؟ - يعني إنهم من قومي ، وهجاؤك إياهم هجاء لي - فقال حسان : أسلُّك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين . قال : أهجوهم وروح القدس معك ، واستعن بأبي بكر فإنه علامة قريش بأنساب العرب ، فقال حسان يهجو نوفل بن الحارث :

وإنّ ولاةَ المجدِ من آلِ هاشمٍ
بنو بنتٍ مخزومٍ ووالدك العبدُ

(١) جمهرة أشعار العرب للقرشي ، ص : ٣١ .

وما وَلَدَتْ أَبْنَاءَ زُهْرَةَ مِنْهُمْ صَمِيماً وَلَمْ يَلْحَقْ عَجَائِزَكَ الْمَجْدُ

فَأَنْتَ لثَيْمٍ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطٌ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ

قال : فلما أسلم أبو سفيان بن الحارث قال له النبي ﷺ : أنت مني وأنا منك ، ولا سبيل إلى حسان (١) .

وكان حسان مقدما عند رسول الله في الاستنشاد ، فقد كان الرسول ﷺ يقول له : «شَنَّ الغطاريف على بنى عبد مناف ، فوالله لَشِعْرُكَ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقَعِ السَّهَامِ فِي غَلَسِ الظَّلامِ ، وَتَحْفَظُ بَيْتِي فِيهِمْ . قال : والذي بعثك بالحق نبيا لأسلنك منهم سَلَّ الشعرة من العجين . ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه ، وقال : والله يا رسول الله إنه ليخيّل لي أني لو وضعت على حجر لفلقه ، أو على شعر لفلقه . فقال النبي ﷺ : أيد الله حسانا في هجوه بروح القدس (٢) .

ويروى ابن عبد ربه هذا الخبر عن هجاء أبي سفيان بن حرب رسول الله ﷺ : يزيد بن عمرو بن تميم الخُزاعى عن أبيه عن جدّه : أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أبا سفيان يهجوك . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إنه هجاني وإني لا أقول الشعر ، فاهجه عنى » فقام إليه عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله ، إيذن لي فيه . قال : « أنت القائل : فثبت الله ما آتاك من حسن ؟ »

قال : نعم . قال : وإياك فثبت الله . ثم قام إليه كعب بن مالك فقال :

يا رسول الله ، إيذن لي فيه . قال : أنت القائل : « هممت ؟ » قال : نعم . قال : لست له ، ثم قام حسان بن ثابت فقال : يا رسول الله ، إيذن لي فيه ، وأخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه ، وقال : والله يا رسول الله إنه ليخيّل لي أني لو وضعت على حجر لفلقه ، أو على شعر لفلقه . فقال : « أنت له ، اذهب إلى أبي بكر يخبرك بمثالب القوم ثم اهجمهم وجبريل معك » فقال يرد على أبي سفيان :

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٢) العقد ٥ / ٢٧٧ .

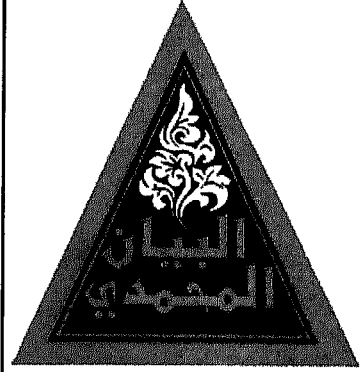
| | |
|--|---|
| مُغْلَغَلَةٌ فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ | أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي |
| وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ | هَجَوْتُ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ |
| فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِكُمْ مَا الْفِدَاءُ | أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِنَدِيٍّ |
| وَيُطْرِبُهُ وَيَمْدَحُهُ سَوَاءُ | أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ |
| سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هَجَاءُ | لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدِّيٍّ |
| وَبَحْرَى لَا تَكْدَرُهُ لَا تُكْرَهُ اللَّاءُ | لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ |
| لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ (١) | فَإِنْ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي |

وعن هشام بن عروة عن أبيه (يعني الزبير) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو قال : ينافح عن رسول الله ﷺ ويقول رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله ﷺ » .

ويؤخذ من الحديث - تبعا لتفسير البيجورى - حلّ إنشاد الشعر في المسجد ، بل يندب إذا اشتمل على مدح الإسلام وأهله ، وهجاء الكفر وأهله (٢) .

(١) العقد ٥ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) الشهاةل المحمدية ، ص : ١٢٩ .



الفصل الثاني

شعراء الصحابة يمدحون الرسول

شعراء الصحابة يمدحون الرسول

كان رسول الله ﷺ جامعا لأسباب الفضل كله قولاً وعملاً وسلوكاً ، يملأ حبه قلوب الناس جميعاً قبل الرسالة وبعدها ، حتى إن كبار أعدائه لم يستطيعوا أن ينالوه بكلمة سوء وهم يسعون لإيقاع الأذى به ، وقد رأينا كيف أن قيصر استدعى أبا سفيان ابن حرب وألقى على أسماعه عدداً من الأسئلة حول أمانة محمد ﷺ وصدقه ، فأجاب عنها جميعاً بما لا ينال من فضل رسول الله ، ولا ينتقص من شأئله .

هذا ، وحبُّ رسول الله - قبل ذلك وبعده - فريضة على كل مسلم ، فكان منطقياً - والأمر كذلك - أن تفيض قرائح الشعراء أنهاراً من القصائد في مدحه ، وهم لا يمدحونه كما يمدحون الملوك ، ولكنهم ينزهون شخصه الشريف عن هذا النمط من القول ، ويصوغون مدائحهم بما يتناسب مع خلقه ، ويضمنون قصائدهم بما يتسق مع شأئله .

إن من أجمل الصيغ التي مدح بها الرسول ﷺ تلك التي التقطها حسان بن ثابت كبير مداحي رسول الله ، وهي اقتران اسم رسول الله في الشهادتين ، وفي التشهد باسم ربنا - جل وعز - وذلك في قوله (١):

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتِمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ الإِلَهِ اسْمَ النَبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الحَمْسِ المَوْذُنُ : أَشْهَدُ

(١) ديوان حسان ص : ٥١ .

وشقَّ له من اسمه لِجِلَّةُ فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ
 نبىُّ أتانا بعد يأسٍ وفترةٍ من الرسلِ ، والأوثانُ في الأرضِ تُعْبَدُ
 فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً يلوح كما لاح الصَّيْلُ المهنَّدُ
 وأنذرتنا ناراً وبَشْرَ جَنَّةٍ وعلمنا الإسلامَ ، فاللهُ نَحْمَدُ

ويقرن حسان مديح رسول الله ﷺ بأبيات عميقة باستقرار الإيمان ، يسبح فيها الله ،
 ويمجد ذاته العلية ، ويمجد نعماءه وهده قائلاً :

وأنتَ إلهَ الخلقِ ربِّي وخالقي بذلك ما عَمَّرْتُ في الناسِ أَشْهَدُ
 تَعَالَيْتَ رَبُّ النَّاسِ عن قولِ مَنْ دعا سِوَاكَ إلهاً ، أنتَ أعلى وأمجَدُ
 لك الخلقُ والنعماءُ والأمرُ كُلُّهُ فإيَّاكَ نستهدى وإيَّاكَ نُعْبَدُ

وآل بيت النبي ﷺ جلهم شعراء : أعمامه أبو طالب والعباس وحمة ، وعماته صفية
 وبرة وعاتكة وأميمة وأروى كلهن شاعرات ، وأبناء أعمامه عليّ وأبو سفيان بن الحارث
 وغيرهم ينسب إليهم شعر غير قليل .

وكان العباس شديد التعلق برسول الله حتى قبل أن يعلن إسلامه ، فقد حضر مع
 رسول الله بيعة العقبة ، وله مع الأنصار حوار جليل . وحين عاد الرسول من تبوك قال
 له العباس : يا رسول الله ائذن لي أمتدحك ، فقال ﷺ في تودد وارتياح : « قل ، لا
 يفيض الله فاك » فأنشد العباس (١) :

من قَبْلِهَا طَبَّتْ في الظَّلَالِ وفي مُسْتَوْدَعٍ حيثُ يُخَصِّفُ الورقُ
 ثم هَبَطَتِ البلادَ لا بشرُّ أنتَ ولا مضغَةٌ ولا عَلَقُ
 بل نطفةٌ تركبُ السفينَ وقد ألجمَ نَسْرًا وأهلكهُ الغرقُ
 تنقَلُ من صُلْبِ إلى رحِمِ إذا مَضَى عالمٌ بكداً طبقُ

(١) زاد المعاد ٣ / ١٣

حتى استوى بيتك المهيم من
وأنت لما ولدت أشرقت الأر
خندف عليها تحتها النطق
ض وضاءت بنورك الأفق
ء وسبل الرشاد نخترق
فنحن من ذلك النور في الضياء

فإذا عدنا إلى حسان - وسوف نعود إليه كثيرا فيما يستقبل من حديث - وجدناه الشاعر الأول مدحا لرسول الله وذوداً عن حياض الرسالة ، ودفاعا عن الرسول ، وهجاء لخصومه وأعدائه ولو كانوا من أهل بيت عبد المطلب ، ثم هو بعد ذلك المسجل لمواقع النصر ، المعلن عن أفراح المؤمنين ، الباكي على شهدائهم وقتلاهم ، إلى غير ذلك مما سوف نعرض له في مكانه في الصفحات القادمة .

على أن حساناً لا ينسى أنه من الأنصار ، والأنصار هم الذين آووا رسول الله ونصروه ، وهو صنيع يحفظه لهم رسول الله ﷺ فكان حسان يرى في ذلك لونا من ألوان الفخار . يقول حسان مسجلا ذلك ذاكرة ما حدث في بدر (١):

قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ آوُوا نَبِيَّهُمْ
إِلَّا خَصَائِصَ أَقْوَامٍ هُمْ سَلَفُ
مُسْتَبْشِرِينَ بِقَسْمِ اللَّهِ قَوْلُهُمْ
أَهْلًا وَسَهْلًا فَنَفَى أَمْنٍ وَفِي سَعَةِ
فَأَنْزَلُوهُ بَدَارَ لَا يُخَافُ بِهَا
وَقَاسَمُوهُ بِهَا الْأَمْوَالَ إِذْ قَدَمُوا
وَصَدَّقُوهُ وَأَهْلَ الْأَرْضِ كُفْرًا
لِلصَّالِحِينَ مَعَ الْأَنْصَارِ أَنْصَارِ
لَمَّا أَنَا هُمْ كَرِيمُ الْأَصْلِ مُخْتَارِ (*)
نَعْمَ النَّبِيُّ وَنَعْمَ الْقَسْمُ وَالْجَارِ
مَنْ كَانَ جَارَهُمْ دَارًا هِيَ الدَّارِ
مُهَاجِرِينَ وَقَسْمُ الْجَاهِدِ النَّارِ

(١) السيرة / ١ / ٦٦٤ .

(*) القسم : الحظ والنصيب .

سراة القوم : خيارهم . وغاروا : قصدوا الغور ، وهو ما انخفض من الأرض ، يريد تشتتا . الضمير في البيتين قبل الأخير يعود على الشيطان الذي غرر بهم .

سِرْنَا وَسَارُوا إِلَى بَدْرِ لِحَيْنِهِمْ
 دَلَّاهُمْ بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ
 لَوْ يَعْلَمُونَ يَقِينِ الْعِلْمِ مَا سَارُوا
 إِنَّ الْخَبِيثَ لَمِنَ الْوَالَةِ غَرَّارٍ
 وَقَالَ إِنِّي لَكُمْ جَارٌ فَأُورِدْهُمْ
 شَرَّ الْمَوَارِدِ فِيهِ الْخَزْيُ وَالْعَارُ
 ثُمَّ التَّقِينَا فَوَلَّوْا عَن سَرَاتِهِمْ
 مِنْ مُنْجِدِينَ وَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ غَارُوا

وشبيه بموقف حسان في قصيدته سالفه الذكر ، موقف العباس بن مرداس السلمي ، وهو ابن الشاعرة الصحابية الخنساء ، وله إخوة ثلاثة ، وكلهم أشقاء ، وهم سراقه وحزن وعمرو ، وكلهم شعراء ، ولكن العباس أشعرهم .

وكان لمرداس والد العباس صنم اسمه « ضهاد » وأوصى العباس أن يعبده ، ولكنه حين علم برسالة محمد ﷺ أحرقه ولحق بالنبى وقال في ذلك (١):

لعمري إنى يوم أجعل جاهدا
 وتركى رسول الله والأوس حوله
 كتارك سهل الأرض ، والحزن بيتغى
 فأمنت بالله الذى أنا عبده
 ووجهت وجهى نحو مكة قاصدا
 نبى أتانا بعد عيسى بناطق
 أمينا على الفرقان أول شافع
 « ضهادا » لرب العالمين مُشَارِكَا
 أولئك أنصار له ما أولئك
 ليسلك في غيب الأمور المسالك
 وخالفت من أمسى يريد الممالك
 وتابعت بين الأخشيين المَبَارِكَا
 من الحق فيه الفصل منه كذلك
 وآخر مبعوث يجيب الملائكا

والعباس بن مرداس من فرسان الصحابة ، وله قصيدة غريبة مدح بها رسول الله ، ومن خلالها مدح الضحاك بن سفيان قائد بنى سليم يوم حنين وفيها سمة من الفخر بقومه مثلها فعَل حسان يقول فيها :

(١) الأغاني ١٣ / ٦٥ ، ٦٦ .

| | |
|---|---|
| يا خاتم النبء إِنَّكَ مُرْسَلٌ | بالحق ، كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكَ |
| إِنَّ إِلَهَ بَنِي عَلِيكَ مَحَبَّةٌ | فِي خَلْقِهِ وَمُحَمَّدًا سَأَاكَ |
| ثُمَّ الَّذِينَ وَفَوْا بِمَا عَاهَدْتَهُمْ | جُنْدٌ بَعَثْتَ عَلَيْهِمُ الضَّحَّاكَ (١) |
| رَجُلًا بِهِ ذَرْبُ السَّلَاحِ كَأَنَّهُ | لَمَّا تَكَنَّفَهُ الْعَدُوُّ يَرَاكَ (٢) |
| يَغْشَى ذَوِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ وَإِنَّمَا | يَبْغِي رِضَا الرَّحْمَنِ ثُمَّ رِضَاكَ |
| أُنْبِيكَ أَنَى قَد رَأَيْتُ مَكْرَهُ | تَحْتَ الْعِجَاجَةِ يَدْمَعُ الْإِشْرَاكَ (٣) |
| طَوْرًا يُعَانِقُ بِالْيَدَيْنِ وَتَارَةً | يَفْرِي الْجَاهِجِمَ صَارِمًا بَتَاكَ (٤) |
| يَغْشَى بِهِ هَامَ الْكِمَاةِ وَلَوْ تَرَى | مَنْهُ الَّذِي عَايَنْتُ كَانَ شِفَاكَ (٥) |
| وَبَنُو سُؤْلَيْمٍ مُعْتَقُونَ أَمَامَهُ | ضَرْبًا وَطَعْنَا فِي الْعَدُوِّ دِرَاكَ (٦) |
| يَمْشُونَ تَحْتَ لِيَوَائِهِ وَكَأَنَّهُمْ | أَسْدُ الْعَرِينِ أُرْدَنَ ثُمَّ عِرَاكَ (٧) |
| مَا يَرْتَجُونَ مِنَ الْقَرِيبِ قَرَابَةَ | إِلَّا لَطَاعَةَ رِهِمِ وَهَوَاكَ |
| هَذِي مَشَاهِدُنَا الَّتِي كَانَتْ لَنَا | مَعْرُوفَةٌ وَوَلِيَّتُنَا مَوْلَاكَ |

وقصائد العباس بن مرداس ذات وقع خاص في المسامع ، لأنه في مديحه لرسول الله ﷺ يمزج المديح بمظاهر الفروسية والفداء والإقبال على خوض المعامع في سبيل الله ،

(١) هو الضحاك بن سفيان الكلابي أحد فرسان غزوة هوازن .

(٢) ذرب السلاح : حدته ومضاؤه ، ومنه يقال : فلان ذرب اللسان ، إذا كان حاد اللسان .

(٣) العجاجة : الغبار المنتشر . ويدمع : يقهر ويذل ؛ وهو من الضرب على الدماغ .

(٤) يفري : يقطع . ويروي « يفري » بالقاف ؛ أي : يقدم الجاهجم قرى لسيفه . وبتاك : قاطع .

(٥) الهام : الرءوس . والكمأة : جمع كمي ، وهو الشجاع المستتر في سلاحه .

(٦) معنقون : مسرعون . يقال : أعنق يعنق : إذا أسرع . ودراك : متتابع .

(٧) العرين : موضع الأسد . والعراك : المدافعة في الحرب .

وإن بداوته الظاهرة في بنية قصائده تضيف على شعره مزيدا من المهابة ، وقدرا كبيرا من حسن القبول ، وهو هنا يمدح رسول الله في مجال فخاره بنصر الله يوم حنين ويقول: (١)

| | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| يا أيها الرجل الذي تهوى به | وجنأ مجمرة المناسم عرمس |
| إمّا أتيت على النبي فقل له | حقا عليك إذا اطمأن المجلس |
| ياخير من ركب المطى ومن مشى | فوق التراب إذا تعد الأنفس |
| إنّا وقيتنا بالذي عاهدتنا | والخيل تقدح بالكماة وتضرس |
| إذ سال من أفناء بهيمة كلها | جمع تظل به المخارم ترجس |
| حتى صبحنا أهل مكة فيلقا | شهباء يقدمها الهام الأشوس |
| من كل أغلب من سليم فوقه | بيضاء محكمة الدخال وقونس |
| يروى القناة إذا تجاسر فى الوعى | وتخاله أسدا إذا ما يعبس |
| وعلى حين قد وقى من جمعنا | ألف أمداً به الرسول عرندس |
| كانوا أمام المؤمنين دريئة | والشمس يومئذ عليهم أشمس |
| نمضى ويحرسنا الإله بحفظه | والله ليس بضائع من يحرس (*) |

(١) السيرة ٢ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(*) المعانى

تهوى به : تسرع . والوجناء : الناقة الضخمة ، أو هى الغليظة الوجنات البارزتها ، وذلك يدل على غثور عينيها ، وهم يصفون الإبل بغثور العينين عند طول السفر . والمجمرة : المجتمعة المنضمة ، وذلك أقوى لها . والمناسم : جمع منسم ، وهو مقدم طرف خف البعير . وعرمس : شديدة ؛ وأصل العرمس : الصخرة الصلدة ، وتشبه بها الناقة الجلدة القوية .

تقدح : تكف . بهيمة : حى من سليم . المخارم : الطرق فى الجبال . ترجس : تمتر . الهام : السيد . الأشوس : الذى ينظر نظر المنكبر . الأغلب : الشديد الغليظ . محكمة الدخال : يعنى الدرع القوى النسج . القونس : أعلى بيضة الحديد . العضب : السيف القاطع . اللدن : يقصد به الرمح اللين ، مدعس : طعان . عرندس : شديد . دريئة : مدافعة . أشمس : جمع شمس ، يريد لمعان الشمس فى كل درع وسيف وبيضة وسان ، وكأنها شمس .

وقدم وفد همدان من اليمن على رسول الله ﷺ ولقوا رسول الله مرجعه من تبوك ،
 ووقف شعراؤهم بين يديه يرتجزون ، ونشط خطباؤهم يخطبون ، وعلى رأسهم « مالك
 ابن نمط » فأعلنوا إسلامهم ، وبايعوا رسول الله ﷺ فزودهم الرسول بكتاب إلى
 قومهم ، وقد ولى « مالكا » أمرهم ، فقال مالك في ذلك مادحا رسول الله ﷺ : (١)

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدَّجَى

وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَلَدٍ

وَهُنَّ بِنَا خَوْصٌ طَلَائِحُ تَغْتَلِي

بِرُكْبَانِهَا فِي لَاحِبٍ مَتَمَدِّدٍ

عَلَى كُلِّ فِتْلَاءٍ الذَّرَاعِينَ جَسْرَةَ

تَمْرُنَا مَرَّ الْهَجْفِ الْخُفَيْدِ

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مَنَى

صَوَادِرَ بِالرُّكْبَانِ مِنْ هَضْبٍ قَرَدٍ

بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ

رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعُرْشِ مُهْتَدٍ

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا

أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ

وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ

وَأَمْضَى بَحْدُ الْمَشْرِفِيِّ الْمَهْنَدِ (*)

وتأكيدا لتقبل رسول الله ﷺ الاستماع إلى الشعر يُنشد بين يديه ، فيستجيب قلبه

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٤٦ .

(*) المعاني :

رحرحان وصلدد : موضعان . الخوص : واحدها خوصاء ، وهي الغائرة العيون . تغتلي : تشتد في سيرها . اللاحب :
 الطريق الواضح . الجسرة : القوية على السير . الهجف : الذكر الضخم من النعام . الخفيدد : الهجف .
 الراقصات : الإبل . الرقص : ضرب من السير . القرود : ما ارتفع من الأرض .

الكبير لمعانيه السامية ، وتتاثر نفسه الشريفة برجع صداه ، ما ذكره سعيد بن المسيب - وهو سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة في المدينة - حين قيل له : إن قبيصة بن ذؤيب^(١) يزعم أن الخليفة^(٢) لا يُناشِدُ الأشعار ، قال : ولم لا يناشد الخليفة الأشعار وقد نوشد رسول الله ﷺ يومَ قدم عليه عمرو بن سالم الخزاعي مستنصرا . وكانت قريش وبنو بكر قد اعتدوا على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانت خزاعة في عقد رسول الله وعهده ، وكان هذا العدوان مما أسهم في الإعداد لفتح مكة .

وقف عمرو بن سالم بين يدي رسول الله وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس وأنشد :

| | |
|---------------------------------|---|
| ياربِّ إني ناشدُ محمداً | حلنّفَ أئينا وأبيه الأتلاداً |
| قد كنتمُ وُلداً وكنّا والداً | ثُمّتَ أسلَمْنَا فلم نَنزِعْ يَداً ^(٣) |
| فانصُرْ هداك اللهُ نصرًا أعتداً | واذعُ عبادَ الله يأتوا مَدداً ^(٤) |
| فيهمُ رسولُ الله قد تجرّداً | إن سيمَ حَسفًا وَجْهَهُ تَرَبّداً ^(٥) |
| فى فيليّ كالبحرِ يجرى مُزبداً | إنّ قريشاً أخلفوكِ المؤعدا |
| ونقضُوا ميثاقكِ المؤكّدا | وجعلوا لى فى كدائِ رَصدا |
| وزعمُوا أنّ لستُ أدعو أحداً | وهمُ أذلُّ وأقلُّ عَددا |
| هم يبيئوننا بالوتيرِ هجداً | وقتلُوننا رُكعاً وَسُجّداً ^(٦) |

(١) كان قبيصة من الفقهاء الوجوه ، ثم كان على خاتم عبد الملك بن مروان .

(٢) الخليفة هو عبد الملك .

(٣) أراد أن عبد مناف أمهم من خزاعة ، وكذلك قصى أمه فاطمة بنت سعد الخزاعية الولد - بضم الواو - يعنى الولد .

(٤) الأعتد : الحاضر . والمدد : العون .

(٥) تجرد ، أى : شمر وتبياً للحرب ، سيم ، أى : طلب منه وكلف ، الحسف : الذل . تربد : تغير إلى السواد .

(٦) الوتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة . الهجّد : يعنى النيام ، ويعنى أيضاً المستيقظين ، لأنه من الأضداد .

في رواية سعيد بن المسيب أن الرسول ﷺ لما استمع إلى هذا الشعر دمعت عيناه ، ونظر إلى سحابة قد بعثها الله فقال : « والذي بعثني بالحق نبياً إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب » وخرج بمن معه لنصرهم .

وفي رواية ابن إسحاق (١) وابن سيد الناس (٢) أن رسول الله ﷺ قال : نُصرت يا عمرو ابن سالم ، ثم عرض لرسول الله عَنَانٌ مِنَ السَّمَاءِ - أَى : سحَاب - فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب . وفي رواية ابن عبد البر - في الاستيعاب - قال رسول الله ﷺ : « لا نصرني الله إن لم أنصر بنى كعب » .

فلما كان يوم الفتح الأكبر - فتح مكة - جاء أنس بن زعيم الدبلي إلى رسول الله ﷺ يعتذر عما فعلته بنو بكر بخزاعة ، ومما قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي ، وكان منطقياً أن يمزج ابن زعيم بين الاعتذار والمدح في قالب واحد فقال (٣) :

أَأَنْتَ الَّذِي تُهِنْدِي مَعَدُّ بِأَمْرِهِ بَلِ اللَّهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ أَشْهَدُ
وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوَقَّ رَحْلُهَا أَبْرٌ وَأَوْفَى ذَمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
أَحَتْ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهْنَدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْخَالِ (٤) قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ
تَعَلَّمَ (٥) رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٍ عَلَى كُلِّ صَرْمٍ (٦) مُتَّهِمِينَ وَمُنْجِدِ

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٢) عيون الأثر ٢ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) السيرة ٢ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، وفي سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤١١ ، ٤١٢ نسبت الأبيات إلى أسيد أناس .

(٤) الخال : ضرب من برود اليمن ، وهو من رفيع الثياب . والسابق (هنا) : الفرس . والمتجرد : الذي يتجرد من الخيل فيسبقها .

(٥) تعلم : اعلم . والوعيد : التهديد .

(٦) صرم : بيوت مجتمعة . ومتهمين : ساكنين في التهام ، وهي المنخفض من الأرض . والمنجد : من يسكن النجد ، وهو المرتفع .

تَعَلَّمَ بِأَنَّ الرَّكْبَ رُكْبُ عَوْيَمِرِ هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلَفُونَ كُلُّ مُؤَعِدٍ
وَبَيَّوْا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّى هَجَوْتُهُ فَلَا حَمَلَتْ سَوطِي إِلَى إِذْنِ يَسْكَدِي
سِوَى أَنِّي قَدْ قُلْتُ وَيَلَّ أُمَّ فَنِيَّةٍ أُصِيبُوا بِنَحْسٍ لَا يَطْلُقُ وَأَسْعُدِ (١)
أَصَابَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِدِمَائِهِمْ كِفَاءً فَعَزَّتْ عَابِرَتِي وَتَجَلَّدِي
إِنَّ الْقَارِيءَ الْمَتَذَوِّقَ لِلشَّعْرِ يَقِفُ وَقْفَةً إِعْجَابٍ أَمَامَ قَوْلِ أَنَسٍ :

وما حملت من ناقة فوق رحلها

أَبْرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ

أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا

إِذَا رَاحَ كَالسَيْفِ الصَّقِيلِ الْمَهْنَدِ

إنه نفس المعنى الذى صاغه فيما بعد - فى عام الوفود - مالك بن نمط رئيس وفد
همدان بنفس الكلمات حين قال :

فما حملت من ناقة فوق رحلها

أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ

وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ

وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِقِ الْمَهْنَدِ

وهنا يسأل المرء نفسه : هل أخذ مالك المعنى من أنس بن زعيم فى مدحه رسول الله
يوم فتح مكة ؟ أم أنه السليقة العربية البدوية لاصطياد المعنى البكر المستمد من طبيعة
البيئة المشتركة ؟

(١) الطلق : الأيام السعيدة .

لعل الرأى الأخير هو الذى نميل إليه ، فقد يقع - فى الشعر - الحافر على الحافر كما يقول أبو الطيب . وقد قال دعبل الخزاعى عن بيت أنس : إنه أصدق بيت قالته العرب .

ومن الشعر الذى مدح به رسول الله ﷺ فاستحسنه وأثنى على قائله ما رواه ذابيل بن الطفيل بن عمرو الدوسى عن مقدم خُفَّاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفى على رسول الله ﷺ وهو قاعد فى مسجده منصرفه من الأباطح ، فأنشده : (١)

كَمْ قَدْ تَحَطَّمَتِ الْقَلُوصُ بِى الدُّجَى فى مَهْمِهِ قَفْرٍ مِنَ الْفَلَواتِ
فَلْ مِنَ التَّوْرِيسِ لَيْسَ بِقَاعِهِ نَبْتُ مِنَ الْإِسْنَاتِ وَالْأَزْمَاتِ
إِنِّى أَتَانِى فى الْمَنَامِ مُسَاعِدٌ مِنْ جِنَّ وَجْرَةٍ كَانَتْ لِي وَمُؤَاتِ
يَدْعُو إِلَيْكَ لِيَالِيَا وَلِيَالِيَا ثُمَّ اخْرَأَلْ وَقَالَ لَسْتُ بِآتِ
فَرَكِبْتُ نَاجِيَةً أَضْرَبُ بَيْنَهُمَا جَهْرٌ تَجِبُّ بِهِ عَلَى الْأَكْمَاتِ
حَتَّى وَرَدْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ جَاهِدًا كَيْمًا أَرَاكَ مُفْرَجِ الْكُرْبَاتِ

فلما انتهى خفاف من إنشاده استحسنه رسول الله ﷺ وقال : « إن من البيان كالسحر ، وإن من الشعر كالحكم » (٢) (*).

(١) أورد ابن حجر فى الإصابة ترجمة مقتضبة لذابيل بن الطفيل برقم ٢٤٢٨ بالمجلد الأول ، كما أورد خبر وفادة خفاف ابن نضلة على رسول الله ﷺ وإنشاده قصيدته ، وإطراء رسول الله ﷺ إياها فى الترجمة رقم ٢٢٧٤ من نفس المجلد . والخبر بجملته أخرجه أبو سعد النيسابورى فى شرف المصطفى ، والبيهقى فى دلائل النبوة .
(٢) الأبيات فى سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٠٠ ونهاية الأرب للنويرى ١٨ / ١٤٦ ، وأبيات منها فى ترجمة خفاف السابق الإشارة إليها فى الإصابة .

(* معانى المفردات :

تحطمت : يعنى تكسرت ، القلوص : الناقة الشابة . الدجى : ظلمة الليل ، المهمة : المفازة والبرية . الفلوات : جمع فلاة ، وهى الأرض لا ماء فيها ، الفل - بقاء مكسورة - : القوم المنهزمون ، من الفل : وهو الكسر . التوريس : من ورس الثوب بالورس ، أى : صبغه . الإسنيات : الجذب . وجرة : اسم لفلاة بين قران وذات عرق بها =

ومجمل القول : إن مدائح الشعراء في رسول ﷺ من الوفرة والدفء والجمال والعمق بحيث لا تستقصى ، وقد قيلت في مناسبات متعددة ، وهي أكثر ما تكون في الغزوات والوفود ، وهي في جملتها نماذج صادقة لموقف رسول الله ﷺ من الشعر ، تمثل مبلغ عنايته بالاستماع إليه ، ومقدار إعجابه بما كان رفيع المعانى شريف القصد منه ، وقد بدا ذلك واضحا في مواقف كثيرة ، منها هذا الموقف ، ومواقفه من سليم في هوازن ، وموقفه حين استمع إلى عمرو بن سالم ، وموقفه من شعر قتيلة بنت النضر وغير ذلك كثير .

=الوحش ولا ماء فيها . المواتى : الموافق ، احزأل : يعنى انفرد . والاحزئلال : الانفراد ، الناجية : الناقة السريعة التى تنجو بصاحبها ، النى : الشحم واللحم ، الجمز ، ضرب من السير السريع ، تجبّ : تقطع . وروى تحب - بالخاء - من الخبب : وهو نوع من المشى السريع .



الفصل الثالث

استسقاء النبي ﷺ

- الشعراء يناشدون الرسول الاستسقاء .
- «الرسول يستسقى به وهو غلام .

استسقاء النبي ﷺ

المطر حياة الناس والحيوان والنبات ، إذا كثر سعد الناس ، وارتوت الأنعام ، واخضر الشجر ، واعشوشبت الأرض ، وعاش الناس في نعيم وعيش رغيد ، وإذا انحسب المطر أجذبت الأرض ، وجف الضرع ، وصوح النبات . وقل الخير .

ولكن الناس إذا ما اتجهوا إلى الله بقلوب مؤمنة ، ونفوس ضارعة ، وأرواح خاشعة ، وسألوه - سبحانه - وصلوا صلاة الاستسقاء - وهي شعيرة إسلامية - تفضل الله عليهم بسوق السحاب ، وهطول الأمطار التي تبذل جدهم خصبا ، وفقدهم غنى ، وبؤسهم سعادة .

وكانت عبارات رسول الله ﷺ وهو يتضرع إلى الله في طلب السقيا واستمطار السحاب نموذجا فريدا لألوان المناجاة الربانية ، ومثالا نورانيا للضراعات الإلهية ، بلاغة قول ، وفصاحة لفظ ، ونصاعة بيان ، وعمق خشوع ، وصرف خضوع . إنها مناجاة سيد الخلق لسيدته إله الكون الإله الرزاق الجواد الذي له ما في السموات والأرض ، سبحانه اللطيف الخبير .

قال أنس بن مالك : قَحَلَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَاهُ الْمُسْلِمُونَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَحَطَ الْمَطْرُ ، وَيَيْسُ الشَّجَرُ ، وَهَلَكَتِ الْمَوَاشِي ، وَأُسْنَتَ النَّاسُ ، فَاسْتَسْقَى لَنَا رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ .

فقال : إذا كان يوم كذا وكذا فاخرجوا واخرجوا معكم بصدقات .

فلما كان ذلك اليوم خرج رسول الله ﷺ والناس معه ، يمشى ويمشون ، عليهم السكينة والوقار ، حتى أتوا المصلى ، فتقدم النبي - عليه السلام - فصلى بهم ركعتين ، يجهر فيهما بالقراءة ، فلما قضى صلاته استقبل القوم بوجهه ، وقلب رداءه ، ثم جثا

على رُكْبَتَيْهِ ، ورفع يديه ، وكبر تكبيرة قبل أن يَسْتَسْقِيَ ، ثم قال : « اللهم اسْقِنَا وأغثنا ، اللهم اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا ، وَحَيًّا رَيْبًا ، وَجَدًّا طَبَقًا غَدَقًا مُغْدِقًا مُونِقًا عَامًّا ، هَيْنِيئًا مَرِيئًا مَرِيعًا ، مُزْتَعًا مُزْبِعًا وَإِبِلًا ، سَابِلًا مُسْبِلًا مُجَلَّلًا دَائِمًا دِرْرًا ، نافعًا غيرَ ضارٍّ ، عاجلاً غيرَ راثٍ . اللهم غَيْثًا تُحْمِي به البلاد ، وتُغِيثُ به العباد ، وتجعله بلاغًا للحاضر منا والباد .

اللهم أنزل في أرضنا زيتها ، وأنزل علينا في أرضنا سُكْنَهَا .

اللهم أنزل علينا من السماء ماءً طَهُورًا ، فأحْيِ به بلدةً مَيْتًا ، واسْقِهِ مِمَّا خَلَقْتَ لنا أنعاماً وأناسٍ كثيراً .

قال فما بَرَحْنَا حتى أَقْبَلَ قَزَعٌ من السَّحَابِ ، فالتأم بعضه إلى بعض ، ثم مطرت عليهم سبعة أيام ولياليهن لا يُقْلَعُ عن المدينة .

فأتاه المسلمون ، فقالوا : يا رسول الله ، قد غرقت الأرض ، وتهدمت البيوت ، وأنقطعت السبل ، فادع الله تعالى أن يصرفها عنا . فضحك رسول الله ﷺ على المنبر حتى بدت نواجذُه ، تعجباً لسرعة ملالة ابن آدم ، ثم رفع يديه ، فقال : « اللهم حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا ، اللهم على رؤوس الجبال ، ومناكب الشجر وبُطون الأودية وظهور الأكام » .

فتصدعت عن المدينة حتى كانت في مثل التُّرس عليها كالفُسطاط ، ثم طرَ مَرَايِهَا وَلَا يُمَطَّرُ فِيهَا قَطْرَةٌ . (١) (*)

(١) منال الطالب / ١ ، ٩٨ ، ٩٩ ، والحديث أخرجه الزمخشري في الفائق / ١ ، ٣٤١ .

(*) معانى المفردات :

القحط : احتباس المطر . أسنت الناس ، فهم مستنون : إذا دخلوا في السنة ، وهي الجذب . الحيا : المطر . الجدا (مقصورا) : المطر العام . الطبق : الذى يطبق الأرض ، أى : يعمّ وجهها ، الغدق - كالعسل - : الكثير القطر ، المربع : المخصب الناجع في المشية . المربع - بالباء - : الدائم المقيم ، الوابل : المطر الشديد ، السابل : السحاب الماطر . الدرر - بكسر ثم نصب - : جمع الدرّة : وهى المطر . الرائث : البطيء ، السكن - بضم ثم سكون - : القوت الذى يسكن به في البلاد ، القزع : جمع قزعة - بفتح القاف والزاي - هى القطع المتفرقة من السحاب ، الظراب - بكسر الظاء - : جمع ظرب - بفتح ثم كسر - : هو الجليل الصغير . الأكام : الروابي .

الرسول يناشده الشعراء الاستسقاء :

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، قد أتيناك وما لنا بغير يئط ، ولا صبي يصطحب ، وأنشد :

أَتَيْنَاكَ وَالْعَذْرَاءُ يَدْمَى لِبَانُهَا وَقَدْ شُعِلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ
وَأَلْقَى بِكَفَيْهِ الْفَتَى اسْتِكَانَةً مِنَ الْجُوعِ ضَعْفًا مَا يُمِرُّ وَمَا يُجْلِي
وَلَا شَيْءَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا سِوَى الْحَنْظَلِ الْعَامِيِّ وَالْعِلْهِزِ الْفَسْلِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فِرَارُنَا وَأَبْنُ فِرَارِ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرَّسْلِ (١)

فقام رسول الله ﷺ يَجْرُ رِداءَهُ حَتَّى صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيعًا غَدَقًا طَبَقًا ، عاجلاً غيرَ راثٍ ، نافعاً غيرَ ضارٍّ ، تملأ به الضرع ، وتثبت به الزرع ، وتحمي به الأرض بعد موتها وكذلك تُخْرِجُونَ » .

قال : فما رد رسول الله ﷺ يديه إلى نحره حتى التقت السماء بأزواقها ، وجاء أهل البطانة يَضْجُونَ : يا رسول الله ، الغرقُ الغرقُ . فرفع يده إلى السماء ، وقال : « اللهم حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا » فَأَنْجَابَ السَّحَابُ عَنِ الْمَدِينَةِ حَتَّى أَحْدَقَ بِهَا كَالْإَكْلِيلِ . فضحك رسول الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ ، ثم قال : لله أبو طالب ! لو كان حياً قَرَّتْ عَيْنَاهُ ، مَنْ الَّذِي يُنْشِدُنَا قَوْلَهُ ؟ فقام على بن أبي طالب ، فقال : يا رسول الله ، كأنك أردت قوله :

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهَمُّ عِنْدَهُ فِي نَعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللَّهِ يُبْزَى مُحَمَّدٌ وَلَمَّا نُقَاتِلْ دُونَهُ وَنُضَاضِلِ
وَنُسَلِمَهُ حَتَّى نُصْرِعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنِ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَالِئِلِ

(١) هذه الأبيات تنسب إلى لبيد يخاطب بها رسول الله ﷺ حين وفد عليه في جماعة من قومه مع اختلاف في الرواية .

فقال رسول الله : أَجَلٌ ، فقام رجلٌ من كِنَانَةٍ ، فقال :

لَكَ الْحَمْدُ وَالْحَمْدُ مِمَّنْ شَكَرَ سُقِينَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ الْمَطَّرِ
دَعَا اللَّهَ خَالِقَهُ دَعْوَةً إِلَيْهِ وَأَشْخَصَ مِنْهُ الْبَصَرَ
فَلَمْ يَكُ إِلَّا كَالْقَا الرَّدَاءِ وَأَسْرَعَ حَتَّى رَأَيْنَا السَّدْرَ
دُفَاقَ الْعَزَائِلِ جَمَّ الْبُعَاقِ أَغَاثَ بِهِ اللَّهُ عَلِيًّا مُضْرَ
وَكَانَ كَمَا قَالَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ أَبِيضٌ ذُو غُرْرَ
بِهِ اللَّهُ يَسْقِي صَوْبَ الْغَمَامِ وَهَذَا الْعِيَانُ كَذَاكَ الْخَبْرَ
فَمَنْ يَشْكُرُ اللَّهَ يَلْقُ الْمَزِيدَ وَمَنْ يَكْفُرُ اللَّهَ يَلْقُ الْغِيْرَ

فقال رسول الله ﷺ : « إن يك شاعرٌ أحسنَ فقد أحسنت » (١).

نلاحظ هنا أن الرسول ﷺ قد أبدى ارتياحه لأبيات عمه أبي طالب في الاستسقاء - وكان أبو طالب وأكثر بنيه شعراء مجيدين - كما أن الرسول ﷺ قد أطرى الشاعر الكنانى وحيّاه بإحدى عباراته الناصعة البيان إعجابا بشعره ، وذلك في قوله الشريف : « إن يك شاعرٌ أحسنَ فقد أحسنت » .

(١) منال الطالب ١ / ٩٩ وما بعدها ، والخصائص الكبرى للسيوطى ٢ / ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

المعاني :

الأطيط : حنين الناقة وصباحها ، يريد أن الجذب قد ذهب بالإبل كلها ، الاصطباح : شرب الصبوح ، وهو ما يشرب من اللبن وغيره في الغداة . اللبان : الصدر . الاستكانة : الذل والخضوع . ما يمر وما يجلى ، أى : ما يتكلم بمر من الكلام ولا حلو ، وذلك بسبب الجوع والضعف ، العلهز - بكسر العين والهاء - : شئء كانوا يدخرونه لعام الجذب يأكلونه ، الأرواق : الأثقال ، أى : ألقت السماء بيائها الكثير المثقل للسحاب . أهل البطانة : هم الذين كانوا ينزلون حولى المدينة . الإكليل : العصاة التى تعمل على الرأس كالتاج ، أى : صار السحاب حول المدينة كالإكليل حول الرأس . قرت عيناه ، أى : بردت دمعته ؛ لأن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن حار ، الثيال - مثلثة الثاء - : المطعم - يضم الميم ثم سكون فكسر - يستسقى الغمام بوجهه ، أى : بجاهه وحرمة . نصرع - بتشديد الراء المكسورة - أى : تقتل ونرمى على الأرض . الحلائل : الزوجات . الذرر - بكسر الدال - جمع ذرة : المطر . العزائل : مقلوب العزالي جمع عزلاء ، وهى : فم الزادة من أسفلها الذى يخرج منه الماء ، البعاق - بالضم - المطر العظيم الانصباب . الصوب : نزول المطر . الغير - بكسر الغين - : الحوادث وتغير الحال .

الرسول يُستسقى به وهو غلام :

تروى هذا الخبر رقيقة (مصغرة) بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبد المطلب بن هاشم ، وهى والدة مخزومة بن نوفل . وكانت لدة لعبد المطلب ، وأدركت البعثة النبوية وأسلمت ، وكان لها صحبة لرسول الله ﷺ وهى التى حدثت رسول الله ﷺ بشأن تأمر قريش عليه فى ليلة اجتماعهم يريدون قتله ، فتحول عن فراشه وبات فيه على بن أبى طالب (١).

قالت : تتابعث على قُرَيْشٍ سِنُو جَدْب ، أَفَحَلَّتِ الْأَرْضُ وَالضَّرْعَ ، وَأَرْزَقَتِ الْعَظْمَ فِينَا أَنَا رَاقِدَةٌ - اللَّهُمَّ - أَوْ مُهُومَةٌ ، ومعى صِبْوَتِي ، إِذْ أَنَا بِهَاتِفِ صَيِّتٍ يَصْرُخُ بِصَوْتِ صَحْلٍ ، أَفْشَعَرَ لَهُ جِلْدِي ، يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ قَرَيْشٍ ، إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْمَبْعُوثَ مِنْكُمْ قَدْ أَظَلَّتْكُمْ أَيَّامُهُ ، وَهَذَا إِتَّانُ نُجُومِهِ ، فَحَيَّ هَلَا بِالْحَيَا وَالْحِصْبِ ، أَلَا فَانظُرُوا فِيكُمْ رَجُلًا وَسَيْطًا جُسَامًا طَوَالًا ، أَبْيَضَ بَصًّا ، أَسْمَ الْعَرِزِينَ ، أَوْطَفَ الْأَهْدَابِ ، سَهْلَ الْخَلْدَيْنِ ، لَهُ فَخْرٌ يَكْظُمُ عَلَيْهِ ، وَسُنَّةٌ تَهْدِي إِلَيْهِ ، أَلَا فَلْيَخْلُصْ هُوَ وَوَلَدُهُ ، وَلْيَذَلِّفْ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ ، أَلَا فَلْيَسْتَنْوُوا مِنَ الْمَاءِ ، وَلْيَمَسُّوا مِنَ الطَّيِّبِ ، وَلْيَسْتَلِمُوا الرُّكْنَ ، وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ سَبْعًا ، ثُمَّ لِيَرْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ ، أَلَا وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِدَائِهِ ، أَلَا فَلْيَسْتَسْقِ الرَّجُلُ ، وَلْيُؤْمِنِ الْقَوْمُ ، أَلَا فَعِثْتُمْ إِذَا مَا شِئْتُمْ وَعِشْتُمْ .

قالت : فأصبحتُ - علم الله - مَدْعُورَةٌ ، قَدْ قَفَّ جِلْدِي ، وَوَلَّهَ عَقْلِي ، فَاقْتَصَصْتُ رُؤْيَايَ ، وَنَمَتُ فِي شَعَابِ مَكَّةَ ، فَوَالْحُرْمَةِ وَالْحَرَمِ إِنْ بَقِيَ بِهَا أُبْطَحِي إِلَّا قَالَ : هَذَا شَيْبَةُ الْحَمْدِ ، وَتَنَامَتْ عِنْدَهُ رَجَالَاتُ قُرَيْشٍ ، وَانْقَضَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ ، فَسَنُّوا ، وَمَسُّوا ، وَاسْتَلَمُوا وَاطُوفُوا ، ثُمَّ ارْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ ، وَطَفِقَ الْقَوْمُ يَدْفُونَ حَوْلَهُ ، مَا إِنْ يُدْرِكُ سَعْيُهُمْ مَهْلَهُ ، حَتَّى قَرُّوا بِذُرْوَةِ الْجَبَلِ ، وَاسْتَكْفُوا جَنَابِيهِ .

فقام عبد المطلب ، فاعتضد ابنه محمداً ، فرفعه على عاتقه ، وهو يومئذ غلام قد أيفع أو كرب ، ثم رفع يديه ، فقال : اللهم ساد الخلة وكاشف الكربة ، أنت عالم غير

(١) الإصابة ٤ / ٣٠٣ الترجمة رقم ٤٢٥ .

مُعَلَّم ، ومسئول غير مُبَحَّل ، وهذه عِدَاؤُكَ وإِمْاءُكَ بِعِذْرَاتِ حَرَمِكَ ، يَشْكُونُ إِلَيْكَ سَنَتَهُمْ ، أَذْهَبَتِ الْخُفَّ وَالظَّلْفَ ، فَاسْمَعَنَّ اللَّهُمَّ ، وَأَمْطِرَنَّ عَلَيْنَا غَيْثًا مُرَبِّعًا مُعْدِقًا . فَوَرَّبْتُ الْكَعْبَةَ مَارَامُوا حَتَّى تَفَجَّرَتِ السَّمَاءُ بِإِيَّاهَا ، وَكَظَّ الْوَادِي بِشَجِيحِهِ ، فَسَمِعْتُ شَيْخَانَ قُرَيْشٍ وَجِلَّتْهَا : عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُدْعَانَ ، وَحَرْبَ بْنَ أُمَيَّةَ ، وَهَشَامَ بْنَ الْمُغِيرَةَ ، تَقُولُ لِعَبْدِ الْمُطَّلَبِ : هَنِيئًا لَكَ أَبَا الْبَطْحَاءِ ، وَفِي ذَلِكَ تَقُولُ رُقَيْقَةَ :

بشيبية الحمد أسقى الله بلدتنا وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر
فجاد بالماء جوني له سبل سحفا فعاشت به الأنعام والشجر
منا من الله بالميمون طائرُهُ وخير من بشرت يوما به مضر
مبارك الوجه يستسقى الغمام به مافي الأنام له عدل ولا خطر (١)

هكذا كان الشعر في ركاب رسول الله ﷺ وحوله وبين يديه منذ أن كان يافعا يستسقى به المطر مع جده المحب له والأثير لديه ، ثم رافقه استسقاء في سنوات الرسالة ، استنشادا ومدحيا ودفاعا عنه وهجاء لأعدائه ووصفا لمعاركه وتسجيلا لمواقعه ورتاء لشهداء دعوة الإسلام على النحو المبين في حنايا هذا الفصل . وكان شعرا جادا

(١) الفائق ٣ / ١٥٩ - ١٦٢ ودلائل النبوة ١ / ٣٦١ - ٣٦٥ ، وأسد الغابة ٧ / ١١١ - ١١٣ .

المعاني :

الرقود : النوم المستحكم . التهويم : النوم الخفيف ، الصبوة - بالكسر - : الأولاد الصغار . الصحل - بفتح ثم كسر : الذى فى صوته بحة . إبان نجومه : يعنى وقت ظهوره . أشم العرينين : مرتفع الأنف . أوظف الأهداب ، من الوظف ، وهو طولها . الكظم : الكتم والإمساك على الشيء . ألا فليخلص هو وولده : يعنى فليتميزوا ويفردوا من الناس . الشن : صب الماء على الرأس والبدن متفرقا ، ومنه شن الغارة : إذا أخذتهم من نواحيهم . قف الجلد : إذا تقبض وارتعد . الوله : الحيرة والدهش ، الأبطحى : المنسوب إلى أبطح مكة ، وهو ظاهرها . يدقون - بالفاء المشددة - من الدقيق ، وهو : المز السريع ، استكفوا به - بالفاء المشددة - : أحذقوا به وصاروا حوله . أيفع الغلام أو كزبت ، أى : إذا سب وترعرع وشارف الاحتلام . الخلة - بالفتح - : الحاجة . العبداء : العبيد ، العذرات : جمع عذرة ، وهى فناء البيت . ماراموا : مابرحوا وما زالوا ، الشجيج : الماء المصبوب المتدفق . اجلوذ المطر أى : ذهب وقل ، وأصله من اجلوذ فى السير ، أى : أسرع . السبل - بالتحريك - : المسبل . الميمون طائره ، أى : المبارك المقبل السعيد ، وهو من التيمن بالطير السانح ، وضده التشاؤم بالطير البارح . العذل : المثل والنظير .

نبيلاً بناء غير مترخص ولا متخاذل ، وكان الرسول يمتدحه ويطرى منشديه بعبارات
حمدية لا يصدر مثلها إلا عنه - صلى الله وسلم وبارك عليه - ولا يزال إطرأؤه لشاعر
كنانة يرن في أسماعنا في رفق وإجلال ، وذلك في قوله الشريف : « إن يك شاعر أحسن
فقد أحسنت » .



الفصل الرابع

الرسول وخبر قسّ بن ساعدة

الرسول وخبر قس بن ساعدة الإيادي

نحن نسوق هذا الخبر في مقام احتفال رسول الله ﷺ بالشعر الجيد الذى تؤدى روايته نفعا ، ويخلف إنشاده موعظة ، فقد عرفنا من خلال ما هو مسطور في هذا الباب أن عناية رسول الله ﷺ كانت منصرفة إلى الشعر البليغ الذى يخدم غاية نبيلة ويخلف أثرا جميلا .

وقبل أن نمضى قدما في حديث قس وخبره لا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض الحفاظ قد صنفوا هذا الخبر بين الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية ، ومن ثم كان علينا قبل أن نضمّن هذا الخبر الكتاب الذى بين أيدينا ، إعمال بعض الجهد لكى نتأكد من صحة الخبر ، وعمّا إذا كان الحديث صحيحا أو موضوعا .

لقد حفلت كتب التراث بذكر خبر قس ، وهذه الكتب من الطبقة العليا مثل البيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبدربه ، والمعمرين لأبى حاتم . والأغانى لأبى الفرج ، ودلائل النبوة لأبى نعيم ، والأوائل لأبى هلال العسكري ، والمنازل والديار لأسامة بن منقذ ، وتصحيح الفصيح لابن درستويه ، وشرح مقامات الحريري للشريشى ، وخزانة الأدب للبغدادى ، وغير ذلك .

هؤلاء المؤلفون العظام جعلونا نترث في قبول الطعن الذى وجهه بعض الحفاظ الذين لهم مقامهم من الإجلال مثل شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى في « الإصابة » والحافظ الهيثمى في « مجمع الزوائد » والجلال السيوطى في « اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية » .

على أن هناك محدثين لهم قدرهم ومكانتهم في خدمة حديث رسول الله ﷺ قد أيدوا

صحة الخبر مثل الحافظ ابن كثير في « السيرة النبوية » والبيهقي في « دلائل النبوة » وابن سيد الناس في « عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير »

ولقد لفت نظرنا بشكل خاص رواية الحافظ الفتح بن سيد الناس من حيث صحة الإسناد وثقة الرواة الذين ضمتهم السلسلة عن طريقين : الطريق الأول بداية من الشيخة أمة الحق شامية ابنة الإمام الحافظ أبي علي الحسن بن محمد البكري ، وانتهاء بمجالد عن الشعبي عن عبدالله بن عباس (١).

والطريق الثاني بداية من شيخه أبي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني وانتهاء بعبد الله بن عباس (٢).

أما وقد اطمأن القلب إلى صحة الخبر ، فإننا نجد أنفسنا بين روايتين لا تختلفان إلا من حيث بعض التقديم وبعض التأخير ، هما رواية الحافظ مجد الدين أبي السعادات ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ورواية الحافظ الفتح بن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ ، وإن كلا من الرجلين حافظ محدث ثقة ، ولكننا آثرنا إيراد رواية ابن الأثير لأنه أسبق زمنًا ، ولأنه صاحب مشاركة في التأليف الأدبي ، فضلا عن كتبه في علوم الحديث ، فمن ذلك كتاب البديع ، وصناعة الكتاب ، والمختار في مناقب الأخيار ، وديوان رسائل ، ومنال الطالب في شرح طوال الغرائب (٣) ، وهو الكتاب الذي بين أيدينا ، والذي بذل فيه محققه عناء كبيرا وجهدا مشكورا . يقول الخبر :

لَمَّا قَدِمَ وَفَدُّ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ لَهُمْ : أَفِيكُمْ مَن يَعْرِفُ قَسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيَّ ؟ قَالُوا : كُلُّنَا نَعْرِفُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : فَمَا فَعَلَ ؟ قَالُوا : هَلَكَ . قَالَ : لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَازٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَأَقْفٌ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ وَهُوَ يُنَادِي وَيَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا وَاسْتَمِعُوا . وَإِذَا سَمِعْتُمْ فَعُؤًا ، وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَانْتَفِعُوا ، وَإِذَا انْتَفَعْتُمْ فَقُولُوا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فاصدُّوا ، مَن عَاشَ مَاتَ ، وَمَن مَاتَ فَاتَ ، وَكُلُّ مَا

(١) عيون الأثر / ١ / ٦٨ .

(٢) المصدر السابق / ١ / ٦٩ .

(٣) تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي ، مركز إحياء التراث بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

هو آتٍ آتٍ ، مَطَرٌ وَنَبَاتٌ ، وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ ، وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ ، وَجَمِيعٌ وَأَشْنَاتٌ ،
 وَأَيَّاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبْرًا ، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا ، يَحَارُ فِيهَا الْبَصَرُ ، مِهَادٌ
 مَوْضُوعٌ ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ ، وَنُجُومٌ تَمُورُ ، وَيَحَارُ لَا تَعُورُ ، وَمَنَايَا دَوَانٍ ، وَدَهْرٌ نَحْوَانٌ ،
 كَحَذْوِ النَّسْطَاسِ ، وَوِزْنِ الْقُسْطَاسِ . أَقْسَمُ قُسٌ قَسْمًا حَقًّا ، لَا كَاذِبًا فِيهِ وَلَا آثِمًا : إِنَّ
 اللَّهَ دِينًا هُوَ أَرْضَى لَهُ مِنَ الدِّينِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ .

ثم قال : مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ! أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟
 ثم التفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فقال : أيكم يروى لنا شعره ؟ فقال أبو
 بكر : أنا شاهد له في ذلك اليوم حيث يقول :

فِي الذَاهِبِينَ الْأَوْلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
 لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لَلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
 وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمْضِي الْأَكَابِرُ وَالْأَصَاغِرُ
 لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ (*)
 أَيَقْنَتْ أَنِّي لَأَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس ، طويل القامة عظيم الهامة ،
 ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ ، جَهْوَرِيُّ الصَّوْتِ ، فقال : فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَنَا فَقَدْ
 رَأَيْتُ مِنْ قُسِ بْنِ سَاعِدَةَ عَجَبًا .

فقال له رسول الله : وما الذى رأيت منه يا أخوا عبد القيس ؟

فقال : خرجت في جاهليتي ، أريغُ بغيراً شردَ مني ، أفضو أثره في تنائفِ حِقَافٍ ،
 ذَاتِ ضَغَائِيْسٍ ، وَعَرَصَاتِ جَنْجَابِ ، بَيْنَ صَدُورِ جِرْعَانٍ ، وَغَمِيرِ حَوْذَانٍ ، وَمَهْمَةٍ
 ظُلْمَانٍ ، وَرَضِيعِ أَيُّهْمَانٍ ، فبينما أنا في تلك الفلوات أجوبُ بسببها - وفي رواية :

(*) البيت في عيون الأثر هكذا :

لا يرجع الماضى إلى ولا من الباقين غابر

سَبَسَبَهَا - وَأَرْمُوْهُ فَدَفَدَهَا . إِذْ أَنَا بِهَضْبِيَّةٍ فِي تَسْوِئَتِهَا أَرَاكَ كَبَاثٍ ، مَخْضُوضِلَةٌ بِأَغْصَانِهَا
كَأَنَّ بَرِيْرَهَا حَبٌّ فَلُفْلُ ، مِنْ بَوَاسِقِ أَفْحُوَانٍ ، وَإِذَا أَنَا بِعَيْنِ خَرَّارَةٍ ، وَرَوْضَةٍ مُدْهَامَةٍ ،
وَشَجْرَةٍ عَادِيَّةٍ ، وَإِذَا قُسٌّ بِنُ سَاعِدَةٍ جَالِسٍ فِي أَصْلِ تِلْكَ الشَّجْرَةِ ، وَبِيَدِهِ قَضِيْبٌ ،
فَدَنَوْتُ مِنْهُ ، فَقُلْتُ : انْعَمَ صَبَاحًا ، فَقَالَ : وَأَنْتِ فَتَنِعِمَ صَبَاحُكَ . .

قال : وَإِذَا قَبْرَانِ بَيْنَهُمَا مَسْجِدٌ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَانِ الْقَبْرَانِ ؟ فَقَالَ : هَذَانِ قَبْرَا
أَخَوَيْنِ كَانَا لِي ، يَعْبُدَانِ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَأَنَا مُقِيمٌ بَيْنَ قَبْرَيْهِمَا . أَعْبُدُ
اللَّهَ تَعَالَى حَتَّى أَلْحَقَ بِهِمَا ، ثُمَّ أَقْبِلُ عَلَى الْقَبْرَيْنِ يَبْكِي ، وَيَقُولُ :

خَلِيْلٌ هَبًّا طَالَ مَا قَدِ رَقَدْتُمَا أَجِدْكُمْ مَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا (*)
أَرَى النَّوْمَ بَيْنَ الْعَظْمِ وَالْجُلْدِ مِنْكُمْ كَأَنَّ الَّذِي يَسْقِي الْعُقَارَ سَقَاكُمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانَ مُفْرَدٌ وَمَالِي فِيهِ مِنْ حَبِيْبٍ سِوَاكُمْ
مُقِيمٌ عَلَى قَبْرَيْكُمَا لَسْتُ بَارِحًا أَذُوْبُ اللَّيَالِي أَوْ يَجِيْبُ صَدَاكُمَا
وَأَبْكِيكُمَا طَوْلَ الْحَيَاةِ وَمَا الَّذِي يَرُدُّ عَلَيَّ ذِي لَوْعَةٍ إِنْ بَكَاكُمَا
كَأَنْكُمَا وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ غَايَةٍ بِرُوحِي فِي قَبْرَيْكُمَا قَدْ أَتَاكُمْ
فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ فِدَاءِهَا لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمْ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَرْحَمُ اللَّهُ قُتْسًا ، أَمَا إِنَّهُ سَيُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ » .

يقول ابن الأثير : وفي رواية أخرى : قدم الجارود بن عبد الله في وفد عبد القيس ،
على رسول الله ﷺ ، وكان سيِّدًا في قومه ، مُطَاعًا في عشيرته ، في كُلِّ كَيْمِيٍّ صِنْدِيْدٍ ،
قَدْ دَوَّمُوا الْعِمَائِمَ ، وَتَرَدُّوا بِالصَّاصِمِ ، يُجْرُونَ أَسْيَافَهُمْ ، وَيَسْحَبُونَ أَذْيَالَهُمْ ، كَأَنَّهُمْ

(*) خالَجَ بَعْضُ الدَّرَاسِيْنَ شِكَّ فِي نِسْبَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ لِقُتْسٍ ، وَنَسَبُوهَا إِلَى عَيْسَى بْنِ قَدَامَةَ الْأَسَدِيِّ ، وَبِمَرَاجِعَتِنَا
لِلْمَصْدَرِ الَّذِي ذَكَرَ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَجَدْنَا أَنَّ عَيْسَى بْنِ قَدَامَةَ كَانَ يَنْشُدُهَا عَلَى قَبْرَيْنِ لِصَدِيقَيْنِ لَهُ ، كَانَ يَنْشُدُ
الْآيَاتِ وَهُوَ يَشْرِبُ خَمْرًا ، وَلَمْ يَذْكَرِ الْمَصْدَرُ أَنَّهُ صَاحِبُ الشَّعْرِ وَقَائِلُهُ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَتْرَنَمُ بِهِ ، كَذَلِكَ أُورِدَ
يَاقُوتَ قَصِيْدَةَ قَرِيْبَةٍ فِي صَوْغِهَا إِلَى قَصِيْدَةِ قُتْسٍ وَنَسَبَهَا إِلَى نَصْرِ بْنِ غَالِبٍ يَرْتِي صَدِيقَيْنِ لَهُ ، وَبِئْسَ فِي ذَلِكَ بَأْسٌ ،
فَرُبَّمَا تَأَثَّرَ نَصْرٌ بِقَصِيْدَةِ قُتْسٍ فَرَسَمَ عَلَ مِنْوَالِهَا (يَرَاوِجُ الْأَغَانِي ١٤ / ٤٢ ، ٤٣ طَبْعَةٌ بُولَاقٍ وَمَعْجَمُ الْبُلْدَانِ مَادَةٌ
رِوَاوِدٌ) .

أَسْدُ غَيْلٍ ، يَفْدُمُهَا ذُو لُبَّةٍ مِهُولٍ ، فَلَمَّا دَخَلُوا الْمَسْجِدَ ، دَلَّفَ الْجَارُودُ ، وَحَسْرَ لِيَاثَمَةَ ، وَأَحْسَنَ سَلَامَهُ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا نَبِيَّ الْمُهْدَى أَتَيْتُكَ رِجَالٌ قَطَعَتْ مَهْمَهَا وَأَلَّا فَا لَا
وَطَوَّتْ نَحْوُكَ الصَّحَابِ طُرّاً لَا تَخَالُ الْكِلَالَ فِيكَ كَلَالَا
كُلَّ يَهَاءٍ يَقْصِرُ الطَّرْفُ عَنْهَا أَرْقَلْتُنَا قِلَاصُنَا إِرْقَالَا
وَطَوَّيْنَا الْجِيَادُ تَجْمَعُ فِيهَا بِكُمَاةٍ كَأَنْجُمٍ تَنَلَلَا
تَبْتَنِي دَفْعَ بَأْسِ يَوْمِ عَبُوسٍ أَوْجَلَ الْقَلْبَ ذِكْرُهُ نَمَّ هَالَا

فَقَرَّبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَدْنَاهُ ، وَقَالَ : « يَا جَارُودُ ، لَقَدْ تَأَخَّرَ بِكَ وَبِقَوْمِكَ الْمَوْعِدُ ، وَطَالَ بِكُمْ الْأَمْدُ » .¹

فَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ أَخْطَأَ مِنْ أَخْطَأِكَ قَصْدَهُ ، وَعَدِمَ رُشْدَهُ ، وَتَلَّكَ - وَابِيْمُ اللَّهِ - أَكْبَرُ خَيْبَةٍ وَأَعْظَمُ حَوِيَّةٍ ، وَالرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَلَا يَغْشَى نَفْسَهُ ، لَقَدْ جِئْتُ بِالْحَقِّ ، وَنَطَقْتُ بِالصُّدُقِ ، وَلَقَدْ وَجَدْتُ وَصْفَكَ فِي الْإِنْجِيلِ ، وَلَقَدْ بَشَّرَ بِكَ ابْنُ الْبَيْتُولِ ، وَلَا أَتْرُ بَعْدَ عَيْنٍ ، وَلَا شَكَّ بَعْدَ يَقِينٍ ، مُدَّ يَدَكَ فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ .

فَأَمَّنَ الْجَارُودُ ، وَآمَنَ مِنْ قَوْمِهِ كُلِّ سَيِّدٍ .

ثُمَّ قَالَ : يَا جَارُودُ ، هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ الْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُصَا؟

فَقَالَ : كُلُّنَا يَعْرِفُهُ ، وَأَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْمِي كُنْتُ أَقْفُو أَثْرَهُ ، وَأَطْلُبُ خَبْرَهُ ، كَانَ قُسٌّ سِبْطاً مِنْ أَسْبَاطِ الْعَرَبِ ، صَحِيحُ النَّسَبِ ، فَصِيحاً ذَا حُطْبٍ ، عُمَرُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، أَوْ سِتْمِائَةٍ ، يَتَقَفَّرُ الْفِفَارَ ، لَا تُكِنُّهُ دَارٌ ، وَلَا يُقَرُّهُ قَرَارٌ . يَتَحَسَّى فِي تَقْفَرِهِ بَيْضَ النَّعَامِ ، وَيَأْنَسُ بِالْوَحْشِ وَالْهَوَامِّ . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَأَعْبَدُ مَنْ تَعْبَدُ فِي الْحِقَبِ . ثُمَّ أَطَالَ فِي وَصْفِهِ نَثْرًا وَنَظْمًا .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « عَلَى رِسْلِكَ يَا جَارُودُ ، فَلَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عَكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ لَهُ

أَوْزَقِي ، وهو يتكلم بكلام مُونِقِي ، ماأظنُّ أني أحفظه ، فهل فيكم يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظُ لنا منه شيئاً ؟ » .

فوثبَ أبو بكر ، وقال : أنا أحفظه ، وكنت حاضراً ذلك اليوم حينَ خطبَ ، أيها الناسُ اسمعوا وعوا . وذكر نحو ما تقدم . وفيه بعد قوله : « وإن في الأرض لَعِبْرًا » : ليلٌ داخٍ وسماءٌ ذات أبراجٍ ، وأرضٌ ذات رِجاجٍ ، وبحارٌ ذات أمواج . وذكر الحديث إلى آخر الأبيات الرائية .

ثم قال : وقام رجلٌ من الأنصار ، كأنه قطعة جَبَلٍ ، ذو هامةٍ عظيمةٍ وقامةٍ جسيمةٍ ، قد دوّمَ عِمامتهُ ، وأرخى ذُوأبتهُ ، مُنِيفٌ أنوفٌ أشدقُ أجشُ الصوت ، فقال : لقد رأيتُ من قسِّ عَجَباً ، وشهدتُ منه مُرْعَباً ، خرجتُ في الجاهلية أطلبُ بعيراً لي شرَكَ مني في تنايفِ حقائفٍ ، ذات دَعادِعَ وزَعازِعَ ، ليس بها للركبِ مَقِيلٌ ، ولا لغير الحِنِّ سبيلٌ ، فإذا أنا بموئلٍ مهولٍ ، في طَوْدٍ عظيمٍ ، ليس به إلا البُومُ ، إذ ركبني الليلُ ، فَوَجَّتهُ مذعوراً ، لا آمنُ فيه حَتْفِي ، ولا أركنُ فيه إلى غير سيفي ، فبتُّ بليلاً طويلاً ، كأنه بليلاً مَوْصُولٌ ، أرقبُ الكوكبِ ، وأرْمُقُ الغَيْهَبِ ، حتى إذا الليلُ عَسَعَسَ ، وكاد الصبحُ أن يتنفسَ ، ولاح الصَّبَاحُ ، واتسع الإيضاحُ ، فتركتُ المَوْزَ ، وأخذتُ في الجَبَلِ ، فإذا أنا بالفَنيقِ يُشْفِشِقُ النُوقِ ، فملكتهُ خِطامه ، وعلوتُ سنامه ، فمرح طاعة ، وهزرتُه ساعةً ، حتى إذا لَغَبَ ، ودلَّ منه ما صَعُبَ ، بَرَكَ في رَوْضَةٍ خَضِرَةٍ ، نَضِرَةٍ عَطِرَةٍ ، ذاتِ حُودَانٍ وقُرَيَانٍ ، وَعُنُقُزَانٍ وَعَبِيثَرَانٍ ، وحلى وأقاح وجنجاتٍ ، وبراريٍ وشقائقٍ وبهارٍ ، كأنها بات الجوُّ بها مطيراً ، وباكرها المزنُ بُكُوراً ، فخلالها شَجَرٌ ، وقرارها نَهْرٌ ، فجعل يَرْتَعُ أباً ، وأصيدُ ضَبّاً ، حتى إذا أكلتُ وأكل ، وتَهَلَّتُ وتَهَلَّ ، وعَلَلْتُ وعَلَّ ، حللتُ عِقَاله ، وعَلَوْتُ جِلاله ، وأوسعتُ مجالَه ، فأغتنمَ الحملةَ ، ومَرَّ كالنَبْلةِ ، يسبقُ الرِّيحَ ، ويقطعُ عَرَضَ الفَسِيحِ ، حتى أشرفَ بي على وادٍ ، وشجرةٍ من شَجَرِ عادٍ ، مُورِقَةٍ مُونِقَةٍ ، قد تهَدَلَّتْ أغصانُها ، كأنها بريُّها حَبٌّ فُلْفُلٌ ، فدنوتُ ، فإذا أنا بقسِّ بن ساعدةٍ في ظلِّ شجرةٍ ، بيده قَضِيبٌ من أراك ، وهو يقول :

بِإِنْعَامِ الْمَوْتِ وَالْمَلْحُودِ فِي جَدِّهِ
 عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا بَرِّهِمْ حَرَقُوا
 دَعْوَهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُّ بِهِمْ
 فَهُمْ إِذَا أَنْبَهُوا مِنْ نَوْمِهِمْ فَرَقُوا
 حَتَّى يَعُودُوا لِحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمْ
 خَلَقًا جَدِيدًا كَمَا مِنْ قَبْلِهِ خُلِقُوا
 مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَمِنْهُمْ فِي ثِيَابِهِمْ
 مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الْمُنْهَجُ الْخَلْقُ

ثم ذكر حديث القبرين والشعر ، كما سبق ، فقال النبي ﷺ : « رحم الله قساً ، أرجو أن يبعثه الله أمّةً وحده » .

أخبار قس بن ساعدة وما روى عنه من خطب ومن شعر لم تقتصر روايته على رواية الأخبار والأشعار ، وإنما جرى توثيقها على يد الحفاظ ورواية حديث رسول الله ﷺ على النحو الذى أوردنا فى صدر هذا الحديث عن قس ، وإن أخبار قس تمثل واحدة من البيئات التى توضح عناية رسول الله ﷺ بالشعر الراقى الرقيق ، الذى يعالج موضوعات الحكمة وقضايا الأخلاق ، وحقائق الإيمان بالله خالقاً للكون مرسلًا للأنبياء ، باعثة الخلق يوم الحساب والنشور (*).

(* معانى المفردات :

الأشتات : المتفرقون ، مار الشيء : إذا تحرك ، النسطاس : ريش السهم ، الدسيعة : مجتمع الكتفين ، وقيل : العتق ، أريغ : أطلب ، التنايف : جمع تنوفة ، وهى الفلاة البعيدة ، الحقاف : جمع حقف ، وهو الكتيب المجتمع المائل من الرمل . الضغبائيس جمع ضغبوس ، وهو نبت يؤكل - الجثجات : نبت أصفر طيب الرائحة . الجرعان - بكسر الجيم - جمع جرعة - بفتح الجيم والراء - الرملة التى لا تنبت شيئاً ولا تمسك ماء . الخمير : هو الغمور المستور - الحوزان : بقلة ذات نور أصفر . الظليمان : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . الأيهقان : الجرجير البرى . الفدغد : المكان الصلب المستوى . الكباث : ثمر الأراك قبل نضجه . والبرير : ثمر الأراك إذا نضج . المخضوضلة : الرطبة الندية . المدهامة : الشديدة الخضرة حتى تميل إلى السواد . أجدكها ؟ أى : أبجد منكها لا تقضيان نومكما ؟ الحوية - بالفتح والضم - : الإثم ، لا أثر بعد عين ، أى : لا يطلب أثر الشيء بعد أن ترى عينه وذاته . الكن - بكسر - أى : السترة . يتحشى فى تقفره بيض النعام : يعنى أنه كان فى سياحته لا يجد طعاماً ، فإذا وجد بيض النعام تحسّاه نياً . التآله : التعبد . الأنوف - بفتح الهمزة - : هو كبير الأنف ، وكنى به عن الشرف والمجد ، الدعادع : الأرض الجرداء من النبات ، جمع دعدع . الزعازع : الشدائد ، جمع زعزع . المقليل : موضع القائلة ، وهى شدة الحر . ركبته الليل : إذا أدركه . عسعس الليل : إذا ولى وأدبر إلا أقله ، وعسعس الليل : إذا أقبل ، وهو من الأضداد ، المور - بسكون الواو - : الطريق . ومار الشيء : ذهب . اللغوب : الإعياء - القرين : جمع قرى - بوزن صبر - هو مجرى الماء فى الروض - العنقزان - بضم العين والقاف وبفتحها أيضاً - : أصل القصب الغض ، العبيثران : نبت طيب الرائحة ، الحلى - بفتح وكسر - الكلا اليابس . الربيع بفتح ثم سكون : الرعى والتردد فى المرعى ، النهل : الشرب والرى ، والعل : الشرب بعد الشرب . المنهج - بضم الميم - : البالى ، يقال : نهج الثوب : إذا بلى .

ومن ناحية أخرى فإن التكريم الذى ناله قس بن ساعدة من لدن رسول الله ﷺ لم ينله بشر آخر من أعلام التاريخ من البشر ؛ لأن رسول الله ﷺ روى بعض كلامه المنشور، وكان يعرف شعره المنظوم ، غير أنه ﷺ اكتفى بذكر النثر ، وطلب إلى الصحابة ترديد الشعر ، استمع إليه بعناية واهتمام ورضى وسرور .

لقد فعل رسول الله ذلك مع ذكرى قس لأنه سمعه تجرى كلمات التوحيد على لسانه ، ويتكرر ذكر البعث والنشور فى كلامه ، فى وقت لم يكن من الخنفاء - وهم قلة - من كان على شاكلة قس فى إيمانه المعلن ، وتوحيده الصريح .



الفصل الخامس

كعب بن زهير

يعلن إسلامه وتوبته ، ويمدح رسول الله

بقصيدته الشهيرة

كعب بن زهير يمدح الرسول ويعلن إسلامه

بيت زهير :

زهير بن أبى سلمى هو أحد الشعراء الثلاثة الفحول المتقدمين على سائر شعراء الجاهلية باتفاق ، وإنما الخلاف على تقديم أحدهم على الآخر ، وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابعة الذبياني ، وقد أنجب زهير ولدين شاعرين مرموقين ، هما : بجير ، وكعب اللذان هما صلب هذا الفصل .

وقبل أن نمضى قدما فى خبر بجير وكعب وصلة كل منهما برسول الله ﷺ يجمل بنا الإشارة إلى ما انفردت به أسرة زهير من هيمنة على المحيط الشعري العربى فى الجاهلية والإسلام ، ويترجم هذا رأى ابن الأعرابى فى قوله : لزهير فى الشعر ما لم يكن لغيره ، كان أبوه شاعرا ، وخاله شاعرا ، وأخته سلمى شاعرة ، وأخته الخنساء شاعرة ، وإبناه كعب وبجير شاعرين ، وابن ابنه عقبة الملقب بالمضرب بن كعب شاعرا^(١) وللمضرب ابن اسمه العوام كان شاعرا^(٢) .

هكذا تضم الأسرة خمسة شعراء فى نسق واحد هم : العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى^(٣) ومن ثم فقد قيل : إن الشعر لم يتصل فى ولد أحد من الفحول ما اتصل فى ولد زهير .

وقد كان زهير يتأله ويتعفف فى شعره ، وإن بعض أبياته تدل على إيمانه بالبعث ، وذلك فى قوله :

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢ / ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٩ / ١٥٣ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص : ١٤٣ .

يُؤَخَّرُ فَيُودَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرُ

ليوم الحسابِ أو يُعَجَّلُ فَيُنْقَمَ

حتى ليظن أن زهيراً لو أدرك مبعث رسول الله لما تأخر في الاستجابة لداعى الإيمان ، ولكنه مات قبل المبعث بسنة واحدة .

كعب يوبخ أخاه على إسلامه :

أما كعب وبجير ابنا زهير فقد أسلما ، أسلم بجير مبكرا ، وكان مقربا من الرسول ﷺ وحضر فتح مكة في صحبة رسول الله ، وأما كعب فقد تأخر إسلامه ، بل إنه لم يرض عن إسلام أخيه ، وبعث إليه بأبيات يوبخه فيها على إسلامه ، ويعرض بالرسالة والرسول ﷺ قال فيها :

ألا أبلغا عنى بُجَيْراً رِسَالَةً فهل لكَ فيما قلتُ وَيْحَكَ هَلْ لَكَآ ؟ (١)

فَبَيِّنْ لَنَا إِنْ كُنْتَ لَسْتَ بِفَاعِلٍ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ دَلَّكَآ ؟ (٢)

عَلَى خُلُقِي لَمْ أَلْفِ يَوْمَا أَبَا لَكُ عَلَيْهِ وَمَا تُلْفِي عَلَيْهِ أَبَا لَكَآ

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِآسَفٍ وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَثَرْتُ : لَعَّا لَكَآ (٣)

سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ كَأَسَا رَوِيَّةً فَأَنْهَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَآ (٤)

وقد أورد ابن هشام رواية أخرى للأبيات باختلاف قليل ، ولكنها لا تبعد عن المعنى الذى قصد كعب إليه (٥).

(١) أبلغا : خطاب لاثنين ، والمراد الواحد ، أو خطاب لواحد مؤكد بنون توكيد خفيفة ، قلبت ألفا فى الوصل على نية الوقف .

(٢) فبين لنا : أى اذكر لنا مرادك من بقائك على دينك .

(٣) لعالك : كلمة تقال للعاثر ، وهى دعاء له بالإقالة من عثرته .

(٤) روية (فعيلة بمعنى مفعلة ، بضم الميم وكسر العين) أى : مروية . والنهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى . والمأمون : يعنى النبى ﷺ كانت قريش تسميه به وبالأمين قبل النبوة .

(٥) تراجع السيرة ٢ / ٥٠٢ .

وكان بجير من عمق الإيمان . بحيث كره أن يكتنم الأبيات عن رسول الله ﷺ فأنشده إياها ، فلما سمع رسول الله قول كعب : « سقاك بها المأمون » قال : « صدق وإنه لكذوب . أنا المأمون » ولما سمع « على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه » - وهى من الرواية الثانية للأبيات - قال : « أجل ، لم يلف عليه أباه ولا أمه » وقد قال رسول الله ﷺ ذلك تعبيرا عن غضبه واستيائه .

بجير يحضُّ كعباً على الإسلام :

هنالك تحركت مشاعر الأخوة في قلب بجير وقد خاف على أخيه من الكفر والقصاص ، فلما قدم رسول الله ﷺ منصرفه من الطائف كتب بجير إلى أخيه كعب يخبره بسوء العاقبة التى نالت كل من هجا رسول الله أو آذاه ، وأن من بقى من شعراء قريش كابن الزبعرى وهيرة بن أبى وهب قد هربوا كل مهرب ، وقال بجير لأخيه : فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، وإن لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض ، أى : إلى محل ينجيك منه ، وألحق بجير هذه الأبيات برسالته :

مَنْ مَبْلَغُ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي التِّي

تَلُوْمُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ

إِلَى اللَّهِ - لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتِ - وَحَدَهُ

فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتَسَلِّمُ

لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَليْسَ بِمُفْلِتٍ

مِنَ النَّاسِ إِلَّا طَاهَرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ

فَدَيْنُ زُهَيْرٍ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينُهُ

وَدَيْنُ أَبِي سُلَيْمَى عَلَى مُحَرَّمٍ

يروى ابن هشام وابن سيد الناس خبر كعب بعد ذلك قائلين : (١)

(١) السيرة ٢ / ٥٠٢ وعيون الأثر ٢ / ٢٠٩ .

فلما بلغ كعباً الكتاب ، ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره - أى : فى الحى الذى يقيم فيه - من عدوه ، فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شىء بدأ قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ﷺ ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال : هذا رسول الله ﷺ فقم إليه واستأمنه ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

كعب يسلم وينشد قصيدته :

وهنا وثب عليه رجل من الأنصار قائلاً : يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، قال رسول الله ﷺ : دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً ، فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فقال فى قصيدته (*) التى قال حين قدم على رسول الله ﷺ :

بانـت سعاد فقلـبى الـيوم متبول متيم إثرها لم يـفد مكبول (١)
وما سعادُ غداةَ البينِ إذ رَحَلُوا إلا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُول (٢)
هَيْفَاءُ مُقْبَلَةٌ عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ لا يُشْتَكَى قِصْرٌ مِنْهَا وَلَا طُول (٣)

(*) القصيدة جاءت كاملة فى ابن هشام صفحة ٥٠٤ - ٥١٣ .

- (١) بانـت : يعنى فارقت . متبول : يعنى أسقمه الحب ، لم يـفد : أى لم يخلص من الأسر . مكبول : يعنى مقيد .
(٢) الأَعْنُ (هنا) : الظبى الصغير الذى فى صوته غنة ، وهى صوت يخرج من الخياشيم ، وغضضيض الطرف : فاتره . ومكحول : من الكحل وهو سواد يعلو جفون العين من غير اكتحال . شبه محبوبته وقت الفراق بالظبى الموصوف بغنة الصوت ، وغض الطرف ، والكحل ، وهى من صفات الجهال .
(٣) هيفاء : صفة مشبهة من الهيف (بالتحريك) وهو ضمور ودقة الخاصرة ، ومقبلة : حال . وعجزاء : صفة أيضا ، أى : كبيرة العجز ، وهو الردف . ولا يشتكى قصر : أى لا يشتكى الرأى عند رؤيتها قصرا فيها . يريد أن =

- تَجَلَّوْ عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمْتُ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ (١)
- شَجَّتْ بَدَى شَبَمَ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةِ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ (٢)
- تَنْفَى الرِّيَّاحُ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ مِنْ صَوْبِ غَادِيَةِ بِيضٍ يَعَالِيلُ (٣)
- فِيَالهَا خُلَّةٌ لَوْ أَنَهَا صَدَقَتْ بِوَعْدِهَا أَوْ لَوَ أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولٌ (٤)
- لَكِنهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيْطَ مِنْ دَمِهَا فَجَعٌ وَوَلَعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلٌ (٥)
- فَمَا تَدْوُمُ (٦) عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلَوَّنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ (٧)

= هذه المحبوبة يحسن منظرها في كل حال ، فإذا أقبلت فهي هيفاء ، وإذا أدبرت فهي عجزاء ، وهي متوسطة بين الطول والقصر .

(١) تجلجوا : تصقل وتكشف ، والعوارض : جمع عارض أو عارضة ، وهي الأسنان كلها ، أو الضواحك خاصة ، أو هي من الأنياب . والظلم (بفتح الظاء وسكون اللام) : ماء الأسنان وبريقها ، أو هو رقتها وبياضها . والمنهل (بزنة اسم المفعول) : المسقى ، من أمهله ، إذا سقاه النهل (بفتح الحين) وهو الشرب الأول . وبالراح : متعلق بمنهل . والراح : الخمر . ومعلول : من العلل (بالفتح) . وهو الشرب الثاني . يريد أن سعاد إذا ابتسمت كشفت عن أسنان ذات بياض ورقة ، وكأن ثغرها لطيب رائحته قد سقى الراح مرة بعد مرة .

(٢) شججت : مزجت حتى انكسرت سورتها ، وهو مجاز . لأن الأصل في الشج الكسر . وذو شبم : ماء شديد البرد . والمحنية (بفتح فسكون فكسر) : منعطف الوادئ ، ويخصه لأن ماءه أصفى وأبرد . والأبطح : المسيل الواسع الذي فيه دقاق الحصى ، وماء الأبطح عندهم معروف بصفائه . وأضحى : أخذ في وقت الضحى قبل أن يشتد حر الشمس . والمشمول : الذي ضربته ريح شمال حتى برد ، وهي أشد تبريدا للماء من غيرها .

(٣) القدى : ما يقع في الماء من تبن أو عود أو غيره ، مما يشوبه ويكدره . وأفرطه : سبق إليه وملاه . والصوب : المطر . والغادية : السحابة تمطر غدوة ، ويروى « سارية » وهي السحابة تأتي ليلا . واليعاليل : الحباب الذي يعلو وجه الماء . وقيل المراد بالبيض اليعاليل : الجبال الشديدة البياض ينحدر عليها ماء المطر ، ثم يسيل إلى الأبطح . يريد أن الرياح تزيل القدى عن ذلك الماء الذي مزج به الراح ، حتى لم يبق فيه ما يكدر ، وأن ذلك الأبطح ملأته الفقاقيع البيض ، التي نشأت من مطر السحابة الغادية .

(٤) الخلة (بالضم) : الصديقة . يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد وغيره ، يريد أنها صديقة كريمة ، ولو أنها صدقت في الوعد ، وقبلت النصح ، لكانت على أتم الخلال ، وأكمل الأحوال .

(٥) سيط : أى خلط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة في البيت . ويروى : شيط (بالشين المعجمة) وهو بمعناه والفسج : الإصابة بالمكروه كالهجر ونحوه . والولع والولعان : الكذب . والإخلاف : خلف الوعد . يريد أن محبوبته متصفة بهذه الأخلاق ، حتى صارت كأنها مختلطة بدمها .

(٦) في رواية : تقوم .

(٧) الغول : ساحرة الجن ، في زعمهم . يزعمون أن الغول ترى في الغلاة بالوان شتى ، فتأخذ جانباً عن

وما (١) تَمَسَّكَ (٢) بالعهد الذى زعمت إلا كما يُمَسِّكُ الماءَ الغَرَابِيلُ
فلا يغرَّتْكَ ما مَنَّتْ وما وَعَدَّتْ إنَّ الأمانى والأحلامَ تُضَلِّلُ (٣)
كانت مواعيدُ عُرْقوبٍ لها مثلاً وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ (٤)
أرْجُو وآمُلُ أن تَدُنُو مودَّتْها وما إخالَ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ (٥)
أَمَسَّتْ سَعَادُ بأَرْضٍ لا يُبَلِّغُها إلا العِتاقي النَّجِيباتِ المَراسيلِ (٦)
ولن يُبَلِّغُها إلا عُدَا فِرَّةً لها على الأينِ إرْقَالُ وَتَبْغِيلُ (٧)
من كلِّ نَضَاحَةِ الذُّفْرِى إذا عَرِقَتْ عُرْضَتْها طامِسُ الأعلامِ مَجْهُولُ (٨)

=الطريق ، فيتبعها من يراها ، فيضل عن الطريق فيهلك . يريد أن هذه المحبوبة لا تدوم على حال تكون عليها . بل تتغير من حال إلى حال ، فتتلون بألوان شتى وترى فى صور مختلفة ، كما تتلون الغول فى أنوابها بألوان كثيرة .

(١) فى رواية : ولا .

(٢) تمسك ، يروى بفتح التاء ، على أنه مضارع حذفته إحدى تاءيه ؛ أو بضم التاء وفتح الميم وكسر السين المشددة . «ولا تَمَسَّكَ» . يشبه تمسكها بالعهد بإمساك الغرابيل للهاء ، مبالغة فى النقض والنكث وعدم الوفاء بالعهد ، لأن الماء بمجرد وضعه فى الغربال يسقط منه .

(٣) ما منت : ما منتك إياه ، وملتك على تمنيه ، أو ما كذبت عليك فيه . يقول : لا تغتر بها حملتك على تمنيه منها ، أو بها كذبت عليك فيه من الوصل ، وما وعدتك به من ترك الهجر ، فإن الأمانى التى يتمناها الإنسان ، والأحلام التى يراها فى منامه سبب فى الضلال ، وضياح الزمان .

(٤) كانت : صارت . وعرقوب (بضم العين وإسكان الراء وضم القاف) : رجل اشتهر عند العرب بإخلاف الوعد ، فضرب به المثل فى الخلف . والأباطيل : جمع باطل ، على غير قياس .

(٥) التَّنْوِيلُ : العطاء ، والمراد به (هنا) : الوصل . يريد أنى مع اتصافها بالجفاء وإخلاف الوعد ، وعدم الوفاء بالعهد ، لا أقطع الرجاء من مودتها ، ولا أياس من وصلها ، بل أرجو وآمل أن تقرب مودتها .

(٦) العِتاقي : الكرام ؛ الواحد : عتيق . والنجيبات : جمع نجيبية ، وهى القوية الخفيفة . ويروى « النجيات » أى السريعات ، والمراسيل : جمع مرسال (بالكسر) وهى السريعة . يريد أن محبوبته صارت بأرض بعيدة لا يوصله إليها إلا الإبل الكرام الأصول ، القوية السريعة .

(٧) العذافرة : الناقة الصلبة العظيمة . والأين : الإعياء والتعب . والإرقال ، والتبغيل : ضربان من السير السريع . يقول : لا يبلغ تلك الأرض إلا ناقة صلبة عظيمة قوية على السير .

(٨) النضاحة : الكثيرة رشح العرق . والذفرى : النقرة التى خلف أذن الناقة ، وهو أول ما يعرق منها . وعرضتها : همتها . وطامس الأعلام : الدارس المتغير من العلامات التى تكون فى الطريق ليهتدى بها . يريد أن هذه الناقة =

- تَرْمَى الْغُيُوبَ بَعَيْنَيَّ مُفْرَدَةً هَقِي إِذَا تَوَقَّدَتِ الْحَزَانُ وَالْمِيل (١)
- صَخْمٌ مَقْلَدُهَا فَعَمُّ مَقِيدُهَا فِي خَلْقِهَا عَنِ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيل (٢)
- عَلْبَاءٌ وَجَنَاءٌ عُلُكُومٌ مُذَكَّرَةٌ فِي دَفِّهَا سَعَةٌ قَدَامُهَا مِيل (٣)
- وَجَلْدُهَا مِنْ أَطُومٍ مَا يُؤَيِّسُهُ طَلْحٌ بِضَاحِيَةِ الْمُتَيْنِ مَهْزُولٌ (٤)
- حَرْفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ وَعَمُّهَا خَالُهَا قَوْدَاءٌ شَمْلِيل (٥)

= كثيرة العرق ، وذلك لا يكون إلا مع اشتداد في السير ، وجهد نفسها فيه ، وأما عارفة الطريق الدارس الأعلام ، المجهول المسالك ، لكثرة أسفارها وسلوكها المغازات .
ويروى الشطر الثاني من هذا البيت :

« ولاحها طامس . . . » .
ولاحها : غيرها . ولعله الأذق .

- (١) الغيوب : آثار الطريق التي غابت معالمها عن العيون . والمفرد : الثور الوحشى الذى تقرد في مكان ، وشبه عينها بعينه لأنه ألف البرارى وخبرها ، ولكونه من أحد الوحوش نظرا . واللحق (بفتح الهاء وكسرها) الأبيض . والحزان (بضم الحاء وكسر وتشديد الزاى) : الأمكنة الغليظة الصلبة تكثر فيها الحصباء ، وهى جمع حزين . والميل (بالكسر) : جمع (ميلاء) بالفتح ، وهى العقدة الضخمة من الرمل .
- (٢) المقلد : موضع القلادة في العنق . وفعم : ممتلئ . ويروى : « عبل » وهو يمناه . والمقيد : موضع القيد ، يريد قوائمها . وبنات الفحل : الإناث من الإبل المنسوبة للفحل المعد للضراب . يصف الناقة بضخامة العنق ، وذلك مؤذن بضخامة جميع هامتها ، وبعظم القوائم ، وذلك دليل على قوتها في السير ، وطاقتها على ثقل الحمل . وبتفضيلها على غيرها في عظم الخلقة ، وحسن التكوين .
- (٣) غلباء : غليظة العنق . ووجناء : عظيمة الوجنتين ، أو هى من الوجين ، وهو ما صلب من الأرض . وعلكوم : شديدة . ومذكرة : عظيمة الخلقة تشبه الذكران من الأباعر . وفى دفها سعة : أى هى واسعة الجنبين ، وهو كناية عن عظم الخلقة ، وقدامها ميل : كناية عن طول عنقها ، أو سعة خطوها .
- (٤) الأطوم - بفتح الهمزة - سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، وقيل : هى الزرافة . ويؤيسه : يذله ولا يؤثر فيه . والطلح (بالكسر) القراد دوية معروفة يلزق بالدابة . والضاحية من كل شئء : ناحيته البارزة للشمس . والمتنان : ما يكتنف صلبها عن يمين وشمال من عصب ولحم . وإنما خص ضاحية المتنين ، لأن القراد في الشمس تقوى همته ، وتكثر حركته . ويشند امتصاصه للدم . ومهزول : صفة لطلح ، أى قراد مهزول من الجوع . يريد أن جلد هذه الناقة في غاية النعومة والملاسة ، فلا يؤثر فيه القراد المهزول من الجوع فيما برز للشمس من ناحيتى صلبها عن يمين وشمال .
- (٥) الحرف (فى الأصل) : القطعة الخارجة من الجبل ، شبه الناقة بها فى القوة والصلابة . والحرف (أيضا) : الناقة الضامرة . وأخوها أبوها . . . الخ : يريد أنها مداخلة النسب فى الكرم ، لم يدخل فى نسبها غير أقاربها . والمهجنة : الكريمة الأبوين من الإبل ، والقوداء : الطويلة الظهر والعنق . وهى من صفات الإبل التى تمدح بها . والشميليل : الخفيفة السريعة .

- يَمْشِي الْقِرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزْلِقُهُ مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ (١)
- عَيْرَانَةٌ قُدِفَتْ بِالنَّحْضِ عَنْ عُرْضِ مِرْفَقِهَا عَنْ بَنَاتِ الزُّورِ مَفْتُوْلٌ (٢)
- كَأَنَّ مَفَاتَ عَيْنَيْهَا وَمَذْبَحَهَا مِنْ حَظْمِهَا وَمَعَ اللَّحْيَيْنِ بِرُطِيلِ (٣)
- تَمْرٌ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصَلِ فِي غَارِزٍ لَمْ تَخَوَّنَهُ الْأَحَالِيلُ (٤)
- قَنَوَاءٌ فِي حُرَّتَيْهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا عَتَقٌ مُبِينٌ وَفِي الْخَلْدَيْنِ تَسْهِيلُ (٥)
- تُخْدِي عَلَى يَسْرَاتٍ وَهِيَ لِاحِقَّةٌ ذَوَابِلُ مَسْهُنٌ الْأَرْضَ تَحْلِيلُ (٦)

(١) يزلقه: من الإزلاق، أى يسقطه. ومنها: أى عنها. واللبان (بالفتح): الصدر؛ وقيل وسطه. والأقرب (بالفتح): الخواصر، والمراد بالجمع هنا المثني. والزهاليل: الملس، جمع زهلول. يريد أن هذه الناقة ملاستها لا يثبت القراد عليها.

(٢) العيرانة: الناقة المشبهة عبر الوحش في سرعته ونشاطه وصلابته، وهذا مما يستحسن في أوصاف الإبل والنحض: اللحم. وعن: بمعنى من. وعرض (بضمين أو بضم، فسكون): جانب، والمراد هنا العموم. يريد أنها رميت باللحم من كل جانب من جوانبها. والمرافق: يريد المرفقين. والزور: الصدر، وقيل: وسطه. وبنات الزور: ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها، يريد أن مرفق تلك الناقة مصروف عما حوالى الصدر من الأضلاع وغيرها فتكون مصبوبة عن الضغط، لبعدها مرفقها عن أضلاعها، فلا يضغط بها لخفتها ونشاطها.

(٣) الخطوم: الأنف وما حوله. واللحيان: العظام اللذان تثبت عليها الأسنان السفلى من الإنسان وغيره. . . والبرطيل (بالكسر): حجر مستطيل. يريد أن وجهها من خطمها ومن اللحيان يشبه الحجر المستطيل، والمراد المسافة من وجهها إلى عينها.

(٤) عسيب النخل: جريده الذى لم يثبت عليه الخوص، فإن ثبت عليه سعى سعفا. وإذا حصل: يريد ذيل له لفائف من الشعر. وفي غارز: أى على ضرع. ولم تخونه: لم تنقصه. والأحاليل: مخارج اللبن، جمع إحليل (بالكسر). يريد أن هذه الناقة تمر ذنبا مثل جريدة النخل في الغلظ والطول، كثير الشعر، على ضرع لم تنقصه مخارج اللبن، لكونها لا تحلب، فيكون ذلك أقوى لها على السير.

(٥) القنواء: المحدودة الأنف. ويروى: «وجناء». وقد عد الشاعر هذا من صفات المدح مع أن المنقول عن العرب أن القنواء عيب في الإبل والخيل. والحرتان: الأذنان. والعتق (بالكسر): الكرم. والمبين: الظاهر. وتسهيل: سهولة ولين؛ لاختشونة ولا حزنونة. يريد أن هذه الناقة محدودة الأنف، يظهر للعارف بالإبل الكرام كرم ظاهر في أذنيها، لحسنها وطولها؛ ونجابة في خديها: سهولة وليونة.

(٦) تخدى: تسرع. ويروى «تخدى» بمعجمتين، أى تسترخى، وهذا أبلغ في المدح، لأنها مع استرخائها في السير تلحق النوق السوابق، فكيف لو أسرع. وفي (أ): «تهوى» وهى بمعنى الأولى. واليسرات: القوائم الخفاف. ولاحقة: أى والحال أنها لاحقة بالنوق السابقة عليها، أو بالديار البعيدة عنها. وفي رواية «وهى لاهية» أى: غافلة عن السير، فهى تسرع فيه من غير اكتراث ومبالاة، كأن ذلك سجية لها. وقد قسر ابن هشام =

- سُمِرِ العُجَايَاتِ يَتَرَكْنَ الحَصَى زِيْمَا لَمْ يَقْهِنَنَّ رُؤُوسَ الأَكْمِ تَنْعِيْلُ (١)
- كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا وَقَدْ عَرِقَتْ وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالقُورِ العَسَاقِيلُ (٢)
- يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الحِرْبَاءُ مُصْطَخِدًا كَأَنَّ ضَا حِيَهُ بِالشَّمْسِ مَمْلُوكُ (٣)
- وَقَالَ لِلقَوْمِ حَادٍ يَهُمُ وَقَدْ جَفَلَتْ وَرُزُقُ الجِنَادِبِ يَرْكُضُنَ الحَصَا قِيلُوا (٤)
- شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعَا عَيْطِلٍ نَصَفَ قَامَتْ فَجَاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ (٥)

= «اللاحقة» بالضامرة، فيكون مرجع الضمير (هى) لليسرات . والدوابل : جمع ذابل ، وهو الرمح الصلب اليابس ، شبه قوائمها بها فى الصلابة والشدة . ومسهن : أى مس تلك اليسرات للأرض أو وقعهن عليها . وتحليل : أى قليل لم يبالغ فيه ، يريد أن هذه الناقاة سريعة فى السير بقوائمها ، سريعة الرفع عن الأرض ، كأنها لاتمسها إلا لتحلة القسم ، فهى فى غاية الإسراع فى سيرها .

(١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالحافر ؛ وقيل : اللحمة المتصلة بالعصب المنحدر من ركة البعير إلى الفرسن ، يشبه عصبها أو لحم قوائمها بالرمح السمر لقوته وصلابته . وزيبا : متفرقا . والأكم : هى الأرضى المرتفعة . والتنجيل : شد النعل على ظفر الدابة ليقبها الحجارة . يريد أن أعصاب قوائم هذه الناقاة شديدة كالرمح السمر، ولشدة وطئها الأرض تجعل الحصى متفرقا ، ولصلابة خفافها لاحتياج إلى تنجيل يقبها الحجارة التى تكون فى رءوس الأكم ، فلا تحفى ولا ترق قدمها .

(٢) الأوب (بالفتح) : سرعة القلب والرجوع . وعرقت : أى وقت عرقها لا لتعب ولا لإعياء لما تقدم من وصفها بالقوة والصلابة ، بل لشدة الحر . وتلفع : اشتمل والتحف . والقور (بضم القاف) : جمع قارة ، وهى الجبل الصغير ، والعساquil : السراب . يصف سرعة ذراعى ناقته فى وقت الهاجرة وانتشار السراب فوق صغار الجبال . وسيأتى ذكر المشبه به فى البيت الثالث بعد هذا ، وهو خبر كان ، وهذا البيت متأخر عن البيتين التابعين له فى (أ) .

(٣) الحرباء (بالكسر) : ضرب من العطاء ، يستقبل الشمس حيثما دارت ، ويتلون بألوان الأمكنة التى يحل فيها ، ومصطخدا : محترقا بحر الشمس ، ويروى : « مصطخبا » ، أى منتصبا قائما ، كما يروى « مرتبنا » أى : مرتفعا . وضاحيه : ما برز للشمس منه . ومملول : موضوع فى الملة ، وهى الرماد الحار . يريد أن الجبال الصغار تلفعت بالسراب فى يوم يصير فيه الحرباء محترقا بالشمس ، كأن البارز للشمس فى أوب ذلك اليوم من ذلك الحيوان خبز معمول بالملة .

(٤) الحادى : السائق للإبل . وللورق : جمع أورق أو ورقاء ، وهو الأخضر الذى يضرب إلى السواد . وقيل : الورقة : لون يشبه لون الرماد . والجنادب : جمع جندب (بضم الدال وتفتح) ضرب من الجراد . وقيل : الجراد الصغير ، وإنما يكون هذا الصنف فى القفار الموحشة القوية الحرارة ، البعيدة من الماء . ويركضن الحصى : يحركه بأرجلهم لقصد النزول ، بسبب الإعياء عن الطيران ، من شدة الحر . وقيلوا : أمر من قال يقبل قيلولة ، وهى الاستراحة فى وقت شدة الحر . والمراد أن هذا اليوم أشد حرا حتى إن الحادى الذى من شأنه أن ينشط الإبل قال للقوم : قيلوا واستريحوا .

(٥) شد النهار : وقت ارتفاعه . وهو مبالغة فى شدة الحر . والعيطل : الطويلة . والنصف : المتوسطة فى السن وذلك حين استكمال قوتها ، وبلوغ أشدها ، فتكون أسرع فى الحركة ، وأمكن فى القوة ، والنكد : جمع نكداء ، وهى التى لا يعيش لها ولد . والمثاكيل : جمع مثكال بالكسر ، وهى الكثيرة الشكل . فى هذا البيت والبيت السابق الذى =

- نَوَاحِي رِخْوَةِ الضَّبْعَيْنِ لَيْسَ لَهَا لَمَّا نَعَى بِكَرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولٌ (١)
- تَفَرَّى اللَّبَانَ بِكَفَّيْهَا وَمِذْرَعُهَا مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَائِيلُ (٢)
- تَسَعَى الْغَوَاةَ جَنَابِيهَا وَقَوْهُمُ إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي سُلَمَى لَمَقْتُولٌ (٣)
- وَقَالَ كُلَّ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا أَهْيَيْتَكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ (٤)
- فَقُلْتُ : خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ (٥)

=أوله: «كان» يشبه سرعة حركة يدي هذه الناقاة بسرعة حركة يدي المرأة الطويلة المتوسطة في السن : في اللطم على وجهها لشدة حزنها على ولدها ، مجاوبها نسوة لا يعيش أولادهن ، فيشتد فعلها ، ويقوى ترجيع يديها عند النياحة ، لرؤية حزن غيرها ، وشدة لطمهن .

ورواية الشطر الأول من هذا البيت في بعض الروايات هكذا :

أُوْبُ يَدَيُّ فَاقِدِ شَمُطَاءَ مُعْوَلَةٍ

والفاقد : التي فقدت ولدها . والشمطاء : التي خالطها الشيب . والمعولة : الرافعة صوتها بالبكاء .

(١) النواحي : الكثيرة النوح على ميتها . وريخوة الضبعين : مسترخية العضدين . والبكر بالكسر : أول الأولاد ومعقول (هنا) معناه العقل . يريد أن هذه المرأة كثيرة النوح على ميتها ، مسترخية العضدين ، فيداها سريعتان في الحركة ، ولما أخبرها الناعون بموت أول أولادها لم يبق لها عقل ، فهي لا تُحْسُ بالإعياء والتعب ، شأن هذه الناقاة التي لا تحس بإعياء ولا تعب في سيرها .

(٢) تفرى : تقطع . واللبان : الصدر . والمدرع : القميص . ورعايل : قطع متفرقة ، وهو جمع رعبول . يريد أن هذه المرأة تقطع مدرعها بأناملها لذهاب عقلها ، فقميصها مشقوق عن عظام صدرها قطعاً كثيرة . يشبه الناقاة بهذه المرأة في أن كلا منها مسلوب الإدراك ، فلا يحس بما يلاقى من مشقة وشدة .

(٣) الغواة : المفسدون ، جمع غاؤ . جنابها : محواليها ، تثنية جناب (بفتح الجيم) . ومقتول : أى متوعد بالقتل ، لأن النبي ﷺ كان قد أهدر دمه ، وهذا البيت في بعض الروايات هكذا :

تمشى الغواة بجنبيها وقوهم الخ

(٤) آمله : أؤمل خيره وأترجى إعادته في الملمات . وأهينك : أشغلنك . (لا) فيها : نافية ، والتوكيد قليل مع النفي . والمعنى : لا أشغلك عما أنت فيه من الخوف والفرح ، بأن أسهله عليك وأسليك ، فاعمل لنفسك ، فإنى لا أغنى عنك شيئاً ، وقد يكون الكلام مثبتاً ، واللام فيه للقسمة ، أى : والله لأجعلنك مشغولاً عنى ، فلا تطلب منى نصرة أو معونة . ويروى هذا البيت :

« وقال كل خليل الخ »

(٥) خلوا سبيلي : اتركوه . وقوله : لا أبا لكم : ذم لهم ، لكونهم لم يغنوا عنه شيئاً ، أو مدح لهم على سبيل التهكم والاستهزاء .

| | |
|--|--|
| كَلِ ابْنِ أُتَيْهِ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ | يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدِّبَاءَ مَحْمُولٍ (١) |
| نَبِّئْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي | وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ (٢) |
| مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً | الْقُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلٌ (٣) |
| لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ | أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ الْأَقَاوِيلُ (٤) |
| لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ | أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفَيْلُ (٥) |
| لِظَلٍّ يَرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ | مِنْ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلٌ (٦) |
| حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنَا زَعُهُ | فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قَيْلُهُ الْقَيْلُ (٧) |

(١) الآلة الحدباء : النعش الذي يحمل عليه الميت . يقول : كل إنسان صائر إلى الموت طالبت سلامته أو قصرت ، فلا يشمت بي أحد إذ هلكت .

(٢) نبئت : أخبرت . ويروى : « أنبئت » . وأوعدني : تهددني بالقتل . ومأمول : مرجو ومطموع فيه .

(٣) هداك : زادك هدى ، أو هداك الله للصفح والعفو عني ، فيكون على هذا البيت داعيا لنفسه . والنافلة : الزيادة ، وسمى القرآن نافلة لأنه عطية زائدة على النبوة .

(٤) هذا البيت من تمة الاستعطاف والتلطف في القول ، فلا ، وإن كانت ناهية بسحب وضعها ، لكن المراد منها التضرع والتذلل . والمعنى : لا تستيح دمي بسبب أقوال الوشاة الساعين بيني وبينك بالإفساد والكذب والبهتان .

(٥) لقد أقوم : معناه : والله لقد أقوم مقاما ، فهو جواب قسم محذوف . ويروى : « إني أقوم مقاما » والأولى أبلغ للقسمة . والمقام (هنا) : مجلس النبي . والمراد بالقيام فيه حضوره ، والمعنى على المضى ، أى : لقد حضرت مجلسا .

(٦) يرعد : تأخذه الرعدة ، ويصح بناؤه للمفعول . والتنويل : التأمين . والمعنى : لصار الفيل يضطرب ويتحرك من الفزع ، وإنما خصه بذلك لأنه أراد التعظيم والتهويل ، والفيل أعظم الدواب جثة وشأنا . إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تأمين يسكن به روعه ، وتثبت به نفسه . ورواية هذا البيت في بعض المصادر :

لظلل ترعد من وجد بوادره إن لم يكن من رسول الله تنويل

والوجد : شدة الحزن . والبوادر : اللحم الذي بين العنق والكتف .

وفي بعض المصادر زيد هذا البيت :

مَا زِلْتُ أَفْتَطِخُ الْبَيْدَاءَ مُدْرِعًا جُنْحَ الظَّلَامِ وَثَوْبَ اللَّيْلِ مَسْبُوبًا

(٧) حتى وضعت : أى فوضعت . وخص اليمين لأن الأشياء الشريفة تفعل باليمين . ولا أنازعه : أى حال كوني طائعا له ، راضيا بحكمه في ، غير منازع له ولا مخالف . والنقعات (بفتح فكسر) جمع نقمة والمراد بصاحب النقعات : النبي ﷺ لأنه كان ينتقم من الكفار ، فكان شديد السطوة والإخلاص فيهم . وقيله : قوله . والمراد أن قوله معتد به لكونه نافذا ماضيا . يشير بالبيت إلى حاله مع النبي ﷺ حين قدم عليه وهو في المسجد ، ووضع يده في يده يستأمنه

- فَلَهُوَ أَخَوْفٌ عِنْدِي إِذْ أَكَلْتُهُ
 مِنْ ضَبَيْغَمٍ بِضِرَاءِ الْأَرْضِ مُحْدَرَةٌ
 يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْغَامِينَ عَيْشُهُمَا
 إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنَا لَا يَحِلُّ لَهُ
 مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعِ الْجَوِّ نَافِرَةٌ
 وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخْوُثَقَةٌ
 إِنْ الرَّسُولُ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
- وَقِيلَ إِنَّكَ مَسْئُوبٌ وَمَسْتُوْلٌ (١)
 فِي بَطْنِ عَثْرٍ غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ (٢)
 لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيْلٌ (٣)
 أَنْ يَتْرُكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَقْلُوْلٌ (٤)
 وَلَا تَمَشَّى بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيْلُ (٥)
 مُضْرَجٌ الْبَزُّ وَالْدُرْسَانُ مَأْكُوْلٌ (٦)
 مَهْنَدٌ مِنْ سَيْوَفِ اللَّهِ مَسْلُوْلٌ (٧)

- (١) أخوف : أشد إخافة وإرهاها . ومنسوب : أى إلى أمور صدرت منك ، كقولك لأخيك بجبر : « سقاك بها المأمون » . . . الخ . ومسئول : أى عن سببها ، أو مسئول عن نسبك ، فكأنه يقول : من قبيلتك التى تحمرك منى ؟ ومن قومك الذين يعصمونك منى ؟ فقد تراءوا منك ، وتخلوا عنك . ويروى : « لذلك أهيب » و « فذاك أهيب » و « لكان أهيب » و « فلهو أخوف » . ويروى : « أرهب » مكان « أهيب » .
- (٢) ضيغم : أسد . وضراء الأرض : الأرض التى فيها شجر . والمخدر : غابة الأسد . وعثر (بفتح العين وتشديد المثلثة) : اسم مكان مشهور بكثرة السباع . والغيل : الشجر الكثير الملتف . وغيل دونه غيل ، أى : أجمه تقربها أجمه أخرى ، فتكون أسدها أشد توحشا ، وأقوى ضراوة .
- يريد أن رسول الله ﷺ أهيب من أسود عثر فى آجامها . وفى رواية « من خادر » . والخادر : الأسد الداخلى فى خدره ، وهو حينئذ يكون أشد قوة وبأسا .
- (٣) يغدو : يخرج فى أول النهار يتطلب صيدا لشبليه . وفى رواية : « يغدو » بالذال : أى يطعم . ويلحم : يطعمهما اللحم . والضرغام : الأسد . ويريد بالضرغامين شبليه . ومعفور : ملقى فى العفر ، وهو التراب ، ووصفه بذلك لكثرتة وعدم اكتراثه به لشبعه . وخراديل : قطع صنغار . يصف هذا الأسد بكثرة الاقتراس ، وعظم الاضطهاد .
- (٤) يساور : يواظب . والقرن (بكسر القاف) : المقاوم فى الشجاعة . وفى ذكر القرن إشارة إلى أن هذا الأسد لا يساور ضعيفا ولاجانا ، وإنما يساور مقاومه فى الشجاعة ، ومساويه فى القوة . والمفلول : المكسور المهزوم .
- (٥) الجو : اسم موضع ، أو هو ما اتسع من الأودية ، أو ما بين السماء والأرض . ونافرة : بعيدة ، ويروى : « ضامرة » والضامز : الذى يمسك جرتة بفيه ولا يجتر . ويروى « ضامرة » أى : جياعا لعدم قدرتها على الاضطهاد . والأراجيل : الجماعات من الرجال ، وهو جمع أرجال ، وأرجال : جمع رجل ، ورجل : اسم جمع لرجال ، يصف هذا الأسد بالقوة ، حتى خافته السباع والناس .
- (٦) أخو ثقة : الشجاع الواثق بشجاعته . ومضرج : مخضب بالدماء . ويروى : (مطرج) ، أى : مطروح . والبز : السلاح . والدريسان (بضم الدال) : أخلاق الثياب ، الواحد دريس . ومأكول : أى طعام لذلك الأسد . يريد أنه لا يمر بوادى هذا الأسد شجاع إلا أكله وطرح ثيابه التى مزقها ، فلا يولع إلا بالشجعان ، ولا يلتفت لغيرهم .
- (٧) يستضاء به : يهتدى به إلى الحق . ويروى : « لسيف » فى مكان « لنور » وقد كانت عادة العرب إذا أرادوا =

- فى عُصْبَةٍ مِنْ فُرَيْشٍ قَالَ قَاتِلْهُمْ . بَبْطَنٍ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُوُلُوا (١)
- زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ . عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِئْلٌ مَعَارِيزِلُ (٢)
- شَمُّ الْعِرَانِينَ أَبْطَالٌ لَبَّوْهُمْ . مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ (٣)
- بِيضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ . كَأَنَّهَا حَلَقَ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ (٤)
- لِيسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ . قَوْمًا وَلِيسُوا مَجَارِيعًا إِذَا نِيلُوا (٥)
- يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرِ يَعِصْمُهُمْ . إِذَا عَرَّدَ السُّوْدُ التَّنَابِيلُ (٦)

= استدعاء من حولهم من القوم أن يشهروا السيف الصقيل ، فيبرق ، فيظهر لمعانه من بعد فيأتون إليه ، مهتدين بنوره ، مؤتمنين بهديه . شبه الرسول بذلك . والمهند : السيف المطبوع في الهند ، وسيوف الهند قديما أحسن السيوف . ومن سيوف الله : أى من سيوف عظيمها الله بنيل الظفر والانتقام . والمسلول : المخرج من عمده . (٦٣) العصابة : الجماعة . ويروى : « في فتية » جمع فتى ، وهو السخى الكريم . وزولوا : فعل أمر من زال التامة ، أى : تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة .

(٦٤) الأنكاس : جمع نكس (بالكسر) وهو الرجل الضعيف . والكشف (بضم فسكون وحرك للشعر) : جمع أكشف ، وهو الذى لا ترس معه ، أو هم الشجعان الذين لا ينكشون في الحرب ، أى لا يتهزمون . والبليل : جمع أميل ، وهو الذى لا سيف له ، أو هو الذى لا يحسن الركوب فيميل عن السرج . والمعازيل : الذين لاسلاح معهم ، واحدهم معزال (بكسر الميم) .

(٦٥) شم : جمع أشم ، وهو الذى فى قصبة أنفه علو ، مع استواء أعلاه . والعرايين : جمع عزين ، وهو الأنف . وصفهم بهذا الوصف إما على الحقيقة لأن ارتفاع الأنف من الصفات المحمودة فى خلق الإنسان ، وإما على المجاز ، يريد ارتفاع أقدارهم ، وعلو شأنهم . واللبوس : ما يلبس من السلاح . ونسج داود : أى منسوجه ، وهو الدروع . والهيجا (بالقصر هنا) : الحرب . والسرابيل : جمع سربال ، وهو القميص أو الدرع . ووصفها بأنها من نسج داود دليل على مناعتها .

(٦٦) بيض : مجلوة صافية مصقولة ؛ لأن الحديد إذا استعمل لم يركبه الصدأ . والسوابغ : الطوال السوابل ، ويلزم من طول الدروع قوة لابسها ، إذ حملها مع طولها يدل على القوة والشدة . وشكت : أدخل بعضها فى بعض ، ويروى : « سكت » بمعنى ضيقت . والقفعاء : ضرب من الحسك ، وهو نبات له شوكة ينبسط على وجه الأرض ، تشبه به حلق الدروع . ومجدول : محكم الصنعة .

(٦٧) مفاريح : كثير الفرح . ونالوا : أصابوا . ومجاريح : كثير الجزع . ويروى : « لا يفرون . . . الخ » .

(٦٨) الزهر : البيض . يصفهم بامتداد القامة ، وعظم الخلق ، والرفق فى المشى ، وبياض البشرة ، وذلك دليل على الوقار والسؤدد . ويعصمهم : يمتنعهم . وعرد : فر وأعرض عن قرنه وهرب عنه . والتنابيل : جمع تنبال ، وهو القصير .

لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ وَمَا لَهُمْ عَن حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلٌ (١)
نحن لسنا في الحقيقة أمام قصيدة شعر ، ولكننا أمام صرح عظيم من صروح البيان
المضىء ، تجلى لنا في شكل قصيدة مشعشة بالبلاغة ، مسرلة بالفصاحة ، متوجة
بمقدرة شعرية فذة ، وملكة فنية نادرة ، يتحدر الشعر من خلالها تحدر الماء النмир
الروى من شلالات أعطافها الرى والرواء ، والقوة والعطاء ، حتى إن النبي ﷺ وهو
أفصح الفصحاء وأبين الأبياء - حين وصل كعب في إنشاده إلى قوله :
إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

نظر إلى من حوله من قريش كأنه يومى إليهم أن يسمعوا . ثم كساه بعد ذلك بردته
إعجابا بقصيدته ، وتعبيرا عن قبوله توبته ، وهى البردة التى اشتراها بعد ذلك معاوية
بعشرين ألف درهم ، وكان الخلفاء يلبسونها فى العيدين (٢).

إن الرسول ﷺ كان يكرم مادحيه ، وإن كان مدحه ﷺ فى حد ذاته تكريما لقائله ،
ولكن تكريمه كعباً على هذا النحو بخلع بردته عليه يوضح اكتشاف رسول الله عبقرية
شعرية جديدة انضمت إلى كتيبة شعراء رسول الله بدءاً بحسان ومروراً بكعب بن مالك
وعبدالله بن رواحة والعباس بن عبد المطلب وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب
وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم . هذه الشاعرية الفذة التى اكتشفها رسول الله ﷺ
فى كعب بن زهير وزكاها ، قد وضعها النقاد فيما بعد موضع الاعتبار والانتباه ، فقد قيل
لخلف الأحمر : زهير أشعر أم ابنه كعب ؟ فكانت إجابته على هذا النحو من ترجيح
كعب على أبيه : لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت : إن كعباً أشعر منه ، ثم ذكر
الأبيات التى عنها ، وهى : (٣)

(١) وقوع الطعن فى نحورهم : دليل على أنهم لا يهزمون حتى يقع الطعن فى ظهورهم . وحياض الموت : موارد الخلف ،
يريد بها ساحات القتال . وتهليل : تأخر . ويروى « فما لهم عن حياض الموت » بالصاد المهملة ، جمع حوص ،
بمعنى مضايقه وشدائده .

(٢) الشعر والشعراء : ١٥٦ .

(٣) المصدر السابق : ١٣٩ .

لَمِنَ الدِّيَارِ بِقِنَّةِ الحَجَرِ أَقْوِينَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ
وَلَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أُسَامَةَ إِذْ دُعِيَ النَّزْلُ وَلِجَّ فِي الدُّعْرِ
وَلَأَنْتَ تَقْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ القومِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَقْرِي
لو كُنتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنتَ المَنَوَّرَ لَيْلَةَ البَدْرِ (*)

وهذا عكرمة بن جرير يقول : سألت أبا : من أشعر الناس ؟ قال : أجاهلية أم إسلامية ؟ قلت : جاهلية ، قال : زهير .

ولكن الحطيئة الشاعر الفذ راوية زهير يعرف قدر كعب ، فيطلب من كعب أن يقول شعرا يذكر اسمه فيه معه ، أى : مع كعب لعلمه بمكانة كعب بين الشعراء وخلود شعره فيما يرويه الأدباء ويقول له : قد علمتم روايتي لكم أهل البيت - يعنى بيت زهير - وانقطاعي إليكم ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعدك ؛ فإن الناس أروى لأشعاركم ، فقال كعب : (١)

فَمَنْ لِلقَوَائِي شَأْنَهَا مَنْ يَحُوكُهَا
إِذَا مَا مَضَى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جِرْوَلُ
كَفَيْتُكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِداً
تَنْخَلُ مِنْهَا مِثْلَ مَا يَتَنَخَّلُ
يُنْقَفُّهَا حَتَّى تَلِينَ كَعُوبَهَا
فَيَقْصِرُ عَنْهَا مَنْ يُسِيءُ وَيَعْمَلُ

ولقد عارض هذه الأبيات كثير من الشعراء ، إما بالتزام البحر والقافية ، وإما بالتزام المعنى ، منهم مزرد أخو الشماخ ، والكميت ، وعدى بن الرقاع ، وإبراهيم بن هرمة ،

(*) المعاني :

القنة : هى الجبل الذى ليس بمتشر ، أقوين : يعنى خلون .

(١) الشعر والشعراء ، ص : ١٥٦ .

فوّز : بمعنى مضى ومات ، وجرول هو الحطيئة ، واسمه جرول بن أوس .

وكلهم من الشعراء العظام ، ولعل أقرب معانى الشعراء إليها هو قول الكميت يصف قوافيه في قوله :

مهذبةً لا كَقَوْلِ الهَذَا ءِ مِمَّنْ يُسِيءُ وَمَنْ يَعْمَلُ
وَمَا ضَرَّهَا أَنَّ كَعْبًا نَوَى وَفَوَّزَ مِنْ بَعْدِهِ جَرَّوُلُ

إن لامية كعب بن زهير من القصائد التي نالت شهرة واسعة بين ما حوته دواوين العرب من أشعار ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها سببان رئيسيان ، السبب الأول : أنها قيلت في مدح رسول الله ﷺ فنالت بذلك شرف الخلود ، والسبب الثاني : هو عبقرية كعب وشاعريته الفذة التي احتفل بها النقاد والشعراء وفضلوها حتى على شاعرية أبيه على النحو الذي ذكرناه قبل قليل .

ولذلك يجمل بنا ألا نقف عند شرح مفرداتها في الهوامش الماضية ، وإنما هي محتاجة إلى شيء من التوقف حيال بعض مبانيها وغير قليل من معانيها .

بين يدي القصيدة :

القصيدة تقع في ما يناهز ستين بيتا ، أو هي على التحديد طبقا لأدق الروايات ثمانية وخمسون بيتا ، يلفت النظر فيها أن مدخلها في النسيب يحوز خمسة وثلاثين بيتا ، أى : أكثر من نصف أبيات القصيدة ، وهو أمر يعيبه النقاد المتأخرون ، ولكن كعبا لم يكن يعنيه هذا الشيء ، وكل الذى كان يعنيه هو تميز بضاعته وجودة شعره إلى الحد الأسمى ، لأن الغزل بسعاد لم يتعد أربعة عشر بيتا ، وأما بقية مدخل النسيب فهو في وصف ناقته التي تحمله إلى الحبيبة .

فأما سعاد موضوع الغزل فقد قيل : إنها زوجته ، فهو - والحال كذلك - لم يشبب بأثنى محرمة عليه ، وقيل : بل هي مجرد اسم يرمز للمحبة التقليدية التي جرى الشعراء قديما على التغزل بها في استفتاح قصائدهم مما لا يشكل مؤاخذه أخلاقية من منطلق التشهير بامرأة غريبة عنه ، ومن ثم لم يعترض الرسول ﷺ على إنشاد القصيدة في المسجد .

أما لب أبيات الغزل فهو البيت التى تمثله جميع الشعراء من بعده وحفظته ذاكرة كل أديب من زمنه إلى زمننا ، وهو قوله :

هيفاءً مقبلةً عَجَزَاءَ مدبرةً

لا يشتكى قِصْرُ منها ولا طولُ

ولقد ركز كعب على جمال بطلة نسيبه ، فخلع عليها سمات الحسن المعروفة ومعاييره المألوفة فى فحولة من القول ، غير أنه لم يلبث أن نعتها بأنها لا تفى بعهد ، ولا تصدق فى وعد ، فمواعيدها مثل مواعيد عرقوب .

وأما الموضوع الحقيقى لمقدمة النسيب فكان - على ما أشرنا قبل قليل - وصف لناقته ، لقد أطال فى نعتها وأبدع فى وصفها إلى حدِّ التغزل بها ، لأنه أضفى عليها من صفات الجمال ما يمكن أن يضفيه محب على حبيبته ، ثم زاد على ذلك فخلع عليها جميع الصفات الكريمة التى يمكن أن يخلعها شاعر على ناقة ، وإن وصف كعب لناقته هو أوفى وصف لناقة فى شعر شاعر .

ومن السمات الفنية المعجبة التى تميزت بها لامية كعب هو ذلك الخلوص الرشيق من النسيب إلى مدح رسول الله ﷺ إنه خلوص لبق ، سهل الجنب ، موسوم بالعمق ، موسىٌّ بالحكمة .

يقول كعب فى هذا الموقف :

| | |
|--------------------------------|----------------------------|
| وقال كل صديق كنت آمله | لا أهينك إنى عنك مشغول |
| فقلت : خلُّوا سبيلى لا أبا لكم | فكل ما قدر الرحمن مفعول |
| كل ابن أنثى وإن طالت سلامته | يوما على آلة حذباء محمول |
| نبئت أن رسول الله أوعدنسى | والعفو عند رسول الله مأمول |

أما أبيات الاعتذار فقد بلغت من السمو والإتقان وعمق المعنى وحسن السبك قريبا مما بلغت أبيات النابغة الذبياني الذى عرف بأنه خير من اعتذر ، أو بعبارة النقاد : هو خير الشعراء إذا رهب .

لا تأخذننى بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت فى الاقابيل
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به
يرى ويسمع ما لو يسمع الفيلى
لظلل يَرعد من وجد بواده
إن لم يكن من رسول الله تنويل
حتى وَضَعْتُ يمينى ما أنازعها
فى كَفِّ ذى نَقَمَاتِ قَيْلِهِ الْقَيْلُ

إن كل صيغ المديح فى القصيدة لما يعد فى الطبقة العليا ، ولكن كعباً حلق فى سماء
لم يخلق فيها شاعر غيره ، وذلك فى قوله مادحا رسول الله ﷺ :

إن الرسول لنور يستضاء به

مهتد من سيوف الله مسلول

فى عصابة من قريش قال قائلهم

بيطن مكة لما أسلموا زولوا

ويخلق كعب فى كبد سماء فن الشعر وهو يمدح صحابة رسول الله ، وقد قصر مديحه
- قصر نظر منه - على الصحابة من قريش وأهمل الأنصار ، وذلك فى قوله :

شم العرانيين أبطال لبوسهم
من نسج داود فى الهيجا سراويل
بيض سوابغ قد سُكَّتْ لها حَلَقُ
كأنها حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُول
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم
قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم
ضرب إذا عرَّد السود التناييل

وهنا تكون كجوة الشاعر الذى غلبه الموقف فعرض بالأنصار ووصفهم بالقيامة
والفرار، وهو هنا لم يكن منصفاً ؛ لأن الأنصار هم حماة الدعوة وركنهما الركين ، غير أن
كعباً لم ينس ذلك الأنصارى الذى هَمَّ بقتله غضباً منه ؛ لأنه سبق أن عرض بالرسول
ﷺ فى آياته التى كان بعث بها إلى أخيه بجير حين علم بإسلامه ، فعامل كعب
الأنصار كلهم بتصرف واحد منهم .

كعب يمدح الأنصار :

وما أن عرّض بالأنصار حتى كانت القصيدة قد تم إنشادها إلا البيت الأخير الذي أتم به مدح المهاجرين ، وهنا قال له رسول الله ﷺ : « لولا ذكرت الأنصار بخير؟! - . يعنى هلا ذكرتهم بخير - فهم لذلك أهل » . وكذلك فعل الصحابة من قريش ، فقد أنكروا عليه وقالوا : لم تمدحنا إذ هجوتهم .

ولكن كعبا حين تشرب عقيدة الإسلام وروحها التي جعلت من المسلمين - والأنصار في مقدمتهم - إخوة له في الإسلام ، سارع إلى مدحهم وتمجيد بلائهم مع رسول الله ﷺ وموضعهم من اليمن في قصيدة يقول فيها :

| | |
|---|---|
| مَنْ سَرَّهُ كَرْمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ | فِي مَقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ (١) |
| وَرِثُوا الْمَكَارِمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ | إِنَّ الْخِيَارَ هُمْ بَنُو الْأَخْيَارِ |
| الْمُكْرِهِينَ السَّمْهَرِيَّ بِأَذْرِعِ | كَسَوَالِفِ الْهِنْدِيِّ غَيْرِ قِصَارِ (٢) |
| وَالنَّاطِرِينَ بِأَعْيُنِ مُحَمَّدٍ | كَالْجَمْرِ غَيْرِ كَلِيلَةِ الْأَبْصَارِ |
| وَالْبَائِعِينَ نَفُوسَهُمْ لِنَيْبِهِمْ | لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانُقِي وَكِرَارِ |
| وَالْقَائِدِينَ (٣) النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ | بِالْمَشْرِفِيِّ وَبِالْقَنَا الْخَطَّارِ (٤) |
| يَتَطَهَّرُونَ يَرَوْنَهُ تُسْكَاهُمْ | بِدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الْكُفَّارِ |
| دَرَبُوا كَمَا دَرَبْتَ بِبَطْنِ خَفِيَّةِ | غُلْبِ الرِّقَابِ مِنَ الْأَسْوَدِ ضَمَوَارِي (٥) |
| وَإِذَا حَلَلْتَ لِيَمْنَعُوكَ إِلَيْهِمْ | أَصْبَحْتَ عِنْدَ مَعَاقِلِ الْأَعْفَارِ (٦) |

(١) المقتب : الجماعة من الخيل . يريد به القوم على ظهور جيادهم .
 (٢) السمهري : الرمح . وسوالف الهندي : يريد حواشي السيوف ، وقد يراد به الرماح أيضا لأنها قد تنسب إلى الهند .
 (٣) وروى البيت « والذائدين » بمعنى المانعين والدافعين .
 (٤) المشرفي : السيف . والقنا : الرماح ، جمع قناة . والخطار : المهتر .
 (٥) دربوا : تعدوا . وخفية : اسم مأسدة . وغلب الرقاب : غلاظ الأعناق . وضواري متعودات الصيد والافتراس .
 (٦) المعائل : جمع معقل ، وهو الموضع الممتنع . والأعفار : جمع عفر ، وهو ولد الوعل ، ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعل في قتل الجبال .

ضَرَبُوا عَلِيًّا يَوْمَ بَدْرٍ ضَرْبَةً دَانَتْ لَوْعَتِهَا جَمِيعَ نِزَارِ (١)
لو يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ عِلْمِي كُلَّهُ فِيهِمْ لَصَدَّقَنِي الَّذِينَ أُمَارِي (٢)
قَوْمٌ إِذَا خَوَتِ النُّجُومُ فَإِنَّهُمْ لِلطَّارِقِينَ النَّازِلِينَ مَقَارِي (٣)
فِي الْغُرِّ مِنَ غَسَّانٍ مِنْ جُرْثُومَةٍ أَعْيَتْ حَكَافِرُهَا عَلَى الْمِنْقَارِ (٤)

وإذا كانت قصيدة كعب في مدح رسول الله ﷺ تمثل نمطا أسمى من أنماط الشعر العربي ، فإن لكعب شعرا جميلا بل كل شعره جميل له نكهة متميزة وطعم تفرد به دون غيره من الشعراء ، فمن ذلك قوله : (٥)

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجَبِي سَعَى الْفَتَى وَهُوَ مَحْبُوبٌ لَهُ الْقَدَرُ
يَسَعَى الْفَتَى لِأُمُورٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا وَالنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَالْهَمُّ مَنْتَشِرٌ
والمَرءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَلٌ لَا تَنْتَهِي الْعَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَثَرُ

ومما يستجاد له أيضا قوله : (٦)

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ ذَمِّي لِمَا تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ

(١) علياً : يريد على بن مسعود بن مازن الغساني ، وإليه تنسب بنو كنانة ، لأنه كفل ولد أخيه عبد مناة بن كنانة بعد وفاته ، فنسبوا إليه .

(٢) أمارى : أجادل .

(٣) خوت النجوم : أى سقطت ولم تمطر في نوبها . والطارقون : الذين يأتون بالليل . والمقارى : جمع مقراة ، وهى الجفنة التى يصنع فيها الطعام للأضياف . يريد أنهم إذا انحبس المطر ، واشتد الزمان ، وعمّ القحط ، يكونون أصحاب قصاب لقرى الأضياف الذين يطرقونهم ، وينزلون بهم .

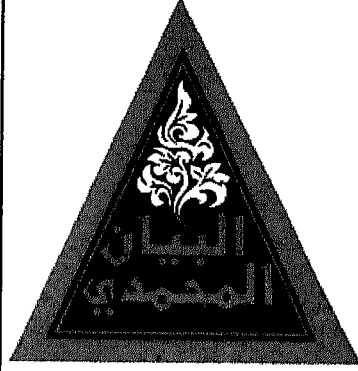
(٤) هذا البيت ساقط من بعض الروايات .

(٥) الشعر والشعراء : ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٦) خزنة الأدب للبغدادى : ١٥٤ / ٩ .

فَاخْشَ سُكُوتِي إِذْ أَنَا مُنْصِتٌ
وَالسَامِعُ الذَّمَّ شَرِيكُ لَه
فِيكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ
مُقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا
وَمُنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ
وَمُطْعِمُ الْمَأْكُولِ كَالْأَكْلِ
أَسْرَعُ مِمَّنْ مُنْحَدِرٍ سَائِلِ
ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

ولكن تبقى قصيدة كعب في مدح رسول الله ﷺ هي عروس قصائده ، بل عروس
المدائح كلها .



الفصل السادس

الصحبايات الشاعرات

- الخنساء
- صفية بنت عبد المطلب
- نعم امرأة شماس بن عثمان
- قتيبة بنت النضر
- الشيماء بنت الحارث
- هند بنت أثالة بن عباد

الرسول والصحابيات الشاعرات

لقد صار من الواضح بمكان أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الشعر الجيد . فكان يستنشد الشعراء الصحابة مثل حسان ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير .

ومثلما كان الرسول يستمع إلى الشعراء الصحابة ويطرب لشعرهم ويطرى عطاء ملكاتهم فقد كان يفعل الصنيع نفسه مع الشاعرات الصحابيات من أمثال الخنساء ، وقتيلة بنت النضر ، والشيباء أخته من الرضاع .

الخنساء:

ولقد كانت أشعر الصحابيات الخنساء بنت عمرو بن الشريد التي خلد شعرها مع الزمان ، والتي كان رسول الله ﷺ يطرب لشعرها لبلاغته وجودته ، وعمق معانيه واتساع آفاقه .

والخنساء ليس اسمها ، وإنما هو لقب لها ، وقد كانت تنادى أيضا بلفظ : خُناس ، وأما اسمها فهو « تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد » ويتهى نسبها لمضر .

وكانت الخنساء في أول أمرها تهوى الشعر ، فتقول البيتين والثلاثة ، حتى قتل أخوها الفارسان صخر ومعاوية ، وكانت تحبها حبًا أكثر مما هو مألوف في شأن حب الأخت إخوتها ، وكانت أكثر حبا لصخر لجوده وفروسيته وشدة عطفه عليها ، ولكونه محبوبا في العشيرة .

وقد أجمع أهل العلم بالشعر - فيما يذكر العباس - أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها

أشعر منها ، ولقد وفدت على رسول الله ﷺ من بنى سليم فأسلمت معهم ، وذكروا -
أى : أهل العلم بالشعر - أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها ويعجبه شعرها ، وكانت
تنشده وهو يقول : هيه يا خناس ، ويومئء بيده ﷺ (١) .

كانت الخنساء أشعر النساء فى الجاهلية ، وكذلك كانت فى الإسلام ، وقد عاشت
حتى خلافة عمر - رضى الله عنه - وكانت حضرت حرب القادسية ودفعت أبناءها
الأربعة العباس بن مرداس وإخوته إلى أتون المعركة ، وقد ملأتهم حماسا بخطبة
مشهورة ، فاستشهدوا جميعا ، ولما بلغها خبر استشهادهم فى المعركة قالت : الحمد لله
الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

يقول ابن قتيبة : كان النابغة الذبياني تضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ
وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى أبو بصير ، ثم أنشده حسان
ابن ثابت ، ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته ، فقال لها النابغة : والله
لولا أن أبا بصير أنشدنى لقلت : إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان : والله لأنا
أشعر منك ومن أبيك ومن جدك ، فقبض النابغة على يده ثم قال : يابن أخى إنك لا
تحسن أن تقول مثل قولى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى

وإن خلستُ أن المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مئانة - أى امرأة -
أشعر منك ، فقالت له : والله ولا ذا خصيين (٢) .

وتذكر بعض كتب التراجم أنها لم تلد إلا شاعرا (٣) ويقول البغدادي : إنها كانت
صاحبة مكانة خاصة عند رسول الله ﷺ وكان ﷺ يقول : إنها أشعر الناس .

كانت المناسبة التى لقبها فيها الرسول بأنها أشعر الناس أن عدى بن حاتم الطائى لما

(١) معاهد التنصيص ١ / ٣٤٨ وما بعدها .

(٢) الشعر والشعراء ٣٤٤ .

(٣) خزنة الأدب للبغدادي ١ / ٤٣٤ وما بعدها .

قدم على الرسول وحادثه قال : يا رسول الله : إن فينا أشعر الناس ، وأسخرى الناس ، وأفرس الناس .

قال : سمّهم . قال : أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حُجر ، وأما أسخرى الناس فحاتم بن سعد - يعنى أباه - وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب . فقال رسول الله ﷺ : « ليس كما قلت يا عدى ، أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو ، وأما أسخرى الناس فمحمد - يعنى نفسه - وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب » .

وفى تقديمها على الشعراء قيل لجرير : من أشعر الناس ؟ قال : أنا لولا الخنساء ، قيل : بِمَ فَضَلْتَكْ ؟ قال : بقولها :

إن الزمان وما يَفْنَى له عجبٌ

أبقى لنا ذَنْباً واستَوْصِلَ الراسُ

إن الجديدين فى طول اختلافهما

لا يَفْسُدَانِ ولكن يَفْسُدُ الناسُ (١)

كانت الخنساء تمدح أباها كثيرا ، فقيل لها : قد فضّلته على أبيك . وفى رواية : ما مدحت أخاك حتى هجنت أباك .

فقال هذه الأبيات :

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يتعاوران ملاءة الحضر

حتى إذا نزت القلوب وقد لُزْتُ هناك العذْرُ بالعذر (*)

وعلا هتاف الناس : أيهما ؟ قال المجيب هناك : لا أدري

برزت صفيحة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى

(١) المصدر السابق ، الصفحات نفسها .

(*) الحضر - يسكون الضاد وقبلها حاء مفتوحة - : العدو والجرى . لزت : يعنى لصقت . والعذر - بضم العين - : جمع عذار ، يعنى عذارى فرسيها لصق بعضها ببعض وقت التسابق .

أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكُبر
وهما كأنهما وقد برزا صقران قد حطا على وكر

يقول الشريف المرتضى في مقام الإعجاب بهذه الأبيات : ولعمري إنها قد بلغت في مدح أخيها - من غير إزراء على أبيها - النهاية ؛ لأنها جعلت تقدّم أبيه له عن قدرة منه على المساواة ومن غير تقصير منه ، وإنما أفرج له عن السبق معرفة بحقه ، وتسليها لكبره وسنه .

ويستطرد الشريف قائلا : ويشبه أن يكون الكميت أخذ من الخنساء قوله في تحلّد ابن يزيد بن المهلب : (١)

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه
أحدٌ ومثلك طالبا لم يُلحَقِ
تتجاذبان ، له فضيلة سنّه
وتلوت بعدُ مصليا لم تُسبَقِ
إن تنزعا وله فضيلة سبقه
فبمثل شأو أبيك لم يُتعلّق
ولكن لحقت به على ما قد مضى
من بُعد غايته فأحج وأخلى (*)

ويمضى الشريف المرتضى مشيرا إلى الشعراء الذي رسموا على منوال شعر الخنساء في أخيها وأبيها فيذكر قصيدة رائية للمؤمل بن أميل الكوفي المحاربي يمدح المهدي في حياة أبيه المنصور ، وأخرى لعباد بن شبل ، وثالثة للعتابي ، ورابعة لأبي نواس في الفضل بن الربيع ، وأخرى لأبي تمام في أبي سعيد الثغري .

(١) أمالي المرتضى ١ / ٩٩ .

(*) يريد القول : إن سبقك أبوك فلا غرو فإنه لم يسبق قط ، وإن سبقته فأنت جدير بالسبق .

ويردّ الشريف بيت عدى بن الرقاع في قوله يصف حمارا وأنانا يتشاجران : إلى الخنساء ، وذلك في قوله :

يتعاوران من الغبار ملاءة بيضاء محدثة هما نسجاها (١)

فإذا عدنا مرة ثانية إلى أبيات الخنساء في أخيها وأبيها وقعنا على هذا الخبر الطريف الذي ذكره الفضل بن الربيع حاجب الرشيد ، قال : أجرى الرشيد الخيل ذات يوم فجاء فرسه سابقا ، وفرس المأمون مصليا - أي : تاليا للجواد السابق - فاستفزه الفرح ، وتداخلت المأمون كآبة ، وبصر الرشيد بالأصمعي فقال له : ما عندك في هذين الفرسين يا أصمعي ؟ فقال : ما قالت الخنساء يا أمير المؤمنين ، وأنشده الأبيات : «جاري أباه فأقبلا وهما» . . فلما انتهى إلى آخرها قال له : لا يفضض الله فاك ، فأنت بإصابتك التمثيل ووضعه موضعه مواز للخنساء في شعرها الذي أجادته وما قصّرت عن غاية الإحسان ، لله هي !! (٢).

كانت الخنساء من بلاغة القول ونفاسة الشعر وعمق المعنى بحيث كرمها رسول الله ﷺ وهو أبلغ الناس وأفصحهم وأكثرهم بصراً بالقول السديد . فمن قصيدة لها تروى صخرأ أخاها : (٣).

وما الغيث في جعد الثرى دمث الربى

تبعق منه العارضُ المهتللُ (*)

بأجزل سَيِّباً من يديك ونعمة

تَجود بها بل سَيِّبُ كَفِّكَ أَجْزَلُ

وَجَارُكَ مَحْفُوظٌ مَنِيعٌ بِنَجْوَةٍ

من الضيم لا يُرْزَأُ ولا يتدلل

(١) أمالي الشريف المرتضى ١ / ١٠٠ - ١٠٤ .

(٢) حماسة ابن الشجري ١ / ٣٧١ - ٣٨٠ .

(٣) حماسة ابن الشجري ١ / ٣٢٥ .

(*) ثرى جعد ، ثرى متراكم غليظ . الدّمث - بفتح الدال - يعنى السهولة واللين . تبعق المزن : يعنى اهتمر بالمطر .

فما بلغت كفو امرئ متناولٍ

بها المجد إلا حيث ما نلت أطولُ

ولا بَلَغَ المَهْدُونَ في القول مدحةً

ولو أكثرُوا إلا الذي فيك أفضلُ

إن الخنساء في شعرها قد رجحت أشهر أصحاب المراثي الجيدة المعاصرين لها ،
والذين جاءوا بعدها ، وعلى رأسهم أبو ذؤيب الهذلي ، وجرير شاعر العصر الأموي .

وفي مرثية أخرى في صخر أخيها تقول :

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكرن مثل أخي ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي

يذكرني طلوع الشمس صحرا وأذكره لكل غروب شمس

وقد أعجب النقاد من قديم بالبيت الأخير ، فهي تقول : أذكره في أول النهار
بالغارة ، وفي آخره بالضيغان . ويذكر المبرد أن مصعب بن الزبير تمثل يوم قتل بيت
شبيه بالبيت الثاني فقال :

وإن اللى بالطف من آل هاشم

تأسوا فسنوا للكرام التأسي (١)

لقد استنشد رسول الله ﷺ الصحابية الشاعرة الخنساء بنت عمرو بن الشريد
وفضلها على سائر الشعراء ؛ لأنه ﷺ هو القاتل : « إن من البيان لسحرا وإن من
الشعر لحكمة » .

صفية بنت عبد المطلب :

هي عممة الرسول ﷺ وشقيقة عمه حمزة وأم الصحابي الزبير بن العوام ، وكانت من
الصحابيات السابقات إلى الإسلام ، وكانت شجاعة فصيحة شاعرة .

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٤ .

فأما شجاعته فقد تجلت في قتلها الجاسوس اليهودى يوم أحد ، ومجمل الخبر طبقا لرواية ابن سعد : أن النبي ﷺ كان إذا خرج من المدينة لقتال عدوه رفع أزواجه ونساءه في أطم حسان بن ثابت ؛ لأنه كان من أحصن أطام المدينة . وتخلف حسان عن الخروج يوم أحد ، فجاء يهودى فلصق بالأطم يستمع ويتجسس ، فقالت صفية لحسان : انزل إلى هذا اليهودى فاقتله ، ويبدو أن حسانا هاب الموقف أو كان مريضا فأخذت عمودا ونزلت فختلته حتى فتحت الباب قليلا قليلا ثم حملت عليه فضرته بالعمود فقتلته (١).

ومثلما كان يوم أحد مجللا بالحنن عند فرسان المعركة ، فقد كان كذلك أيضا عند صفية ، فهى إذ انتصرت في صباح ذلك اليوم بقتلها اليهودى الذى تجرأ على نساء رسول الله وحاول التجسس عليهن فقد فقدت شقيقها حمزة الفارس البطل الشهيد . لقد اتجهت صفية إلى ميدان المعركة وقد انهزم الناس وبيدها رمح تضرب به وجوههم وتقول : انهزمتم عن رسول الله ؟! فلما رآها رسول الله ﷺ قال لابنها : يا زبير ، المرأة ، وكان شقيقها حمزة قد بُقر بطنه ، فكره رسول الله أن تراه ، فقال الزبير : يا أمه ، إليك إليك ، فقالت : تنح لا أم لك . فنظرت إلى حمزة ، ولم تلبث دموعها أن فاضت ، ثم أنشأت هذه الأبيات في رثائه (٢).

| | |
|--------------------------|------------------------------|
| بنات أبى من أعجم وخبير | أسائلة أصحاب أخذ مخافة |
| وزير رسول الله خير وزير | فقال الخبير : إن حمزة قد ثوى |
| إلى جنة يحيا بها وسرور | دعاه إله الحق ذو العرش دعوة |
| لحمزة يوم الحشر خير مصير | فذلك ما كنا نرجى ونرتجى |
| بكاء وحننا محضرى ومسيرى | فوالله لا أنساك ما هبت الصبا |

(١) الطبقات الكبرى : ٤١ / ٨ .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٦٧ / ٢ .

على أسد الله الذى كان مدرها

يدود عن الإسلام كل كفور

فياليت شلوى عند ذاك وأعظمى

لدى أضيع ترتادنى ونسور

أقول وقد أعلى النعىّ عشيرتى :

جزى الله خيرا من أخ ونصير(*)

ولصفية شعر آخر فى رثاء أبيها عبد المطلب ، وكانت إذ ذاك شابة أضناها موت

أبيها الرجل العظيم ، فقالت : (١)

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| أرقت لصوت نائحة بليل | على رجل بقارعة الصعيد |
| ففاضت عند ذلكم دموعى | على خدى كمنحدر الفريد |
| على رجل كريم غير وغل | له الفضل المبين على العبيد |
| على الفياض شبية ذى المعالى | أبيك الخير وارث كل جود |
| صدوق فى المواطن غير نكس | ولا شخت المقام ولا سنيد |
| طويل الباع أروع شىظمى | مطاع فى عشيرته حميد |
| رفيع البيت أبلج ذى فضول | وغيث الناس فى الزمن الحُرود |
| عظيم الحلم من نفر كرام | خضارمة مَلاوثة أسود |
| فلو خلد امرؤ لقديم مجد | - ولكن لا سبيل إلى الخلود - |

(*) معانى المفردات :

الأعجم : الذى لا يفصح . مسرى ، أى : غيابه ، المدره : الذى يدفع عن القوم . الشلو : البقية ، النعىّ :

النوح والبكاء بصوت ، أو الذى يأتى بخبر الميت .

(١) السيرة لابن هشام / ١ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

لكان مخلدًا أخرى الليالى لفضل المجد والحسب التليد (***)

نعم امرأة شماس بن عثمان :

ولمناسبة قصيدة صفية بنت عبد المطلب في رثاء أخيها حمزة حين استشهد يوم أحد، يسوقنا ذلك إلى ذكر صحابية أخرى شاعرة بكت زوجها لاستشهاده في اليوم نفسه، إنها نعم امرأة شماس بن عثمان .

وكان شماس حريًا بأن يبكى عليه لولا أنه قضى شهيدا في سبيل الله .

يقول ابن هشام : واسم شماس : عثمان، وإنما سمي شماسا لأن شماسا من أبناء النصارى قدم مكة في الجاهلية، وكان جميلا حتى إن الناس عجبوا من جماله، فقال عتبة بن ربيعة - وكان خال شماس - : أنا أتاكم بشماس أحسن منه، فجاء بابن أخته عثمان بن عثمان فسمى شماسا (١).

ويكمل أستاذنا المرحوم مصطفى السقا خبر شماس فيقول : إن اسمه عامر، وشماس لقب غلب عليه، وأمه صفية بنت ربيعة بن عبد شمس، شهد بدرا وقتل يوم أحد شهيدا، وكان يوم قتل ابن أربع وثلاثين سنة، وكان رسول الله ﷺ يقول : « ما وجدت لشماس شبيها إلا الجنة » يعنى مما يقاتل يومئذ عن رسول الله، وكان رسول الله ﷺ لا يرمى ببصره يمينا ولا شمالا إلا رأى شماسا في ذلك الوجه يذب بسيفه، حتى غشى رسول الله ﷺ فترس بنفسه دونه حتى أصيب إصابة قاتلة، فحمل إلى المدينة وبه رمق، فأدخل على عائشة - رضى الله عنها - فقالت أم سلمة - أم المؤمنين - : ابن عمى يدخل على غيرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « احمלוه إلى أم سلمة » فحمل إليها فمات عندها بعد أن مكث يوما وليلة (٢).

(**) الفريد : الدر . الوغل : الضعيف الساقط . النكس : الذى لا خير فيه . الشخت : الضامر . السنيد :

الضعيف الذى لا يستقل بنفسه . الشيطمى : الفتى الجسيم . الخضارمة : جمع خضرم، وهو الجواد المعطاء .

الملاوثة : جمع ملوath، وهو ذو القوة .

(١) السيرة ١ / ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٢) المصدر نفسه هامش صفحة ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

هذا الفارس الشاب الجميل الذى أسلم صغيرا وهاجر إلى الحبشة ، الذى استشهد محاربا فى سبيل الله ، ومدافعا عن رسول الله لم تستطع زوجته الصحابية الشاعرة إلا أن تبكيه مسجلة بكاءها فى أبيات من أرق ما يقال فى رثاء الفرسان المؤمنين الشهداء ، فأنشدت فى ذلك أبياتا منها : (١)

يا عينُ جوْدِي بفيضٍ غيرِ إِبْسَاسِ

على كريمٍ من الفتیانِ إِبَّاسِ

صَغْبِ البديَةِ ميمونٍ نَقَبْتُهُ

حَمَّالِ الأُويَةِ رَكَّابِ أفراسِ

أقول لما أتى الناعى له - جزعا - :

أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى

وقلت لما خلت منه مجالسه :

لا يبعد الله عنا قرب شماس (*)

ولما كان هذا هو حال ناعم من الحزن والأسى فإن أخاها أبا الحكم بن سعيد بن يربوع

أجابها معزِّبًا إياها ومواسيا فقال : (٢)

أقنى حياءك فى ستر وفى كرم

فإنما كان شماسٌ من الناس

لا تقتلى النفس إذ حانت منيته

فى طاعة الله يوم الروع والباس

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ١٦٨ .

(*) معاني المفردات :

الإبساس : أن تمسح بطن الناقة لتدر اللبن ؛ والمقصود هنا أن الدمع يفيض بغير تكلف . الإبَّاس : هو القوى الشديد البأس ، البديّة : أول الرأى والأمر . ميمون النقيبة : يعنى مسعود الفعّال . الأُويّة : جمع لواء ، وهو العلم ؛ المطعم الكاسى : يعنى الجواد الذى يطعم الناس ويكسوهم .

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها ، ولكن محقق الكتاب ذكر البيتين الأول والثالث بشيء من الاختلاف ونسبهما لحسان ابن ثابت . السيرة هامش ١ / ٣٦٧ .

قد كان حمزة ليث الله فاصطبرى

فذاق يومئذ من كأس شماس

قتيلة بنت النضر بن الحارث :

كانت قتيلة ابنة للنضر بن الحارث المخزومي القرشى ، وكان أحد المحاربين
القرشيين ضد المسلمين في وقعة بدر ، وقد وقع أسيرا ، وأمر الرسول ﷺ بقتله ، فقالت
قتيلة ترثيه وتوجه خطاب توجعها إلى الرسول ﷺ : (١)

يا راكباً إن الأئيل مظنة من صُبح خامسة وأنت موفقُ
أبلغ بها ميثاً بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى عليك وعبرة مسفوحة جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعنى النضر إن ناديتُه أم كيف يسمع ميثٌ لا ينطق
أحمد يا خيرَ ضنءٍ كريمة في قومها والفحلُ فحلٌ مُعرق
ما كان ضرك لو مننت وربها من الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلننفقن بأعز ما يغلوبه ما يُنطق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم إن كان عتق يُعتق
ظلت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه لله أرحامٌ هناك تُمَرِّق
صبراً يُقَاد إلى المنية مُتعباً رسف المُقَيَّد وهو عانٍ مُوثق (*)

فيقال : إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت
عليه .

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٤٢ ، ٤٣ ، والعقد الفريد ٥ / ٢٧٩ والإصابة ٤ / ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(*) المفردات :

الأئيل : موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء ، مظنة : أى موقع الظن ، النجائب : الإبل الكرام ، تخفق :
يعنى تسرع ، الواكف : السائل ، الضنء : الأصل .

وفي الإصابة رواية عن الزبير بن بكار : أن رسول الله ﷺ رقى لها حتى دمعت عيناه ، وقال لأبي بكر : يا أبا بكر لو سمعت شعرها لم أقتل أباه .

إن قتيلة بنت النضر ليست مجرد مثال للشاعرات الصحابيات وحسب ، ولكن تعليق رسول الله ﷺ يترجم عن الطبيعة الرحيمة في تكوين رسول الله ﷺ ورقة مشاعره ، مع أن قريشا كلها بها فيها النضر لو ظفرت برسول الله ما توانت في قتله .

الشيءاء بنت الحارث :

هي أخت النبي ﷺ من الرضاع ، واسمها حذافة ، ولكنها تلقب بالشيءاء والشيءاء ، فغلبت صفتها على اسمها ، وقد كانت الشيءاء تحتضن رسول الله مع أمها وهو طفل رضيع ، وإخوته ﷺ من الرضاعة غير الشيءاء : عبدالله ، وأنيسة ، وحذيفة

وفي يوم حنين انهزمت هوازن التي منها بنوسعد بن بكر ، ووقع منهم أسرى كثيرون وسبايا كثيرات . وكان من بين السبايا الشيءاء ، فقالت لبعض جيش المسلمين : أنا أخت صاحبكم ، فلما قدموا بها إلى رسول الله قالت : يا محمد أنا أختك من الرضاع ، قال : وما علامة ذلك ؟ قالت عضّة عضضتها في ظهرى وأنا متوركتك ، فعرف رسول الله ﷺ العلامة ، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه ودمعت عيناه وقال لها : إن أحببت فأقيمي عندي محبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك فارجعي إلى قومك ، فقالت : بل تمتعني وتردني إلى قومي ، فمتعها وردها إلى قومها ، فأسلمت وأعطاه رسول الله نعماء وثناء وثلاثة أعبد وجارية (١).

إن بنى سعد بن بكر الذين ربي فيهم رسول الله ﷺ رضيعا وغلما معروفا بالفصاحة ، والرسول ﷺ يقرر ذلك في قوله الشريف : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش وربيت في بنى سعد بن بكر » ولذلك فقد كانت أخته الشيءاء ترتجل الشعر والرجز في صغرها وفي كبرها .

(١) طبقات ابن سعد : قسم النساء ، والإصابة ٤ / ٣٤٤ ، والاستيعاب بهامش الإصابة نفس الصفحة .

وكذلك كان رجال القبيلة فصحاء شعراء حتى إن رئيس القوم أبا جرول الجشمي يقول : أسَرَنا النبي ﷺ يوم حنين ، فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

امنن علينا رسول الله في حرم فإنك المرء نرجوه ومنتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها يا أرجح الناس حلماً حين يُختبر
إننا لنشكر للنعمى إذا كُفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

يقول أبو جرول : فذكرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم ، فقالت الأنصار : وما كان فهو لله ورسوله ، فردت الأنصار ما كان في أيديها من الذراري والأموال (١).

فإذا ما عاد الحديث بنا إلى الشياء وجدناها قد شغلت بأخيها محمد ﷺ حبا ، وشغفت به عطفا ، فمن شعرها فيه قولها مرتجزة : (٢)

محمدٌ خير البشر ممن مضى ومن غبر
من حج منهم أو اعتمر أحسن من وجه القمر
من كل أنثى وذكر من كل مشبوب أغر
جنبني الله الغير فيه وأوضح لي الأثر

ومن رجزها الجميل قولها في الرضيع محمد وهي ترقصه ، أي : تغني له طفلا :

هذا أخ لي لم تلده أُمِّي وليس من نسل أبي وعمِّي
فديته من مخولٍ معمِّ فأئمه اللهم فيما تُنمِّي

ومن نفيس شعر الشياء في محمد الصغير وهي ترقصه ﷺ هذا الدعاء الطيب

الرقيق :

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٧٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ١ / ٤٤٦ .

يا ربنا أبق أخى محمداً حتى أراه يافعا وأمردا
واكبث أعاديه معا والحسدأ وأعطه عزاً يدوم أبداً

ومن الطريف أن أبا عروة الأزدى كان إذا أنشد هذا الشعر للشياخ يقول : ما أحسن ما أجاب الله دعاءها (١).

هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب :

إن هنداً مطلبية قرشية ، أسلمت بمكة في فجر الدعوة ، وقد خاضت معارك الإسلام بشعرها ، ونافجت عن رسول الله ، وهجت كفار قريش ، وجرى بينها وبين هند بنت عتبة زوج أبي سفيان مناقضات شعرية (٢) ، فكانت في ذلك شريكة لحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، مع فارق القدرة القولية بينها وبينهم ، كما أنها قالت مراثى في بعض شهداء بدر وبخاصة الصحابي الجليل عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف شهيد بدر وحامل أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين .

في وقعة أحد وقفت هند بنت عتبة على صخرة مشرفة تفتخر بقتل حمزة وغيره ممن أصيب من المسلمين في المعركة ، وهي تقول بأعلى صوتها (٣) :

نحن جزيناكم بيوم بَدْرٍ والحربُ بعد الحرب ذات سُعْرِ
ما كان عن عتبة لي من صبرٍ ولا أخى وعمه وبكبرى
شفيئتُ نفسى وقضيتُ نذرى شفيتُ « وحشى » غليلَ صدرى
فشكرُ « وحشى » علىَّ عمرى حتى ترمَّ أعظمى في قبرى (*) .

(١) الإصابة ٤ / ٣٤٤ الترجمة رقم ٦٢٣ .

(٢) الإصابة ٤ / ٤٢٢ الترجمة رقم ١٠٨٦ .

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٩١ ، ٩٢ .

(*) معانى المفردات :

السعر - بضم سين - : الانتهاب . الغليل : العطش أو حرارة الجوف . ترم : أى تلب وتفتت .

فأجابتها هند بنت أثاثة فقالت :

خزيت في بدرٍ وبعد بدر
صبحك الله غداة الفجر
يا بنت وقاعٍ عظيم الكفر
بكل قطّاع حسامٍ يفرى
ملهاشميين الطوال الزهر
إذ رام شيبٌ وأبوك غدري
حمزة ليثى وعلسى صقري
فخضبا منه ضواحي النحر

ونذرك السوء فشرُّ نذر (**).

ولما قطعت رجل عبيد الله بن الحارث أحد أبطال بدر وشهادتها سارع الشعراء إلى برثائه بجميل القول وبتليغ الرثاء ، وكان عبيد الله قد قتل عتبة والد هند زوج أبي سفيان ، وفي الوقت نفسه كان عتبة قد أصاب رجل عبيدة فقطعها ، وكان قطعها سببا في موته شهيدا ، قال كعب بن مالك يرثى عبيدة الشهيد :

أيا عين جودي ولا تبخلي
على سيّد هدنا هلكه
بدمعك حقًا ولا تنزري
جريء المقدّم شاكي السلاح
كريم المشاهد والعنصر
عبيدة أمسى ولا نرتجيه
لعرّف عرانا ولا منكر
وقد كان يحمي غداة القتلى
لحامية الجيش بالمئتر (***)

وأما الصحابية هند بنت أثاثة فقد قالت ترثى عبيدة بن الحارث بهذه الأبيات (١):

(**) الوقاع : الكثير الوقوع في الدنيا . ملهاشميين ، أي من الهاشميين ، الزهر : أي البيض ، يفري : يعنى يقطع ، شيب : أرادت شيبه ، ضواحي النحر : ما ظهر من الصدر .

(***) معانى المفردات :

لا تنزري : أي لا تقللي الدمع . شاكي السلاح : أي حاد السلاح . النثا : هو ما يتحدث به عن الرجل من خير أو شر . طيب المكسر : أي أصيل غير مهجن . المئتر : يعنى السيف . من البتر .

(١) ابن هشام ٢ / ٤١ ، ٤٢ .

لقد ضُمنَ الصفراءُ مجداً وسوددا
عبدةً فابكيه لأضيافِ غُربةٍ
وحلماً أصيلاً وافرَ اللبِّ والعقلِ
وأرملةً تهوى لأشعثَ كالجدلِ
إذا احمرَّ آفاقُ السماء من المحلِ
وتشبيبٍ قدرٍ طالما أزبدتْ تغلي
فقد كان يُذكيهنَّ بالحطبِ الجزلِ
ومستنبحٍ أضحى لديه على رسلِ (*).

لقد كان الشعر واحدا من أسلحة الدعوة الإسلامية يبشر بها ويذود عنها ، ولم يكن
لواء الشعر معقودا على الصحابة الرجال وحدهم ، ولكن الصحابييات الشاعرات قد
شاركن في المعركة ، وقد كان رسول الله ﷺ يبارك هؤلاء وأولئك من الصحابة الشعراء
والصحابيات الشاعرات على حدّ سواء .

(*) الصفراء : موضع بين مكة والمدينة ، الأشعث : المتغير ، الجدل : أصل الشجرة وغيرها ، أى أنه ثابت قوى .
المحل : القحط . الزفرف من الرياح : الشديدة السريعة ، التشبيب : إيقاد النار تحت القدر . أزبدت : يعنى
رمت بالزبد . الجزل : الغليظ ، المستنبح : الرجل الذى يضل بالليل فينبع مثل الكلب لتجاوبه كلاب الحى .
الرسل بكسر الراء : اللبن .



الفصل السابع

الشعر في عام الوفود

- القبائل والأفراد
- وفد بني تميم
- وفود الجارود بن المعلىّ وسلمة بن عياض

الشعر في عام الوفود

تمهيد :

كان العام التاسع الهجرى هو عام الوفود ، فبعد انتصارات المسلمين بفتح مكة وغزو هوازن والطائف وزحف المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وإذعان الجزيرة العربية لدعوة الإسلام ، تهيأت وفود القبائل للتوجه إلى المدينة المنورة لإعلان إسلامها ومبايعة محمد ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد استقر في المدينة وأمر أبا بكر على الحجيج في ذلك العام ، فجعل رسول الله ﷺ يستقبل وفود القبائل التي كانت تقدم فصحاء رجالها من خطباء وشعراء لإلقاء خطبهم أو إنشاد قصائدهم بين يد الرسول ، وغالبا ما كان يجرى حوار بينهم وبين رسول الله ، فكان ﷺ يتلطف معهم في حوارهِ الذي كان يفيض بأدب الكلام ، ويتحلى بأدب النبوة طبقا لما سبق تناوله في صدر هذا الكتاب عند حديثنا عن فصاحته ﷺ .

على أن كثيرا من الوافدين من قبائل وأفراد كانوا يؤثرون تقديم شعرائهم إلى الرسول لبيعة رسول الله وإلقاء قصائد المديح بين يديه ، أو لإظهار ما عندهم من بضاعة الفصاحة متمثلة فيما ينشد شعراؤهم من شعر .

فمن وفود القبائل الذين صاحبته شعراؤهم : وفد همدان وشاعرهم وملكهم مالك ابن نمط ، ووفد جهينة وشاعرهم عمرو بن مرة الجهني ، ووفد حضرموت وشاعرهم كليب بن أسد بن كليب ، ووفد بنى عذرة وشاعرهم زَمَلُ بن عمرو العذري ، ووفد مزينة وشاعرهم خزاعي بن عبد نُهم ، ووفد بنى كلب وشاعرهم عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الجُلاح الكلبى ، ووفد بنى قشير وشاعرهم قره بن هبيرة بن سلمة الخير بن قشير ، ووفد بنى تميم وشاعرهم الزبرقان بن بدر .

ومن الأفراد الوافدين الذين أنسوا في أنفسهم فصاحة القول شعرا: أعشى بنى مازن وحُفَّافُ بن نَضْلَةَ بن عمرو بن بَهْدَلَةَ الثقفى ، وذُبَابُ بن الحارث من بنى أنس الله بن سعد العشيرة ، وفَرْوَةُ بن مُسَيْكُ المرادى ، والجارود العبدى وبصحبه سَلْمَةُ بن عياض الأسدى (١) .

وإذا كان المجال يضيق عن الحديث عن تلك الوفود من جماعات وأفراد فإنه لا يضيق بأنموذجين لهذه الوفود اتسما بالغرابة وشيء من الشغب ، فأما وفد القبيلة فهو وفد بنى تميم ، وأما وفد الأفراد فهو وفود الجارود العبدى وحليفه سلمة بن عياض الأسدى على رسول الله ﷺ .

وفد بنى تميم :

كان قدوم وفد بنى تميم على رسول الله ﷺ يتسم بالصخب والشغب ، وخشونة البداوة التى لا تليق مع مقام النبوة .

لقد كان الوفد مكونا من رجالات بطون تميم ، وعلى رأسهم عَطَّارِد بن حاجب بن زُرارة ، وفيهم الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وهذان كان قد سبق إسلامهما . وشهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنيناً والطائف ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهمم المنقرى ، وقيس بن عاصم المنقرى ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن يزيد .

لقد تبدت خشونة الوفد وقصور أدبه ونقص لياقته فى أنهم حين دخلوا مسجد رسول الله نادوا رسول الله من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ، وكرروا ذلك ثلاث مرات فتأذى رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم ، وفى رواية الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس ، وابن المنذر عن البراء بن عازب أن الأقرع أتى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد اخرج إلينا . فلم يجبه ، فقال : يا محمد إن حمدى لزين وإن ذمى لشين ، فقال الرسول ﷺ : « ذاك الله عز وجل » فقالوا : يا محمد ، جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال ﷺ فى سلوك أدب النبوة : قد أذنت لخطيبكم ، فليقل ، فقام عَطَّارِد ابن حاجب فقال :

(١) يُراجع الباب الواحد والعشرون ومابعده من الجزء السادس من سبل الهدى والرشاد .

الحمد لله الذى له علينا الفضل والمنّ ، وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عددا ، وأيسره عُدّة ، فَمَنْ مثَلنا فى الناس ، ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فآخرنا فليجِدْ مِثْل ما عدَدنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نُعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشّماس ، أخى بنى الحارث بن الخزرج : قم ، فأجب الرجل فى خطبته . فقام ثابت ، فقال :

الحمد لله الذى السموات والأرض خلّقه ، قضى فيهن أمره ، ووسّع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله . ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسا ، وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه وأتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أوّل الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منّا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

ولما أن انتهى ثابت بن قيس من خطبته البليغة اتجه الزبيرقان بن بدر إلى رجل منهم قائلا : يا فلان ، قم فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك ^(١) ، وفى رواية أن الزبيرقان هو نفسه نهض قائما وأنشد : ^(٢)

نحنُ الكرامُ فلا حتى يعادلنا
منا الملوكُ وفينا تُنصبُ البيع ^(٣)

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٤٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٦٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، قسم المغازى : ٥٦١ .

(٣) البيع : مواضع الصلوات والعبادات ، واحدها بيعة (بكسر الباء) .

وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ عند النَّهَابِ وَفَضَّلَ الْعَزَّ يُتَّبِعُ
وَنَحْنُ يَطْعِمُهُمْ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعِمِنَا مِنَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤْنَسِ الْقَرْعُ (١)
بِمَا نَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سُرَاتِهِمْ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هُوِيًّا ثُمَّ تَصْطَنِعُ (٢)
فَنَنْخَرُ الْكُومَ عُبْطًا فِي أُرُومَتِنَا لِلنَّارِلِينَ إِذَا مَا أَنْزَلُوا شَبَعُوا (٣)
فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيِّ نُفَاخِرُهُمْ إِلَّا اسْتَفَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يُقْتَطِعُ
فَمَنْ يُفَاخِرْنَا فِي ذَا نَعْرِفَنَاهُ فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ
إِنَّا أَيْنَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

وكان حسان غائبا ، فبعث إليه رسول الله ﷺ قال حسان : جاءني رسوله ، فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول :

مَنْعَنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ حَلَّ وَسَطْنَا عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمِ
مَنْعَنَا لَمَّا حَلَّ بَيْنَ بُيُوتِنَا بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمِ
بَيْتِ حَرِيدٍ عِزُّهُ وَتَرَاؤُهُ بِجَابِيَةِ الْجَوْلَانِ وَسَطَ الْأَعَاجِمِ (٤)
هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا السَّوْدُودُ وَالنَّدَى وَجَاهُ الْمَلُوكِ وَاحْتِمَالُ الْعِظَائِمِ (٥)

قال حسان: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم ، فقال رسول الله ﷺ: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال . فقام حسان ، فقال :

-
- (١) القرع (بالتحريك) : السحاب الرقيق . يريد إذا لم تمطرهم السماء ، فأجذبت أرضهم .
(٢) هويًا : سراعا .
(٣) الكوم : جمع كوما ، وهى العظيمة السنام من النوق . وعبطا : أى عن غير علة . وفى أرومتنا : أى هذا الكرم متأصل فينا .
(٤) البيت الحريد : الفريد الذى لا يختلط بغيره لعزته . وجابية الجولان : بلد بالشام . يريد أن النبى نزل وسط حى من الأنصار ذوى منعة ، وأهم ذوى جاه . ولهم صلة بالغساسنة ملوك الشام .
(٥) السوودد العود : المجد القديم الذى يتكرر على الزمان . وهذه الأبيات من قصيدة لحسان عدة أبياتها أربعة عشر .

- (١) إنَّ الدَّوَابَّ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ يَبْتُؤُا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ (١)
 يَرْضَى بِهِمْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَكُلَّ الْخَيْرِ يَصْطِنَعُ (٢)
 قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
 سَجِيَّةً تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدْعُ (٣)
 إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلٌّ سَبَقَ لِأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبِعُ
 لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا (٤)
 إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَازَ سَبْقُهُمْ أَوْ وَازَنُوا أَهْلَ مَجْدِ الْبَلَدِ مَتَعُوا (٥)
 أَعْفَةٌ ذُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عَفَّتِهِمْ لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُرَدِّبُهُمْ طَمَعُ (٦)
 لَا يَبْخُلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ وَلَا يَمَسُّهُمْ مِنْ مَطْمَعٍ طَبْعُ (٧)
 إِذَا نَصَبْنَا لِحَيٍّ لَمْ نَدَبْ لَهُمْ كَمَا يَدْبُ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ الدَّرْعُ (٨)
 نَسْمُوا إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْهَا خَالَجُهَا إِذَا الرِّعَافُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا (٩)
 لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ وَإِنْ أُصِيبُوا فَلَا خُورٌ وَلَا هُلَعُ (١٠)
 كَانَهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنِعٌ أَسَدٌ بِحَلِيَّةٍ فِي أَرْسَاقِهَا فَدَعُ (١١)

- (١) الذنائب : السادة . وأصله من ذنائب المرأة ، وهي غدائرها التي تعلق الرأس .
 (٢) رواية الشطر الثاني في الديوان : « تقوى الإله وبالأمير الذي شرعوا » وسيرويه ابن هشام بهذه الرواية بعد قليل .
 (٣) السجية : الطبيعة .
 (٤) ما أوهت : ما هدمت .
 (٥) متعوا : زادوا ، يقال : متع النهار ، إذا ارتفعت شمسه .
 (٦) لا يطبعون : لا يتدنسون .
 (٧) الطبع : الدنس .
 (٨) نصبنا : أظهرنا العداوة ولم نسرهما . والدرع : ولد البقرة الوحشية .
 (٩) نسمو : نهض . والرعاف : أطراف الناس وأتباعهم . وخشعوا : تذللوا .
 (١٠) الخور : الضعفاء ، والملعج (ككتب) : الجازعون ، الواحد : هلوع .
 (١١) مكتنع : دان . وحلية : مأسدة باليمن . والأرساغ : جمع رسف ، وهو موضع القيد من الرجل . فدع : اعوجاج إلى ناحية

خُذْ مِنْهُمْ مَا آتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا وَلَا يَكُنْ هَمُّكَ الْأَمْرَ الَّذِي مَنَعُوا (١)
فَإِنَّ فِي حَرْبِهِمْ فَاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ سَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ السَّمُّ وَالسَّلْعُ (٢)
أَكْرِمِ بِقَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ شِعْتَهُمْ إِذَا تَفَاوَتَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشِّيْعُ
أَهْدَى لَهُمْ مَدْحَتِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ فِيمَا أَحَبَّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعَ (٣)
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا (٤)

وتضيف الرواية أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْلَمُ النَّاسُ فَضَلْنَا إِذَا احْتَفَلُوا (٥) عِنْدَ احْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ (٦)
بِأَنَّا قُرُوعُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كِدَارِمِ (٧)
وَأَنَا نَدُودُ الْمُعْلِمِينَ إِذَا انْتَخَوْا وَنَضْرِبُ رَأْسِ الْأَصْيَدِ الْمُتَفَاقِمِ (٨)
وَأَنْ لَنَا الْمِزْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ نُغَيِّرُ بِنَجْدٍ أَوْ بِأَرْضِ الْأَعَاجِمِ (٩)

-
- (١) عفوا : من غير مشقة .
(٢) السلع : نبات مسموم .
(٣) صنع : يحسن القول ويبيده .
(٤) شمعوا : هزلوا . وأصل الشمع : الطرب واللهو ، ومنه جارية شموع ؛ إذا كانت كثيرة الطرب .
(٥) وفي رواية : اختلفوا .
(٦) المواسم : جمع موسم ، وهو الموضع الذي يجتمع فيه الناس مرة في السنة ، كاجتماعهم في الحج ، واجتماعهم بعكاظ وذى المجاز وأشباههما .
(٧) دارم : من بني تميم .
(٨) المُعَلِّمُونَ : الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها ، ويروى : « العالمين » . وانتخوا : من النخوة ، وهو التكبر والإعجاب . والأصيد : المتكبر الذي لا يلوى عنقه يمينا ولا شمالا . والمتفاقم : المتعاضم ، من تفاقم الأمر : إذا عظم واشتد .
(٩) المرباع (بكسر الميم) : أخذ الربع من الغنيمة ، يريد أنهم رؤساء . والنجد : ما ارتفع من الأرض ، ويريد بنجد : بلاد العرب .

فقام حسان بن ثابت فأجابه ، فقال :

هلِ المجدُ إلا السُودُ العُودُ والندى
نصرتنا وأوينا النبيَّ محمداً
بحسب حريدٍ أضله وتراؤه
نصرتناه لما حلَّ وسط ديارنا
جعلنا بيننا دونه وبناتنا
ونحن صرنا الناس حتى تتابعوا
ونحن ولدنا من قريش عظيمها
بنى دارم لا تفخروا إن فخركم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم
فإن كُنتم جئتم لحقن دمائكم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا
وجاهُ الملوكِ واحتمال العظامِ
على أنف راضٍ من معدٍ وراغمِ
بجاية الجولان وسط الأعاجمِ
بأسيافنا من كل باغ وظالمِ
وطبنا لك نفساً بقى المغانمِ
على دينه بالمرهفات الصوارمِ (١)
ولدنا نبى الخير من آل هاشم (٢)
يعود وبالأ عند ذكركم المكارم (٣)
لنا حول ما بين ظئري وخادمٍ ؟ (٤)
وأموالكم أن تقسموا فى المقاسمِ
ولا تلبسوا زياً كزى الأعاجم (٥)

لقد كانت معركة بلاغية حامية بين الزبرقان شاعر بنى تميم الذين وفدوا على رسول الله وفيهم صلف وخشونة ، وبين حسان شاعر رسول الله ، المسلح بعقيدة السماء ، المعان بتشجيع سيد الأنبياء ، فكانت نتيجة هذا الحوار الشعرى الساخن ، ذلك الحكم الذى أصدره أحد رؤوس تميم وهو الأقرع بن حابس فى قوله :

(١) المرهفات الصوارم : السيوف القاطعة .

(٢) يشير بهذا البيت إلى أن أم عبد المطلب جد النبى ﷺ كانت جارية من الأنصار .

(٣) الويال : الثقل .

(٤) هبلتم : فقدتم وتكلمتم . والظئر : التى ترضع ولد غيرها ، وقد تأخذ على ذلك اجرا ؛ وأصله الناقة تعطف على ولد غيرها .

(٥) الند : المثل والشبه .

« وأبى إن هذا الرجل - يعنى رسول الله - لمؤتى له ، كحطيطه أخطب من خطبينا ،
 ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى - وفي رواية : أحلى - من أصواتنا » .
 وانتهى هذا اللقاء وأسفر عن نتيجتين عظيمتين ، الأولى : أن فى بنى تميم نزل من
 القرآن الكريم قوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وراءِ الْحُجُرَاتِ
 أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ تقرّياً لهم على خشونة سلوكهم وعدم تأدبهم مع
 رسول الله ﷺ وحسن توجيه لهم ولعامّة المسلمين . والثانية أنهم أسلموا جميعاً ، وأحسن
 رسول الله ﷺ جوائزهم .

وفود الجارود بن المعلّى وسلمة بن عياض :

هذان الوافدان يمثلان أنموذجاً لوفود من جاءوا منفردين للقاء رسول الله ﷺ وفيهم
 فصاحة القول وامتلاك ناصية الشعر ، ووجه الغرابة فى هذين الوافدين أنها حين اعتزما
 الوفود على رسول لم يكونا مسلمين ، فأولهما وهو الجارود كان نصرانياً (١) ، وثانيهما وهو
 سلمة كان وثنياً (٢) ولكنها كانا حليفين ، فقررا - على قدر ما صور لها خيالهما - أن
 يعقدا ما يتصورانه اختباراً لصدق محمد ﷺ فى نبوته .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى (٣) : قدم الجارود العبدى على رسول الله ﷺ ومعه
 سلمة بن عياض الأسدى ، وكان حليفاً له فى الجاهلية ، وذلك أن الجارود قال لسلمة
 ابن عياض الأسدى : إن خارجاً خرج بهتامة يزعم أنه نبي ، فهل لك أن نخرج إليه ؟
 فإن رأينا خيراً دخلنا فيه ، فإنه إن كان نبياً فللسابق إليه فضيلة ، وأنا أرجو أن يكون
 النبي الذى بشر به عيسى بن مريم . وكان الجارود نصرانياً قد قرأ الكتب .

ثم قال لسلمة : « ليضمّر كل واحد منا ثلاث مسائل يسأله عنها ، لا يُخبر بها
 صاحبه ، فلعمري لئن أُخبر بها إنه لنبى يُوحى إليه » . ففعلا . فلما قدما على رسول

(١) له ترجمة فى الإصابة برقم ١٠٤٢ بالمجلد الأول .

(٢) له ترجمة فى الإصابة برقم ٣٣٩١ بالمجلد الثانى .

(٣) كان أبو عبيدة من أعلام الأدب واللغة والنحو والتاريخ والرواية وأخبار العرب وأيامهم وقد عرف بالعبصية ضد
 العرب ، وله تصانيف يناهز عددها مائتين ، وعمره طويلاً ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ .

الله ﷺ قال له الجارود : بِمَ بَعَثَكَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّد ؟ قال : « بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبدُ الله ورسوله ، والبراءة من كل نِدِّ أو وَثْنٍ يُعْبَد من دون الله تعالى ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة بحقها ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت ﴿ مِّنْ عَمَلٍ

صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمِنَ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (١) .

قال الجارود : إن كنت يا محمد نبياً فأخبرنا عما أضمرنا عليه . فخفق (٢) رسول الله ﷺ كأنها سنة ثم رفع رأسه وتحدَّر العرق عنه فقال : « أما أنت يا جارود فإنك أضمرت على أن تسألني عن دماء الجاهلية ، وعن حلف الجاهلية ، وعن المنيحة (٣) ، ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مشدود . ولم يزلها الإسلام إلا شدة ، ولا حلف في الإسلام ، ألا وإن الفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة ، فإنها تغدو برفد ، وتروح بمثله .

وأما أنت يا سلمة فإنك أضمرت علي أن تسألني عن عبادة الأصنام . وعن يوم السَّبَّاسِبِ (٤) وعن عَقْلِ الهَجِينِ (٥) ، فأما عبادة الأصنام فإن الله تعالى يقول :

﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا

وَرُدُونَ ﴾ (٦) و أما يوم السباسب فقد أعقب الله تعالى منه ليلة خيراً من ألف شهر ، فاطلبوها في العشر الأواخر من شهر رمضان ، فإنها ليلة بُلُجَّةٌ سَمْحَةٌ لا رِيحَ فيها ، تَطْلُعُ الشمسُ في صبيحتها لأشعاع لها ، وأما عَقْلُ الهَجِينِ فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دماؤهم يُجِيرُ أقصاهم على أدناهم ، أكرمهم عند الله أتقاهم .

فقال : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله .

(١) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٢) خفق : أى نعى .

(٣) المنيحة : هى المنحة . وقد تقع المنحة على الهبة مطلقاً .

(٤) يوم السباسب : عيد للضارى ، ويسمونه الشعائين .

(٥) تسمى الدية عقلاً .

(٦) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .

وعند ابن إسحاق (١) عَمَّنْ لَا يَتَّبِعُهُمْ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ الْجَارُودَ لَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَلَّمَهُ فَعَرَّضَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِسْلَامَ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ ، وَرَعَّبَهُ فِيهِ . فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي كُنْتُ عَلَى دِينٍ ، وَإِنِّي تَارِكُ دِينِي لِدِينِكَ ، أَفَتَضْمَنُ لِي دِينِي ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ أَنَا ضَامِنٌ أَنْ قَدْ هَدَاكَ اللَّهُ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ » . فَأَسْلَمَ وَأَسْلَمَ أَصْحَابُهُ . ثُمَّ سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحُمْلَانَ فَقَالَ : « وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بِلَادِنَا ضَوَالٌّ (٢) مِنْ ضَوَالِّ النَّاسِ أَفَنَتَبَلَّغُ عَلَيْهَا إِلَى بِلَادِنَا ؟ قَالَ : « لَا ، إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا فَإِنَّمَا تِلْكَ حَرَقُ النَّارِ » (٣) .

فَقَالَ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ اذْعُ لَنَا أَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ قَوْمَنَا » . فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اجْمَعْ لَهُمُ الْفَقَّةَ قَوْمَهُمْ وَبَارِكْ لَهُمْ فِي بَرِّهِمْ وَبَحْرِهِمْ » . فَقَالَ الْجَارُودُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَى الْمَالِ أَخْجِذُ بِبِلَادِي ؟ قَالَ : « وَمَا بِلَادُكَ ؟ » قَالَ : مَاوَاهَا وَعَاءٌ وَنَبْتُهَا شِفَاءٌ ، وَرِيحُهَا صَبَا ، وَنَخْلُهَا عَوَادٍ . قَالَ : عَلَيْكَ بِالْإِبِلِ إِنَّمَا حَمُولَةٌ ، وَالْحَمْلُ يَكُونُ عَدْدًا . وَالنَّاقَةُ ذَوْدًا .

وقال الجارود :

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ حَقٌّ وَسَاحَتْ
بَنَاتُ فُؤَادِي بِالشَّهَادَةِ وَالنَّهْضِ
فَأَبْلَغُ رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي رِسَالَةً
بِأَنِّي حَنِيفٌ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْأَرْضِ
وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي كُلِّ خَلْقِهِ
عَلَى الْوَحْيِ مِنْ بَيْنِ الْقَضِيضَةِ وَالْقَضِ
فَإِنِّي لَكُمْ عِنْدَ الْإِقَامَةِ وَالْحَفْضِ
أَصَالِحٌ مَنْ صَالَحْتَ مِنْ ذِي عِدَاوَةٍ
وَأُبْغَضُ مَنْ أُمْسَى عَلَى بُغْضِكُمْ بُغْضِي

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٥٧٥ .

(٢) ضَوَالٌّ - بفتح الضاد المعجمة وتخفيف الواو وتشديد اللام - : جمع ضَالَّةٌ ، وهى الضائعة من كل ما يُفْتَنَى مِنَ الْحَيَوَانَ وَغَيْرِهِ ، يُقَالُ : ضَلَّ الشَّيْءُ : إِذَا ضَاعَ ، وَضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ : إِذَا حَارَ ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ فَاعِلَةٌ ، ثُمَّ أُسْعِيَ فِيهَا فَصَارَتْ مِنَ الصِّفَاتِ الْفَاعِلَةِ . وَيُقَالُ عَلَى الذِّكْرِ وَالْأُنثَى ، وَالْإِنْتِنِ ، وَالْجَمْعُ ، وَالْمُرَادُ بِهَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ الضَّالَّةُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ بِمَا يَحْمِي نَفْسَهُنَّ مِنَ الْإِعْبَادِ فِي طَلَبِ الْمَرْعَى وَالْمَاءِ بِخِلَافِ الْقَتْمِ .

(٣) حَرَقُ النَّارِ - بفتح الحاء - بفتح الجاء - وباللقاف - : هُبُّهَا ، وَقَدْ يُسَكَّنُ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ ضَالَّةَ الْمُؤْمِنِ إِذَا أَخَذَهَا إِنْسَانٌ لِيَتَمَلَّكَهَا أَدَّتْهُ إِلَى النَّارِ .

وَأَدْنَىٰ أَلْدَىٰ وَالْيَنَىٰ وَأَجْبُهُ وَإِنْ كَانَ فِي فِيهِ الْعَلَاقِمُ مِنْ بُغْضِ
 أَذْبُتْ بِسِنْفِي عَنكُمْ وَأَجْبُكُمْ إِذَا مَا عَدُوَّكُمْ فِي الرَّفَاقِ وَفِي النَّقْضِ
 وَأَجْعَلْ نَفْسِي دُونَ كُلِّ مُلَمَّةٍ لَكُمْ جُنَّةً مِنْ دُونِ عِرْضِكُمْ عِرْضِي

وقال سلمة بن عياض الأسدي رضى الله عنه :

رَأَيْتَكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا نَشَرْتَ كِتَابًا جَاءَ بِالْحَقِّ مُعَلِّمًا
 شَرَعْتَ لَنَا فِيهِ الْهُدَىٰ بَعْدَ جُورِنَا عَنِ الْحَقِّ لَمَّا أَصْبَحَ الْأَمْرُ مُظْلِمًا
 فَتَوَزَّتَ بِالْقُرَّانِ ظُلَمَاتِ جِنْدِسٍ وَأَطْفَأْتَ نَارَ الْكُفْرِ لَمَّا تَضَرَّمَا
 تَعَالَىٰ عُلُوُّ اللَّهِ فَوْقَ سَمَائِهِ وَكَانَ مَكَانُ اللَّهِ أَعْلَىٰ وَأَكْرَمَا

ولما عاد الجارود إلى قومه دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا لدعوته ، ثم إنه بعد ذلك
 صحب أعيان قومه ووفدوا على رسول الله ﷺ وأنشد بين يديه متاعب الرحلة إليه قاطعين
 الصحارى مجتازين الفدافد بإبلهم القوية وجيادهم الأصيلة ابتغاء الثواب والفوز يوم
 الحساب :

يَا نَبِيَّ الْهُدَىٰ أَتَتْكَ رِجَالٌ قَطَعَتْ فَذَفِدَاً (١) وَالْأَقَالَا (٢)
 وَطَوَّرَتْ نَحْوَكَ الصَّحَاصِحَّ (٣) طُرًّا لَا تَخَالُ الْكَلَالَ فِيهِ كَلَالَا
 كُلُّ دَهْنَاءَ (٤) يَقْضِرُ الطَّرْفُ عَنْهَا أَرْقَلَتْهَا فَلَا صُنَا (٥) إِرْقَالَا (٦)

(١) الْفَذْفَدُ - بقاء بين مفتوحتين بعد كل فاء دال مهملة الأولى ساكنة - : وهى الفلاة لا شىء فيها ، وقيل : هى الأرض
 الغليظة ذات الحصى ، وقيل : المكان المرتفع ، وقيل الفدغد : الأرض المستوية .
 (٢) الْأَلُ : السراب ، وقال فى الصحاح : والأل الشخص ، والأل الذى تراه فى أول النهار وآخره كأنه يرفع الشخص ،
 وليس هو السراب .

(٣) الصَّحَاصِحُّ ، والصَّحَاصِحُّ ، والصَّحَاصِحُّ : ما استوى من الأرض .

(٤) الدهناء : موضع ببلاذ بنى تميم .

(٥) القلاص : الفتى من الإبل .

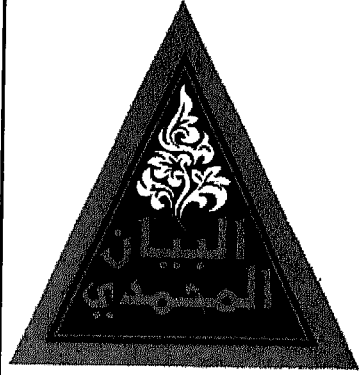
(٦) الإرقال : ضرب من العَدُوِّ فوق الخبب ، وأرقل المفازة : يعنى قطعها .

وَطَوَّنَهَا الْحِيَادُ تَجْمَعُ (١) فِيهَا بِكُمَاةٍ كَأَنْبُجٍ مِ تَتَلَا
تَبْتَغِي دَفْعَ بُوسٍ يَوْمِ عُبُوسٍ أَوْجَلِ الْقَلْبَ ذِكْرُهُ ثُمَّ هَالَا (٢)

وجملة القول أن شعر الوفود وفير في كتب السيرة ، وقد قدمنا في صدر هذا الفصل عددا كبيرا من أسماء الوفود الجماعية والمفردة التي سعت إلى ساحة الحضرة المحمدية ، يشدو شعراؤها بقصائد الإيثار ، ويباعون الرسول ﷺ على الإسلام والفداء ، في غلالات شفاقة من عذب القول وعميق الحب وحلاوة الإنشاد .

(١) تجمع : أى تسرع .

(٢) الهول : الخوف والأمر الشديد . وهاله : أفرعه .



الفصل الثامن

شعر الغزوات والسرايا

شعر الغزوات والسريا

إن غزوات الرسول ﷺ وسراياه من الكثرة بمكان ، وكان شعراء الرسول ينشدون نفيس الشعر وجيد القصيد مع الغزوات وبعدها ، حتى إن الشعر الذى قيل فى هذه المعارك يشكل ثروة أدبية إسلامية تحتاج إلى دراسة وتمثل وتمحيص ، وتمنح شباب أدباء المسلمين فيضا من التجارب وينبوعا من الحكم وزادًا من التراث .

ومن أهم غزوات الرسول التى رافقها الشعر واحتفل بها الشعراء : بدر ، وأحد ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير ، وغزوة الرجيع ، وغزوة الخندق ، والمريسيح أو بنى المصطلق ، وخيبر ، وذات الرقاع ، ومؤتة ، وفتح مكة ، والطائف ، وتبوك .

وأما السرايا فهى من الكثرة بحيث لا يتيسر حصرها فى هذا المجال الضيق ، وكل الذين قادوا الغزوات والسرايا إذا لم يكن الرسول ﷺ مشاركا ، هم من أبطال الصحابة وفرسان المؤمنين ، وإن عددا كبيرا منهم من أصحاب المواهب فى فن القول شعرا كان أو خطابة .

الشعر فى غزوة بدر :

غزوة بدر هى واحدة من أهم غزوات رسول الله ﷺ بل هى أهمها جميعا ؛ لأنها تمثل أول انتصار للمسلمين على المشركين ، ومن هنا كان احتفال الشعر به كبيرا ، وكان حصاده فيها وفيرا ، وكانت المعانى الإسلامية والقيم الأخلاقية والمواقف الإيانية متعددة الأشكال مختلفة الأساليب متباينة المناهج ، وهى فى مجملها وتفصيلاتها طرز جديدة من فن الشعر ، وقيم مستحدثة فى مسيرة فن القريض .

كان الانتصار فى غزوة بدر كاسحا وعظيما ، كان انتصار القلة المؤمنة على الكثرة

المشركة فقد كان عدد المشركين أضعاف عدد المؤمنين ، وإن جيش المشركين ضم أساطين الكفر وفرسان الظلام ، ولذلك فإن لغة الشعر وبنيته كانتا منسجمتين مع جلال الموقف وضخامة الانتصار .

كان حسان بن ثابت فارس الحلبة بين شعراء بدر بغير منازع ، ومن ثم فقد كان شعره يكتسى زهواً وينضح فخاراً ، وهو يتشفي في هزيمة قريش قائلاً (١):

| | |
|----------------------------|--------------------------------|
| لقد علمت قريش يوم بدر | غداة الأسر والقتل الشديد |
| بأننا حين تشتجر العوالي | حماة الحرب يوم أبى الوليد (٢) |
| قتلنا ابنى ربيعة يوم سارنا | إلينا في مضاعفة الحديد (٣) |
| وفرر بها حكيم يوم جالت | بنو النجار تخطر كالأسود (٤) |
| وولت عند ذلك جموع فهر | وأسلمها الحويرث من بعيد |
| لقد لاقيتم دلاً وقتلاً | جهيزاً نافذا تحت الوريد (٥) |
| وكل القوم قد ولوا جميعاً | ولم يلووا على الحسب التليد (٦) |

وكما سبق أن ذكرنا كان حسان وافر العطاء كثير الإنشاد في غزوة بدر وعنهما ، وكانت قريحته فياضة معطاءة ، وكانت معانيه متأبئة رقيقة ، ونفحات الإيمان كانت توشى أبياته من أولها إلى آخرها ممزوجة بمشاعر العزة وأحاسيس الفخار .

ولعل هذه المقطوعة من شعر النصر والإيمان تعدّ مثلاً لهذا النسق من القول الذى

(١) ابن هشام ١٩/٢ .

(٢) تشتجر : تختلط وتشتبك . والعوالى : أعلى الرماح .

(٣) يريد « بمضاعفة الحديد » : الدرود التى ضوعف نسجها .

(٤) فر ، قال أبو ذر : من رواه بالقاف ، فهو من باب التقريب ، وهو فوق المشى ، ودون الجرى . ومن رواه بالفاء ، فهو من الفرار ، وهو معلوم . وتخطر : تهتز وتتجرد فى المشى إلى لقاء أعدائها .

(٥) جهيزاً : سريعاً ، يقال : أجهز على الجريح ، وذلك إذا أسرع قتله . والوريد : عرق فى صفحة العنق .

(٦) التليد : القديم .

التزم به حسان في شعر الغزوات . يقول شاعر الرسول الأول في هذا اللون (١):

فما نخشى بحول الله قوما وإن كثروا وأجمعت الزحوف
إذا ما ألبوا جَمْعاً عَلَيْنَا كفانا حَكَّهُم رَبُّ رَعُوفٍ (٢)
سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالْعَوَالِي سراعاً ما تُضَعِّضُنَا الحِتُوفِ (٣)
فَلَمْ تَرِ عَصْبَةً فِي النَّاسِ أَنْكَى لمن عَادُوا إِذَا لَقِحت كَشُوفِ (٤)
ولكنَّا توكَّلْنَا وقلْنَا مآثرنا وَمَعْلِنَا السُّيُوفِ (٥)
لَقِينَاهُمْ بِهَالِمًا سَمَوْنَا ونحنُ عِصَابَةٌ وَهُمْ أُلُوفِ

ويعمد حسان إلى الإغراب في المعاني والتنويع في قوافيه في خضم قصائد النصر ، وكأنه طائر محلق في سماء البيان ، أو كأنه ربان ماهر متمكن ينشر أشرعته على صفحات أمواج محيط هادر فينشر هذه الأبيات (٦).

دَعُوا فَلَجَاتِ السَّامِ قَدْ حَالَ دُونَهَا جِلَادٌ كَأَفْوَاهِ المَخَاضِ الأَوَارِكِ (٧)
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
إذا سلكت للغور من بطن عالج فقولاً لها ليس الطريق هنالك (٨)

(١) السيرة ٢/ ٢٣ .

(٢) ألبوا : جمعوا .

(٣) ما تضعضنا ، أي ما تذلنا ولا تنقص من شجاعتنا . والحتراف : جمع حترف ، وهو الموت .

(٤) لقيحت : حملت . والكشوف (بفتح الكاف) : الناقة التي يضرها الفحل في الوقت الذي لا تنتهي فيه الضراب ، فاستعارها (هنا) للحرب . ولقيحت الحرب : إذا هاجت بعد سكون .

(٥) المآثر : جمع مأثرة ، وهي ما يتحدث به عن الإنسان من خير أو فعل حسن . والمعقل : الممتنع الذي يلجأ إليه .

(٦) السيرة ٢/ ٢١٣ .

(٧) الفلجات : جمع فلج ، وهو الماء الجاري ؛ سمي فلجاً لأنه فذخ في الأرض ، وقرق بين جانبيه . والمخاض : الحوامل من الإبل . وارك : التي ترعى الأراك ، وهو شجر .

(٨) الغور : المنخفض من الأرض . وعالج : مكان فيه رمل كثير .

أَقَمْنَا عَلَى الرَّسِّ النَّزُوعَ ثَمَانِيَا بِأُرْعَنَ جَرَّارٍ عَرِيضِ الْمَبَارِكِ (١)
بِكُلِّ كُمَيْتٍ جَوَّزُهُ نَصْفَ خَلْقِهِ وَقُبُّ طَوَالٍ مُشْرَفَاتِ الْحَوَارِكِ (٢)
تَرَى الْعَرَفَجَ الْعَامِيَّ تَذْرَى أَصُولَهُ مَنَاسِمُ أَخْفَافِ الْمَطَى الرَّوَاتِكِ (٣)
فَإِنْ نَلَقْنَا فِي تَطَوُّافِنَا وَالتَّمَاسِنَا فُرَاتَ بْنَ حَيَّانٍ يَكُنُّ رَهْمَنَ هَالِكِ
وَإِنْ نَلَقْنَا قَيْسَ بْنَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بَعْدَهُ يُرَدُّ فِي سَوَادِ لَوْنِهِ لَوْنُ حَالِكِ

ويسهم في توثيق المعركة شعرا وبيانا شاعر آخر من شعراء رسول الله ﷺ مركزا على أبي سفيان الذي كان ذا رأى في المعركة يتمثل في تلافي لقاء المسلمين بالفرار وبإثناء زعماء قريش عن خوضها ، ويشير الشاعر إلى مصرع زعماء قريش وبخاصة عتبة وابنه وأبي جهل .

إن الشاعر في هذه القصيدة وهو عبد الله بن رواحة - وقيل : بل هو كعب بن مالك - شديد التمسك بحبال رسول الله ﷺ فداء وولاء ، فيقول (٤) :

وَعَدْنَا أَبَا سُفْيَانَ بَدْرًا فَلَمْ نَجِدْ لِيَعَادِهِ صِدْقًا وَمَا كَانَ وَافِيَا
فَأَقْسَمَ لَوْ وَافَيْتَنَا فَلَقَيْتَنَا لِأُبَّتْ ذَمِيمًا وَافْتَقَدَتْ الْمَوَالِيَا
تَرَكْنَا بِهِ أَوْصَالَ عُتْبَةَ وَابْنِهِ وَعَمْرًا أَبَا جَهْلٍ تَرَكْنَاهُ ثَاوِيَا (٥)
عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ أَفَّ لَدِينِكُمْ وَأَمْرَكُمْ السَّيِّءَ الَّذِي كَانَ غَاوِيَا (٦)

(١) الرس : البئر . والنزوع : التي يخرج ماؤها بالأيدي . والأرعن : الجيش الكثير الذي له أتباع وفضول .
(٢) الكميت : الفرس . وجوزه : وسطه ، ويريد بطنه . وقب : جمع أقب ، وهو الضامر . والحوارك : جمع حارك ، وهو أعلى الكتفين من الفرس .
(٣) العرفج : نبات . والعامي : الذي أتى عليه العام . وتذرى أصوله : تعقلها . تطرحها . ومناسم : جمع منسم ، وهو طرف خف البعير . والرواتك : المسرعة .

(٤) السيرة ٢/٢١٠ ، ٢١١ .

(٥) ثاويا : يعنى مقيما .

(٦) السيء (بالتخفيف) : هو السيء (بالتشديد) .

فإني وإن عنفتموني لقائلٌ فدَى لرسولِ الله أهلى وماليا (١)
 أطعناه لم نعدلهُ فبنا بغيره شهابا لنا فى ظلّمة الليل هاديا (٢)

ويحتشد الصحابي كعب بن مالك أحد شعراء رسول الله المبرزين لوصف المعركة بتفصيلاتها ، وهو النهج الذى سار عليه المتنبي بعد ذلك بأربعة قرون ، ويحرص كعب على أن يوشى قصيدته بأبيات يعطرها بذكر رسول الله ﷺ ومن حوله الأنصار يحيطون به ويفتدونه ، والكل شاكى السلاح ، تتحرك جموعهم تحت لوائه على نحو بديع ، ويضمّن كعب قصيدته قدرا من الفخر ببعض بنى قومه الأوس وجمع من بنى النجار - وهم أحوال رسول الله - ومجسما هزيمة قريش ومصارع أعيانها الكبار من أمثال عتبة بن ربيعة وأخيه شيبه وأبى جهل وغيرهم من رءوس المشركين ، فكانت القصيدة مزاجا من الوصف والتسجيل والفخر بالنصر وتأصيل للقيم الإسلامية وترسيخ للمعاني الإيمانية :

يقول كعب بن مالك : (٣)

عجبتُ لأمر الله والله قادرٌ على ما أرادَ ، ليس لله قاهرٌ
 قَصَى يومَ بدرٍ أن نلاقى معشرًا بَعَوًا ، وسبيلَ البغي بالناسِ جائرٌ
 وقد حَشَدُوا واستنَفَرُوا من يَليهمُ من الناسِ حتى جمعهم متكائرٌ
 وسارتُ إلينا لا تُحاولُ غيَرنا بأجمعها كعبٌ جميعًا وعامرٌ
 وفينا رسولُ الله والأوس حَوْلَهُ لهُ معقلٌ منهم عزيزٌ وناصرٌ
 وجمعُ بنى النّجار تحت لوائِهِ يُمكِّشونَ فى الماذى والسَّنَعِ نائرٌ
 فلما لقيناهم وكلُّ مجاهدٌ لأصحابه مُستَبسِلُ النفسِ صابرٌ

(١) عنفتموني : يعنى لمتموني .

(٢) لم نعدله : يعنى لم نر معه غيره .

(٣) السيرة ٢/ ١٤ ، ١٥ .

شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرٌ (*)
ويستطرد كعب فيصف التحام الجيشين ومصارع صناديد قريش وفرسانها قائلاً :
وَقَدْ عُرِّيَتْ بِيضٌ جِفافٌ كأنها مَقَابِسُ يُزْهِبُهَا لِعَيْنَيْكَ شَاهِرٌ
بِهِنَّ أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ فَنَبَدُوا وَكَانَ يُلاقِي الْحَيْنَ مَنْ هُوَ فَاجِرٌ
فَكَبَّ أَبُو جَهْلٍ صَرِيحًا لَوَجْهِهِ وَعُتْبَةُ قَدْ غَادَرَتْهُ وَهُوَ عَائِرٌ
وَشَيْبَةُ وَالتَّمِيمِيُّ غَادَرْنَ فِي الْوَعْيِ وَمَا مِنْهُنَّ إِلَّا بَدَى الْعَرِشِ كَافِرٌ
فَأَمْسَوْا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا وَكُلُّ كُفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرٌ (*)

على أن أكثر الشعراء قولاً في قتلى قريش هو حسان بن ثابت ، صحيح أن قصائده في هذا السبيل لم تخل من إظهار الشماتة بهم والتشنيع عليهم والنيل منهم ، ولكنها كانت في جوهرها تأديبا لهم وثأرا منهم وقصا صا مما أوقعوا برسول الله من أذى وهو بين ظهرانيهم ، وما نهبوه من أموال المسلمين ، واستيلاء على ممتلكاتهم وديارهم ، وكان قتلى المشركين في بدر هم صفوة رجال قريش وحكماؤها وزهرة شبابها ، فمنهم على سبيل المثال : عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، وأخوه شيبه ، وهم الذين ثارت لهم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان باكتراء العبد الأسود « وحشى عبد بنى نوفل » ليقتل أسد الحرب حمزة بن عبد المطلب ، ومنهم حنظلة بن أبي سفيان بن حرب ، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، وأميه بن خلف ، ومنهم النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، وغيرهم .

لقد كانت هزيمة قريش ثقيلة ، وكان قتلاهم من ذوى القدر والمكانة عندهم ، فكان أمرا طبيعيا أن يكثر الشعراء المسلمون القول في خسائر قريش في بدر ، فيقول حسان (١) :

(*) المعانى : الماذى : الدرور البيض اللينة . التقع : الغبار . يزهبها : يعنى يستخفها ويحركها . أبدا : من الفعل أباد ، أى : أهلك ، العائر : الساقط .
(١) ابن هشام ٢/ ٢١ .

ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة
 قتلنا سراة القوم عند مجالنا
 قتلنا أبا جهلٍ وعُتْبَةَ قبله
 قتلنا سُوَيْدًا ثم عُتْبَةَ بعده
 فكم قد قتلنا من كريم مُرْزِئٍ
 تركناهم للعاويات ينُبِّههم
 إبارتنا الكُفَّار في ساعة العُسْرِ (١)
 فلم يَرْجعوا إلا بقاصمة الظَّهْر (٢)
 وشَيْبَةَ يَكْبُو لِلْيَدِينِ وللنَّحْرِ (٣)
 وطُعْمَةَ أيضًا عند نائرة القَتْرِ (٤)
 له حَسَبٌ في قَوْمِهِ نابِه الدَّكْر
 وَيَصْلُونَ نَارًا بعدُ حامية القَعْرِ (٥)

وفي مقطوعة أخرى يذكر حسان واقعة بدر وما جرى فيها من قتلى في بطون قريش ، ويخص هنا بنى أسد التي رزئت بمقتل غير قليل من رجالها وصناديدها ، وهم : زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد ، وابنه الحارث بن زمعة ، وأبو البختری واسمه العاصي ابن هشام بن الحارث بن أسد ، ونوفل بن خويلد بن أسد ، وهو الذي قرن أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله في حبل حين أسلما .

هؤلاء الجبابرة من بنى أسد قد خصهم حسان بأن أفرد لهم مكانا خاصا في شعره عن بدر ، حيث يقول :

خابت (٦) بنو أسد وأب غزيتهم
 يوم القليب بسوءة وفُضُوح (٧)

(١) إبارتنا ، أى إهلاكنا ؛ تقول : أبرنا القوم : أى أهلكنا هم .
 (٢) سراة القوم : سادتهم وخيارهم . ويريد « بقاصمة الظهر » : الداهية التي تقصم الظهر ، أى : تكسرهما فتبينها . يقال : قصم الشيء : إذا كسره فأبانته ، فإذا لم يبينه قيل : قصمه (بالفاء) .
 (٣) يكبو : يسقط .
 (٤) يريد « بنائرة القتر » : ما ثار من الغبار وارتفع . والقتر : الغبار .
 (٥) العاويات : الذئب والسباع . وبينهم ، أى : يأتونهم مرة بعد مرة . ويروى : يَنْشَنُهُمْ ، أى : يتناولهم .
 (٦) « خابت » ، من رواه بالخاء المعجمة ، فهو من الخيبة ، ومن رواه (حانت) بالخاء المهملة ، فهو من الحين ، وهو الهلاك .
 (٧) الغزى : جماعة القوم الذين يغزون .

- منهم أبو العاصي تجددل مُقَعَصَا
 حيناً له من مانع بسلاحه
 والمرءُ زَمْعَةٌ قد تَرَكْنَ وَنَحْرُهُ
 مُتَوَسِّدًا حُرَّ الجبين مُعَفَّرًا
 ونَجَا ابنُ قَيْسٍ في بَقِيَّةِ رَهْطِهِ
 عن ظَهْرِ صادقةِ النَّجَاءِ سَبُوحِ (١)
 لَمَّا تَوَى بمقامه المَذْبُوحِ
 يَدْمَى بعاند مُعْبَطِ مَسْفُوحِ (٢)
 قد عُرَّ مارِنِ أنْفِهِ بِقُبُوحِ (٣)
 بِشَفَا الرَّمَاقِ مُولِيا بِجُرُوحِ (٤)

وفي الذروة من شعر حسان بن ثابت في انتصار المسلمين في بدر ومصارع أعلام المشركين فيها قصيدته البائية ، مفصلاً كرات الأوس وبنى النجار على المشركين ، وكأنهم أسد غاب يكتسحون ضحاياهم ، ذاكرا مخاطبة رسول الله لهم وقد جندلت جثثهم في القليب وهو يقول : يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبي كنتم لنيكم ، كذبتُمونى وصدقتى الناس ، وأخرجتمونى وأوانى الناس ، وقالتُمونى ونصرنى الناس ، ثم قال : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟

يقول حسان مترجماً عن هذا الموقف في رائعته البائية :

- عرفت ديار زينب بالكئيب
 كخط الوحى في الورق القشيب
 تَدَاوَمَ الرِّياحُ وكل جَوْنُ
 من الوسمى مُنْهَمِرٍ سَكُوبِ (٥)
 فأمسى رشمها خلَقًا وأمَسَّتْ
 يبابا بعد ساكنها الحَبِيبِ (٦)
 فَدَعَّ عَنْكَ التَّدَكُّرُ كلَّ يَوْمٍ
 ورُدَّ حرارة الصَّدْرِ الكَئِيبِ

(١) تجددل : صرع على الأرض . واسم الأرض : الجدالة . ومقصدا : أى مقتولا قتلا سريعا . ويريد « بصادقة النجاء »
 فرسا سريعة . والنجاء : السرعة . والسبوح : التى تسبح فى جريها كأنها تعوم .
 (٢) العاند : الذى يجرى ولا ينقطع ، والمعبط : الدم الطرى . والمسفوح : السائل المنصب .
 (٣) معفرا ، أى : لاصقا بالعفر ، وهو التراب . وعر : لطنخ . ومارن الأنف : مالان منه .
 (٤) شفا كل شىء : حده وطرفه . والرماق : بقية الحياة .
 (٥) الوسمى : مطر الخريف .
 (٦) يبابا : قفرا .

وخبر بالذى لا عيب فيه
 بما صنع المليك غداة بدر
 غداة كأن جمعهم حراء
 فلا قيناهم منّا بجمع
 أمام محمد قد وأزره
 بأيديهم صوارم مرفقات
 بنو الأوس الغطارف وأزرتها
 فغادرنا أبا جهل صريعا
 وشيبة قد تركنا في رجال
 يناديهم رسول الله لمّا
 ألم تجذوا كلامى كان حقا
 فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا :
 بصدق غير إخبار الكذوب
 لنا في المشركين من النصيب
 بدت أركانه جئح الغروب (١)
 كأسد الغاب مژدان وشيب
 على الأعداء في لفح الحروب (٢)
 وكل مجرب خاطي الكعوب (٣)
 بنو النجار في الدين الصليب (٤)
 وعيبة قد تركنا بالجبوب (٥)
 ذوى حسب إذا نسبوا حسيب
 قدفناهم كباكب في القليب (٦)
 وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟
 صدقت وكنت ذا رأى مصيب !

في هذا الموقف الرهيب الذى صرع فيه أعداء الله وخصوم وحدانيته ، يشفق رسول الله على واحد من صحابته قد لقي أبوه المشرك مصرعه أمامه ، فقد كان في جيش المشركين بعض أبناء عمومة الرسول ، وكان منهم عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكان منهم عتبة بن ربيعة وولده ، بينما كان ولده أبو حذيفة في جيش رسول الله .

(١) حراء بمكة . وجئح الغروب : حين تميل الشمس للغروب .

(٢) وأزره : أعانوه . ولفح الحروب : ناراها وحرها . ويروى : « لفتح » ومعناه التزيد والنمو ، يقال : لفتح الحرب ، إذا تزيدت .

(٣) الصوارم المرهفات : السيوف القاطعة . والخاطي : المكتنز . والكعوب : عقد القناة .

(٤) الغطارف : السادة ، واحدهم : غطريف : وحذفت الياء من الغطاريف لإقامة وزن الشعر . والصليب : الشديد .

(٥) الجبوب : وجه الأرض . وقيل : هو المدر ؛ الواحدة : جبوية .

(٦) كباكب : جماعات .

قال ابن إسحاق : ولما أمر رسول الله ﷺ أن يُلقوا في القليب ، أخذ عتبة بن ربيعة ، فسحب إلى القليب ، فنظر رسول الله ﷺ - فيما بلغني - في وجه أبي حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كئيبٌ قد تغير لونه ، فقال : يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ أو كما قال ﷺ فقال : لا ، والله يا رسول الله ، ما شككتُ في أبي ولا في مضره ، ولكنني كنتُ أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيتُ ما أصابه ، وذكرْتُ ما مات عليه من الكفر ، بعد الذي كنتُ أرجو له ، أحزنتني ذلك ، فدعاه رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيرا (١).

الشعر في غزوة الخندق :

سميت غزوة الخندق لأن المسلمين تحت قيادة رسول الله ﷺ قد حفروا خندقا يحول عمقه واتساعه دون تقدم المشركين من قبائل العرب ومن ألّبهم على الحرب من يهود ، وسميت كذلك بغزوة الأحزاب لأن بنى النضير بعد خيانتهم وإجلائهم إلى خيبر أرادوا أن يكيّدوا لرسول الله ﷺ فألبوا قريشا على قتاله ، وعاهدوهم على ذلك ، فخرجت قريش وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة ، فكانت هذه الحملة المتعددة القبائل بالإضافة إلى يهود تشكل جيشا ينوف عدده على عشرة آلاف بَعْدِهِمْ وَعَدَدِهِمْ ، وكان عدد المقاتلين المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف ، يندس من حولهم المنافقون ، ويكيّد لهم من ورائهم اليهود .

كان زمان الغزوة شهر ذى القعدة سنة خمس طبقا لرواية الواقدي (٢) ، وشهر شوال طبقا لرواية ابن إسحاق (٣) .

ومن المفارقات التي تدعو إلى التأمل في هذه الغزوة ذلك التحالف الغريب بين عبدة الأصنام والأوثان من قريش وحلفائها وبين اليهود الذين هم أهل كتاب ، حتى إن

(١) السيرة ١/ ٦٤١ .

(٢) المغازي ٢/ ٤٤٠ .

(٣) قسم المغازي من تاريخ الإسلام للذهبي ، ص : ٢٣٣ .

قريشا نفسها لم تسلم بصدق هذا الحلف حين قال زعمائها : يا معشر يهود ، إنكم أهل كتاب وعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فكانت إجابة يهود : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق ، وهو قول كان موضع شك المشركين ، وقد نزل فيهم قول الله - عز وجل - مثبتا هذا الموقف : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ (١)

وفي هذه الغزوة بذل المؤمنون جهدا كبيرا في حفر الخندق ، ولما رأى رسول الله ﷺ ما بهم من الجوع والنصب دعا لهم الدعاء المشهور الذى ظن بعض الباحثين أنه شعر ، وما هو بشعر ، وذلك فى قوله الشريف :

« اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة » وفيها تمثل الرسول بأبيات عبد الله بن رواحة - وفى رواية أنها لعامر بن الأكوع :-

| | |
|------------------------|----------------------------|
| ولا تصدقنا ولا صلينا | واللهم لولا أنت ما اهتدينا |
| وثبت الأقدام إن لاقينا | فأنزلن سكينه علينا |
| وإن أرادوا فتنة أبينا | إن الألى قد بغوا علينا |

إن هذه الأبيات مع كونها نموذجا للإيمان والاستبسال فهى أيضا دعاء وابتهاال مما يصور ضراوة المعركة وخرج موقف جيش المسلمين أمام كثافة جيش الأحزاب واستفزاز فرسانهم للمجاهدين المؤمنين ، ومحاوله اجتياز الخندق فى أحد أطرافه الضعيفة ، وهو ما صوره القرآن الكريم أصدق تصوير ووصفه أدق وصف فى قوله - عز وجل - :

﴿ إِذْ جَاءَكُمْ وَمِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

(١) النساء ، الآية : ٥١ .

الْقُلُوبِ الْحَاكِرِ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١﴾.

على أن التحاما قتاليا بين الجيشين لم يكتب له أن يتم ، وكان أبرز قتال هو ذلك
النزال الذى دعا إليه عمرو بن ودّ من صناديد فرسان قريش ، وكان عمرو بن ودّ فيما
تروى الأخبار قد قاتل يوم بدر حتى أثنخته الجراح فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم
الخنديق خرج مُعَلِّمًا لِيَرَى مكانه ، واتجه نحو فرسان المسلمين وقال : من يبارزنى ؟
فبرز له على - رضى الله عنه - وقال له : يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك
رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل ، فقال على : إني
أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لى بذلك ، قال على : فإنى
أدعوك إلى النزال ، قال : لم يا ابن أخى ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال على - رضى
الله عنه - : لكنى والله أحب أن أقتلك ، ثم كانت المبارزة المشهور خبرها ، فقتله على ،
وبدأت علامات الهزيمة تكسو وجوه فرسان قريش ، فألقى عكرمة يومئذ رمحه وتقهقر ،
فقال على فى ذلك مصورا نزاله مع عمرو بن ود :

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ

وَنَصَرْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ بِضْرَابٍ

نَازَلْتُهُ فَتَرَكْتُهُ مَتَّعًا جَدًّا

كالجدع بين دكادك وروابى (*)

لا تحسبنَّ الله خاذلٍ دينه

ونبيّه يا معشرَ الأحزابِ

(١) الأحزاب ، الآيات : ١٠ ، ١١ .

(*) الدكادك : جمع دكادك ، وهو ما تكبس واستوى من الرمل . الكراع والخلف : يعنى الخيل والإبل .

وقد أرسل الله الرياح العاصفة على مضارب الأحزاب وكانت العلاقة بينهم قد تفككت عراها ، وروح القتال خبت نارها ، وكان الصحابي نعيم بن مسعود قد قام بتوجيه من رسول الله ﷺ بنزع الثقة بين الأحزاب واليهود ، فقال أبو سفيان لقومه : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف . وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تظمنن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جملة وأطلق عقاله .

وإذا كانت معركة القتال لم تشتعل نارها ، فإن معركة الشعر قد اشتد أوارها ، خاصة وأن المسلمين لما انصرفوا من الخندق لم يعودوا إلى بيوتهم وإنما اتجهت جموعهم بأمر من رسول الله إلى بني قريظة ؛ لأنهم كانوا قد ظاهروا قريشا وأعانوهم على حرب رسول الله .

يقول عبد الله بن عمر : نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف من الأحزاب : «ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» ولبس رسول الله ﷺ لأمتة ، ففزع الناس للحرب ، وبعث عليا على المقدمة ودفع إليه اللواء ، وحاصروهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة فيما يذكر ابن إسحاق (١) وانتهى الأمر بقبولهم ما يحكم به سعد بن معاذ عليهم ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ يستدعيه فأتى به محمولا على حمار وهو مضنى من جرحه الذي أصيب به في الخندق ، فقال الرسول : أشر إلى في هؤلاء ، فقال : لو وليت أمرهم قتلت مقاتلتهم وسييت ذراريهم وقسمت أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسى بيده ، لقد أشرت فيهم بالذي أمرنى الله به» .

هكذا خرج المسلمون من الخندق سالمين بنصر الله ، ثم كانت خيانة بني قريظة سببا في إجلائهم والتخلص منهم ، ثم بدأت معركة الشعر التي كان طرفها من جانب كفار المشركين : ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري ، وعبد الله بن الزبيري ،

(١) مغازى الذهبى ، ص : ٢٥٧ .

ومسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة ، وهبيرة بن أبي وهب الذي كان أكثر شعره في رثاء عمرو بن عبد ودّ ، وكان طرفها من جانب المسلمين كعب بن مالك ، وحسان ابن ثابت ، وكان كعب هو فارس الحلبة في الخندق ، وحسان فارس الحلبة في غزوة بني قريظة ، وقد نال كعب بن مالك ثناء رسول الله ﷺ فيما قاله في غزوة الخندق .

يقول ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري في غزوة الخندق مفتخرا بالأحزاب التي جيشت جيوشها لقتال المسلمين ، مقتنيا نهج عمرو بن كلثوم في معلقته المشهورة وزنا وقافية ومعنى في قصيدة نجتزىء منها (١):

| | |
|--|--|
| ومُشْفِقَةٌ تَظُنُّ بِنَا الظَّنُونَا | وقد قُدْنَا عَرْنَدَسَةً طَحُونَا (٢) |
| كَأَنَّ زُهَاءَهَا أَحْدُ إِذَا مَا | بَدَتْ أَرْكَانَهُ لِلنَّاطِرِينَا |
| تَرَى الْأَبْدَانَ فِيهَا مُسَبَّغَاتٍ | عَلَى الْأَبْطَالِ وَالْيَلْبِ الْحَصِينَا |
| وَجُرْدًا كَالْقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ | نَوْمُهَا الْغَوَاةَ الْخَاطِئِينَا |
| كَأَنَّهُمْ إِذَا صَالُوا وَصَلْنَا | بِبَابِ الْخَنْدَقِينَ مُصَافِحُونَا |
| أَنَاسٌ لَا نَرَى فِيهِمْ رَشِيدًا | وَقَدْ قَالُوا أَلَسْنَا رَاشِدِينَا |
| فَأَخْجَرْنَاهُمْ شَهْرًا كَرِيْتًا | وَكُنَا فَوْقَهُمْ كَالْقَاهِرِينَا |
| نُرَاوِحُهُمْ وَنَعْدُو كُلَّ يَوْمٍ | عَلَيْهِمْ فِي السَّلَاحِ مُدَجَّجِينَا |

هكذا يقدم الشاعر ألوانا من الفخر مألوفة المعانى مكررة على الأسماع ، ولولا ذكر الخندق ما عرف قارىء غرض القصيدة ، ولمزيد من تبيان الغرض يقول الشاعر :

(١) ابن هشام ٢/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) معانى الكلمات : العرنيسة : الشديدة القوة ، يريد الكتيبة . الطحون : التي تطحن كل ما مرت به . زهاءها : تقديرها . الأبدان هنا بمعنى الدروع . اليلب : الترسة أو الدرق . الجرد : الخيل العتاق . القداح : السهام . أخجرتناهم : حصرناهم . شهرا كريتا : معنى كاملا .

فَلَوْلَا خَنَدُقُ كَانُوا لَسَدِيهِ
لَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ
ولكن حال دونهم وكانوا
به من خوفنا متعوذيناً

ينهض للرد على الشاعر بنفس البحر والقافية وكأنها نقائص متحاورة كعب بن مالك أحد شعراء رسول الله فيقول في الفخر بالمسلمين قولاً يرجح قول ضرار ويزيد عليه معاني إيمانية جديدة على الشعر العربي مثل الصبر على المحن ، والإيمان بالله ، والتوكل عليه ، ونصرة رسول الله قاتلاً :

وسائلةٍ تسائلُ ما لقينا
صبرنا لا نرى لله عِدْلاً
وكان لنا النبيُّ وزيرَ صِدْقٍ
نقاتلُ معشراً ظلمُوا وعَبُّوا
نعاجلهم إذا نهضوا إلينا
تراناً فى فضافضٍ سابغاتٍ
وفى آيئنا بيضٌ خفافٌ
بباب الخندقين كأن أسدًا
لننصرَ أحمداً واللّه حتى
ويعلمَ أهلُ مكةَ حين ساروا
بأن الله ليس له شريكٌ
ولو شهدتُ رأتنا صابرينا
على ما نابنا متوكليناً
به نعلو البريةَ أجمعيناً
وكانوا بالعداوةَ مُرْصِدِينا
بضربٍ يُعْجِلُ المتسرعيناً
كغُدرانِ الملائِ مُتَسرِّليناً
بها نشفى مِراحَ الشاغبيناً
شوايكهن يحمين العريناً
نكون عبادَ صديقٍ مخلصيناً
وأحزابٌ أتوا متحرِّبيناً
وأن الله مولى المؤمنيناً

وقال عبد الله بن الزبيرى قصيدة بائية طويلة فى وصف جيش المشركين وقواده لم تخل من رسم صور محكمة لجيوشهم ، يقول فيها : (١)

(١) ابن هشام ٢/٢٥٧ .

فيها الجيادُ شَوَازِبٌ مَجْنُونَةٌ
 من كلِّ سلْهَبٍ وَأَجْرَدَ سَلْهَبٍ
 جيشٌ عَيْنَةٌ قاصِدٌ بلوائه
 قَرْمَانٍ كالبدرينِ أصبحَ فيهما
 قُبُ البطونِ لَوَاحِبُ الأَقْرَابِ
 كالسَّيِّدِ غَالِبِ غَفْلَةِ الرِّقَابِ
 فيه وصخرٌ قَائِدُ الأَحْزَابِ
 غَيْثُ الفَقِيرِ ومَعْقَلُ المَهْرَابِ (*)

ويردّ حسان بن ثابت واصفا خيبة جيش الأحزاب وتفرق جمعهم بهبوب عاصفة مزقت صفوفهم ، محتلبا معانى إيمانية ، ومؤكدا على المساعدات الإلهية على هذا النحو (١):

فَدَعِ الدِّيَارَ وَذَكَرَ كُلَّ خَرِيدَةٍ
 وَأَشْكُ الأَهْمومَ إِلَى الإِلهِ وَمَا تَرَى
 سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيْهِ وَالْأَبْوَا
 جَيْشٌ عَيْنَةٌ وَابْنُ حَرْبٍ فِيهِمْ
 حَتَّى إِذَا وَرَدُوا المَدِينَةَ وَارْتَجَعُوا
 وَغَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِيهِمْ
 بِهِبُوبٍ مُعْصِفَةٍ تَفَرِّقُ جَمْعَهُمْ
 فَكْفَى الإِلهُ المُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ
 بِيضَاءِ أَنَسَةِ الحَدِيثِ كَعَمَابِ
 مِنْ مَعْشَرٍ ظَلَمُوا الرِّسُولَ غِضَابِ
 أَهْلَ القُرَى وَبَوَادِي الأَعْرَابِ
 مَتَخَطِّمُونَ بِحَلْبَةِ الأَحْزَابِ
 قَتَلُوا الرِّسُولَ وَمَغْنَمَ الأَسْلَابِ
 رُدُّوا بِغِيظِهِمْ عَلَى الأَعْقَابِ
 وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ
 وَأَثَابَهُمْ فِي الأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ (*)

ومثلها فعل حسان في الرد على ابن الزبيرى ، انطلق كعب بن مالك ورسم على

(*) المعانى : الشواذب : الضامرة . المجنونة : المقودة . قب البطون : يعنى ضامرة البطون . السلهبة : الطويلة .
 السَّيِّدِ : الذئب . قَرْمَان : يعنى سيدان عظيمان ، هما عيينة بن حصن قائد فزارة ، وصخر هو أبو سفيان . معقل
 الهراب : ملجؤها .

(١) السيرة ٢/ ٢٥٨ .

(*) المعانى : الخريدة : المرأة الناعمة . والكعاب : التى نهد ثديها فى أول ما ينهد . أبوا : جمعوا . متخطمون :
 شتلتون . الأيد : يعنى القوة . المعصفة : هى الريح الشديدة .

منوال حسان ، وأنشأ قصيدة من جيد الشعر معنى ووصوفا وإيقاعا ، ذكر فيها الخيل والفرسان والصوارم من رماح وسانان التي كانت سلاح كتيبة المسلمين في الخندق ، تلك الكتيبة التي (١) :

أَعَيْتُ أَبَا كَرِبٍ وَأَعَيْتُ تُبَعًّا وَأَبْتُ بَسَّالْتَهَا عَلَى الْأَعْرَابِ
ومواعظٍ مِنْ رَبَّنَا نُهْدَى بِهَا بِلِسَانٍ أَزْهَرَ طَيِّبِ الْأَنْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ
حِكْمًا يَرَاهَا الْمَجْرُمُونَ بِزَعْمِهِمْ حَرْجًا وَيَفْهَمُهَا ذُوو الْأَلْبَابِ
جَاءَتْ سَخِينَةٌ كَى تُغَالِبَ رَبَّهَا فَلْيُغْلِبَنَّ مُغَالِبَ الْغَلَّابِ (٢)

يقول ابن هشام : حدثني من أتق به قال : حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، قال : لما قال كعب بن مالك :

جاءت سخينة كى تغالب رباها فليغلبن مغالب الغلاب

قال رسول الله ﷺ : « لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا » (٣).

وهذا القول الذى قاله رسول الله ﷺ لا يعنى فقط امتنان الرسول وفرحه بالشعر الجيد ، ولكن الله - سبحانه - أيضا يشكر للشاعر المؤمن جهده ؛ إذ وظف الشعر فى خدمة دين الله ورسوله .

لقد قال كعب بن مالك شعرا كثيرا فى غزوة الخندق ، وهو أكثر شعراء المسلمين إنشادا فى شأن هذه الموقعة ، وأكثر شعره فيه من المستوى الرفيع ذى المسحة الإسلامية

(١) السيرة ٢/٢٥٩ .

(٢) معانى أبيات كعب البائية :

أبو كرب وتبع : ملكان من ملوك اليمن . الأزهر : الأبيض . حرجا : يعنى حراما . الألباب : يعنى العقول . سخينة : هو لقب قريش فى الجاهلية .

(٣) ابن هشام ٢/٢٦١ .

الخالصة ، والسمة الإيبانية السابغة ، مع إبداع في وصف الجيش فرسانا وسلاحا وكرا وفرا ، مما يجعلنا نتوقع أن عين أبي الطيب المتنبي لم تكن بعيدة عن قراءة هذا الشعر وهو يعدّ قصائده لوصف معامع سيف الدولة الحمداني ، فإن روح كعب بن مالك تسرى في ثناياها .

ولعل من الخير أن نختم حديث الشعر في غزوة الخندق بذكر هذه القصيدة النفيسة لكعب بن مالك (١) :

| | |
|--|---|
| مَنْ سَرَّهُ صَرْبٌ يُمَعَمَعُ بَعْضُهُ | بَعْضًا كَمَعَمَعَةِ الْأُبَاءِ الْمُحَرَّقِ (٢) |
| فَلْيَأْتِ مَأْسِدَةٌ تُسَنَّ سِيوفَهَا (٣) | بَيْنَ الْمَذَادِ (٤) وَبَيْنَ جَزَعِ (٥) الْخَنْدَقِ |
| دَرَبُوا بِضَرْبِ الْمُعَلِّمِينَ وَأَسْلَمُوا | مُهْجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ الْمَشْرِقِ (٦) |
| فِي عَصَبَةٍ نَصَرَ الْإِلَهَ نَبِيَّهُ | بِهِمْ وَكَانَ بَعْبِدِهِ ذَا مَرْفَقِ (٧) |
| فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخُطُّ فَضُولَهَا | كَالْنَهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ الْمُتَرَقِّقِ (٨) |
| بَيِّضَاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا | حَدَقَ الْجِنَادِ بِذَاتِ شَكِّ مَوْثِقِ (٩) |
| جَدَلَاءَ يَحْفِزُهَا نِجَادٌ مُهَنَّدٌ | صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمِ ذِي رُوْتِقِ (١٠) |

(١) ابن هشام ٢٦١-٢٦٣ .

(٢) المعمة : صوت التهاب النار وصريفها . والأبء : القصب ، ويقال : الأعصان الملتفة .

(٣) المأسدة : موضع الأسود ، ويعنى بها هنا موضع الحرب .

(٤) المذاد : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، وقيل : هو بين سلع وخندق المدينة .

(٥) الجزع : الجانب .

(٦) المعلمون : الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها . والمهجات : الأنفس ؛ الواحدة : مهجة . ولرب المشرق : يريد لرب المشرق والمغرب ، فحذفه للعلم به .

(٧) العصبية : الجماعة .

(٨) السابغة : الدرور الكاملة . وتخط فضولها : ينجر على الأرض ما فضل منها . والنهى : الغدير من الماء . والمترقق : الذى تصفقه الريح فيجىء ويذهب .

(٩) القتير : مسامير الدرور . والجنادب : ذكور الجراد . والشك : إحكام السرد .

(١٠) الجدلاء : الدرر المحكمة النسج . ويحفزها : يرفعها ويشمرها . والنجاد : حائل السيف . وصارم : قاطع . والروتيق : اللمعان .

تَلْكُم مَعِ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسِنَا
نَصَلُ السُّيُوفِ إِذَا قَصَّرنَ بِحَطُونَا
فَتَرَى الْجَهَّاجِمِ ضَاحِيَا هَامَاتِهَا
تَلْقَى العَدُوَّ بِفَخْمَةٍ (٢) مَلْمُومَةٍ
وَنُعِيدُ لِلْأَعْدَاءِ كَلَّ مُقَلَّصِ
تَرْدِي بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كِهَاتِمِ
صُدُقِ يُعَاطُونَ الكُهْمَاءَ حَتُّوفِهِمْ
أَمَرَ الإِلَهَ بِرِبْطِهَا لِعَدَوِهِ
لِتَكُونَ غِيظًا لِلْعَدُوِّ وَحِيظًا
وَيُعِينُنَا اللهُ العَزِيزُ بِقُوَّةِ
وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِينَا وَنُجِيبُهُ
وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِيهَا
مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ

يَوْمَ الهِيَاجِ وَكَلَّ سَاعَةَ مَصَدَّقِ
قَدُّمًا وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ
بَلَاءَ الأَكْفَفِ كَأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقِ (١)
تَنْفَى الجُمُوعَ كَفَصْدِ رَأْسِ المَشْرِقِ (٣)
وَرَدِّ وَتَحْجُولِ القَوَائِمِ أبلِيقِ (٤)
عِنْدَ الهِيَاجِ أُسُودَ طَلِّ مُلْتَقِ (٥)
تَحْتَ العِمَايَةِ بِالْوَشِيحِ المُرْهَقِ (٦)
فِي الحَرْبِ إِنَّ اللهَ خَيْرٌ مُؤَفَّقِ
لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ حُيُولَ النَّزَقِ (٧)
مِنْهُ وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةَ نَكْتَقِي
وَإِذَا دَعَا لِكَرْيَمَةٍ لَمْ نُسَبِّقِ
وَمَتَى نَرِ الحَوْمَاتِ فِيهَا نُعْنَقِ (٨)
فِينَا مَطَاعُ الأَمْرِ حَقُّ مُصَدَّقِ

- (١) الجهاجم : الرءوس . وضاحيا : بارزا للشمس . وبله : اسم فعل بمعنى اترك ودع ، ويصح نصب « الأكف » به ، أو جره على أنه مصدر مضاف له .
(٢) يريد « بالفخمة » : الكتيبة .
(٣) الملمومة : المجتمعة ، والمشرق : جبل بين الصريف والعصيم من أرض ضبة .
(٤) المقلص . الفرس الخفيف .
(٥) تردى : تسرع . والكياة : الشجعان . والطل : الضعيف من المطر . والملتق : ما يكون من الطل من زلق وطين ، والأسد أجوع ماتكون وأجراً في ذلك الحين .
(٦) يريد بالعماية : سحابة الغبار وظلمته . والوشيح : الرماح . والمرهق : المذهب للنفوس .
(٧) حيط : جمع حائط ، وهو اسم فاعل من حاط يحوط . ودلفت : قربت . والنزق : الغاضبون السيئو الخلق ؛ الواحد : نازق .
(٨) الحومات : مواطن القتال ؛ الواحدة : حومة . ونعنتق : نسرع .

فَبِذَلِكَ يُنصَرْنَا وَيُظْهِرُ عَزَّنَا
إِنَّ الَّذِينَ يَكذَّبُونَ مُحَمَّدًا
وَيُصَيِّبُنَا مِنْ نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْفَقِ
كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُتَّقِي

الشعر في غزوة مؤتة وفي فتح مكة :

كانت السنة الثامنة من الهجرة النبوية الشريفة متميزة عن بعض ما سبقها من سنوات السيرة النبوية بحدثين كبيرين كان لهما أثر في البنية الأساسية لمسيرة الدعوة الإسلامية ، أولهما غزوة مؤتة ، وترجع أهميتها إلى أنها أول لقاء مباشر بين جيش المسلمين وجيش الروم ، كما أنها كانت تسمى غزوة جيش الأمراء ، وسبب هذه التسمية يعود إلى أن رسول الله ﷺ قد أمر بتولية ثلاثة من كبار الصحابة الإمارة على الجيش ، أولهم زيد بن حارثة ، وهو من أحب صحابة رسول الله ﷺ إلى ذاته الشريفة ، فقد كان الرسول ﷺ قد تبناه قبل أن يحرم التبني في الإسلام ، وكان يسمى زيد بن محمد كما أنه الوحيد بين الصحابة الذي ورد اسمه - تحديدا - في القرآن الكريم (١) ، وإن تأمير رسول الله ﷺ لزيد على جيش مؤتة لذو دلالة خاصة على أهمية هذه الغزوة وخطورة شأنها .

فإن استشهد زيد انتقلت إمارة الجيش إلى جعفر بن أبي طالب ، وهو أشهر من أن يعرف ؛ لأنه ابن عم رسول الله ، ومن أوائل المسارعين إلى الدخول في الإسلام من آل البيت . فإن استشهد جعفر انتقلت الإمارة إلى عبد الله بن رواحة أحد الصحابة الأكثر قربا إلى رسول الله ﷺ وواحد من كبار شعراء الدعوة الذين نافحوا عنها وأخلصوا لها ، وأكثروا الإنشاد بين يدي رسول الله ﷺ ثم هو بعد ذلك من الأنصار ، وفي تقليده إمارة الجيش بعد استشهاد جعفر تكريم للأنصار ، الذين ما فتىء رسول الله ﷺ يحرص على تكريمهم في كل مناسبة تسنح وكل فرصة تلوح .

والحدث الثاني فتح مكة فهو الآية الكبرى ، والانتصار العظيم ، والحدث الحاسم ، الذي بدت إرهاباته قبل ذلك بعامين في الحديبية ، وفيها نزل قول الله

(١) في سورة الأحزاب ، الآية : ٣٧ وفيها قول الله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها . . . ﴾ الآية .

- سبحانه - مبشرا بالفتح واعدًا به : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَنُصِّرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (١).

بفتح مكة تميزت السنة الثامنة من هجرة رسول الله ﷺ مثلما تميزت السنة الأولى ، فإذا كانت السنة الأولى تمثل اتخاذ دار حصينة للدعوة ، واستقرارا مكانيا لرسول الله ﷺ ونقطة انطلاق لحمتها المهاجرون وسداها الأنصار ، فإن فتح مكة يمثل مرحلة تكميلية في مسيرة الدعوة وازدياد استقرارها ، فقد عاد بيت الله إلى عبّاد الله وموحيديه ، وبفتح مكة دخلت قريش في دين الله راضية أو مذعنة ، وبفتح مكة تحطمت جميع الأصنام وأبيدت عامة الأوثان ، وأصبح بيت الله مطهرا من كل شرك ، بريئا من كل دنس ، يذكر فيه اسم الله بالعشيّ والإبكار .

ليس غريبا - والأمر كذلك - أن يكون للشعر مجال رحب وميدان فسيح في كل من الحدثين الجليلين : غزوة مؤتة ، وفتح مكة .

الشعر في مؤتة :

ليس بمستغرب أن يكون الشعر في غزوة مؤتة مقصورا على عبد الله بن رواحة في مرحلة الإعداد والزحف وخوض الغمار ؛ لأنه أحد قوادها الذين شرفهم رسول الله بإمارة جيشها ، وأما بعد الغزوة وعودة الجيش واستشهاد الثلاثة الكبار فقد كان للشعر نشاط حزين في بكائهم والإشادة ببسالتهم والترحم على كل الشهداء الذين أبلوا البلاء الحسن في أتونها .

ومثلما كان حمزة صاحب النصيب الأوفى من رثاء شعراء المسلمين في أحد فقد كان جعفر بن أبي طالب صاحب المراثي الأوفر عددا بين شهداء مؤتة .

(١) الآيات الثلاث الأولى من سورة الفتح .

أما الغزوة نفسها وشعر عبد الله بن رواحة فيها فقد بدأ من لحظة التوديع .

يقول ابن هشام (١):

تجهز الناس ثم تهبوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودّع الناس
أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم . فلما ودّع عبد الله بن رواحة من ودّع من أمراء رسول
الله ﷺ بكى ؛ فقالوا : ما يُيكيك يا بن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا
صباية بكم ، ولكنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله - عز وجل - يذكر فيها
النار ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٢) ، فلستُ
أدرى كيف لي بالصّدر بعد الورود ؛ فقال المسلمون : صَحِبَكُمْ اللهُ ودفع عنكم ،
وردّكم إلينا صالحين ؛ فقال عبد الله بن رواحة :

لكنني أسأل الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وضربة ذات فَرْغٍ تُقْدِفُ الزَّيْدَا (٣)

أو طَعْنَةً بِيَدِي حَرَّانَ مُجْهَزَةً بحرَبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا (٤)

حتى يُقال إذا مَرُّوا على جدّتي (٥) أرشده الله من غازٍ وقد رَشَدَا (٦)

وحين شرع الجيش في الخروج لم يطق عبد الله بن رواحة الانصراف قبل أن يتوجه
لوداع رسول الله ﷺ وملء ناظره من وجهه الشريف ، وإلقاء التحية شعرا في حضرته
مثلما تعود على ذلك في سابق عهده معه ، وأنشد قائلا :

فثبّت الله ما آتاك من حَسَنِ تثبّيت موسى ونَصْرًا كالذي نُصْرُوا (٧)

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٧٣ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٧١ .

(٣) ذات فرغ : ذات سعة . والزبد هنا : رغبة الدم .

(٤) مجهزة : سريعة القتل . وتنفذ الأحشاء : تحترقها .

(٥) الجدد والجذف : القبر .

(٦) في رواية : « يا أرشد الله » .

(٧) كذا في م ، ر ، وفي أ « نصرا » .

إني تفرستُ فيكَ الخيرَ نافلةً الله يعلمُ أني ثابتُ البصرِ (١)

أنتَ الرسولُ فمَن يُحرِمُ نوافله والوجهُ منه فقد أزرى به القدرُ (٢)

ولقد رويت هذه الأبيات بترتيب آخر على هذا النحو (٣):

أنتَ الرسولُ فمَن يُحرِمُ نوافله والوجهُ منه فقد أزرى به القدرُ

فنبئتُ الله ما آتاك من حسنٍ في المرسلين ونصراً كالذي نصبروا

إني تفرستُ فيكَ الخيرَ نافلةً فراسةً خالفتُ فيكَ الذي نظروا (٤)

انطلق جيش المسلمين متجهاً إلى الشمال انطلاقاً الذين يسعون متسابقين لنيل النصر أو اللحاق بجنة الرضوان ، تظللهم نفحات الرحمن ، حتى إذا نزلوا بأرض معان - شرق الأردن الحالية - بلغهم أن هرقل قد نزل غير بعيد عنهم في « مآب » من بقاء الشام في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل لحم وجذام وبهراء والقيين وبلبي تحت قيادة رجل يقال له مالك بن زافلة .

كان من الأمور الجديرة بالنظر أن يفكر المسلمون في موقفهم ، إنهم ثلاثة آلاف فقط ، وإن يكن الواحد منهم بمائة رجل من الأعداء ، ولكن الجيش الذي ينتظرون لقاءه عدته مائتا ألف رجل ، فقالوا : نكتب إلى رسول الله بالخبر ونتلقى توجيهاته ، فإما أن يمددنا بالرجال وإما أن يأمرنا بغير ذلك فنذعن لأوامره .

هنا ينهري عبد الله بن رواحة مشجعاً جيش المسلمين قائلاً : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما تقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإننا هي إحدى الحسينين إما

(١) في هذا البيت إقواء .

(٢) نافلة : هبة من الله وعطية . والنوافل : العطايا والمواهب . وأزرى به القدر ، أي : قصر به .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٣٧٤ .

(٤) يعني بذلك المشركين .

ظهور وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد والله صدق ابنُ رواحة . فمضى الناس فقال عبد الله بن رواحة في محبسه ذلك :

| | |
|---------------------------------------|--|
| جَلَبْنَا الحَيْلَ من أَجْأٍ وَفَرَعٍ | تُعَرُّ من الحَشِيشِ لها العُكُومُ (١) |
| حَدَوْنَاهَا من الصَّوَّانِ سِينَتَا | أَزَلَّ كَأَنَّ صَفْحَتَهُ أَدِيمُ (٢) |
| أَقَامَتِ لَيْلَتَيْنِ على مَعَانٍ | فَأَعْقَبَ بعدَ فترتها جُـمُومُ (٣) |
| فَرُحْنَا والجِيَادِ مُسَوِّمَاتِ | تَنَفَّسُ في مَنَاخِرِهَا السَّمُومُ (٤) |
| فَلَا وَأبَى مَأَبَ لِنَأْتِيَنَّهَا | وإن كانت بها عَرَبٌ ورومُ (٥) |
| فَعَبَّأْنَا أَعْنَتَهَا فَجَاءَتْ | عَوَابِسَ والغُبَارُ لها بَرِيمُ (٦) |
| بذى لَجِبٍ كَأَنَّ البَيْضَ فِيهِ | إذا بَرَزَتْ قَوَانِسُهَا النُّجُومُ (٧) |
| فِرَاضِيَةِ المَعِيشَةِ طَلَقْتَهَا | أَسْتَهَّأ فَتَنَكَّحُ أو تَتِيمُ (٨) |

(١) أجأ : أحد جبلي طيء ، والآخر سلمى . وفرع (بالفتح) : اسم موضع من وراء الفرك . وقال ياقوت : « الفرع : أطول جبل بأجأ وأوسطه » . . . وتغر (بالغين المعجمة) : تطعم شيئاً بعد شيء . يقال : غر الفرخ غرا وغرارا : زقه . والعكوم : جمع عكم (بالفتح) وهو الجنب . ويروى : جلبنا الحيل من أجام فرح - بضم القاف - وهو سوق وادى القرى .

(٢) حدوناها : جعلنا لها حذاء ، وهو النعل : والصوان : حجارة ملس ؛ وأحدثها صوتاً . والسبت : النعال التي تصنع من الجلود المدبوغة . وأزل ، أى : أملس صفحته ظاهرة . والأديم : الجلد . . . وقال السهيلي : « أى : حدوناها نعالاً من حديد ، جعله سبتاً لها مجازاً . وصوان : من الصون ، يصون حوافرها ، أو أخفافها ، إن أراد الإبل ، فقد كانوا يحذونها السريح ، وهو جلد يصون أخفافها . وربما يكون أراد بالصوان : يبيس الأرض ، أى لانسبت لها إلا ذلك .

(٣) معان (بفتح الميم) : موضع بالشام . والفترة : الضعف والسكون . والجُموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة .
(٤) مسومات : مرسلات . والسُموم : الريح الحارة .
(٥) مأب : اسم مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء .
(٦) البريم في الأصل : خيطان مختلطان أحمر وأبيض ، تشدهما المرأة على وسطها أو عضدها ، وكل ما فيه لونان مختلطان فهو بريم أيضاً . يريد ما علاها من الغبار ، فخالط لونه لونها . والدمع المختلط بالإمد ، وهذا أقرب لمعنى البيت : أى أن دموع الحيل اختلطت بالتراب فصارت كالبريم .
(٧) ذى لجب : أى جيش . واللجب : اختلاط الأصوات وكثرتها ، والبيض : ما يوضع على الرأس من الحديد . والقوانس : جمع قونس ، وهو أعلى البيضة .
(٨) تميم : تبقى دون زوج ، يقال : آمت المرأة إذا لم تتزوج .

بهذه المعانى الرفيعة التى تضمنها هذا الشعر البليغ خاض المسلمون - على قلة عددهم - غمار حرب ضروس أمام عدو يفوقهم أكثر من ست وستين مرة ، فكانت اللجنة ثوابا لشهادتهم ، وحياة الصابرين جزاء لمن كتبت لهم النجاة .

وإذا كان عبد الله بن رواحة لم يستطع أن يسجل حلاوة الشهادة شعرا لأنه لا سبيل إلى ذلك بعد أن ودع الحياة ، فإنه كان يحلم بنيلها ويتمناها ، وقد عبر عن ذلك فى شعر جميل رواه زيد بن أرقم^(١).

قال زيد : كنت يتيما لعبد الله بن رواحة فى حجره ، فخرج بى فى سفره ذلك وقد أردفتى على حقيبة رحله ، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتا فى طلب الشهادة ، فلما انتهى من إنشاده بكيت ، فخفقتى بالدرة وقال : ما عليك بالكع أن يرزقنى الله شهادة وترجع بين شعبتى الرجل وحدك .

أما أبيات عبد الله بن رواحة فى طلب الشهادة فهى قوله مناجيا ناقتة :

| | |
|--------------------------|-----------------------------|
| إذا أدبنتنى وحمليت رحلى | مسيرة أربع بعد الحساء (٢) |
| فشأنك أنعمم وخلاك ذم | ولا أزعج إلى أهلى ورائى (٣) |
| وجاء المسلمون وغادرونى | بأرض الشام مشتهى الثواء (٤) |
| وردك كل ذى نسب قريب | إلى الرحمن منقطع الإخاء |
| هنالك لا أبالى طلّع بعلى | ولا نخل أسافلها رواء (٥) |

كان ذلك هو إسهام الشعر فى غزوة مؤتة ، جادت به قريحة صحابى شاعر فارس

(١) السيرة ٢/ ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) الحساء : جمع حسى وهو ماء يغور فى الرمل حتى يجد صخرا ، فإذا بُحِث عنه وجد .

(٣) فشانك أنعم : يريد أنه لا يكلفها سفرا بعد ذلك ، وإنما تنعم مطلقا ؛ لعزمه على الموت فى سبيل الله . ولا أزعج : قال أبو ذر : « هو مجزوم على الدعاء ، دعا على نفسه أن يستشهد ولا يرجع إلى أهله » .

(٤) الثواء . الإقامة فى المكان ، وفعله : ثوى يثوى (من باب ضرب) .

(٥) البعل : الذى يشرب بعروقه من الأرض . ورواء (بكسر الهمزة) : صفة النخل .

قائد ، تمنى الشهادة فناها ، ودق أبواب الجنة فهللت لمقدمه ورحبت باحتيازه عتباتها ولعل أبياته الحمزية هذه هي أرق شعر وأعمقه وأنبله وأفصحه قيل في هذه الغاية السامية .

الشعر في فتح مكة :

أسلفنا القول في مستهل هذا الفصل أن بدايات النصر كانت مقرونة بهجرة رسول الله ﷺ ووصوله سالما إلى المدينة المنورة ، وأن ذروة النصر قد تمت بفتح مكة ودخوله ﷺ إليها مظفرا ، ترفرف رايات الإسلام من حوله ، وتتألق بنوده في سمائها ، ومن حوله ﷺ الألوية المظفرة ، يتقدم كل لواء أميره وقائده ، ومن ثم فليس من المبالغة أن يوصف هذا الحدث الكبير بأنه أفرح الإسلام ، وانتصارات الإيوان ، وتثبيت أعلام عقيدة الله على أركان بيته بعد تحريره من الشرك وتطهيره من الأصنام .

هنا جادت قرائح الشعراء الصحابة بما لم تجد بمثيل له من قبل ، بلاغة قول ، وفصاحة شعر ، وجزالة صوغ ، ونصاعة بيان ، وحرارة وجدان .

إن بجير بن زهير بن أبي سلمى ، وقد مضى خبر سبقه إلى الإسلام وإيوانه بالرسالة وتوجيه أخيه كعب إلى الهدى ومدح رسول الله بواحدة من أشهر ما مدح به الرسول من قصيد ، يهتز طربا بنصر الإسلام وفتح مكة وعودة الرسول إليها مظفرا ، فتجود قريحته بهذه الأبيات الجزلة البناء :

نَفَى أَهْلَ الْحَبْلَقِ كُلِّ فَجَّ مَزِينَةٌ غُدْوَةٌ وَبَنُو خِفَافٍ (١)
ضربناهم بمكة يوم فتح النبي الخيبر بالبيض الخفاف
صَبَحْنَاهُمْ بِسَبْعٍ مِنْ سُلَيْمٍ وَأَلْفٍ مِنْ بَنِي عَثْمَانَ وَافٍ (٢)

(١) الحبْلَقُ : أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس . والحبلق : الغنم الصغار ، ولعل الشاعر أراد بقوله : « أهل الحبلق » يعني أصحاب الغنم . وبنو خفاف : بطن من سليم .
(٢) سبع : أى بسبعائة . وبنو عثمان : هم مزينة .

نَطَا أَكْتَأَفَهُمْ ضَرْبًا وَطَعْنَا (١) ورشقا بالمريشة اللطاف (٢)
تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفًا كما انصاع الفواق من الرصاف (٣)
فَرَحْنَا وَالْجِيَادُ تَجُولُ فِيهِمْ بأزماح مقومة الثقف
فَأَبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَا وأبوا نادمين على الخلاف
وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْنًا موائنا على حسن التصافي
وَقَدْ سَمِعُوا مَقَالَاتِنَا فَهَمُّوا غداة الرزع منا بانصراف (٤)

ولا يتخلف عن موكب الشعر في فتح مكة الفارس الصحابي الشاعر عباس بن مرداس ، وهو ابن الصحابية الشاعرة الفذة الحنساء . لقد أسهم العباس بن مرداس بشعره وسيفه في كثير من الغزوات قبل الفتح وبعده ، ومن الطبيعي أن يتشكل شعر العباس بأجواء الفتح ، وأن يختلط سدى شعره ولحمته بصهيل الخيل وغبار سناكبها واشتباك القنا وبريق السيوف . يقول عباس بن مرداس في فتح مكة (٥):

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ مُحَمَّدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبَطَاحُ مُسَوِّمٌ (٦)
نَصَرُوا الرَّسُولَ وَشَاهَدُوا أَيَّامَهُ وَشَعَارُهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ مُقَدَّمٌ (٧)
فِي مَنْزِلٍ ثَبَّتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُمْ ضَنْكَ كَأَنَّ الْهَامَ فِيهِ الْخَنْتَمُ (٨)
جَرَّتْ سَنَابِكُهَا بِنَجْدٍ قَبْلَهَا حَتَّى اسْتَقَادَ لَهَا الْحِجَارُ الْأَدْهَمُ

- (١) كذا في م ، ر . وفي أ : « أكتأفهم » بالنون . والأكتاف : الجوانب .
(٢) نطا : أراد نطأ ، فخفض الهمزة . والرشق : الرمي السريع ، والمريشة : يعنى السهام ذوات الريش .
(٣) الحفيف : الصوت . وانصاع : انشق . والفواق هنا : الفوق ، وهو طرف السهم الذى يلى الوتر . والرصاف : جمع رصفة ، وهى عصبة تلوى على فوق السهم .
(٤) السيرة لابن هشام ٢ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
(٥) السيرة ٢ / ٤٢٦ .
(٦) البطاح : جمع بطحاء ، وهى الأرض السهلة المتسعة . ومسوم : أى مرسل ، أو هو المعلم بعلامة .
(٧) شعارهم : علامتهم في الحرب .
(٨) ضنك : ضيق . والهام : الروس : والحتم : الحنظل .

اللَّهُ مَكْنَنَهُ لَهٗ وَأَذَلَّهُ حُكْمُ السُّيُوفِ لَنَا وَجَدَّ مِرْزَحِمَ (١)
عُودُ الرِّيَاسَةِ شَامِخٌ عَرَبِيَّتُهُ مُتَطَلِّعٌ تُغَرِّ المَكَارِمِ خِضْرُمُ (٢)

وفي مقام الاعتذار والاستسلام يقف أنس بن زنيم الدبلي بين يدي رسول الله يعتذر
عما كان قاله فيهم عمرو بن سالم الخزاعي ، وهي الأرجوزة الدالية القافية التي أنشدها
عمرو بن سالم بين يدي رسول الله فكانت سببا من أسباب المسارعة إلى فتح مكة ،
ومطلعها :

ياربِّ إني ناشدُ محمدا حلف أبينا وأبيه الأثَلَدَا

وفيها يذكر نقض قريش وأحلافهم عهدهم لرسول الله ويقول :

هم يبتُونَا بالوتير هُجْدَا وقتلونا رُكْعَا وَسُجْدَا

إن قصيدة أنس بن زنيم من أرق ما قيل في الاعتذار لرسول الله ﷺ ومن أجمل ما قيل
في مدحه ﷺ قال أنس : (٣)

أأنت الذي تُهْدِي مَعَدُّ بِأَمْرِهِ بَلِ اللهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ أَشْهَدِ
وما حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ
أَحْتَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَنْدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْحَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ (٤)
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالأَخْذِ بِالْيَدِ (٥)

(١) مزحيم : كثير المزاحمة ، يريد أن جدهم غالب .

(٢) العود (هنا) : الرجل المسن ، العرنيين : طرف الأنف . الخضرم : هو الجواد الكثير العطاء .

(٣) السيرة ٢ / ٤٢٤ .

(٤) الحال : ضرب من برود اليمن ، وهو من رفيع الثياب . والسابق (هنا) : الفرس . والمتجرد : الذي يتجرد من الخيل
فيسبقها .

(٥) تعلم : اعلم . والوعيد : التهديد .

تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْكَ قَادِرٌ
 تَعَلَّمَ بِأَنَّ الرَّكْبَ رَكْبُ عُوَيْمِرٍ
 وَنَبَّأَ رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ
 عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتَّهِمِينَ وَمُنْجِدٍ (١)
 هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلَفُونَ كُلِّ مَوْعِدٍ
 فَلَا حَمَلَتْ سَوْطِي إِلَى إِذْنِ يَدِي

إلى أن يقول :

فِيَّيْ لَا دِينًا فَتَقْتُ وَلَا دَمًا هَرَقْتُ تَبَيَّنُ - عَالِمَ الْحَقِّ - فَاقْصِدِ

إن الصحابي بديل بن عبد مناف بن أم أصرم لا يكاد يسمع شعر أنس بن زعيم حتى يسارع إلى الرد عليه فيما يشبه النقائص ، ولكن في غير إسفاف ، فقد كان القوم جميعا مستظليين بوقار الفتح مدعين لقداسة هذا اليوم العظيم . قال بديل مجيباً :

بَكَى أَنْسُ رَزْنًا فَأَعْوَلَهُ الْبُكَاءُ
 فَالَّا عَدِيًّا إِذْ تُطَلُّ وَتُبْعَدُ (٢)
 بَكَيْتَ أبا عَبَسٍ لِقُرْبِ دَمَائِهَا
 فَتُعَذِّرُ إِذْ لَا يُوقِدُ الْحَرْبَ مَوْقِدُ
 أَصَابَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَامِ فِتْيَةٌ
 كِرَامٌ فَسَلُّ ، مِنْهُمْ نُفَيْلٌ وَمَعْبُدُ (٣)
 هِنَالِكَ إِنْ تُسْفَحُ (٤) دَمُوعُكَ لَا تُلْمُ
 عَلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ تَدْمَعْ الْعَيْنُ فَاصْمَدُوا (٥)

وفي مجال فتح مكة وهزيمة المشركين وشعرائهم ، هنا يتطلع المرء إلى ما يمكن أن يصنعه شاعر الشرك والمشركين عبد الله بن الزُّبَيْرِ ، لقد عمد إلى الفرار مثلما صنع غيره من عتاة المشركين ، فشد الرحال إلى نجران وقد ظن أنه بمنجاة من سوء المصير ومن سيف القصاص العادل .

(١) صرم : بيوت مجتمعة . ومُتَّهِمِينَ : ساكنين في التهام ، وهي المنخفض من الأرض . والمنجد : من يسكن النجد ، وهو المرتفع .

(٢) العويل : رفع الصوت بالبكاء . وتطل : يبطل دمها ولا يؤخذ بثأرها .

(٣) يوم الخندام : أراد يوم الخندمة ، فجمعها مع ماحولها ، وهي جبل بمكة .

(٤) تسفح : تسيل .

(٥) في أ : فأصمِدُ (بكسر الدال) على أنه أمر للواحد ، وبهذه الرواية يكون في البيت إقواء .

لقد كان ابن الزبيرى شديد العداوة لرسول الله وللمسلمين ؛ يحاربهم بالسيف ويهجوهم باللسان ، ويؤلب عليهم القبائل ، ويأتمر بأمر عتاة كفار قريش ، لقد وهم ابن الزبيرى حين ظن أن نجران صارت له دار أمن وسلام ، ولكن سيف حسان بن ثابت المتمثل فى عبقريته طارده هناك ، وأرسل إلى نجران أبياتا قال فيها :

لَا تَعْدَمَنَّ رَجُلًا أَحَلَّكَ بُغْضَهُ

نجران فى عيشٍ أَحَدًا لَتَيْمٍ

بَلَيْتَ قَنَاتِكَ فى الحروبِ فَأَلْفَيْتَ

خَوَارَةَ خَوْفَاءَ ذَاتِ وُصُومٍ

غَضَبُ الإِلهِ على الزَّبْعَرَى وَإِنَّهُ

وَعَذَابُ سُوءٍ فى الحياةِ مَقِيمٍ

فلما وصل شعر حسان إلى مسامع ابن الزبيرى لم يجد خيرا من أن يتوجه إلى رسول الله وهو جالس فى أصحابه ، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال : « هذا ابن الزبيرى ومعه وجه فيه نور الإسلام » فلما وقف على رسول الله ﷺ قال : السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، الحمد لله الذى هدانى للإسلام ، لقد عاديتك ، وأجلبت عليك وركبت الفرس والبعير ، ومشيت على قدمى فى عداوتك ، ثم هربت منك إلى نجران وأنا لا أريد أن أقرّ بالإسلام أبدا ، ثم أرادنى الله منه بخير ، وألقاه فى قلبى ، وحببته لى ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة وإتباع ما لا ينبغى من حجر يُذبح له ويُعبد ، لا يدرى من عبده ، ولا من لا يعبده .

هنا تبدو ملامح النبوة وأخلاقها على وجه رسول الله ، فلا تصدر منه كلمة لوم أو إشارة تقريع ، وإنما يقول فى ساحة ووقار : « الحمد لله الذى هداك للإسلام ، إن الإسلام يجب ما كان قبله » .

هنا يقف ابن الزبيرى بين يدى الرسول منشدا معتذرا قائلا :

يا رسولَ الملِكِ إنَّ لسانِي رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أَنَا بِـمُورٍ
 إذْ أَبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سُنَنِ الغَيِّ وَمَنْ مَالِ مَيْلُهُ مَثْنُـبُورٍ
 آمَنَ اللِّحْمُ وَالْعِظَامُ لِـرَبِّي ثُمَّ قَلْبِي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ
 إِنْنِي عَنْكَ زَاجِرٌ ثُمَّ حَيًّا مِنْ لُؤْيٍ وَكُلْهِمِ مَغْرورٍ (١)

ويدخل عبد الله بن الزبيرى من باب الإيمان الواسع والساحة الأوسع ، ويتنظم قافلة المؤمنين .

ومن أخلاق النبوة التى كانت جبلة رسول الله وسماحته وهو فى أوج الانتصار ما حدث مع فضالة بن عمير بن الملوح الليثى الذى أراد قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ ! قال : نعم : قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن . وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق شيء أحب إلىّ منه ، ورجع فضالة إلى أهله ، قال : فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : لا .
 وانبعث فضالة يقول :

قالتْ هلمَّ إلى الحديثِ فقلت لا
 يَا أَبَى عَمِّى اللهُ وَالْإِسْلَامُ
 لَوْ مَا رَأَيْتِ مُحَمَّدًا وَقَبِيلَهُ
 بِالْفَتْحِ يَوْمَ تُكْسَرُ الْأَصْنَامُ
 لَرَأَيْتِ دِينَ اللهِ أَضْحَى بَيْنَنَا
 وَالشَّرْكَ يُغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ (٢)

(١) سبل الهدى والرشاد ٥ / ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(٢) المصدر السابق ٥ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

وتتجلى ساحة رسول الله في ذلك اليوم ، يوم الفتح الذى يوحى إلى النفس أنه كان يوماً جهوماً ؛ وأن رسول الله كان في ذلك اليوم مقطب الوجه عبوساً ، ولكن الواقع كان على العكس من ذلك . فقد مرت كتيبة رسول « الخضراء » وكان أعطى رايته سعد بن عبادَةَ الذى كان يتقدم الكتيبة ، فلما مرَّ سعد براية رسول الله ، وكان أبو سفيان يرقب سير المواكب ، نادى أبا سفيان فقال : اليومُ يومُ الملحمة ، اليومُ تستحلُّ الحرمَةُ ، اليومُ أذلَّ اللهُ قريشاً .

فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان ، قال : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟ ! ألم تعلم ما قال سعد بن عبادَةَ ؟ قال : « ما قال ؟ » قال أبو سفيان : قال كذا وكذا ، وإنى أنشدك الله فى قومك ، فأنت أبرَّ الناس ، وأرحم الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « كذب سعد يا أبا سفيان ، اليومُ يومُ المرحمة ، اليومُ يومُ يعظم اللهُ فيه الكعبة ، اليومُ يومُ تكسى فيه الكعبة ، اليومُ يومُ أعزَّ اللهُ فيه قريشاً » .

فى مضمار هذه الأحداث ينشئ ضرار بن الخطاب الفهرى - وكان من شعراء المشركين - شعراً يستعطف به رسول الله على أهل مكة وقد سمع قول سعد ، ولكى يكون وقع الشعر أبلغ فى انعطاف رسول الله ﷺ على قريش فقد أرسل به امرأة أنشدته على مسامع الرسول معترضة إياه فى موكبه .

قالت المرأة منشدة شعر ضرار :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| يا نبيَّ الهدى إليك لَجَا | حى قريش ولاتَ حينَ لَجاءِ |
| حين ضاقت عليهم سعة الأثر | حين وعاداهم إله السماء |
| والتقت حلقنا البطان على القو | م ونودوا بالصَّيلم الصلواء |
| إنَّ سعداً يريدُ قاصمة الظه | ر بأهل الحجون والبطنحاء |
| حزرجى لو يستطيع من الغي | ظ زمانا بالنسر والمعواء (١) |

(١) وفى رواية : « خزرجى لا يستطيع من البغض زمانا بالنسر والمعواء »

غِرِ الصَّدْرِ لَا يَهُمُّ بِشَيْءٍ غيرَ سَفْكِ الدِّمَا وَسَبَى النِّسَاءِ
 قَدْ تَلَطَّى عَلَى الْبِطَاحِ وَجَاءَتْ عَنْهُ هِنْدٌ بِالسُّوْءَةِ السُّوَاءِ
 إِذْ يُنَادِي بِذُلِّ حَيِّ قُرَيْشٍ (١) وابنَ حَرْبٍ يَدَا مَنِ الشُّهْدَاءِ
 فَلَيْنَ أَفْحَبَمَ اللِّوَاءَ وَنَادَى يَا حُمَاةَ الْأَدْبَارِ أَهْلَ اللِّوَاءِ
 ثُمَّ نَابَتْ إِلَيْهِ مِنْ بُوْهِمِ الْخِزْ رَجٍ وَالْأَوْسِ أَنْجُمُ الْمُهَيَّبِ
 لَتَكُونَنَّ بِالْبِطَاحِ قُرَيْشٌ فَفَقَعَةُ الْقَاعِ فِي أَكْفِ الْإِمَاءِ
 فَأَنْهَيْتَهُ فَإِنَّهُ أَسَدُ الْأَسَدِ دَلَدَى الْغَابِ وَالغِ فِي الدِّمَاءِ (٢)
 إِنَّهُ مُطْرُقٌ يُرِيدُ لَنَا الْأَمَّ رَسَكُوتًا كَالْحَيَّةِ الصَّمَاءِ

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر أرسل إلى سعد فنزع اللواء من يده وجعله إلى ابنه قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من يد سعد حتى صار إلى ابنه (٣).

ولعل « همزية » حسان الشهيرة كانت العروس العصماء بين القصائد الحسان التي جادت بها قرائح شعراء الرسول في فتح مكة . لقد أطلق حسان لنفسه العنان ، وترك شاعريته على سجيتها فحنت لماضيها في افتتاح القصائد بالوقوف على الأطلال ، واستهلالها بالنسيب وذكر طيف الحبيب ، والتفنن في وصف الخمر ، وهو نمط من القول كان يألفه الشاعر في الجاهلية ، ولكن لا بأس في ذلك مادام الأمر لم يتجاوز حدود التخيل وإطار التمثل .

إن حسان بن ثابت ينشئ أبياتا يستغرق فيها نهاج الماضي عدتها تسعة على هذا النحو (٤):

(١) وفي رواية : إذ ينادى يا ذل حى قريش .

(٢) وفي رواية :

فأنهينه فإنه الأسد الأسد — ورد والليث والغ في الدماء

(٣) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٣٦ .

(٤) ديوان حسان ص : ١١ وما بعدها ، والسيرة ٢/ ٤٢٢ وما بعدها .

عفت ذات الأصابع فالجواء
ديار من بنى الحسحاس قفر
وكانت لا يزال بها أنيس
فدغ هذا ، ولكن من لطيف
لشعنا التي قد تيمته
كأن حبيته من بيت رأس
إذا ما الأشربات دكرن يوما
نوليها الملامة إن ألمانا
ونشرها فتكرنا ملوكا

إلى عذراء منزلها خلاء
تعيها الروامس والسما (١)
خلال مروجها نغم وشاء (٢)
يؤرقني إذا ذهب العشاء (٣)
فليس لقلبه منها شفاء (٤)
يكون مزاجها عسل وماء (٥)
فهن لطيب الراح الفداء (٦)
إذا ما كان معث أو لحاء (٧)
وأسدا ما يتهنئنا اللقاء (٨)

بعد ذلك يخطو حسان إلى صلب الغرض من قصيدته فيصور أجواء الفتح وحركة
الفرسان ونشاط الخيل مهينا جوا إسلاميا في نطاق من العون الرباني بذكر جبريل -

-
- (١) بنو الحسحاس : حى من بنى أسد . وأصل الحسحاس : الرجل الجواد ، ولعله مراد هنا . والروامس : الرياح
التي ترمس الأثار ، أى : تغطيها ، والسما : المطر . (عن السهيلي) .
- (٢) النعم : المال الراعى ، وهو جمع لا واحد له من لفظه ، وأكثر ما يقع على الإبل ، والشاة من الغنم ، يقع على الذكر
والأنثى ، والجمع شاء وشباه .
- (٣) الطيف : خيال المحبوبة يلم فى النوم . ويؤرقنى : يسهرنى . يريد أن الطيف إذا زال عنه وجد له لوعة تؤرقه .
- (٤) شعنا : اسم امرأة ، قيل هى بنت سلام بن مشكم اليهودى ، كما فى السهيلي ، وقيل : هى امرأة من خزاعة ، كما فى
نوادير ابن الأعرابى ، وقيل غير ذلك .
- (٥) الحبيته : الخمر المخبوة المصونة المضمون بها . وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر الجيدة . وبعد هذا
البيت فى الديوان المطبوع بأوربا :
- على أنيابها أو طعم غض
من التفاح هصره اجتناء
وعلق عليه السهيلي فقال : البيت موضوع ، لا يشبه شعر حسان ولا لفظه .
- (٦) الأشربات : جمع الأشربة : جمع شراب . يريد أن الأشربة غير راح بيت رأس لاتدانيها فى اللذة .
- (٧) نوليها الملامة : نصرف اللوم إليها . إن ألمانا : إن فعلنا مانستحق عليه اللوم . يقال : ألام الرجل فهو مليم . والمغث
: الضرب باليد ، واللحاء : السباب .
- (٨) يتهنئنا : يجزنا ويردنا .

عليه السلام - ورسالة محمد ﷺ وهو لا ينسى في هذا السياق أن يفخر بقومه الأنصار ،
ويقول :

| | |
|---|--|
| عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا | تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كَدَاءُ (١) |
| يُنَازِعُنَ الْأَعْنَةَ مُصْنَعِيَاتِ | عَلَى أَكْتَانِهَا الْأَسْلُ الظَّهَاءُ (٢) |
| تَظَلُّ جَيَادَنَا مُتَمَطِّطَاتِ | يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ (٣) |
| فِيمَا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا | وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ (٤) |
| وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لَجِلَادِ يَوْمِ | يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ (٥) |
| وَجَبْرِيْلَ رَسُولِ اللَّهِ فِيْنَا | وَرُوحَ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ (٦) |
| وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا | يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ (٧) |
| شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا (٨) صَدَّقُوهُ | فَقَلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ |
| وَقَالَ اللَّهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدًا | هُمُ الْأَنْصَارُ عَرَضَتْهَا اللَّقَاءُ (٩) |
| لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدِّ | سِيَابٍ أَوْ قِتَالٍ أَوْ هِجَاءٍ |

- (١) النقع : الغبار . وكداء (بوزن سحاب) : ثنية بأعلى مكة .
(٢) الأعنة : جمع عنان ، وهو اللجام . والمصغيات : الموائيل المنحرفات للظعن . والأسل : الرياح . والظهاء : العطاش . زيروى : (بيارين الأسنة) بدل : (ينازعن الأعنة) . و (مصعدات) بدل مصغيات .
(٣) المتمطرات : قيل معناه المصوبات بالمطر . ويقال : المتمطرات : التى يسبق بعضها بعضا . ويلطمهن : تضرب النساء وجوههن لتردهن . والخمر : جمع خمار ، وهو ماتغطي به المرأة رأسها ووجهها ، أى أن النساء كن يضربن وجوه الخيل بخمرهن يوم الفتح . قال السهيلي : وقال ابن دريد فى الجمهرة : كان الخليل رحمه الله يروى بيت حسان : (يلطمهن بالخمر) وينكر : (يلطمهن) ويجعله بمعنى ينفض النساء بخمرهن ما عليهن من غبار أو نحو ذلك .
(٤) اعتمرنا : أدينا مناسك العمرة ، وهى زيارة بيت الله الحرام .
(٥) الجلاذ : القتال بالسيف . ويروى : (يعز الله) بدل (يعين الله) .
(٦) كفاء : مثل .
(٧) البلاء : الاختبار .
(٨) رواية الديوان : (وقومى) .
(٩) عرضتها اللقاء : عاداتها أن تتعرض للقاء ، فهى قوية عليه .

فُنَحِّكُم بِالْقَوَافِي مِنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ (١)

ولما كان أبو سفيان - واسمه المغيرة - بن الحارث بن عبد المطلب - وهو ابن عم النبي - قد هجا رسول الله وعارض الرسالة ، فإن حسانا يتصدى له ويهجوهُ دون أن ينصرف هجاؤه إلى آل البيت ، فقد كان رسول الله يشفق من أن ينال هجاء حسان أحدا من بيت عبد المطلب ، ولكن حسانا كان يجيبه قائلا : والله لأسلنك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين ، وقد فعل حسان ذلك في حرص بالغ وذلك في قوله :

| | |
|---------------------------------------|---|
| ألا أبلغ أبا سفيان (٢) عني | مُغْلَغَلَةً (٣) فقد برح الخفاء |
| بأن سيوفنا تركتكَ عبدا | وعبدُ الدار سادتها الإمام (٤) |
| هَجَوْتُ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ | وعند الله في ذاك الجزاء |
| أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍ | فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْ أَلْفِ دَاءٍ |
| هَجَوْتُ مُبَارِكًا بَرًّا حَنِيفًا | أَمِينَ اللَّهِ شِمْتُهُ الْوَفَاءُ (٥) |
| أمن يهجو رسول الله منكم | ويمدحهُ وينصُرهُ سَوَاءٌ ؟ |
| فإن أبا والديه وعرضي | لعرض محمد منكم وقاء |
| لساني صارم لا عيب فيه | ويحري لا تُكدرهُ الدلاء |

قال ابن هشام : قالها حسان يوم الفتح . ويروى : « لساني صارم لا عتب فيه »

(١) نحكمه : نمنعه ونكفه ، ومنه سمي القاضي حاكما ؛ لأنه يمنع الناس من الظلم .

(٢) أبو سفيان : هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ، وكان هجا النبي قبل أن يسلم .

(٣) مغلغلة : رسالة ترسل من بلد إلى بلد . ورواية هذا البيت في الديوان :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء

المجوف : الخالي الجوف ، يريد به الجبان ، وكذلك النخب والهواء .

(٤) يد أن سيوف الأنصار جعلت أبا سفيان كالعبد اللذليل يوم فتح مكة ، وأن سادة بني عبد الدار صاروا كالإمام في مكة والهوان .

(٥) شيمته : المسلم ؛ لأنه مال عن الباطل إلى الحق ، وشيمته : يعني طبيعته .

وبلغني عن الزهري أنه قال : لما رأى رسول الله ﷺ النساء يُلطمن الخيل بالخمر تبسم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الحق أن فتح مكة مثلما كان عيداً للإيمان كان عيداً للشعر أيضاً ؛ تنفس فيه الشعراء المسلمون الصعداء فتأنقوا في القول ، وتألّقوا في الفخر ، ولا ضير عليهم في ذلك ؛ لأن سلاح الشعر لم يكن أقل شأنًا من وقع السيف ورشق الرماح .



الفصل التاسع

مراثى شعراء الرسول
شهداء الغزوات

مراثى شعراء الرسول شهداء الغزوات

شهداء أحد :

كانت تجربة المسلمين في أحد شديدة المرارة حادة المذاق ، ذلك لأنهم قبل عام واحد كان النصر حليفهم على أعداء الله وأعدائهم في بدر ، أما في أحد فقد اختلف الحال ؛ لأنهم لم يلتزموا تخطيط رسول الله ﷺ في المعركة حين أمر رسول الله فيلق الرماة ألا يغادروا مكانهم مهما كانت الأسباب ، ولكنهم حين حمى وطيس المعركة وظهر لهم أن الغلبة للمسلمين تركوا أمكنتهم ليغنموا ما خلفه قتلى المشركين في ميدان القتال ، مما جعل كفة المعركة تتحول لصالح كفار قريش .

ولكن الهزيمة التي لحقت بجيش المسلمين في أحد لا ينبغي أن تحجب مواقف وأحداثا لم تتكرر في غير غزوات رسول الله ﷺ فقد كان أشد المقاتلين المسلمين قوة واستبسالا أبا دجانة سماك بن خرشة ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبي طالب .

أما أبو دجانة فقد حارب بسيف رسول الله ﷺ في خبر أوردته كل كتب السيرة ، فعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ أخذ سيفا يوم أحد فقال : « من يأخذ منى السيف بحقه ؟ » فقام أبو دجانة وقال : وما حقه ؟ قال : « أن تضرب به في العدو حتى ينحني » قال : فأنا أخذه يارسول الله ، فأعطاه إياه ، وكان رجلا شجاعا يخال عند الحرب : وكان إذا قاتل أعلم بعصا به له حمراء فاعتصب بها ، ثم جعل يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر : « إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

وفي رواية أن أبا دجانة لما قال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : « ألا تقتل به مسلما

ولا تفرّبه عن كافر» (١) فقاتل به أبو دجانة حتى أمعن في الناس ، يعنى أمعن في قتل المشركين . وحين اقترب المشركون من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ترّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ، يقع النبل في ظهره وهو منحني على رسول الله حتى كثرت فيه النبل ، وكذلك فعل مصعب بن عمير إذ ظل يقاتل دون رسول الله ﷺ حتى قتل ، قتله ابن قميثة الليثي ، وهو يظنه رسول الله ﷺ فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمدا .

وأما حمزة عم رسول الله ﷺ فإن بلاءه في ساحة القتال واستبساله في لقاء المشركين واجتياحه رقاب الفرسان لما حدا بأعدائه وبخاصة هند بنت عتبة ، زوج أبي سفيان ابن حرب أن تتأمر على اغتياله في ساحة المعركة باستئجار العبد الحبشي المسمى «وحشى» الذي ندم على فعلته بعد إسلامه في فتح مكة ، ووطن نفسه على تكفير ذنبه في قتل حمزة ، فتقدم في حرب الردة وقتل مسيلمة الكذاب .

كان حمزة - فيما يروى سعد بن أبي وقاص - يقاتل يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين ويقول : أنا أسد الله .

ومن بطولات الصحابة يوم أحد - رواية عن أنس - أنه لما انهزم الناس عن رسول الله وقف أبو طلحة يترس على رسول الله بحجفة معه ، وكان رجلا راميا ، شديد التمكن في استعمال قوسه وسهامه ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر بالجعبة فيها النبل فينثرها لأبى طلحة ، وحين كان يشرف رسول الله فينظر إلى الصناديد يتحاربون كان أبو طلحة يقول له : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، لا تشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك .

إن يوم أحد كان - برغم الهزيمة - يوما مشهودا لبطولات صحابة رسول الله من فاز بالحياة منهم أو من فاز بالشهادة ، وهي بطولات فريدة وخارقة ، وحتى نساء المسلمين كن صاحبات مواقف شجاعة في معمة القتال ، يقول أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر (أم المؤمنين) وأم سُلَيْم بنت مِلْحَانَ - وهي أمه ، أي : أم أنس - وهما

(١) مغازي الذهبى ١٣٧ .

مشمرتان أرى خدماً سوقهما - أي : الخلاخيل - تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم (١).

إن مواقف البطولة والإيثار في غزوة أحد لما يعتز به وجه الإسلام ، منها موقف عبد الله بن جحش ، وموقف سعد بن الربيع وهو يجود بنفسه ، وأنس بن النضر عم أنس ابن مالك ، وعمرو بن الجموح ، ووالد أبي سعيد الخدري .

لقد جاد عدد من كبار الصحابة من مهاجرين وأنصار بأرواحهم في أشد المعارك التي خاضها المسلمون شراسة ، وكانوا جميعاً من الصفوة ، فحزن الناس على شهدائهم وبكوههم ، وحزن رسول الله ﷺ على صحابته الشهداء وقال : « زملوهم بدمائهم ، فإنه ليس أحد يُكلم في الله إلا وهو يأتي يوم القيامة وجرحه يدمى ، لونه لون الدم وريحه ريح المسك » .

وكان حزن رسول الله ﷺ أشد ما يكون على حمزة ؛ فهو عمه ، وتربيه في العمر ، وأخوه في الرضاع ، وكان رسول الله ﷺ وحمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد ، إخوة من الرضاعة ، أرضعتهم مولاة لأبي لهب اسمها ثويبة ، فلما وقف الرسول ﷺ على حمزة قال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا » ثم قال : « جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله » (٢).

كان حزن الرسول على حمزة هو حزن محمد الإنسان على عمه وأخيه من الرضاعة وصاحبه والمدافع عنه في أحلك الأوقات أيام كان المشركون يلحقون به الأذى قبل الهجرة ولذلك فإنه ﷺ وقد مر بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظفر ، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم ذرفت عيناه ﷺ فبكى ، ثم قال : « لكن حمزة لا بواكى له » فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بني عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ، فلما سمع رسول الله بكاءهن على حمزة خرج

(١) المغازي للذهبي ص : ١٤٢ .

(٢) السيرة لابن هشام ٩٦ / ٢ .

عليهن وهنّ على باب مسجده يبكين عليه ، فقال : « ارجعن يرحمك الله ، فقد آسيتنّ بأنفسكن » (١).

من هنا كان رثاء الشعراء لقتلى المسلمين بصفة عامة و لحمزة - رضى الله عنه - بصفة خاصة تخفيفا لمشاعر الحزن في قلب رسول الله ، واستجابة للخسارة الكبرى التي حلت بالمسلمين بفقد حمزة صاحب المواقف والشئائل ، الفارس المغوار في سبيل الله ، المدافع عن رسول الله ، الذائد عن حمى الرسالة الخاتمة .

على أن من الأمور الجديرة بالذكر قبل أن نعرض المراثى التي قالها شعراء الرسول في شهداء أحد أن نشير إلى أن الانتصار الموقوت الذي ظفر به الجانب المشرك من قريش قد جعل شعراءهم يتفاخرون بهذا النصر وينشئون القصائد التي يشنون من خلالها حملة على المسلمين ، وقد وقر في خواطرهم أن ذلك يفت في عضد المسلمين ويوهن من عزائمهم ، ولكن شعراء الرسول كانوا لهم بالمرصاد ، فلا يكاد شاعر مشرك ينشئ قصيدة وينشرها حتى ينفر له شاعر مسلم يناقضه بقصيدة أخرى تكذب أقواله وتسفه أحلامه وتهدم أوهامه .

لقد كانت معركة نقائص شعريّة لم تخل من خطورة ، وكان القصيد فيها متين السبك بعيد المرامي عند كل فريق ، ولعل معارك النقائص التي شهدتها عصر بنى أمية واشترك فيها جرير والفرزدق والأخطل والراعى وغيرهم كانت شديد التأثير بنقائص شعراء الرسول وشعراء المشركين من حيث الشكل والإطار أكثر من تأثرها بنقائص الجاهليين .

كان جانب المشركين يمثله من الشعراء عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب الفهري ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومي وعمرو بن العباس ، وكان لواء الدفاع الإسلامى منعقدا على حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وكانت المبادرة تنبع من جانب شعراء المشركين إلا في حالة أو حالتين ، فلا يلبث شعراء الرسول أن ينشطوا للرد عليهم في كفاءة وحسم (٢) .

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٩٩ .

(٢) وردت ناذج كثيرة من هذه النقائص في السيرة لان هشام ٢ / ١٢٩ وما بعدها .

على أن وصف الحرب في أحد قد استولى على قريجة كعب بن مالك ، فقد كان مقتنعا بقدرة المسلمين على امتلاك ناصية النصر برغم قلة عددهم وكثرة عدد جيش المشركين وعددهم ؛ لأن ثمت فرقا كبيرا بين عزم المحارب المؤمن وعزم المحارب المشرك ، ومن الطبيعي أن يعطر الشاعر الصحابي أردان قصيدته بذكر رسول الله ﷺ والإشادة ببعض مناقبه ، وهذا بعض ما قصد إليه كعب بن مالك في قصيدته (١) :

| | |
|--|--|
| سائلٌ قَرِيشَا غَدَاةَ السَّفْحِ من أُحْدِ | ماذا لَقِينَا وما لاقُوا مِن الهَرْبِ (٢) |
| كُنَّا الأَسْوَدَ وكانوا النُّمْرَ إذ زَحَفُوا | ما إنْ تُرَاقِبُ من آلٍ ولا نَسَبِ (٣) |
| فَكَمْ تَرَكَنا بها من سَيِّدٍ بَطَلِ | حامى الذُّمارَ كَرِيمَ الجَدِّ والحَسَبِ (٤) |
| فينا الرِّسُولَ شِهَابٌ ثم يَتَّبِعُه | نُورٌ مُضِيءٌ له فَضْلٌ على الشُّهْبِ |
| الحَقُّ مَنْطِقُه والعدْلُ سِيرَتُه | فَمَنْ يُجِبهُ إليه يَنْجُ من تَبِّ (٥) |
| نَجِدُ المُقَدَّم ، ما ضَى الهَمِّ ، مُعْتَزِم | حين القُلُوبِ على رَجْفٍ من الرُّعْبِ (٦) |
| يَمْضِي وَيَذْمُرنا عن غير مَعْصِيَة | كأنه البدرُ لم يُطِيع على الكَذِبِ (٧) |
| بَدَا لَنَا فَاتَّبَعناهُ نُصَدِّقُه | وكذَّبوه فكنا أسعدَ العَرَبِ |
| جالُوا وجُلنا فما فاءوا وما رَجَعوا | ونحن نَتَّقِفُهُم لم نَأَلُ في الطَّلَبِ (٨) |
| ليسا سِواءَ وَشَتَى بين أمرِهما | حزْبُ الإلهِ وأهلِ الشُّركِ والنُّصَبِ (٩) |

(١) السيرة ٢ / ١٦١ .

(٢) السفح : جانب الجبل مما يلي أصله .

(٣) النمر : جمع نمر ، وهو معروف .

(٤) حامى الذمار : أى يحمى ما تحب حمايته .

(٥) التيب : الخسران .

(٦) الرجف : التحرك . والرعب : الفزع .

(٧) لم يطيع : لم يخلق .

(٨) جالوا : تحركوا . وفاءوا : رجعوا . وتتقفهم : تتبعهم . ولم نأل : لم نقصر .

(٩) النصب : حجارة كانوا يذبحون لها ويعظمونها .

ومن الأحداث الجديرة بالذكر والانتباه أن نصر المشركين على المسلمين لا يصح أن يسمى نصرا ؛ لأن خسائرتهم في قاداتهم وحملة لوائهم كانت من الجسامة بمكان ، ذلك أن لواءهم كان معقودا على بنى عبد الدار ، وقد كان ذلك أيضا في بدر حيث زلزلوا زلزالا ، ولذلك فإن أبا سفيان بن حرب قائد جيش المشركين في أحد كان قليل الثقة في حملة لواء جيشه ، وكان على رغم كثافة جيشه يخشى الهزيمة ؛ لأنه قد استقر في أعماقه أن بنى عبد الدار ليسوا أكفاء لحمل اللواء ، ومن ثم أراد أن يستثير نخوتهم ويحرضهم على القتال قبل التحام الجيشين ، فقال لهم : يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخللوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه وهددوه ، وقالوا في غضب واستعلاء : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟

ولكن حملة اللواء هؤلاء من بنى عبد الدار كانوا يمثلون نقطة الضعف في جيش المشركين ، فقد قتل المسلمون منهم أحد عشر رجلا كان كل واحد منهم يحمل اللواء بعد مصرع زميله طبقا لرواية ابن هشام ، وإن حسان قد حسبهم تسعة .

كان مصرع حملة اللواء على يد جنود المسلمين وقاداتهم نقطة ضعف واستهزاء لجيش قريش ، حتى إن أكثر من شاعر من شعراء الرسول جعل حملة اللواء مادة للسخرية بالمشركين والنيل منهم والفخر عليهم والاستهزاء بهم ، لقد فعل ذلك حسان وفعله أيضا كعب بن مالك .

فأما أسماء أصحاب اللواء من بنى عبد الدار الذين لقوا مصارعهم في ميدان أحد فمنهم : طلحة بن أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، قتله على ابن أبي طالب ، وأبو سعيد بن أبي طلحة ، قتله سعد بن أبي وقاص ، وقيل : بل قتله على بن أبي طالب . وعثمان بن أبي طلحة ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، ومسافع بن طلحة والجلاس بن طلحة ، قتلها عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، وكلاب بن طلحة والحارث بن طلحة ، قتلها قزمان حليف بنى ظفر ، وقيل : إن

الذى قتل كلابا هو عبد الرحمن بن عوف ، وأرطاة بن عبد شريحيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، وأبوزيد بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار (شقيق مصعب بن عمير) قتله قزمان ، والقاسط بن شريح بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله قزمان ، وصؤاب غلام أبى زيد بن عمير، قتله قزمان ، ويقال : قتله على بن أبى طالب ، وقيل : بل سعد بن أبى وقاص (١).

هكذا يكون جيش المشركين قد نكب في أحد عشر صناديدا من قواده ، عشرة منهم كانوا حملة اللواء ، الأمر الذى جعل حسان بن ثابت ينال منهم ويحمل عليهم ويهجوهم ويسخر من رجالهم في قصيدة مشهورة مطلعها :

منع النوم بالعشاء المموم

وخيال إذا تغور النجوم

وهى واحدة من أجود قصائده خطط لها تخطيطا منهجيا هندسيا بارعا ، فقد جعل الأبيات الستة الأولى في النسب على عادة الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، وجعل الأبيات الستة التالية في الفخر بخاله مسلمة بن مخلد بن الصامت والاعتزاز بنفسه وبأبيه ثابت بن المنذر في مواقف نبيلة أشاد بها ، ثم خصص أبياتا خمسة لهجاء ابن الزبيرى شاعر المشركين ، وبقية القصيدة تضم أبياتا نفيسة المحتوى كريمة الصوغ بالغة التأثير في النيل من حملة اللواء الذين لقوا مصرعهم ، ومن قريش التى كان أكثر جيش أحد يتكون منهم .

يقول حسان يذكر أصحاب اللواء يوم أحد : (٢)

مَنَعَ النَّوْمَ بِالْعِشَاءِ الْمُمُومُ وَخِيَالٌ إِذَا تَغَوَّرَ النَّجُومُ
مِنْ حَبِيبٍ أَضَافَ قَلْبَكَ مِنْهُ سَقَمَ فَهُوَ دَاخِلٌ مَكْتُومُ (٣)

(١) ابن هشام ٢/ ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) دايون حسان ص : ٢٢٦ ، ٢٢٧ وسيرة ابن هشام ٢/ ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) أضاف : نزل وزار .

- يا لِقَوْمِي هَلْ يَقتُلُ المرءَ مثلى وإهِنُّ البَطْشُ والعِظامُ سؤوم (١)
- لو يَدِبُ الحَوَلَى من ولد الذر عليها لأندبتُها الكَلُوم (٢)
- شأئها العِطْرُ والفِراشُ وَيَعْلُو ها جُلِينٌ لَوْلُو مَنْظُوم (٣)
- لَمْ تَقْتُها شَمْسُ النَّهارِ بِشئِءٍ غيرَ أنَّ الشَّبَابَ لَيْسَ يَكْدُوم
- إن خالى حَطيْبُ جايبة الجَوِّ لأن عند النُّعمانِ حينَ يَقُوم (٤)
- وأنا الصَّقْرُ عند بابِ ابنِ سَلْمَى يوم نُعمانِ في الكُبُولِ سَقِيم
- وأبىُّ وواقِدُ أَطْلِقالى يَومَ راحا وكَبَلهم مَخْطُوم (٥)
- ورهنْتُ اليَدَيْنِ عنهم جميعا كلُّ كَفِّ جُزءٍ لها مَقْسُوم
- وَسَطْتُ نِسبتي الذَّوائِبَ منهم كلُّ دارٍ فيها أبٌ لى عَظيم (٦)
- وأبى في سُميحة القائلِ الفِنا صلِ يوم التَّقَتِّ عليه الخُصوم (٧)
- تلك أفعالنا ، وفِعلُ الزَّبَعْرِى خاملٌ في صَدِيقه مَدْموم
- رَبِّ حِلْمٍ أَضاعَه عَدَمُ الما لِ وَجْهَلِ غَطَى عليه النِّعِم (٨)
- لا تُسَبِّئَنى فَكَسَنْتَ بِسَبِّى إنَّ سَبِّى من الرِّجالِ الكَرِيم (٩)
- ما أبالى أنبَّ بالحَزَنِ تَيْسُ أم لِحانى بظَهْرِ عَيْبٍ لَيْم (١٠)

(١) الواهن : الضعيف ، والسئوم : الملول .

(٢) الحولى : الصغير ، وأندبتُها : أثرت فيها ، من الندب ، وهو أثر الجرح . والكلموم : الجراحات .

(٣) اللجين : الفضة .

(٤) خالى : يريد به مسلمة بن مخلد بن الصامت . والجايبة : الحوض الصغير . والجولان : موضع بالشام .

(٥) مخطوم : مكسور .

(٦) وسطت : توسطت ، والذوائب : الأعالى .

(٧) سميحة : بئر بالمدينة ، كان عندها احتكام الأوس والخزرج في حروبهم إلى ثابت بن المنذر والد حسان بن ثابت .

(٨) ويروى . غطا « بتخفيف الطاء » أى : علا وارتفع .

(٩) السب : هو الذى يقاوم الرجل في السب ، ويكون شرفه مثل شرفه .

(١٠) نب : صاح . ولحانى : ذكرنى عائيا .

| | |
|---|--|
| أسرةٌ من بنى قُصَيِّ صميم (١) | وَلِيَّ الْبَأْسِ مِنْكُمْ إِذْ رَحَلْتُمْ |
| في رِغَاعٍ مِنَ الْقَنَا مَخْزُومٍ (٢) | تَسْعَةً تَحْمِلُ اللَّوَاءَ وَطَارَتْ |
| في مَقَامٍ وَكُلُّهُمْ مَكْدُومٌ | وَأَقَامُوا حَتَّى أُبْيَحُوا جَمِيعًا |
| أَنْ يُقِيمُوا إِنْ الْكَرِيمِ كَرِيمٍ (٣) | بَدَمٍ عَانِكٍ وَكَانَ حِفَاطًا |
| وَالْقَنَا فِي نُحُورِهِمْ مَخْطُومٌ (٤) | وَأَقَامُوا حَتَّى أُزِيرُوا شَعُوبًا |
| أَنْ يُقِيمُوا وَخَفَّ مِنْهَا الْحُلُومُ (٥) | وَقَرِيشٍ تَفَرَّ مِنَّا لَوَاذًا |
| إِنَّمَا يَحْمِلُ اللَّوَاءَ النَّجُومُ (٦) | لَمْ تُطِقْ حَمَلَهُ الْعَوَاتِقُ مِنْهُمْ |

كان حسان شديد الاعتزاز بهذه القصيدة ، فقد كتبها ليلا ، أى : ليلة المعركة ، فدعا قومه فقال لهم : خشيت أن يدركنى أجلى قبل أن أصبح ، فلا ترووها عنى .

على أن حمزة بن عبد المطلب قد استأثر بأكثر المراثى نظرا لمكانته عند رسول الله ولوقعه في صفوف فرسان الصحابة ، وبلائه العظيم في معارك الإسلام ، ولشدة حزن رسول الله ﷺ على موته ، ولأنه قد مثل بجثته ، وأخرجت كبده ، ولاكتها بأسنانها هند بنت عتبة على النحو الذى صورته الأخبار .

كانت مراثى كعب بن مالك وبكائياته في حمزة من أجود مراثى به الصحابى العظيم وعلى نهج الجاهليين من الشعراء يستهل كعب قصيدته بشيء من الشكوى والنسيب ثم يدلف إلى الغرض الذى أنشأ قصيدته من أجله وهو الرثاء ، فيذكر محاسن الفقيه ومناقبه قائلا : (*)

(١) الصميم : الخالص النسب .

(٢) الرغاع : الضعفاء .

(٣) العانك : الأحمر .

(٤) شعوب : اسم للمنية .

(٥) لواذا : مستترين . والحلوم : العقول .

(٦) العواتق : جمع عاتق ، وهو ما بين الكتف والعنق . والنجوم : المشاهير من الناس .

(*) السيرة ٢/ ١٥٧ .

طَرَقْتُ هُمُومَكَ فَالرِقَادَ مَسَّهَدُ وَجَزَعْتَ أَنْ سُلْخَ الشَّبَابِ الْأَعْيُدُ (١)
 وَدَعَتْ فِؤَادَكَ لِلْهُوَى ضَمْرِيَّةً فَهَوَاكَ غَوْرِيٌّ وَصَحْوُكَ مُنْجِدُ (٢)
 فَدَعِ التَّمَادِيَّ فِي الْغَوَايَةِ سَادِرَا قَدْ كُنْتَ فِي طَلَبِ الْغَوَايَةِ تُفْنِدُ (٣)
 وَلَقَدْ أَنَى لَكَ أَنْ تَنَاهَى طَائِعَا أَوْ تَسْتَفِيقَ إِذَا تَهَاكَ الْمُرْشِدُ (٤)
 وَلَقَدْ هُدِدْتُ لَفَقْدِ حَمْرَةَ هَدَّةً ظَلَّتْ بِنَاتُ الْجَوْفِ مِنْهَا تَرَعَدُ (٥)
 وَلَوْ أَنَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءَ بِمِثْلِهِ لِرَأَيْتُ رَاسِيَّ صَخْرَهَا يَتَبَدَّدُ (٦)
 قَرَمٌ تَمَكَّنَ فِي ذُوَابَةِ هَاشِمٍ حَيْثُ النَّبُوءَةُ وَالنَّدَى وَالسُّوَدُ (٧)
 وَالْعَاقِرُ الْكُومُ الْجِلَادُ إِذَا غَدَتْ رِيحٌ يَكَادُ الْمَاءُ مِنْهَا يَجْمَدُ (٨)
 وَالتَّارِكُ الْقِرْنُ الْكَيْمِيُّ مُجَدَّلَا يَوْمَ الْكَرِيمَةِ وَالْقَنَا يَتَقَصَّدُ (٩)
 وَتَرَاهُ يَزْفُلُ فِي الْحَكِيدِ كَأَنَّهُ ذُو لِبْدَةٍ شَثْنُ الْبِرَائِنِ أَرْبَدُ (١٠)
 عَمُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ وَصَفِيُّهُ وَرَدَ الْحِمَامَ فَطَابَ ذَاكَ الْمَوْرِدُ
 وَأَتَى الْمَيْتَةَ مُعْلِمًا فِي أُسْرَةٍ نَصَرُوا النَّبِيَّ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشْهَدُ (١١)

- (١) مسهد : قليل النوم . وأراد : فالرقاد رقاد مسهد ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وسلخ : أزيل (بالبناء للمجهول فيها) . والأعيد : الناعم .
- (٢) ضمرية : نسبة إلى ضمرة ، وهي قبيلة . وغوري : نسبة إلى الغور ، وهو المنخفض من الأرض ، وفي ر : «وصحبك» بدل «وصحوك» .
- (٣) تفند : تلام وتكذب .
- (٤) أنى : حان .
- (٥) بنات الجوف : يعنى قلبه وما اتصل به من كبده وأمعائه ، وسأها بنات الجوف ؛ لأن الجوف يشتمل عليها .
- (٦) حراء : جبل ، وأنه هنا حملا على البقعة . والراسى : الثابت .
- (٧) القرم : السيد الشريف . وذوابة هاشم : أعاليها .
- (٨) الكوم : جمع كوما ، وهي العظيمة السنام من الإبل . والجلاد : القوية .
- (٩) الكمي : الشجاع . ومجدلا : مطروحا على الجدالة ، وهي الأرض . ويتقصد : ينكسر .
- (١٠) ذولبدة : يعنى أسدا . واللبدية : الشعر الذى على كتفى الأسد . وشثن : غليظ . والبرائن للسباع بمنزلة الأصابع للناس . والأربد : الأغبر يخالطه سواد .
- (١١) معلما : مشهرا نفسه بعلامة يعرف بها فى الحرب . والأسرة : الرهط .

ولقد إخالُ بذاك هنداً بُشرت
مما صبحنا بالعقنقل قَوْمَهَا
ويبئُرِ بذرٍ إذ يردُّ وُجوهَهُمْ
حتى رأيتُ لدى النبي سَراهم
فأقامَ بالعطن المعطنَ منهمُ
وابنُ المغيرة قد صَربنا صَربة
وأُميَّةَ الجمحى قَوْمَ مَيْلِهِ
فأتاكَ فلُّ المُشركين كأنهم
شَتانٌ من هو في جَهَنَّمِ ثاويًا

لتميت داخلَ غصَّةٍ لا تبردُ (١)
يوما تغيَّبَ فيه عنها الأسدُ (٢)
جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ
قسَمينِ : يقتل من نساءٍ ويطردُ (٣)
سبعون : غنبةٌ منهمُ والأسودُ (٤)
فوق الوريد لها رشاشٌ مزيدُ (٥)
عَضْبُ بأيدي المؤمنين مُهند
والخيلُ تثنفَنهم نعامٌ سُردُ (٦)
أبداً ومن هو في الجنان مُخلَّد

وبالرغم مما قاله كعب بن مالك من شعر كثير في بكاء حمزة ، فإن ذلك لم يشبع عاطفته الدافقة في حزنها الجارف على مصرع البطل الكبير ، وإنما يستنشد الآخرين من رجال ونساء ويستبكيهم ، لقد فعل ذلك مع صفية بنت عبد المطلب أخت حمزة لأمه وأبيه ، وهذه الصيغة الاستبكاكية لم تخرج عن كونها مرثية حزينة في أسلوب لم ينتهجه غيره فقال :

صَفِيَّةٌ قُومِي وَلَا تَعْجِزِي وَبَكَى النِّسَاءَ عَلَى حَمْرَةَ
وَلَا تَسَامِي أَنْ تُطِيلِ البُكَاءَ عَلَى أَسَدِ اللَّهِ فِي الهِرَّةِ (٧)

(١) إخال : أظن (وكسر الهمزة لغة تميم) . والغصّة : ما يعترض في الحلق فيشرق .

(٢) العقنقل : الكتيب من الرمل .

(٣) سراتهم : خيارهم .

(٤) العطن : مبرك الإبل حول الماء . والمعطن : الذي قد عود أن يتخذ عطنا .

(٥) الوريد : عرق في صفحة العنق . والرشاش المزبد : الدم تعلقه رغبة .

(٦) الفل : القوم المنهزمون . وتثنفَنهم : تطردهم وتتبع آثارهم .

(٧) الهرة : الاهتزاز والاختلاط في الحرب .

فَقَدَ كَانَ عِزًّا لِإِيْتَامِنَا وَلَيْثُ الْمَلَّاحِمِ فِي الْبِزَّةِ (١)
يُرِيدُ بِذَلِكَ رِضًا أَحْمَدِ وَرِضْوَانَ ذِي الْعَرْشِ وَالْعَمِيرَةِ

ويعمد عبد الله بن رواحة إلى نهج مغاير لنهج صاحبه ؛ لأن مرثيته في مستهلها قد غلب عليها البكاء ، وكساها الحزن ، واكتنفها الأسى ، مع صيغ من الترحم المشمول بروح التسليم والإيمان ، ثم مالبت الشاعر أن ذكر مافعله أبطال المسلمين بصناديد المشركين يوم بدر من قتل ومطاردة معددا أسماء بعضهم ، مذكرا بمصارعهم قائلًا: (٢).

| | |
|--|---|
| بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا بُكَاهَا | وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءَ وَلَا الْعَوِيلُ |
| عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا | أَحْمَرَةٌ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ ؟ |
| أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا | هُنَاكَ وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ |
| أَبَا يَعْلِي لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ | وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبِرِّ الْوَصُولُ (٣) |
| عَلَيْكَ سَلَامٌ رَبُّكَ فِي جَنَانِ | مُخَالِطَهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ |
| أَلَا يَا هَاشِمَ الْأَخْيَارِ صَبْرًا | فَكُلُّ فَعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ |
| رَسُولُ اللَّهِ مُضْطَرِّبٌ كَرِيمٌ | بِأَمْرِ اللَّهِ يَنْطِقُ إِذْ يَقُولُ |
| أَلَا مَنْ مَبْلُغٌ عَنِي لَوِيًّا | فَبَعْدَ الْيَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ (٤) |
| وَقَبْلَ الْيَوْمِ مَاعَرَفُوا وَذَاقُوا | وَقَاتِعِنَا بِهَا يُشْفَى الْغَلِيلُ (٥) |
| نَسَيْتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلْبِيبِ بَدْرِ | غَدَاةَ أَتَاكُمْ الْمَوْتُ الْعَجِيلُ |

(١) الملاحم : جمع ملحمة ، وهي الحرب التي يكثر القتل فيها . البزة : السلاح .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٦١ ، ١٦٢ .

(٣) - أبو يعلى : كنية حمزة رضى الله عنه . والماجد : الشريف .

(٤) الدائلة : الحرب .

(٥) الغليل : حرارة العطش والحزن .

| | |
|---------------------------------------|---|
| غداة نوى أبو جهل صريعا | عليه الطيرُ حائمةٌ تجولُ |
| وَعُتْبَةُ وَإِبْنُهُ خِرًّا جَمِيعاً | وَشَيْبَةُ عَضَّةُ السِّيفِ الثَّقِيلِ |
| وَمَتْرَكَنَا أُمِيَّةٌ مُجْلَعِبًا | وَفِي حَيْزُومِهِ لَكُنْ نَبِيلُ ^(١) |
| وهام بنى ربيعة سائلوها | ففى أسيافنا منها فلولُ |
| ألا ياهنُدُ فابكى لا تملئى | فأنت الوالدة العبرى الهبُولُ ^(٢) |
| ألا ياهنُدُ لا تُبْدِي شِياتاً | بحمزة إن عزكم ذليلُ |

وهند التى عنها الشاعر هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب التى لاكت كبد حمزة بعد أن استأجرت من رماه بحربة من بعد فأصابته فى مقتل ، وكان أبوها عتبة ابن ربيعة قد لقى مصرعه فى غزوة بدر ، وكان من صناديد قريش وساداتها وصاحب جود وحكمة فى الجاهلية ، ومن لقى مصرعه فى بدر أيضا عمها شيبه بن ربيعة وأخوها الوليد بن عتبة .

تلك نماذج قليلة من فيض الشعر المتدفق الذى قيل فى أحد ، وفى رثاء شهداء المسلمين فى ساحة المعركة .

رثاء شهداء مؤتة :

لم يشد حزن رسول الله على شهداء الغزوات إلا فى غزوتين ، الأولى كانت فى أحد ، والثانية كانت مؤتة ، وبين الغزوتين زمن ليس بالقصير، فقد كانت أحد فى السنة الثالثة للهجرة ، وكانت مؤتة فى السنة الثامنة .

وفى أحد قتل حمزة ومصعب بن عمير ، وهما ألمع شخصيتين إسلاميتين بين قتلى أحد ، وإن كان آخرون قد لقوا مصرعهم مثل شماس بن عثمان ، وعمارة بن زياد بن السكن ، وأوس بن ثابت أخو حسان بن ثابت .

(١) مُجْلَعِبًا : ممتدا على الأرض ، والحيزوم : أسفل الصدر .

(٢) الوالدة : الفاقدة ، العبرى : الكثيرة الدموع . الهبول : الفاقدة .

وأما في مؤتة فثمت ثلاثة من الصحابة المقربين إلى رسول الله ﷺ وقد أمر ثلاثتهم بنفسه على جيش الغزاة ، لقد جعل اللواء لزيد بن حارثة ، فإن أصيب انتقل إلى جعفر ابن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة .

لقد أبلى الجيش بلاء حسنا مع أن عدده لم يكن يتجاوز ثلاثة آلاف محارب يواجههم مائتا ألف مقاتل في جيش الروم ، واستشهد الأمراء الثلاثة بعد استبسالهم في القتال استبسالا غير مسبوق في مثل حالتهم .

إن المرات التي بكى فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أموات قليلة العدد، منها بكاؤه على شهداء مؤتة ؛ لأن لكل واحد منهم مكانة خاصة في قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - .

فأما زيد بن حارثة فهو حامل اللواء الأول ، وهو حب رسول الله ، وكان الرسول قد تبناه في أول الدعوة فكان يقال له زيد بن محمد ، ثم زالت تلك البنوة بتحريم الإسلام لها . وزيد هو أول من أسلم من الموالى . يقول الزهري : ما علمنا أحدا أسلم قبله (١) .

ولمكانة زيد عند رسول الله ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - آخى بينه وبين عمه حمزة أسد الله .

يقول أسامة بن زيد : قال رسول الله ﷺ لأبي : « يا زيد أنت مولاي ومنى وإلي وأحب القوم إلي » (٢) .

وروى حماد بن زيد عن خالد بن سلمة المخزومي قال : أصيب زيد - يعنى في مؤتة - فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - منزله ، فجهشت بنت زيد في وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبكى حتى انتحب ، فقال سعد بن عباد : يا رسول الله ، ما هذا ؟ فقال : « شوق الحبيب إلى حبيبه » (٣) .

(١) مغازى الذهبى ، ص : ٤١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٤١٤ .

هذا ما كان من أمر مكانة زيد عند رسول الله ، وأما جعفر بن أبي طالب فهو ابن عم رسول الله وشقيق عليّ وأخو حمزة ، هذا يستشهد في أحد وذاك يستشهد في مؤتة ، وكان جعفر من السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين ، فكان الرسول ﷺ يقول له « أشبهت خَلْقِي وَخُلُقِي » (١) ولذلك كان أبو هريرة يقول : إنه أفضل الناس بعد النبي ﷺ وعن عكرمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطىء التراب بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب (٢).

وفي استشهاد جعفر يقول أحد بنى مرة بن عرف : والله لكأنى أنظر إلى جعفر بن أبي طالب يوم مؤتة اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، وقال ابن إسحاق : هو أول من عقر في الإسلام (٣) ، وإكمالاً لأحداث استشهاد جعفر يقول ابن هشام : حدثني من أثق به أن جعفرأ أخذ اللواء يمينه - بعد استشهاد زيد - فقطعت ، فأخذه بشاله فقطعت ، فاحتضنه بعضه حتى قتل ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء ، يقول عبد الله بن عمر : كنت معهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفرأ فوجدنا فيما أقبل من جسمه بضعا وتسعين بين طعنة ورمية .

هذا ، وكان رسول الله ﷺ يحمل لجعفر حبا عظيما ينم عنه هذا الخبر . قال عبد الله ابن جعفر : أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمي فنعى لها أبي ، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسى ورأس أخى وعيناه تهرقان الدموع ثم قال : « اللهم إن جعفرأ قد قدم إلى أحسن ثواب ، فأخلفه في ذريته بأحسن ما خَلَفْت أحداً من عبادك في ذريته » ثم قال : « يا أسساء ، ألا أبشرك ؟ » قالت : بلى ؛ بأبي أنت وأمي ، قال : « إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة » (٤).

وأما عبد الله بن رواحة فقد أتينا بشيء من أخباره في فصل « شعر الغزوات » وهو يستعد للمقتال في غزوة مؤتة ، وإذا كان كل من زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب من

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث البراء .

(٢) الإصابة جزء أول الترجمة رقم ١١٦٦ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المغازى للواقدي ٢/٧٦٦ ، ٧٦٧ .

المهاجرين فإن عبد الله بن رواحة خزرجي من الأنصار ، وهو أحد النقباء الاثنى عشر في بيعة العقبة ، وشاعر رسول الله ، وقد جمع الإسهام في الدعوة والمنافحة عنها إلى خوض غمار الحرب بسيفه في كثير من الغزوات ، وعلى وجه الخصوص بدر وأحد والخندق والحديبية ، كما أنه صحب رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، وبلغ من ثقة رسول الله فيه أن استخلفه على المدينة في إحدى غزواته ، ولعله في ذلك الشاعر الوحيد بين شعراء رسول الله الذي جمع في الجهاد بين سلاحين : سلاح السيف ، وسلاح الشعر ، أو بلغة عصرنا : كان أمير السيف والقلم ، والأمر الجدير بالذكر هنا أنه كان يكتب في الجاهلية ، وهو أخو أبي الدرداء لأمه ، وخال الصحابييين الفارسيين : النعمان ابن بشير ، وزيد بن أرقم (١) .

وكان عبد الله بن رواحة يجمع بين الشعر والخطابة ، فحين نزل جيش المسلمين بأرض الشام وعلموا أنهم أمام جيوش يبلغ تعدادها مائتي ألف مقاتل من الروم والمستعربة من لحم وجذام وبلقين وبهراء وبلج ، ترددوا وقالوا : نكتب لرسول الله فنخبره بعدد عدونا ، فقام عبد الله بن رواحة خطيبا وقال : والله يا قوم إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل العدو بعدة ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين ، إما ظهور - يعني نصرأ - وإما شهادة ، فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة (٢) .

وحيث نشبت المعركة واستشهد صاحباها القائدان زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه وجعل يشجع نفسه منشدا :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ
لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرَهَنَّ
إِذْ جَلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّتَّةَ
مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ

(١) مغازي الذهبي ٤١٤ .

(٢) حلية الأولياء .

لَطَّالَمَا قَد كُنْتِ مَطْمَئِنَّةٌ هَلْ أَنْتِ إِلَّا نَظْفَةٌ فِي سِنَّةٍ (*)

ثم عاد يخاطب نفسه مرة أخرى قائلا :

يا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَبْتِ
وما تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنَّ تَفْعَلِي فِعْلَهَا هُدَيْتِ (**)

ثم تقدم وخاض غمار الحرب واستشهد .

هؤلاء هم الأمراء الثلاثة الذين خاضوا الغمار ببسالة فريدة ، فقد قادوا جيشا من بضعة آلاف في مواجهة جيش تعداده مائتا ألف مقاتل ، ومن ثم تكون معركة مؤتة من حيث توصيفها غير مسبوقة في تاريخ الحروب .

وهؤلاء الثلاثة هم الذين بكى عليهم سيد البشر وترقرقت الدموع في عينيه الشريفتين وعم الحزن قلوب المسلمين في المدينة كلها ، وتسابق شاعرا رسول الله - بعد استشهاد ثالثهم - في البكاء عليهم وإنشاد المراثي بعد فقدهم .

إن حسان بن ثابت يذرف الدموع السخنان على شهداء مؤتة الثلاثة الذين تتابعوا في الاستشهاد تتابعهم في حمل اللواء فيرسل هذه البكائية المسربلة بالأسى ، المشوأة بالأحزان ، ولمعرفة حسان بمكانة جعفر عند رسول الله ، خاصة وأنه كان واحدا من أقرب أهل البيت شيها برسول الله خَلَقًا وَخُلُقًا . فإنه يخصه بقدر مستقل من الآيات يذكر فيها شائله ، ويعدد أسماء نجوم آل بيت النبوة : علي وحزمة والعباس وعقيل ، وعلى رأسهم سيد البشرية وخاتم الرسل ﷺ قال حسان : (***)

تَأْوِبُنِي لَيْلٌ بِيَشْرِبُ أَعْسَرُ وَهَمٌّ إِذَا مَا نَوْمُ النَّاسِ مُسْهِرٌ (١)

(*) الرنة : صوت القوس . والشنة : القرية الخلقة .

(**) الضمير في فعلها يعود على صاحبيه : زيد وجعفر .

(***) ديوان حسان ص : ١٠٦ .

(١) تأوبنى : عاودنى ورجع إلى . وأعسر : عسير . ومسهر : مانع من النوم .

لذكري حبيبٍ هيَّجت لى (١) عبّرة
بلى ، إن فقدان (٣) الحبيبِ بليّة
رأيتُ خيارَ المؤمنينَ تَوَارَدُوا
فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قتلى تَتَابَعُوا
وزيّدٌ وعبّد اللهُ حين تَتَابَعُوا
غداةٌ مضوا بالمؤمنين يقودُهُم
أغرُّ كضوءِ البدر من آلِ هاشم
فطاعَنَ حتى مال غيرِ مُوسَد
فصارَ معَ المُستشْهدين ثوابُهُ
وكنّا نرى في جعفر من محمّد
فما زال في الإسلامِ من آلِ هاشم
هُمُ جبلُ الإسلامِ والناسِ حوْهم (١٠)

سَفُوحاً وأسبابُ البكاءِ التَذَكُّرُ (٢)
وكم من كريمٍ يُبْتلى ثم يَصْبِرُ
شُعوبٌ وخالقاً بعدهم يتأخَّرُ (٤)
بمؤتةٍ منهم ذو الجناحين جَعْفَرُ
جميعاً وأسبابُ المنيّةِ تَخْطُرُ (٥)
إلى الموتِ ميمونُ النقيبةِ أزهرُ (٦)
أبى إذا سيمِ الظلّامةِ مجسّرُ (٧)
لمعترك (٨) فيه فنا مُتَكَسِّرُ (٩)
جنانٌ وملتفُ الحدائقِ أخضرُ
وفاءً وأمراً حازماً حين يأمرُ
دعائِمٌ عزلاً يكرّزُ ومفخّرُ
رضامٌ إلى طوْدِ يروق ويقهّرُ (١١)

(١) في ديوان حسان : ثم .

(٢) سفوح : سائلة غزيرة

(٣) في ديوان حسان (بلاء وفقدان) .

(٤) قال أبو ذر : من رواه بضم الشين ، فهو جمع شعب ، وهي القبيلة ؛ وقيل : هو أكثر من القبيلة ؛ ومن رواه بفتح الشين ، فهو اسم للمنية ، من قولك : شعبت الشيء : إذا فرقتة ، ويموز فيه الصرف وتركه . وخلفا : أى من يأتى بعد . ورواية هذا الشطر الأخير في ديوانه :

شعوب وقد خلقت فيمن يؤخر

(٥) تخطر : تختال وتهتز .

(٦) ميمون النقيبة : مسعود الجد ، وأزهر : أبيض .

(٧) أبى : عزيز الجانب . وسيم : كلف وحمل (بالبناء للمجهول فيها) . والمجسر : المقدم الجسور .

(٨) المعترك : موضع الحرب .

(٩) في الديوان . « فيه القنا يتكسر » .

(١٠) في الديوان : « حوله » .

(١١) الرضام : جمع رضم ، وهي الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض . والطود : الجبل .

بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمَّه عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمَتْخِيرُ (١)
 وَحِمْرَةٌ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ عَقِيلٌ وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ
 بِهِمْ تُفْرَجُ اللَّأْوَاءُ فِي كُلِّ مَأْزِقٍ عَمَّاسٍ إِذَا مَا ضَاقَ بِالنَّاسِ مَصْدَرُ (٢)
 هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِيهِمْ ذَا الْكِتَابِ الْمُطَهَّرُ

وعلى نفس النهج من البكاء والحزن والوجد والأسى ينشئ كعب بن مالك بكائيته اللامية مجدا ثباتهم معظما بسالتهم ، فقد جادوا بنفوسهم رخيصة في سبيل الله متتابعين واحدا بعد الآخر ، ولقد تطابقت الخواطر عند كل من حسان وكعب في تخطيط منهج القصيدة حين جعل كل منهما الأبيات الأولى في البكاء على الأبطال الثلاثة ثم كان شيء من التخصيص لتمجيد جعفر ، ثم بعد ذلك تمجيد أبناء بيت النبوة بذكر شأئلهم وتفصيل محامدهم على هذا النهج البليغ : (*)

نَامَ الْعِيُونَ وَدَمَعُ عَيْنِكَ يَهْمَلُ سَحًّا كَمَا وَكَفَ (٣) الطَّبَابُ الْمُخْضَلُ (٤)
 فِي لَيْلَةٍ وَرَدَّتْ عَلَيَّ هُمُومُهَا طُورًا أَحْنُ (٥) وَتَارَةً أَتَمَلَّمُ (٦)
 وَاعْتَادَنِي حُزْنٌ فَبِتَّ كَأَنَّنِي يَبْكُنَاتِ نَعِيشٍ وَالسَّامِكِ ، مُوَكَّلِ (٧)
 وَكَأَنَّمَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَى مِمَّا تَأْوَبَنِي شِهَابٌ مُدْخَلُ (٨)

(١) البهاليل : جمع البهلول : وهو السيد الوضيء الوجه .

(٢) اللأواء : الشدة . والعماس : المظلم . يريد ظلومه من كثرة النقع المثار وقت الحرب .

(*) السيرة ٢ / ٣٨٥ .

(٣) همل الدمع : سال ، وسحا : صبا ، ووكف : قطر .

(٤) الطباب : جمع طبابة ، وهي سير بين خرزتين في المزايدة ، فإذا كان غير محكم وكف منه الماء . وفي رواية الضباب . والمخضل : السائل الندى .

(٥) أحن (بالحاء المهملة) : من الحنين ، وفي رواية : «أحن» (بالحاء المعجمة) . والحنين : صوت يخرج من الأنف عند البكاء .

(٦) أتَمَلَّم : أتقلب متبرما بمضجعي .

(٧) يريد أنه بات يرضى النجوم طول ليله من طول السهاد .

(٨) المدخل : النافذ إلى الداخل .

وَجَدَا عَلَى النَّفْرِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا
 صَلَّى إِلَاهَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فِتْيَةٍ
 صَبَرُوا بِمَوْتَةِ لِلإلهِ نُفُوسَهُمْ
 فَمَضَوْا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ
 إِذِ يَهْتَدُونَ بِجَعْفَرٍ وَلِوَالِيهِ
 حَتَّى تَفْرَجَتِ الصُّفُوفُ وَجَعَفَرٌ
 فَتَغَيَّرَ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ لِفَقْدِهِ
 قَرْمٌ^(٦) عَلَا بُنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ
 قَوْمٌ بِهِمْ عَصَمَ إِلَاهُهُ عِبَادَةٌ
 فَضَلُّوا الْمَعَاشِرَ عِزَّةً وَتَكْرُمًا
 لَا يُطْلِقُونَ إِلَى السَّفَاهِ حُبَاهُمْ
 بِيضُ الْوَجْهِ تُرَى بُطُونُ أَكْفِهِمْ

يَوْمًا بِمَوْتَةِ أُسْنِدُوا لَمْ يُنْقَلُوا
 وَسَقَى عِظَامَهُمُ الْغَمَامُ الْمُسْنِلُ (١)
 حَدَرَ الرَّدَى وَمَخَافَةٌ أَنْ يَنْكَلُوا (٢)
 فُنُقٌ عَلَيْهِنَّ الْحَدِيدُ الْمُرْتَلُ (٣)
 قَدَامٌ أَوْلَاهِهِمْ فِرْعَمُ الْأَوَّلِ
 حَيْثُ النَّقَى وَعَثُ الصُّفُوفُ مَجْدَلٌ (٤)
 وَالشَّمْسُ قَدْ كَسَفَتْ وَكَادَتْ تَأْفَلُ (٥)
 فَرَعَا أَشَمَّ وَسُودَدَا مَا يُنْقَلُ (٧)
 وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ
 وَتَعَمَّدَتْ أَحْلَامُهُمْ مِنْ يَجْهَلِ (٨)
 وَيُورَى حَطِيبُهُمْ بِحَقِّ بَفِصْلِ (٩)
 تَنْدَى إِذَا اعْتَدَرَ الزَّمَانُ الْمُمَحِّلُ (١٠)

(١) المسبل : المطر .

(٢) صبروا نفوسهم : حبسوها على ما يريدون . وينكلوا : يرجعوا هائين لعدوهم .

(٣) الفئق : الفحول من الإبل ، الواحد : فنيق . المرفل : الذي تنجر أطرافه على الأرض ، يريد أن دروعهم سابعة .

(٤) وعث الصفوف : التحامها حتى يصعب الخلاص من بينها ، تشبيهاً بالوعث ، وهو الرمل الذي تغيب فيه الأرجل ويصعب فيه السير . ومجدل : مطروح على الجدالة ، وهى الأرض .

(٥) تأفل : تغيب .

(٦) القرم : السيد .

(٧) فى رواية : ما ينفل - بالفاء - ومعناه : لا يحجر .

(٨) تعمدت من يجهل : سترت جهل الجاهلين .

(٩) إطلاق الحبوة : كناية عن النهضة للنجدة . والحبوة (فى الأصل) : أن يشبك الإنسان أصابع يديه بعضها فى بعض .

ويجعلها على ركبتيه إذا جلس . وقد يجتنب بحائل السيف وغيرها .

(١٠) الممحل : وهو الشديد القحط .

وبهتديهم رضِيَ الإله لخلقه وبجدهم نُصِرَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ (١)

لقد كانت غزوة مؤتة ينبوعا للشعر النبيل قبل التحام الرماح واطراد الصدام واقتحام المكاره ممثلا في شعر عبد الله بن رواحة وهو يعد نفسه لخوضها ، وكانت مرة أخرى معيننا للشعر الحزين ، ومصدرا للألم المبرح في نفس رسول الله ونفوس صحابته حين وضعت الحرب أوزارها ، واستشهد ثلاثة من خيار قواد المسلمين من صحابة رسول الله ، غير أن البلوى كانت أكثر جسامة بفقد جعفر لمكانته من رسول الله وصحابته ، ولأنه كان في مرحلة الشباب من عمره ، وقد خلف أبناء صغارا كزغب القطا لم يكادوا يستوعبون نكبتهم في مصرع أبيهم ، ورسول الله يعزى والدتهم في أبيهم . إن عبد الله بن رواحة لم ينجب فكانت المصيبة بفقدته في نطاق الاحتمال ، وإن زيدا قد خلف ولده أسامة وهو أقرب إلى اليفاع بل أدنى إلى الشباب ، وأما جعفر فكانت المصيبة فيه على النحو الذي ذكر ، ومن ثم احتشدت قرائح الشعر للإمعان في بكائه والإكثار من رثائه .

يقول حسان في مرثية خصصها للبكاء على جعفر ، وقد خصه بعدد من المراثي ، ونحا في نسجها منحى جديدا غير مسبوق في تتابع المعاني على مساحة القصيدة على الرغم من انتهاء البيت بالقافية . (٢):

ولقد بكيْتُ وَعَزَّ مُهَلِّكُ جَعْفَرٍ حِبُّ النَّبِيِّ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
ولقد جَزَعْتُ وَقَلْتُ حِينَ نُعِيَتْ لِي مَنْ لِلْجِلَادِ لَدَى « الْعُقَابِ » وَظَلُّهَا (٣)
بالبَيْضِ حِينَ تُسَلُّ مِنْ أَعْمَادِهَا ضَرْبًا وَإِنْهَالِ الرَّمَاكِ وَعَلَّهَا (٤)
بعد ابن فاطمةَ الْمُبَارِكِ جَعْفَرٍ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا وَأَجَلُّهَا (٥)

(١) وفي رواية : « وبجدهم » بالحاء المهملة . فمن رواه بالحاء المهملة فمعناه بشجاعتهم وإقدامهم ؛ ومن رواه « بجدهم » بالجيم المكسورة ، فهو معلوم .
(٢) ابن هشام ٣٨٦/٢ والديوان ص ١٩٨ .
(٣) العقاب : اسم لراية رسول الله ﷺ .
(٤) الإنهال : الشرب الأول . والعلل : الشرب الثاني أو المتتابع .
(٥) فاطمة : هي أم جعفر وعلى بن أبي طالب ، وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي .

رزءًا وأكرمها جميعًا محتدًا وأعرزها مظلماً وأزلها (١)
 للحق حين ينوب غير تنحل (٢) كذبًا ، وأنداها يدًا (٣) ، وأقلها
 فحشا ، وأكثرها إذا ما يجتدى (٤) فضلا ، وأبدلها ندى ، وأبلها (٥)
 بالعرف غير محمد لا مثله حتى من أحياء البرية كلها

إن مراثى شعراء الرسول ﷺ من الوفرة بمكان ، سواء أكان ذلك في أحد أم في مؤتة أم
 في غيرها من الغزوات والمناسبات الحزينة ، وهى من الشعر المتميز بالوقع الحزين ،
 الموشى باللون الإيماني والسمت الإسلامى الذى ظهر لأول مرة في سماء الشعر العربى ،
 ولم يكن معروفًا قبل فيما سلف من سنين ، ومن ثم كان له الصدى الجديد الذى يكافئ
 جدته ، والوقع العميق الذى يلائم عواطفه الجياشة ومناهله الدافقة .

(١) المحتد : الأصل .

(٢) التنحل : الكذب .

(٣) فى رواية : « وأغمرها ندى » .

(٤) الاجتداء : طلب الجدوى ، وهى العطية .

(٥) وفى رواية : « وأنداها يدا » .



الأنواع البلاغية في كلام الرسول

- الفصل الأول : المعانى .
- الفصل الثانى : البيان .
- الفصل الثالث : البديع .



الفصل الأول

المعاني

- تمهيد
- الإيجاز
- الإطناب
- الإبهام والتفسير
- المساواة

المعاني

(١)

تمهيد :

كان رسول الله ﷺ رأس الفصاحة ، ومجمع البلاغة ، وذروة البيان ، وقد مرّ بنا في الفصول الأولى شرح واف لهذه القضية بحيث صارت من المسلّمات ، إنه ﷺ القائل : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » . وهو القائل أيضا : « أنا أفصح من نطق الضاد » (١) .

وقال ﷺ : « أوتيت خمسا لم يُعْطَهُنَّ قبلي أحد : كان كل نبي يُبْعَثُ إلى قومه ، وُبُعِثْتُ إلى كل أحر وأسود ، وأُحِلَّتْ لي الغنائم ، وَجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً وَنُصِرْتُ بالرعب بين يديّ مسيرة شهر ، وأوتيت جوامع الكلم » (١) .

وأيا ما كانت مدلولات مصطلحات الفصاحة والبلاغة والبيان فهي جميعا تنبع من فيض بيانه ، وتصبّ في ساحة سنته الفينانة المباركة .

لقد قرر الأقدمون أن الفصاحة راجعة إلى الألفاظ ، والبلاغة راجعة إلى المعاني ، فإذا صح ذلك فإنه منطبق على كلام رسول الله ﷺ وإذا قيل - طبقا لمذاهب بعض البلاغيين - : كل كلام فصيح فهو بليغ ، وكل بليغ من الكلام فهو فصيح ، انصرف ذلك أيضا إلى كلام رسول الله ﷺ ومن البداهة بمكان أنه ينطبق قبل ذلك على كلام الله - سبحانه وتعالى - وينصرف إليه .

كان الرسول ﷺ يخاطب العرب بلغاتهم على اختلاف قبائلهم ، لقد وقف بين

(١) الطراز : لأمر المؤمنين الإمام يحيى بن حمزة / ١ / ٣٣ .

يديه ﷺ طهغه بن أبى زهير النهدى يتكلم بكلام فيه كثير من الألفاظ الغريبة ، فلما أجابه الرسول باللغة نفسها وبعده من الألفاظ الغريبة على أسماع القرشيين ، قال له علىّ - رضى الله عنه - : يارسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال ﷺ : « أدبنى ربي فأحسن تأديبي » .

ولأبى بكر - رضى الله عنه - نفس الملاحظة حول موضوع مماثل مضى ذكره في فصل سابق ، مما يؤكد انفراد الرسول ﷺ دون بقية العرب بمعرفة لغة القبائل جميعها فهماً وكلاماً .

رؤى أنه ﷺ قال لأبى تميمه الهجيمي : « إياك والمخيلة » فقال : يارسول الله ، نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال ﷺ : « سبُّ الإزار » .

والمعنى المراد هنا هو الكبر أو نحوه (١) ، وكان الرافعى - رحمه الله - يقول عن فصاحة الرسول : لا نعرف في الناس من يتهياً له الأسلوب الجامع المانع على توثق السرد وكمال الملاءمة كما نراه في الكلام النبوى .

لقد كان أسلوبه - صلى الله عليه وسلم - السهل الممتنع حقاً وكمالاً واكتمالاً ، مثال ذلك ما قاله عن ماء البحر ، وقد سأله رجل قائلاً : يارسول الله إنا نركب أرماتاً في البحر ، فتحضر الصلاة وليس معنا ماء لشفاها ، أنتوضأ بماء البحر ؟ قال : « هو الطهور ماؤه الحِلُّ ميتته » .

ومن روائع فنون البيان التي كانت تجزى على لسانه ﷺ إجاباته عن أسئلة صحابته ، وما أكثر ما سأل الصحابة رسول الله في مختلف القضايا التي كانت تشغلهم في أمور دينهم وديناهم .

قيل : يارسول الله : أمتك ستفتتن من بعدك . فستل ما المخرج من ذلك ؟ فقال : « بكتاب الله العزيز الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من عزيز حميد ، من ابتغى العلم في غيره أضلّه الله ، ومن ولى هذا من جبار فحكم بغيره قصمه

(١) عن إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى ، ص ٣٤٩ .

الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراف المستقيم ، فيه خبر مَنْ قَبْلَكُمْ ، وتبيان مَنْ بَعْدَكُمْ ، وهو فصل ، ليس بالهزل ، وهو الذى لما سمعته الجن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ لا يَخْلُقُ عَلَى طَوْلِ الرَّدِّ ، ولا تنقضى عِزُّهُ ، ولا تَفْنَى عَجَائِبُهُ ﴿ (١) .

إن علماء البلاغة - والأمر كذلك - لما عزموا على منهجة فنهم ، وأقبلوا على تخطيط موضوعاتهم فقسموها إلى علوم ثلاثة ، هى : المعانى ، والبيان ، والبديع ، ثم قسموا كل علم من هذه العلوم الثلاثة إلى موضوعات حدودها ، وعناوين ابتكروها ، كان زادهم الذى استقوا منه مادتهم القرآن الكريم والحديث الشريف ، فكل من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ متضمن هذه الموضوعات ، محتو لهذه الفنون بما حفلا به من أمثلة لا تحصى ونماذج لا تُستقصى ، ومن ثم فسوف يكون عرضنا لما صارت أنواعا بلاغية من كلام رسول الله ﷺ متسقا مع النهج الذى انتهجه البلاغيون القدماء ، منسجا مع الأسماء التى سموها ، والعناوين التى اصطَلَحُوا على تحديدها ، واتخذها الدارسون بعد ذلك منهجا وطريقا .

وحتى يكون القارىء على بينة من العلوم الثلاثة - البيان والمعانى والبديع ، وفهم لارتباط بعضها ببعض ، واشتباك الواحد منها بالآخر ، وتداخلها جميعاً بعضها ببعض وانتسابها إلى أصل واحد هو علم البلاغة والفصاحة - فإننا نعرض فى هذا الشأن توصيف الإمام البلاغى أمير المؤمنين يحيى بن حمزة لهذه العلوم ، وارتباط بعضها ببعض الآخر . يقول الإمام يحيى بن حمزة (٢) :

اعلم أن هذه الأنواع الثلاثة - أعنى المعانى وعلم البيان وعلم البديع - مآخذها مختلفة ، وكل واحد منها على حظ من علم البلاغة والفصاحة ، ولنضرب لها مثلاً يكون دالاً عليها ، ومبيناً لموقع كل واحد منها ، وهو أن تكون حَبَّاتٍ من ذهبٍ ودُرَرٍ ولآلِيءٍ ويواقيت ، وغير ذلك من أنواع الأحجار النفيسة ، ثم إنها أَلْفَتْ تَأْلِيفاً بديعاً ،

(١) القاضى ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) ٢ / ٣١٣ .

(٢) الطراز ٣ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

بأن حُطِّطَ بعضها ببعض ، ورُكِّبَتْ تركيباً أنيقاً ، ثم بعد ذلك التأليف ، تارة تجعلُ تاجاً على الرأس ، ومرة طَوْقاً في العنق : ومرة بمنزلة القُرْطِ في الأذن ، فالألفاظ الرائقة بمنزلة الدرر واللالى ، وهو علم المعانى ، وتأليفها وضُمُّ بعضها إلى بعض ، هو علم البيان ؛ ثم وَضَعُها في المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها ، هو علم البديع ، فوضِعُ التاج على الرأس بعد إحكام تأليفه هو وَضَعُ له في موضعه ، ولو وُضِعَ في اليد أو الرجل ، لم يكن موضعاً له ، وهكذا الكلام بعد إحكام تأليفه يُقصد به مواضعه اللائقة به ، وما ذكرناه من المثال هو أقرب ما يكون في هذه العلوم الثلاثة وتمييز مواقعها .

لقد اصططح البلاغيون على أن « المعانى » أحد علوم البلاغة الثلاثة التى هى المعانى والبيان والبديع ، وقالوا : إنها قواعد يعرف بها أحوال اللفظ العربى التى يطابق بها مقتضى الحال ، وإن المراد بأحوال اللفظ ، الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والإثبات والحذف وغير ذلك (١) .

ولقد حصر البلاغيون مسائل « علم المعانى » في ثمانية موضوعات هى :

١ - أحوال الإسناد الخبرى .

٢ - أحوال المسند إليه .

٣ - أحوال المسند .

٤ - أحوال متعلقات الفعل .

٥ - القصر .

٦ - الإنشاء .

٧ - الفصل والوصل .

٨ - الإيجاز .

٩ - الإطناب .

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة « المعانى » ص : ٤٥٣ .

وعرّف السكاكى فى كتابه « مفتاح العلوم » علم المعانى بأنه تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره .

ثم استطرّد قائلاً : وأعنى بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز ومعرفة ، وهى تراكيب البلغاء وليس التراكيب الصادرة عن سواهم .
وقد زاد بعض البلاغيين إلى هذه الموضوعات : الإبهام والتفسير ، والخبر والإنشاء ، والفصل والوصل .

ولما كان موضوع كتابنا هو البيان المحمدى فإن المنهج الذى اتبعناه لا يكاد يعنيه من هذه التقاسيم إلا ما كان متصلاً بالحديث الشريف ، ومن ثم سوف تكون عنايتنا - تطبيقاً - منصرفة إلى الإيجاز والإطناب ، والإبهام والتفسير ، والمساواة .

(١)

الإيجاز:

عرّف بعض القدماء - مثل الرماني - الإيجاز بأنه تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، والإيجاز على وجهين : حذف وقصر ، فالحذف إسقاط كلمة للإجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام . وذلك مثل قوله - تعالى - :
﴿ وَسَلِّ الْقَرَبَةَ ﴾ . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، مثل قوله - تعالى - : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ .

ويقول صديقنا الأستاذ الدكتور بدوى طبانة : إن معنى الإيجاز فى اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعانى المتكاثرة تحت اللفظ القليل ، وأصدق مثال فيه قوله - تعالى - :
﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُمَرُّ ﴾ فهاتان الكلمتان قد جمعتا معانى الرسالة كلها ، واشتملت على كليات النبوة وأجزائها وكقوله - تعالى - :

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١).

ولقد مر بنا في الباب السابق ما رواه أبو عبيدة من أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ
﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .

وقد بالغ بعضهم في تمجيد الإيجاز إلى المدى الذى جعل فيه البلاغة هى الإيجاز ،
فقد سئل : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ، قيل : وما الإيجاز ؟ قال : حذف الفضول ،
وتقريب البعيد (٢) .

أما وتلك فضائل الإيجاز ومحاسنه فإننا نجده ذائعا موفورا في كلام الرسول ﷺ .
قال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمى وقد سأله مرافقته في الجنة : « أَعْنِي
على نفسك بكثرة السجود » .

بهذا البيان الناصح ، وبهذا الإيجاز البليغ ، وبهذا الأسلوب السهل الممتنع الذى لا
يحاكيه أسلوب ولا يماثله بيان ، يجيب رسول الله ﷺ واحدا من صحابته وقد سأله أمنية
يتركز حولها مسعى كل مسلم ؛ ويستقطب جوهرها آمال كل مؤمن . يقول الرسول
لربيعة : « أَعْنِي على نفسك » (٣) يعنى : دخول الجنة لا يكون بدعائى لك وحسب ،
وإنما بعونك لى فى الساحة الربانية بكثرة السجود لله ؛ لأن السجود لله أشرف حالات
العبودية ، « وأقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد » ، ولأن فى السجود لله عزة للعبد ،
وفى الخضوع للخالق تمتع على الخضوع للمخلوق ، فالذى يسجد لله يمتنع عليه
السجود لغير الله ، وفى ذلك كمال العبودية لله ، التى هى كمال الإيمان ، والجنة طريقها
التوحيد للخالق ، والإيمان به ربًّا واحدا لا شريك له ، وهنا يستطيع اللبيب أن يتنبه إلى
القيم الإيمانية الأساسية التى استقطبتها أول آية أنزلت على الرسول الكريم ، حيث
بدأت بـ « اقرأ » وتضمنت العلم والقلم ، وختمت بطلب السجود فى قوله - تعالى - :

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة الإيجاز ، رقم ٨٨٨ ص : ٧٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، المادة نفسها .

(٣) زاد المعاد فى هدى خير العباد ١ / ٨٠ .

﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .

والإيجاز نوعان طبقا لما ذكرنا قبل قليل بالحذف وبالقصر ، ولكن الإمام يحيى بن حمزة اليمنى يرى أن النوع الأول هو الإيجاز بالتقرير ، وأما النوع الثانى فهو بالقصر ، ومفهومه هنا لا يختلف عن مفهوم سابقه ولاحقيه ، ويختلف فى تعريف الأول قائلًا^(١): الإيجاز بالتقرير وهو الذى تكون ألفاظه مساوية لمعناه ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّنٌ ، ويَبَيِّنُ ذلك مشتهبات » .

ومن ذلك قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى » . وقوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

وهكذا يختلف الإمام يحيى بن حمزة مع جمهرة البلاغيين فى تعريف الصنف الأول من الإيجاز ، وهو فى الوقت نفسه يدعم رأيه بثلاثة نماذج كلها من حديث رسول الله ﷺ .

وما ورد فى جملة الإيجاز عن رسول الله ﷺ كثير ، فمن ذلك قوله : « لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ فى الإسلام » ومعنى « لا ضرر » أى : لا ينبغى لأحد أن يضر غيره ، ومعنى قوله : « لا ضرار فى الإسلام » أنه لا ينبغى لك أن تضر أحدا ، ولا ينبغى له أن يضرك .

ومن هذا أيضا قوله ﷺ : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد » .

ومن ذلك أيضا قوله ﷺ : « الطمع فقر ، واليأس غنى »^(٢) .

إن هذه النماذج من أقوال الرسول ﷺ هى من جوامع الكلم التى خص بها دون غيره من البشر .

ومن روائع الإيجاز النبوى قوله ﷺ حكاية عن الله - تعالى - : « أعددتُ لعبادى

(١) الطراز ٢ / ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٢٨ .

الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .
ومن الإيجاز الرشيق قوله ﷺ في طلب الرزق : « إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه
أجله » وقوله ﷺ : « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك » .

ومن فرائد الإيجاز في كلام النبي ﷺ ما رواه سفيان بن عبد الله - رضى الله عنه -
قال : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً
غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

ومن جواهر إيجاز رسول الله ﷺ وإعجازه قوله : « الضعيف أمير الركب » . وقوله :
« إن من البيان لسحرا » .

وأما الإيجاز القرآني فمن الكثرة بمكان ، وقد تقتضينا اللياقة - ونحن نذكر الإيجاز
في كلام النبي - أن نتمثل لبعض ضروب الإيجاز القرآني .

فمن الإيجاز القرآني في صفة الجنة قوله - تعالى - :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .
﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴾ .
﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ .

وفي صفة أهل النار قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ .
﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ * لَا يَفْرَعُونَ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ *

(٢)

الإطناب :

الإطناب : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير ترديد ، هكذا جاء

تعريف الإطناب تعريفا موجزا ، ومن ثم يكون التعريف بالإطناب قد جاء بأسلوب الإيجاز .

ولمزيد من تعريف الإطناب قيل : إنه الاشتداد في المعانى أخذاً من قولهم : أطنبت الريح : إذا اشتد هبوبها ، وأطنب الرجل في سيره : إذا اشتد فيه .

والإطناب - كما هو معروف - مقابل للإيجاز ؛ لأن الإيجاز دلالة اللفظ على معناه من غير نقصان فيخل ، ولازيادة فيمّل ، وأما التطويل فهما متساويان في تأدية المعنى خلا أن الإطناب مختص بفائدة جديدة ، ولأجلها كان ممتازا عن التطويل ، ومثال ذلك كمن سلك لطلب مقصد من المقاصد ثلاث طرق ، فإنها كلها موصلة إلى مايريده ، فأحدها أقرب الطرق - وهو نظير الإيجاز - والطريقان الآخران متساويان في الإطالة ، وهما نظير الإطناب والتطويل ، خلا أن أحدهما مختص إما بمتنزه حسن أو بمياه عذبة ، أو بزيارة صديق أو غير ذلك من الفوائد ، فهو نظير الإطناب ، أما التطويل فلا فائدة وراءه ، وهو مذموم في الكلام (١).

ويقول أبو الحسن الرماني في الإطناب وقد قرن الحديث عنه بحديث عن الإيجاز : الإيجاز بلاغة ، والتقصير عى ، كما أن الإطناب بلاغة ، والتطويل عى . والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ؛ لأنه لا بد فيه من الإخلال .

وأما الإطناب فإنها يكمن في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضيع التي يحسن فيها ذكر التفصيل ، وأما التطويل فعيبٌ وعى ؛ لأنه تكلف الكثير فيما يكفى فيه القليل ، فكان كالمسالك طريقا بعيدا جهلا منه بالطريق القريب ، وأما الإطناب فليس كذلك ؛ لأنه كمن سلك طريقا بعيدا لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة (٢).

والإطناب واضح الظهور في الأسلوب القرآنى ، مثلما هو كامل الوضوح في الحديث النبوى .

(١) معجم البلاغة العربية ، المادة رقم ٤٨٥ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٢) إعجاز القرآن للرماني ، ص : ٣ .

ففى أهل الجنة نورد الآيات التى تناولتهم بالإطناب ، مثل : قوله - تعالى - :
﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ
طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ (١).

وقوله - تعالى - : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ *
فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ * وَزَوَاجٍ مُتَبَوِّئَةٌ ﴾ (٢).
وقوله - تعالى - : ﴿ وَجَزَلْتُهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَْائِكِ
لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْوْفُهَا نَدِيلًا *
وَيَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوا مَنَاقِدَ رِجَالِهَا
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجِيًّا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
لُدُنٌّ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴾ (٣).

للك وردت فى كتاب الله آيات بينات وضح فيها الإطناب فى وصف أهل النار ،

وله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي
هَتَمِّ خَلْدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (٤).

توله - تعالى - : ﴿ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ
بِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ
حَدِيدٍ ﴾ (٥).

(١) سورة محمد ، الآية : ١٥ .

(٢) سورة الغاشية ، الآيات : ١٥-١٠ .

(٣) سورة الإنسان ، الآيات : ١٢-١٩ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) سورة الحج ، الآيات : ١٩-٢١ .

ومثلما سقنا نماذج من الأسلوب المعجز من كلام الله في أطر من الإطناب فإننا نسوق نماذج من كلام سيد المرسلين في نفس الأطر من أساليب الإطناب ، وسوف نرى أنها دون كلام الله ، ولكنها فوق كلام البلغاء من البشر .

قال ﷺ : « مَنْ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةً سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ . أَوْ قَالَ : مَنْ مَهَّرَ الْكَوْثَرَ ، وَمَنْ كَسَا مُؤْمِنًا كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ سُنْدُسِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا لُقْمَةً أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ طَيِّبَاتِ الْجَنَّةِ وَفَوَاحِشِهَا » (١) .

ومن الإطناب قوله ﷺ : « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ الْعَبْدِ بِاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ : التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ ، وَالتَّفْوِيزُ إِلَى اللَّهِ ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ ، إِنَّهُ مِنْ أَحَبِّ لِلَّهِ ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ ، وَأَعْطَى لِلَّهِ ، وَمَنْعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » .

إنه ﷺ ذكر خصالا خمسا جعلها أصلا في كمال الإيمان ، ثم أتبعها بما يمكن أن يكون ثمرات لها ، والمصداق لأمرها ، فكل من اكتملت فيه هذه الخصال وكانت تصرفاته كلها لله : من حب ، وبغض ، ومنع ، ومنع ، كان كامل الإيمان .

ومن الإطناب البديع في الأسلوب المحمدي قوله ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ لَا يُكْتَبُ فِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَلَا يُعَدُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْمَنَ أَخُوهُ بِوَأْتِقَةٍ ، وَجَارُهُ بِوَادِرَةٍ ، وَلَا يَنَالُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حِدَارًا مَا بِهِ الْبَأْسُ » .

فهذا الإطناب البليغ هو نفسه ترجمة لإيجاز بليغ في نفس المعنى في قول رسول الله ﷺ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » وفي قوله أيضا : « وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ » قيل : من يارسل الله ؟ قال : « الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بِوَأْتِقَةٍ » .

هكذا يتناول رسول الله ﷺ القضية الواحدة فيسوقها في إطار من الإيجاز فتكون في قمة البلاغة ، ويصوغها في ثياب من الإطناب فتجيء في أنصع بيان .

(١) أحاديث الإطناب منقولة عن الإمام يحيى بن حمزة ، من كتابه (الطراز) الجزء الثاني ص : ٢٤٨ وما بعدها .

ومن قبيل الإطناب الذي يتدفق عمقا وجمالا في كلام رسول الله ﷺ قوله :
 « يا ابن آدم ، تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن ، وينقص كل يوم من أجلك وأنت
 تفرح ، تعطى ما يكفيك وتطلب ما يطغيك ، لا من كثير تشبع ، ولا بقليل تقنع » .
 لقد منح الله - سبحانه وتعالى - رسوله محمدا جوامع الكلم ، فجرت أساليب
 البلاغة سلسلة في كلامه ، وتفجرت عيون البيان خصبة في قوله ، سواء أكان هذا
 القول إيجازا أم إطنابا ، وعلى أى نهج جاء كان الكمال إطاره ، والجلال محتواه .

(٣)

الإبهام والتفسير :

هذا ضرب آخر من ضرب البلاغة في نطاق علم المعاني ، حفل القرآن الكريم
 بالكثير من ضروبه ، مثلما اشتمل حديث رسول الله ﷺ على غير قليل من نهاذجه .
 يقول الإمام يحيى بن حمزة العلوى اليمنى :

اعلم أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهما ، فإنه يفيد بلاغة ،
 ويكسبه إعجابا وفخامة ، وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإبهام فإن
 السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب ، ومصداق هذه المقالة قوله - تعالى - :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرًا ﴾ ثم فسره بقوله - عز وجل - : ﴿ أَنْتَ دَابِرَ هَوْلَاءِ
 مَقْطُوعِ مَصْبِحِينَ ﴾ (١). وهكذا في قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ

أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ فأبهمه أولا ثم فسره بقوله : ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (٢)
 ففى إبهامه فى أول وهلة ثم تفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه ، فإنه لو قال :
 وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع ، وإن الله لا يستحى أن يضرب مثلا بعوضة ، لم
 يكن فيه من الفخامة وارتفاع مكانة فى الفصاحة مثل مالو أبهمه قبل ذلك .

(١) سورة الحجر ، الآية : ٦٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ .

ويستطرد الإمام العلوي في مزيد من الإبانة لموضوع الإيهام والتفسير قائلا : يؤيد ما ذكرناه هو أن الإيهام أولا يوقع السامع في حيرة وتفكر واستعظام لما قَرَّحَ سَمَعَهُ ، فلا تزال نفسه تنزع إليه ، وتشتاق إلى معرفته والاطلاع على كنه حقيقته ، ألا ترى أنك إذا قلت : هل أدلك على أكرم الناس أبا ، وأفضلهم فعلا وحسبا ، وأمضاهم عزيمة وأنفذهم رأيا ؟ ثم تقول : فلان ، فإن هذا وأمثاله يكون أدخل في مدحته مما لو قلت فلان الأكرم الأفضل الأنبل ، وما ذاك إلا لإيهامه أولا وتفسيره ثانيا (١) .

وتمت ضربان في هذا النسق من علم المعاني ، أى : من الإيهام والتفسير .

فأما الضرب الأول : فهو ما يرد مبهما من غير تفسير ، وهو وارد كثيرا في القرآن الكريم ، مثل قوله - تعالى - في قصة موسى : ﴿ وَفَعَلَتْ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلَتْ ﴾ (٢) فلم يذكر الفعلة بعينها مع كونها معلومة ؛ لما في ذلك من المبالغة في أمرها وتعظيم شأنها ، وكقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ يريد بذلك الطريقة أو الحالة أو الخصلة إلى غير ذلك من الاحتمالات المتعددة ، وأى شيء من هذه الأمور قَدَّرْتَهُ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ لَهُ مِنَ الْبَلَاغَةِ - وإن بالغت في الإفصاح به - الذى تجده من مذاق الفصاحة مع الإيهام .

ومن هذا قوله - تعالى - : ﴿ فَعَشِيهِمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٣) ، يريد أنه بلغ مبلغا تقاصرت العبارة عن كنهه ، فحذف ذلك وأقام الإيهام مقامه .

إن مواقع هذا الضرب في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى ، فإذا ما تمجنا إلى السنة الشريفة وجدنا الرسول ﷺ يقول : « عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من أحببت فإنك مفارقة ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » .

فالإيهام هنا يشتمل على معان جمة ، ونكت كثيرة ، ومواعظ زاجرة .

(١) الطراز ٢ / ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٧٨ .

ومن هذا الضرب أيضا قوله ﷺ : « أحب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » .

يقول الإمام يحيى بن حمزة : فهذا من رشيقي الإبهام وبديعه ، ومن عجيب أمره ودقيق سره أنه أمر بالاعتدال في حالتى الحب والبغض ، ومجانبة الإفراط والتفريط ، فقال : أحب حبيبك على الهون من غير إفراط في حبه ؛ فلعلك أن ترجع عن ذلك في بعض الأيام وإن قل ، فأتى بالهون منكرًا مبهما ، وباليوم منكرًا مبهما ؛ ليدل بهما على شدة المبالغة في المفقود .

ومن هذا الضرب الأول أيضا قوله ﷺ : « خذوا العطاء ما كان عطاء ، فإذا تجاحفت^(١) قريش ملكها فاتركوه » وفي حديث آخر أو رواية أخرى : « خذوا العطاء ما كان عطاء ، فإذا تجاحفت قريش الملك فلا تأخذوه ؛ فإنها هو رشوة » فالإبهام هو قوله : « ما كان عطاء » لاشتراكه على مقاصد عظيمة .

الضرب الثانى :

وهو فى الإبهام الذى ظهر تفسيره ، مثل قوله - تعالى - : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعِ نُصْبِحِينَ ﴾ فقوله : ﴿ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ مبهم وقد فسره بقوله : ﴿ أَنْ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعِ ﴾ وفى إبهامه أولا ثم تفسيره ثانيا ، تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه ، ولو قال من أول وهلة : « وقضينا إليه أن دابر هؤلاء القوم مقطوع » لم يكن فيه ما كان مع الإبهام من الفخامة .

ولم يكن الأسلوب النبوى يعيد عن هذا الضرب الثانى من الإبهام الذى ظهر تفسيره فتمت أحاديث عدة فى هذا المجال :

قال ﷺ : « ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مؤنتها عظيم أجرهما لن يُلقى الله بمثلها ؟ » ثم قال بعد ذلك تفسيرهما : « الصمت وحسن الخلق » .

(١) تجاحفوا : يعنى تناوشوا وتقاتلوا .

وقوله ﷺ : « ألا أدلكم على ما إذا فعلتموه تحاببتم ؟ قالوا : نعم ، قال : أفشوا السلام »

إن تفسير ما أهتم في الحديثين السابقين يعظم من شأن ما اشتتملا عليه من البلاغة .
وفي مثال آخر يقول رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على أخسر الناس صفقة ؟ قالوا : نعم ، قال : من باع آخرته بدنيا غيره »^(١) .

إن هذا الباب من الإبهام والتفسير واسع الجنب في كتاب الله ، مثلما هو عظيم الشأن في حديث رسول الله ، وهو ضرب عظيم من ضروب البلاغة القرآنية والمحمدية .

(٤)

المساواة :

ذهب أكثر البلاغيين إلى تقسيم « المعانى » إلى الإيجاز والإطناب والمساواة ، ولقد عرضنا لفرعى الإيجاز والإطناب بالدراسة في الفصلين السابقين ، وأما المساواة فإن جاز تناولها في كلام البلغاء فإن ذلك لا يجوز مع كلام الله ولا مع حديث رسول الله ؛ لأن الأصل في أسلوب القرآن وإعجازه هو المساواة ؛ لأن الإيجاز والإطناب يعدان من الظواهر ، أما المساواة فهي الأصل ، وهي البنية الأسلوبية القرآنية ، وهي نفسها البنية الأساسية في كلام النبي ﷺ وأسلوبه إذا تكلم ، ونستطيع القول إنه إذا ما عزلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تعاملت مع الإيجاز والإطناب ، فإن سائر القرآن وسائر حديث رسول الله ليست إلا أسلوب المساواة .

وقد يكون من التوفيق في هذا الفصل أن نعرض لأسلوب رسول الله من زاويتي الجزالة والرقعة ، وسنلتقى بمثلين لكل زاوية ، ليس من باب التخفيف على القارئ . ولكن لأن القارئ الحصيف لا يخطيء الجزالة ، ولا تفوته الرقعة وهو يستعر أحاديث رسول الله ﷺ .

ففى الجزالة : (١).

قال ﷺ : « يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن ، وَيُنْقُصُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ عَمْرِكَ وَأَنْتَ تَفْرَحُ ، أَنْتَ فِيمَا يَكْفِيكَ ، وَتَطْلُبُ مَا يَطْغِيكَ ، لِابْتِغَالِ تَقْنَعِ ، وَلَا مِنْ كَثِيرِ تَشْبَعِ » .

وقال ﷺ : « أَمَا رَأَيْتَ الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْغِرَّةِ ، الْمَرْعَجِينَ بَعْدَ الطَّمَأْنِينَةِ ، الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى الشَّبَهَاتِ ، وَجَنَحُوا إِلَى الشَّهَوَاتِ ، حَتَّى أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ ، فَلَا مَا أَمَلُوا أَدْرَكُوا ، وَلَا إِلَى مَا فَاتَتْهُمْ رَجَعُوا ، قَدِمُوا عَلَى مَا عَمَلُوا ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا خَلَفُوا ، وَلَنْ يَغْنَى النَّدَمُ ، وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ » .

وفى رقة الأسلوب :

يقول ﷺ معبرا عن هذا المذهب (٢):

« كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتِ ، فَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَحْدِثْهَا بِالصَّبَاحِ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَحْدِثْهَا بِالْمَسَاءِ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسِقْمِكَ ، وَمِنْ شَبَابِكَ لِهَرَمِكَ ، وَمِنْ فَرَاغِكَ لَشُغْلِكَ » .

وقوله ﷺ :

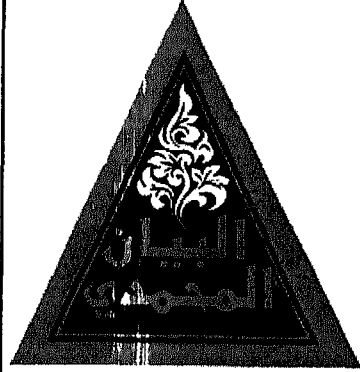
« رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا تَكَلَّمَ فَعَنِمَ ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ ، إِنْ اللِّسَانَ أَمْلَكَ شَيْءٌ لِلْإِنْسَانِ » .

وقوله ﷺ :

« عَائِدُ الْمَرِيضِ عَلَى مَخَارِفِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ » .

(١) الطراز ١ / ١١٧ .

(٢) الطراز ١ / ١١٨ .



الفصل الثاني

البيان

- التمثيل والمماثلة
- التشبيه
- المجاز
- الاستعارة

البيان

البيان لغة : هو الكشف والتوضيح والظهور .

وهو فى الاصطلاح : المنطق الفصيح المعبر عما فى الضمير ، وقد يستعمل بمعنى الإثبات بالدليل .

والبيان عند البلاغيين : هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة فى وصوح الدلالة على المعنى المراد ، بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض (١) .

ويعالج الجاحظ موضوع البيان ومفهومه فيقول : إن الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله - عز وجل - يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم .

ويمضى الجاحظ فى علاجه لمصطلح البيان قائلاً : والبيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع (٢) .

وعلم البيان هو الذى يحرز به عن التعقيد المعنوى ، وسمى كذلك - أى : سمي علم البيان - لأنه له مزيد تعلق بالوضوح والبيان من حيث إن علم البيان يعرف به

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة (البيان) ورقمها ٩٣ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧٥ ، ٧٦ .

أختلاف طرق الدلالة في الوضوح والبيان ، وإن كثيرا من البلاغيين يسمي علوم البلاغة الثلاثة - المعانى والبيان والبديع - علم البيان ، لتعلقها جميعا بالبيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير (١).

ويذهب الإمام يحيى بن حمزة في تعريف البيان مذهبا مغايرا حين يقرر أن البيان مورد المجاز على أنواعه ، وذلك في قوله : اعلم أن علم البيان من عوارض الألفاظ ، ومورده المجاز على أنواعه ، ومعناه : إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه والتقصان ، فعلى قدر إغراق المجاز وحسنه يزيد المعنى وضوحاً ، وعلى قدر نزوله وبُعده ، ينتقص المعنى (٢).

ومهما كان الأمر فقد استقر البلاغيون على موقف شبه محدد في أن موضوعات البيان هي التشبيه والتمثيل والاستعارات والمجاز والكنايات .

(١)

التمثيل والمماثلة والمثل :

لقد عمدنا إلى إيراد العنوان على هذا النمط حتى لا ينصرف ذهن القارئ إلى التمثيل الذي هو التشبيه ، أو إلى المثل السائر ، ومن ثم أوردنا لفظ المماثلة ، وهي أن تمثل شيئا بشيء آخر مثل قوله ﷺ :

« ظَهَرُ الْمُؤْمِنِ مَشْجَبُهُ ، وَخِرَانَتُهُ بَطْنُهُ ، وَرَأِحَتُهُ رَجْلُهُ ، وَذَخِيرَتُهُ رَبُّهُ » .

ومثل قوله أيضا : « الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا ضَيْفٌ ، وَمَا فِي يَدَيْهِ عَارِيَّةٌ ، وَالضَّيْفُ مَرْتَحِلٌ ، وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَاةٌ ، وَنَعْمُ الصَّهْرِ الْقَبْرِ » .

ولقد ورد عن الرسول ﷺ في مجال الاعتصام بالكتاب والسنة والاستمسك بعرى الإيمان ، وعلاقته بالآخرين كثير من المماثلات التي كان ﷺ أحد طرفيها ، ولقد أرسلها جميعا لهدى الناس ووضعهم على المحجة البيضاء .

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة (البيان) .

(٢) الطراز ٣ / ٢٢٨ .

عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري - رضى الله عنه - قال : (١)

قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قِيلَتِ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَعَّعَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَهَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (*).

والحديث هو مثل للنبي في إبلاغه عن الله - عز وجل - ودعوته إلى سبيله وأنه بعثه رحمة للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

قال النووي : ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه . وكذا كان حال الناس قبل مبعثه ، فكما أن الغيث يحيى البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت ، ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي نزل الغيث بها ، فمنهم العالم المعلم فهو بمنزلة الأرض الطيبة التي شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها .

ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله ولم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به ، وهو المشار إليه بقوله : « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها » .

ومنهم من سمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء ، أو تفسده على غيرها .

(١) صحيح البخارى (كتاب العلم) وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) حديث رقم ١٥ ، وأمثال الحديث للرامهرمزي ص ٢٤ .

(*) المفردات : الغيث : المطر . الكلا : الحشيش رطبه ويابسه ، العشب : هو الرطب منه ، الأجادب : جمع أجداب ، من جذبت الأرض فلا تنبت شيئا .

وقريب من التمثيل السابق ما عبر عنه رسول الله ﷺ بأن رسالته منجاة لمن تبعها ، ومهلكة لمن خالفها ، وذلك في الحديث الشريف : (١)

« إن مثلي ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة منهم فأدجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، كذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق » (*).

لقد خاطب رسول الله القوم بالأسلوب الذي هو مألوف عندهم بحيث يكونون أكثر استيعاباً له وأخذاً به ، وهو إلى الإطناب أقرب وإلى التفصيل أوفى ؛ حتى تستقر المعاني في نفوسهم ، وتنفذ إلى عقولهم وقلوبهم .

ولقد روى الحديث السابق بصيغة أكثر تفصيلاً وتوضيحاً عن عبدالله بن يزيد عن أبيه أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم فنأدى ثلاث مرات : « أيها الناس إن مثلي ومثلي ما بعثنى الله به كمثل قوم خافوا عدواً أن يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراعى لهم ، فبينما هو كذلك إذ أبصر العدو فأقبل لينذر قومه ، فخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه : أيها الناس أتيتم - ثلاث مرات - يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وأنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذب طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به من الحق ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق » (٢).

ومن الأمثال التي تصور حاله ﷺ وحواله بعض الناس الذين ينير لهم الطريق ،

(١) أمثال الحديث للرامهرمزي . ص ٢٠ .

(*) النذير العريان : الذي قد ظهر صدقه ، ومنها عرى الأمر : إذا ظهر . والطائفة من كل شيء : قطعة منه ، تقول : طائفة من الناس ، وطائفة من الليل . قال عز وجل : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ .

(٢) صحيح البخاري (كتاب الرقاق) و (كتاب الاعتصام) . وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) حديث رقم ١٦

ويجهّد لهم المسالك ، ويهدهم إلى الصراط السويّ ، فيصرفون عنه إلى المهالك ، رغم حرصه عليهم ، والأخذ بحجزاتهم ، قوله ﷺ في حديث استمد صيغته من القرآن الكريم :

روى الشيخان عن أبي هريرة - رضی الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « مثل ومثل الناس : كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الجنادبُ والفراشُ وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهنَّ ويغلبنَّه فيقعن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها » .

ولفظ مسلم : « فذلك مثل ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم هلّم عن النار فتغلبونني تقتحمون فيها » (١) .

وثمت حديث آخر عن مثل الرسول ومثلي من أطاع رسالته ، ومن شدّ عنها ، وفيه حبكة التشبيهات ، ورقة الصوغ ، وبهاء المعاني ، مع جمال الترغيب الذي يغني عن مسالك الترهيب .

عن الحسن قال : (٢) قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم سلكوا مفازةً غرباء ، لا يدرون ما قطعوا أكثر ، أو ما بقي منها ، فحسرت ظهورهم ، ونفدت زادهم ، وسقطوا بين ظهري المفازة فأيقنوا بالهلاك (في النص : الهلاكة) فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه ، فقالوا : إن هذا لحديث عهدٍ بريف ، فانهم إليهم فقال : يا هؤلاء ما شأنكم ؛ فقالوا ما ترى كيف حسرت ظهورنا ونفدت أزوادنا بين ظهري هذه المفازة ، لا ندري ما قطعنا منها أكثر أم ما بقي ، فقال : ما تجعلون لي إن أوردتكم ماء رواءٍ ورياضاً خضراً ؟ قالوا حُكمك . قال : تُعطوني عُهدكم وموائيقكم ألا تعصوني . ففعلوا ، فمال بهم فأوردهم ماء رواءٍ ورياضاً خضراً ، فمكث يسيراً ثم قال : هلموا إلى رياضٍ أعشب من رياضكم هذه ، وماءٍ أرْوَى من مائكم هذا ، فقال جُل القوم : ما قدرنا على هذا حتى كدنا ألا نقدّر عليه ،

(١) صحيح البخاري (كتاب الرقاق) وصحيح مسلم (الفضائل) حديث رقم ١٧ .

(٢) البراهرمزي : أمثال الحديث ص : ٥٧ وقد ورد الحديث بصيغة مختلفة قليلاً في مسند الإمام أحمد ١ / ٢٦٧ .

وقالت طائفة منهم : أَلَسْتُمْ قَدْ جَعَلْتُمْ هَذَا الرَّجُلَ عَهْدَكُمْ وَمَوَائِقَكُمْ أَلَّا تَعَصَوْهُ وَقَدْ صَدَّقَكُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ ، فَأَخَّرُ حَدِيثَهُ مِثْلَ أَوَّلِهِ ، فَرَأَى فَرَحًا وَرَأَى مَعَهُ ، فَأَوْرَدَهُمْ رِيضًا خُضْرًا وَمَاءً رِوَاءً ، وَأَتَى الْآخَرِينَ الْعَدُوَّ مِنْ لَيْلَتِهِمْ فَأَصْبَحُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ .

وفي شأن الرسالة وكونها الخاتمة ، وشأن الرسول ﷺ وكونه خاتم الأنبياء المكمل لما جاءوا به من رسالات ، يضرب الرسول ﷺ مثلاً لنفسه ومثل الأنبياء السابقين على هذا النحو المتناهي بلاغة ، المتسامى صيغة وصورة وبيانا .

عن أبي هريرة - رضی الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاَّ وُضعت هذه اللبنة !! قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » (١).

إن الله أكمل بمحمد دينه ، وختم به رسالته ، وأتم به نعمته على المؤمنين ، والعرب تمس ما يباليغون فيه من الوثاقة والأصالة وعقد المكارم وما شابه ذلك بالبيان ، والله - سبحانه - يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِينَ مَرْتَضُونَ ﴾ (٢).

وللمؤمن والفاجر في صيغ التمثيل التي رويت عن رسول الله ﷺ نصيب وافر ، إنه ﷺ يضرب مثلا للمؤمن الذي يقرأ القرآن ، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، والفاجر الذي يقرأ القرآن ، والفاجر الذي لا يقرأ القرآن ، ويصوغ لكل واحد من هؤلاء مشبها به لا تتوفر أسباب احتمال الصورة المثل له إلا بمثل هذا النهج من البلاغة المحمدية . قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرٌّ ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرٌّ ولا ريح لها ، ومثل جليس السوء كصاحب الكبر

(١) البخارى ، باب خاتم النبيين ٤ / ٢٢٦ .

(٢) سورة الصف ، الآية : ٤ .

إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه « (١). متفق عليه .

ولأن المؤمن لا يتأتى منه إلا النفع ، ولا يصدر عنه إلا الخير ، فإن رسول الله ﷺ قد اختار النحلة له مثلاً فقال - صلوات الله وسلامه عليه - :

« مثل المؤمن كمثل النحلة ، إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقفت على عود نخر لم تكسره » (٢).

وفي مقام التربية المحمدية واختيار الجليس ، يتمثل الرسول ﷺ للجليس الصالح كما يتمثل لجليس السوء .

عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكبير ، فحامل المسك إما أن يُحْدِثِكَ (*) ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكبير إما أن يُحْرِقَ ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة » (٣).

وتمثيل رسول الله ﷺ للصلاة مثل « فريد » أنيق ، فقد شبهها بنهر جارٍ على باب المسلم ، يغتسل فيه خمس مرات كل يوم ، وذلك في قوله الشريف : (٤)

« مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جارٍ غمرٍ على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات » .

ومن الطبيعي أن تكون « الدنيا » مجالاً للتناول في صيغ التمثيل التي طرحها رسول الله ﷺ في أحاديثه ، مثلما هو مجال للتناول في الكتاب العزيز ؛ لأن الدنيا مرتبطة بالآخرة إيجاباً وسلباً ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، من زرعها بالخير جناه جنات في الآخرة وحسن ثواب ، ومن زرعها شروراً ومعصية جناه جحيماً وسوء مآب .

(١) ورواه النسائي ، وأورده النووي في رياض الصالحين في (كتاب الفضائل) باب فضل قراءة القرآن .

(٢) فتح القدير ٥ / ٥١٤ رقم ٨١٥٣ .

(*) يحْدِثِكَ : يعطيك .

(٣) رواه الشيخان والإمام النووي في رياض الصالحين في باب (زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبهم) ص ١٦٣ .

(٤) رواه مسلم ، وأورده الإمام النووي في رياض الصالحين في باب (فضل الأذان) .

لقد ورد ذكر « الدنيا » في القرآن الكريم في نحو مائة وثلاث عشرة آية ، وورد ذكرها في مقام التمثيل مرات غير قليلة ، ففي مقام التمثيل يقول - عز وجل - :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

ويقول - جل من قائل - : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعُ الْغُرُورِ ﴾ وذلك اجتزاء من الآية الكريمة : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعُ الْغُرُورِ ﴾ (٢) .

ويقول - عز وجل - : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمَتَعٌ ﴾ (٣) .

ويقول - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَرَبَ أَهْلُهَا أُنْهُمُ قَدْ رُوتَ عَلَيْهَا أُنْتَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٣) سورة الرعد ، الآية : ٢٦ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ٢٤ .

مُقَدِّرًا ﴿١﴾.

إن القارىء الفطن وهو يستقرىء آيات التمثيل المختصة بالدنيا في القرآن الكريم يلاحظ أن السياق المعنوى فيها منصرف إلى التحذير منها والاحتراز من شرورها ، وكذلك فعل رسول الله ﷺ وهو يعرض لها .

قال رسول الله ﷺ : « نعمتِ الدارُ الدنيا لمن تزوَدَ فيها خيراً لآخرته ما يُرضى به ربّه ، وبُستِ الدارُ الدنيا لمن صدّته عن آخرته وقصّرت به عن رضى ربه ، وإذا قال العبدُ : قَبِحَ اللهُ الدنيا قالت الدنيا : قَبِحَ اللهُ أعصانا لربّه » (٢).

إن قوله ﷺ :

« قصرت به عن رضى ربه » يعنى قصّر هو بها عن رضى ربه . وقوله : « قالت الدنيا : قبح الله أعصانا لربه » يعنى أن العاصى هو المقبوح فيها ، فجعل الاتعاظ بها بمعنى القول منها .

وعن عبدالله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير قد أثر الشريط في جنبه ، فقلت : لو نِمْتَ يا رسول الله على ما هو ألين من هذا ؟! فقال : «مالى وللدنيا ، إنما مثل ومثل الدنيا كمثل رجل مرّ بأرض فلاة ، فرأى شجرة فاستظلّ تحتها ، ثم راح وتركها » (٣).

والمعنى المستخلص من هذا الحديث : هو سرعة انقطاع الدنيا بصاحبها .

وتمت حديث آخر في شأن حقارة الدنيا ورخص شأنها وهوانها على الله ، ما رواه المستورد بن شداد عن النبي ﷺ قال : وإنى لفى ركب مع النبي ﷺ إذ مرّ بسخلة (*) منبوذة ، فقال : « أترون هذه هانت على أهلها ؟ فوالذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » (٤).

(١) سورة الكهف ، الآية : ٤٥ .

(٢) أمثال الحديث لابن خلاد الرامهرمزي ص : ٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص : ٥٥ .

(*) السخلة : ولد الشاة ، وهى اسم يجمع الذكر والأنثى . والمنبوذة : الملقاة ، من نبذت الشىء : إذا ألقيته .

(٤) المصدر السابق . ص : ٥٦ .

وعن مجتمع المسلمين وما يحدث فيه من انحرافات تؤدي إلى فساد وإيقاع الضرر بالجمهرة فيما لو ترك للمنحرفين الحبل على الغارب ، يعالج رسول الله ﷺ هذه القضية التي شاعت في مجتمع زماننا ، ويشبه المجتمع بسفينة فيها أخلاط من الناس : ملتزم ومتهاون ، ومستمسك ومترخص ، وفطن وساذج ، فكيف يكون علاج الموقف ؟ هذا هو ما يتناوله الرسول ﷺ في حديث السفينة : (١).

عن النعمان بن بشير - رضی الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَامًا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا » (*). رواه البخارى .

إن كثيرا من الأميين الدينيين - ويطلقون على أنفسهم صفة العلمانية - يطالبون بحرية القول ، وتعنى حرية القول عندهم الطعن في دين الله ، والدعوة إلى الإباحية والمجون ، والخوض في قضايا الجنس ، وتسفيه ما اصطلاح مجتمع المسلمين عليه من تماسك وعفة وأدب ، إن مثل هؤلاء كمثل ركاب السفينة ، لو خُلِّيَ بينهم وبين ما يريدون غرقوا وأغرقوا معهم الآخرين ، وإن حِيلَ بينهم وبين ما يريدون فعلة نَجَّوْا ونجا معهم سائر المجتمع .

وعلى النهج نفسه من تربية المجتمع أخلاقيا وإسلاميا ما ضربه الرسول ﷺ مثلا للإسلام والقرآن وحدود الله ، ليكون ذلك سبيلا إلى الجنة ، وطريقا يؤدي إلى دخولها .
أما الحديث الشريف الذى ساق الرسول ﷺ المثل من خلاله ، فهو قوله ﷺ : (٢):

(١) رياض الصالحين : باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ص : ٩٧ .
(*) القائم في حدود الله : هو المنكر لها القائم في دفعها ومقاومتها ، والمراد بالحدود : ما نهى الله عنه . استهموا : يعنى اقترعوا .

(٢) الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، ص : ٣٤ ومسنند الإمام أحمد بن حنبل ٤ / ١٨٢ .

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورٌ فِيهِ أَبْوَابٌ مَفْتُوحَةٌ ، وَعَلَى تِلْكَ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَخَّأَةٌ ، وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : ادْخُلُوا الصِّرَاطَ وَلَا تَعُوجُوا » .

قال : فالصِّراطُ : الإسلام ، والسُّتُورُ : حدود الله ، والأبوابُ المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي : القرآن .

ومن أحاديث رسول الله ﷺ المشتملة على التمثيل الذي يُعَلِّمُ به الصحابة الصبر وسعة الصدر والحلم في مواقف الغضب ، وضرورة الالتزام بهذه الصفات ما رواه القاضي عياض قال :

روى أن أعرابيا جاءه ﷺ يطلب منه شيئا فأعطاه ، ثم قال : « أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار ﷺ إليهم أن كُفُّوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا ، ثم قال : « أحسنت إليك ؟ » قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال له النبي ﷺ : « إنك قلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك » قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء ، فقال ﷺ : « إن هذا الأعرابي قال ما قال فردناه فرعم أنه رضى ، أكذلك ؟ قال - أى : الأعرابي - : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبي ﷺ : « مثل ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلوا بيني وبين ناقتي فإنني أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه ، دخل النار » (١) .

تلك نماذج بيانية من أحاديث رسول الله ﷺ في المثل أو التمثيل أو المماثلة ، وما من حديث منها إلا وهو قمة الإعجاز الأسلوبى البشرى ، مستهدفا الهداية والترية وسداد السلوك وحسن الخلق وكمال الدين ، وهى في جملتها نبراس للبلغاء ، بها يستضيئون ، ونبع للفصحاء ، منها يرتوون ، وهدى للدهماء والأسوياء بها ينصرون ويمتدون .

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٢)

التشبيه :

التشبيه - طبقا لتعريف البلاغيين - : هو الإخبار بالشبه ، وهو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر ولا يستوعب جميع الصفات ، أو هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، أو هو صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه .

ولقد جعل البلاغيون للتشبيه أركاناً أربعة ، هي : المشبه ، والمشبه به - ويسميان طرفي التشبيه - وأداة التشبيه ، ووجه الشبه الذي يجب أن يكون أقوى وأظهر في المشبه به منه في المشبه .

هذا والتمثيل ضرب من ضروب التشبيه ، غير أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه - وقد لاحظنا ذلك عند تعرضنا للتمثيل - وليس كل تشبيه تمثيلاً (١).

ففى بيت قيس بن الخطيم :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى

كعنقود ملاحية حين نورا

تشبيه حسن ولكن لا نستطيع القول إنه تمثيل ، وكذلك الحال في قول ابن المعتز

قد انقضت دولة الصيام وقد

بشّر سقم الهلال بالعيد

يتلو الثريا كفاغر شره

يفتح فاه لأكل عنقود

وأما التمثيل فمثل قول صالح بن عبد القدوس :

(١) أسرار البلاغة ، ص : ٨٤ .

وإنَّ من أدبته في الصِّبَا كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يُبسِّه

ولقد أوردنا في الصفحات السابقة قبائل من نماذج التمثيل التي جاءت في أحاديث رسول الله ﷺ .

ومن الأمور التي لاحظناها في موضوعنا هذا ، أن التمثيل في كلام الرسول ﷺ من الوفرة بمكان ، وليس الأمر كذلك في التشبيهات ، ذلك لأن طبيعة التمثيل أقرب إلى نهج التربية والتوجيه ومضمار الخير وطريق الشر .

وأما التشبيهات فوظيفتها بلاغية أكثر منها تعليمية تبشيرية ، وها نحن نعرض نماذج من التشبيهات النبوية :

عن أنس : كان النبي في بعض أسفاره ، وغلّام أسود يقال له أنجشة يجردو ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أنجشة : رُوَيْدًا سَوْقَكَ بالقوارير » (١) .

إن الرسول كنى عن ذكر النساء بالقوارير ، شَبَّهَنَّ بها لرقتهن ، وضعفهن من الحركة ، وضعف البنية ، وقلة التحمل ، وهناك من جعل معنى الحديث : سقهن كسوقك بالقوارير .

ومن تشبيهات رسول الله ﷺ قوله في الصحابة : « مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام ، لا يصلح الطعام إلا بالملح » .

وهذا تشبيه عقل أو هو صورة عقلية ، وهو أن الناس يصلحون بالصحابة كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوساً (٢) .

وهناك من أقوال رسول الله ﷺ ما يعد تشبيه مفرد بمركب ، والمثال على ذلك : « الكمأة جدرى الأرض » (٣) والكمأة : ثمرة درنية مثل البطاطة تنمو تحت الأرض ، ثم

(١) أمثال الحديث لابن خلاد الرامهرمزي ، ص : ١٢٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٦٤ .

(٣) المثل السائر ٢ / ١٢٤ ، ١٣٨ ط دار الرفاعي .

إذا ما قاربت النضوج ظهرت قريبة على وجه الأرض كالفقاعة ، ولذلك فإن سكان الأقطار الخليجية يسمونها الفقع .

وهذا التشبيه فضلا عن كونه تشبيه مفرد بمركب ، فهو أيضا تشبيه بليغ ، لعدم إثبات أداة التشبيه ، وهو كذلك من التشبيهات التي تقع موقع المبتدأ والخبر .

على أن أكثر التشبيهات النبوية قد جاءت في صورة تشبيه مركب بمركب مع اختلاف صيغ التشبيه نفسه .

يقول ﷺ : « وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلاَّ حصادُ ألسنتهم » (١) .

فكان الرسول ﷺ قال : كلام الألسنة كحصاد المناجل ، وهو نوع من التشبيه لا يكون المشبه به مذكورا فيه ، وإنما تذكر صفته ، فالمنجل هنا - وهو المشبه به - لم يذكر ، وإنما ذكرت صفته وهو الحصد . والتشبيه - كما أسلفنا - تشبيه مركب بمركب .

هذا ، وإن فحوى هذا التشبيه النبوي الشريف هو النهى عن الغيبة والنميمة ، وهو أبلغ مرات عديدة من النهى المباشر .

ومن التشبيهات النبوية الفريدة في بنيتها ومرماها البعيد ، قوله ﷺ : « الناس كإبل المائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة » (٢) .

(١) المصدر السابق ٢ / ١٢٥ ، ورياض الصالحين ، باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان ص : ٤٩٣ ط - مصطفى محمد . وقام الحديث هو : عن معاذ - رضى الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ، تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل » ثم تلا : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ يعملون ﴾ ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » قلت : بلى يا رسول الله . قال « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد » ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه قال : « كفّ عليك هذا » قلت : يا رسول الله : وإنا لمؤاخذون بها نتكلم به ؟ فقال : « تكلمت أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصاد ألسنتهم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أسرار البلاغة للإمام الجرجاني ، ص : ١٠٠ .

والتشبيه هنا مثل سابقه من حيث كونه تشبيه مركب بمركب ، ولكن الخلاف بينهما هو أن التشبيه السابق لم يكن يتحتم فيه ذكر المشبه به ، بينما يجمل في هذا الحديث أن يذكر المشبه به ، وإلا كان المعنى مختلا ، والتعسف ظاهرا ، وهو ما يتنزه أسلوب رسول الله ﷺ عن التورط فيه . والمقصود بالراحلة : كل بعير نجيب قوى على الأسفار والأحمال ، ومناطق التشبيه هنا أن الكامل في الخير والزهد في الدنيا مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل ، مثلما أن الراحلة النجيبة نادرة في الإبل الكثيرة .
ومن تشبيهات رسول الله ﷺ الفريدة المثل في اختيار الجليس - وقد سبق ذكره - قوله : (١)

« إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ؛ فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحا خبيثة » . متفق عليه

ومن التشبيهات النبوية المركبة وقد سبق رواية الحديث بصيغة أخرى - قوله ﷺ :
« مَثَلُ الْمُؤْمَنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ الْمُؤْمَنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحُهَا ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْخَنْزَلَةِ ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا مَرٌّ » .

إن النبي ﷺ شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة بالأترجة ، وهى ذات وصفين ، هما الطعم والريح الطيب ، وكذلك يجرى القياس في المؤمن غير القارئ ، وفي المنافق القارئ ، والمنافق غير القارئ ، وهذا التشبيه أيضا من باب تشبيه المركب بالمركب .

ونعود فنكرر القول بأن الرسول ﷺ كان يعالج قضايا الإسلام عن طريق التمثيل ، وهو النهج الذى بدا واضحا في القرآن الكريم ، والعلة في ذلك هو ما سبق أن ذكرناه من أن كل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا .

(١) أورده الإمام النووي في رياض الصالحين ، في باب زيارة أهل الخير ومجالستهم ، ص : ١٦٣ كما أورده ضياء الدين ابن الأثير في المثل السائر ٢ / ١٤٥ ط الرفاعى .

(٣)

المجاز:

المجاز - كما يعرفه عبد القاهر الجرجاني - : هو كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول فهى مجاز ، وإن شئت قلت : كل كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعا لملاحظة بين ما تُجَوِّزُ بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له في وضع واضعها فهى مجاز^(١).

وأما ابن رشيق فهو يقدم للمجاز تعريفا أسهل من ذلك الذى قدمه عبد القاهر ، وذلك إذ يقول : معنى المجاز : طريق القول ومأخذه ، وهو مصدر « جُرْتُ مجَازاً » كما تقول : قمتُ مقاما ، قلتُ مقالا . ويمضى ابن رشيق إلى القول : والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع ، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن مُحَالاً مَحْضاً فهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصّوا به - أعنى اسم المجاز - بابا بعينه ، وذلك أن يسمى الشئ باسم ما قاربه أو كان منه بسبب ، كما قال جرير :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

أراد المطر ؛ لقربه من السماء ، ويجوز أنه أراد بالسماء السحاب لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال « سقط » يريد سقوط المطر الذى فيه ، وقال : « رعيناه » والمطر لا يرعى ، ولكن أراد النبت الذى يكون عنه ، فهذا كله مجاز^(٢).

ويذهب الإمام يحيى بن حمزة إلى أن المجاز هو مورد البيان وذلك في قوله : اعلم أن علم البيان من عوارض الألفاظ ، ومورده المجاز على أنواعه ، ومعناه إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه والنقصان ، فعلى قدر إغراق المجاز وحسنه يزيد المعنى وضوحا ، وعلى قدر نزوله وبُعده يتقص المعنى^(٣).

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٢) العمدة ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ ط دار الجليل .

(٣) الطراز ٣ / ٢٢٨ .

ويعلل ابن رشيق كون التشبيه من المجاز وكون الكناية من المجاز بقوله : وأما كون التشبيه داخلاً تحت المجاز فلأن المتشابهين في أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح ، لا على الحقيقة ، وكذلك الكناية في مثل قوله - عز وجل - عن عيسى ومريم - عليهما السلام - : ﴿ كَأَنَّا يَا كُلاَنِ الطَّعَامِ ﴾ كناية عما يكون عنه من حاجة الإنسان ، وقوله - تعالى - عن آدم وحواء - صلى الله عليهما - ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ كناية عن الجماع ، وقول النبي ﷺ لحاد كان يحدوبه : « إياك والقوارير » كناية عن النساء لضعف عزائمهن (١).

ونحن حين نعرض للمجاز النبوي ومن قبله مجاز القرآن ، فإنه ينبغي أن نلفظن إلى أن القرآن الكريم نزل بالأسلوب الإلهي المعجز حاوياً كل أسباب البلاغة ، حاملاً كل ألوان البيان ، حيث لم يكن هناك حين نزول الوحي نقاد أو دارسون قد تعارفوا على أن يطلقوا هذا النوع أو ذلك من الأشكال البلاغية : اسم التشبيه أو المجاز أو الاستعارة أو الكناية ، أو الجناس أو المقابلة أو التصريح إلى غير ذلك من الأسماء . والشئ ذاته ينطبق على كلام رسول الله ﷺ فالقرآن ممثلاً في كتاب الله ، والسنة ممثلة في حديث رسول الله متعاصران : الوحي ينزل مفرقا ، والرسول ﷺ تصدر عنه الأحاديث متتابعة ، شرحاً للعقيدة وإكمالاً للأحكام وتبييناً للقرآن وإرساءً للشريعة وتعليماً للصحابة .

فلما تفتحت الآفاق في العلوم الدينية واللغوية والأدبية كان علم البلاغة والبيان واحداً من هذه العلوم التي كان همها الأول دراسة إعجاز القرآن ، ثم دراسة الحديث النبوي الشريف ، ومنها إضافة إلى التراث الأدبي وبخاصة الشعر ، كان استخلاص العلوم البلاغية والبيانية ، إنهم جمعوا المادة ، ومنها استنبطوا القواعد ثم قاموا على تطبيقها ، ولذلك سوف يكون عرضنا للمجاز في حديث رسول الله مرتباً بالمعاني السامية التي تناوها الرسول بأسلوبه البشري المعجز ، وليس ارتباطاً بما تعارف عليه النقاد من مجاز لغوي أو مجاز عقلي .

إن أول ما نعرض له من المجازات النبوية فريق منها مرتبط بالإسلام كعقيدة ثابتة

(١) العمدة ١ / ٢٦٨ .

الأركان لا تهتز بالأحداث ، ومن ثم ينبغي أن يكون التعامل معها صادراً من هذا الثبات .

يقول ﷺ في هذا المقام :

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

يقول الشريف الرضى في هذا المجاز : إنه وصف الدين بالمتانة ، والمراد أنه صعب الظهر ، شديد الأسر ، مأخوذ من متن الإنسان وهو ما اشتد من لحم منكبيه ، وقد وصفه رسول الله بذلك لمشقة القيام بشرائطه ، والأداء لوظائفه ، فأمر - عليه الصلاة والسلام - أن يدخل الإنسان أبوابه مترقفاً ، ويرقى هضابه متدرجاً ، ليستمر على تجشم متاعبه ، وشبه - عليه الصلاة والسلام - العابد الذى يتعب نفسه ويستنفد طاقته بالمنبت ، وهو الذى يغذ السير ويتعب ظهر الدابة منقطعاً من رفقته ، ومنفرداً عن صحابته ، فتعجز مطيته عن إكمال المسير ، ولا يقطع شقة الطريق (١) .

ثم يكون المجاز التالى حول فضل الإسلام على معتنقيه ، وأنه مستأصل لذنوب المسلم قبل إسلامه ، وفيه يقول ﷺ :

« الإسلام يُجِبُّ ما قبله » وهو مجاز ، لأن الفعل (جَبَّ) يعنى اختزال سنام الإبل من أصله ، فكأنه ﷺ جعل الإسلام مستأصلاً لكل الذنوب التى اقترفها المسلم قبل إسلامه ، ويعفَى على كل ما تقدم من الجنايات والسوءات (٢) .

والمجاز الثالث حول الإسلام يتسق فى جلاله مع سمو الصياغة المحمدية ، والإعجاز البشرى للبلاغة النبوية ، يقول ﷺ :

« إن الله - سبحانه - جعل الإسلام داراً ، والجنة مأدبة ، والداعى إليها محمداً - صلى الله عليه وعلى آله » (٣) .

(١) المجازات النبوية ، ص : ١٧٦ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٥١ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ١٤٣ .

والمجاز هنا هو أنه ﷺ أقام الإسلام مقام الدار ، والجنة مقام المأدبة ، والنبى مقام الدال عليها والداعى إليها ، وهو مجاز غير مسبوق فى موضوعه ، ولا ملحوق فى رفته وبلاغته .



أما وقد أوردنا مجازات الرسول ﷺ عن الإسلام ، فمن الطبيعى أن نعرض الحديث التالى عن كتاب الإسلام ، وهو القرآن الكريم ، وذلك فى قوله - عليه الصلاة والسلام - : « إن القرآن شافعٌ مشفعٌ ، ومأجلٌ مُصدّقٌ » (١) وهذا القول مجاز ، والمراد هنا أن القرآن سبب لثواب العامل به ، وعقاب العادل عنه ، والمأجل : هو الشاكى .
والصلاة عماد الإسلام ، أو هى - طبقا للحديث النبوى الشريف - عماد الدين ، وهى لذلك تستأثر بهذا النطق النبوى الشريف البليغ الرفيع :

« لكل شىء وجه ، ووجه دينكم الصلاة ، فلا يشينن أحدكم وجه دينه ، ولكل شىء أنف ، وأنف الصلاة التكبير » (٢) .

والمراد هنا أن الصلاة يعرف بها جملة الدين ، كما أن الوجه يعرف به جملة الإنسان ؛ لأنها أظهر العبادات ، وجعل أنفها التكبير ، لأنه أول ما يبدو من أشرطها ، ويسمع من أركانها .

والتكبير مثلما يكون فى الصلاة إحرامًا وركوعًا وقيامًا وسجودًا ، فهو أيضا استهلال الأذان ، ثم يكون النطق الثانى فيه - يعنى فى الأذان - : شهادة أن لا إله إلا الله .
سمع رسول الله ﷺ مؤذنا يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال : صدَّقَكَ كُلُّ رطبٍ ويابسٍ » (٣) .

والمجاز هنا أن الرطب واليابس من الشجر والعشب والماء والتراب لا كلام لهما ، ولا روح فيهما ، وإنما أراد ﷺ أن تصديقهما بلسان الخلق لا بلسان النطق ، فجميع

(١) المصدر السابق ، ص : ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ١٦٧ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ١٧٨ .

المخلوقات شاهدة بأن لا إله إلا الله من شواهد الصانع الحكيم ، فهي من هذه الوجوه متكلمة وإن كانت خرساء ، ومفصحة وإن كانت عجماء .



والعلم في الإسلام فريضة بنص حديث رسول الله ﷺ وإن السورتين الأولى والثانية في ترتيب النزول القرآني تحضان على العلم ، الأولى ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمَائِكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ والثانية قسم بالحرف والقلم وما يسطره ﴿ تَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ومن ثم كان العلم حرماً بتشريف رسول الله لذكوره ، فقال في ذلك أكثر من حديث ، بعضها من قبيل المجاز الرفيع ، قال ﷺ :

« العلم خزائن ، ومفتاحها السؤال ، فاسألوا رحمكم الله ، فإنه يؤجر أربعة : السائل ، والمجيب ، والمستمع ، والمحبت لهم » (١).

وهذا القول أيضا مجاز ، والمراد تشبيه العلم في قلوب العلماء بالخزائن المستغلقة ، وإنما تفتح بسؤال السائلين ، ويستخرج ما فيها ببحث الباحثين .

ثم يكون الحديث النبوي التالي مجازياً مرتبطاً بالعلم والعقل والنفس . يقول الهادي البشير - صلوات الله وسلامه عليه - :

« العلم رائد ، والعقل سائق ، والنفس حرون » (٢)

إن كل جملة هنا مجاز ، فقد شبه العلم بالرائد الذي يتقدم أمام الحى فيدهم على المنزل الخصيب ، وشبه العقل بالسائق لأنه يحث الإنسان على سلوك النهج الأسلم ، ويحمله على الذهاب في الطريق الأقوم ، وشبه النفس بالدابة الحرون ؛ لأنها تتعاقس عن الرشد ، وتضرب بالسوط حتى تسلك الطريق الصالح .



(١) المجازات النبوية ، ص : ١٦٩ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٦١ .

وَلِمَا لِلْأَنْصَارِ مِنْ مَكَانَةٍ فِي قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقِيَامِهِمْ بِنَصْرَتِهِ يَوْمَ أَنْ عَادَاهُ الْأَهْلَ
وَإِنْفَضَ عَنْهُ الْقَرِيبَ ، فَقَدْ وَرَدَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي فَضْلِهِمْ ، وَالْإِشَادَةِ
بِشَهَائِلِهِمْ ، وَتَكْرِيمِ الرَّسُولِ لَهُمْ .

فَمِنْ مَجَازَاتِهِ ﷺ قَوْلُهُ لِلْأَنْصَارِ : « أَنْتُمْ الشُّعَارُ ، وَالنَّاسُ الدُّنَارُ » (١) .

وَالشُّعَارُ : هُوَ الثَّوْبُ الَّذِي يَلْبَسُهُ الْإِنْسَانُ ، وَالدُّنَارُ هُوَ مَا يَتَدَثَّرُ بِهِ وَيَكُونُ فَوْقَ
الْمَلَابِسِ الدَّاخِلِيَةِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْأَنْصَارَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ
أَبْعَدُ مِنْهُمْ مَكَانًا وَمَكَانَةً .

وَمِثْلُهَا احْتِفَالُ الرَّسُولِ ﷺ بِالْأَنْصَارِ تَكْرِيمًا وَثَنَاءً ، فَقَدْ رَوَى عَنْهُ ﷺ كَثِيرٌ مِنَ
الْأَحَادِيثِ حَوْلَ الصَّحَابَةِ خَاصَّةً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَحَوْلَ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً فِي كُلِّ
الْأَزْمَةِ وَجَمِيعِ الْأَمَكَةِ ، وَهُوَ ﷺ يَشْرَعُ لِلْعَلَاقَاتِ الَّتِي تَرْبِطُهُمْ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ عَلَى هَذَا
النَّحْوِ النَّبِيلِ مِنَ الْقَوْلِ الرَّفِيعِ :

« الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأَ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ » (٢) .

وَالْمَعْنَى أَنَّ مِثْلَهُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ فِي وَجُوبِ الْإِنْفَاقِ بَيْنَهُمْ مِثْلَ الْيَدِ الْوَاحِدَةِ ، فَكَمَا لَا
يَتَصَوَّرُ أَنْ يَخْذُلَ بَعْضُ أَجْزَاءِ الْيَدِ بَعْضًا ، وَأَنْ تَخْتَلِفَ بِهَا الْجِهَةُ فِي التَّصَرُّفِ ، كَذَلِكَ
سَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَعَاظُدِهِمْ عَلَى الْمَشْرِكِينَ ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ جَامِعَةٌ لَهُمْ ، فَلِذَلِكَ
كَانُوا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .



وَالجَنَّةُ هِيَ جَائِزَةُ الْمَوْلَى - جَلَّ وَعَزَّ - لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ . وَالنَّارُ جَزَاءُ الْمَشْرِكِينَ
الْكَافِرِينَ ، وَقَدْ وَرَدَتْ كَثِيرًا فِي أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ﷺ يَعْرِضُهَا هُنَا فِي مَجَالِ
التَّعْبِيرِ الْمَجَازِيِّ النَّبَوِيِّ الرَّفِيعِ :

قَالَ ﷺ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » (٣) .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٤٢ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص : ٣٣٦ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٣٠٣ .

والمراد أن جميع الأعمال التي تؤدي إلى الجنة وتوصل إليها طريقها وعر ، ومذاقها مرٌ، ولذلك قيل : « حفت الجنة بالمكاره » على سبيل المجاز .

وعلى عكس ذلك لما كانت الأفعال المؤدية إلى دخول النار كثيرة الملائد ، صار من البلاغة أن يقال : « حفت النار بالشهوات » .

ثمت حديث آخر حول مؤهلات أهل الجنة ومواصفاتهم ، إنه لا يدخلها إلا من كان مؤهلاً لها ، وهو ما يصوره الرسول ﷺ في كلمات قليلة .

يقول ﷺ في مقام المجاز : « لا يدخل الجنة لحمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ » (١).

هذا القول مجاز ؛ لأنه ﷺ شبه أعضاء الجسم بنبات أغصان الشجر لما بينهما من التشابه ، فالعروق كالعروق ، واللحاء كالجلد ، والإبراق كالحياة ، واليبس كالوفاة .



ومثلما كرم الرسول ﷺ الأنصار وهم أهل المدينة المنورة ، فكذلك انصرف اهتمامه كثيراً إلى تكريم المدينة نفسها ، وذلك في الأمر الإلهي الذي صدر إليه باختيارها مهاجراً له ولصحابته .

قال ﷺ : « أُمِرْتُ بِقَرِيَّةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى ، تَنْفِي الْخَبْثَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبْثَ الْحَدِيدِ » (٢).

فقوله : « أُمِرْتُ بِقَرِيَّةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى » مجاز ، والمراد أن أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم ويغنمون أموالهم ، فكأنهم يأكلونهم . والمراد بقوله : « تَنْفِي الْخَبْثَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبْثَ الْحَدِيدِ » أن أهلها يتمحصون فينتفي عنها الأشرار ، ويبقى بها الأخيار .

ولقد كرم رسول الله ﷺ المدينة المنورة بامتداحها حين امتدح جبل « أحد » ولعل الرسول الكريم قد اختار جبل أحد بذاته لما يرتبط به من ذكرى ماثلة في أذهان المسلمين

(١) المجازات النبوية ، ص : ٨٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٢٥٥ .

لما أصيبوا بجواره من الهزيمة المعروف خبرها ، فأراد الرسول أن يلبسه ثوبا من التكريم
تزل مع ذكريات الهزيمة الأليمة .

قال رسول الله ﷺ وقد نظر إلى جبل « أحد » منصرفه من غزاة خيبر : « هذا جبل
يحبُّنا ونحبُّه » (١) وهو قول محمول على المجاز ؛ لأن الجبل لا يحب ولا يُحَبُّ ، والمراد
أن « أُحُدًا » جبل يحبنا أهله ونحبُّ أهله ، وأهله هم أهل المدينة من الأنصار ، وهم
الأوس والخزرج .

وكانت الخيل مناط اهتمام رسول الله ﷺ فهي عدة الإنسان في الحرب والسلام ،
وللرسول فيها أقوال كثيرة ما بين مجازات واستعارات وتشبيهات .

قال ﷺ في الخيل : « ظهورها حِرْزٌ ، وبطنها كنزٌ » (٢) والمراد أنها منجاة من
المعاطب وملجأة عند المهارب إذا ركبت ، وأنها تنمي الأموال باستيداع بطنها نظف
الفحولة فتلد لهم الجياد النجبية .

ومن أقوال الرسول ﷺ التي جرت مجرى الأمثال السائرة في الخيل ، وهي في الوقت
نفسه تدخل تحت باب المجاز، عبارته البليغة : « الخيل معقودٌ بنواصيها الخير » (٣) ففي
« الحقيقة » لا يتصور أن نواصي الخيل ينعدق بها الخير ، وإنما المراد أن الخير كثيرا ما
يدرك بواسطة الخيل ويوصل إليه عليها ، فهي كالوسائل إلى بلوغه ؛ لأنهم عليها
يفوقون الأعداء ، ويبلغون العلياء ، ويصيبون المغانم ، فكأنه معقود بنواصيها لشدة
ملازمته لها .



وفي تمجيد الكرماء وتشجيع العطاء والترغيب في الإنفاق والإكثار من بذل
الصدقات تروى كثير من أحاديث رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى » (٤) وهو في فن المجاز من القمة ؛ لأن

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٥ .

(٢) المجازات النبوية ص : ٢٨ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٤٩ .

(٤) المجازات النبوية ، ص : ٣٨ .

الرسول - عليه الصلاة والسلام - أراد باليد العليا يد المعطى ، وأراد باليد السفلى يد المستعطى ، وفي الحقيقة أنه ليس ثمت يد عالية ويد نازلة سافلة ، وإنما المراد أن المعطى أعلى رتبة من الآخذ في مجال الرشد .

وقد جاء مجاز آخر من المجازات النبوية فيه ذكر ما هو متصل بتحسين الإنفاق والبدل ، غير أنه جاء في مجال ما كان يجري من حوار بين الرسول ﷺ وبين أزواجه .

فقد قال رسول الله ﷺ لأزواجه : « أَشْرَعُكُمْ لِحَاقَابِي أَطْوَلُكُمْ يَدًا » (١) فلما سمعن منه هذا القول أخذت كل واحدة منهن تقيس ذراعها لتظهر أطولهن يدا ، إلى أن توفيت زينب بنت جحش وكانت كثيرة التصدق ، فعلمن حينئذ أن المراد بطول اليد كثرة البر ووفرة البذل .

ومن المجازات التي يربى الرسول من خلالها مجتمع المسلمين ما روى عنه ﷺ في شأن زيارة المريض ، قال ﷺ :

« عائد المريض على مخارف الجنة » (٢) .

جعل ﷺ زائر المريض كالماشي في طريق يفضى به إلى الجنة ، ويوصله إلى دار الإقامة .

تلك نماذج قليلة من المجازات النبوية التي وردت في أحاديث رسول الله ﷺ ومحاوراته مقتديا فيها بالمجازات القرآنية التي ألف فيها علماء الأمة عشرات الكتب النفيسة التي حفلت بها المكتبة الإسلامية ، وازدانت بها خزائن كتب التراث الإسلامى .

(٤)

الاستعارة في كلام الرسول :

اهتم اللغويون والبلاغيون والنقاد بالأنواع البلاغية ، منذ أواخر القرن الثانى والثالث ، وقد لقيت « الاستعارة » منهم عناية غير قليلة .

(١) المجازات النبوية ص : ٥٨ ، وأسرار البلاغة ، ص : ٣٣٠ وفيها جاء بصيغة أخرى وهى : قال النبى ﷺ وقد قالت له نساؤه : أبتنا أسرع بك لحاقا يا رسول الله ؟ فأجاب : « أطولكن يدا » يريد السخاء والوجود وبسط اليد والبدل .
(٢) المجازات النبوية ، ص : ٨٨ والمخارف : جمع مخرفة ، وهى الطريق .

يقول ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ : إن العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاوراً لها أو مشاكلاً ، فيقولون للنبات : نوء ؛ لأنه يكون عن النوء عندهم ، ويقولون للمطر : سماء ، لأنه من السماء ينزل ويقولون : ضحكت الأرض : إذا أنبت ؛ لأنها تبدى عن حسن النبات ، وتتفتق عن الزهر ، كما يفترّ الضاحك عن الثغر (١).

ويقول ابن المعتز المتوفى ٢٩٦ هـ عن الاستعارة : هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها لشيء عرف بها (٢).

ويقول أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩١ هـ : هي نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه (٣).

ولما كانت الاستعارة فرعاً من المجاز ، فإن ابن رشيق القيرواني المتوفى ٤٦٣ هـ يقول فيها : الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس في حلى الشعر أعجب منها ، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ، ونزلت موضعها (٤). ويعرض ابن رشيق أمثلة كثيرة من أقوال الشعراء منها المعجب ومنها القبيح ، ويذكر تعريفات بعض البلاغيين لها كالقاضي الجرجاني وأبي الحسن الرماني ، وابن جني ، ثم ينتهي إلى القول : والاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ودالة ، ليس ضرورة ، لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم ، فإنما استعاروا مجازاً واتساعاً ، ألا ترى أن للشيء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعيرون له مع ذلك ؟ على أننا نجد أيضاً اللفظة الواحدة يعبر بها عن معاني كثيرة ، نحو « العين » التي

(١) كتاب (تأويل مشكل القرآن) ص : ١٠٢ .

(٢) كتاب البديع ص : ١٩ .

(٣) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٦٨ .

(٤) العمدة ١ / ٢٨٦ .

تكون جارحة ، وتكون الماء ، وتكون الميزان ، وتكون المطر الدائم الغزير ، وتكون نفس الشيء وذاته ، وتكون الدينار ، وما أشبه ذلك كثيرا^(١).

وينسج عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١ على منوال ابن رشيق فيعدّ الاستعارة فرعاً من المجاز ، ثم يقول عنها : الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه وتجرّيه عليه^(٢).

فالأساس الذى تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه ، ولذلك عدّ أصلاً وُعدّت الاستعارة فرعاً . ومنذ ابتداء البحث فيهما - التشبيه والاستعارة - والعلماء يخلطون بينهما فيجعلون بعض الاستعارات تشبيهات ، وكثيراً ما يعكسون فيطلقون على بعض التشبيهات لقب الاستعارة^(٣) على أن معالم الاستعارة ما لبثت أن استقلت عن أصلها الذى استمدت منه وهو التشبيه ، وأصبح التفريق بينهما أمراً معنوياً .

ولقد وضع البلاغيون للاستعارة تعريفات عديدة ، ينبع أكثرها من معين واحد ، وتصب في بحر واحد ، فمن أمثلة هذه التعريفات قولهم :

* الاستعارة : استعمال العبارة في غير ما وضعت له في الأصل .

* الاستعارة : تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة .

* الاستعارة : ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له ؛ لأجل المبالغة في التشبيه .

* الاستعارة أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مدّعياً دخول المشبه في جنس المشبه به ، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبّه ما يخص المشبه به .

* الاستعارة : مجاز لغوى علاقته المشابهة .

* الاستعارة : تشبيه حذف أحد طرفيه .

(١) المصدر السابق / ١ / ٢٧٤ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص : ٥٣ .

(٣) معجم البلاغة العربية : للدكتور بدوى طبانة ، ص : ٤٦٠ .

فإذا أردنا أن ننتهي في الاستعارة إلى تعريف مبسط موحد عمدنا إلى ما عرفها به الأستاذان على الجارم ومصطفى أمين في قولهما :

الاستعارة من المجاز اللغوي ، وهي تشبيهٌ حذف أحد طرفيه ، فعلاقتها المشابهة دائما . وهي قسمان :

١ - تصریحية وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به .

٢ - مكنية : وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه . وتنقسم الاستعارة أيضا إلى أصلية وتبعية :

١ - فهي أصلية إذا كان اللفظ الذي جرت فيه اسماً جامداً .

٢ - وتكون تبعية إذا كان اللفظ الذي جرت فيه مشتقاً أو فعلا .

والشئء الجدير بالذكر في هذا السياق هو أن تقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية عام في الاستعارة سواء أكانت تصریحية أو مكنية .

تلك تعريفات كان لابد من ذكرها للتعرف على الاستعارة وأقسامها المختلفة ، ولتكون المعايير بين يدي القارئ إذا ما عنّ له في مجال قراءته لهذا الفصل أن يتعرف بواسطتها على نوع الاستعارة ، تصریحية كانت أم مكنية ، أصلية كانت أم تبعية .

أما هدفنا نحن من ذكر الاستعارات النبوية فهو الإبانة عن البلاغة المعجزة للرسول ﷺ في نطاق بشريته وهو يتناول قضايا الإسلام وأحكامه ، وتبصيره المسلمين بما ينبغي أن يلتزموه أو يتركوه في مجال تربيته لهم وتوجيهه إياهم وتنوير الطريق وإضاءة السبيل في كل ما يعن له ﷺ أن يزودهم به ، أو ما يتبادر إلى أذهان الصحابة من أمور يودون معرفتها أو يريدون استيضاحها ، فجاء ذلك كله في ثوب من البلاغة الأرفع ، والبيان الأسمى والصوغ الأنصع ، ولم يكن كلام الله أو أقوال رسوله ﷺ مستهدفة تقسيم الكلام على النحو البياني الذي ورد فيما تمثلنا له من الكتاب العزيز أو الحديث الشريف ، ففيهما - الكتاب والحديث - ما ينوف مرات ومرات على المسميات التي استخرجها البلاغيون منها ، وكلما مرّ الزمان وتعاقبت السنون ظهر من آيات الإعجاز

وعلاماته في كتاب الله وحديث رسوله ما هو زادٌ للمؤمنين تقرّب به أعينهم ، وتنشرح به صدورهم ، وما هو حجة على المنكرين ، تسودّ به وجوههم وتضيّق به حياتهم ، ويستكن منه مكرهم .

كان من الأمور الطبيعية أن تشمل الاستعارات النبوية الإسلام عقيدة وشريعة وأركاناً وإخباراً ، والاستعارات في هذا الموضوع من الكثرة بمكان ، فالجماعة في الإسلام تشمل وجوده مظهرًا ومخبرًا ، ومن ثم فقد جرت هذه الاستعارة على لسان رسول الله .

قال ﷺ: « من خالف الجماعة فقد خلع ربة الإسلام من عنقه » (١).

وهذه استعارة ؛ لأن الربة جبل يربط بين عودين ، ثم تُجعل فيه عرى فتربق فيه السخال ، أى : تربط فيه . فالإبل تُعقل ، والغنم تُربق ، فشبه ﷺ ما في عنق الإنسان من لوازم الإسلام ومعاهد الإيمان بالربة التي في عنق السخل ، لأنها تصدّه إذا هم بالشroud ، وكذلك الإسلام يمنع صاحبه من الارتكاس في المحظورات .

ومن محاسن الاستعارات في شأن الإسلام وتقاعس المسلمين في بعض مراحلها المستقبلية قوله ﷺ: « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً » (٢) فقد جعل الإسلام في أول أمره شبيهاً بالرجل الغريب الذي قلّ أنصاره ، وبعدت دياره ؛ لأن الإسلام كان على هذه الصفة في أول ظهوره ، ثم اشتد ساعده ، واستقرت قواعده . وقوله ﷺ: « وسيعود غريباً » أى : يعود إلى مثل الحال التي كان عليها في أول أمره في قلة عدد العاملين بشريعته ، والقائمين بأحكامه .

وشبيهة بالاستعارة السابقة قوله ﷺ: « إن الإسلام بدأ جدعاً ثم نبتاً ثم رباعياً ، ثم سدّيساً ثم بازلاً ، وما بعد البزول إلا النقصان » (٣).

إن هذا الكلام كله استعارات ، والمراد تمثيل الإسلام في تنقل أحواله وتغاير أوصافه

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٠١ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٣٦ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٢٨٤ .

بولد الناقة ينتقل في أسنانه ، فيكون أول أمره جَدْعاً - يعنى في الخامسة من عمره - ثم ثِيئاً - يعنى في السادسة - ثم رَبَاعِيًّا - يعنى في السابعة - ثم سَدِيساً - يعنى في الثامنة - ثم بَازِلًا - يعنى في التاسعة - وهى سن التَّام ، وليس بعدها إلا النقصان . ومدار القصد النبوى أن الإسلام بدأ في غاية الصغر ثم انتهى إلى غاية الكبر ، وأنه ﷺ يخشى عليه نقيصة التمام .

وعن عماد الإسلام وحقيقة وجوده مظهرًا ومخبرًا يقول ﷺ لمعاذ بن جبل : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ » قال : بلى يا رسول الله . قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجهاد » .

كأنه ﷺ جعل الإسلام رأس دين الله المتقدم ، ورئيسه المعظم ، وجعل الصلاة عموده الذى به قوامه ، أى : نظامه وعماده وملاكه ، وجعل الجهاد ذروة سنامه ؛ لأنه بعد الرأس أعلى مشارفه وأرفع مراتبه ، وبه - أى : الجهاد - يشاد بناؤه ، ويقام لواؤه . ويقمع أعداؤه (١) .

والقرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه ، وحامل تشريعه وضامن أحكامه ، وهو مصدر العقيدة وعماد التوحيد ، ومعجزة الإسلام الخالدة ، ومن ثم كانت عناية الرسول بالقرآن الكريم لا يحدها قول ، ولا ينتهى إليها مطاف ، ولذلك فقد كثرت فيه الأحاديث التى تشمل جميع الأنواع البلاغية من تمثيل ومجاز وتشبيه واستعارة .

قال ﷺ فى عهد كتبه لعماله على اليمن : « فَإِنْ هَذَا الْقُرْآنُ حِجْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ ، فِيهِ إِقَامَةُ الْعَدْلِ ، وَبِنَايِجِ الْعِلْمِ ، وَرَبِيعِ الْقُلُوبِ » (٢) .

وهنا ثلاث استعارات :

الأولى : قوله ﷺ : « فَإِنْ هَذَا الْقُرْآنُ حِجْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ » فشبّه القرآن بالحبل الممدود بين الله - سبحانه - وبين خلقه فى أنه عصمة لمن استعصم به ، ومسكة لمن استمسك به .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٥٤ .

الثانية : قوله : « ينابيع العلم » فإن ما يفتحه القرآن من أبواب العلم وطرقه ينقع الغليل بعد الشك المحيّر كما يبرد الماء الغلة بعد الطقس المبرح ، فلذلك شبهه ﷺ بعيون الماء ، وينابيع الرواء .

الثالثة : قوله : « ربيع القلوب » فجعل القرآن للقلوب الواعية بمنزلة الربيع للإبل الراحية ؛ لأن القلوب تنتفع بتدبر القرآن وتأمله ، كما تنتفع الإبل بما يجود به الربيع ، فهذا غذاء للأرواح كما أن ذاك غذاء للأجسام .

وعن تلاوة القرآن السليمة المجودة المؤثرة في النفوس النافذة إلى القلوب يقول ﷺ : « من سره أن يقرأ القرآن غصّاً كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد »^(١) فالغصّ صفة للثمر أو النبت الذي لم يطل مكثه بعد مجتنائه ، فيؤثر فيه الزمان ، ويعتريه التغيير والفساد ، فأراد النبي ﷺ أن من يأخذ القرآن عن ابن أم عبد وهو عبد الله بن مسعود أو يسلك في القرآن نهجه ، فقد أخذه سليماً من الفساد والتغيير، بريئاً من التحريف والتبديل .

وقد روى هذا الخبر على نحو آخر ، وهو قوله - عليه الصلاة والسلام - : « من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل » والمعنى في الروایتين واحد .

وروى أبو هريرة : « من أحبّ أن يقرأ القرآن غريضاً كما أنزل . . » والغريض : هو الطير . وهو أيضاً في معنى الروایتين السابقتين .

وعن الدنيا وفنائها والآخرة وبقائها ، ورخص الأولى ونفاسة الثانية يقول رسول الله ﷺ في مقام تقويمهما في إحدى خطبه :

« ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة » .

والاستعارة هنا أن الدنيا بمثابة الهارب المولّي ، فالارتحال بمعنى الرحيل ، والارتحال أيضاً بمعنى امتطى الرحل استعداداً للسفر ، وأن الآخرة بمثابة القادمة الباقية أو هي

(١) المجازات النبوية ، ص : ١٢٣ .

بمنزلة الطالب السابق في الحلبة . وفي هذا القول الشريف أكثر من عنصر من عناصر البديع ، وهو ما سوف نبينه في الفصل القادم إن شاء الله .

والصلاة في الإسلام هي عماد الدين ، وقد ذكرنا قبل قليل قول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . . » الحديث ، وفيه يذكر الرسول أن « عماد الأمر الصلاة »

وإن أحاديث الرسول ﷺ في الصلاة كثيرة وفيرة ، وفي الاستعارة التي بين أيدينا الآن يربط رسول الله ﷺ بين الوضوء والصلاة ؛ فالصلاة لا تجوز بغير الوضوء ، فيقول :

« إن المسلم إذا توضأ ثم صلى الخمس تحاقت خطاياها كما يتحات الورق » (١) والمراد أن الله تعالى يكفر عنه خطاياها بسرعة ، فتتحط أوزارها كما تتساقط الأوراق عن أغصانها إذا زعزعتها الرياح ، وغنى عن البيان أن الصلاة ينبغي أن تكون مقرونة باجتناب الكبائر .

ويذكر الرسول ﷺ أوقات الصلاة في عدة أحاديث ، وفي عهده إلى عماله باليمن الذي مر ذكره قبل قليل يقول في وقت العصر والعشاء : « والعصر إذا كان ظل كل شيء مثله^٢ وكذلك ما دامت الشمس حية . والعشاء إذ غاب الشفق إلى أن تمضي كواهل الليل » (٢) .

فنحن هنا أمام استعارتين ، الأولى : قوله - عليه صلاة الله وسلامه - : « ما دامت الشمس حية » والمراد بحياة الشمس هنا كونها في بقية من الاحمرار من قبل أن يفضى لونها إلى التغير والاصفرار ، ولذلك قالوا : شمس مريضة إذا ولى احمرارها وأقبل اصفرارها ، والاستعارة الثانية قوله ﷺ : « إلى أن تمضي كواهل الليل » والمراد أن تمضي أوائله ، فساها كواهل تشبيها لليل بالمطايا السائرة التي تتقدم أعناقها وهوادياها ، ويتبعها أعجازها وتواليها ، ومن هنا قالوا في السارى ليلا : اتخذ الليل جملا ، ويقولون أيضا : ركب الليل ، لما جعلوه بمنزلة الظهر المركوب ، والبعر المرحول : يعنى الذى يتخذ للرحيل والسفر .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢١٠ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٥٥ .

ومن الفرائض التي جاءت في أحاديث رسول الله ﷺ في صيغة الاستعارة قوله ﷺ في جملة قليلة الكلمات ولكنها وافرة الخير والبركات .

« الصوم جُنَّةٌ ما لم يَحْرِقْهَا » والجُنَّةُ : كل ما وقى ، ويحرقها ، أى : يمزقها ويجعل فيها خرقاً ، وفي هذه الاستعارة شبه الرسول ﷺ الصوم الذى يجنّ صاحبه من وقوع العَذَاب إذا أخلص له النية ، فجعل من اعتصم في صومه من الزلل ، وتوقّى ذنوب القول والعمل ، كمن صان تلك الجنة وحفظها .

إن الشريف الرضى يصف هذه الاستعارة فيقول : إنها من أحسن التمثيلات وأوقع التشبيهات (١).

ومن أجلّ نعم الله على عباده أن الصوم لا يكون في فصل بذاته ، وإنما هو مثلما يكون في الصيف بحرارته ونهاره الطويل ، يكون كذلك في الشتاء بطقسه المقبول المحمول ، ونهاره القصير الذى لا يكاد يحس الصائم فيه جوعاً أو عطشاً ، والله - سبحانه - فضلاً منه وكرماً يثيب صائم رمضان في الشتاء - إذا كان صومه مصنوعاً من جارحات الصوم - بوافر الثواب وعميم المغفرة ، فشهر رمضان أيّاً ما كان موقعه من فصول السنة « أوله رحمة ووسطه مغفرة وآخره عتق من النار » يستوى في ذلك مجيئه في الصيف أو الربيع أو الخريف أو الشتاء .

قال ﷺ : « الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة » (٢).

يقولون : هذه غنيمة باردة إذا حيزتْ بغير استعمال السلاح والتعرض للجراح ، لأنه ليست كل الغنائم كذلك ، فكأنه ﷺ في هذه الاستعارة جعل صوم الشتاء غنيمة باردة ؛ لأن الصائم يحوز فيه الثواب الجزيل بلا معاناة مشقة ، أو مكابدة تعب ، لقصر نهاره وعدم التعرض للشمس وحرارتها والعطش وضراوته .

ويتناول الرسول ﷺ المؤمن وعلاقته بالمؤمن ، والمؤمن وعلاقته بالمشرك ، وطبيعى أن

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٦ .

تكون علاقة المؤمن بأخيه المؤمن في نطاق الإيجابية ، وليس كذلك الموقف في علاقة المؤمن بالمشرك .

يقول ﷺ في الحالة الأولى : « المؤمن مرآة المؤمن » ذلك لأن المرآة سبب للعلم بما لولاها لم يعلم ؛ لأن ذلك العلم طريقه الرؤية ، ولا سبيل أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة وما يجري مجراها من الأجسام الصقيلة ، فقد جمع الرسول ﷺ بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة ، وهى أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما تُرى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه (١) .

وفي الحالة الثانية يقول ﷺ : « لا تستضيئوا بنار المشركين » فاستعار النار للرأى والمشورة ، أى : لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم (٢) .

وأدعية رسول الله ﷺ واستغفراته من العمق الروحاني ، والإشراق البياني ، بحيث تجذب إلى الصالح فضلا عن العاصي طُرُقَ باب التَّوْبَةِ ، وغشيان عتبات الابتهالات والاستغفار ، وقد مر بنا باب كامل في أدعية رسول الله ﷺ وابتهالاته ، وهى فى حالاتها - مجازات كانت أو حقيقة - سلّم إذا ارتقاه التائب نال نعمة المغفرة . فمن هذه الأدعية التى جاءت فى صيغة استعارة ما كان ﷺ يقول فى دعاء يدعو به : « ربّ تقبل توبتى واغسل عنى حوبتى » (٣) والحوبة : هى المأثم ، والمراد فى هذه الاستعارة : احطط عنى وزرى واغفر ذنبى وخطيئتى . ولما كانت المعصية ، كالأقذار التى تصيب الإنسان فيقبح منظره ، أقام - عليه الصلاة والسلام - إماطة وزرها وإسقاط إثمها مقام غسل الأدران ، لأن الإنسان يعود بعدها نقى الثوب طاهراً من العيب .

وغنى عن البيان أن الرسول ﷺ معصوم من الزلل والخطايا ، ولكنه يعلم العصاة من أمته كيف يكون الاستغفار وكيف يكون الندم على الإثم المقترف والخطيئة المرتكبة .

وإن مدن الإسلام وأقاليمه كانت موضع عناية الرسول ﷺ ورعايته ، كانت هكذا

(١) عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ص : ٢٥٢ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير ٢ / ١٠٣ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ١٨٣ .

مكة والمدينة ، وكانت هكذا أيضا الحجاز واليمن ومصر والشام ، وأحاديثه الشريفة في تلك المدن والأقاليم ملء السمع والبصر ، ولكنه ﷺ حين يتناول مدينة أو قطراً يكون تناوله من زاوية بعينها أو بسبب حادثة بذاتها ، لقد تحدث عن مكة كثيرا ، حباً وإكباراً مرة ، وشوقاً وحنيناً مرات ، ولكن المناسبة التي بين أيدينا كانت بمناسبة غزوة بدر وفيها قال :

« هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » وفي رواية :
« قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها » .

قال رسول الله ﷺ ذلك عند خروجه إلى بدر للقتال ، وكان المسلمون قد ظفروا ببعض فرأط قريش - وهم الذين يتقدمون القوم - فأتوا بهم النبي ﷺ فسألهم عن خروج في ذلك اليوم من علية القوم ، فقالوا : فلان وفلان ، وعددوا قاداتهم وفرسانهم ، فقال الرسول ﷺ : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » والمراد بذلك أعيان القوم ورؤسائهم . فكأنه ﷺ أقام مكة مقام الحشا التي تجمع الأعضاء الشريفة كالقلب والكبد والفؤاد ، وجعل رجال قريش كشعب الكبد التي تحنو عليها الأضالع وقاية لها .

يقول الشريف الرضى في هذا السياق : وهذه من أنصع العبارات وأوقع الاستعارات^(١) .

والمدينة المنورة هي الأخرى كثيرا ما جرى ذكرها في حديث رسول الله ، وكل أحاديثه فيها إطراء لها ، وتمجيذ لأهلها الأنصار من الأوس والخزرج ، ولكن المدينة بلد غير مطير ، وربما كان ذلك من باب إشفاق رسول الله عليها وعلى سكانها ، مع أنها تقع بين قطرين مطيرين : الشام في الشمال واليمن في الجنوب .

يذكر الرسول ﷺ المدينة المنورة وسكنه فيها ، فيقول : « أُسْكِنْتُ بِأَقْلٍ الْأَرْضِ مَطْرًا ، وهى بين عيني السماء : عين بالشام وعين باليمن »^(٢) والشاهد هنا هو تشبيه كل من الشام واليمن - وهما قطران ممطران - بعيني السماء ، وقد تكون العين هنا هي العين

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٨٢ ، ٨٣ .

الإنسانية الدّامعة ، أو هى ينبوع الذى يجود بالماء ، فكما أن ماء العين موصول لا ينقطع ، فكذلك قطر السماء فى هذين البلدين متصل غير منقطع .

هذا ما كان من أمر ذكر البلدان ، فأما الأقطار فقد أشرنا إلى أنه ﷺ ذكر الشام واليمن والحجاز ، كما ذكر ﷺ فارس ومصر ، والرسول - صلاة الله وسلامه عليه - يذكر الحجاز هنا فى ثلاثة ألفاظ ، ولكنها تغنى عن عشرات الصفحات مدحاً وتكريماً وتشريفاً ، يقول رسول الله ﷺ فى صفة الحجاز هذه الجملة المكونة من ثلاث كلمات : «الحِجَازُ قَطِيفَةٌ الْإِيمَانُ» (١).

والقطيفة : هى الكساء الغليظ الذى يضم جسم الإنسان ، والمراد بالاستعارة أن الحجاز يحيط بالإيمان ، ويجمع شمله ، ويضم أهله ، كما تضم القطيفة جملة بدن الإنسان إذا اشتمل بها ودخل فيها ، ذلك أن أهل الحجاز من قريش ثبتوا على الإسلام بعد دخولهم فيه ، ولم يرتد منهم أحد ، وقد جاء فى الأخبار أنه ما من قبيلة من قبائل العرب بعد وفاة النبى إلا وقد فشا فيها الارتداد إلا قريشا وثقيفا ، فإنه لم يرتد منهم أحد .

هذا وإن أحاديث رسول الله ﷺ فى توجيه المسلمين وتربيتهم على الخير ، وتنشئتهم على الإيمان ، وغرس الرحمة فى قلوبهم وصلة أرحامهم ، وتثبيت أركان مجتمعهم ، وغير ذلك من الأغراض التى صيغت بأساليب البيان المختلفة من الوفرة بمكان ، ومن الحكمة بحسبان ، ومن الرقة بمقدار ، يقول ﷺ فى خير الزواج :

« اغتربوا لا تُضُؤُوا » (٢) وهى استعارة ، والمراد هنا تزوجوا الغرائب ولا تتزوجوا القرائب .

والضُّؤى : ضُؤول الجسم ودقته ، ويقال : أضوت المرأة إذا أتت بولد ضاؤٍ ، وهم يقولون : الغرائب أنجب .

ويقول الرسول ﷺ فى الثقة بنعم المولى - سبحانه - ودوام جوده على خلقه :

(١) المجازات النبوية ، ص : ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٧٥ .

« يمين الله ملىء سحَاء لا يغيضها الليل والنهار »^(١) والمراد باليمين في هذه الاستعارة نعمة الله ، وقد وصفها بالامتلاء لكثرة منافعتها فجعلها كالعين الثرة التي لا يغيضها المواتح ولا تنقصها النوازح ، والسحّ : شدة المطر .

وفي تشجيع المسلمين على صلة ذوى رحمهم ولو بكلمة طيبة يقول الرسول ﷺ :

« بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلام »^(٢) وفي رواية « انضحوا أرحامكم » والمراد من هذه الاستعارة : صلُّوا أرحامكم ولو بالسلام ، يعنى جدّدوا المودة بينكم وبين أقربائكم ولو بالسلام عليهم تشبيها ببلّ السقاء اليابس ؛ لأنه لا يتبلل إلا بماء الماء ، وهذا القول أبلغ ما نصح به امرؤ ليصل ذوى رحمه .

وفي عودة المريض والسؤال عنه يصدر عن رسول الله ﷺ من طيب القول ما لو وعاه الناس لجعلوا من عودة المرضى فرضا عليهم كالصلاة والصدقات ، يقول رسول الله ﷺ :

« من عاد مريضا لم يزل يخوض الرحمة حتى يجلس ، فإذا جلس اغتمس فيها »^(٣).

والمراد من الاستعارة التعبير عن كثرة ما يناله عائد المريض من جزيل الأجر وعظيم الثواب . فشبهه - عليه الصلاة والسلام - بالذى يخوض الماء الوفير في مشيته ، والمنغمس فيه عند جلسته .

وإذا كانت الشعوب الغربية ترى في عودة المريض إثقالا عليه فإن الإسلام ورسول الإسلام يريان أن في عيادة المريض إسهما في شفائه وربطاً بينه وبين الحياة العامة التي يتمنى أن يعود إليها سليما معافى ، وقد جاء في الحديث الشريف كلام إنسانى جليل في مقام عيادة المريض مثل ذلك المجاز البديع الذى سقناه في مكانه من « فصل المجاز » ممثلا في قول رسول الله ﷺ : « عائد المريض على مخارف الجنة » .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٢٥٠ .

ومن الاستعارات النبوية التي تربي المسلمين على العمل والاعتقاد على النفس هذا الحديث الشريف الجليل :

« من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »^(١) إنها استعارة المراد منها أن من تأخر بسوء عمله عن مواقف الفخر ومقتضيات الفضل ، لن يتقدم إليها بشريف نسبه ، فجعل ﷺ الإبطاء والإسراع مكان التأخر والتقدم .

ومن توجيهات الرسول ﷺ وتربية أبناء المسلمين على التريث في اختيار المرأة الصالحة زوجاً ، والتخلي عن الإسراع في ذلك بدافع من جمال ظاهر يستتر وراءه لؤم خاف وانحراف محجوب ، قوله ﷺ : « إياكم وخضراء الدمن »^(٢) .

ووجه البلاغة في الاستعارة هنا أن المقصود ليس لون النبات النامي على الدمنة أو طعمه أو شكله ، بل القصد منه شبه عقلي بين المرأة الحسنة في المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة ، وهو حُسنٌ في الظاهر في رأى العين مع فساد في الباطن ، وطيبُ الفرع مع حُبثِ الأصل .

وهذا الحديث الشريف مجاز مثلما هو استعارة ، مثلما هو كناية .

ومن الأحاديث النبوية التي تصلح تشبيها ، مثلما تصلح مجازا ، مثلما تصلح استعارة مثلما تصلح كناية ، حديث القوارير ، والحديث قد سبق ذكره ، وهو قول رسول الله ﷺ للحادى الذى كان يحدو للإبل فتسرع وكان اسمه أنجشة :

« يا أنجشة ، رفقا بالقوارير » .

فقد شبه الرسول ﷺ النساء المرتحلات في ضعفهن بالقوارير الرقيقة التي لا تحتمل المشاق ، فنهى الحادى أنجشة عن الاستمرار في حدائه الذى يجعل الإبل تزيد من سرعتها .

(١) المصدر السابق ، ص : ٣١٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص : ٦٢ والدمن : مفردا دمنة ، وهى ما اختلط من البحر والطين ، أى : المزبلة ، وهى أيضا آثار الدار .

ومن المعروف أن المجاز يشمل الاستعارة والكناية والتشبيه . وسوف نعرض لهذا الحديث مرة أخرى حين نعرض للكناية .

(٥)

الكناية :

الكناية موضع لاختلاف كثير من البلاغيين مع سهولة فهم معناها ويسر الوقوع على هدفها ومرماها ، فقد ذهب كل عالم من علماء البلاغة إلى حصر تعريف لها ، ثم لا يلبث خَلْفَهُ أن ينقضوا فعله ، وكان أكثرهم مناقضة البلاغى الإمام يحيى بن حمزة العلوى .

يقول ابن الأثير : حدّ الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ؛ لأن الكناية فى أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره . ثم يزيد ابن الأثير الأمر إيضاحاً فيقول : اعلم أن الكناية مشتقة من الستر ، يقال : كَنَيْتَ الشَّيْءَ : إذا سترته ، وأُجِرَى هذا الحكم فى الألفاظ التى يُسْتَرُّ فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا ، ألا ترى إلى قول الله - تعالى- : ﴿ أَوْلَمَسَّمُ النِّسَاءَ ﴾ فإنه إن جُمِلَ على الجماع كان كناية ، وإن حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة (١) .

وَيَنْقُضُ الإمام يحيى بن حمزة كلام ابن الأثير ومن سبقه ممن تصدوا لتعريف الكناية من أمثال عبد القاهر الجرجانى وابن سراج المالكى وغيرهم ، ثم يقول : والمختار عندنا فى بيان ماهية الكناية أن يقال : هى اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح .

وبعد أن ينتهى يحيى بن حمزة العلوى من تفسيره لقوله ، يعود إلى تقرير أن أكثر علماء البيان يعدّون الكناية من أنواع المجاز خلافا لابن الخطيب الرازى فإنه أنكر كونها

(١) المثل السائر ٣ / ٦٢ ، ٦٣ .

مجازاً ، وزعم أن الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود^(١).

وذهب ابن الأثير وغيره إلى أن الكناية جزء من الاستعارة ، لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له ، وكذلك الكناية فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه . ونسبة الكناية إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ، فيقال : كل كناية استعارة وليست كل استعارة كناية .

ويجىء العالم البلاغى الشاعر المعاصر على الجارم - رحمه الله - وييسر على الدارسين مفهوم الكناية وتعريفها فيقول : الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى . وتنقسم الكناية باعتبار المكنى عنه ثلاثة أقسام ، فإن المكنى عنه قد يكون صفة ، وقد يكون موصوفاً ، وقد يكون نسبة .

أما أمثلة الكنايات من حديث رسول الله ﷺ فهي كثيرة .

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من شقَّ عصا المسلمين فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام »^(٢).

والشقاق : المخالفة ، يقال : شُقَّتْ عصا المسلمين : إذا اختلفت كلمتهم وتبدد شملهم ، والربقة : القلادة ، والكناية هنا يدل ظاهرها على موقع المراد منها .

ومن الكنايات النبوية الطريفة قول رسول الله ﷺ لأنجشة : « ويحك يا أنجشة سوقك بالقوارير » وفي رواية « رفقا بالقوارير »^(٣) وقد مر بنا هذا الحديث فى آخر فصل الاستعارات - السابق على هذا الفصل - حيث اعتبر الحديث استعارة ، ولا بأس فى ذلك ، لكن الأصل فيه أنه كناية ، وكل كناية استعارة وليست كل استعارة كناية تبعاً لما ذكرنا قبل سطور قليلة .

(١) الطراز ١ / ٣٧٣ - ٣٧٥ .

(٢) أمثال الحديث لابن خلد الرامهرمزي ، ص : ١٢٤ .

(٣) الطراز ١ / ٤٠٧ والمثل السائر ٣ / ٧٤ ، ٧٥ .

إنها - كما يقول يحيى بن حمزة العلوى - كناية لطيفة ، فقد كنى الرسول ﷺ عن النساء بالقوارير من وجوه ثلاثة :

أولها : لما هُنَّ عليه من حفظ الأجنَّة ، والوعاء : كالقارورة تحفظ ما فيها .

ثانيها : لاختصاصهن بالصفاء والصقالة ، والحسن والنضارة .

ثالثها : لما فيهن من الرقة والمسارة إلى التغير والانثلام كما يتسارع الانكسار إلى القارورة لرقتها .

يقول يحيى عن الوجه الثالث : « وهذا هو الوجه الذى يومىء إليه الرسول ﷺ حيث قال فى حديث غير هذا : « رفقا بالقوارير » .

ومن الكنايات ما ورد فى الأخبار النبوية فى قول النبى ﷺ : « إنه كانت امرأة فيمن كان قبلنا ، وكان لها ابن عمٌ يحبها ، فراودها عن نفسها فامتنعت عليه ، حتى إذا أصابتها شدة فجاءت إليه تسأله ، فراودها فمكنته من نفسها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة ، قالت له : لا يحل لك أن تفضَّ الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها وتركها»^(١) فهذه كناية واقعة فى موقعها .

وفى الرواية التى جاء بها يحيى بن حمزة اختلفت الألفاظ بعض الشيء ، يقول : « فلما قعد منها مقعد الخائن ، قالت له : اتق الله ولا تفضض الخاتم إلا بحقه ، فقام وتركها» فكنت المرأة بالخاتم عن بكارتها ، وأنها بمنزلة الشيء المختوم الذى لم ينكسر ختمه^(٢) .

ومن الأحاديث التى صُوِّرت استعارة وصورت فى الوقت نفسه كناية قوله ﷺ حين رأى أهل مكة يتقدمون يريدون لقاءه للحرب : « هذه مكة قد أَلقت إليكم بأفلاذ كبدها يريدون أن يحادوا الله ورسوله » .

لقد عدَّ الشريف الرضى هذا الحديث من باب الاستعارات واستفتح به الأمثلة التى

(١) المثل السائر ٣ / ٧٤ .

(٢) الطراز ١ / ٤٠٨ .

ساقها في كتابه « المجازات النبوية » وقد أوردناه في فصل الاستعارات السابق على هذا الفصل .

ولكن الحديث كناية أيضا ، فكُنِيَ الرسول ﷺ بقوله : « أفلاذ كبدها » عن الرؤساء الأكابر ؛ لأن الكبد من أهم أعضاء جسم الإنسان وأعزها ، فكُنِيَ بها عنهم .

ومن الكنايات اللطيفة ما ورد عن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي وقد جاء إلى الرسول ﷺ في عام الحديدية حين نزل على الركبة في نفر من قومه من تهامة فقال : « أتى ركب كعب ابن لؤى وعامر بن لؤى ، نزلوا على مياه الحديدية ، معهم العودُ المطافيلُ ، وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت » .

فقوله : « العود المطافيل » جعلها كناية عن النساء والصبيان ، والعود : جمع عائد ، وهى الناقة التى قوى ولدها ، والمطافيل : جمع مُطْفِل ، وهى الناقة التى معها ولدها لقرب عهدها بالنتاج .

ويجوز أيضا حمل هذا الكلام على حقيقته ، أى : معهم الأموال الكريمة التى تكون قواما لهم فى الحرب وعونا لهم ، والأموال هنا هى الإبل ، والإبل جلّ أموال العرب^(١) .

ومن الكنايات النبوية أيضا قوله ﷺ : « إياكم وخضراء الدمن » وهذا تحذير ، وكنى بقوله : « خضراء الدمن » عن المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، وإنما كنى بذلك عنها لأمرين :

الأمر الأول : لأن أول عشرتها يكون حسنا موافقا ، ومن بعد ذلك تعود إلى الفساد والرداءة كزراع المزابل ، فإنه يعجب أولا ، ثم يذبل ويجفّ ويزول على القرب .

والأمر الثانى : لأن غضارتها ورونقها مُدَّتْهَا أيام قليلة ثم تصير مقحلة يابسة^(٢) .

ومن الطريف أن هذا الحديث تنازعه ثلاثة من البلاغيين ، هم : الشريف الرضى

(١) المثل السائر ٣ / ٧٥ والطراز ١ / ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) الطراز ١ / ٤١٠ .

وقد عدّه من المجاز (١) وقد تناولناه عند حديثنا عن المجاز . وعبد القاهر الجرجاني (٢) وقد تناولناه في حديثنا عن الاستعارات ، وها هو أمير المؤمنين الإمام يحيى ابن حمزة العلوي يعدّه كناية ، وقد صدق الثلاثة العلماء البلغاء ، فهذا الحديث مجاز واستعارة وكناية في وقت واحد .

وليس ذلك بمستبعد أن يصدر عن أفصح الفصحاء ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٦٠ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص : ٦٢ .



الفصل الثالث

علم البديع

- المحسنات اللفظية:
السجع ، الجناس.
- المحسنات المعنوية :
الطباق والمقابلة ، لزوم ما لا يلزم ، الإحصاء ، اللف والنشر .

علم البديع

البديع : علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقتها لمقتضى الحال ، وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

ومن البلاغيين من يسمي هذه العلوم الثلاثة : علم البديع ، ويعلمون هذا الإطلاق بأن البديع هو الشيء الذى يستحسن لطرافته وغرابته وعدم وجود مثاله من جنسه ، وهذه العلوم كذلك . ومنهم من يسمي علمى (البيان والبديع) علم البيان تغليبا للبيان المتبوع على البيان التابع .

ووجوه تحسين البيان التى يبحث فيها علم البديع قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ ، ومن ثم فهو علم المحسنات اللفظية ، والمحسنات المعنوية^(١).

وغنى عن البيان أن أول من ألف كتابا فى هذا الفن هو الخليفة الأديب الناقد الشاعر عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ وقد جعل عنوان كتابه « البديع » يعنى الجديد المستحدث ، وقد اشتمل منهجه فى كتابه على خمسة فنون ، هى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى .

وهكذا فإن مفهوم ابن المعتز لفنون البديع مغاير للمفهوم الاصطلاحي الذى انتهى إليه البلاغيون وارتضوه ، الذى أشهر موضوعاته فى المحسنات اللفظية : الجناس - أو التجنيس - والاقْتباس ، والسجع ، وفى المحسنات المعنوية : التورية ، والطباق ، والمقابلة ، وحسن التعليل ، وتأکید المدح بما يشبه الذم وعكسه ، ولزوم ما لا يلزم ، والإرصاد ، وأسلوب الحكيم ، وغيرها .

وفنون البديع التى ذكرها ابن المعتز موجودة أصلا - طبقا لكلامه - فى القرآن الكريم

(١) الدكتور بدرى طبانة : معجم البلاغة العربية : مادة علم البديع ، ص : ٦٧ .

وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وأشعار المحدثين من أمثال بشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، ودعبل الخزاعي ، والعكوك ، والعتابي ، وأبي تمام ، ومن سلك نهجهم وسار في دريهم . وينبئ ابن المعتز في نهاية مقدمته لكتاب «البديع» إلى أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع التي جاءت في كتابه ، مع أن الواقع أنهم استحدثوا أمورا مستجدة فيما أطلقوا عليه المحسنات المعنوية .

المحسنات اللفظية

المحسنات اللفظية - طبقاً لاصطلاح البلاغيين - التجنيس أو الجناس ، والاقْتباس ، والسجع ، وإذا كان البلاغيون القدامى قد درجوا على تقديم التجنيس عند دراستهم للمحسنات اللفظية ، فنحن نفضل في منهجنا هذا أن نبدأ بالسجع ؛ لأن ثمت تحفظات ارتبطت باستعماله والإيغال فيه ، ولأنه الأكثر استعمالاً ، والأوفر وروداً في كلام البلغاء .

وأما الاقتباس فإن صح تناوله في الدراسات العامة فإنه لن يجد مكاناً في هذا الكتاب ؛ لأن رسول الله ﷺ ظل استعماله للاقتباس محصوراً في الاقتباس من كتاب الله ولم يتعدده إلى غيره ؛ لأنه لا يعلو على كلامه إلا القرآن الكريم ، وإن اقتباس الرسول ﷺ من القرآن في خطبه ورسائله ومواعظه وسائر كلامه من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج إلى تناول في هذا الفصل من كتابنا .

(١)

السجع :

يختص السجع بالنثر دون الشعر ، مثلما يختص التصريح بالشعر ، وقد عرّفه القدماء : بأنه تواطؤ الفواصل في الكلام المنشور على حرف واحد (١) ، وبعبارة أوضح : هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير ، وأفضله ما تساوت فقره .

(١) الملل السائر ١ / ٣٠٨ .

ولقد تخرج بعض الأقدمين من استعمال السجع بحجة أن رسول الله ﷺ قد نهى عنه ، والحقيقة أن الرسول لم ينه عن استعماله ، وإنما كره السجع الذي غلا قائله في تصنعه ، فقال ﷺ : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ » .

وبيان ذلك ما رُوي من أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً بدفع دية جنين ، وبين له مقدار الدية ، فقال الرجل : أرأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ليس مثل ذلك يُطلُّ ؟ - أى : يهدر دمه - فقال الرسول ﷺ مستنكراً هذا التقعر في الكلام - : « أسجعاً كسجع الجاهلية ؟ » وفي رواية : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ » وفي رواية : « أسجع كسجع الجاهلية » .

وكان سجع الكهان ثقيلًا على السمع كرية الوقع على الأذن ، فمن أمثلة سجع الكهان قول سطيح الكاهن - وهو ابن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب - : « عبد المسيح ، جاء إلى سطيح ، وهو موفٍ على الضريح ، لرؤيا الموبدان ، وارتجاس الإيوان » (١) .

ومن ذلك ما فعل الكاهن في قصة هند بنت عتبة حين قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها : « ثَمْرَةٌ فِي كَمْرَةٍ » ف قيل له : نريد أئينَ من هذا ، فقال « حَبَّةُ بُرٍّ فِي إِحْلِيلِ مُهْرٍ » (٢) .

لم يكن السجع نفسه إذن هو المنهى عنه ، ولكن النهى كان عن هذا النمط منه ، وما يتضمنه من معانٍ مغلوطة ، وتنبؤات مكدوبة .

يجل الجاحظ هذا الموقف بقوله : (٣)

الذي كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم ريثاً من الجن ، مثل حازي جهينة ، ومثل شق ، وسطيح ، وعزى سلمة وأشباههم ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع كقوله : والأرض والسما ، والعقاب

(١) المثل السائر ١ / ٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) المثل السائر ١ / ٣١١ . نقد النثر ، ص : ١٠٧ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

والصَّقَعَاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفرَّ المجد بنى العشاء ، للمجد والسَّناء» (★).
أما قدامه بن جعفر فيعلل إنكار الرسول ﷺ لهذا الأسلوب «لأنه - أى : الرجل -
أتى بكلامه مسجوعاً كله ، وتكلَّف فيه السجع تكلف الكهان ، وأما إذا أتى به في
بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافي مختلقة متكلفة ، ولا متمحلة مستكرهة ، وكان
ذلك على سجيّة الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه » .
ويعود ابن الأثير لمحاورة من ذموا النثر والرد عليهم ، فيقول :
« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى
عجزهم عن أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم حتى إنه ليؤتى
بالسورة جميعاً مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرها » .
ويمضى ابن الأثير قائلاً : « وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي ﷺ شيء
كثير أيضاً » .

فمن ذلك ما رواه ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :
«استحيوا من الله حق الحياء» قلنا : إنا لنستحيى من الله يارسول الله ، قال : « ليس
ذلك ، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر
الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا » .
فإن قيل : إن النبي ﷺ قال لبعضهم منكرأ عليه وقد كلمه بكلام مسجوع :
«أسجعا كسجع الكهان ؟» ولولا أنه مكروه لما أنكره النبي ﷺ ، فالجواب عن ذلك -
والقول لابن الأثير - أننا نقول : لو كره النبي ﷺ السجع مطلقاً لقال : «أسجعا» ؟ ثم
سكت ، ولكنه قال : «أسجعا كسجع الكهان ؟» ، فصار المعنى معلقاً على أمر ،
وهو إنكار الفعل لما كان على هذا الوجه ، فعلم أنه ذم من السجع ما كان مثل سجع
الكهان لا غير ، وإنه لم يذم السجع على الإطلاق .

(★) المعانى : الرئى : هو الذى يعتاد الإنسان من الجن يجه ويؤالفة ، الحازى : الكاهن ، شق : هو شق بن أنهار ،
زعموا أنه كان شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . الصقعاء : التى فى وسط رأسها بياض .
البقعاء من الأرض : هى ذات الحصى الصغار . نفر - بتشديد الفاء - حكم لهم بالغلبة على غيرهم ، بنو العشاء :
من بنى مازن بن فزارة بن ذبيان .

بل إنه ﷺ غير الكلمة عن وجهها إتباعاً لها بأخواتها من أجل السجع ، فقال لابن
ابنته : « أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة » لأن الأصل فيها من « ألم » فهو
« ملم » .

وكذلك قوله ﷺ : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » وإنما أراد « مؤزورات » من
الوزر ، فقال : « مأزورات » لمكان « مأجورات » طلباً للتوازن والسجع ، وهذا يدل -
ولا يزال القول لابن الأثير - على فضيلة السجع (١) .

وإذن فاستكراه الرسول للسجع ليست ظاهرة تشيع بين الدارسين ، وإنما هي
حادثة بعينها أسوأ فهمها ، ذلك أن السجع من علامات رقة الأسلوب ونصاعته ،
ورونقه وجزائته ، وقد سرى السجع الجميل في كلام رسول الله ﷺ بأشكاله الأنيقة ،
وصياغاته الرقيقة ، طبقاً لما سوف نتمثل به بعد قليل .

وأما سجع الكهان فهو نمط من القول تضيق بسماعه الأذن ، ويتأذى منه السمع ،
مثل ذلك الذي أثر عن شق وعن سطيح .

ولكن إذا كانت الألفاظ المسجوعة ذات رقة ورنين ، ومعنى كريم ، وأناقة وحسن
ترنيم ، فإن النفس تشتاق إلى سماعها ، والأذن ترتاح إلى إيقاعها ، وهذا النوع الجميل
من السجع يشيع في أسلوب القرآن الكريم ، ويكثر في كلام الرسول ﷺ .

والأمثلة من القرآن الكريم من الوفرة بمكان ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ

مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظَلِّ مِمْدُودٍ ﴾ (٢)

أو قوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (٣)

وقوله - تعالى - : ﴿ وَالْعَدِيدَ صَبْحًا * فَالْمُورِبَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا

* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ (٤) .

(١) المثل السائر / ١ - ٣٠٨ - ٣١١ .

(٢) الواقعة ، الآيات : ٢٧ - ٣٠ .

(٣) الضحى ، الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٤) العاديات ، الآيات : ١ - ٥ .

والسجع على أشكال مختلفة ، فمنه الطويل ، ومنه القصير ، ومنه المعتدل المتساوي ، وهذا الأخير أفضل أنواع السجع ما لم تطل فقرة وتقصّر أخرى ، أو ما لم يكن السجع مجافيا للطبع : ثَقُلَ وَقَعٌ ، وَغَثَاثَةٌ لَفْظٌ .

فمن أمثلة السجع القصير قوله - تعالى - :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ (١)

ومن أمثلة السجع المتوسط قوله - تعالى - : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ * سَنَفَرْنَاكَ فَلَا تَنسَىٰ * إِلَّا مِأْشَاءَ اللَّهِ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ * فَذَكَرْنَاكَ نَفْعَ الذِّكْرِىٰ * سَيِّدَكَ مَنْ يَخْشَىٰ * وَيَجْنِبُهَا الْأَشْقَىٰ * الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (٢)

ومن أمثلة السجع الطويل قوله - تعالى - :

﴿ وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهٗ لَيُثْوَسُ كُفُورٌ * وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمًا بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسْتَةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهٗ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ (٣)

وكذلك الحال في كلام رسول الله ﷺ فالسجع في الأسلوب المحمدي عذب الإيقاع ، كريم المعنى ، ترتاح إليه النفوس ، وتقر برقته الأسعاع ، وتنشرح لمضامينه الصدور ، ومنه السجع القصير والمعتدل والطويل ، وهو في جميع حالاته - قصيرا كان أو معتدلا أو طويلا - لا يدانيه قول إنسان ، ولا يرقى إلى مستواه حديث بشر .

(١) سورة النجم ، الآيات من : ١ - ٧ .

(٢) سورة الأعلى كلها .

(٣) سورة هود ، الآيتان : ٩ ، ١٠ .

فمن سجعه القصير مارواه عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس قِبَلَهُ - يعنى مضوا مسرعين - وقالوا : قدم رسول الله ، فجئت لأنظر ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء سمعته منه قوله : « أيها الناس : أطيعوا الطعام ، وأفشوا السلام ، وصَلُّوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » (١).

سجع قصير ، موافق للطبع ؛ ناعم الجرس ، عميق الوقع ، ينسرب إلى القلب ، يضافح السمع ، ويمازج العقل . ولا تصلح لفظة أخرى لتحل محل الكلمة المسجوعة وتؤدي وظيفتها أو تعمل عملها .

وأما سجعه المعتدل فمنه قوله ﷺ : (٢)

« واعلموا أنكم عن قليل راحلون ، وإلى الله صائرون ، فلا يغنى عنكم هناك إلا عمل صالح قدمتموه ، أو حسن ثواب حُزِّمْتُمْ ، إنكم إنما تُقَدِّمون على ما قَدَّمْتُمْ ، ومُجَارُونَ على ما أَسَلَفْتُمْ ، فلا تُحَدِّثْكُمْ زخارف دنيا دنية ، عن مراتبِ جَنَاتٍ عَلِيَّةٍ » .

ومن سجعه الطويل قوله ﷺ : (٣)

« ألا وإن من علامات العقل ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور » .

وتلك نماذج مختلفة من السجع في كلام صاحب الرسالة ﷺ :

● « نزلت المعونة على قدر المؤونة » (٤).

● قوله ﷺ للأَنْصار : « إنكم تكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » وفيه أيضا

طباق .

(١) مسند أحمد ٥/٥١٤ وسنن الترمذى ٢/٧٩ .

(٢) الطراز ٣/٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) أعلام النبوة ، ص ١٦٧ .

● قوله ﷺ: (١)

« تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » .

● وقوله ﷺ :

« الظهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان » .

● وقوله ﷺ :

« هو أوضح دليل ، إلى خير سبيل » .

● وقوله ﷺ :

« ربنا تقبل توبتي ، واغسل حوبتي » .

والحوبة : هى المآثم ، وهو من دعاء الرسول ﷺ وقد أورده الشريف الرضى بقوله -
صلى الله عليه وسلم - : « رب تقبل توبتي واغسل حوبتي » (٢).

● وقوله ﷺ :

« الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام
إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »
متفق عليه .

● وقوله ﷺ :

« إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانته » .

● وقوله ﷺ :

« بشر خديجة - رضى الله عنها - ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا
نصب » متفق عليه .

(١) البخارى (كتاب القدر) باب من تعوذ بالله من درك الشقاء ٨ / ١٥٧ ومسلم (كتاب الذكر) باب التعوذ وسوء
القضاء ٤ / ٢٠٨٠ .

(٢) المعجازات النبوية ، ص : ١٨٣ .

والقصب : اللؤلؤ المجوف .

● وقوله ﷺ :

« لا تزال أمتى بخير ما لم تر الفيء مغنما ، والصدقة مغرما » يقول عبد القاهر الجرجاني : « لا تجد في جميع ما ذكر لفظا اجْتَلَبَ من أجل السجع ، وتُرِكَ له ما هو أَحَقُّ بالمعنى منه ، وأبرُّ به ، وأهدى إلى مذهبه » (١) .

(٢)

التجنيس أو الجناس :

التجنيس والجناس بمعنى واحد ، ومعناه في مصطلح علماء البيان : هو أن تتفق اللفظتان في وجه من الوجوه ويختلف معناهما .

والجناس قسمان : تام وناقص .

الجناس التام :

ويسمى أيضا بالكامل والمستوفى والحقيقي ، وهو أن تتفق الكلمتان في لفظهما ووزنهما وحركاتهما ، ولا تختلفان إلا من جهة المعنى ، ومثاله قوله - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٢) .

ويذكر الإمام يحيى بن حمزة العلوي أن ليس في القرآن من التجنيس الكامل غير هذه الآية (٣) . والساعة الأولى بمعنى القيامة ، والساعة الثانية هي الساعة الزمنية التي يتكون من مجموعها الليل والنهار .

وفي كلام رسول الله ﷺ لم ننع إلا على مثال واحد ، وهو قوله ﷺ لما نازع الصحابة جرير بن عبد الله يوم أحد أيهم يقبض زمام ناقة الرسول ، فقال ﷺ : « خَلُّوا بَيْنَ جَرِيرِ

(١) أسرار البلاغة ، ص : ١٢ .

(٢) سورة الروم ، الآية رقم : ٥٥ .

(٣) الطراز ٢ / ٣٥٦ .

والجُرير « وجريير هو الصحابي جريير بن عبد الله ، وجريير الثانية (المعرفة بأل) تعنى زمام الناقة .

الجناس الناقص :

ويقال له أيضا : المشبه ، وغير التام ، وهو يأتي على أنحاء مختلفة ، وهو : ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من المواصفات التي ذكرت في الجناس التام . وهو على ضرب كثيرة ، منها : المختلف ، والمطلق ، والمصحّف ، والمضارع ، والمعكوس ، والمركب ، والمذيل ، والمزدوج أو المردد ، والمشوش ، والمجنب ، والمردوف ، والمكتنف ، والمطرف ، والمحرف ، وغير ذلك مما لم يضعوا له اسما .

وطبيعي أن لا يجيء من كلام رسول الله ﷺ ما تنطبق عليه هذه المسميات جميعا ؛ لأن أكثر هذه المسميات تنطبق على الشعر ، وليس جميعها مما يدخل في حوزة النثر ، كما أن هذه التسميات وضعت في مراحل متأخرة بدأت في القرن الثالث الهجري حتى القرن التاسع ، ومن هنا فإن المصطلحات البديعية وعناصرها قد تكاثرت وتعددت وتضخمت إلى آماذ بعيدة ، ولكننا سوف نعرض لنماذج من أقوال الرسول ﷺ التي ينطبق عليها بعض الأضرب التي سلف ذكرها .

● قال رسول الله ﷺ : « اللهم كما حسنت خلقي حسن خلقي » .

إن الحروف هنا متساوية في (خَلَقِي وَخُلِقِي) في تركيبها ، ولكنها مختلفة في وزنها ، ومن ثم فقد اصطلح على تسمية هذا الضرب من التجنيس « بالمختلف » (١) .

● وقال رسول الله ﷺ : « أسلم سلمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وعصية عصت الله ورسوله ، وتُجيب أجابت الله ورسوله » وروى الحديث بترتيب آخر في تقديم القبائل وتأخيرها فقدم « عصية » وأخر « أسلم » .

ويسمى هذا الضرب بالجناس « المطلق » لأن اللفظتين مشتركتان في الاشتقاق ،

(٢٢) الطراز ٢ / ٣٥٩ وأسرار البلاغة ١ / ٣٨٦ .

ويدخل في هذا الضرب قوله ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله : « لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله » وقوله ﷺ : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » .

● وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالأبكار ؛ فإنهن أشدُّ حُبًّا ، وأقلُّ حُبًّا » والخب : هو الخداع ، وقد جرى التصحيف في لفظي : حب ، وخب . ولذلك فإنه يطلق على هذا الضرب : التجنيس « المصحَّف » (١) لأن من لا يفهم المعنى يصحف أحدهما إلى الآخر لتشابههما في الخط ، كما يطلق أيضا على هذا الضرب : « المرسوم » .

وهذا الضرب من المصحَّف ينطبق على قول رسول الله ﷺ في إحدى خطبه : « ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة » (٢) .

● يقول ﷺ : « الخيل معقودٌ بنواصيها الخير » والأمر الواضح أن اللام والراء متقاربتان في « الخيل والخير » حتى إن أكثر الأطفال يبدأون عند تعلم الكلام بنطق الراء لاما .

إن هذا الضرب من القول هو التجنيس الذي يطلق عليه التجنيس « المضارع » وهو الجمع بين كلمتين متجانستين لا تفاوت بينهما إلا بحرف واحد ، سواء وقع متقدما أو وقع متأخرا (٣) .

ويدخل في نطاق هذا الضرب قوله ﷺ : « بَشْرٌ خديجة - رضى الله عنها - بيت في الجنة من قصب (*) ، لا صخب فيه ولا نصب » متفق عليه .

ومن هذا النوع أيضا من المضارع قوله ﷺ : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يُنزع من شيء إلا شانه » .

ومنه أيضا قوله ﷺ : « رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي » (الحوب والحوبة : المأثم) .

(١) الطراز ٢ / ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٣٩ .

(٣) الطراز ٢ / ٣٦٧ .

(*) القصب : هو اللؤلؤ المجوف .

● وقال عليه السلام : « جار الدار أحق بدار الجار » وهذا الضرب يسمى المعكوس ، أو التجنيس بالتبديل ، وهذه التسمية الأخيرة أطلقها عليه قدامة بن جعفر .

وهذا النوع من التجنيس المعكوس نوعان :

الأول منهما : هو عكس الألفاظ ، وهو ما يدل عليه حديث رسول الله حول : « جار الدار » (١) .

والنوع الثاني : هو عكس الحروف ، مثل كرسى ، يسرك ، فلوقرأت « يسرك » من اليسار إلى اليمين ، يعنى عكست قراءتها فإنها ستكون « كرسى » .

وقد جاء هذا المثل في شعر أحد المغرّمين بالصنعة :

أهديت شيئاً يقلّ لولا

أحدوثة الفال والتبرك

كُرسى تفاءلت فيه لما

رأيت مقلوبه يسرك

وقد جاء ذلك في لفظ عقرب ، وبرقع ، مثلما جاء في الجملة القرآنية : ﴿ كَلَّ فِي

فَلَائِكِ ﴾ من الآية الكريمة ﴿ وَكَلَّ فِي فَلَائِكِ يَسْبَحُونَ ﴾ (٢) .

يقول ابن الأثير : وهذا النوع الثاني من الجناس المعكوس نادر الاستعمال ، لأنه قلّ ما يقع كلمة تقلب حروفها فيجىء معناها صواباً (٣) .

● بقى ضرب من الجناس غير التام يمكن أن يستمد له اسم من بعض كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن البلاغيين لم يفعلوا أكثر من أنهم قدموا توصيفا لهذا الضرب دون أن يقدموا له تسمية ، فقالوا : (٤)

(١) الطراز ٢ / ٣٧٠ .

(٢) سورة يس ، من الآية : ٤٠ .

(٣) المثل السائر ١ / ٣٩٦ .

(٤) المثل السائر ١ / ٣٩٧ .

« من المشبه بالتجنيس - أى : الجناس غير التام - وهو مايساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر ، وقد ضرب ابن الأثير مثلاً لهذا الضرب من الجناس الناقص بيت أبى تمام فى قصيدة عمورية .

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى

متونهم جلاء الشك والرّيب

وقد ورد ذلك فى كلام رسول الله ﷺ فى فضيلة تلاوة القرآن الكريم : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وأزق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ » فقوله ﷺ : « اقرأ » و « ارق » من التجنيس المشار إليه .

ويمكن أيضاً أن يربح هذا الضرب من التجنيس المشار إليه مثلاً آخر من كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ مِحْنَةٍ مِّنْحَةً » ، ذلك أن قوله الشريف « محنة » و « منحة » من نوع التجنيس نفسه .

المحسنات المعنوية

(١)

الطباق والمقابلة :

عدّ أكثر البلاغيين الطباق ضرباً مستقلاً من ضروب البديع مثله فى ذلك مثلن المقابلة ، ولقد سُمّيَ الطباق : تطبيقاً ، وتضاداً ، وتكافؤاً ، وعرفوه بأنه يُؤتى بالشىء وبضده فى الكلام ، وضربوا مثلاً بذلك من قوله - تعالى - : ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴾ (١) .

إن الإمام يحيى بن حمزة العلوى صاحب « الطراز » يعترض على هذه التسمية ،

(١) الطراز ٢ / ٣٧٧ .

ويقول في ذلك - وفي قوله كثير من النصفة - : والأجود تلقيه بالمقابلة ؛ لأن الضدين يتقابلان ، كالسواد والبياض ، والحركة والسكون ، وغير ذلك من الأضداد من غير حاجة إلى تلقيه بالطباق والمطابقة (١).

غير أن جمهرة البلاغيين لما عرّفوا الطباق بالجمع بين الشيء وضده في الكلام ، فقد وقفوا عند الكلمة وضدها ، فإذا زاد الأمر عن ذلك لم يعد يسمى طباقا ، وإنما يسمى حينئذ مقابلة .

وللطباق أمثلة ليست كثيرة في حديث رسول الله ﷺ مثل قوله : « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » (٢) بمعنى أن خير المال عين ماء ينام صاحبها وهي تظل فائضة تسقى .

ومن الطباق أيضا قول رسول الله ﷺ للأنصار : « إنكم تكثرون عند الفرع ، وتقلّون عند الطمع » يعني يكثرون عند الملمات والحرب ، ويقلّون عند المغائم ويتعففون عنها ، والطباق هنا بين « تكثرون » و « تقلّون » .

فأما المقابلة فهي : أن يؤتى بشيئين أو أكثر - وليس بشيء واحد ، فذاك هو الطباق - ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب .

مثال ذلك ما روته السيدة عائشة عن النبي ﷺ أنه قال لها : « عليك بالرفق يا عائشة ؛ فإنه ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه » (٣).

إنه من الطريف أن المؤلف أورد هذا الحديث يستشهد به على الطباق قائلا : « فجمع بين الزين والشين ، وهما ضدان » والصواب أنه مقابلة لأنه أتى بشيئين هما وجود الرفق والزين ، وأتى بما يقابلهما وهما نزع الرفق والشين .

وها نحن نعرض عددا من أحاديث رسول الله ﷺ تشتمل جميعا على العنصر البديعي « المقابلة » وهي جميعها من الواضح بمكان .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٢) المثل السائر ٣ / ١٧٢ .

(٣) الطراز ٢ / ٣٨٠ .

● عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال :

« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف»^(١). رواه مسلم

● « ما من يوم يُصبح العبد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً . متفق عليه

● يقول الماوردى : من « بديع » الحديث :

قال ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » رواه الترمذى

وهكذا نجد أحاديث « المقابلات » السالف ذكرها تتضمن الإتيان بشيئين يقابلها مثلها .

وها نحن نأتى بنماذج من المقابلة تضم ثلاثة أشياء يقابلها مثلها .

● قال ﷺ من خطبة : « ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة »^(٢).

إن أطراف المقابلة هي الدنيا وارتحلتها مدبرة ، يقابلها الآخرة ومجيئها - الارتحال - عكس الارتحال - مقبلة .

● وقوله ﷺ : « المؤمن غرّ كريم ، والفاجر خبّ لئيم »^(٣).

إن أطراف المقابلة الثلاثة من الواضح بمكان .

● وقوله ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وبلاؤه ، وجنة الكافر ورخاؤه »^(٤).

(١) رياض الصالحين : باب زيارة أهل الخير ومجالستهم ، ص : ١٦٤ ، والمجازات النبوية ، ص : ٦٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٣٩ .

(٣) أعلام النبوة ، ص : ١٦٧ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

تلك كانت نماذج من أحاديث رسول الله التي احتوت صُرْبِي الطباق والمقابلة في فن البديع ، وفيها تتجلى الفصاحة المحمدية والبيان النبوي الذي استمد منه كثير من فنون البلاغة العربية .

(٢)

لزوم ما لا يلزم :

لا يخطر على بال أحد أن رسول الله ﷺ قد عمد إلى قول ما تنطبق عليه مظاهر الفن البديعي المتأخر « لزوم ما لا يلزم » ذلك أن الذين أسهموا بإبداعهم في هذا الفن قد خلوا إلى أنفسهم ساعات طوالا لكي يدبجوا هذا اللون البديعي من أمثال المعرى في الشعر ، وكتاب العصر المملوكي في النثر ، وتبدو الصنعة المتعسفة في كلامهم شعرا كان أو نثرا .

إن ضياء الدين بن الأثير يصف هذا الفن فيقول : إنه من أشق هذه الصناعة مذهبا ، وأبعدها مسلكا ، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزم^(١) .

وأما رسول الله ﷺ فبالقطع لم يعمد إلى ذلك ولا جال بخاطره أن يرتب كلامه على ذلك النسق البديعي الذي شاع متأخرا زمانا ، وإنما هي فصاحته الأصيلية وبلاغته التي أنعم الله بها عليه ، وتكوينه البياني الرباني ، وتملكه لمجامع الكلم ، كل ذلك جعل كلامه ﷺ يستوعب مختلف أساليب البيان ، ويستعمل أغلب ضروب البديع .

إن لزوم ما لا يلزم يقال له « الإعنات » - وهي تسمية صادقة دقيقة - يرد في المشور والمنظوم على حدّ سواء ، وهو التزام حرف مخصوص قبل حرف الروي ، وهو قليل في « الكتاب العزيز » ومن أمثلة ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَالطُّورِ * وَكَانَ مَسْطُورٍ ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ .

(١) المثل السائر ١/ ٤٠١ .

وفي الحديث الشريف نتف من هذا اللون من البديع^(١)، ولكنها بالقطع غير مقصودة ، مثل قوله ﷺ : « وَلِيُحْسِنُ عَمَلَهُ ، وَلِيُقَصِّرَ أَمَلَهُ » وقوله : « إن أفضل الناس عبداً أخذ من الدنيا الكفاف ، وصاحب فيها العفاف » وقوله ﷺ في صفة الدنيا : « واهجروا لذيق عاجلها لكريه آجلها » .

وهذا الضرب من فن البديع قليل أيضا في السنة الشريفة ، مثل قلته في القرآن الكريم .

(٣)

الإرصاد :

هو أن يكون أول الكلام مرصدا لفهم آخره ، ويكون مشعرا به ، فمتى قرع سمع الإنسان أول الكلام فإنه يفهم آخره ، ويسرى ذلك على المشور والمنظوم .

وهو في الشعر كثير ، كما أنه موجود في القرآن الكريم في أكثر من موضع وأكثر من آية على نحو ما جاء في قوله - تعالى - : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ فإذا قرع السمع جملة ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ توقع أن يسمع بعدها ﴿ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾^(٢) . ويقع ذلك أيضا في مثل قوله - تعالى - : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾^(٣) .

ومثلما وقع الإرصاد في القرآن الكريم فإنه جرى أيضا على لسان سيد المرسلين ﷺ في مثل قوله : « فما بعد الموت من مستعجب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » فمتى سمع السامع قوله : « فما بعد الدنيا من دار » فإنه يتوقع أن بقية الكلام هو « إلا الجنة أو النار » لما بينهما من شدة الملاءمة .

(١) الطراز ٢ / ٣٩٨ .

(٢) المثل السائر ٣ / ٢٤٦ .

(٣) الطراز ٢ / ٣٢١ .

ومن الإِرْصَادُ أيضا قول رسول الله ﷺ لما سار لفتح خيبر ، إذ أنه حين رآها قال :
 «الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» فقوله ﷺ :
 «إذا نزلنا بساحة قوم» فيه وعيد بالبوَار ، ومن ثم فهو دال على قوله : «فساء صباح
 المنذرين» (١).

ويتعدد الإِرْصَادُ في قوله ﷺ في صفة القرآن وتكرر صيغته . والعبارات المقصودة
 بذلك قوله ﷺ : « فإذا التبتست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فإنه
 شافع مشفع ، وشاهد مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه
 ساقه إلى النار ، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل ، من قال به صدق ، ومن عمل به
 أجر ، ومن حكم به عدل» (٢).

(٤)

الْفُّ والنشر:

هو في مفهوم البلاغيين : ذكر الشئين على جهة الاجتماع مطلقين عن التقييد ، ثم
 يُؤَوَّقُ بما يليق بكل واحد منهما ، اتكالا على أن السامع - لوضوح الحال - يرد إلى كل
 واحد منهما ما يليق به ، وهو في الحقيقة جمع وتفريق ، واشتقاقهما من قولهم : لفَّ
 الثوب : إذا جمعه ، ونَشَرَ الثياب : إذا فرَّقها .

ومثال اللف والنشر من القرآن الكريم قوله - تعالى - :

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾
 فجمع بين الليل والنهار بواو العطف ، ثم أضاف إلى كل واحد منهما ما يليق به ،
 فأضاف السكون إلى الليل ؛ لأن حركات الخلق تسكن ليلا ، ثم قال بعد ذلك :
 ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٣) إضافة إلى النهار ؛ لأن ابتغاء الأرزاق إنما يكون نهارا ،

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) الطراز ٢ / ٣٢٤ .

(٣) القصص ، الآية : ٧٣ .

واكتفى في الإضافة بما يعلم من ظاهر الحال ، وهو أن السكون مضاف إلى الليل لما فيه من الاستراحة ، وأن الابتغاء مضاف إلى النهار لما يظهر فيه من الحركة ، ولم يقل : جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار لتبتغوا من فضله إيثارا لما يظهر في اللف بعده النشر^(١).

أما اللف والنشر في كلام رسول الله ﷺ فمثل قوله :

« فإن المرء بين يومين : يوم قد مضى أحصى فيه عمله فحتم عليه ، ويوم قد بقى لا يدرى لعله لا يصل إليه » فقوله : « بين يومين » يكون من اللف لاشتغالها على ما يكون ماضيا ومستقبلا ، وهذه هي فائدة اللف ، ثم إذا نشرهما بعد ذلك بقوله : « يوم قد مضى أحصى فيه عمله » فهذا يتناول الماضي ، « ويوم قد بقى لا يدرى ما يفعل فيه » وهذا يتناول المستقبل ، فهذه حقيقة اللف والنشر ، ولو لم يرد اللف والنشر لقال فيه : إن المرء بين يومين ، يوم قد مضى ويوم قد بقى^(٢) .

ومن هذا أيضا قوله ﷺ : « وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتیان بكل موعود » فلفّ الليل والنهار جميعا ، ثم فصل أحكامهما بعد ذلك ، ولو لم يرد اللف والنشر لقال : وقد رأيتم الليل كيف يبلى كل جديد ، ويقرب كل بعيد ، ويأتى بكل موعود ، ورأيتم النهار كيف يبلى كل جديد ويقرب كل بعيد ويأتى بكل موعود .

ومن اللف والنشر كذلك في كلام الرسول ﷺ قوله : « إنما يؤتى الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث : إما من شبهة في الدين ارتكبوها ، أو شهوة للذة آثروها ، أو عصبية لحمية أعملوها ، فإذا لاحت لكم شبهة فاجلوها باليقين ، وإذا عرضت لكم شهوة فاقمعوها بالزهد ، وإذا عنّت لكم عصبية فادروها بالعفو » .

إن هذا الكلام حوى قدرا جميلا من لطائف الإجمال والتفصيل ، واشتمل على

(١) الطراز ٢ / ٤٠٤ .

(٢) المصدر السابق ٤٠٥ .

محاسن اللف والنشر ، ومن يتأمل كلام الرسول ﷺ يجد فيه نماذج من هذا الضرب
البليغ من ضروب البلاغة والبديع .

إن فصاحة رسول الله وبيانه لم يقف عند حدود ما تعارف عليه معاصروه - وهم من
صفوة البلغاء وزبدة الفصحاء - وإنما امتد على مساحة الأرض والزمان كنزا زاخرا
للبلابة ، ومعينا لا ينضب من البيان .

* * *

تم بحمد الله وفضله قبيل فجر السبت ٥ من المحرم ١٤١٦هـ الموافق ٣ من يونية
١٩٩٥م ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

مراجع الكتاب

- القرآن الكريم .
- الإتيقان في علوم القرآن : لجلال الدين السيوطي ٩٩١ ط- الحلبي .
- كتاب الأحاديث الأربعين في أمثال أفصح العالمين ليوسف بن إسماعيل النهاني ١٣٥٠ هـ .
- كتاب الأحاديث الأربعين النووية ، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ٦٧٦ هـ .
- الأحاديث القدسية ، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .
- الأحاديث القدسية الأربعينية ، للدكتور عز الدين إبراهيم .
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، لأبي الحسن الماوردي ٤٥٠ هـ طبعة الحلبي .
- أخبار القضاة : للقاضي وكيع محمد بن خلف بن حيان ٣٠٦ هـ طبعة عالم الكتب ، بيروت .
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار : أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق ، ت : ٢٤٤ هـ . ط : الماجدية - مكة .
- أخلاق النبي وآدابه : للحافظ أبي محمد عبدالله بن جعفر الأصبهاني ٣٦٩ هـ المعروف بأبي الشيخ . ط- الدار المصرية اللبنانية / مصر .
- أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن الماوردي ط الدار المصرية اللبنانية / مصر .
- أدب الكاتب : لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الدينوري ٢٧٦ هـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية / مصر .
- الأدب المفرد : للإمام البخاري طبعة السلفية القاهرة .
- الأذكار : للإمام الحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ط الدار المصرية اللبنانية .

- الاستيعاب في معرفة الصحاب : لأبى عمر بن عبد البر ط نهضة مصر .
- أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجاني ، طبعات عديدة .
- إسلام النجاشى : للواء محمود شيت خطاب ، ط بغداد .
- الإسلام والعلاقات الدولية : للدكتور محمد الصادق عفيفى ، دار الرائد العربى بيروت .
- أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب : للشيخ محمد السيد الحوت إدارة إحياء التراث الإسلامى / مصر .
- الإصابة فى تمييز الصحابة : للإمام شيخ الإسلام أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى ٨٥٢ هـ ، ط دار صادر بيروت .
- أصول علم السياسة : للدكتور طه بدوى ، جامعة الإسكندرية .
- إعجاز القرآن : لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ٤٠٣ هـ ، دار المعارف ، القاهرة .
- إعجاز القرآن للفقهاء المحدث أبى سليمان أحمد بن محمد الخطابى ٣٨٨ هـ .
- إعجاز القرآن : لمصطفى صادق الرافعى ، دار الكتاب العربى ، بيروت .
- أعلام الحديث فى شرح حديث البخارى : لأبى سليمان الخطابى . تحقيق الدكتور محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود . أم القرى .
- إعلم الساجد بأحكام المساجد : لمحمد بن عبد الله الزركشى ٧٩٤ هـ عالم الكتب / بيروت .
- إعلم المسلم بما اتفق عليه البخارى ومسلم فى الترغيب والترهيب : سميع عباس ، الدار المصرية اللبنانية .
- أعلام النبوة لأبى الحسن الماوردى ، دار إحياء العلوم / بيروت .
- أعلام النساء : لعمر رضا كحالة - ط دمشق .
- أفضية رسول ﷺ لابن الطلاع أبى عبد الله محمد بن فرج المالكى ٤٩٧ هـ تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمى ، دار الكتاب اللبنانى / مصر .

- الأمالي : للشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى ٤٣٠ هـ ، ط القاهرة .
- إمتاع الأسماع لتقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقرئى ٨٤٥ هـ . ط : القاهرة
- الأمثال : لأبى عبيد القاسم بن سلام ٢٢٤ هـ . جامعة أم القرى .
- الأمثال : لأبى هلال العسكري (سنذكره بعنوانه الأصيل وهو « جمهرة الأمثال » فى مكانه من الترتيب الهجائى) المؤسسة العربية الحديثة / القاهرة .
- الأمثال : للميدانى (وسوف نذكره بعنوانه الأصيل وهو : مجمع الأمثال) .
- الأمثال للواحدى (وسوف نذكره بعنوانه الأصيل وهو : الوسيط فى الأمثال) ط الكويت .
- أمثال الحديث : لابن خلاد الرامهرمى ٣٦٠ هـ . ويسمى أيضا : أمثال النبى .
- الأمثال والحكم : لأبى الحسن الماوردى ، دار الحرمين ، قطر .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوى) لناصر الدين أبى سعيد عبد الله ابن عمر الشيرازى البيضاوى ٦٨٥ هـ مؤسسه شعبان للنشر والتوزيع ، بيروت .
- بحر العلوم (تفسير) لأبى الليث نصر بن محمد السمرقندى ٣٧٣ هـ ط الإرشاد / بغداد .
- البداية والنهاية للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير ٧٧٤ هـ ، ط بيروت .
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : لكمال الدين عبد الواحد الزملىكانى ٦٥١ هـ تحقيق د . أحمد مطلوب .
- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : لمجد الدين الفيروزابادى ٨١٧ هـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد : للقاضى عياض بن موسى اليحصبى السبئى ٥٤٤ هـ ، ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الرباط .
- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطى ٩١١ هـ .
- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : لمحمود شكرى الألوسى ، مطبعة الرحمانية .

- البيان والتبيين : للجاحظ ٢٥٥ هـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- تاريخ الإسلام : للإمام أبي عبدالله شمس الدين الذهبي ٧٤٨ هـ مجلد المغازي ، دار الكتاب اللبناني / القاهرة .
- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي أبي بكر حمد بن علي ٤٦٣ هـ دار البيان العربي / بيروت .
- تاريخ التراث العربي « المجلد الأول » لفؤاد سيزجن ، ترجمة الدكتور محمود حجازي .
- تاريخ الرسل والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣١٠ هـ ، مكتبة خياط / بيروت .
- التاريخ الصغير : للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ٢٥٦ هـ دار التراث ، القاهرة .
- التبر المسبوك في نصائح الملوك : للإمام أبي حامد الغزالي ٥٠٥ هـ ، ط بيروت .
- تحفة المودود في أحكام المولود : لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية ٧٥١ هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
- تذكرة الحفاظ : للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ٧٤٨ هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك : للقاضي عياض بن موسى اليحصبي ٥٤٤ هـ ، مكتبة الحياة ، بيروت .
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف : للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذرى ٦٥٦ هـ . الدار المصرية اللبنانية .
- التعريفات : للشريف علي بن محمد الجرجاني ٨١٦ هـ .
- تهذيب الأسماء واللغات : للإمام يحيى بن شرف الدين النووي ٦٧٦ هـ ط المنيرية / القاهرة .
- تهذيب التهذيب : لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ٨٥٢ هـ ، مكتبة صادر ، بيروت .

- جامع مسانيد النساء ، وذكرهن وأحوالهن : لإبراهيم محمد الجمل ، الدار المصرية اللبنانية .
- جامع الأصول من أحاديث الرسول : للمحدث الأصبولي مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .
- جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣١٠ هـ ، مصطفى البابي الحلبي .
- جامع التحصيل في أحكام المراسيل : للحافظ صلاح الدين أبي سعيد خليل بن كيكلي العلاني ، ط بغداد .
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير : للحافظ جلال الدين السيوطي ٩١١ هـ ، ط مصطفى البابي الحلبي .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم : للإمام الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد بن رجب البغدادي ٧٩٥ هـ تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة .
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير) لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ٦٧١ هـ ، دار القلم ، القاهرة .
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع : للخطيب البغدادي (أبي بكر أحمد بن عل) ٤٦٣ هـ مكتبة الفلاح ، الكويت .
- جمع الجوامع (أو الجامع الكبير) للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ، جمعها محمد بن محمد بن سليمان الروداني المغربي ، إصدار إبراهيم أمين فودة ، مكة المكرمة .
- جمهرة الأمثال : لأبي هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله ٣٩٥ هـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ود . عبد المجيد قطامش ، القاهرة .
- جمهرة خطب العرب ، محمد زكي صفوت ، ط مصطفى البابي الحلبي .

- حجة الوداع : لمحمد زكريا الكاندهلوى ، منشورات المجلس العلمى بالهند
- حديث أم زرع (انظر بغية الرائد فى حرف الباء) للقاضى عياض .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : لأبى نعيم الأصفهانى ٤٣٠ هـ . دار صادر بيروت .
- الحماسة الشجرية : لضياء الدين أبى السعادات هبة الله بن الشجرى ٥٤٢ هـ دار المعرفة / بيروت .
- حياة محمد ﷺ للدكتور محمد حسين هيكل باشا ، دار المعارف ، القاهرة .
- خزانة الأدب ولب لباب العرب : لعبد القادر بن عمر البغدادى ١٠٩٣ هـ ، الهيئة المصرية للكتاب .
- الخصائص الكبرى : للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى ، دار الكتب العلمية / بيروت .
- الدرر فى اختصار المغازى والسير: لأبى عمر يوسف بن عبد البر ٤٦٣ هـ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: للبيهقى أحمد بن الحسين ٤٥٨ هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
- ديوان حسان بن ثابت ، دار إحياء التراث العربى / بيروت .
- الروض المسلوف فيما له أسنان إلى ألوف : لمجد الدين الفيروزابادى ٨١٧ هـ .
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : لأبى زكريا يحيى بن شرف النووى ، مكتبة عبد الرحمن محمد بالأزهر / القاهرة .
- زاد المعاد فى هدى خير العباد : لشمس الدين أبى عبدالله محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ٧٥١ هـ ط مصطفى البابى الحلبي .
- سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد : للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى ٩٤٢ هـ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

- سنن الترمذى (الجامع الصحيح) لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ٢٩٧ هـ
تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار الحديث القاهرة .
- سنن الدارمى (مسند الدارمى) للحافظ أبى محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل
٢٥٥ هـ .
- سنن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ٢٧٥ هـ الدار المصرية
اللبنانية / القاهرة .
- سنن ابن ماجه : أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ٢٧٣ هـ تحقيق محمد مصطفى
الأعظمى ، الشركة السعودية العربية .
- سنن النسائى : الحافظ أبى عبد الرحمن محمد بن شعيب بن على . . . بن دينار ٣٠٣ هـ
هـ بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .
- السير : لمحمد بن الحسن الشيبانى ١٨٩ هـ .
- السيرة النبوية : لابن هشام عبد الملك ٢١٣ هـ تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين
مكتبة مصطفى البابى الحلبي / القاهرة .
- السيرة النبوية لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٣١٠ هـ تحقيق جمال بدران الدار
المصرية اللبنانية / القاهرة .
- شرح السنة : للحسين بن مسعود بن محمد البغوى الحافظ ٥١٠ هـ المكتب
الإسلامى ، دمشق .
- شرح الشفا فى شمائل صاحب الاصطفا : للإمام نور الدين القارى الهروى ١٠١٤ هـ
تحقيق الشيخ حسين محمد مخلوف ، مطبعة المدني ، القاهرة .
- الشعر والشعراء : لابن قتيبة الدينورى ٢٧٦ هـ / تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف .
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى : للقاضى عياض بن موسى اليحصبى ، مصطفى
البابى الحلبي .
- الشفا فى مواظ الملوكة : لعبد الرحمن بن الجوزى ٥٩٧ هـ دار الحرمين / الدوحة .

- الشائل المحمدية : للترمذى بشرح البيجورى .
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : لأبى العباس أحمد بن على الفلقشندى ٨٢١ هـ -
وزارة الثقافة والإرشاد القومى / مصر .
- صلح الحديبية الفتح المبين : لشوقى أبو خليل ، دار الفكر ، دمشق .
- صحيح البخارى ، دار إحياء التراث العربى / بيروت .
- صحيح البخارى ، لجنة إحياء كتب السنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،
القاهرة .
- صحيح مسلم ، شرح الإمام النووى ٦٧٦ هـ ، المطبعة العصرية / القاهرة .
- طبقات الحفاظ : للحافظ جلال الدين السيوطى ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- طبقات الشافعية : لتاج الدين السبكى ٧٧١ هـ ، تحقيق محمود الطناحى ، وعبد
الفتاح الحلوى .
- طبقات الشعراء : لابن المعتز ٢٩٦ هـ ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار المعارف /
القاهرة .- الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٠ هـ ، دار صادر / بيروت .
- الطبقات الكبرى : للإمام عبد الوهاب الشعرانى ٩٧٣ هـ ، مصطفى البابى
الخلبى .
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ؛ للإمام يحيى بن حمزة العلوى ٧٤٥
هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- العقد الفريد : لأحمد بن عبد ربه ٣٢٧ هـ ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ،
دار الكتاب العربى / بيروت .
- عقيدة الموحدين : لعبد الله بن سعدى الغامدى ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز .
- علم الحديث : لشيخ الإسلام ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ٧٢٨ هـ عالم الكتب ،
بيروت .
- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى ٤٥٦ هـ -
تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، دار الجليل / بيروت .

- عمل اليوم والليلة لابن السنّي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير : لفتح الدين أبي الفتح محمد بن سيد الناس اليعمرى الإشبيلي الأندلسي المصري ٧٤٣ هـ ، دار المعرفة / بيروت .
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينوري ٢٧٦ هـ ، وزارة الثقافة والإرشاد / القاهرة .
- غريب الحديث : لابن قتيبة الدينوري ٢٧٦ هـ .
- غريب الحديث : لمجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ ، وعنوانه الأصلي (النهاية في غريب الحديث) .
- غريب القرآن : للراغب الأصفهاني ٥٦٥ هـ ، وعنوانه الأصلي (المفردات في غريب القرآن) مكتبة الأنجلو المصرية .
- الفتاوى الكبرى : لشيخ الإسلام ابن تيمية ٧٢٨ هـ ، تحقيق الشيخ حسين محمد مخلوف ، دار المعرفة / بيروت .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري : لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني ، ط مصطفى البابي الحلبي .
- فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه : لأبي بكر محمد بن خير بن عمر اللمتوني الإشبيلي ٥٧٥ هـ ، دار الآفاق الجديدة / بيروت .
- في ظلال القرآن : للأستاذ سيد قطب ١٩٦٥ م ، دار الشروق ، القاهرة .
- في النظام الإسلامي للدولة الإسلامية : للدكتور محمد سليم العوا ، المكتب المصري الحديث / القاهرة .
- الكامل في الأدب : لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ٢٨٦ هـ ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر .
- الكامل في التاريخ : لأبي الحسن عز الدين محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري ٦٣٠ هـ ، دار الكتاب العربي / بيروت .

- الكشاف (في تفسير القرآن) لجار الله محمود بن عمر الزمخشري ٥٣٨ هـ .
- الكشف والبيان : لأبى عبد الله محمد بن سعيد القلهاتى ، تحقيق الدكتورة سيدة الكاشف ط- القاهرة .
- لسان الميزان : لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلانى ٨٥٢ هـ ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ .
- المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح : لأبى محمد شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى ٧٠٥ هـ ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، النهضة المدنية ، مكة المكرمة .
- المتخير من حديث رسول الله ﷺ تخيره جمال الدين الألوسى ، بغداد .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير ٦٣٧ هـ ، تحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، دار الرفاعى ، الرياض .
- المجازات النبوية : للشريف الرضى أبى الحسن محمد بن الحسين ٤٠٦ هـ مصطفى البابى الحلبي .
- مجمع الأمثال : للميدانى أحمد بن محمد ٥١٨ هـ ، ط القاهرة .
- مجموعة الوثائق النبوية للعهد النبوى والخلافة الراشدة : للدكتور محمد حميد الله ، دار النفائس .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى ٣٤٦ هـ . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد- المكتبة التجارية الكبرى / القاهرة .
- المسند : للإمام أحمد بن محمد بن حنبل ٢٤١ هـ شرح الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار المعارف / القاهرة .
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار : للقاضى أبى الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتي ٥٤٤ هـ ، دار التراث / القاهرة .
- مطلع الفرائد ومجمع الفوائد : لجمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصرى ، مجمع اللغة العربية ، دمشق .

- معاهد التنصيص للعباسي . . .
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي الرومي ٦٢٦ هـ ، مرجوليوت .
- معجم البلاغة العربية : للدكتور بدوى طبانة ، دار المنار ، جدة .
- معجم البلدان : لياقوت الحموي الرومي ٦٢٦ هـ دار صادر / بيروت .
- معجم ما ألفت عن رسول الله ﷺ للدكتور صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد / بيروت .
- المغازي النبوية للواقدي : محمد بن عمر ٢٠٧ هـ .
- مفتاح العلوم : لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، ت ٦٢٦ هـ ، طبع مطبعة التقدم العلمية بمصر .
- مفتاح كنوز السنة للدكتور أ . ي . فنسك ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربى .
- المفردات في غريب القرآن : للراغب الأصفهاني الحسين بن محمد ، ٥٦٥ هـ ، مكتبة الأنجلو المصرية .
- المفهم في شرح صحيح مسلم : لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصارى القرطبي ٦٥٦ هـ ، دار الكتاب اللبناني ، القاهرة .
- منال الطالب في شرح طوال الغرائب : للمحدث الأصولي مجد الدين أبي السعادات مبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ جامعة أم القرى .
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية : للشيخ العلامة أحمد بن محمد القسطلاني ٩٢٣ هـ ، المكتب الإسلامى ، دمشق .
- موطأ الإمام مالك ١٧٩ هـ وشرحه تنوير الحوالك لجلال الدين السيوطى ٩١١ هـ ، مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال : للإمام محمد بن أحمد الذهبي ٧٤٨ هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

- النبي في القرآن الكريم : للإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق ، ط الأمانة العامة للدعوة الإسلامية .
- نثر الدرّ : للوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين الأبي ٤٢١ هـ ، الهيئة المصرية للكتاب .
- نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ للدكتور عون الشريف قاسم ، دار الكتاب اللبناني .
- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي : لظافر القاسمي ، بيروت .
- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية : للشيخ عبد الحى الكتانى دار الكتاب العربى / بيروت .
- نقد النثر : لقدماءة بن جعفر ٣٣٧ هـ .
- نهاية الأرب في فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى . طبع دار الكتب المصرية .
- النهاية في غريب الحديث للحافظ مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ .
- هداية البارى إلى صحيح البخارى : للسيد عبد الرحيم عنبر الطهطاوى ، دار الرائد العربى / بيروت .
- الوثائق السياسية اليمنية : لمحمد بن الأكوع ، مركز الدراسات / صنعاء .
- وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية : للدكتور جعفر عبد السلام ، بحث بمجلة كلية الشريعة والقانون ، عدد (٢) جامعة الأزهر .
- الوسيط في الأمثال : للواحدى ، على بن أحمد ٤٦٨ هـ دار الكتب الثقافية / الكويت .

- وصايا الرسول ﷺ لعطية محمد سالم ، دار التراث ، المدينة المنورة .
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى : للسهمودي ، على بن عبد الله بن أحمد ٩١١ هـ .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : للقاضي شمس الدين أحمد بن خلكان ٦٨١ هـ - ط دار الثقافة / بيروت .



فهارس الكتاب

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس الأعلام
- فهرس القبائل والأجناس
- فهرس القوافي
- فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الآيات

| الصفحة | السورة | أول الآية |
|-----------|--------|--|
| ٣٨٣ | البقرة | ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . . ﴾ |
| ٣٨٣ | البقرة | ﴿وأولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ |
| ٤٨٢ | البقرة | ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ |
| ٧٢٢ | البقرة | ﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما . . ﴾ |
| ٤٣٤ | البقرة | ﴿لا يفرض ولا بكر عوان بين ذلك﴾ |
| ٥١٧ | البقرة | ﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . ﴾ |
| ٤٨٢ | البقرة | ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة . . ﴾ |
| ٣٠٤ | البقرة | ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ |
| ٥٠٤ ، ٥٠٣ | البقرة | ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ |
| ١٧٢ ، ١٧١ | البقرة | ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . ﴾ |
| ٤٣٥ | البقرة | ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ |
| ٧١٥ | البقرة | ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ |
| ٤٣٦ | البقرة | ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ |
| ٣٩٤ | البقرة | ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم . . ﴾ |
| ٤٣٤ | البقرة | ﴿أو لم تؤمن قال بلى ولكن . . ﴾ |
| ٣١١ | البقرة | ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم . . ﴾ |
| ٣١٢ | البقرة | ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا﴾ |

| | | |
|-----------|----------|---|
| ٤٣٦ | البقرة | ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ |
| ٢٥ | البقرة | ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . . ﴾ |
| ٤٣ ، ٤٢ | آل عمران | ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء . . ﴾ |
| ٤٣٥ | آل عمران | ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ |
| ٥٢٢ | آل عمران | ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . ﴾ |
| ٥٢٢ ، ٣٦٨ | آل عمران | ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس . . ﴾ |
| ٧٣٦ | آل عمران | ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثّل ربح . . ﴾ |
| ٤٠٠ | آل عمران | ﴿ والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس . . ﴾ |
| ٣١٢ | آل عمران | ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة . . ﴾ |
| ٣٦٥ | آل عمران | ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . . . ﴾ |
| ٧٣٦ | آل عمران | ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم . . ﴾ |
| ٧٣٦ | آل عمران | ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ |
| ٥٠٤ | آل عمران | ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار . . . ﴾ |
| ٣٨٥ | النساء | ﴿ وابدؤوا بالله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وابدؤوا بالله . . ﴾ |
| ٦٥٥ | النساء | ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجب . . ﴾ |
| ٣٦٣ | النساء | ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ |
| ١٤٣ | النساء | ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله . . ﴾ |
| ٣١١ | النساء | ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . . ﴾ |
| ١٩١ | النساء | ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ |

| | | |
|-----------------|---------|--|
| ٥١٤ | النساء | ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر . . ﴾ |
| ٢٤٩ | المائدة | ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ |
| ٣٢١ ، ٣١٠ ، ٢٥٠ | المائدة | ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى . . ﴾ |
| ٧٦٦ | المائدة | ﴿ أو لامستم النساء ﴾ |
| ٤٣٥ | المائدة | ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ |
| ٤٣٦ | المائدة | ﴿ لا يستوى الخبيث والطيب ﴾ |
| ٧٤٥ | المائدة | ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ |
| ٥٢٠ | الأنعام | ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما . . ﴾ |
| ٤٨٥ | الأنعام | ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال . . ﴾ |
| ٥١٧ | الأنعام | ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ |
| ٣٦٤ | الأنعام | ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ |
| ٧٢٠ | الأعراف | ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم . ﴾ |
| ٥١٢ | الأعراف | ﴿ أتهلكنا بها فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك . . ﴾ |
| ٣٦٣ | الأعراف | ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ |
| ٧٤٥ | الأعراف | ﴿ فلها تغشاهما ﴾ |
| ٧١٦ | الأعراف | ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف . . ﴾ |
| ٤٣٦ | الأنفال | ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ |
| ٥١ | الأنفال | ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . . ﴾ |
| ٥١٧ | الأنفال | ﴿ واعلموا أنها غنمتم من شىء فأن لله خمسة . . ﴾ |
| ٥٢٠ | الأنفال | ﴿ والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ |
| ١٧٤ | التوبة | ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر . ﴾ |
| ٥٤١ | التوبة | ﴿ ويخزهم وينصركم عليهم . . ﴾ |

| | | |
|-----------|--------|---|
| ٣١٤ | التوبة | ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس . . ﴾ |
| ٣١٥ | التوبة | ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا . . ﴾ |
| ٣١٦ | التوبة | ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر . . ﴾ |
| ٥٢٣ | التوبة | ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . . ﴾ |
| ٧٨٤ | التوبة | ﴿ فليضحكوا قليلاً . . ﴾ |
| ٤٣٥ | التوبة | ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ |
| ١٨٩ | التوبة | ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم . . ﴾ |
| ٥١٤ ، ١٧٣ | التوبة | ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . ﴾ |
| ١٧٤ | التوبة | ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ |
| ٢٩٦ | التوبة | ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار . . ﴾ |
| ٧٣٦ | يونس | ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء . . ﴾ |
| ٣٦٩ | يونس | ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ |
| ٤٣٤ | يونس | ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ |
| ٧٧٧ | هود | ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه . . ﴾ |
| ٤٦٨ ، ٤٦٧ | هود | ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك . . ﴾ |
| ٣٦٤ | هود | ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . . ﴾ |
| ٤٨١ ، ٤٨٠ | هود | ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي . . ﴾ |
| ٤٣٥ | هود | ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ |
| ٤٣٥ | يوسف | ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ |
| ٤٣٥ | يوسف | ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ |
| ٧١٥ | يوسف | ﴿ وأسأل القرية ﴾ |
| | | ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ |
| ٥٠١ ، ٥٠٠ | الرعد | ﴿ السحاب . . ﴾ |

| | | |
|-------------------------------|---------|--|
| ٧٣٦ | الرد | ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا . . ﴾ |
| ٤٦٨ | الرد | ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال . . ﴾ |
| ٤١٥ | الرد | ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ |
| ٤٨٣ | الحجر | ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ |
| ٧٢٤ ، ٧٢٢ | الحجر | ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن . . ﴾ |
| ١٦ ، ٤٧٤ ، ٥٢٥ ، ٧١٥ ، ٧١٦ | الحجر | ﴿ فاصدع بها تؤمر ﴾ |
| ١٧٢ ، ١٤٢ | النحل | ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . ﴾ |
| ١٧٢ | النحل | ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان . . ﴾ |
| ٧٢٣ | الإسراء | ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ |
| ٤٣٤ | الإسراء | ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ |
| ٥٠٥ | الإسراء | ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل . . ﴾ |
| ٤٣٥ | الإسراء | ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ |
| ٤٨٦ ، ٤٦٧ | الإسراء | ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا . . ﴾ |
| ٤٣٤ | الإسراء | ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها . . ﴾ |
| ٧٣٦ | الكهف | ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كياء . . ﴾ |
| ٥٠٢ ، ٥٠١ | الكهف | ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم . . ﴾ |
| ٣١٤ | مريم | ﴿ يا أبت لاتعبد الشيطان . . ﴾ |
| ٦٦٦ ، ٥٤٦ | مريم | ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ |
| ٧٢٣ | طه | ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ |
| ٣٩٤ | طه | ﴿ وعنن الوجوه للحي القيوم . . ﴾ |

| | | |
|-----------|----------|--|
| ٦٣٩ | الأنبياء | ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ |
| ٤٣٥ | الحج | ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ |
| ٧٢٠ | الحج | ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار . . ﴾ |
| ٥٠٣ ، ٥٠٢ | الحج | ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . . ﴾ |
| ٤٣٦ | الحج | ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ |
| ٥٠٠ | المؤمنون | ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . . ﴾ |
| ١٩٥ | المؤمنون | ﴿ رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ |
| ٤٣٦ | المؤمنون | ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ |
| ٥٠٥ ، ٥٠٤ | النور | ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة . . ﴾ |
| ٤٣٤ | الفرقان | ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا . . ﴾ |
| ٧٢٣ | الشعراء | ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾ |
| ٧٠ | الشعراء | ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون . . ﴾ |
| ٢٦٥ | الشعراء | ﴿ وأنذر عشيرتك الأقرين ﴾ |
| ٥٣٢ ، ١٨ | الشعراء | ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون . . ﴾ |
| ٥٣٢ | الشعراء | ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً . . ﴾ |
| ٤٨١ | القصص | ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . ﴾ |
| ٧٨٩ | القصص | ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار . . ﴾ |
| ٧٨٨ | العنكبوت | ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت ﴾ |
| ١٢٢ | العنكبوت | ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن . . ﴾ |
| ٤٣٦ | الروم | ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ |
| ٧٨٠ | الروم | ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ |
| ٧١٨ | السجدة | ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ |

| | | |
|---------------------|---------|---|
| ٦٥٥ ، ٢٢٧ | الأحزاب | ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم . . ﴾ |
| ١٧١ | الأحزاب | ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . ﴾ |
| ٥١ | الأحزاب | ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي . . ﴾ |
| ٢٧٩ | الأحزاب | ﴿ وقولوا قولاً سديداً . يصلح لكم أعمالكم . . ﴾ |
| ٥٤١ | سبأ | ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ |
| ٤٣٦ | سبأ | ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ |
| ٤٣٦ | فاطر | ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ |
| ٤٠٥ | فاطر | ﴿ إنها يخشى الله من عباده العلماء ﴾ |
| ٤٣٥ | فاطر | ﴿ ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾ |
| | | ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها . . ﴾ |
| ٥٠٣ | فاطر | |
| ٥١ | يس | ﴿ يس . القرآن الحكيم . . ﴾ |
| ٧٨٣ | يس | ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ |
| ٥٣٧ ، ٥٣١ ، ١٨ ، ١٧ | يس | ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ |
| ٤٣٦ | الصفات | ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ |
| ٤٣٦ | ص | ﴿ وقليل ما هم ﴾ |
| ٥٧ | ص | ﴿ وما أنا من المتكلفين . . ﴾ |
| ٥١١ | الزمر | ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم . . ﴾ |
| ٣٢٧ | غافر | ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ |
| ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ١٦ | فصلت | ﴿ حمّ . تنزيل من الرحمن الرحيم . . ﴾ |
| ١٦ | فصلت | ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم . . ﴾ |
| ٤٧٢ | فصلت | ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . . ﴾ |
| ٥٠٠ | فصلت | ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة . . ﴾ |

| | | |
|-----------------------|----------|--|
| ٤٦٨ | فصلت | ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم . . ﴾ |
| ٦٣٩ | فصلت | ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها . . ﴾ |
| ٧١٨ | الزخرف | ﴿ وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين . . ﴾ |
| ٧١٨ | الزخرف | ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفترون عنهم ﴾ |
| ٤٣٤ | الأحقاف | ﴿ |
| ٧٢٠ | محمد | ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ |
| ١٢ ، ٥١ ، ٢٢٨ ، ٢٨٣ ، | الفتح | ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار . . ﴾ |
| ٢٦٥ ، ٢٨٩ | | ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . ﴾ |
| ١٧١ ، ٢٢٠ | الفتح | ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . . ﴾ |
| ١٢ ، ٢٢٠ | الفتح | ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك . . ﴾ |
| ١٧٦ | الفتح | ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم . . ﴾ |
| ٢٢٨ | الفتح | ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . ﴾ |
| ٦٣٨ | الحجرات | ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات . . ﴾ |
| ١٩٧ ، ٣١٩ ، ٣٦٧ | الحجرات | ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ |
| ٢٨٩ | الحجرات | ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . ﴾ |
| ٩٦ | الحجرات | ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا . . ﴾ |
| ٣٥٩ | الذاريات | ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ |
| ٧٨٧ | الطور | ﴿ والطور . وكتاب مسطور ﴾ |
| ٥٤١ | الطور | ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ |
| ٧٧٧ | النجم | ﴿ والنجم إذا هوى . . ﴾ |
| ٤٣٥ | النجم | ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ |

| | | |
|-------------------------|----------|---|
| ٤٨٢ | القمر | ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ |
| ٧١٨ | القمر | ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ |
| ٣٧٨ | الرحمن | ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ |
| ٧٨٨ ، ٤٣٦ | الرحمن | ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ |
| ٧٨٧ ، ٧٧٦ | الواقعة | ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ |
| ٤٣٦ | الحشر | ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ |
| ٥٢٠ ، ٤١٠ ، ١٩٢ | الحشر | ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم . . ﴾ |
| ٤٣٦ | الحشر | ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ |
| ١٨١ | المتحنة | ﴿ يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً . . ﴾ |
| ٧٣٤ | الصف | ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا . . ﴾ |
| | | ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول |
| ١٢٢ | الصف | الله إليكم . . ﴾ |
| ٥١٤ | الصف | ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة . . ﴾ |
| ٣٨٣ ، ٢٧٩ | الطلاق | ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . . ﴾ |
| ٧٤٨ | القلم | ﴿ ن . والقلم وما يسطرون ﴾ |
| ٤٠٢ ، ٣٥٧ ، ٥١ ، ٣١ ، ٧ | القلم | ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ |
| ٤١٠ | | |
| ٥٠٦ ، ٣٧٩ | الجن | ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا . . ﴾ |
| ٤٣٥ | المدثر | ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ |
| ٧٢٠ | الإنسان | ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . . ﴾ |
| ٧١٨ | الإنسان | ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً . . ﴾ |
| ٧١٨ | المطففين | ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ |
| ٧٧٧ | الأعلى | ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . . ﴾ |

| | | |
|-----------|----------|---|
| ٧٢٠ | الغاشية | ﴿ في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . . ﴾ |
| ٥١٨ | الفجر | ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه . . ﴾ |
| ٢٨٨ ، ٥١ | البلد | ﴿ لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد ﴾ |
| ٥١ | الضحى | ﴿ والضحى . والليل إذا سجى . . ﴾ |
| ٧٧٦ | الضحى | ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . . . ﴾ |
| ٣١ | الشرح | ﴿ ورفعنا لك ذكرك . . ﴾ |
| ٧٨٧ ، ٧٤٨ | العلق | ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . ﴾ |
| ٧١٧ | العلق | ﴿ واسجد واقترب ﴾ |
| ٧٧٦ | العاديات | ﴿ والعاديات ضبحا . . . ﴾ |
| ٥٤١ | الماعون | ﴿ فذلك الذى يدعُ اليتيم ﴾ |
| ٢٨٣ | النصر | ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح . . . ﴾ |
| ٤٧٣ | الإخلاص | ﴿ قل هو أحد ﴾ |
| ٤٧٣ | القلق | ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ |
| ٤٧٣ | الناس | ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ |

فهرس الأحادس النبوية

(حرف الألف)

- ٥٢١ « آفة الإفران حب الأنصار . . . »
- ٣٨٦ « آفة المنافق ثلاث : إذا حدث كذب . . . »
- ١٨٣ « أبافكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم »
- ٢٩٣ « أبشر فوالذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة »
- ٥٧ « أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون »
- ٨١ « أتمبه لأمك ؟ . . . »
- ٧٣٧ « أتروُن هذه هانت على أهلها . . . »
- ٥١٢ « أتروُن هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ . . . »
- ٦٠ « اتق الله حيثما كنت . . . »
- ٤٤٠ « أفر المعلم كأفر الصائم القائم »
- ٧٢٤ « أفر حببىك هونا ما . . . »
- ٣٩٠ « أفر أن تعرض أعمالى وأنا صائم »
- ٤٤٢ « أفر النساء بركة أحسنهن وجرها . . . »
- ٧٣٩ « أفرسنت إلك ؟ . . . »
- ٤٢ ، ٤١ « أفربنى أبو سفبان أنه كان بالشام . . . »
- حديث أبى سفبان مع هرقل
- ١٨٣ « أفرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا . . . »

- « أدبى ربي فأحسن تأديبى »
 ، ٣٥٧ ، ١٠١ ، ٤٨ ، ٢٥ ، ٧
 ، ٤٠٩ ، ٤٠٢ ، ٣٩٥ ، ٣٧٥
 ٧١٢
 ٥٠٧
 « أذ الأمانة إلى من ائتمنك . . . »
 « إذا انصرفت من صلاة المغرب فقل : اللهم أجرنى من النار . . . »
 ٣٣٥
 « إذ أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة . . . »
 ٣٤٣
 « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع . . . »
 ٣٣٧
 « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة . . . »
 ٣٣٢
 « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه »
 ٤٥٤
 « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه »
 ٥٠٦
 « إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك . . . »
 ٤٥٢
 « إذا تزوجت المرأة لدينها وجمالها كان . . . »
 ٤٤٢
 « إذا تقارب الزمان انتقى الموت خيار أمتى . . . »
 ٤٥١
 « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليحلل داخله إزاره . . . »
 ٣٤٥
 « إذا أصبح أحدكم فليقل : أصبحنا وأصبح الملك لله »
 ٣٤١
 « اذهب فاحتمل غيره ؛ فإنك لست بأفقر إلى الله منى »
 ١٩٦
 « اذهبوا به إلى فلانة . . . »
 ٦٦
 « ارجعن مأزورات غير مأزورات »
 ٧٧٦
 « ارحموا عزيزاً ذل . . . »
 ٤٤٣
 « ارفعوا ولا تكيلوا . . . » قاله لجابر بن عبد الله
 ٨٢
 « أريت دار هجرتى ذات نخل وحره . . . »
 ١٩٢

| | |
|-----------|---|
| ٤٥٥ | «استعينوا بالله من الرُّغْبِ» |
| ٤٥٥ | «استعينوا على كل صناعة بأهلها» |
| ٧٧٥ ، ٧٧٤ | «أسجعا كسجع الكهان» |
| ٧٧٤ | «أسجعا كسجع الجاهلية؟» |
| ٧٧٥ | «استحيوا من الله حق الحياء . . .» |
| ٧٥٢ | «أسرعكن لحاقا بى أطولكن يداً» |
| ٧٦٢ | «أسكنت بأقل الأرض مطرا . . .» |
| ٦٠ | «أسلم تسلم . . .» |
| ٧٨١ | «أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها . . .» |
| ٦٩٩ ، ٢٢ | «أشبهت خَلْقِي وَخُلُقِي» |
| ٤٥٩ | «اشتدى أزمة تنفرجى» |
| ١٧٣ ، ١٨٢ | «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . . .» |
| ٣٤١ | «أصبحنا وأصبح الملك لله . . .» |
| ٣٤١ | «أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد كله لله . . .» |
| ٤٥٠ | «اصطناع المعروف يقى مصارع السوء» |
| ٣٨٦ | «اضمنوا لى ستاً أضمن لكم الجنة . . .» |
| ٧١٨ | «أعددت لعبادى الصالحين . . .» |
| ٤٥٩ | «اعقلها وتوكل» |
| ٧١٦ | «أعنى على نفسك بكثرة السجود» |
| ٣٣١ | «أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر . . .» |
| ٧٧٦ | «أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة» |

| | |
|-----------|---|
| ٧٦٣ | « اغتربوا لاتضووا » |
| ٣٨٠ ، ٣٧٩ | « اغزوا باسم الله وفي سبيل الله . . . » |
| ٤٥٥ | « أفرخ روعك » |
| ٦٧٥ | « أَفْضَالُهُ ؟ ماذا كنت تحدث نفسك ؟ . . » |
| ٦٠ ، ٥٩ | « أفضل الصدقة جهد المقل . . . » |
| ٥٢٤ | « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » |
| ٤٠٥ | « أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم . . . » |
| ٥٠٦ | « أفضل الصدقة جهد المقل » |
| ٦٦٠ | « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد . . . » |
| ٥٨٠ | « أفيكم من يعرف قس بن ساعدة ؟ » |
| ٣٣٤ | « أقرب ما يكون العبد إلى ربه في الصلاة » |
| ٤٤٩ | « أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم » |
| ٢٢٣ | « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . . . » |
| ٣٣٤ | « أكثر ما يكون المؤمن قربا من ربه في الصلاة » |
| ٤٥٤ | « أكثروا من قول : سبحان الله ، والحمد لله . . . » |
| ٦٧ | « أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك . . » |
| ٥٤٥ | « اكشفوا عن المناكب واسعوا في الطواف » |
| ٤٥٣ | « ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها » |
| ٥٣٦ | « إلى الجنة إن شاء الله » |
| ٤٥٤ | « أما أعرافها فإنها أذفاؤها . . . » |
| ١٤٠ | « أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبئ . . . » |
| ١٠٣ | « أما إن خير الماء الشَّيْمُ ، وخير المال الغنم . . . » |

- ١٦١ « أما بعد ذلكم : فإنى أحد إليكم الله الذى لا اله إلا هو . . . » (كتاب النبى إلى حمير)
- ٧٢٦ « أما رأيت المأخوذين على العِزَّة ؟ . . . »
- ٦٢٥ « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو الله ولكم . . . »
- ٦٧ « أما والذى نفسى بيده ما علمت بشيء حتى . . . »
- ١٧٥ « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم . . . »
- ١٩٠ « أمرت بقرية تأكل القرى . . . »
- ٣٨٣ « أمسك عليك لسانك »
- ٧٥ ، ٧٤ « أنا ابن عبد المطلب . . . » حديث ضمام بن ثعلبة . . .
- ٧٧ « أنا أعطيكه وأعطيك ضعفه . . . »
- ٦٢٤ ، ٢٦٣ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٩ ، ٧ « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش »
- ٥١٩ « أنا وامرأة سفعاء الخدين . . . »
- ٤٤٢ « أنا وسفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة »
- ٥١٩ « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا »
- ٥١٩ « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين »
- ٥٥١ « أنت له ، اذهب إلى أبى بكر . . . »
- ٧٤٩ « أنتم الشعار ، والناس الدثار »
- ٤٥٠ « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »
- ٢٢٥ « انطلق يا أبا بصير ؛ فإن الله . . . »
- ١٣٤ « انطلقا إلى باذان فأعلماه أن ربى : عز وجل . . . قد قتل كسرى . . . »
- ٥٧ ، ٥٦ « إن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس . . . »

| | |
|-----------------------|--|
| ٦٠ | « إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس . . . » |
| ٥٤٦ | « إن أصيب فجعفر . . . » |
| ٥٣٣ | « إن أعظم الناس جرماً إنسان شاعر يهجو . . . » |
| ٧٨٨ | « إن أفضل الناس عبد أخذ من الدنيا . . . » |
| ٣٦١ ، ٣٦٠ | « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد . . . » |
| ٣٦٢ | « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته . . . » |
| ٦٧ | « إن تحسنوا وتردوا عليه المال . . . » |
| ٣٠٥ | « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام . . . » |
| ١٢٧ | « إن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه . . . » |
| ٣٢٢ | « إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده . . . » |
| ٩٢ | « إن قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة . . . » |
| ٥٣٥ | « إن كاد لیسلم » |
| ٧٨٤ | « إن لله تعالى في كل محنة منحة » |
| ٣٦٠ ، ٣٥٩ | « إن لله - تبارك وتعالى - ملائكة سيارة فضلاً . . . » |
| ٤٤٠ | « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء . . . » |
| ٤٥٣ ، ٤٥٢ | « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم . . . » |
| ٧٣٤ | « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً . . . » |
| ٧٣٢ | « إن مثلي ومثل ما بعثنى الله به . . . » |
| ٦٤ | « إن من أحبكم إليّ . . . » |
| ٥٣٤ | « إن من البيان كالمسحر . . . » |
| ٧١٨ ، ٥٣٣ ، ٤٥٦ ، ٤٤٨ | « إن من البيان لسحراً » |
| ٥٣٤ | « إن من الشعر لحكمة » |

- « إن هذا الحى من الأنصار محنة . . . » ٥٢٢
- « إن هرقل (قيصر) أرسل إليه في ركب من قريش . . . (حديث
أبى سفيان مع هرقل) ١١٦ ، ١١٧
- « إن يك شاعر أحسن فقد أحسنت » ٥٧٢
- « إن الإسلام بدأ جذعا . . . » ٧٥٦
- « إن الإسلام بدأ غريبا . . . » ٧٥٦
- « إن الجنة لا يدخلها عجوز » ٤٤٣
- « إن الجنة تحت ظلال السيوف » ٤٥١
- « إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه . . . » ٢٧٢ ، ٢٧١
- « إن الرائد لا يكذب أهله . . . » ٢٦٦
- « إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله » ٧١٨
- « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه . . . » ٧٧٩ ، ٧٨٢
- « إن الشياطين قد يئست أن تعبد في بلدى » ١٩١
- « إن الصراط بين أظهر جهنم . . . » ٤٥٣
- « إن العبد لا يكتب في المسلمين حتى تسلم الناس . . . » ٧٢١
- « إن الله أمدنى بأشد الناس ألسنا . . . » ٥٢١
- « إن الله أمرنى أن أسمى المدينة طابة » ١٩٢
- « إن الله - تبارك وتعالى - يعرض على عبده نصيحة . . . » ١٠٥
- « إن الله تعالى سمي المدينة طابة » ١٩٢
- « إن الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس . . . » ٥٥٢
- « إن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار . . . » ٥١٣
- « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى؟ . . . » ٢٧١

| | |
|---------------|---|
| ٧٤٦ | « إن الله سبحانه جعل الجنة دارا . . . » |
| ١٢٣ | « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر . . . » |
| ٤٠ | « إن الله عز وجل اختار خلقه . . . » |
| ٥٢٠ | « إن الله قد أوجب لها بهما الجنة . . . » |
| ٣٦٩ ، ٣٦٨ | « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . . . » |
| ٥٧ | « إن الله يكره الانبعاث في الكلام . . . » |
| ٤٥٢ | « إن الله ينشئ السحاب فتتطرق . . . » |
| ٧٥٩ | « إن المسلم إذا توضع ثم صلى الخمس تحاتت خطايا . . . » |
| ٤٤٧ | « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . . . » |
| ٤٠٦ | « إن الناس لكم تبع ، وإنهم سيأتونكم . . . » |
| ١٢٧ | « إن النبي ﷺ صلى على أصحابه فكبر أربعاً . . . » |
| ٧٨٥ ، ٧٧٨ | « إنكم تكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع . . . » |
| ٢٠٨ | « إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد . . . » |
| ٧١٧ ، ٦١ ، ٥٩ | « إنها الأعمال بالنيات . . . » |
| ٧٤٣ ، ٧٣٥ | « إنها مثل الجليس الصالح وجليس السوء . . . » |
| ٧٣٣ | « إنها مثلى ومثلكم كمثل قوم سلكوا مفازة . . . » |
| ٤٥٠ | « إنها المرء بخليله . . . » |
| ٤٥٧ | « إنها الناس كأسنان المشط . . . » |
| ٧٩٠ | « إنها يؤتى الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث . . . » |
| ٧٦٨ | « إنه كانت امرأة فيمن كان قبلنا . . . » |
| ٤٤٩ | « إنها بضعة منى » |
| ٦٦ | « إنها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد . . . » |

- ٦٨٥ «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»
- ٢٢٣ «إني عبد الله ورسوله ، ولست أعصيه . . .»
- ٣٩٥ «اهجرى المعاصى ؛ فإنها أفضل الجهاد . . .»
- ٤٢٩ «أوتيت جوامع الكلم ، واختصرت إلى الحكمة اختصارا»
- ٩ «أوتيت جوامع الكلم . . .»
- ٧١١ «أوتيت خمسا لم يعطهن قبلى أحد . . .»
- ٤١٥ «أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله . . .»
- ٣٨٥ «أوصانى الله بنذى القربى ، وأن أبدأ بالعباس»
- ٣٨٨ «أوصانى جئى بثلاث لا أدعهن إن شاء الله أبدا . . .»
- ٣٨٨ «أوصانى خليلى بثلاث . . . فلا أدعهن حتى أموت . . .»
- ٣٨٢ «أوصيك بتقوى الله ، فإنه زينة الأمر كله . . .»
- ٣٨٨ «أوصيك يا أبا هريرة بخصال أربع لا تدعهن أبدا . . .»
- «أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن كان عبدا حبشيا . . .»
- ٤١٦ «أوصيكم بالأنصار ؛ فإنهم كرشى وعيبتى . . .»
- ٤٠٩ «أولئس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ . . .»
- ٩٤ «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . . .»
- ٧٥٧ ، ٣٨٤ «ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ . . .»
- ٦٣ «ألا أدلكم على أحسر الناس صفقة ؟ . . .»
- ٧٢٥ «ألا أدلكم على ما إذا فعلتموه تحاببتم ؟ . . .»
- ٧٢٥ «ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مئونتهما ؟ . . .»
- ٧٢٤ «ألا إن الأيام تطوى ، والأعمار تبنى . . .»
- ٥٠٧

| | |
|-----------------|---|
| ٢٦٩ | « ألا إن الأيام تطوى . . . » |
| ٢٧٠ | « ألا إن الدنيا خضرة حلوة . . . » |
| ٤٥٥ | « ألا إن هذا الدين متين . . . » |
| ٢٧٨ | « ألا أيها الناس : توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا . . . » |
| ٧٨٦ ، ٧٨٢ ، ٧٥٨ | « ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة . . . » |
| ٤٥٣ | « ألا مشمر لها ؟ هي ورب الكعبة . . . » |
| ٧٧٨ | « ألا وإن من علامات العقل التجافى عن دار الغرور . . . » |
| ٦٥٧ | « ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة » |
| ٥٧ | إياك والتشادق . . . |
| ٧٤٥ | « إياك والقوارير » |
| ٧١٢ | « إياك والمخيلة . . . » |
| ٥٠٧ | « إياكم والمشاورة فإنها تميمت الغرة . . . » |
| ٧٦٩ ، ٧٦٥ | « إياكم وخضراء الدمن » |
| ٤٥١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٢ | « إياكم وخضراء الدمن . . . » |
| ٥٢٣ | « إياكم والجلوس في الطرقات . . . » |
| ٥١٥ | « إيمان بالله ورسوله . . . الجهاد في سبيل الله . . . » |
| ٢٩٣ | « أين المتصدق ؟ فليقم » |
| ٧٧٨ | « أيها الناس : أطعموا الطعام . . . » |
| ٥٠٨ ، ٢٦٨ | « أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب . . . » |
| ٥٤٩ | « أيها الناس : ليس أحد منكم آمنٌ على . . . » |
| ٨٣ | « أيها الناس : مالكم حين نابكم شيء في الصلاة . . . » |

(المحلى بأل من حرف الألف)

- ٧٨٩ « الله أكبر ، خربت خيبر . . . »
- ١٩٣ « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة . »
- ٣٣٦ « اللهم اجعل خير عمري آخره . . . »
- ١٩٤ « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا . »
- ٧٩ « اللهم اجعل له آية . . . دعا به للطفيل بن عمرو . . . »
- ٣٣٥ « اللهم اجعلها لى عندك ذخرا ، وأعظم لى بها أجراً . . . »
- ٣٨٤ « اللهم أحيئى مسكيننا وأمتنى مسكيننا . . . »
- ٣٢٩ « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى . . . »
- ٣٢٩ « اللهم اغفر لى خطيئتي وجهلى وإسرافي فى أمرى . . . »
- « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . . . »
- ٣٣٥
- ٣٥١ « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى . . . »
- ٣٢٨ « اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك . . . »
- ٣٤٤ « اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء . . . »
- ٣٤٤ « اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاه . . . »
- ١٣ « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . . . »
- ٥٢١ « اللهم أنتم من أحب الناس إلىَّ »
- ٣٢٨ « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق . . . »
- ٥٢٢ « اللهم تعلم أنى لأجيبكن »
- ٦٥٥ « اللهم إن العيش عيش الآخرة . . . »
- ٦٩٩ « اللهم إن جعفرنا قد قدم إلى أحسن ثواب . . . »

- «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة . . . » ٣٤٢
- « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي . . . » ٣٣٠ ، ٦٠
- « اللهم إني أسألك علماً نافعاً . . . » ٣٣٤
- « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك . . . » ٣٣٥
- « اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر . . . » ٣٣٩
- « اللهم إني أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر . . . » ٣٣٦
- « اللهم إني أعوذ بك من الجوع ؛ فإنه بئس الضجيع . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدى إلى طبع » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر . . . » ٣٣٦
- « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهزم والبخل . . . » ٣٣٩
- « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع . . . » ٥٠٧ ، ٤٤٠
- « اللهم إني أعوذ بك من الكسل ، وأعوذ بك من الجبن . . . » ٣٣٩
- « اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامة . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني وجهت وجهي إليك ، وأسلمت نفسي إليك . . . » ٣٤٤
- « اللهم اهد دوسا واثت بهم » ٤٧٤ ، ٣٣٣ ، ٨٠
- « اللهم اهدني فيمن هديت . . . » ٣٣٤

- « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت . . . » ٣٣١ ، ٣٤٩
- « اللهم بارك لهم فى مَحْضِهَا وَمَحْضِهَا . . . » ١٠٠ ، ١٤٩
- « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش . . . » ٢٨٦
- « اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم
ورب كل شىء . . . » ٣٤٤
- « اللهم كما حسنت خَلْقِي حَسَّنْ خُلُقِي » ٧٨١
- « اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض . . . » ٣٥٠
- « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت . . . » ٣٢٩
- « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى . . . » ١٤
- « اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض . . . » ١٤
- « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت . . . » ٣٣٥
- « الأرواح جنود مجندة . . . » ٤٥٤
- « الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله . . . » ٩٥
- « الإسلام يُجِبُّ ما قبله » ٧٤٦
- « الأنصار كرشى وعيبتى » ١٨٥
- « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن . . . » ٥٢١
- « الأيم أحق بنفسها من وليها . . . » ٤٤٢
- « الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله » ٥١٦
- (حروف الباء إلى الظاء ..)
- « باسمك اللهم أحيا وأموت . . . » ٣٤٦
- « بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتح . . . » ٢٢٧
- « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إني أعوذ بك من أن
أضل . . . » ٣٤٢

- ٢٤٩ ، ٢٤٨ « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا بيان من الله ورسوله . . . »
- ٢٤٥ ، ٢٤٤ « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ لتقريف . . . »
- ٢٣٦ « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران . . . »
- ٢٣٣ « بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بين رؤبة وأهل أيلة . . . »
- ٧٨٢ ، ٧٧٩ « بشر خديجة - رضى الله عنها - ببيت في الجنة . . . »
- ٧١٢ ، ٥٠٦ « بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . »
- ١٨٣ « بل الدم الدم ، والهدم الهدم . . . »
- ٧٦٤ « بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلاط »
- ١٩٦ « بنى رسول الله ﷺ مسجده فقرب اللبَنَ . . . »
- ١٩٧ « تأخوا في الله أخوين أخوين »
- ١٨٢ « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل . . . »
- ٣٨٦ « تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه . . . »
- ٥٠٦ ، ٦٠ « ترك الشر صدقة »
- ٤٤٢ « تزوجوا الزرق فإن فيهن يمنا »
- ٤٤٢ « تزوجوا الشواب فإنهن أغر أخلاقا »
- ٥١٦ « تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ . . . »
- ٧٧٩ ، ٣٤٠ « تعوذوا بالله من جهد البلاء . . . »
- ٣٦٧ « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس . . . »
- ٤٤٢ « تنكح المرأة لماها ولحسبها ولجمها ولدينها . . . »

| | |
|----------|--|
| ٥٠٧، ٦١ | « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات . . . » |
| ٢٧١ | « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان . . . » |
| ٧٨٣ | « جار الدار أحق بدار الجار » |
| ٥١٣ | « جعل الله الرحمة مائة جزء . . . » |
| ٥٢٢ | « حب الأنصار إيمان . . . » |
| ٤٤٩ | « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمَى وَيُصِمُّ » |
| ٥٠٦، ٥٩ | « حبك للشئ يعمى ويصم » |
| ٤٤٠ | « حسن السؤال نصف العلم » |
| ٧٤٩ | « حفت الجنة بالمكاره . . . » |
| ٤٥٧ | « حولها نذندن » |
| ٣٢١ | « خذ بيدي يا فضل . . . » |
| ٧٢٤ | « خذوا العطاء ما كان عطاء . . . » |
| ٥٤٦ | « خلَّ عنه يا عمر ، فلهي فيهم أسرع . . . » |
| ٧٨٠ | « خلُّوا بين جرير والجرير » |
| ٤٤٠ | « خير أمتى علمواؤها ، وخير علمائها فقهاؤها . . . » |
| ٦٠ | « خير الأمور أوساطها . . . » |
| ٥١٩ | « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه . . . » |
| ٣١٩ | « خيركم خيركم لأهله . . . » |
| ٥٠٨ | « خيركم من لم يترك دنياه لأخوته . . . » |
| ٤٤٢ | « خير النساء الولود الودود » |
| ٤٤٢ | « خير نساء ركن الإبل صوالح قريش . . . » |
| ٤١٧، ٤١٦ | « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم . . . » |

| | |
|-----------------|---|
| ٣٩٣ | « خياركم خياركم لنسائهم » |
| ٤٤٢ | « خياركم خيركم لأهله » |
| ٤٤٣ | « دخلت امرأة النار في هرة » |
| ٧١٧ ، ٥٩ | « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » |
| ١٨٩ | « دعوها فإنها مأمورة . . . » |
| ٦٠ | « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجهيه . . . » |
| ٣٧٨ | « رأس الحكمة مخافة الله » |
| ٥٤٨ | « رأيت النبي ﷺ ينقل معنا التراب . . . » |
| ٥١٦ | « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا . . . » |
| ٥١٦ | « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . . . » |
| ٧٨٢ ، ٧٧٩ ، ٧٦١ | « رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي » |
| ٧٧٩ | « ربنا تقبل توبتي واغسل حوبتي » |
| ٥٣٦ | « ربح البيع ، ربح البيع » |
| ٧٢٦ | « رحم الله امرأة تكلم فغنم . . . » |
| ٥٠٧ ، ٤٤١ ، ٦٠ | « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم . . . » |
| ٥٨٥ | « رحم الله قسا ، أرجو أن يبعثه الله أمة وحده » |
| ٤٤٢ | « رفقا بالقوارير » |
| ٤٥٧ | « زُرْ غَبًّا تَزِدُّ حَبًّا » |
| ٦٨٧ | « زملوهم بدمائهم ؛ فإنه ليس أحد . . . » |
| ٣٤٥ | « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . . . » |
| ٢٧١ | « سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله . . . » |
| ٣٧٩ | « ستكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله . . . » |

| | |
|---|---|
| ٣٥٠ | « سجد وجهي للذي خلقه وصوره . . . » |
| ٣٧ | « سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله . . » |
| ٤٠٦ | « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم . . . » |
| ٣٤٩ | « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . . . » |
| ٥٥١ | « شَنَّ الغطاريف على بنى عبد مناف . . . » |
| ٥٥٠ | « صدقت يا حسان ، دعوا لى صاحبى » |
| ٧٤٧ | « صَدَّقَكَ كل رطب ويابس » |
| ٥١١ | « صلوا كما رأيتمونى أصلى » |
| ٧٨٦ | « صنائع المعروف تقى مصارع السوء » |
| ٣٩٠ | « صوم يوم عرفة أحسب على الله أن . . . » |
| ٧٣٩ | « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً . . . » |
| ٤٣٩ ، ٤٠٥ | « طلب العلم فريضة على كل مسلم » |
| ٧٣٠ | « ظهر المؤمن مشجبه ، وخزانتة بطنه . . . » |
| (المحلى بأل من حرف الباء إلى حرف الظاء) | |
| ٤٥٧ | « البلاء موكل بالمنطق » |
| ٤٥٧ ، ٤٥٠ | « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » |
| ٤٥٠ | « الجار قبل الدار . . . » |
| ٧٦٣ | « الحجاز قطيفة الإيمان » |
| ٤٥٧ ، ٤٤٨ | « الحرب خدعة » |
| ٤٥٤ | « الحسب المال ، والكرم التقوى » |
| ٢٧٥ ، ٢٧٤ | « الحمد لله أحمدته وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه . . . » |
| ٢٦٣ | « الحمد لله نحمده ونستعينه . . . » |

| | |
|----------------------|--|
| ٦٧٤ | « الحمد لله الذى هداك للإسلام ، إن الإسلام . . . » |
| ٧١٧ ، ٥٩ | « الحلال بيِّنٌ ، والحرام بيِّنٌ . . . » |
| ٥٠١ ، ٦٠ | « الخير كثير وقليل فاعله » |
| ٧٨٢ | « الخيل معفود بنواصيها الخير » |
| ٧٨٦ ، ٥٠٧ | « الدنيا سجن المؤمن وبلاؤه . . . » |
| ٣٩٣ | « الدنيا كلها متاع ، وخير متاعها . . . » |
| ٤٥٠ | « الدين النصيحة . . . » |
| ٧١٨ | « الرزق رزقان » |
| ٥١٩ | « الساعى على الأرملة والمساكين . . . » |
| ٥٠٦ ، ٥٩ | « السعيد من وعظ بغيره » |
| ٥٣٣ | « الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام . . . » |
| ٧٦٠ | « الصوم جنة مالم يخرقها » |
| ٧٦٠ | « الصوم فى الشتاء الغنيمه الباردة » |
| ٦٤ | « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة . . . » |
| ٥١٥ | « الصلاة على وقتها . . . بر الوالدين . . . » |
| ٧١٨ | « الضعيف أمير الركب » |
| ٧١٧ | « الطمع فقر ، واليأس غنى » |
| ٧٧٢ ، ٣٤٧ | « الطهور شرط الإيمان . . . » |
| ٧٨٢ | « الظلم ظلمات يوم القيامة » |
| | (حرف العين) |
| ٧٦٤ ، ٧٥٢ ، ٧٢٦ ، ٦٥ | « عائد المريض على مخارف الجنة . . . » |
| ٧٥٣ | « عش ما شئت فإنك ميت . . . » |

- ٧٨٥ « عليك بالرفق يا عائشة ؛ فإنه . . . »
- ٣٨٩ « عليك بركعتي الفجر ؛ فإن فيها فضيلة »
- ٧٨٢ « عليكم بالأبكار فإنهن . . . »
- (المحلى بأل من حرف العين)**
- ٤٤٠ « العالم والمتعلم شريكان في الخير »
- ٤٥٨ « العبد حر إذا قنع . . . »
- ٥٠٦ ، ٤٤٩ « العِدَّةُ عطية »
- ٥٠٦ ، ٥٩ « العقل ألوف مألوف »
- ٧٤٨ ، ٤٤٠ « العلم خزائن ومفتاحها السؤال . . . »
- ٧٤٨ « العلم رائد ، والعقل سائق . . . »
- ٤٤٠ « العلماء ورثة الأنبياء »
- (حرف الغين)**
- ٤٥٤ « الغنم بركة ، والإبل عز لأهلها . . . »
- (حرف الفاء)**
- ٣٩٣ « فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها »
- ٤٤٢ « فاطمة سيدة نساء العالمين . . . »
- ٧٨٩ « فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم . . . »
- ٧٩٠ « فإن المرء بين يومين : يوم قد مضى أحصى فيه عمله . . . »
- ٧٥٧ « فإن هذا القرآن جبل الله المتين . . . »
- ٤٤٠ « فضل العالم على العابد . . . »
- ٤٣٩ « فضل العلم خير من فضل العبادة »
- ٥٠٥ « فضل كلام الله على سائر الكلام . . . »

- ٥٥٠ « فكيف تصنع بي؟ ... اهجهم وروح القدس معك... »
 ٧٠ « فلعلّ لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان... »
 ٧٨٨ « فما بعد الموت من مستعتب... »

(حرف القاف)

- ٣٦٩ « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين... »
 ٣٦٣ « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى... »
 ٣٦٧ « قال الله عز وجل : المتحابون فى جلالى... »
 « قال الله - عز وجل - وقوله الحق : إذا هم عبدى
 بحسنة... »
 ٣٦٤
 ٣٥٩ ، ٣٥٨ « قال الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك... »
 ٨٧ « قد فعلت ، فلا تعجل بخرج حتى... »
 ٧١٨ ، ٦٢ « قل : آمنت بالله ، ثم استقم »
 ٣٣٢ « قل : اللهم اغفر لى وارحمى وعافنى وارزقنى... »
 ٣٣١ « قل : اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى... »
 « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب
 إلا أنت... »
 ٣٣٧ ، ٣٣١
 ٤٤٠ « قليل العلم خير من كثير العبادة »
 ٤٣٩ « قيدوا العلم بالكتاب »

(حرف الكاف)

- ٥١٩ « كافل اليتيم له أو لغيره... »
 ٥١ « كان خلقه القرآن... »
 ٤٠ « كان رسول الله ﷺ أجود الناس... »

| | |
|------------------------|---|
| ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ | « كان رسول الله ﷺ فخما مفخما . . . » في صفة رسول الله الْحَاقِيَّة |
| ٧٣ | « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقل اللعن . . . » |
| ٥٤٤ | « كذب من قاله ، وله أجران . . . » |
| ٢٩٦ | « كذبوا ، ولكن خلفت لما تركت ورائي . . . » |
| ٣٤٧ | « كلمتان خفيفتان على اللسان . . . » |
| ٤٥٩ | « كل الصيد في جوف الفرا » |
| ١٧٥ | « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل . . . » |
| ٥١٦ | « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله . . . » |
| ٧٢٦ ، ٦١ | « كن في الدنيا كأنك غريب . . . » |
| ٤٤٠ | « كونوا علماء صالحين ، فإن لم تكونوا . . . » |
| ٦٦ | « كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ . . . » |
| ٩٣ | « كيف ترون قواعدها ؟ أو ميضا ؟ . . . » |
| (حرف اللام) | |
| ٨٥ | « لأننا وهو أخرج إلى غير هذا . . . » |
| ٥٣٣ | « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خيرا له من . . . » |
| ٦٠ | « لعله كان يتكلم بها لا يعنيه . . . » |
| ٣٨ ، ٣٧ ، ٨ | « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان . . . » |
| ٤٤٠ | « لكل شيء فترة ، فمن كانت فترته . . . » |
| ٧٤٧ | « لكل شيء وجه ، ووجه دينكم الصلاة . . . » |
| ٤٤٠ | « للأنبياء على العلماء فضل درجتين . . . » |
| ١٩٠ | « للمدينة عشرة أسماء ، هي : المدينة ، وطيبة . . . » |

- ١٨٥ « لم نؤمر بعدُ ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . . . »
- ٥١٣ « لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده . . . »
- ٣٣٣ « لما رقيت الدرجة الأولى جاء نبي جبريل . . . »
- ٤٤١ « لن يهلك امرؤ بعد مشورة »
- ٤٥٨ « لن يهلك الناس حتى يُعذِّروا »
- ٥٣٦ « لو أدرك هذا الإسلام لأسلم »
- ٥٣٦ « لو أدركته لأسلم »
- ٦٢٣ « لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه »
- ٥٠٦ ، ٥٠٩ « لو تكاشفتهم ما تدافنتهم »
- ١٨٥ « لو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً . . . »
- ٤٠٠ « ليس الشديد بالصرعة . . . »
- ٤٤٢ « ليس للنساء سروات الطريق »
- ٤٣٩ « ليس من أخلاق المؤمن الملق . . . »
- ٤٥٨ « لَيْتَ الْوَاجِدِ ظُلْمٌ »

(حرف الميم)

- ٣٨٣ « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرأون القرآن . . . »
- ٥١٦ « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا . . . »
- ٢٨٨ « ما أحلت الحرمة لأحد قبلي . . . »
- ٧٣ « ما أخرج رسول الله ﷺ ركبته قط بين يدي جليس له . . . »
- ٦٩ « ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ !! »
- ١٧٥ « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ؟ . . . »
- ٤٤١ « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار »

- « ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن . . . » ٢١٥
- « ما زلت اليوم على الحالة التي فارقتك عليها ؟ . . . » ٣٤٨
- « ما شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله . . . » ٧٣
- « ما ضرب النبي ﷺ امرأة قط ، ولا ضرب خادما . . . » ٧٤
- « ما على عثمان ما عمل بعد اليوم » ٢٩٣
- « مالكم ولابن سمية ؟ يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار » ٤٤٣
- « مالى وللدنيا ؛ إنها مثلى ومثل الدنيا . . . » ٧٣٧
- « ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة : باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ . . . » ٣٤٠
- « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلى إلا كان له من أمته . . . » ٥٢٣
- « ما من يوم يصبح العبد فيه إلا ملكان ينزلان . . . » ٧٨٦
- « ما هلك امرؤ عرف قدره » ٥٠٦ ، ٦٠ ، ٥٩
- « ما وقى الرجل به عرضه كتب له به صدقة » ٤٥٨
- « ما يمنحك أن تسمعى ما أوصيك به ؟ » ٣٩٤
- « مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام . . . » ٧٤١
- « مثل الجليس الصالح مثل العطار . . . » ٤٥٣
- « مثل الصلاة الخمس مثل نهر جارٍ » ٤٥٢
- « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر . . . » ٧٣٥
- « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها . . . » ٧٣٨
- « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة . . . » ٧٣٤
- « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة . . . » ٧٤٣
- « مثل المؤمن كمثل النحلة . . . » ٧٣٥

- ٤٥٢ « مثل المسلمين في تواصلهم وتراحمهم . . . »
- ٧٣١ « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم . . . »
- ٧٣٣ « مثلي ومثل الناس كممثل رجل استوقد ناراً . . . »
- ١٠٤ « مرحباً بالمهاجر الأول ؛ ما الذى ببطأ بك يا خزيمة ؟ . . . »
- ٤٤٩ « مَطَّلُ الغنَى ظُلْمٌ »
- ٧٦٥ « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »
- ٧٥٨ « من أحب أن يقرأ القرآن غريضا كما أنزل »
- ٥٢٢ « من أحبني أحب الأنصار . . . »
- ١٩٤ « من أحدث في مدينتي هذه حدثا أو آوى محدثا . . . »
- ٦٩ « من أصبح منكم آمناً في سربه . . . »
- ٤٤٠ « من تعلم علماً لم يغير الله ، وأراد به غير الله . . . »
- ٤٥٠ ، ٥٩ « من حسن إسلام المرء . . . »
- ٤٤٩ « من حَفَّنَا أو رَفَّنَا فليقتصد »
- ٤٥١ « من خاف أدلج . . . »
- ٧٥٦ « من خالف الجماعة فقد خلع . . . »
- ٢٩٠ « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . . . »
- ٦٥ « من دعا إلى هدى كان له من الأجر . . . »
- ٥٢٣ « من رأى منكم منكراً فليغيره . . . »
- ٢١٤ « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم ؟ . . . »
- ٧٥٨ « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل »
- ٧٥٨ « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل . . . »
- ٧٢١ « من سقى مؤمناً شربة سقاها الله من الرحيق المختوم . . . »

- ٧٦٧ « من شق عصا المسلمين فقد خلع . . . »
- ٣٨٩ « من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال . . . »
- ٤٤٧ « من صدق نجا »
- ٤٤٠ « من ظن أن للعلم غاية . . . »
- ٧٦٤ « من عاد مريضاً لم يزل يخوض الرحمة . . . »
- ٤٣٩ « من غدا في طلب العلم صلت عليه الملائكة »
- « من قال حين يسمع النداء : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده . . . »
- ٣٤٨ « من قال حين يصبح وحين يمسي : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت . . . »
- ٣٤٥ « من قال حين يصبح : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . . . ﴾ الآيات .
- ٣٤١ « من قال حين يمسي : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديناً . . . »
- ٣٤٨ « من قال في دبر صلاة الصبح وهو ثان رجله قبل أن يتكلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . »
- ٣٣٦ « من قال - يعنى إذا خرج من بيته : « بسم الله ، توكلت على الله . . . »
- ٣٤٣ « من كتم علماً يحسنه ألجمه الله يوم القيامة . . . »
- ٤٤٠ « من كثر كلامه كثر سقطه »
- ٤٥٦ « من لم يأكله أصابه من غباره »
- ٤٤٨ « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا . . . »
- ٤٧٥ « من نوقش في الحساب عُدَّتْ »

- « من هذا السائق ؟ . . . يرحمه الله » ٥٤٤
- « من وقَّرَ عالماً فقد وقَّرَ به » ٤٤٠
- « من يأخذ منى السيف بحقه ؟ . . . أن تضرب به في العدو . . . » ٦٨٥
- « من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى . . . » ١٤٣
- « من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر . . . » ١٢٠
- « من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط » ١٢١
- « من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . . . » ١٣٩ ، ١٣٨
- « من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبى أمية . . . » ١٥٥
- « من محمد رسول الله إلى النجاشى أصحمة . . . » ٢٥
- « من محمد رسول الله إلى بنى جنبه وإلى أهل مقنا . . . » ٢٣٤
- « من محمد رسول الله إلى بنى نهد . . . » ١٥٠ ، ١٠٠
- « من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى . . . » ١٣٥
- « من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز . . . » ١٣٢
- « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . . . » ١٤١
- « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . . . » ١١٧ ، ١١٥
- « من محمد رسول الله إلى هودذة بن على . . . » ١٣٩
- « من محمد رسول الله إلى وائل بن حجر والأقيال . . . » ١٥٦
- « من محمد رسول الله : عليكم بتقوى الله . . . » ٣٨٠

(المحلى بأل من حرف الميم)

٧٨٦ ، ٥٠٧

« المؤمن غر كريم . . . »

| | |
|-----------|--|
| ٧٣٠ | « المؤمن في الدنيا ضيف ، وما في يديه عارية . . . » |
| ٧٦١ | « المؤمن مرآة المؤمن » |
| ٧٤٩ | « المؤمنون تتكافأ دماؤهم . . . » |
| ١٩٣ ، ١٩٢ | « المدينة قبة الإسلام . . . » |
| ١٩٤ | « المدينة مشتبكة بالملائكة . . . » |
| ٦٠ | « المرء مع من أحب . . . » |
| ٧٨٢ ، ٧٢١ | « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » |
| ٦٠ | « المسلمون تتكافأ دماؤهم . . . » |
| ٤٤١ | « المشاورة حصن من الندامة . . . » |
| ٤٤١ | « المستشار بالخيار ، إن شاء قال . . . » |
| ٤٤١ ، ٦٠ | « المستشار مؤتمن » |
| ٤٤١ | « المستشار معان » |
| ٧١٧ | « المعدة بيت الداء . . . » |

(حرف النون)

| | |
|----------------|---|
| ٣٩٠ | « نحن أحق بموسى منكم » |
| ٧٧٨ ، ٥٠٦ ، ٦٠ | « نزلت المعونة على قدر المؤونة » |
| ٢٨٥ ، ٢٨٤ | « نُصرت يا عمرو بن سالم . . . » |
| ٧٣١ | « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها . . . » |
| ٤٥٢ | « نعم الجمل جملكما . . . » |
| ٧٣٧ | « نعمت الدار الدنيا لمن تزود فيها خيراً . . . » |
| ٤٥٨ | « نعوذ بالله من الحُورِ بعد الكُورِ » |

(المحلى بأل من حرف النون)

| | |
|----------------|---|
| ٥٠٦ ، ٥٩ | « الناس بزمانهم أشبهه » |
| ٧٤٢ | « الناس كإبل المائة . . . » |
| ٦٠ | « الناس كأسنان المشط » |
| ٥٠٦ | « الناس كمعادن الذهب » |
| ٧٨٦ ، ٧٧٩ ، ٦٠ | « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة . . . » |

(حرف الهاء)

| | |
|-----------|---|
| ١٩٥ ، ١٨٩ | « هاهنا المنزل إن شاء الله » |
| ٦٧٤ | « هذا ابن الزبيرى ومعه وجه فيه نور الإسلام » |
| ٢٢٩ | « هذا الذى وعدتكم به » |
| ٤٥٩ | « هذا جبل يحبنا ونحبه » |
| ٥٢١ | « هذا رسول عامر بن الطفيل يتهددنى . . . » |
| ٤٥٩ | « هذا سيد أهل الوبير » |
| | « هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب . . . » |
| ١٩٨ | |
| ١٦٤ | « هذا كتاب من محمد رسول الله حين أجاب إلى الإسلام . . . » |
| ١٦٢ | « هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق . . . » |
| ١٨٠ ، ١٧٩ | « هذا كتاب من محمد رسول الله لتميم بن أوس . . . » |
| ١٥٩ | « هذا كتاب من محمد رسول الله لعنات كلب وأحلافها . . . » |
| ١٥٢ | « هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لمخلاف خارف . . . » |
| ٧٨ | « هذا كتاب من محمد النبى لوائل بن حُجر . . . » |
| ٧٧ | « هذا وائل بن حُجر جاء جبا لله ولرسوله . . . » |

- ٧٦٨ « هذه مكة قد أَلقت إليكم بأفلاذ كبدها . . . »
- ٧٦٢ « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها . . . قد أَلقت . . . »
- ٢٩٣ « هل تركت لأهلك شيئاً ؟ قال : نعم . . . » قاله لعبد الرحمن ابن عوف .
- ٦٧ « هل سمعتم ما سمعت ؟ . . . »
- ٥٠٧ « هل يَطمع أحدكم إلا غنى مطغياً . . . »
- ٧٧٩ « هو أوضح دليل إلى خير سبيل »
- ٧١٢ « هو الطهور ماؤه . . . »
- ٥٣٣ « هو كلام ، حسنه حسن . . . »

(حرف الواو)

- ٤٤٠ « واضع العلم في غير موضعه . . . »
- ٢٩١ « والذي بعثني بالحق إنهم لحزب الشياطين . . . »
- ١٩٣ « والذي نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة »
- ٥٢١ « والذي نفسى بيده إنكم . . . »
- ٥٢٤ « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف . . . »
- ٦٥٧ « والذي نفسى بيده لقد أشرت فيهم . . . »
- ٥١٣ ، ٣٢٧ « والذي نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم . . . »
- ٢٧١ « والذي نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . . . »
- ٧٥٩ « والعصر إذا كان ظل كل شيء مثله . . . »
- ٧٢١ « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . . . الذى لا يأمن جاره . . . »
- ١٩٢ « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . . . »
- ٧٧٨ « وأعلموا أنكم عن قليل راحلون ، وإلى الله صائرون . . . »

- ٧٨٨ « واهجروا لذئذ عاجلها . . . »
- ٥٠٧ « وتقبلوا لى بست أتقبل لكم بالجنة . . . »
- ٤٤٨ « وجدته بحرا »
- ٧٩٠ « وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد . . . »
- ٣٨٧ « وكفى بالمرء جبنا أن يكون فيه ثلاث خصال . . . »
- ٧٨٨ « وليحسن عمله ، وليقصر أمله »
- ٢٦٣ ، ٥٥ « وما يمنعى وقد نزل القرآن بلسانى . . . »
- ٤٥٢ « ومثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة . . . »
- ٧٤٢ « وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا . . . »
- ٧٦٧ « ويحك يا أنجشة سوقك بالقوارير »
- ٢٢٥ « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال !! »
- (المحلى بأل من حرف الواو)**
- ٤٥٣ « الولد مجبنة مبخلة »
- (حرف « لا »)**
- ٢٨٩ « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . »
- ٣٤٦ « لا إله إلا أنت سبحانك اللهم ، أستغفرك لذنبى . . . »
- ١٩٠ « لا تَدْعُوهَا يثرب ؛ فإنها طيبة . . . »
- ٥٠٧ ، ٦١ « لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنبا . . . »
- ٧٨٠ « لا تزال أمتى بخير ما لم تر الفىء مغنبا . . . »
- ٣٨١ « لا تستأخرن عن الله فتسبق إليه . . . »
- ٧٦١ « لا تستضيئوا بنار المشركين »
- ٣٧٨ « لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت ، ولا تترك الصلاة . . . »

- « لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت وحرقت . . . » ٣٧٧
- « لا تغالوا بالنساء ؛ فإنهن سقيا الله » ٤٤٢
- « لا تغضب » ٣٩٩
- « لا تقل : عليك السلام ؛ عليك السلام تحية الميت . . . » ٤٠١
- « لا تمنعوا العلم أهله فظلموا . . . » ٤٤٠
- « لا حلیم إلا ذو أناة . . . » ٤٥٨
- « لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له » ٦٠
- « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » ٧١٧
- « لا نبرح حتى نناجز القوم » ٢١٩
- « لا والله ما أبدلني الله خيراً منها . . . » ٦٨
- « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ٢٧١
- « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله . . . » ٥٢٢
- « لا يجنى عليك ، ولا تجنى عليه » ٤٥٨
- « لا يفضض الله فاك » ٥٣٧
- « لا يكمل إيمان العبد بالله حتى يكون فيه خمس خصال . . . » ٧٢١
- « لا يكون ذو الوجهين وجيهاً عند الله » ٧٨٢
- « لا يلسع المؤمن من جحر مرتين » ٤٦٠
- « لا ينتطح فيها عنزان » ٤٦٠

(حرف الباء)

- « يا أبا بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم . . . » ٢٢٥
- « يا أبا جندل : اصبر واحتسب . . . » ٢٢٤ ، ١٧٦
- « يا أبا ذر : لا عقل كالتدبير . . . » ٣٨٨

- ٧٢٦ « يا ابن آدم : تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن . . . »
- ٥٧ « يا أعرابي : كم دون لسانك من حجاب ؟ . . . »
- ٧٦٥ « يا أنجشة : رفقا بالقوارير »
- ٧٤١ « يا أنجشة : رويدا سوقك بالقوارير »
- « يا أيها الناس إن مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل قوم خافوا
عدوا أن يأتيهم . . . »
- ٧٣٢ « يا أيها الناس : هذا وائل بن حُبَيْرٍ . . . »
- ٧٧ « يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا . . . »
- ١٩٥ « يا بنى : عليك بمجالسة العلماء . . . »
- ٤٥٣ « يا جارية : هذه صفة المؤمنين حقا . . . »
- ٨٧ « يا زيد : أنت مولاى ومنى وإلى . . . »
- ٦٩٨ « يا صباحاه . . . يا بنى عبد المطلب . . . »
- ٢٦٦ « يا عائشة : إنها كانت تأتينا زمن خديجة . . . »
- ٦٦ « يا عائشة : عليك بجُمْل الدعاء وجوامعه . . . اللهم إني
أسألك من الخير كله . . . »
- ٣٣٠ « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته
محراما . . . »
- ٣٦٦ « يا عَدِيٌّ : أخبرك أن لا إله إلا الله . . . »
- ٨٨ « يا عدى : لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا
الدين . . . »
- ٨٩ « يا عمرو : إني قد بعثت معك المهاجرين قبلك . . . »
- ٣٨١ « يا معشر الأنصار : ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟ . . . »
- ٩١ « يا معشر الأنصار : ما مقالة بلغتني عنكم . . . »
- ٤١١

- « يا معشر قريش : اشترُوا أنفسكم . . . » ٢٦٥
- يا ويح قريش ؛ لقد أكلتهم الحرب ! . . . ٢١٤
- « يأتِيكم وائل بن حُجْرٍ من أرض بعيدة . . . » ١٥٤
- « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله عز وجل . . . » ٣٦٥
- « يدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه . . . » ٣٦٣ ، ٣٦٤
- « يذهب الصالحون أسلافا . . . » ٤٥١
- « يرحم الله قسا ، أما إنه سيبعث يوم القيامة . . . » ٥٨٢
- « يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن . . . » ١٠٣
- « يعجب ربك من راعى غنم فى رأس شظية الجبل . . . » ٣٦٢
- « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وازق . . . » ٧٨٤
- « يقول الله - تبارك وتعالى - : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها
أو أزيد . . . » ٣٦٤
- « يقول الله - عز وجل - : الصوم لى وأنا أجزى به . . . » ٣٦٢
- « يقول الله : يا أهل الجنة إن لكم عندى موعدا . . . » ٣٦٩
- « يمين الله ملأى سحّاء . . . » ٧٦٤
- (المحلى بأل من حرف الياء)
- « اليد العليا خير من اليد السفلى » ٥٠٦ ، ٦٠

فهرس الأعلام

| الاسم | الصفحات |
|----------------------------------|---------------------------------------|
| حرف الألف | |
| آدم | ١٢٥ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٥٧٠ ، ٧٢٦ ، ٧٤٥ |
| آربرى | ٤٧٥ |
| آسية بنت مزاحم | ٦٦ ، ٣٩٤ ، ٤٤٢ |
| الأبى | ٢٧٥ ، ٣٧٩ |
| أبان بن سعيد بن العاص | ٢١٨ |
| إبراهيم عليه السلام | ٣٧ ، ٣٩ ، ١٢٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩٧ ، ٣١٤ ، ٣٥١ |
| إبراهيم ابن النبى ﷺ | ١٢٣ |
| إبراهيم بن محمد بن عرفة (نفظويه) | ٤٣٢ |
| إبراهيم بن هرمة | ٣٠٣ |
| ابن أبى أوفى | ٧٣ |
| ابن أبى حاتم | ١٩٠ |
| ابن أبى الدنيا | ٣٨٦ ، ٤٥٠ |
| ابن أبى عاصم | ٨٤ |
| ابن إسحاق | ٨٧ ، ٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٠٨ ، ٥٦٣ ، ٦٤٠ ، ٦٥٤ |
| | ٦٥٧ ، ٦٩٩ |
| ابن الأعرابى | ٥٨٩ |

| | |
|---|---------------------|
| ٤٢٤ | ابن الأنبارى |
| ٣٢٨ | ابن تيمية |
| ٣٠١ | ابن جريج |
| ٧٣٥ | ابن جنى |
| ٣٨٦ | ابن حبان |
| ٥٧٩ ، ٥٦٥ ، ٣٥٩ ، ١٤٢ | ابن حجر العسقلانى |
| ١٦ ، ٢٦٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، | ابن خلاد الرامهرمزى |
| ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٧ ، ٧٤١ ، | |
| ٧٦٧ | |
| ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ | ابن خير الأشبيلي |
| ٧٦٦ | ابن الخطيب الرازى |
| ٥٧٩ | ابن درستويه |
| ٣١٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٥ | ابن ربيعة بن الحارث |
| ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ | ابن رشيق القيروانى |
| ٧٦٦ | ابن سراج المالكى |
| ٦٢٤ ، ٦١٩ ، ٢٢٩ | ابن سعد |
| ١٣٣ ، ٥٦٣ ، ٥٨٠ ، ٥٩١ | ابن سيد الناس |
| ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ | ابن السنى |
| ٤٠٩ | ابن السمعانى |
| ٥٤١ | ابن شهاب الزهوى |
| ٦١٧ | ابن الشجرى |
| ٥٦٣ | ابن عبد البر |

| | |
|---|-----------------|
| ، ٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٣٢٠ ، ٣١٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ | ابن عبد ربه |
| ٥٧٩ ، ٥٥١ ، ٥٤١ ، ٥٣٦ | |
| ٤٠٥ | ابن عدى |
| ٨٠ | ابن عوف |
| ، ٧١٢ ، ٦١٤ ، ٥٨٩ ، ٥٠٦ ، ٤٨٤ ، ٢٦٣ ، ١٠٢ | ابن قتيبة |
| ٧٥٣ ، ٧١٣ | |
| ٦٨٦ | ابن قميثة |
| ٥٤٥ ، ٢٩٧ ، ١٣٩ | ابن قيم الجوزية |
| ٢٨٠ ، ٢٧٥ ، ٢٢٩ | ابن كثير |
| ، ٣٨٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٢ ، ٣٤٩ ، ٣٤٣ ، ٣٣٤ ، ٣١٩ | ابن ماجه |
| ، ٥١٩ ، ٤٥٠ ، ٤٤٨ ، ٤٠٦ ، ٤٠٥ ، ٣٩٣ ، ٣٨٩ | |
| ٥٢٢ | |
| ١٩٠ | ابن مردويه |
| ٦٩ | ابن منده |
| ٧٧٣ ، ٧٧٢ ، ٧٥٣ ، ٧٤٠ | ابن المعتز |
| ٦٣٢ | ابن المنذر |
| ٤٥٨ | ابن المنكدر |
| ٤٣٢ | ابن النديم |
| ، ١٩٨ ، ١٨٣ ، ١٨٠ ، ١٧٥ ، ١٥١ ، ١٤١ ، ٧٨ ، ٧٤ | ابن هشام |
| ، ٤١١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٢٤٦ ، ٢٣٣ ، ٢٢٩ | |
| ، ٦٢٠ ، ٦١٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩١ ، ٥٩٠ ، ٥٦٣ ، ٥٤٨ | |
| ، ٦٤٠ ، ٦٣٣ ، ٦٢٧ ، ٦٢٦ ، ٦٢٣ ، ٦٢٢ ، ٦٢١ | |
| ، ٦٨٠ ، ٦٧١ ، ٦٦٦ ، ٦٦١ ، ٦٥٩ ، ٦٥٨ ، ٦٤٦ | |

٧٠٥ ، ٦٩٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٠ ، ٦٨٨ ، ٦٨٧

٤٢٨ ، ٤٢٧

أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري

٣٦٧ ، ٣٦٦

أبو إدريس الخولاني

٤٣٤

أبو إسحاق إبراهيم بن مضارب

٤٥٣ ، ٤١٥ ، ٨٠

أبو أمامة

١٥٤

أبو أمية

٥٤٢

أبو أنيس موهب بن رباح

١٩٧ ، ١٩٥ ، ١٨٩

أبو أيوب الأنصاري

٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥

أبو بصير عتبة بن أسيد

٤٢٣

أبو بكر بن دريد

١٥٣ ، ١٤١ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٦٨ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨

أبو بكر الصديق

٣٣٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٢ ، ٢٩٢ ، ٢٨٦ ، ١٧٤

٥٢٤ ، ٤٨٤ ، ٤٠٩ ، ٣٨٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٣٧

٦٢٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨١ ، ٥٥١ ، ٥٥٠ ، ٥٤٩ ، ٥٤١

٧١٢ ، ٦٨١ ، ٦٥١ ، ٦٣١

٤٣٣

أبو بكر محمد بن طرخان

٦٥١

أبو البختری العاص بن هشام

٧٨٤ ، ٧٧٣ ، ٦١٦

أبو تمام

٧١٢

أبو تميمه الهجيمي

٤٣٢

أبو ثور

٤٩ ، ٤٨

أبو جحيفة

٦٢٥

أبو جرول الجشمي

٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٠ ، ١٥

أبو جرى جابر بن سليمان (سليم)

| | |
|--|----------------------------------|
| ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ١٧٦ | أبو جندل بن سهيل بن عمرو |
| ٦٧٩ ، ٦٥٣ ، ٦٥١ ، ٦٥٠ ، ٦٤٩ ، ٦٤٨ ، ٤٦٩ | أبو جهل بن هشام |
| ٥٧٩ ، ٥٣٦ ، ١٤٢ | أبو حاتم السجستاني |
| ١٩٧ | أبو حذيفة بن عتبة |
| ٣٨٩ | أبو حنيفة (الإمام) |
| ٤٣٣ | أبو الحسن عباد بن سرحان المعافري |
| ٤٣١ ، ٤٢٣ | أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي |
| ٤٣٣ | أبو الحسن علي بن غنائم بن عمير |
| | المالكي |
| ٧٥٣ ، ٧١٩ ، ٧١٥ ، ٤٨٥ | أبو الحسن الرماني |
| ٤٢٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٦١ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ١٧ | أبو الحسن الماوردي |
| ٤٨٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٠ ، ٤٢٩ | |
| ٥٠٨ ، ٤٨٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨١ | |
| ٦٢٢ ، ٥٤٢ | أبو الحكم بن سعيد بن يربوع |
| ٢٩٥ ، ٢٩٤ | أبو خيثمة زهير بن معاوية |
| ٣٤٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٢ ، ٦٦ | أبو داود (صاحب السنن) |
| ٣٨٩ ، ٣٨٦ ، ٣٨٣ ، ٣٦٢ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٣ | |
| ٥٢١ ، ٥١٩ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤١٦ ، ٤٠٥ ، ٣٩٠ | |
| ٥٢٤ | |
| ٦٨٦ ، ٦٨٥ | أبو دجانة سهاك بن خرشة |
| ٧٠٠ ، ٤٥٤ ، ٤٤٩ ، ٣٧٨ ، ٣٤٥ ، ١٩٧ ، ١٤ | أبو الدرداء |
| ٦١٨ | أبو ذؤيب الهذلي |
| ٣٤٦ ، ٣٣٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ١٩٧ ، ٩٤ ، ١٥ | أبو ذر الغفاري |

٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ،

٣٨٩ ، ٤٨١ ، ٥١٦

أبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن

١٩٧

الختعمي

٨٥ ، ٨٤

أبو زرعة

٥٤٢

أبو زيد الأنصاري

٨١

أبو الزبير

٣٦٩

أبو الزناد

٥٦٥

أبو سعد النيسابوري

٦٩٠

أبو سعيد بن أبي طلحة

٦١٦

أبو سعيد الثغري

٩٠ ، ٩١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٦٨ ، ٣٨٤ ، ٤٠٥ ،

٤٠٦ ، ٤٥١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٦٨٧ ،

٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١٢٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٥٥١ ،

٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٧ ،

٦٦٠ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٦ ، ٦٩٠ ، ٦٩٧ ،

أبو سفيان بن حرب

٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٦ ، ٦٠٢ ،

٦٨٠

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب

٦٨٧

أبو سلمة بن عبد الأسد

٣١٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٩

أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي

٩ ، ٢٠ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٥١ ،

أبو طالب (عم النبي ﷺ)

| | |
|--|----------------------------------|
| ٥٧٢ ، ٥٥٦ ، ٣٨٥ | |
| ٦٨٦ | أبو طلحة |
| ٤٩ | أبو الطفيل |
| ٦٦٢ ، ٦٤٩ ، ٥٦٥ | أبو الطيب المتنبي |
| ٦٢٤ ، ٤٤٨ | أبو عبد الله الزبير بن بكار |
| ٤٣٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٠ ، ٤٢٩ ، ٤٢٨ | أبو عبد الله القضاعى |
| ١٨١ | أبو عبد الرحمن بن يزيد |
| ٣٨١ ، ٢٢٣ ، ١٩٧ ، ١٦٢ | أبو عبيدة بن الجراح |
| ٧١٦ ، ٦٣٨ ، ٥٢٥ ، ٤٧٤ | أبو عبيدة معمر بن المثنى |
| ١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٩ | أبو عبيد القاسم بن سلام |
| ٧٣٨ | |
| ٤٣٤ ، ٤٢٥ | أبو عروبة الحسين بن محمد الحرانى |
| ٦٢٦ | أبو عروة الأزدي |
| ٤٦٠ | أبو عزة |
| ٤٢٣ | أبو عكرمة الضبى |
| ٥٨٠ | أبو على الحسن بن محمد البكرى |
| ٦٢ | أبو عمرة سفيان بن عبد الله |
| ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٣٩٣ | أبو العاص بن الربيع |
| ٧٨٧ | أبو العلاء المعرى |
| ٤٢٣ | أبو فيد مؤرج السدوسى |
| ٥٨ | أبو الفتح يوسف بن يعقوب الشيبانى |
| ٤٢٦ | أبو الفضل بن العميد |

| | |
|---|--|
| ٤٢٣ | أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي |
| ٥٧٩ | أبو الفرج الأصبهاني |
| ٣٩٠ | أبو قتادة |
| ٢١٧ ، ٨٣ | أبو قحافة |
| ٩٠ | أبو القاسم <small>عليه السلام</small> |
| ٦٨٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٠ | أبو لهب |
| ٢٩٣ | أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب |
| ٣٤٧ ، ٣٤١ | أبو مالك الأشعري |
| ٤٤٨ | أبو محمد سلمة |
| ٤٢٦ | أبو محمد المهلبى |
| | أبو محمد عبد الله بن محمد الأصبهاني (أبو |
| ٧٣ | الشيخ) |
| ٧٣٥ ، ٧٣١ ، ٥١٣ ، ٤٥٢ ، ٣٢٩ | أبو موسى الأشعري |
| ٥٧٩ ، ٤٤٩ | أبو نعيم |
| ٧٧٣ ، ٦١٦ ، ٤٩٢ ، ٤٥٤ | أبو نواس |
| ٣٦ | أبو هاشم محمد بن ظفر |
| ٩ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ٣٣٧ ، | أبو هريرة |
| ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، | |
| ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٨٣ ، | |
| ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، | |
| ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، ٥٤٧ ، | |
| ٦٩٩ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٥٨ ، ٧٨٦ ، | |
| ١٦ ، ٣٢٣ ، ٤٢٨ ، ٤٤٧ ، ٤٥٤ ، ٥٧٩ ، ٧٥٣ ، | أبو هلال العسكري |

| | |
|-------------------------------------|--|
| ١٨٣ ، ١٨١ | أبو الهيثم بن التيهان |
| ٥٢١ | أبو واقد الليثي |
| | أبو يزيد بن عمير بن هاشم بن عبد مناف |
| ٦٩١ | ابن عبد الدار |
| ٤٦٩ | أبي بن خلف |
| ٥٣٤ ، ١٩٧ ، ١٦٢ | أبي بن كعب |
| ٧٠٣ ، ٦٩٦ ، ٦٥٩ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٨ | أحمد بن حنبل <small>رحمته الله</small> |
| ، ٣٧٧ ، ٣٦٧ ، ٣٦٢ ، ١٩٠ ، ٩٠ ، ٨٠ | أحمد بن حنبل (الإمام) |
| ، ٣٩٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٣٨٦ | |
| ، ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٤٠٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٠ | |
| ، ٧٣٨ ، ٧٣٣ ، ٦٣٢ ، ٥٢٢ ، ٥١١ ، ٤٥٠ | |
| ٧٧٨ | |
| ٤٤٩ ، ٤٢٣ | أحمد بن محمد الميداني |
| ٣٦٢ | أحمد محمد شاكر |
| ٦٩٠ | أرطاة بن عبد شرحبيل |
| ١٤٠ | أركون دمشق |
| ٥٥٦ | أروى بنت عبد المطلب |
| ١٢٧ | أريحا بن أصحابمة بن أبحر |
| ٢٢٥ | أزهر بن عبد عوف الزهري |
| ٧٠٥ ، ٦٩٨ ، ٤٥٣ ، ٣٩٠ ، ٣٠٥ ، ١٩٦ | أسامة بن زيد |
| ٥٧٩ | أسامة بن منقذ |
| ١٩٥ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٨٠ | أسعد بن زرارة |
| ٦٩٩ | أسساء |

| | |
|---|-------------------------------|
| ٣٠٣ | أسماء بنت عميس |
| ٢٥٨ ، ٣٩ ، ٣٧ | إسماعيل عليه السلام |
| ٦٨٧ ، ٥٤٤ ، ٢٢٣ ، ١٩٦ ، ١٨٤ | أسيد بن حضير بن سهاك |
| ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤ | أصحمة بن الأبحر (النجاشي) |
| ٤٥٥ | أعشى باهلة |
| ٦٣٢ | أعشى بنى مازن |
| ١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، ٣٦ ، ١٠ | أكثم بن صيفي |
| ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٤٧ | أكيدر بن عبد الملك |
| ٥٢٥ ، ٤٧٥ | ألان جونس |
| ٦٨٦ ، ٣٩٥ ، ١٥ | أم أنس (أم سليم بنت ملحان) |
| ٢٨٥ ، ١٢٦ | أم حبيبة رضى الله عنها |
| ٦٢١ ، ٣٤٢ ، ٣٣٤ ، ١٩٦ ، ١٥٤ | أم سلمة رضى الله عنها |
| ٢١٩ ، ١٨٢ | أم عمارة نسيبة بنت كعب |
| ٥٦ ، ٤٩ | أم معبد |
| ١٨٣ | أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى |
| ٥٨٠ | أمة الحق شامية |
| ٦١٥ ، ٥٨٩ | امرؤ القيس |
| ٥٣٥ | أمية بن أبى الصلت |
| ٦٥٠ ، ٤٦٩ | أمية بن خلف |
| ٥٥٦ | أميمة بنت عبد المطلب |
| ٧٦٧ ، ٧٦٥ ، ٧٤١ ، ٤٤٢ | أنجشة |
| ٦٧٢ ، ٥٦٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٣ ، ١٩ | أنس بن زنيم |
| ١٩٥ ، ١٩٣ ، ٩١ ، ٧٣ ، ٦٦ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٧ | أنس بن مالك |

٢٧١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٩٤ ،
٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ،
٥٢٢ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٦٨٥ ،
٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧٤١

| | |
|----------------------------------|------------------|
| ٦٨٧ | أنس بن النضر |
| ٤٨١ | أنيس الغفاري |
| ٦٢٤ | أنيسة بنت الحارث |
| ١٩٧ ، ٦٩٧ | أوس بن ثابت |
| ٦٨٨ | الأخطل |
| ٢٣٨ ، ٢٣٩ | الأسود العنسي |
| ٥٩ | الأشعث بن قيس |
| ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٥٣٦ ، ٦١٧ | الأصمعي |
| ١٢٤ | الأصم |
| ٣٥٨ ، ٣٦٩ | الأعرج |
| ٦١٤ | الأعشى أبو بصير |
| ٤٢٦ | الاعمش |
| ٢١ ، ١٤٣ ، ٢٣٧ ، ٢٨٨ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ | الأقرع بن حابس |

حرف الباء

| | |
|---------------------------------------|--------------------------|
| ١٣٣ ، ١٣٤ | باذان |
| ١٩ ، ٢٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٠٦ ، ٦٧٠ | بحير بن زهير بن أبي سلمى |
| ٦٧٣ | بديل بن عبد مناف |
| ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٨٧ ، ٧٦٩ | بديل بن ورقاء الخزاعي |
| ٧١٥ ، ٧٥٤ ، ٧٧٢ | بدوى طبانة |

| | |
|---|---------------------|
| ٥٥٦ | برة بنت عبد المطلب |
| ١٩٧ | برير بن جنادة |
| ٧٧٣ | بشار بن برد |
| ٢١٤ | بشر بن سفيان الكعبي |
| ٢٩٧ ، ١٩٧ ، ١٦١ ، ٨٣ ، ٨٢ | بلال (مؤذن الرسول) |
| ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨ | بيعة الرضوان |
| ٢٨٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ١٣٢ ، ١٢٥ ، ١٧ | الباقلاني |
| ٤٩١ ، ٤٩٠ ، ٤٨٩ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٤ ، ٣٠٦ | |
| ٥٠٦ ، ٤٩٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٣ | |
| ٤٩٢ | البحتري |
| ١٩٢ ، ١٩٠ ، ١٧٥ ، ١٢٧ ، ١١٥ ، ٧٧ ، ٦٩ | البخاري |
| ٣١٦ ، ٣١٠ ، ٣٠٦ ، ٢٦٥ ، ٢٢٩ ، ١٩٤ ، ١٩٣ | |
| ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ | |
| ٣٦٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤١ | |
| ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٠٩ ، ٣٩٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٠ ، ٣٨٦ | |
| ٥٤١ ، ٥٤٠ ، ٥٣٣ ، ٥٢١ ، ٥١٩ ، ٥١٦ ، ٤٥٠ | |
| ٧٣٣ ، ٧٣٢ ، ٧٣١ ، ٦٩٩ ، ٥٤٩ ، ٥٤٨ ، ٥٤٤ | |
| ٧٧٩ ، ٧٣٨ ، ٧٣٤ | |
| ٥٢١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٢١٥ ، ١٩٠ ، ٤٩ ، ٩ | البراء بن عازب |
| ٦٩٩ ، ٦٣٢ ، ٥٤٨ ، ٥٤٣ ، ٥٣٩ | |
| ١٨٤ ، ١٨٣ | البراء بن معرور |
| ٤٤٩ ، ٧٧ ، ٦٩ | البيزار |
| ٦١٤ ، ٦٠٨ ، ٥٨٩ ، ٥٧٩ | البغدادي |

| | |
|---------------------------------|----------|
| ١٣٨ | البلاذرى |
| ٥٥٢، ٥٤٢ | البيجورى |
| ٣٨٦، ٣٣٧، ٣٣٤، ٢٩٧، ٢٢٧، ٧٧، ٦٩ | البيهقى |
| ٥٨٠، ٥٦٥، ٥٣٣، ٤٢٤، ٤١٥، ٤٠٥ | |

حرف التاء

| | |
|-----------------------------------|------------|
| ٥٣٢، ١٨٠، ١٧٩، ١١ | تيم الدارى |
| ٣٤٣، ٣٤٢، ٣٣٨، ٣٣٦، ٣٣٥، ٣٣٢، ٦٩ | الترمذى |
| ٣٦٧، ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٦٠، ٣٤٩، ٣٤٨ | |
| ٤٠٥، ٣٩٩، ٣٩٠، ٣٨٩، ٣٨٦، ٣٨٤، ٣٨٣ | |
| ٥٤٢، ٥٣٩، ٥٢٤، ٥٠٦، ٤٥٠، ٤٤٧، ٤١٦ | |
| ٧٨٦، ٧٧٨، ٧٤٢، ٥٤٦ | |

حرف الشاء

| | |
|---------------|---------------------|
| ٥٤٧ | ثابت بن أقرم |
| ٦٣٣، ١٩٧، ١٥٩ | ثابت بن قيس بن شماس |
| ٦٩١ | ثابت بن المنذر |
| ٣٤٨ | ثوبان |
| ٦٨٧ | ثوية |

حرف الجيم

| | |
|-----------------------------------|--------------------------|
| ٣٣٠ | جابر بن حميد |
| ٤٩ | جابر بن سمرة |
| ٢١٩، ١٩٢، ١٨٠، ١٢٧، ٨٢، ٨١، ٦٤ | جابر بن عبد الله بن حرام |
| ٤٤٨، ٣٣٢، ٣٣٠، ٣٠٣، ٣٠١، ٢٩٦، ٢٦٤ | |
| ٤٥٢ | |

| | |
|---|-------------------------------|
| ١٨٠ | جابر بن عبد الله (غير السابق) |
| ٣٩٩ | جارية بن قدامة |
| ٣٧ | جبير بن مطعم |
| ٤٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٤٠ ، ٣٣٣ ، ٣٥٦ ، ٥٥١ ، | جبريل عليه السلام |
| ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ | |
| ٤٠٢ | جرموز الجهني |
| ٩ ، ٢٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ | جرير بن عبد الله البجلي |
| ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٨٨ ، ٧٤٤ | جرير (الشاعر) |
| ٢٢ ، ١٢٦ ، ١٩٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، | جعفر بن أبي طالب |
| ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، | |
| ٧٠٥ | |
| ١٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ | جعفر الصادق |
| ٢٠٦ | جعفر عبد السلام (دكتور) |
| ٤٣٥ | جعفر بن محمد بن شمس الخلافة |
| ٥٤٣ | جعيل بن سراقه الضمري |
| ١٩٧ | جندب بن جنادة (أبو ذر) |
| ٥٤٢ | جندب بن سفيان البجلي |
| ٣٤٨ | جويرية بنت الحارث |
| ١٠ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٢ | جيقر وعبد ابنا الجلندي |
| ٥٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ ، | الجاحظ |
| ٤٩٣ ، ٥٩٧ ، ٧٢٩ ، ٧٧٣ | |
| ٥٨٢ ، ٥٨٣ | الجارود بن عبد الله |
| ٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ | الجارود بن المعل |

| | |
|---|------------------------------|
| ٢٢٠ | الجد بن قيس |
| ٧٧٠ ، ٧٦٦ ، ٧٦١ ، ٧٥٤ ، ٧٥٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٢ | الجرجاني (عبد القاهر) |
| ٧٨٠ | |
| ٤٣٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣١ | الجنيد بن محمد الجنيد |
| ٦٩٠ | الجلال بن طلحة |
| حرف الحاء | |
| ٦١٥ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٥ | حاتم بن سعد الطائي |
| ٤٣٢ | حاجي خليفة |
| ٦٣ | حارثة بن وهب |
| ٧٧٤ | حازي جهينة |
| ٢٨٦ ، ١٩٧ ، ١٢٣ ، ١٢١ ، ١١٤ ، ١٠ | حاطب بن أبي بلتعة |
| ٣٥١ | حبيب بن عمرو بن عمير |
| ١٤٢ | حبيش بن أكرم بن صيفي |
| | حذافة (الشيءاء) انظر الشيءاء |
| ٦٢٤ | حذيفة بن الحارث |
| ٥٢٤ ، ٣٤٦ ، ١٩٧ ، ١٤٨ ، ٩٩ | حذيفة بن البيان |
| ٥٧٤ ، ٣٥ | حرب بن أمية |
| ٥٥٨ | حزن بن مرداس السلمى |
| ١٦٣ ، ١٢٣ ، ١٢٠ ، ٤٨ ، ٢٢ ، ٢١ ، ١٩ ، ٩ | حسان بن ثابت |
| ٥٥٠ ، ٥٤٩ ، ٥٤٦ ، ٥٤١ ، ٥٣٢ ، ٢٨٨ ، ٢٥٧ | |
| ٦٠٢ ، ٥٥٨ ، ٥٥٧ ، ٥٥٦ ، ٥٥٥ ، ٥٥٢ ، ٥٥١ | |
| ٦٣٥ ، ٦٣٤ ، ٦٢٦ ، ٦٢٢ ، ٦١٩ ، ٦١٤ ، ٦١٣ | |
| ٦٦٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٢ ، ٦٥١ ، ٦٥٠ ، ٦٤٧ ، ٦٤٦ | |

٦٦١ ، ٦٧٤ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ،

٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٥ ،

٢٨٧ ، ٤٩

حكيم بن حزام

٣١

حليمة السعدية

٦٩٨

حماد بن زيد

٤٢٣

حمزة بن حسن الأصفهاني

٢١ ، ٢٢ ، ١٩٧ ، ٥٥٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢١ ،

حمزة بن عبد المطلب

٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٥٠ ، ٦٦٥ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ،

٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ،

٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ،

٦٥٠

حنظلة بن أبي سفيان

٧٤٥ ، ٣١٧

حواء

٢٢١

حويطب بن عبد العزى

٦٩

الحارث بن أسامة

١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ٢٥٥ ،

الحارث بن أبي شمر

٦٥١

الحارث بن زمعة

٦٩٠

الحارث بن طلحة

٥٥٠

الحارث بن عبد المطلب

١١٤ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ،

الحارث بن عبد كلال الحميرى

١٤٢

الحارث الغساني

٢٩٧ ، ٣٢٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٥١ ،

الحاكم

٨١

الحجاج بن أبي عبد الله الصواف

٥٧٩

الخريري

| | |
|---|--|
| ١٧٣ ، ٦٤٠ ، ٧٣٣ | الحسن البصرى |
| ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٢٣٧ ، ٢٨٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ | الحسن بن على |
| ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٢٦ ، ٣٩٣ ، ٣٤٩ ، ٣٣٤ | |
| ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ | الحسن بن الفضل |
| ٤٢٧ | الحسن العسكرى (الإمام الحادى عشر للشيعه) |
| ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٢٣٧ ، ٣٩٣ ، ٤٠٥ ، ٤٢٦ | الحسين بن على |
| ٤٥٣ ، ٤٥٢ | |
| ٤٥٢ | الحسين بن يطمى الأسدى |
| ٦٠٣ ، ٦٠٤ | الخطيئة (جرول بن أوس) |
| ٤٨٥ | الحكم |
| ٢١٦ ، ٢٢١ | الحليس بن علقمة بن زبان |
| ٣٨ | الحميدى |
| حرف الخاء | |
| ١٩٧ | خارجة بن زهير |
| ١٩٦ ، ٥٣٢ | خارجة بن زيد بن ثابت |
| ٦٩٨ | خالد بن سلمة المخزومى |
| ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢١٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ | خالد بن الوليد |
| ٥٤٢ | خبيب بن عدى |
| ٩ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٠٤ ، ٢٥٨ | خديجة رضى الله عنها |
| ٢٥٩ ، ٣٥١ ، ٣٩٤ ، ٧٨٢ | |
| ٣٢ | خدامة (الشيء) |
| ٢١٨ | خراش بن أمية الخزاعى |

| | |
|--|----------------------------|
| ٤٩ | خريم بن فاتك |
| ٦٣١ | خزاعي بن عبد نهم |
| ١٠٧ ، ١٠٤ ، ٩ | خزيمة بن ثابت السلمى |
| ١٧٩ | خزيمة بن قيس |
| ٦٣٢ ، ٥٩٥ ، ٥٣٤ ، ١٩ | خفاف بن نضلة الثقفى |
| ٦٠٢ | خلف الأحمر |
| ٢٢٥ | خنيس بن جابر العامرى |
| ٢٥٥ | خويلد بن عمر الغطفانى |
| ٢٥٨ | الخرمى |
| ٤٨٢ | الخضر |
| ١٧ | الخطابى |
| ٤٠٥ | الخطيب |
| ٥٨٩ | الخنساء بنت أبى سلمى |
| ٦١٥ ، ٦١٤ ، ٦١٣ ، ٦١١ ، ٥٥٨ ، ٥٤٢ ، ٢٠ | الخنساء (تماضر بنت الشريد) |
| ٦٧١ ، ٦١٨ ، ٦١٧ ، ٦١٦ | |

حرف الدال

| | |
|---------------------------------|----------------------|
| ٦٠٦ ، ٦٠١ ، ٤٨٣ | داود عليه السلام |
| ١٥٩ ، ١١٧ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ٤٠ ، ١٠ | دحية بن خليفة الكلبي |
| ٧٧٣ ، ٥٦٥ | دعبل الخزاعي |
| ٥٣٩ ، ١٢٣ ، ١٢٢ | دلذل |
| ٤٥١ | الدارقطنى |
| ٥٠٦ ، ٣٨٠ ، ٣١٩ | الدارمى |
| ٤٥١ | الديلمى |

حرف الذال

| | |
|---|-------------------------------|
| ٥٦٥ ، ٥٣٤ | ذابل بن الطفيل بن عمرو الدوسي |
| ٦٣٢ | ذباب بن الحارث |
| ١٨١ | ذكوان بن عبد قيس |
| ٧٦ ، ٧٥ | ذو العقيصتين |
| ٤٨٢ | ذو القرنين |
| ١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٤٧ ، ٥٩ ، ١٠ | ذو المشعار الحمداني |
| ١٩٧ ، ١٨٠ | ذو النورين عثمان بن عفان |
| ٢٩٦ ، ٢٩٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٦ ، ٢٢٩ ، ١١٦ ، ١١٥ | الذهبي |
| ٥٤٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤١ ، ٤٢٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠١ | |
| ٦٨٧ ، ٦٨٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٣٣ ، ٥٤٨ ، ٥٤٥ | |
| ٧٠٠ ، ٦٩٨ | |
| ١٨٤ ، ١٨١ ، ١٨٠ | رافع بن مالك بن العجلان |
| ١٤٣ | رباح بن الربيع |
| ٤٧ | ربيعة بن أبي عبد الرحمن |
| ٣٠٩ | ربيعة بن أمية بن خلف |
| ٧١٦ | ربيعة بن كعب الأسلمي |
| ٣٦٦ | ربيعة بن يزيد |
| ١٨٤ | رفاعة بن عبد المنذر |
| ٥٧٤ ، ٥٧٣ ، ٣٥ ، ٣٢ | رقية بنت أبي صيفي |
| ٤٢٧ | رمضان عبد التواب |
| ٤٢٧ | رودلف زهايم |
| ٦٨٨ | الراعي |

| | |
|---|-----------------------------|
| ٥٣٩ | الرافعى |
| ٦٢ | الربيع بن سليمان |
| ٦١٧ | الرشيد (هارون) |
| حرف الزاى | |
| ٦٥١ | زعة بن الأسود بن عبد المطلب |
| ٦٣١ | زمل بن عمرو العذرى |
| ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ | زهير بن أبى سلمى |
| ٥٣٦ | زهير بن خباب |
| ٣٣٨ ، ٦٦٩ ، ٧٠٠ | زيد بن أرقم |
| ٢٢ ، ١٩٧ ، ٥٣٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٦٤ ، ٦٩٨ | زيد بن حارثة |
| ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٥ | |
| ٣٨٠ | زيد (الإمام) |
| ٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ | زيد بن سعة |
| ٣٧ | زيد بن عمرو بن نفيل |
| ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٣٩٣ | زينب بنت رسول الله ﷺ |
| ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٥ | زينب بنت جحش |
| ٢١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ | الزبرقان بن بدر |
| ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ | |
| ٦٩٢ | الزبعرى |
| ٣٧ ، ٣٨ | الزبير بن عبد المطلب |
| ١٩٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٥٥٢ ، ٦١٨ ، ٦١٩ | الزبير بن العوام |
| ١٩٠ | الزركشى |
| ١٠٢ ، ١٥٤ ، ٥٧٠ | الزخشرى |

حرف السين

| | |
|---|--|
| ٥٣٢ | سالم البراد |
| ٣٠٤ | سراقة بن مالك بن جعشم |
| ٥٢٨ | سراقة بن مرداس السلمى |
| ٧٧٦ ، ٧٧٤ | سطيح بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب (الكاهن) |
| ٦٩١ ، ٦٩٠ ، ٦٨٦ ، ٣٤٨ ، ٣٣٩ ، ٣٣٦ ، ٢٢٤ | سعد بن أبى وقاص |
| ١٨٤ | سعد بن خيثمة |
| ٦٨٧ ، ١٩٧ ، ١٨٤ | سعد بن الربيع |
| ٢٧٤ | سعد بن عبد الرحمن الجمحى |
| ٤١١ ، ٢٨٨ ، ٢٢٣ ، ١٨٤ ، ١٥٩ ، ٩١ ، ٩٠ | سعد بن عباد |
| ٦٩٨ ، ٦٧٧ ، ٦٧٦ ، ٥٢٢ | |
| ٦٨٧ ، ٦٥٧ ، ٢٨٧ ، ١٧٩ | سعد بن معاذ |
| ٦٠٤ ، ٥٩٤ ، ٥٩٢ ، ٢٠ | سعاد |
| ١٩٧ | سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل |
| ٣٦٧ ، ٣٦٦ | سعيد بن عبد العزيز |
| ٥٦٣ ، ٥٦٢ | سعيد بن المسيب |
| ٤٣٣ ، ٩٠ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٩ | سفانة بنت حاتم الطائى |
| ٧١٨ ، ٣٨ | سفيان بن عبد الله بن محمد |
| ٤٤٨ ، ٣٠١ | سفيان بن عيينة |
| ١٤٢ | سفيان بن مجاشع |
| ٥١٦ ، ٥١٣ ، ١٩٧ | سلمان الفارسى |

| | |
|-----------------------------------|--------------------------|
| ٢٢٢ | سلمة بن أسلم بن حريش |
| ٥٤٤ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ | سلمة بن الأكوع |
| ٦٤١ ، ٦٣٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٢ ، ٦٢٩ | سلمة بن عياض |
| ١٧٦ | سلمة بن هشام |
| ١٩٧ | سلامة بن سلامة بن وقش |
| ٥٨٩ | سلمى بنت أبي سلمى |
| ١٤٠ ، ١٣٩ ، ١١٤ | سليط بن عمرو |
| ٧٩ | سليمان عليه السلام |
| ٤٤٣ | سمية (أم عمار بن ياسر) |
| ٢٢١ ، ٢٢٠ | سنان بن أبي سنان الأسدي |
| ١٩٥ | سهل بن رافع بن أبي عمرو |
| ٥١٦ ، ٨٣ | سهل بن سعد الساعدي |
| ١٩٥ | سهيل بن رافع بن أبي عمرو |
| ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ١٧٦ ، ١٧٥ | سهيل بن عمرو |
| ٢٥٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ | |
| ٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ١٩ | سويد بن عامر المصطلقى |
| ٤٣٢ | سيوية |
| ١٢٣ ، ١٢٢ | سيرين |
| ٦٦٢ | سيف الدولة الحمداني |
| ٤٣٢ | البرى السقطى |
| ٧١٥ | السكاكى |
| ٦٧٨ | السهيلي |
| ١٩٢ ، ١٩٠ | السيد نور الدين السهمودى |

| | |
|--|---------------------------------|
| ١٧٥ ، ٤١٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٧٢ ، ٥٧٩ | السيوطى (جلال الدين) |
| حرف الشين | |
| ١١٤ ، ١٢٠ | شجاع بن وهب الأسدى |
| ٣٤٩ | شداد بن أوس |
| ٢٤٦ | شداد بن عبد الله القناني |
| ١٧٩ | شرحبيل بن حسنة |
| ٦٧٨ | شعثاء |
| ٧٧٤ ، ٧٧٦ | شق بن أنمار |
| ٣٣١ | شكل بن حميد |
| ٢٠ ، ٥٤٢ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٩٧ | شماس بن عثمان |
| ٣٠٨ | شهر بن حوشب الأشعري |
| ٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٦ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ | شيبة الحمد (عبد المطلب بن هاشم) |
| ٣٥١ ، ٤٦٩ ، ٦٢٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ | شيبة بن ربيعة |
| ٦٢ ، ٤٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ | الشافعى (الإمام) |
| ٥٧٩ | الشريشى |
| ٢٤ ، ٥٤٣ ، ٧٤٦ ، ٧٦٠ ، ٧٦٢ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ | الشرىف الرضى |
| ٧٧٩ | |
| ٦١٧ ، ٦١٦ | الشرىف المرتضى |
| ٨٨ ، ١٨٢ ، ٤٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٨٠ | الشعبى |
| ٦٠٣ | الشمخ |
| ٢٣٦ | الشيبيانى |
| ٢١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ | الشيء بنت الحارث |

حرف الصاد

| | |
|---|---------------------------|
| ٧٤٠ | صالح بن عبد القدوس |
| ٦٩١ | صوّاب (غلام أبي يزيد) |
| ٢٤٣ | صخر بن العيلة الأحمسي |
| ٦١٣ ، ٦١٧ ، ٦١٨ | صخر بن عمرو بن الشريد |
| ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦٥ ، ٥٤٢ ، ٥٥٦ ، ٦١١ ، ٦١٨ ، | صفية بنت عبد المطلب |
| ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٩٥ | |
| ٦٢١ | صفية بنت ربيعة بن عبد شمس |
| ١٤٣ | صفوان بن أسيد |
| ٤٦٠ | صفوان بن أمية بن خلف |
| ٣٤٩ | صهيب الرومي |
| ٤٢٨ ، ٤٢٦ | صلاح الدين المنجد |
| ٤٢٨ | الصاحب بن عباد |

حرف الضاد

| | |
|---|-----------------------|
| ٢٢ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٧٦ ، ٦٨٨ | ضرار بن الخطاب الفهري |
| ٩ ، ٧٤ ، ٧٦ | ضمام بن ثعلبة |
| ١٥١ | ضمام بن مالك السلماني |
| ٢٨٦ | ضمرة بن سعد الضمري |
| ٧٤٣ ، ٧٦١ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٨٣ ، | ضياء الدين بن الأثير |
| ٧٨٤ ، ٧٨٧ | |
| ٥٥٨ ، ٥٥٩ | الضحاك بن سفيان |

حرف الطاء

| | |
|-----|------|
| ٣٣٢ | طارق |
|-----|------|

| | |
|---|------------------------|
| ٥٤١ | طالب بن أبي طالب |
| ٥٣٧ ، ١٣٨ | طرفة بن العبد |
| ٦٩٠ | طلحة بن أبي طلحة |
| ٦٥١ ، ٢٧٨ ، ١٩٧ | طلحة بن عبيد الله |
| ١٤٨ ، ١٤٧ ، ١٠٢ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٥٩ ، ١٠ ، ٩ | طهفة بن زهير النهدي |
| ٧١٢ ، ١٥٠ ، ١٤٩ | |
| ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٢٩٤ ، ٢٧٤ ، ٢٢٩ ، ١٢٠ ، ١١٥ | الطبري |
| ٥٣٢ ، ٣٨١ ، ٣٠٩ | |
| ٥٢١ ، ٤٠٥ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ١٩٤ ، ٧٧ ، ٦٩ | الطبراني |
| ٤٧٤ ، ٤٧٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٠ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٩ | الطفيل بن عمرو الدوسي |
| | حرف الظاء |
| ٢٠٧ | ظافر القاسمي |
| | حرف العين |
| ٧٤ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٥٦ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٣٦ ، ٩ | عائشة رضي الله عنها |
| ٤٥٢ ، ٣٥٠ ، ٣٤٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٠ ، ٢٨٦ ، ٢٧٣ | |
| ٦٨٦ ، ٦٢١ ، ٥٥٢ ، ٥٤٣ ، ٥٣٦ ، ٥٣٣ ، ٥٢٠ | |
| ٧٨٥ | |
| ٥٥٦ | عائكة بنت عبد المطلب |
| ٢٩٣ | عاصم الأنصاري |
| ٦٩٠ | عاصم بن ثابت بن الأفلح |
| ٦٥٥ ، ٥٤٥ ، ٥٤٤ ، ٥٤٢ | عامر بن الأكوع |
| ٧٦٩ | عامر بن لؤي |
| ٢٢٢ ، ١٩٧ | عباد بن بشر بن وقش |

| | |
|---|------------------------------|
| ٦١٦ | عباد بن شبل |
| ٣٠٩ | عباد بن عبد الله بن الزبير |
| ٣٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨١ | عبادة بن الصامت |
| ٣٤١ | عبد الله بن أبي أوفى |
| ٢٣٧ ، ٢١٩ | عبد الله بن أبي بكر |
| ٢٩٦ ، ٢٧٣ | عبد الله بن أبي بن سلول |
| ١٥٩ | عبد الله بن أنيس |
| ٦٨٧ ، ٣٨٠ | عبد الله بن جحش |
| ٥٧٤ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٥ ، ٩ ، ٨ | عبد الله بن جدعان |
| ٦٩٩ | عبد الله بن جعفر بن أبي طالب |
| ٦٢٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤١ | عبد الله بن الحارث السهمي |
| ١٣٢ ، ١٣١ ، ١١٤ ، ١٠ | عبد الله بن حذافة السهمي |
| ٢٧٢ ، ١٩٥ ، ١٨٤ ، ١٧٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ١٩ ، ١٨ | عبد الله بن رواحة |
| ٥٤٥ ، ٥٤٤ ، ٥٤٣ ، ٥٤٢ ، ٥٤١ ، ٥٣٢ ، ٢٧٣ | |
| ٦٢٦ ، ٦١١ ، ٦٠٢ ، ٥٥١ ، ٥٤٨ ، ٥٤٧ ، ٥٤٦ | |
| ٦٦٨ ، ٦٦٧ ، ٦٦٦ ، ٦٦٥ ، ٦٦٤ ، ٦٥٥ ، ٦٤٨ | |
| ٧٠٤ ، ٧٠٢ ، ٧٠٠ ، ٦٩٩ ، ٦٩٨ ، ٦٩٦ ، ٦٦٩ | |
| ٦٧٣ ، ٦٦٠ ، ٦٥٩ ، ٦٥٧ ، ٥٩١ ، ٢٢ ، ٢١ | عبد الله بن الزبير |
| ٦٩١ ، ٦٨٨ ، ٦٧٥ ، ٦٧٤ | |
| ٢٢٥ | عبد الله بن سهيل بن عمرو |
| ٧٧٨ ، ٢٧٣ ، ٨٤ ، ٩ | عبد الله بن سلام |
| ١٩٠ ، ١٤٣ ، ١١٦ ، ١٠٢ ، ٧٦ ، ٤٩ ، ٤١ ، ٤٠ | عبد الله بن عباس |
| ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣١١ ، ٣١٠ ، ٣٠٢ ، ٢٩٢ ، ٢٧٥ | |

| | |
|---|-----------------------------------|
| ٥٢١ ، ٤٤٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩٠ ، ٣٥٠ ، ٣٤١ ، ٣٣١ | |
| ٧٦٧ ، ٥٨٠ ، ٥٣٣ | |
| ٣٩ ، ٣٧ ، ٣٦ | عبد الله بن عبد المطلب |
| ٥٤٨ ، ٣٨٩ ، ٣٦٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢ ، ٢٢٠ | عبد الله بن عمر |
| ٦٩٩ ، ٦٥٧ | |
| ٥٣٣ ، ٤٢٦ ، ٣٩٣ | عبد الله بن عمرو |
| ١٨٤ | عبد الله بن عمرو بن حرام |
| ٢٤٦ | عبد الله بن قراد الزيادي |
| ٤٥ | عبد الله بن قيس |
| ٦٩ | عبد الله بن محصن الأنصاري |
| ٤٢٧ | عبد الله بن محمد بن جعفر الأنصاري |
| ٥١٥ ، ٤٠٩ ، ٣٨٦ ، ٣٤٢ ، ٣٢٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤ | عبد الله بن مسعود |
| ٧٧٥ ، ٧٥٨ ، ٧٣٧ ، ٥٤٩ ، ٥٢٣ | |
| ٢٩٣ | عبد الله بن المخفل |
| ٧٣٢ | عبد الله بن يزيد |
| ٨٢ | عبد الله (أبو جابر بن عبد الله) |
| ٦٢٧ | عبيد الله بن الحارث |
| ١٣٦ ، ١٣٥ | عبد بن الجلندي |
| ٣٨٤ | عبد بن حميد |
| ٦٢٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٦ | عبيدة بن الحارث بن المطلب |
| ٦٥٣ ، ٣٨ | عبد الرحمن بن أبي بكر |
| ٦٩ | عبد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي |
| ١٢٣ | عبد الرحمن بن حسان بن ثابت |

| | |
|---|--|
| ٥١٣ | عبد الرحمن محمد (ناشر) |
| ٢٩٣ | عبد الرحمن بن خباب |
| ٦٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٢٤ ، ١٩٧ | عبد الرحمن بن عوف |
| ٤٤٩ | عبد الرزاق |
| ٦٣١ | عبد عمرو بن جبلة بن وائل الكلبي |
| ٨ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٨٩ ، | عبد المطلب بن هاشم |
| ٦٨٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٠ ، ٥٧٣ ، ٥٥٧ ، ٤٦٩ ، ٢٧٣ | |
| ٥٦٢ | عبد الملك بن مروان |
| ٦٦١ | عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير |
| ٣٥١ | عبد ياليل بن عمرو بن عمير |
| ٣٠٨ | عتاب بن أسيد |
| ١٩٧ | عتبان بن مالك |
| ١٦ ، ٣٥١ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، | عتبة بن ربيعة |
| ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٩٥ ، | |
| ٦٩٧ | |
| ٦٩٠ | عثمان بن أبي طلحة |
| ٦٢١ | عثمان بن عثمان (شساس) |
| ٣٥١ | عداس |
| ٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٦١٥ | عدى بن حاتم الطائي |
| ٦١٧ ، ٦٠٣ | عدى بن الرقاع |
| ٦٠٥ ، ٥٩٤ | عرقوب |

| | |
|---|--------------------------|
| ٢٢١ ، ٢١٧ ، ٢١٦ | عروة بن مسعود الثقفي |
| ٤٥٥ | عروة بن مضر |
| ٤٦١ ، ٤٦٠ | عصماء بنت مروان |
| ٣٦١ ، ٣٥٥ | عز الدين إبراهيم (دكتور) |
| ٧٧٤ | عزى سلمة |
| ٤٢٦ | عضد الدولة بن بويه |
| ٣٦٨ | عطاء بن يسار |
| ٦٣٢ ، ٢١ | عطارد بن حاجب بن زرارة |
| ٦٥٠ | عقبة بن أبي معيط |
| ٤٩ | عقبة بن الحارث |
| ٣٨٣ ، ٣٦٢ ، ٢٩٧ ، ١٨١ ، ١٨٠ | عقبة بن عامر |
| ١٧٣ | عقبة بن عمرو |
| ٥٨٩ | عقبة الملقب بالمشرب |
| ٧٠٣ ، ٧٠١ | عقيل بن أبي طالب |
| ٦٩٩ ، ٦٥٦ ، ٤٨٥ | عكرمة |
| ٦٠٣ | عكرمة بن جرير |
| ٢٩٣ | علبة بن زيد |
| ١٢٠ | علقمة (الشاعر) |
| ٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٨٦ ، | علي بن أبي طالب |
| ٨٧ ، ١٠١ ، ١٥٠ ، ١٦٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، | |
| ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، | |
| ٣٣٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٤٣٠ ، ٤٤٩ ، ٥٠٦ ، | |
| ٥٤١ ، ٥٥٦ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٦١٥ ، ٦٢٧ ، ٦٥٦ ، | |

٦٥٧ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ،

٧١٢ ، ٧٠٥

٧٦٧ ، ٧٥٥

على الجارم

٣٥٥

على بن محمد الجرجاني

٤٢٣

على بن الفضل الطالقاني

٣٥٦

على بن محمد القاري (الملا)

٦٠٨

على بن مسعود بن مازن الغساني

١٩٧ ، ٢٧٠ ، ٤٤٣

عمار بن ياسر

٦٩٧

عمارة بن زياد بن السكن

٨٠

عمر بن حمزة

٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

عمر بن الخطاب

٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ،

٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ،

٣٨١ ، ٥١٢ ، ٥٤٦ ، ٦١٤

٩٩ ، ١٤٨

عمران بن حصين

١٠ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦

عمرو بن أمية الضمري

٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦ ، ٦٣٢

عمرو بن الأهم

٦٨٧

عمرو بن الجموح

٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

عمرو بن حزم

٣٠٨

عمرو بن خارجة

٤٤٨

عمرو بن دينار

١٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٥ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٧٢

عمرو بن سالم الخزامي

٥٤٣

عمرو بن سراقة الضمري

| | |
|---|--------------------------|
| ٥٣٥ | عمرو بن الشريد |
| ١٤ ، ٢٢ ، ٥٠ ، ١١٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، | عمرو بن العاص |
| ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٥٤٢ | |
| ٦٨٨ | عمرو بن العباس |
| ٢٤٦ | عمرو بن عبد الله الضبابي |
| ٦٥٦ ، ٦٥٨ | عمرو بن عبد ود |
| ٦٥٨ | عمرو بن كلثوم |
| ٦٣١ | عمرو بن مرة الجهني |
| ٥٥٨ | عمرو بن مرداس السلمى |
| ٦١٥ | عمرو بن معد يكرب |
| ٤٦٠ ، ٤٦١ | عمير بن عدى |
| ٢٩٥ | عمير بن وهب الجمحي |
| ١٥١ | عميرة بن مالك الخارفي |
| ٤١٦ ، ٥١٩ | عوف بن مالك الأشجعي |
| ١٨٠ ، ١٨١ | عوف بن الحارث بن رفاعة |
| ١٩٧ | عويمر بن ثعلبة |
| ١٨١ ، ١٩٧ | عويم بن ساعدة بن عائش |
| ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٣٣٠ ، ٧٣٩ | عياض (القاضي) |
| ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، | عيسى عليه السلام |
| ١٤٠ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٥٥٨ ، ٦٣٨ ، ٧٤٥ | |
| ٥٨٢ | عيسى بن قدامة الأسدي |
| ٢٨٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٦٣٢ | عينة بن بدر |
| ٦٦٠ | عينة بن حصن الفزاري |

| | |
|---|-----------------------------|
| ١٧٦ | عباس بن أبي ربيعة |
| ١٨٤ ، ١٨١ | العباس بن عباد بن نفضلة |
| ١٩ ، ٢١ ، ٢٨٨ ، ٥٣٧ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، | العباس بن مرداس السلمى |
| ٥٦٣ ، ٦٠٢ ، ٦١٤ ، ٦٧١ | |
| ٣٨ ، ٣٧ | العاصمى بن وائل السهمى |
| ٧٧٣ ، ٦١٦ | العتابى (الشاعر) |
| ٤٩ | العداء بن خالد |
| ٤١٦ | العرباض بن سارية |
| ٣٠٢ | العضباء |
| ٧٧٣ | المكوك |
| ١٣٨ ، ١١٤ | العلاء بن الحضرمى |
| ٢٦٤ | العلاء بن مسروح |
| ٥٨٩ | العوام بن عقبة |
| حرف الغين | |
| ٥٢١ | غيلان بن جرير |
| ٢٣٧ | غيلان بن عمرو |
| حرف الفاء | |
| ١٥ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٥ ، | فاطمة الزهراء رضى الله عنها |
| ٣٠٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ ، | |
| ٧٠٥ | فاطمة بنت أسد |
| ٤٣٠ | فارس بن الحسين الهذلى |
| ٦٤٨ | فراة بن حيان |
| ٣٩٠ ، ١٢٤ ، ١٢١ ، ٦٦ | فرعون |

| | |
|---|-------------------------------|
| ٦٣٢ | فروة بن مسيك المرادى |
| ٥١٦ | فضالة بن عبيد |
| ٦٧٥ | فضالة بن عمير الليثى |
| ٦٨٨ | الفرزدق |
| ٣٨ | الفضل بن الحارث |
| ٦١٧ ، ٦١٦ | الفضل بن الربيع |
| ٣٨ | الفضل بن شراة |
| ٣٢١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ | الفضل بن العباس |
| ٣٨ | الفضل بن فضالة |
| ٣٨ | الفضل بن قضاة |
| ٣٨ | الفضل بن وداعة |
| حرف القاف | |
| ٥٦٢ | قبيصة بن ذؤيب |
| ٣٦٧ | قتيبة بن سعيد |
| ٦٢٤ ، ٦٢٣ ، ٦١٣ ، ٦١١ ، ٥٦٦ ، ٥٤٢ ، ٢٠ | قتيلة بنت النضر |
| ٧٨٣ ، ٧٧٥ | قدامة بن جعفر |
| | قرة بن هبيرة بن سلمة الخير بن |
| ٦٣١ | قشير |
| ٦٩١ ، ٦٩٠ | قزمان حليف بنى ظفر |
| ٥٣٩ ، ٥٢٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٠ | قس بن ساعدة الإيادى |
| ٥٨٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٨١ ، ٥٨٠ ، ٥٧٩ ، ٥٧٧ | |
| ٥٨٦ ، ٥٨٥ | |
| ١٨١ ، ١٨٠ | قطبة بن عامر بن حديدة |

| | |
|---|-----------------------------|
| ١٠ ، ٥٩ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ | قطن بن حارثة العليمى الكلبى |
| ٦٤٨ | قيس بن امرىء القيس |
| ٦٣٢ | قيس بن الحارث |
| ٢٤٧ ، ٢٤٦ | قيس بن الحصين (ذو الغصنة) |
| ٧٤٠ | قيس بن الخطيم |
| ٢٥٥ | قيس بن رفاعة |
| ٦٧٧ | قيس بن سعد |
| ٢٥٥ | قيس بن سنان |
| ٦٣٢ ، ٤٥٩ ، ٢٥٧ | قيس بن عاصم المنقرى |
| ٩ ، ١٠ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٨٨ ، ١١٤ ، ١١٥ ، | قيصر الروم |
| ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، | |
| ١٣١ ، ١٤١ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٥٥ ، ٥٥٥ | |
| | القاسط بن شريح بن هاشم بن |
| ٦٩١ | عبد مناف بن عبد الدار |
| ٣٨ | القتبى |
| | القرشى (صاحب جمهرة أشعار |
| ٥٥٠ | العرب) |
| ١٧٣ ، ٢٧٤ | القرطبى |
| ١٨٩ ، ٢٧٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ | القصواء (ناقة النبى ﷺ) |

حرف الكاف

| | |
|---|---------------|
| ٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، | كعب بن زهير . |
| ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، | |
| ٦٠٩ ، ٦١٣ ، ٦٧٠ | |

| | |
|---|----------------------------|
| ٧٦٩ ، ٢٥٥ | كعب بن لؤى |
| ١٠ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، | كسرى (بن هرمز) |
| ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، | |
| ٤٩٤ ، ٢٥٥ | |
| ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٩٥ ، | كعب بن مالك |
| ٥٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٥١ ، ٦٠٢ ، ٦١٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، | |
| ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، | |
| ٦٦٢ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٧٠٣ ، | |
| ٦٣١ | كليب بن أسد بن كليب |
| ٦٩٠ ، ٦٩١ | كلاب بن طلحة |
| ٢٢٥ | كوثر (دليل خنيس العامرى) |
| ٣٠٢ ، ٣١٣ | الكاند هلوى |
| ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦١٦ | الكميت |
| حرف اللام | |
| ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٧١ | ليد |
| ٤٥٠ ، ٤٥٣ | لقمان الحكيم |
| ٣٠٨ | ليث بن أبى سليم |
| حرف الميم | |
| ١٢٢ ، ١٢٣ | مارية القبطية |
| ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٥١٩ ، | مالك بن أنس (الإمام) |
| ١٥١ | مالك بن أيفع |
| ٦٦٧ | مالك بن زافلة |
| ٢٣٧ | مالك بن عوف من بنى النصر |

| | |
|--|--------------------------------|
| ١٠ ، ١٤٧ ، ١٦٠ | مالك بن مرارة الحميري الرهاوي |
| ١٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٦٣١ | مالك بن نمط |
| ١٤٣ ، ١٤٢ | مالك بن نويرة |
| ١٢٣ | مايور |
| ٥٨٠ | مجالد بن سعيد |
| ٣٠١ | مجاهد |
| ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٥٤ ، ٢٢٩ ، ٣٠٦ ، ٥٨٠ ، | مجد الدين بن الأثير |
| ٥٨٢ | |
| ١٩٠ | مجد الدين الفيروزابادي |
| ٢٢٨ | مجمع بن جارية بن عامر الأنصاري |
| ١٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، | محمد ﷺ |
| ٤٢ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٤ ، | |
| ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، | |
| ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، | |
| ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، | |
| ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، | |
| ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، | |
| ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، | |
| ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، | |
| ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، | |
| ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، | |
| ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، | |
| ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، | |

٢٨٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٣ ، ٢٧٦ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨
، ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣١١ ، ٣٠٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٠
، ٣٨٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٣٠
، ٤٦٠ ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٣٩٥
، ٤٧٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٣
، ٥١٦ ، ٤٨٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٧ ، ٤٧٥ ، ٤٧٤ ، ٤٧٣
، ٥٥٦ ، ٥٥٢ ، ٥٤٩ ، ٥٤٠ ، ٥٢٥ ، ٥٢٢ ، ٥١٨
، ٥٧١ ، ٥٦٤ ، ٥٦٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦١ ، ٥٥٩ ، ٥٥٨
، ٦٣١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤ ، ٦٢٣ ، ٦١٥ ، ٥٧٣
، ٦٥٥ ، ٦٥٣ ، ٦٤٠ ، ٦٣٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٧ ، ٦٣٢
، ٦٨٠ ، ٦٧٩ ، ٦٧٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٦٤ ، ٦٥٦
، ٧٢٢ ، ٧٠٦ ، ٧٠٢ ، ٦٩٥ ، ٦٩٤ ، ٦٨٧ ، ٦٨٦
٧٩١ ، ٧٤٦ ، ٧٣٤

٣٠٣

محمد بن أبي بكر

٣٠٣ ، ٣٠١

محمد الباقر

محمد بن الحسين بن موسى السلمى

٤٣٢

الأزدى النيسابورى

٢٢٩ ، ٢٠١ ، ١٢٠

محمد حميد الله

١٤٢

محمد بن سفيان بن مجاشع

١٧٥

محمد الصادق عفيفى

٢٣٦

محمد بن على الأكوخ

٢٣٩ ، ٢٣٨

محمد الغزالى (الشيخ)

٢٩٤

محمد بن كعب القرظى

| | |
|---|----------------------------------|
| ٢٩٦ | محمد بن مسلمة الأنصاري |
| ٢٢٩ ، ١٩١ ، ١٩٠ ، ٣٧ ، ٣٦ | محمد بن يوسف الشامي الصالحى |
| ٥٥٦ | محمود <small>عليه السلام</small> |
| ١٢٧ ، ١٢٤ | محمود شيث خطاب |
| ٢٢٥ | محمود بن مسلمة |
| ٥٨٠ | محمود محمد الطناحي |
| ٥٧٣ | مخرمة بن نوفل |
| ٦١٦ | مخلد بن يزيد بن المهلب |
| ٢٩٥ | مرارة بن الربيع |
| ٤٥١ | مرداس الأسلمى |
| ٥٥٨ | مرداس السلمى |
| ٧٥٤ ، ٤٤٢ ، ٣٩٤ ، ١٢٥ ، ٦٦ | مريم عليها السلام |
| ٦٠٣ | مزد أخو الشياخ |
| ٦٩٠ | مسافع بن طلحة |
| ٦٥٨ | مسافع بن عبد مناف بن وهب |
| ٣٥١ | مسعود بن عمرو بن عمير |
| ٣٠٦ ، ٢٦٥ ، ١٩٢ ، ١٢٧ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٦٥ ، ٦٤ | مسلم (الإمام) |
| ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٢ ، ٣٢٩ ، ٣٢٧ | |
| ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢ | |
| ٣٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٨٦ ، ٣٦٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٢ | |
| ٥٢٣ ، ٥١٩ ، ٥١٦ ، ٥١٣ ، ٤١٧ ، ٤٠٥ ، ٣٩٣ | |
| ٧٣١ ، ٦٩٩ ، ٥٤٩ ، ٥٤٨ ، ٥٤٤ ، ٥٤٠ ، ٥٣٥ | |
| ٧٧٩ ، ٧٣٥ ، ٧٣٣ ، ٧٣٢ | |

| | |
|--|-----------------------------|
| ٣٣٥ | مسلم بن الحارث |
| ٥٣٦ ، ٥٣٥ | مسلم الخزاعي (المصطلقى) |
| ٧٧٣ ، ٤٩٢ | مسلم بن الوليد (الشاعر) |
| ٦٩٢ ، ٦٩١ ، ٢٥٧ | مسلمة بن مخلد بن الصامت |
| ١٠ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٧٥ ، ٢٣٨ ، ٤٨٤ ، | مسيلمة الكذاب |
| ٦٨٦ | |
| ٧٥٥ | مصطفى أمين |
| ٦٢١ | مصطفى السقا |
| ٧١٢ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٥٦ | مصطفى صادق الرفاعي |
| ٤٨٤ | مصطفى كمال أتاتورك |
| ٧٤٢ | مصطفى محمد (ناشر) |
| | مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد |
| ٦٩٧ ، ٦٩١ ، ٦٧٦ ، ٦١٨ ، ٢٧٦ ، ١٩٧ ، ١٨٢ | مناف |
| ٣٦٨ | معاذ بن أسد |
| ٣٨٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٦٧ ، ٢٤٦ ، ١٩٧ ، ١٤ | معاذ بن جبل |
| ٧٥٩ ، ٧٥٧ ، ٧٤٢ ، ٤٥٧ ، ٣٨٤ | |
| ١٨١ | معاذ بن الحارث |
| ٦٠٢ ، ٥٣٩ ، ١٥٨ ، ١٢٢ ، ٧٨ ، ٧٧ | معاوية بن أبى سفيان |
| ٦١٣ | معاوية بن عمرو بن الشريد |
| ٤٩ | معرض بن معيقب |
| ٢٢٥ ، ٢٢١ ، ٢١٦ ، ٢١٥ | مكرز بن حفص بن عامر بن لؤى |
| ٤٦٩ | منبه بن الحجاج |
| ٣٨٦ | منصور بن المعتمر |

| | |
|---|--------------------------------|
| ١٢١ ، ١٢٦ ، ٢٩٦ ، ٣٩٠ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، | موسى عليه السلام |
| ٥١٢ ، ٥٤٧ ، ٦٦٦ ، ٧٢٣ | |
| ١٨١ ، ١٨٢ | موفق الدين بن قدامة |
| ٦١٧ | المأمون |
| ٦١٦ | المؤمل بن أميل الكوفي المحاربي |
| ٢٥٨ | المبرد |
| ١٣٨ | المتلمس |
| ٧٣٧ | المستورد بن شداد |
| ٣٩٣ | المسور بن مخرمة |
| ١٢١ ، ٧٧٤ | المسيح عليه السلام |
| ٥٠٧ ، ٣٣٦ | المسيح الدجال |
| ٤٢٧ | المعتصم العباسي |
| ٢١٧ ، ٢٣٧ | المغيرة بن شعبة |
| ٤٢٣ | المفضل بن سلمة |
| ٤٢٣ | المفضل الضبي |
| ٢٨٦ | المقداد بن الأسود |
| ٢٣٥ ، ٢٣٦ | المقرزي |
| ١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، | المقوقس |
| ١٣١ ، ١٤٢ ، ٢٢٩ ، ٥٣٩ | |
| ١١٨ | المنذر بن الحارث الغساني |
| ٢٥٧ | المنذر بن حرام |
| ١٠ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ | المنذر بن ساوى |
| ١٨٤ ، ١٩٧ | المنذر بن عمرو بن خنيس |

| | |
|-----------|------------------------------|
| ٦١٦ | المنصور |
| ١٥٥ ، ١١٤ | المهاجر بن أبي أمية المخزومي |
| ٦١٦ | المهدى العباسي |
| ٤٣٢ | المهلب بن أبي صفرة |
| ٧٧٤ | الموبدان |

حرف النون

| | |
|--|---------------------------|
| ٥٤٢ ، ٢١٥ | ناجية بن جندب بن عمير |
| ٤٢٦ | نافع |
| ٢٩٢ | نافع بن جبير |
| ٤٦٩ | نبيه بن الحجاج |
| ٥٨٢ | نصر بن غالب |
| ٦٢٢ ، ٦٢١ ، ٦١١ ، ٥٤٢ ، ٢٢ ، ٢٠ | نعم بنت سعيد (امرأة شساس) |
| ١٦٠ | نعيم بن عبد كلال |
| ٦٥٧ | نعيم بن مسعود |
| ٦٣٢ | نعيم بن يزيد |
| ٥٥٠ | نوفل بن الحارث |
| ٦٥١ | نوفل بن خويلد بن أسد |
| ٦١٤ ، ٦٠٥ ، ٥٨٩ ، ١٢٠ | النابعة الذبياني |
| ٥٣٦ | النابعة الجعدى |
| ١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، | النجاشي |
| ٤٩٤ ، ٢٢٩ ، ٢١٧ ، ١٤١ ، ١٣٦ ، ١٣١ | |
| ٣٦٤ ، ٣٦٢ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٣ ، ٣٣٤ ، ٣٢٨ | النسائي |
| ٧٣٥ ، ٥٢١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٨٦ | |

| | |
|--|---------------------------|
| ٤٦٩ ، ٤٨٥ ، ٦٥٠ | النضر بن الحارث |
| ٦٢٣ ، ٦٢٤ | النضر بن الحارث المخزومي |
| ١٦١ | النعمان قيل ذي رعين |
| ٤٥٢ ، ٧٠٠ ، ٧٣٨ | النعمان بن بشير |
| ٢٥٨ | النعمان بن الحارث الغساني |
| ٢٥٥ ، ٦٩٢ | النعمان بن المنذر |
| ١٩٥ | النوار بنت مالك |
| ٦١ ، ١٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٧٣١ ، | النوى |
| ٧٣٥ ، ٧٤٣ | |
| ٥٦٥ | النويرى |
| ١٣٦ | النياق (أخو هرقل) |
| حرف الهاء | |
| ٢٩٦ | هارون عليه السلام |
| ٤٠٦ | هارون العبدى |
| ٢٢ ، ٥٩١ ، ٦٥٨ ، ٦٨٨ | هبيرة المخزومي |
| ٤٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٦ ، ٥٤٧ ، ٦٦٧ | هرقل |
| ٥٥٢ | هشام بن عروة |
| ٣٥ | هشام بن المغيرة |
| ٣٨٨ | هشيم |
| ٩ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ | هند بن أبى هالة التميمى |
| ٢١ ، ٥٤٢ ، ٦١١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ | هند بنت أئانة |
| ٢١ ، ٢٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٥٠ ، ٦٧٧ ، ٦٨٦ ، | هند بنت عتبة |
| ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ، ٧٧٤ | |

١٠ ، ١١٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢

هوذة بن على الخنفي

٢٩٥

هلال بن أمية

٤٥٠ ، ٥٣٣ ، ٥٧٩

الهيثمي

حرف السواو

٩ ، ١٠ ، ٥٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،

وائل بن حجر الحضرمي

١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩

وحشى

٦٢٦ ، ٦٥٠ ، ٦٨٦

٣٩

ورقة بن نوفل

٣٠١

وكيع

١٩٢

وهب بن منبه

١٤٠ ، ٢٣٥ ، ٣٠٦ ، ٦٥٤ ، ٦٩٩

الواقدي

٦٥٠ ، ٦٩٧

الوليد بن عتبة

١٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٨١

الوليد بن المغيرة

١٧٦

الوليد بن الوليد بن المغيرة

حرف الياء

١٦٤ ، ٤٣٢ ، ٥٨٢

ياقوت الرومي

٢٩٣

يامين بن عمرو

٢٧٣ ، ٤٧٢ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧١٧ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ،

يحيى بن حمزة العلوي

٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٣٠ ، ٧٤٤ ، ٧٦٦ ، ٧٦٨ ، ٧٧٠ ،

٧٨٠ ، ٧٨٤

يزيد بن أبي سفيان

٣٨٢

يزيد بن عاصم

٩١

يزيد بن عبد المدان

٢٤٦ ، ٢٤٧

| | |
|-----------|------------------------------|
| ٥٥١ | يزيد بن عمرو بن تميم الخزاعي |
| ٢٤٦ | يزيد بن المحجل |
| ١٢٣ | يعفور |
| ٢٩٨ ، ٢٣٣ | يوحنا بن رؤبة |

فهرس القبائل

| الصفحات | اسم القبيلة |
|-----------------------------------|--------------|
| حرف الألف | |
| ٣٨ | آل فهر |
| ٧٠٢، ٦٣٧، ٦١٨، ٥٧١، ٥٥١، ٥٥٠ | آل هاشم |
| ١٥١ | أرحب اليمنية |
| ١٢٢، ١١٧، ١١٥، ٤٢ | الأريسيون |
| ٧٨١، ٢٨٨، ٢٢٦، ٢١٤ | أسلم |
| ٦٥٤ | أشجع |
| ٣٢٠ | الأفغان |
| ٤٨٢ | أهل الكهف |
| ٥٦، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٥٨، ٢٧٣، | الأوس |
| ٥٢١، ٦٤٩، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٧٧، ٧٥١، ٧٦٢ | |
| ٢٥٧ | إياد |
| حرف الباء | |
| ١٤٧، ١٦٢، ١٦٣ | بارق |
| ١٠٣ | بجلة |
| ٨٧، ٦٦٧، ٧٠٠ | بليّ |
| ٢٤٥ | بلية |

| | |
|--|---------------------------------|
| ٦٧٨ ، ٦٥٤ ، ٦٥١ ، ١٢٠ ، ٥٦ | بنو أسد |
| ٦٣٢ | بنو أسد الله بن سعد العشيرة |
| ٤٧٩ | بنو إسرائيل |
| ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٩ | بنو الأوس |
| ٤٦٠ | بنو أمية بن زيد |
| ٦٨٨ | بنو أمية |
| ٥٦٣ ، ٥٦٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٤ ، ٢٢٢ | بنو بكر |
| ٦٣٦ ، ٦٣٤ ، ٦٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٢٩ ، ١٤٢ ، ٢١ | بنو تميم |
| ٦٣٨ ، ٦٣٧ | |
| ٢٠٤ ، ٢٠٠ | بنو ثعلبة |
| ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٨ | بنو جشم |
| ٤١٠ ، ٣٨ | بنو جمح |
| ٢٣٤ | بنو جنبه |
| ٦٣٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠١ | بنو الحارث بن الخزرج |
| ٢١٦ | بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة |
| ٢٤٧ ، ٢٤٦ | بنو الحارث بن كعب |
| ٦٧٨ | بنو الحسحاس |
| ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٩ | بنو حنيفة |
| ٦٧٠ | بنو خفاف |
| ٦٩٧ | بنو ربيعة |
| ٥٦ | بنو زهرة |
| ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ١٩٩ ، ١٩٨ | بنو ساعدة |
| ٢٧٤ ، ١٨٤ | بنو سالم بن عوف |

| | |
|-------------------------------------|----------------|
| ٦٢٤، ٢٦٣، ١٥١، ١٠١، ٥٦، ٥٥، ٩، ٨، ٧ | بنو سعد |
| ٦٥٤، ٦١٤، ٥٦٦، ٥٦٠، ٥٥٩، ٥٥٨ | بنو سليم |
| ٤١٠، ٣٨ | بنو سهم |
| ٢٠٤، ٢٠٠ | بنو الشطبية |
| ٦٨٧ | بنو عبد الأشهل |
| ٦٩٠، ٤١٠، ٣١٤، ١٧٩، ٣٧ | بنو عبد الدار |
| ٣٠٦، ٢٦٦، ٢٦٥، ٨٤ | بنو عبد المطلب |
| ٥٥١، ٤٦٠، ٤١ | بنو عبد مناف |
| ٤١١، ٢١٨ | بنو عدى بن كعب |
| ٦٣١، ٣٨١، ٢١ | بنو عذرة |
| ٧٧٥ | بنو العشاء |
| ١٥٨ | بنو عليم |
| ٢٧٢، ٢٠٢، ١٩٩، ١٩٧، ٨٣، ٥٦ | بنو عمرو |
| ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٨ | بنو عوف |
| ٢٢٦ | بنو غفار |
| ٢٢٦ | بنو فهر |
| ٦٥٧، ٢٢١، ٢١٤، ٢١٣، ٢٠٩، ١٩٨، ٢١ | بنو قريظة |
| ٦٣١، ٢١ | بنو قشير |
| ٦٩٣ | بنو قصي |
| ٦٤٥، ١٩٨ | بنو قينقاع |
| ٥٦٣، ٤١١، ٢٨٧، ٢٨٥، ٢٨٤، ٢٦٦ | بنو كعب |
| ١٦٠ | بنو كلال |
| ٦٣١، ١٥٩، ١٥٨، ٢١ | بنو كلب |

| | |
|---|----------------------------|
| ٤٦٠ ، ٢٨٥ | بنو كنانة |
| ٤٧٤ | بنو لؤى |
| ٢١٣ | بنو لحيان |
| ٣١٣ ، ٣٠٧ | بنو ليث |
| ٧٧٥ | بنو مازن بن فزارة بن ذبيان |
| ٢٤٥ ، ٢١٧ | بنو مالك |
| ٤١٠ ، ٣٨ | بنو مخزوم |
| ٦٥٤ | بنو مرة |
| ٦٩٩ | بنو مرة بن عوف |
| ٢٥٧ | بنو منقر |
| ١٥٤ | بنو المغيرة المخزومي |
| ١٥٠ ، ١٤٨ ، ١٠٢ ، ١٠٠ | بنو نهد |
| ٢٠٢ ، ١٩٩ | بنو النبيت |
| ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ١٩٩ ، ١٩٧ ، ١٩٥ ، ١٨٩ ، ١٨٠ | بنو النجار |
| ٦٥٣ ، ٦٥٢ ، ٦٤٩ ، ٦٤٦ ، ٥٢٢ ، ٢٧٣ | |
| ٦٥٤ ، ٦٤٥ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٩٨ | بنو النضير |
| ٢٦٣ ، ٥٦ ، ٤٠ | بنو هاشم |
| ٧٠٠ ، ٦٦٧ | بهراء |

حرف التاء

| | |
|----------------------------|------|
| ٧٨١ | تجيب |
| ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٦ | تغلب |
| ٦٣٧ ، ٦٣٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢١ | تميم |
| ٣٨ | تيم |

| | |
|--|----------|
| ٤٨٩ | الترك |
| حرف الثاء | |
| ١٢ ، ١٤ ، ٧٠ ، ١٦٧ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، | ثقيف |
| ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٣٥١ ، ٧٦٣ | |
| حرف الجيم | |
| ٧٠٠ ، ٦٦٧ | جندام |
| ٣٨ | جرهم |
| ٢٠٤ ، ٢٠٠ | جفنة |
| ٢١ ، ٢٢٦ ، ٥٩٢ ، ٦٣١ | جهينة |
| حرف الحاء | |
| ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ | حمير |
| حرف الخاء | |
| ١٥١ ، ١٥٢ | خارف |
| ١٤٧ | خشعم |
| ١١٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ | خزاعة |
| ٥٦ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٨ ، ٢٥٨ ، ٢٧٣ ، | الخزرج |
| ٥٢١ ، ٦٧٧ ، ٧٥١ ، ٧٦٢ | |
| حرف الدال | |
| ٦٣٥ ، ٦٣٧ | دارم |
| ٨٠ ، ٣٣٣ ، ٤٧٤ | دوس |
| ١٧٩ | الداريون |
| حرف الراء | |
| ٣٠٧ ، ٣١٥ | ربيعة |

| | |
|---|----------------------|
| ١١٨ ، ١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ٩٠ ، ٤٣ ، ٤١ | الروم |
| ٥٤٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٢ ، ٢٣٣ ، ١٣١ ، ١٢٤ ، ١٢٠ - | |
| ٧٠٠ ، ٦٦٤ | |
| ١٢١ | الرومان |
| حرف الزاي | |
| ٣٧ | زيد |
| ٥٥١ ، ٣٨ | زهرة |
| حرف السين | |
| ٧٤ | سعد بن بكر (قبيلة) |
| ٦٧٠ ، ٤١١ | سليم |
| حرف الشين | |
| ١٥٢ ، ١٥١ | شاکر |
| حرف الضاد | |
| ١٥٥ | ضمعج |
| حرف الطاء | |
| ٨٩ ، ٨٦ | طیء |
| حرف الظاء | |
| ٦٩٠ ، ٦٨٧ | ظفر |
| حرف العين | |
| ٦٤٩ | عامر |
| ٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٨١ ، ٥٨٠ | عبد القيس |
| ٧٨١ | عُصَيْبَةُ |
| ٤٨٩ | العجم |
| | ٩٠٢ |

حرف الغين

٤١١

غطفان

٧٨١ ، ٢٨٨

غفار

١٦٣ ، ١٣١ ، ١٢٠

الغساسنة

حرف الفاء

٦٥٤

فزارة

٦٤٦ ، ٦٣٥

فهر

١٣٨ ، ١٣١ ، ١٢٤ ، ١١٤ ، ٤٠

الفرس

حرف القاف

٩ ، ١٢ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

قريش

٤٠ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٩١ ،

٩٢ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٣٧ ، ١٤١ ، ١٧٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،

٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ،

٢٦٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤ ،

٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٨٥ ، ٤١٠ ، ٤٤٢ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،

٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨٤ ، ٤٩٤ ، ٥٥٠ ، ٥٦٢ ،

٥٧٤ ، ٥٩١ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٢٤ ،

٦٢٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ،

٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٦٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧٤ ،

٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩١ ،

٧٦٣ ، ٧٦٢ ، ٧٢٤ ، ٧١١ ، ٦٩٧ ، ٦٩٣

٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٢٨٨ ، ٧٨

٤٦٩

١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢١

٧٠٠ ، ٦٦٧

حرف الكاف

٦٤٩ ، ١٥٩

٥٧٢

حرف اللام

٧٠٠ ، ٦٦٧ ، ١٧٩

حرف الميم

٦٩٣

٦٧٠ ، ٦٣١ ، ٢١

٦١٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٢ ، ٣١٥

٦٧٩ ، ٥٥٢

١٥٥

١٣٨ ، ١٣٣

حرف النون

٦٠٨

٢٣٧

٢٣١ ، ١٢

٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣١ ، ١٢

قضاة

قيس بنى ثعلبة

القبط

القيين

كعب

كنانة

لخم

مخزوم

مزينة

مضر

معدّ

معشر

المجوس

نزار

نصارى أوروبا

نصارى الشام

نصارى نجران

الحرف الميم

٧٠٤ ، ٦٩٦ ، ٦٩٤ ، ٦١٨ ، ٣٨

هاشم

٣١٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٥

هذيل

٦٣١ ، ٥٦٤ ، ٥٦٢ ، ١٥١ ، ٢١

همدان

٦٣١ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤

هوازن

٣٢٠

الهندوس

حرف الياء

١٥٢ ، ١٥١

يام

فهرس القوافي

| صدر البيت | قافية البيت | بحره | الصفحة | السطر | الشاعر |
|---------------|-------------|--------|----------|--------|-----------------------|
| الهمزة | | | | | |
| مستضحك | الأفذاء | الكامل | ٤٥٢ | ١٠ | الحسين بن مطير |
| وأحسنُ منك | النساء | الوافر | ٤٨ | ٩ | حسان بن ثابت |
| ألا أبلغُ | الحفَاء | الوافر | ٥٥٢ | ١ | حسان بن ثابت |
| عَقَتْ | خَلَاء | الوافر | ٦٧٨ | ١ | حسان بن ثابت |
| يا تبتي | لجاء | الخفيف | ٦٧٦ | ١٧ | ضرار بن الخطاب الفهري |
| عدمت | كداء | الوافر | ٢٨٨ | ١٨ | حسان بن ثابت |
| إذا أدبيني | الحساء | الوافر | ٦٦٩ | ١٢ | عبد الله بن رواحة |
| (ب) | | | | | |
| وقد قال | غَبًا | الوافر | ٤٥٨ | ١ | (مجهول) |
| إذا سقط | غضابا | الوافر | ٧٤٤ | ١٦ | جرير بن عطية |
| للحرب | وحَسَابُ | البيسط | ٤٩٢ | ٢٠ | (مجهول) |
| سائل | الهَرَبِ | البيسط | ٦٨٩ | ٦ | كعب بن مالك |
| رأيتك | كعِبِ | الطويل | ١٥٩ | ٢ | قطن بن حازمة العليمي |
| نَصَرَ | بضرابِ | الكامل | ٦٥٦ | ١٤ | علي بن أبي طالب |
| أعميتُ | الأعرابِ | الكامل | ٦٦١ | ٤ | كعب بن مالك |
| فدعُ | كعابِ | الكامل | ٦٦٠ | ٨ | حسان بن ثابت |
| فيها الجيادُ | الأقربِ | الكامل | ٦٦٠ | ١ | عبد الله بن الزبير |
| عرفت | القشيبِ | الوافر | ٦٥٢ | ١٣ | حسان بن ثابت |
| (ت) | | | | | |
| يا نَفْسُ | نَمُوْتِي | الرجز | ٧٠١، ٥٤٨ | ٢٠، ٢١ | عبد الله بن رواحة |
| كم قَدْ | الفلوات | الكامل | ٥٦٥، ٥٣٤ | ٧، ٨ | خفاف بن فضلة |

| | | | | | |
|----------------------------|--------|----------|--------------|----------|-------------|
| عبد الله بن رواحة | ١٣ | ٥٤٢ | الرجز | دميت | هل أنت |
| | | (خ) | | | |
| حسان بن ثابت | ١٤ | ٦٥١ | المتقارب | وقُضِح | خابت |
| | | (د) | | | |
| عبد الله بن رواحة | ١٠، ٢٠ | ٦٦٦، ٥٤٦ | البسيط | الزُّبدا | لكنني |
| الشيءاء | ١٤، ٨ | ٦٢٦، ٣٢ | الرجز | وأمردا | ياربنا |
| عمرو بن سالم الخزاعي | ١٠، ١٢ | ٥٦٢، ٢٨٤ | الرجز | محمدًا | يارب |
| (مجهول) | ١١ | ٤٥٩ | الكامل | شدائد | لا تياسن |
| حسان بن ثابت | ٢١ | ٥٥٠ | الطويل | العَبْدُ | وإن ولاء |
| بديل بن عبد مناف | ٩ | ٦٧٣ | الطويل | وتبعُد | بكي |
| حسان بن ثابت | ٧ | ٥٥٦ | الطويل | أشهد | وأنت إله |
| حسان بن ثابت | ١٥ | ٥٥٥ | الطويل | ويشهد | أغر |
| كعب بن مالك | ١ | ٦٩٤ | الكامل | الأخيد | طرق |
| أبو عزة الشاعر | ٨ | ٤٦٠ | الطويل | حميد | ألا أبلغا |
| الطفيل بن عمرو الدوسي | ٩ | ٤٧٤ | الوافر | المردي | ألا بلغ |
| ذو المشعار، مالك | ٥، ١٢ | ٥٦١، ١٥٣ | الطويل | وصلد | ذكرت |
| بن نمط | | | | | |
| أنس بن زنيم | ١٢، ١١ | ٦٧٢، ٥٦٣ | الطويل | أشهد | أأنت الذي |
| طرفة بن العبد | ١٤ | ٥٣٧ | الطويل | تزود | سبدي |
| محمد بن إدريس الشافعي | ٧، ١٦ | ٥٣٨، ٥٣١ | الوافر | ليبد | ولولا الشعر |
| حسان بن ثابت | ٦ | ٦٤٦ | الوافر | الشديد | لقد علمت |
| عيد الله بن المعتز | ١٦ | ٧٤٠ | المنسرح | بالعيد | قد انقضت |
| صقبة بنت عبد المطلب | ٩ | ٦٢٠ | الوافر | الصعيد | أرقت |
| | | (ر) | | | |
| قس بن ساعدة | ٩ | ٥٨١ | مجزوء الكامل | بصائر | في الذاهبين |
| الشيءاء (حذافة بنت الحارث) | ١٢ | ٦٢٥ | الرجز | عبر | محمد |

| | | | | | |
|---------------------------|-------|----------|----------|-----------|-------------|
| رجل من كنانة | ٢ | ٥٧٢ | المتقارب | المطر | لك الحمد |
| عبد الله بن رواحة | ١٢، ٣ | ٥٤٠، ١٦٩ | الرجز | والمهاجرة | اللهم |
| | ٨ | ٥٤٩ | | | |
| من أرجازهم في حفر الخندق | ٧ | ٥٤٣ | الرجز | عمراً | سأه |
| النايعة الجمعدى | ١٦ | ٥٣٦ | الطويل | مظهوراً | بلغنا |
| قيس بن الخطيم | ١٣ | ٧٤٠ | الطويل | نوراً | وقد لاح |
| (مجهول) | ١٦ | ٤٢٤ | السريع | الخابر | ما أنت |
| كعب بن زهير | ٨ | ٦٠٥ | البيسط | القدر | لو كنت |
| عبد الله بن رواحة | ١٦، ٣ | ٦٦٦، ٥٤٧ | البيسط | نصراً | فنبت |
| رقيقة بنت أبي صيفى | ٦، ١ | ٥٧٤، ٣٦ | البيسط | المطر | بشبية الحمد |
| أبو جرول الجشمى | ٤ | ٦٢٥ | البيسط | وينتظر | امتن |
| أعشى باهلة | ٤ | ٤٥٥ | البيسط | العمر | تكفيه |
| حسان بن ثابت | ١٨ | ٧٠١ | الطويل | مسهر | تأويني |
| كعب بن مالك | ١٣ | ٦٤٩ | الطويل | قاهر | عجبت |
| عبد الله بن الزبير | ١ | ٦٧٥ | الخفيف | بور | يا رسول |
| حسان بن ثابت | ١٢ | ٥٥٧ | البيسط | كفار | قومي |
| صفية بنت عبد المطلب | ١٦ | ٦١٩ | الطويل | وتخير | أسائلة |
| كعب بن مالك | ١١ | ٦٢٧ | المتقارب | تنزرى | أيا عين |
| حسان بن ثابت | ١ | ٦٥١ | الطويل | العسر | ألا ليت |
| هند بنت عتبة | ١٥ | ٦٢٦ | الرجز | سعر | والحرب |
| هند بنت أثانة | ٢ | ٦٢٧ | الرجز | الكفر | يا بنت |
| (رجل من زبيد) | ٤ | ٣٨ | البيسط | والنفر | يا آل فهد |
| (نشيد لجوار في المدينة) | ٣ | ٥٢٢ | الرجز | النجار | نحن جوار |
| كعب بن زهير | ٩ | ٦٠٧ | الكامل | الأنصار | من سره |
| | | | (ز) | | |
| كعب بن مالك | ١٥ | ٦٩٥ | المتقارب | حزة | صفية |

| | | | | | | |
|--------------------------------|----|-----|----------|-----------|-------------------|--|
| | | | (س) | | | |
| العباس بن مرداس | ٣ | ٥٦٠ | الكامل | عرس | يا أيها الرَّجُلُ | |
| صالح بن عبد القدوس | ١ | ٧٤١ | السريع | غريسه | وإنَّ من | |
| الخنساء (تماضر بنت عمرو) | ٨ | ٦١٨ | المتقارب | نفسى | فلولا | |
| نعم بنت سعيد بن يربوع | ٥ | ٦٢٢ | البيسط | أَبَاسِ | يا عَيْنُ | |
| الخنساء بنت عمرو | ٩ | ٦١٥ | البيسط | الراس | إنَّ الزمان | |
| أبو الحكم بن سعيد بن يربوع | ١٥ | ٦٢٢ | البيسط | الناس | اقتني | |
| | | | (ض) | | | |
| الجارود بن المعلل | ١٣ | ٦٤٠ | الطويل | والنَهْضِ | شهدتُ | |
| | | | (ع) | | | |
| حسان بن ثابت | ١ | ٦٣٥ | البيسط | تَتَّبِعُ | إنَّ الذَّوَابَّ | |
| النابعة الديباني | ١٥ | ٦١٤ | الطويل | واسع | فإنَّكَ | |
| الزبيرقان بن بدر | ٢١ | ٦٣٣ | البيسط | البيعُ | نحنُ | |
| العباس بن مرداس | ٢٠ | ٥٣٧ | المتقارب | والأفرع | أَتَجَمَّلُ | |
| ابن خلاد (الحسن بن عبد الرحمن) | ١٧ | ٤٢٦ | السريع | الجامع | قل لابن | |
| | | | (ف) | | | |
| أبو نواس (الحسن بن هانيء) | ٢١ | ٤٥٤ | البيسط | تألفُ | إنَّ القُلُوبَ | |
| حسان بن ثابت | ٢ | ٦٤٧ | الوافر | الزحوفُ | فما نخشى | |
| بجير بن زهير | ١٧ | ٦٧٠ | الوافر | خفاف | نفى | |
| (مجهول) | ١٢ | ١٥١ | الرجز | الريف | إليك | |
| | | | (ق) | | | |
| قس بن ساعدة | ١ | ٥٨٥ | البيسط | خِرْقُ | يا ناعي | |
| العباس بن عبد المطلب | ١٧ | ٥٥٦ | المنسرح | الورقُ | من قَبْلِها | |
| قُتَيْلَة بنت النضر | ٧ | ٦٢٣ | الكامل | موقِّقُ | يا راكباً | |
| الكميت بن زيد | ٩ | ٦١٦ | الكامل | يلحقِ | ما إن | |

| | | | | | |
|--------------------------|-------|----------|--------------|-----------|---------------|
| كعب بن مالك | ٧ | ٦٦٢ | الكامل | المحرق | من سرّة |
| (ك) | | | | | |
| الطفيل بن عمرو الدّوسي | ١٥ | ٨٠ | الرجز | عُبادكا | يا ذا الكفين |
| العباس بن مرداس | ١٠ | ٥٥٨ | الطويل | مشاركا | لعمرى |
| كعب بن زهير | ١٠ | ٥٩٠ | الطويل | هل لك | ألا أبلغا |
| العباس بن مرداس | ١ | ٥٥٩ | الكامل | هداكا | يا حاتم |
| قس بن ساعدة | ٨ | ٥٨٢ | الطويل | كراكها | خليلي |
| (مجهول) | ٩ | ٧٨٣ | مجزوء البسيط | والتبرك | أهديت |
| حسان بن ثابت | ١١ | ٦٤٧ | الطويل | الأوراك | دعوا |
| (ل) | | | | | |
| مالك بن نَمَط | ٩ | ١٥١ | الرجز | وأقيال | همدان |
| الجارود بن عبد الله | ١٣، ٣ | ٦٤١، ٥٨٣ | الخفيف | فألا | يابنى |
| حسان بن ثابت | ١ | ٥٥٠ | البسيط | فعلاً | إذا تذكّرت |
| (مجهول) | ١١ | ٥٣٦ | المتقارب | وابتهالاً | تركت |
| ليبد بن ربيعة | ١٥، ٩ | ٥٣٨، ٥٣٧ | الطويل | زائل | ألا كل |
| كعب بن مالك | ١١ | ٧٠٣ | الكامل | المخضّل | نام |
| الخنساء (تماضر بنت عمرو) | ١٥ | ٦١٧ | الطويل | التهلّل | وما العيث |
| نشيد للمهاجرين والأنصار | ٩ | ١٩٦ | الرجز | يَعْمَلُ | لئن قَعَدْنَا |
| الكميت بن زيد | ٢ | ٦٠٤ | المتقارب | يعمّل | مهذبة |
| كعب بن زهير | ١٥ | ٥٩٢ | البسيط | مكبوّل | بانث |
| كعب بن زهير | ١٢ | ٦٠٣ | الطويل | جروّل | فمَنْ للقوافي |
| عبد الله بن رواحة | ٨ | ٦٩٦ | الوافر | العويّل | بكت |
| أبو جندل بن سهيل بن عمرو | ١٢ | ٢٢٦ | الخفيف | الساحل | أبلغ |
| أعرابي ينشد الرسول ﷺ | ٤ | ٥٧١ | الطويل | الطِفْلِي | أتيناك |
| هند بنت أناة | ١ | ٦٢٨ | الطويل | والعقل | لقد ضَمِنَ |
| حسان بن ثابت | ١٦ | ٧٠٥ | الكامل | كُلّها | ولقد بكيث |

| | | | | | |
|------------------------|---------|-----------|--------|------------|-----------|
| أبو طالب بن عبد المطلب | ١٨ | ٥٧١ | الطويل | للأراميل | وأبيض |
| كعب بن زهير | ١٤ | ٦٠٨ | السريع | الجاهلي | إن كنت |
| حسان بن ثابت | ١٥ | ١٦٣ | الكامل | الأول | بيض |
| عبد الله بن رواحة | ٢١ | ٥٤٥ | الرجز | سبيله | خلوا |
| (م) | | | | | |
| أبو عزة الشاعر | ١٥ | ٤٦٠ | الرجز | الرزام | أبا بتي |
| سلمة بن عياض | ٥ | ٦٤١ | الطويل | مُعَلِّمًا | رأيتك |
| أمية بن أبي الصلت | ١٣ | ٥٣٩ | الرجز | جَمًّا | إن تغفر |
| بجير بن زهير | ١٤ | ٥٩١ | الطويل | أحزُم | من مبلغ |
| حسان بن ثابت | ٩ | ٦٩١ | الخفيف | النجوم | منع |
| حسان بن ثابت | ١ | ٢٥٨ | الخفيف | يقوم | إن خالي |
| عبد الله بن رواحة | ٣ | ٦٦٨ | الوافر | العكوم | جلبنا |
| العباس بن مرداس | ١٢ | ٦٧١ | الكامل | مُسَوِّمٌ | منا بمكة |
| فضالة بن عمير الليثي | ١٥ | ٦٧٥ | الكامل | والإسلام | قالت |
| حسان بن ثابت | ٢ | ٦٣٧ | الطويل | العظام | هل المجد |
| الزبرقان بن بدر | ٨ | ٦٣٦ | الطويل | المواسم | أتيناك |
| حسان بن ثابت | ١٠ | ٦٣٤ | الطويل | وراعم | منعنا |
| زهير بن أبي سلمى | ١ | ٥٩٠ | الطويل | فيقيم | يؤخر |
| فارس بن الحسين الهذلي | ٢١ | ٤٣٠ | البيسط | والحكم | إن الشهاب |
| حسان بن ثابت | ٥ | ٦٧٤ | الكامل | لثيم | لا تعدمن |
| (ن) | | | | | |
| عبد الله بن رواحة | ٢٠ ، ٢١ | ٧٠٠ ، ٥٤٧ | الرجز | لتنزلته | أقسمت |
| ضرار بن الخطاب النهري | ٨ | ٦٥٨ | الوافر | طحونا | ومشفقة |
| كعب بن مالك | ٧ | ٦٥٩ | الوافر | صابرينا | وسائلة |
| عبد الله بن رواحة | ١٦ ، ١٩ | ٥٤٨ ، ٥٤٣ | الرجز | اهتدينا | اللهم |
| | ١٢ | ٦٥٥ | | | |

| | | | | | |
|------------------------------------|------|---------|--------|---------|--------------|
| سويد بن عامر | ١٠٠٩ | ٥٣٥، ١٩ | البيسط | إنسان | لا تأمَنَنَّ |
| قيس بن عاصم المنقري | ١٦ | ٢٥٧ | السريع | أَفَّئُ | إني امرؤ |
| (هـ) | | | | | |
| عدي بن الرقاع | ٣ | ٦١٧ | الكامل | نسجاها | يتعاوران |
| (مجهول) | ٩ | ٤٥٥ | البيسط | باريها | يا باري |
| الألف المقصورة | | | | | |
| زهير بن حَبَّاب | ٦ | ٥٣٦ | الكامل | جنى | ارفع |
| (ي) | | | | | |
| عبد الله بن راحة أو كعب بن مالك | ١٢ | ٦٤٨ | الطويل | وافيا | وعدنا |

فهرس الأماكن والبلدان

| الصفحات | اسم المكان أو البلد |
|---|---------------------|
| حرف الألف | |
| ٢١٤ | آبار على |
| ١١٤ | آسيا الوسطى |
| ٥٧٣ ، ٣٨ ، ٣٥ ، ٣٤ | أبو قبيس |
| ١٩١ | أثرب |
| ٥٤٢ ، ٤٧٤ ، ٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ١١٣ ، ٨٠ ، ٢٢ | أحد |
| ٦٦٥ ، ٦٥٨ ، ٦٥٦ ، ٦٤٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢١ ، ٦١٩ | |
| ٦٩١ ، ٦٩٠ ، ٦٨٩ ، ٦٨٨ ، ٦٨٧ ، ٦٨٦ ، ٦٨٥ | |
| ٧٨٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٠ ، ٧٠٦ ، ٧٠٠ ، ٦٩٩ ، ٦٩٧ | |
| ١٢٤ | أخميم |
| ٢٩٨ | أذرح |
| ١٩١ | أرض الله |
| ٨٠ | أرض دوس |
| ١٦١ | أرض الروم |
| ٢٩٨ | أرض سورية الجنوبية |
| ١٢٤ | استامبول |
| ١٩١ | أكالة القرى |

| | |
|-----------------|-----------------------|
| ٤٧٥ | أكسفورد |
| ١٢٠ | إمارة الغساسنة |
| ٦٩ ، ٦٦ | أم القرى |
| ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ١٢ | أيلة |
| ١١٦ ، ٤١ ، ٤٠ | إيلياء |
| ٤٣١ | الآستانة |
| ٦٦٧ ، ٥٤٦ | الأردن |
| ١٣١ ، ١٢٣ ، ١٢١ | الإسكندرية |
| ١٣٣ | الامبراطورية الكسروية |
| ٤٣٠ ، ٢٣٧ | الأندلس |
| ٤٢٧ | الأهواز |

حرف الباء

| | |
|---|----------|
| ٨٩ | بابل |
| ٣٠٦ | بئر زمزم |
| ٢٠ ، ٨٠ ، ١١٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، | بدر |
| ٢٢٢ ، ٢٨٧ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٧٤ ، ٤٨٢ ، ٥١٥ ، | |
| ٥٤٧ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، | |
| ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، | |
| ٦٥٣ ، ٦٥٦ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، | |
| ٧٦٢ ، ٧٠٠ | |
| ١١٧ ، ٤٠ | بصرى |
| ٦٤٧ | بطن عالج |
| ٤٠٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ | بغداد |

| | |
|---|-------------------------|
| ١٩٦ | بقيع الخبجبة |
| ١٤ | بلاد قضاة |
| ١٩١ | بلد رسول الله |
| ١٧٩ | بيت إبراهيم |
| ١٧٩ | بيت عيون |
| ١٨٠ ، ١١٥ ، ٤٠ | بيت المقدس |
| ٤٣١ ، ١٦٣ | بيروت |
| ١٣١ | بيزنطة |
| ١٠٣ | بيشة |
| ١٩١ | البارة |
| ١٩١ | البحرة |
| ١٩١ | البُحَيْرَةُ |
| ١٩١ | البُحَيْرَةُ |
| ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١١٤ | البحرين |
| ١٩١ | البرّة |
| ٦٧٦ | البطحاء |
| ٨٤ | المقيع |
| ٥١ | البلد |
| ١١٥ ، ١١٤ | البلقاء |
| ٢٣٧ | البلقان |
| ٣٢٠ ، ٢٣٧ | البوستة والهرسك |
| ٨٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، | البيت (بيت الله الحرام) |
| ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، | |

٧٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٦٥ ، ٥٧٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٥ ، ٣١٤

حرف التاء .

١٣ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ ،

٦٤٥ ، ٦٣١

١٠٢ ، ١٠٠

٧٦٩ ، ٦٣٨ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ١٠٠

١٤٨

١٢٤

٢٣٣

حرف الناء

٣٨

٢١٥

٢٩٦ ، ٢٧٣

حرف الجيم

١٩٠

٦٩١ ، ٦٣٧ ، ٦٣٤ ، ٢٥٨

١٩١

٢٠٧

٢٠٧

٢٩٨

٢٥٥

٢٣٨

تبوك

تعار

تهامة

تهامة اليمن

توب قابي

تيماء

ثبير

ثنية المرار

ثنية الوداع

جابرة

جايبة الجولان

جبار

جبل ثور

جبل عير

جرباء

جلق

جنوب الجزيرة العربية

| | |
|--|-----------------|
| ١٩١ | الجابرة |
| ١٩١ | الجبارة |
| ١٤١ | الجبيلة |
| ٦٣١ ، ٢٤٦ ، ١١٤ ، ١١٣ | الجزيرة العربية |
| ٣٠٦ | الجمرة الكبرى |
| ٤٨١ | الجودي |
| ٨٦ | الجوشية |
| حرف الحاء | |
| ١٨٠ ، ١٧٩ | حبرون |
| ٢١٦ | حُثَيْمِي (جبل) |
| ٣٨ | حراء |
| ٦٣١ ، ١٥٩ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٤ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٥٩ | حضر موت |
| ٦٣٥ | حلية |
| ٢٨٦ | حراء الأسد |
| ٤٠ | حمص |
| ٨٠ | حمى ذى الشرى |
| ٥٥٨ ، ٥٤٨ ، ٥٣٩ ، ٤١٠ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٢١ | حنين |
| ٦٣٢ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤ ، ٥٦٠ | |
| ٤٣١ | حيفا |
| ١٣١ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١١٥ ، ١١٤ | الحبشة |
| ٦٧٠ | الحبلىق |
| ٣١٤ ، ٢٧٢ ، ٢٣٣ ، ١٥٥ ، ١١٤ ، ٥٩ ، ٩ | الحجاز |
| ٧٦٣ ، ٧٦٢ ، ٦٧١ | |

| | |
|---|---------------|
| ٣٨ | الحجر |
| ٦٦٦ ، ٢٨٨ ، ٦٦ | الحجون |
| ١٢ ، ٤١ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٣١ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، | الحديبية |
| ١٧٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، | |
| ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٤٩٤ ، ٥٤٢ ، | |
| ٦٦٤ ، ٧٠٠ ، ٧٦٩ | |
| ١٩٢ ، ٧٧ | الحرة |
| ٨٩ ، ٢٥٥ | الحيرة |
| حرف الخاء | |
| ٢٣٢ | خليج العقبة |
| ٨٠ ، ١٩٦ ، ٤٧٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٩ ، | خبير |
| ٦٥٤ ، ٧٥١ ، ٧٨٩ | |
| ١٣٨ | الخليج العربي |
| ٢١ ، ٨٠ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٩١ ، ٤٧٤ ، ٥١٥ ، | الخنديق |
| ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٩ ، ٦٤٥ ، | |
| ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦١ ، | |
| ٦٦٢ ، ٧٠٠ | |
| ٢٨٨ | الخدمة (جبل) |
| ١٩٢ | الحيرة |
| ١٩٢ | الحيرة |
| حرف الدال | |
| ١٩٢ | دار الأبرار |
| ١٩٢ | دار الإيمان |
| | ٩٢٠ |

| | |
|-----------------------------------|-----------------------|
| ١٩٢ | دار الحرار |
| ١٩٢ | دار السنة |
| ٣٨ ، ٩ ، ٨ | دار عبد الله بن جدعان |
| ١٩٢ | دار المختار |
| ٢٧٥ ، ١٩٠ ، ٧٣ | دار الهجره |
| ٢١٣ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٤٧ | دومة الجندل |
| ١٤٣ | ديار بنى تميم |
| ٣١ | ديار بنى سعد |
| ١٤٠ | ديار حنيفه |
| ١٩٢ ، ١٩٠ | الدار |

حرف الذال

| | |
|-----------------|-------------|
| ٣٨٠ ، ١٤ | ذات السلاسل |
| ١٩٢ | ذات النخل |
| ٣٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢١٤ | ذو الحليفة |
| ٢٨٨ ، ٢١٤ | ذو طوى |
| ٢٢٦ | ذو المروة |

حرف الراء

| | |
|-----------|----------|
| ٥٦١ ، ١٥٣ | رحرحان |
| ١٦١ | رعين |
| ٢٨٦ | روضه خاخ |
| ٢٩٤ | الربذة |
| ١٦٠ | الرها |

حرف السين

| | |
|-----------|--------------|
| ٢٧٣ ، ١٣٨ | ساجلي عمائد |
| ٤٢٧ | شامرا |
| ٤٢٧- | سرين رأى |
| ٢٥٨ | نسيمحة (بئر) |
| ٤٣٠ | سوق بربر |
| ٢٢٦ | سيف البحر |

حرف الشين

| | |
|---|-----------------|
| ١٥٥ | شبو |
| ١٩٢ | الشافية |
| ١٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، | الشام |
| ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، | |
| ٢٣٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٧٠٠ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ | |
| ١١٤ | الشمال الأفريقي |

حرف الصاد

| | |
|-----------|---------|
| ٥٦١ ، ١٥٣ | صلدد |
| ٣٠٤ ، ٢٦٥ | الصفاء |
| ٦٢٨ | الصفراء |

حرف الطاء

| | |
|-----------------|-------|
| ١٩٢ | طائب |
| ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ | طابة |
| ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ | طبيئة |
| ١٩٢ | طبيبة |

٦٤٥ ، ٦٣٢ ، ٦٣١ ، ٥٩١ ، ٣٥١ ، ٢٤٣ ، ١٤ الطائف

حرف العين

٣٠٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٢٢٩ ، ١٦٨ عرفة

٣٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٢١ ، ٣١١ ، ٣١٠ ، ٣٠٩

١١٤ عسفان

٤٢٧ - عسكر مُكْرَم

٦١٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨٠ ، ٢٥٦ ، ٢٤٤ عكاظ

١٣٥ ، ١٣٤ ، ١١٤ عمان

١٩٣ العاصمة

١٩٣ العذراء

٢٩٤ ، ١١٤ العراق

٤٢٧ العسكر

حرف الغين

٦٩ غارثور

١٩٣ الغزاة

١١٣ الغرب الآسيوي

حرف الفاء

١٣٢ فارس

٤٣١ ، ٢٣٧ فلسطين

٢٥٥ ، ٣٧ الفجار

٤٣٠ ، ٤٢٩ ، ٤٢٨ الفسطاط

حرف القاف

١٩٣ قبة الإسلام

| | |
|----------|----------|
| ١٣٩ | قران |
| ٥٦١ | قردد |
| ٣٠٩ | قزح |
| ١٣٣ ، ٨٩ | القادسية |
| ١٩٥ | القدس |

حرف الكاف

| | |
|--|-------------|
| ٦٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٤ | كداء |
| ٢٢٨ ، ٢١٤ | كراع الغميم |
| ٣٢٠ | كشمير |
| ٦٧٥ ، ٤٧٣ ، ٤٧٠ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٥ | الكعبة |
| ٦٧٦ | |
| ٨٩ | الكوفة |

حرف الميم

| | |
|-----------|-----------------|
| ٦٦٨ ، ٦٦٧ | مآب |
| ١٩٠ | مجبورة |
| ١٥٥ | محجر |
| ١٥٥ | محجن |
| ٣٠٦ | محسر |
| ١٨٠ | مدينة الخليل |
| ١٩١ ، ١٤٣ | مدينة الرسول |
| ٢٠٩ ، ١٩٤ | مدينة رسول الله |
| ١٦٢ | مربع |
| ١٨٩ | مسجد قباء |

| | |
|--|---------------------------|
| ١٩٠ | مسكينة (من أسماء المدينة) |
| ٥٤٧ ، ١٥٣ | مشارف |
| ٤٣٠ ، ٤٢٩ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢١ ، ١١٥ ، ١١٤ | مصر |
| ٧٦٣ ، ٧٦٢ ، ٤٣٥ | |
| ١٦٢ | مصيف |
| ١٦١ | معاقر |
| ٦٦٨ ، ٦٦٧ ، ٥٤٧ | معان |
| ٣٠٣ | مقام إبراهيم |
| ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ١٢ | مقنا |
| ٧٨ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٤٠ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ١٣ ، ١٢ | مكة |
| ١٩٢ ، ١٨٢ ، ١٥٥ ، ١٤٠ ، ١٠٧ ، ١٠٤ ، ٨٠ | |
| ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢٠٠ | |
| ٢٨١ ، ٢٥١ ، ٢٤٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ | |
| ٣٠٦ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٣ | |
| ٥٥٨ ، ٥٤٦ ، ٥٤٥ ، ٤٨٢ ، ٤٧٢ ، ٤٦٠ ، ٤٥٣ | |
| ٦٢١ ، ٦٠٦ ، ٥٩٠ ، ٥٨٠ ، ٥٧٣ ، ٥٦٣ ، ٥٦٢ | |
| ٦٥٩ ، ٦٥١ ، ٦٤٥ ، ٦٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٢٨ ، ٦٢٦ | |
| ٦٧٦ ، ٦٧٣ ، ٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٠ ، ٦٦٥ ، ٦٦٤ | |
| ٧٦٨ ، ٧٦٢ ، ٦٨٦ ، ٦٨١ ، ٦٧٧ | |
| ٥٦١ ، ٣٠٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٤ ، ١٨٤ ، ١٥٣ | منى |
| ١٩٣ | المؤمنة |
| ١٩٣ | المباركة |
| ١٩١ | المجبورة |

| | |
|---|-----------------|
| ١٩٣ | المحبة |
| ١٩٣ | المحبية |
| ١٩٣ | المحبوبة |
| ١٩٤ | المحبورة |
| ١٩٤ | المحروسة |
| ١٩٤ | المختارة |
| ١٣٢ | المدائن |
| ١٢ ، ١٣ ، ٢١ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، | المدينة المنورة |
| ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، | |
| ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، | |
| ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، | |
| ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، | |
| ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، | |
| ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، | |
| ٣٠٤ ، ٣٩٣ ، ٤٣١ ، ٤٥٩ ، ٤٧٤ ، ٥٢٢ ، ٥٤٠ ، | |
| ٥٤١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٩٢ ، ٦١٩ ، | |
| ٦٢١ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، | |
| ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٦٢ ، ٧٧٨ | |
| ١٩٤ | المرحومة |
| ١٧٩ | المرطوم |
| ٣٠٤ | المروة |
| ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ | المزدلفة |
| ٣٠٤ ، ٣٠٥ | المشعر الحرام |

| | |
|---|--------------------------|
| ١٩٤ | المقر |
| ١٣٨ | المملكة العربية السعودية |
| ٧٧ | المنبر |
| ٣٠٩ ، ٣٠٦ | المنحر |
| حرف النون | |
| ٦٧١ ، ١٠٢ ، ٥٩ | نجد |
| ٦٧٤ ، ٦٧٣ ، ٢٤٦ ، ٢٣١ ، ١٦٧ ، ١٢ | نجران |
| ٣٨٠ | نخيلة |
| ٣٠٤ | نمرة |
| ٤٣٢ | نيسابور |
| حرف الهاء | |
| ١٤٠ | هجر |
| ٢٤٧ ، ١٥٣ | الهند |
| حرف الواو | |
| ٢٣٣ | واحة تيباء |
| ٢٠٧ | وادي العقيق |
| ٤٣٢ | واسط |
| ٢٤٥ ، ٢٤٤ | وج |
| ٦٧٢ ، ٥٦٢ ، ٢٨٤ | الوتير |
| حرف الياء | |
| ٥٤٥ | يأجيج |
| ١٩٨ ، ١٩٥ ، ١٩٠ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨٠ ، ١١٣ | يثرب |
| ٧٠١ ، ٦٤٠ ، ٢٧٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ | |

١٩٠

يندد

١٤٠ ، ١٣٩ ، ١١٤

اليامة

١٢ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٤ ،

اليمن

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ،

٢٤٨ ، ٥٦١ ، ٧٥٧ ، ٧٥٩ ، ٧٦٢



فهرست المحتويات

مقدمة الكتاب : ١٩-١

الباب الأول

سمات الرسول وصفاته وشمائله

في الجاهلية والإسلام

الفصل الأول : شخصية محمد قبل المبعث وبعده : ٢٩

في الجاهلية ٣١

بعد المبعث ٤٠

الفصل الثاني : فصاحة محمد صلى الله عليه وسلم وبلاغته ٥٣

القاضي عياض يصف فصاحة الرسول ٥٥

قمة أدب التعبير ٦٦

الفصل الثالث : أدب الحوار في كلام النبي ٧١

الفصل الرابع : الرسول يتحدث لغات القبائل ٩٧

الباب الثاني

كتب الرسول صلى الله عليه وسلم ورسائله

الفصل الأول: كتب الرسول إلى الملوك من أهل الكتاب ١١١

كتاب الرسول ﷺ إلى قيصر ١١٥

كتاب الرسول ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ١٢٠

٩٣١

- ١٢١ كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس
- ١٢٤ نص كتاب الرسول إلى النجاشي
- ١٢٩ الفصل الثاني: كتب الرسول ﷺ إلى غير أهل الكتاب
- ١٣٢ كتابا إلى قصرا
- ١٣٤ كتابه ﷺ إلى ملكي عمان مع عمرو بن العاص
- ١٣٨ كتابه ﷺ إلى صاحب البحرين وإسلامه
- ١٣٩ كتابه ﷺ إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة
- ١٤١ كتابه ﷺ إلى مسيلمة الكذاب
- ١٤١ كتابه ﷺ إلى أكثم بن صيفي
- ١٤٥ الفصل الثالث: كتب النبي ﷺ مع الوفود العائدة
- ١٤٨ كتاب الرسول ﷺ إلى بني نهد مع طهفة
- ١٥١ حديث ذي المشعار الهمداني وكتاب النبي لقومه
- ١٥٤ مقدم وائل بن حجر الحضرمي
- ١٥٨ كتب الرسول لقبيلة كلب مع قطن بن حارثة العليمي
- ١٦٠ كتابه ﷺ مع رسول حمير
- ١٦٢ وفود قبيلة بارق وكتاب الرسول ﷺ لهم
- ١٦٣ كتاب الرسول وخبر الأكيدر بن عبد الملك

الباب الثالث

عهود الرسول ﷺ ومعاهداته

- ١٦٩ الفصل الأول: العهود في القرآن الكريم
- ١٧٤ سمات المعاهدات في الإسلام كما طبقها النبي ﷺ

| | | |
|-----|-------|---|
| ١٧٧ | | الفصل الثاني : عهد ما قبل الهجرة |
| ١٧٩ | | عهد الدارين |
| ١٨٠ | | بيعة العقبة الأولى |
| ١٨٢ | | بيعة العقبة الثانية |
| ١٨٧ | | الفصل الثالث : عهد المودعة بين المسلمين واليهود : |
| ١٩٠ | | الرسول ﷺ يغير اسم يثرب إلى المدينة |
| ١٩٥ | | الرسول ﷺ يبنى مسجده |
| ١٩٧ | | المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار |
| ١٩٨ | | نص وثيقة المودعة ونشأة دولة المدينة |
| ٢١١ | | الفصل الرابع : هدنة الحديبية : |
| ٢١٤ | | المسير إلى مكة |
| ٢١٥ | | جولات المحادثات |
| ٢١٩ | | بيعة الرضوان |
| ٢٢١ | | الرحلة الأخيرة من المفاوضات وعقد الصلح |
| ٢٢٣ | | شروط الصلح |
| ٢٢٥ | | أبو بصير وأبو جندل |
| ٢٣١ | | الفصل الخامس : عهده ﷺ مع نصارى الشام ونجران : |
| ٢٣٣ | | عهده ﷺ ليوحنه صاحب أيلة |
| ٢٣٤ | | معاهدته ﷺ مع أهل مقنا |
| ٢٣٥ | | معاهدته ﷺ مع نصارى نجران |
| ٢٤١ | | الفصل السادس : عهده ﷺ لثقيف ولعمرو بن حزم : |
| ٢٤٣ | | عهده ﷺ لثقيف |
| ٩٣٣ | | |

٢٤٦ عهدہ ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن

الباب الرابع

خطب الرسول ﷺ

٢٥٣ الفصل الأول : الخطابة قبل الاسلام :

٢٦١ الفصل الثاني : خطب الدعوة إلى الله :

٢٧٢ أول خطبه جمعة في المدينة

٢٨١ الفصل الثالث : خطبة ﷺ في فتح مكة وبعض الغزوات

٢٨٧ جيش الرسول ﷺ في الطريق إلى مكة

٢٨٩ خطبة فتح مكة

٢٩١ خطب الرسول في الغزوات

٢٩٢ في الطريق إلى تبوك

٢٩٤ أبو ذر وأبو خيثمة

٢٩٧ نص خطبة الرسول ﷺ في تبوك

٢٩٩ الفصل الرابع : حجة الوداع وخطبة الوداع :

٣٠١ في رحاب حجة الوداع

٣٠٦ خطبة الوداع

٣١٠ بين يدي خطبة الوداع

٣٢١ خطبة الفراق

الباب الخامس

أدعية رسول الله ﷺ وروحانياته

٣٢٥ الفصل الأول : الدعاء والتسبيح والابتهال

٣٢٨ مطلق الدعاء

| | |
|-----|--|
| ٣٣٠ | الرسول يعلم آل بيته وأصحابه الدعاء |
| ٣٣٣ | دعاء الرسول في الصلاة |
| ٣٣٧ | دعاء التعوذ |
| ٣٤٠ | أدعيته ﷺ في الصباح والمساء والليل |
| ٣٤٣ | أدعيته ﷺ عند النوم |
| ٣٤٦ | أدعية التعبد والتهجد والتسبيح والابتهاال |
| ٣٥٣ | الفصل الثاني : الأحاديث القدسية : |
| ٣٥٥ | التعريف بها |
| ٣٥٦ | موضوعاتها |
| ٣٥٨ | الوحدانية والبعث |
| ٣٥٩ | التوحيد والتكبير والحمد والغفران |
| ٣٦٠ | عمل الخير لغير الله |
| ٣٦١ | فضل فريضة الصلاة والصيام |
| ٣٦٢ | حب الله سبحانه لعباده ورحمته بهم |
| ٣٦٥ | فضل الشهادة والجهاد في سبيل الله |
| ٣٦٥ | تحريم الظلم |
| ٣٦٧ | الأخوة والتحاب في الله |
| ٣٦٨ | أهل الجنة |

الباب السادس

الوصايا

| | |
|-----|---|
| ٣٧٣ | الفصل الأول : وصايا الرسول ﷺ للصحابة القواد |
| ٣٧٥ | تمهيد |
| ٩٣٥ | |

- ٣٧٧ وصايا الرسول ﷺ للصحابة من قواد وموجهين
- ٣٧٩ وصاياه ﷺ للغزاة
- ٣٨٢ وصيته لأبي ذر
- ٣٨٣ وصايا الرسول ﷺ لأبي هريرة
- ٣٩١ الفصل الثاني: بعض وصايا الرسول للنساء:
- ٣٩٤ وصيته ﷺ لفاطمة
- ٣٩٥ وصيته ﷺ لأم أنس
- ٣٩٧ الفصل الثالث: وصيتان لأحد العامة ولآخر غير مسلم:
- ٣٩٩ وصيته العامي
- ٤٠٠ وصيته للثاني (أبي جرى)
- ٤٠٣ الفصل الرابع: الرسول يوصي بطلاب العلم.
- ٤٠٧ الفصل الخامس: وصية الرسول بالأنصار.
- الفصل السادس: وصية الرسول إلى الخليفة من بعده
- ٤١٣ ووصيته للمسلمين حيال حكاهم
- ٤١٦ وصيته ﷺ للمسلمين بحكامهم

الباب السابع

الأمثال النبوية السائرة

- ٤١٩ الفصل الأول: الأمثال ومن صنف فيها من العلماء
- ٤٢١ الأمثال ومن صنف فيها
- ٤٢٣ الأمثال النبوية السائرة والتأليف فيها
- ٤٢٥ المصنفون في أمثال القرآن

- ٤٣٧ الفصل الثاني : من موضوعات الأمثال النبوية :
- ٤٣٩ أمثال في العلم والعلماء
- ٤٤١ أمثال في المشورة
- ٤٤١ أمثال في المرأة
- ٤٤٥ الفصل الثالث : نماذج من الأمثال النبوية السائرة :
- ٤٤٧ نماذج من أمثال الحديث من كتاب أبي عبيد
- ٤٥٠ نماذج من كتاب أمثال النبي للرامهرمزي
- ٤٥٤ نماذج من جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري

الباب الثامن

أسلوب القرآن وأسلوب النبي

- ٤٦٥ الفصل الأول : التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله :
- ٤٦٧ تمهيد
- ٤٦٨ التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله
- ٤٦٩ عتبة بن ربيعة ساعة سماعه القرآن
- ٤٩٠ الوليد بن المغيرة
- ٤٧٢ الطفيل بن عمرو الدوسي
- ٤٧٤ أعرابي يسجد عند سماعه جملة قرآنية
- ٤٧٧ الفصل الثاني : القرآن معجزة محمد
- ٤٨٠ وجوه الإعجاز كما يراها الماوردى
- ٤٨٥ الباقلاني وإعجاز القرآن
- ٤٨٦ إعجاز القرآن عند الخطابي
- ٩٣٧

| | |
|-----|--|
| ٤٨٩ | عودة إلى الباقلانى |
| ٤٩٤ | الفرق بين أسلوب القرآن وكلام النبى |
| ٤٩٧ | الفصل الثالث: نماذج تلقائية من الكتاب العزيز ومن حديث رسول الله: |
| ٥٠٠ | الآيات القرآنية |
| ٥٠٦ | نماذج من كلام الرسول |
| ٥٠٩ | الفصل الرابع: تناول القرآنى وتناول النبوى لقضية بذاتها: |
| ٥١١ | رحمة الله |
| ٥١٣ | الجهاد فى سبيل الله |
| ٥١٧ | اليتامى والمساكين |
| ٥٢٠ | مكانة الأنصار |
| ٥٢٢ | الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر |

الباب التاسع

الرسول والشعر

| | |
|-----|--|
| ٥٢٩ | الفصل الأول: الرسول وموقفه من الشعر: |
| ٥٣١ | موقف الرسول من الشعر |
| ٥٣٣ | الرسول يمدح الشعر الجاد |
| ٥٤١ | الرسول يردد الشعر ولا يقرضه |
| ٥٤٩ | الرسول يستنشد الشعراء الصحابة |
| ٥٥٣ | الفصل الثانى: شعراء الصحابة يمدحون الرسول. |
| ٥٦٧ | الفصل الثالث: استسقاء النبى ﷺ: |
| ٥٧١ | الشعراء يناشدون الرسول الاستسقاء |

| | |
|-----|--|
| ٥٧٣ | الرسول يستسقى به وهو غلام |
| ٥٧٧ | الفصل الرابع : الرسول وخبر قس بن ساعدة . |
| ٥٨٧ | الفصل الخامس : كعب بن زهير يعلن إسلامه : |
| ٥٨٩ | بيت زهير شعراء |
| ٥٩٠ | كعب يوبخ أخاه بجيرا |
| ٥٩١ | بجير يحض كعبا على الإسلام |
| ٥٩٢ | كعب يسلم وينشد قصيدته |
| ٦٠٤ | بين يدي القصيدة |
| ٦٠٧ | كعب يمدح الأنصار |
| ٦١١ | الفصل السادس : الصحابييات الشاعرات : |
| ٦١٣ | الخنساء |
| ٦١٨ | صفية بنت عبد المطلب |
| ٦٣١ | نعم امرأة شماس بن عثمان |
| ٦٢٣ | قتيلة بنت النضر |
| ٦٢٤ | الشيء بنت الحارث |
| ٦٢٦ | هند بنت أثاثة |
| ٦٢٩ | الفصل السابع : الشعر في عام الوفود : |
| ٦٣١ | تمهيد |
| ٦٣٢ | وفد بنى تميم |
| ٦٣٨ | وفود الجارود بن المعلى وسلمة بن عياض |
| ٦٤٣ | الفصل الثامن : شعر الغزوات والسرايا : |
| ٦٤٥ | الشعر في غزوة بدر |
| ٩٣٩ | |

| | |
|-----|--|
| ٦٥٤ | الشعر في غزوة الخندق |
| ٦٦٤ | الشعر في غزوة مؤتة |
| ٦٧٠ | الشعر في فتح مكة |
| ٦٨٣ | الفصل التاسع : مرثى شعراء الرسول شهداء الغزوات : |
| ٦٨٥ | رثاء شهداء أحد |
| ٦٩٧ | رثاء شهداء مؤتة |

الباب العاشر

الأنواع البلاغية في كلام الرسول

| | |
|-----|---------------------------------|
| ٧٠٩ | الفصل الأول : المعانى : |
| ٧١١ | تمهيد |
| ٧١٥ | الإيجاز |
| ٧١٨ | الإطناب |
| ٧٢٢ | الإبهام والتفسير |
| ٧٢٧ | الفصل الثاني : البيان : |
| ٧٣٠ | التمثيل والمثالة في كلام الرسول |
| ٧٤٠ | التشبيه في كلام الرسول |
| ٧٤٤ | المجاز في كلام الرسول |
| ٧٥٢ | الاستعارة في كلام الرسول |
| ٧٦٦ | الكناية في كلام الرسول |
| ٧٧١ | الفصل الثالث : البديع : |
| ٧٧٢ | علم البديع |

| | |
|-----|-----------------------|
| ٧٧٣ | المحسنات اللفظية |
| ٧٧٣ | السجع |
| ٧٨٠ | التجنيس أو الجناس |
| ٧٨٠ | الجناس التام |
| ٧٨١ | الجناس الناقص وأنواعه |
| ٧٨٤ | المحسنات المعنوية : |
| ٧٨٤ | الطباق والمقابلة |
| ٧٨٧ | لزوم ما لا يلزم |
| ٧٨٨ | الإرصاد |
| ٧٨٩ | اللف والنشر |
| ٧٩٣ | مراجع الكتاب |

الفهارس

| | |
|-----|-----------------------|
| ٨٠٩ | فهرس الآيات |
| ٨١٩ | فهرس الأحاديث |
| ٨٥٣ | فهرس الأعلام |
| ٨٩٧ | فهرس القبائل والأجناس |
| ٩٠٧ | فهرس القوافي |
| ٩١٥ | فهرس الأماكن والبلدان |
| ٩٢٩ | فهرس الموضوعات |

